

# الأويغور

UYGHURS

(تاريخ الأتراك في آسيا الوسطى وحضارتهم)

تورغون ألماس

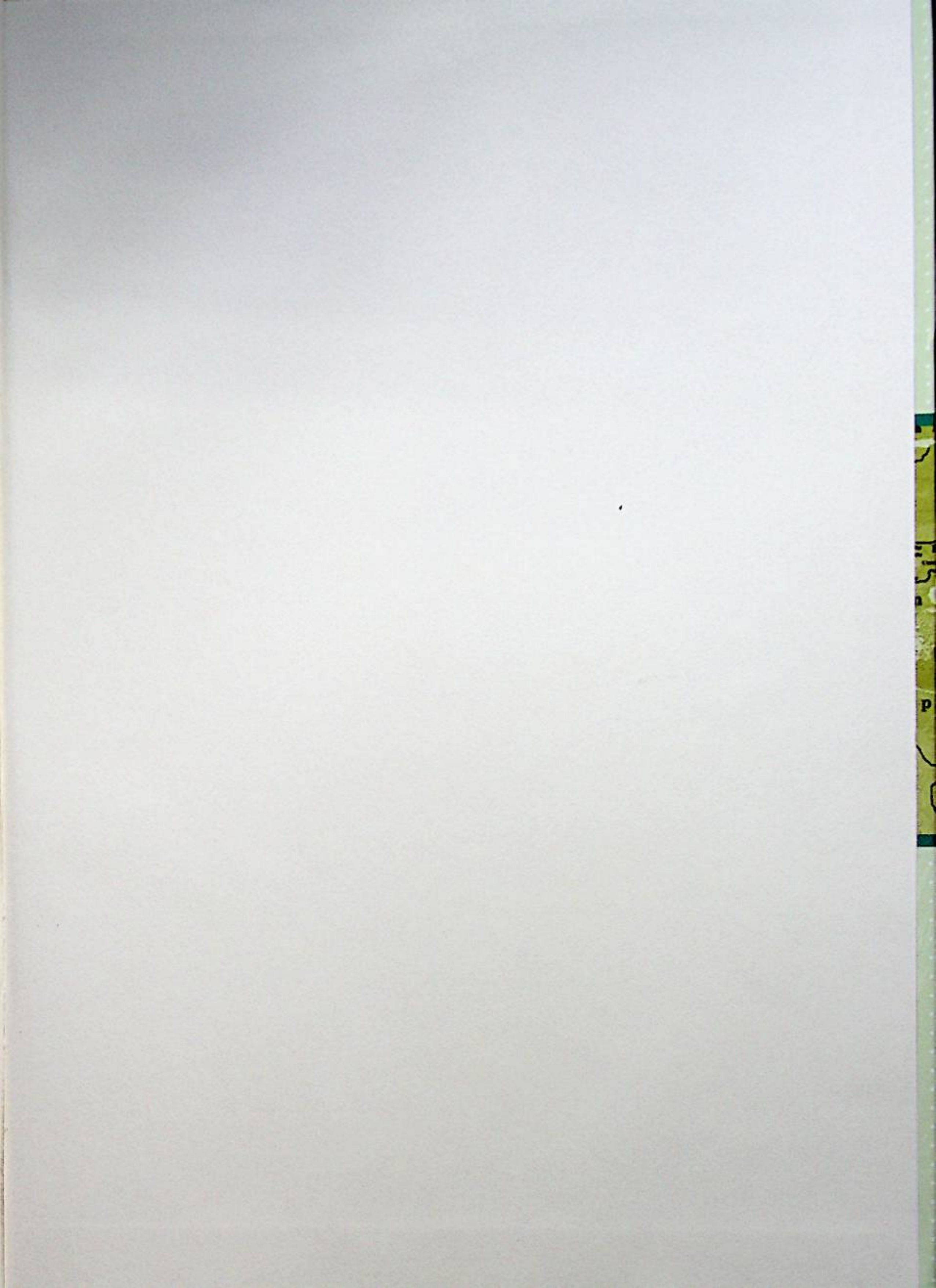


ترجمه إلى العربية

تحت إشراف

الأستاذة الدكتورة ماجدة مخلوف

دار تكلماكان الأويغوري

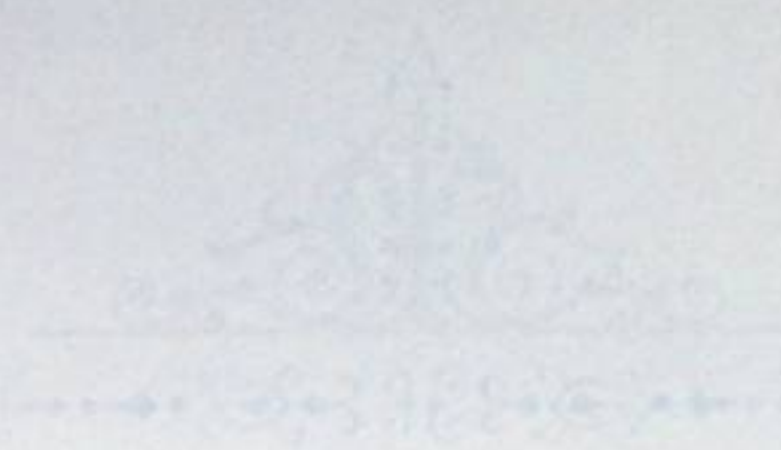




# الأويفور

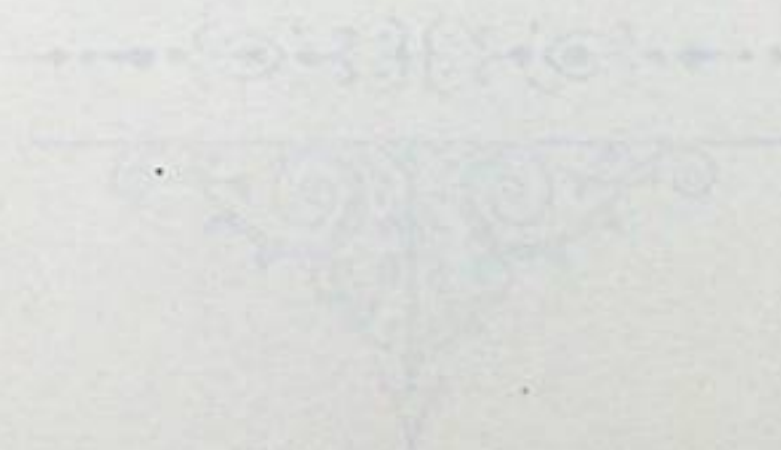
(تاريخ الأتراك في آسيا الوسطى وحضارتهم)



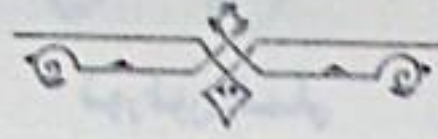


# بمفهوم

(مؤلفه راجعة الى ابي ابي طالب عليه السلام)



تورغون آلماس  
TURGHUN ALMAS



# الأويغور UYGHURS

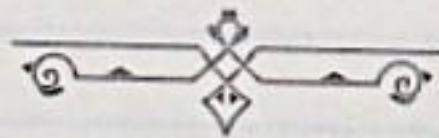
(تاريخ الأتراك في آسيا الوسطى وحضارتهم)



ترجمه إلى العربية

تحت إشراف

الأستاذة الدكتورة ماجدة مخلوق



دار تكلمما كان الأويغوري

تورغون ألمان

## الأويغور

(تاريخ الأتراك في آسيا الوسطى وحضارتهم)

ترجمه إلى العربية

تحت إشراف

الأستاذة الدكتورة ماجدة مخلوق

اشترك في الترجمة

د. محمد جاد (عليه رحمة الله)

د. مياده احمد

د. اسلام صالح

أ. نعمة جبلي

الطبعة الأولى

٢٠١٨

الترقيم الدولي: ٩٧٨٦٠٥٤٩٤٤١٤٩

دار تكلماكان الأويغوري

اسطنبول - تركيا

# الفهرس

تورغون ألماس ..... ٥

المقدمة ..... ٧

## القسم الأول: سلطنة أورخون الأويغورية

الفصل الأول: الوطن الأم للأويغور ..... ١٣

المصادر التاريخية المكتوبة ..... ٢٠

الفصل الثاني: الأصل العرقي للأويغور ..... ٣٧

الأساطير والروايات ..... ٣٨

طوغم الذئب ..... ٤٧

الوثائق التاريخية ..... ٥٣

الفصل الثالث: الأويغور قبل سلطنة أورخون ..... ٦٢

الهون والأويغور ..... ٦٢

السياني والأويغور ..... ٩٢

الآوار والأويغور ..... ١٠٠

الكوك تورك والأويغور ..... ١١٠

الفصل الرابع: تأسيس سلطنة أورخون الأيغورية ..... ١٣٢

«توميد أولغ إلتبر» ..... ١٣٢

سلطنة الأويغور والأترك ..... ١٣٣

الفصل الخامس: سلطنة أورخون الأويغورية وأسرة «طانغ» ..... ١٤٦

قوتلق بيلكه قاغان ..... ١٤٦

تمرد «اونلق» (ان لوان) ..... ١٤٩

الفصل السادس: الحرب مع التبت ..... ١٥٦

إرسال أميرات الصين للزواج من سلاطين الأويغور ..... ١٥٨

تجارة الخيول والحرير بين الأويغور والصينيين ..... ١٦٧

الفصل السابع: سلطنة الأويغور والتبت ..... ١٧٢

١٧٢.....	العلاقات بين التبت والأويغور.....
٤٧١.....	حملات «آي تنكري - خان».....
١٧٧.....	هجرة أويغور الشرق.....
١٨٠.....	عاقبة الأويغور الفارين نحو الجنوب.....
١٨٥.....	<b>الفصل الثامن: الاقتصاد والثقافة في عهد سلطنة الأويغور</b> .....
١٨٥.....	البنية الاجتماعية ومؤسسات الدولة.....
٢٠٧.....	شجرة النسب.....

## القسم الثاني : القراخانيون

٢١٩.....	<b>الفصل التاسع: آسيا الوسطى قبل الدولة القراخانية الأويغورية</b> .....
٢١٩.....	الخصائص الطبيعية.....
٢٢٣.....	آسيا الوسطى في عهد الأكنيديين.....
٨٢٢.....	الغزاة المقدونيون وآسيا الوسطى.....
٢٣٥.....	آسيا الوسطى في عهد الهون والكوشان والآقهون.....
٢٤٣.....	آسيا الوسطى والعرب.....
٢٤٤.....	وشبه الجزيرة العربية هي مهد الدين الإسلامي.....
٢٥١.....	<b>الفصل العاشر: قيام الدولة القراخانية</b> .....
٢٥١.....	الباغما.....
٢٥٤.....	«كل يملكه قراخان» وأبناؤه.....
٢٥٩.....	ساتوق بوغراخان واعتناق الأويغور الإسلام.....
٢٧١.....	<b>الفصل الحادي عشر: السامانيون والقراخانيون</b> .....
٢٧١.....	الدولة السامانية.....
٢٧٢.....	تحرك القراخانيين ضد السامانيين.....
٢٨٢.....	<b>الفصل الثاني عشر: الغزنويين والقراخانيون</b> .....
٢٨٢.....	سلطنة غزنة.....
٢٨٦.....	حروب القراخانيين والغزنويين.....
٢٩٠.....	خوارزم من زاوية القراخانيين والغزنويين.....
٢٩٣.....	السلطان يوسف قادرخان ومحمود الغزنوي.....
٣٠٢.....	انقسام القراخانيين.....
٣٠٧.....	<b>الفصل الثالث عشر: دولة السلاجقة الكبار</b> .....
٣٠٧.....	موقعة دندانقان.....



١١٣	..... «طغرل بك» (١٠٤٠م - ١٠٦٣م)
٣١٦	..... السلطان آلب أرسلان
٣٢٠	..... السلطان ملكشاه
٣٢٥	..... <b>الفصل الرابع عشر: الكيدانيون والقراخانيون</b>
٣٢٥	..... نشأة الكيدانيين
٣٢٧	..... <b>الفصل الرابع عشر: القراخانيون الشرقيون والكيدانيون</b>
٣٢٧	..... أصل الكيدانيين
٣٣٠	..... القراخانيون الغربيون والكيدانيون
٣٤١	..... <b>الفصل الخامس عشر: إدارة الدولة عند القراخانيين</b>
٣٤١	..... طبقة الحكام
٣٤٩	..... النظام الحربي
٣٥٩	..... <b>الفصل السادس عشر: الثقافة في زمن القراخانيين</b>
٣٥٩	..... العلماء بناء الحضارة
٣٦٢	..... النهضة الأدبية
٣٦٤	..... يوسف خاص حاجب
٣٦٨	..... محمود الكاشغري
٣٧٢	..... ويقول الكاشغري عن سبب تدوين كتابه
٣٧٥	..... أسباب النهضة الثقافية في عهد القراخانيين

### القسم الثالث: سلطنة إديقوت الأوغورية

٣٨٧	..... <b>الفصل السابع عشر: تأسيس إمارة إديقوت الأوغورية</b>
٣٨٧	..... وهجرة الأوغور الشرقيين إلى الغرب
١٩٣	..... بانتكين
٣٩٥	..... <b>الفصل الثامن عشر: القراخانيون وسلطنة إديقوت الأوغورية</b>
٣٩٩	..... <b>الفصل التاسع عشر: سلطنة إديقوت الأوغورية وإمبراطورية سونغ</b>
٤٠٧	..... <b>الفصل العشرون: دخول إمارة إديقوت الأوغورية تحت حكم الكيدانيين الغربيين</b>
٤١٠	..... <b>الفصل الحادي والعشرين: المغول وإمارة إديقوت الأوغورية</b>
٠١٤	..... چنكيزخان و«بارجوق آرت تكين»
٤١٣	..... حملات المغول على الشرق والغرب
٤٣٢	..... دووا - خان وقوجيغار تكين
٤٣٦	..... نهاية سلطنة إديقوت

٤٣٧.....	<b>الفصل الثاني والعشرون : دور الأويغور في إمبراطورية المغول</b>
٤٤٣.....	<b>الفصل الثالث والعشرون: الإقتصاد في سلطنة إديقوت</b>
٤٤٣.....	الزراعة
٤٤٤.....	الصيد وتربية الحيوان
٤٤٥.....	التجارة والفنون
٤٤٧.....	مستوى الرفاهية الإجتماعية
٤٤٩.....	<b>الفصل الرابع والعشرين: الثقافة في عهد سلطنة إديقوت</b>
٤٤٩.....	العمارة
٤٥٢.....	الأدب
٤٥٦.....	الفنون
٤٥٩.....	<b>الفصل الخامس والعشرون: إمارة أويغور قانصو</b>
٤٥٩.....	قيام إمارة أويغور قانصو
٤٦٢.....	<b>الفصل السادس والعشرون: قوة سلطنة أويغور قانصو</b>
٤٦٤.....	الحروب بين سلطنة أويغور قانصو والطانغوت
٤٦٩.....	علاقات التجارة الخارجية لسلطنة أويغور قانصو

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

### تورغون ألماس

ولد «تورغون ألماس» في كاشغر عام ١٩٢٤م، وتوفي في «أورومچي» في الحادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١م. وبعد أن أنهى ألماس تعليمه الابتدائي في «كاشغر» استقر مع عائلته في غولجا سنة ١٩٣٧، ثم أتم تعليمه الثانوي في معهد المعلمين في أورومچي، ثم تخرج فيما بعد من كلية الألسن والآداب. عاش المؤلف حياة في غاية الاضطراب، وساء حاله بسبب الاضطهاد السياسي والنفي إلى خارج البلاد، وظل في السجن فترة طويلة بين عامي ١٩٤٠، ١٩٧٠م.

وبينما كان مؤلفنا يعمل في حقل التدريس، اعتقله «كومينتانغ» (البرجوازية) سنة ١٩٤٢. ورغم إطلاق سراحه في سنة ١٩٤٦، فقد تمت مدهامة بيته وحبسه في السجن العسكري في محافظة يني شهر بكاشغر. وبعد إطلاق سراحه في الثامن من إبريل سنة ١٩٤٩ عاد إلى أورومچي، وعُيّن في اتحاد الثقافة الأويغوري الثاني، ثم عمل في العام نفسه ناشرا لمجلة alga (الثورة) في غولجا. كما عمل مديرا لمديرية الأمن في «كاشغر» و«أورومچي» بين عامي ١٩٥٠، ١٩٥٣، وبعد ذلك ترك هذه الوظيفة وعمل مترجما ورئيس تحرير في اتحاد الكتاب في مقاطعة الأويغور ذات الحكم الذاتي، ثم اعتقلته الحكومة الصينية الشيوعية مرة

أخرى في شهر أغسطس سنة ١٩٧٠، وأجبر على العمل في مناجم الفحم على مدار سبع سنوات في ظروف بالغة الصعوبة. وبعد إطلاق سراحه بدأ في كتابة مؤلفاته وكتب أشعاراً كثيرة جداً كانت بداياتها تحت اسم «الأسير» و«جسمي ورق شجر» و«من أجل الوطن الأم» ثم دعا الشعب الأويغوري إلى الكفاح ضد الإدارة العامة.

وفضلاً عن مؤلفاته الأدبية، كتب تورغون ألماس المقالات العلمية الكثيرة ومؤلفات عديدة مثل «مختصر تاريخ الهون»، و«الأويغور» و«سلطنة إيديقوت الأويغورية» و«تاريخ الأويغور القديم».

وبعد نشر كتاب «الأويغور» الذي بين أيدينا صودرت كل مؤلفاته بقرار الحكومة الصينية وتعرض للاعتقالات السياسية المجحفة، وفي النهاية فارق الحياة في الحادي عشر من سبتمبر سنة ٢٠٠١.

## المقدمة

فى ظننا أن القسم الأعظم من كتب التاريخ فى العالم، كُتب عن الأتراك والشعوب التركية، ولهذا أسبابه. وقد نُشرت وسوف تنشر مؤلفات عديدة بلغات كثيرة، عن الأويغور الذين يتبوأون مكانة مهمة جداً بين الشعوب التركية.

وقد نشرت فى تركيا بعض الأبحاث المتعلقة بالأويغور والدول الأويغورية التى تشكلت عبر التاريخ. وقسم من هذه الأبحاث يتعلق بالأويغور، والقسم الآخر عبارة عن فصول تحتل مكانها داخل كتب التاريخ الأخرى. وفى الصين أيضاً، أجرى مؤرخون صينيون أبحاثاً عن الأويغور، وكان من الطبيعى الا تلق هذه الأبحاث اهتماماً من الأويغور لكونها تعكس الرؤية الرسمية للصين. وهذا الكتاب الذى بين أيديكم هو أهم ما كتبه المؤرخون الأويغور، بعد «تاريخ التركستان الشرقية» لمحمد أمين بُوغرا.

وهذا الكتاب الذى كتبه تورغون ألماس اعتماداً على المصادر الصينية لكونها مصادر لها وزنها إلى جانب المصادر الروسية والمؤلفات المترجمة عن اللغات الأوروبية، فضلاً عما هو مكتوب بلهجات تركية مختلفة، هذا الكتاب أزعج المسئولين الصينيين بدرجة لا يستهان بها، وتم منعه فى الصين. ذلك لأن ما رواه تورغون ألماس فى هذا الكتاب لم يتطابق مع ما رواه المؤرخون الصينيون.

وكتاب «تورغون ألماس» هذا الذى بين أيديكم، ترجمه حامد حمراييف إلى اللغة الروسية.

إن تحليلات تورغون ألماس للشخصيات التركيبية التاريخية في المصادر الصينية القديمة تختلف على وجه العموم مع تحليلات المؤرخين الأتراك والروس والغربيين. وعلى سبيل المثال فإن تورغون ألماس حينما يتحدث عن أقوام الهون فإنه لا يستخدم على الإطلاق اسم «مته» أو «ماوون». ويستخدم بدلاً منه اسم باتور تانريقوت الذي يبدو عندما نقرأ تاريخ «أسرة هان» أنه كان محققاً في هذا، إذ يرى الأويغور أنفسهم أحفادا مباشريين للهون، وهذه هي الحقيقة التاريخية. وخير مثال على هذا أن محمود الكاشغري في كتابه [ديوان لغات الترك] لم يتكلم عن السلاجقة مطلقاً. رغم أنه تكلم كثيراً عن القراخانيين، وذلك بسبب أن الأويغور يرون أنفسهم أحفادا لأفراسياب.

وإذا كان عدم تخرج «تورغون ألماس» من نظام أكاديمي بالمعنى الحقيقي قد تسبب في كثير من التكرار في كتابه دون ضرورة ملحة، فقد حرصنا على ألا يشعر القارئ بهذا في هذه الترجمة. وحسبنا أن الآراء التي أوردها الكاتب وكذلك تحليلاته المختلفة والمتميزة وبراهينه التي تدحض ما هو محفوظ في الذاكرة، تجعلنا نضع هذا الكتاب بين المصادر الأساس من الدرجة الأولى أكثر من كونه بحثاً أكاديمياً متفرداً. ومع ذلك فليس بوسعنا أيضاً أن نوافق الكاتب في كل آرائه. لكنني أظن أن آراءه المختلفة ستوضع في عين الاعتبار من جانب المؤرخين الأتراك، وستكون موضوعاً للمناقشات.

إن الكاتب حينما كان يكتب أسماء الحكام الهون والكوك ترك والأويغور وألقابهم، لم يراع على وجه العموم الدقة في ترجمتها الموجودة بالصينية واللغات الأوروبية. وبما أن هذا سوف يسبب بعض المشاكل للقراء الذين يحققون تاريخ الأتراك القديم والعام على أساس الترجمات الموجودة في المصادر الروسية والغربية والصينية، فقد وجدنا من المناسب وضع الترجمة الغربية للعديد منها بين (حاصرتين) ونحن مسئولون عنها كاملة. وفضلاً عن ذلك كان ينبغي وجود بعض الخرائط على الأقل في الكتاب، لذا رأينا أن عدم وضع خريطة واحدة هو نقص

اجتهدنا فى تلافيه.

\*\*\*\*\*

إن تركستان الشرقية والأويغور الذين صاروا نهبة للصين من جراء الكوارث التى حلت بالعالم التركى، هم واحد من بين العديد من الدول والعديد من الشعوب التى لازالت رسمياً تحت سيطرة الاستعمار فى يومنا هذا،

أما الحكام الموجودون على رأس الجمهوريات التركية. التى تعانى كل منها ألمها، فإنهم وبالأسف لا يريدون حتى أن يتذكروا وجود تركستان الشرقية.

إن ضعف رد الفعل البادى فى تركيا إزاء المظالم التى اقترفتها الصين فى تركستان الشرقية العام المنصرم، لهو أكبر نموذج وأكبر مثال على هذا. إن الفريق الشكلى والمنافق ومن يمثله من السياسيين والذين يظنون أن الإسلام يعنى الوضوء والصلاة، بينما ينامون مع الفلسطينيين ويستيقظون معهم، فاتهم سماع صراخ المسلمين فى تركستان الشرقية. لأن تركيتهم حسب قولهم لا تساوى خمسة قروش، أما إسلامهم فسطحي. وعالمهم المظلم أصلاً هو اللحية والملاءة والحجاب والدوران مع فلسطين...عندما نسال عن سبب اهتمامهم الزائد بفلسطين يقولون إنهم بوصفهم مسلمين مجبرون على الاهتمام بالأمهم لكونهم مسلمين... حسن جداً... إننا حتى لو نحينا كونهم أتراكا جانبا، أليس الناس فى تركستان الشرقية مسلمين وفوق ذلك فكلهم سنيون أحناف. وهم يشكون من أن الغرب يطبق سياسة الكيل بميكالين إزاء تركيا لكنهم رغم ما فى أيديهم من سلطة سياسية وإمكانات مادية عملاقة، يطبقون نفس سياسة الكيل بمكيالين فى موضوع تركستان الشرقية، لدرجة أن أحد زعماء الطرق الصوفية قدم فى الجريدة وقنوات التلفاز التى يمتلكها فى تركيا، أخبارا صادمة تتعلق بموضوع تركستان الشرقية لأنه كان يفكر أنه ربما يضطر إلى الاستقرار فى الصين فى يوم ما، لذا

فضل أن يظهر الصين كصاحبة حق. ويا أسفاه فإن الشبان الأويغور الذين ذهبوا من تركستان الشرقية إلى تركيا للدراسة، هم اليوم فى موقف من وقعوا فى قبضتهم.

ونعتقد أن مصطفى كمال أتاتورك، جانبه الصواب عندما أطلق على هذه الدولة اسم الجمهورية التركية، ونتصور أن أفضل اسم يطلق على هذه الدولة حينذاك وفى تلك الظروف هو «تركستان الغربية» ولو كان هذا قد تم آنذاك وليس الآن، لكان من السهل أن تتحد تركيا مع آذربيجان وآذربيجان الإيرانية وقطاع شمال العراق وتقوم «تركستان الغربية» التى تستوعب داخلها مساحة جغرافية واسعة حتى بحر الخزر. ولو أن اسم الدولة التى نعيش داخل حدودها فى يومنا هذا هو «تركستان الغربية»، لشكلت نموذجاً لقيام تركستان شرقية التى تستوعب داخلها إخواننا الذين يعيشون فى الجانب الآخر من الخزر؛ تركمانستان وأوزبكستان وقازاقسان وقيرغيزستان وبالأحرى أويغورستان، ولأصبحت عاملاً مشجعاً.

والتاريخ التركى مليئ بنماذج كهذه. فقد انقسمت دولة الهون إلى دولتين، دولة الهون الجنوبية، ودولة الهون الشمالية (أو الشرقية والغربية) كذلك انقسمت دولة «الكوك ترك» إلى دولتين هما «دولة الكوك» ترك الشرقية والغربية وغير ذلك. ولا ينبغى أن ينسى من يدعون أن القرن الواحد والعشرين سيكون قرن الأتراك، أنه يمكن تكوين دولتين قويتين وكبيرتين لا يمكن ابتلاعهما؛ تركستان الشرقية و تركستان الغربية، وليس سبع دول هزيلة ضعيفة مفصولة عن بعضها مهياة للإبتلاع، ويجب أن يعلم المثقفون الأتراك الذين يحلمون بالوحدة التركية أن الشعوب التركية التى تستحوذ على رقعة شاسعة لا يمكن تحويلها إلى كتلة واحدة، بل اعتقد أنه سيكون من الأسهل تقسيمها إلى اتحادين منفصلين وفى صورة كتلتين (مركزهما أنقرة وطاشكند). ويجب ألا ننسى أنه مهما كانت الأسباب التاريخية فإن السبب الأصلي الذى ارتكز عليه انقسام «الهون» و«الكوك ترك» و«السلجقة» هو امتلاكهم لمساحة شاسعة لم يكن من الممكن إدارتها من مركز واحد. والادعاء بأن العثمانيين كانوا



وحدهم أصحاب مساحة شاسعة بالمعنى الحقيقي، ليس شيئاً مختلفاً عما نتوهمه، ذلك لأن سيطرة العثمانيين على شمال أفريقيا ومصر وليبيا كانت رمزية فحسب، وعندما بدأت الثورات لم يتمكن العثمانيون من فعل شيء.

ويرى البعض وجهة نظري هذه مثالية مبالغاً فيها، لكن؛ ألا يجب على الأقل في مرحلة تحاول فيها القوى العظمى أن تضعنا في القلب الذي تريده كما تشكّل الشمع، ألا يجب علينا أن نسبق نحن ونحيي مشاريع عالمنا الخاص بنا ونصوغ أنفسنا في قالب مختلف.

و يجب ألا ننسى أن اليهود في الأيام التي تملكهم فيها حلم الدولة التي فكروا في إنشائها في فلسطين سألوا أنفسهم سؤالين؛ إذا لم ننفذ هذا اليوم فمتى ننفذه؟ وإذا لم نفعل هذا نحن، فمن الذي سيفعله؟

د. أحسن باتور

Dr.Ahsen Batur



## القسم الأول: سلطنة أورخون الأويغورية

### الفصل الأول: الوطن الأم للأويغور

لا جدال في أن الوطن الأم للأويغور [أي موطنهم الأصلي]، هو آسيا الوسطى. لكننا - قبل التوقف عند هذا الموضوع بطريقة أكثر تفصيلاً، يجب أن نوضح الحدود الجغرافية لمصطلح آسيا الوسطى.

فرغم أن علماء الشرق والغرب لم يتوصلوا إلى اتفاق حول الحدود الجغرافية للمنطقة المسماة آسيا الوسطى، فإنه يمكن تقسيم هذه المنطقة، اعتماداً على بعض الآراء التي لها وزنها.

يقسم الجغرافيون قارة آسيا إلى ثلاثة أقسام، شرق آسيا، ووسط آسيا، وغرب آسيا. وفي رأينا أن وسط آسيا تشمل المنطقة الممتدة من جبال «هنجان» (شانج - باي - شان) في الشرق، حتى بحر الخزر في الغرب، ومن جبال «ألطاي» في الشمال حتى جبال «الهimalايا» في الجنوب. ومركز هذه المساحة الجغرافية الشاسعة هو تركستان الشرقية، و«يدي صو» (في قازاقستان)، وأوزبكستان وقرغيزستان وطاجيكستان.

لقد عاش الأويغور منذ أزمنة سحيقة في حوض نهر تاريم الواقع بين جبال «طانري» وجبال «قره قوروم»، وحوض نهر «جونغار» الواقع بين جبال «طانري» وجبال «ألطاي»، و«وادي إيلي»، وفي الأراضي الواقعة بين «نهر إرتش» و«بحيرة بايقال»، بجوار أنهار «سلانكا وأورخون وطوغلا وكورولون» الواقعة داخل حدود منغوليا الحالية في سيبيريا

الجنوبية، وفي «قانسو» وفي المناطق الشمالية من ولايات «سان - شى» و «سن - شى» الحالية.

لقد اخترعت الكتابة قبل ٦٠٠٠ عام، فى بلاد الرافدين التى هى من أقدم مراكز الحضارة العالمية. وكان المؤرخون اليونانيون القدامى قد أطلقوا اسم بلاد الرافدين على الأراضى الواقعة فى العراق بين الفرات ودجلة، وكلمة «مازوتاميا» اليونانية هذه تعنى «بين النهرين»، ونهرا دجلة والفرات اللذان ينبعان من داخل حدود تركيا وينتهيان فى خليج البصرة، والأراضى الواقعة حولهما هى أراض فى غاية الخصوبة وهما يساعدان تماما على قيام الزراعة. وسكن فى الوادى الواقع بين هذين النهرين حينذاك، «السومريون» الذين اخترعوا الكتابة، وقد بدأ تاريخ مصر وشعوب الشرق الأدنى مع اختراع الكتابة.

أما تاريخ أجدادنا فقد بدأ قبل الميلاد بألفى عام، عندما بدأ أجدادنا فى استخدام الأبجدية الأرامية استفادوا من الكتابة التى اخترعها السومريون، أما التشابه القائم بين أبجدية «الصغد» وأبجدية «الكوك ترك» (الأبجدية الأرمنية الأوغورية)، فسببه أن كلا منهما عبارة عن شكل مختلف للأبجدية الأرامية.

لقد أقام أجدادنا وأهلونا عبر المرحلة التاريخية الطويلة الممتدة من عصر التاريخ المكتوب وحتى القرن السابع عشر، أقاموا دولاً قوية مثل إمبراطورية «الهون» (٢٢٠ ق.م - ٢١٦م)، وإمبراطورية «هون أوروبا» (٣٧٥ - ٦٤٨م)، وإمبراطورية «الاق هون» (٤٢٠ - ٥٦٥)، وسلطنة «الكوك ترك» (٥٥١ - ٧٤٥م)، وسلطنة «أورخون الأوغورية» (٦٤٦ - ٨٤٥م)، وسلطنة «ايديقوت الأوغورية» (٨٥٠ - ١٣٣٥م)، و«الدولة القراخانية» (٨٥٠ - ١٢١٢م)، و«الدولة الغزنوية» (٩٦٠ - ١١٨٧م)، و «دولة السلاجقة» (١٠٤٠ - ١١٥٧م) و«الدولة الخوارزمية» (١١٧٢ - ١٢٣١م)، و«السلطنة السعيدية» (١٥٠٤ - ١٦٧٨م) وقدموا اسهامات جلية لتاريخ الإنسانية.

واعتماداً على النتائج الجيولوجية والأثرية، سنحاول إثبات أن الموطن الأم للأويفور هو آسيا الوسطى.

رغم أن آسيا الوسطى هي الموطن الأم للأويغور منذ الزمن السحيق، فإنها في نفس الوقت، أحد المهدود الذهبية للحضارة العالمية، ولهذا السبب قال المؤرخ مورجان «لقد دفن مفتاح الحضارة العالمية في حوض «نهر تاريم»، وحينما نعثر على هذا المفتاح سوف ينكشف سر الحضارة العالمية».

لقد فضل الإنسان على مدار تاريخ البشرية السكنى في سفوح الجبال المغطاة بالأنهار والبحيرات والبحار والغابات والبراري والأشجار حتى يحافظ على مقومات حياته واحترف الناس حرفاً مختلفة مثل الصيد والرعي والزراعة والأشغال اليدوية والتجارة وفق حالة الترحال أو التوطن، وبما يتوافق مع ظروف المنطقة التي عاشوا فيها. وإذا نظرنا من الناحية الجيولوجية فإن آسيا الوسطى كانت تمتلك الظروف الجغرافية التي تضمن حياة البشرية منذ أقدم العصور.

ونتيجة للأبحاث الجيولوجية التي أجريت في تركستان الشرقية (شنجيانغ)، فقد اكتشفت في حوض «نهر تاريم» وحوض «نهر جونغار» منذ فترة وجيزة، آبار للبتروول مدهشة من حيث الجودة والكمية. وبكلمة واحدة فإن تركستان الشرقية التي مجموع مساحتها مليون وستمئة ألف كم مربع هي مصدر ثروات طبيعية نفيسة مثل البتروول والفحم، وكذلك اليورانيوم والراديووم النادرين جداً في العالم وثرواتها فوق الأرض وتحت الأرض.

وتثبت وفرة الغاز الطبيعي والبتروول في أراضي تركستان الشرقية أن حوض نهر جونغار وحوض نهر تاريم، كانا بحاراً داخلية كبيرة في الأزمنة الغابرة، وأنها كانت مغطاة بجبال وسفوحها غطاء بغابات كثيفة، ونتيجة للتغيرات الطبيعية، تضاءل البحران الداخليان الكبيران في منطقة تركستان الشرقية واتسعت الأراضي. فبحيرات «صايرام» و«باغراش» و«لوب نور» الحالية هي بحيرات صغيرة تخلفت عن البحار الداخلية التي كانت في العصور القديمة. ونتيجة لتحول البحر إلى يابسة فقد دفنت الأحياء المائية في اليابسة وتحولت عبر ملايين السنين إلى بتروول، وكذلك

دفنت الأشجار التي لا حصر لها والتي تغطي الجبال حولت بعد آلاف السنين إلى فحم.

ولم يكن المناخ الطبيعي للقسم الغربي من آسيا الوسطى في الأزمنة القديمة، يختلف كثيرا عما ذكرناه سالفاً.

ووفقا لما أسفرت عنه الأبحاث الجيولوجية، فإن المنطقة الشمالية لقارتي آسيا وأوروبا، كانت في الزمن القديم مغطاة بالثلج مما أثر بشكل جدي في مناخ وسط آسيا، وبسببها كانت قمم «جبال البامير»، و«قره قورم» و«طانري» و«الطاي» في آسيا الوسطى مغطاة بطبقة كثيفة من الثلج والجليد بدرجة لا يمكن مقارنتها بوضعها الحالي.

وأحد الأماكن الثلجية في البامير حالياً، يبلغ طوله حالياً سبعا وسبعين كيلو متراً، ويصل سُمكه إلى خمسمائة متراً. أما في ذلك الزمان القديم فقد كان طوله مائة وثمانية كيلومتراً وسُمكه ألف متر، وكان الحد الأدنى لهذه الأماكن الثلجية في آسيا الوسطى يرتفع ثلاثة آلاف ومائتي متر عن سطح البحر.

وكان المناخ الطبيعي لوسط آسيا قبل عشرات الألوف من السنين، أمطاره أكثر غزارة، وأكثر رطوبة، مما هو عليه اليوم، ولهذا السبب فإن المياه الناتجة عن ذوبان القمم المغطاة بالجليد والثلوج في جبال آسيا الوسطى في العصور القديمة بتأثير حرارة الشمس، أوجد الأنهار غزيرة المياه والبحار الداخلية الكبرى والبحيرات. وكونت هذه الظروف الطبيعية، بيئة خصبة للزراعة والرعي، كما أدت إلى تكون الغابات وتربية الحيوانات. والقسم الشرقي من آسيا الوسطى (حوض نهر تاريم على وجه العموم)، والقسم الغربي من آسيا الوسطى السوفيتية هي أكثر الأراضي الآسيوية خصوبة. وحينئذ لم تكن «صحراء تكلامكان» في حوض «نهر تاريم»، و«صحراء «قربان طونغوت» في حوض «نهر جونغار»، و«صحراء «قيزيل قورم» في تركمانستان و«صحراوات قره قوم في اوزبكستان، لم تكن قد ظهرت بعد. وكانت بحيرات «صايرام»، و«لوبنور»، و«باغراش»، و«باركول»، و«بالقاش»، و«آرال» الحالية، أكبر مما هي عليه الآن، وأنهار «تاريم»

و«إيلي» و«جو» و«طلاس» و«سيرداريا» و«أموداريا» أغزر ماءً مما هي الآن، وكانت الأفرع التي تصب فيها تحيط آسيا الوسطى مثل الشبكة. وطبقاً للأبحاث التي قام بها علماء الجيولوجيا والآثار في المنطقة، فإنه قد حدثت تغيرات كبرى في مناخ آسيا الوسطى قبل حوالي ثمانية آلاف عام، وحدث القحط؛ ولهذا السبب إضطر قسم من أجدادنا للهجرة إلى مناطق شرق آسيا وغربها، فهاجر قسم من أجدادنا الذين كانوا يعيشون قرب «واحة تاريم» آنذاك، إلى جبال ألطاي واستقروا حول بحيرة «بايقال» ومنغوليا الحالية. والأويغور الشرقيون الذين هاجروا سنة ٨٤٠م من منغوليا إلى منطقة تركستان الشرقية، هم في الأصل أحفاد أجدادنا الذين هاجروا من حوض نهر تاريم قبل ثمانية آلاف عام إلى أطراف بحيرة بايقال.

لقد كان لأجدادنا الذين هاجروا من حوض «نهر تاريم» إلى شمال الهند عبر طريق «لاداق» في الهجرة الكبيرة التي حدثت قبل ثمانية آلاف سنة،

هم و«الدارويديون» الذين يعدون الشعب الأصلي للهند، إسهامات كبيرة في تشكيل حضارة بلاد الهند. فمن خلال الأبحاث التي قام بها الأثريون في العشرينيات من القرن العشرين، في أطلال مدن قديمة مثل هارابا في وادي نهر «إندوس» (في ولاية البنجاب الحالية)، و«موهنجودارو» (في ولاية السند)، عثروا على تمثال شعره مربوط بخيط على النمط التركي في آسيا الوسطى. ويرجع هذا التمثال إلى الفترة التي عاش فيها أجدادنا الذين هاجروا من حوض نهر تاريم إلى شمال الهند قبل ثمانية آلاف عام، وعاشوا فيها مع «الداراويد» وهم الشعب أو السكان المحليون بالمنطقة، وذلك قبل عدة آلاف السنين من هجرة «الآريانيين» إلى الهند.

عثر مركز أبحاث أكاديمية البحوث الاجتماعية بـ «سينكيانج / شنجيانغ» على جثتي امرأة وطفل في مقبرتين قديمتين قرب نهر «كونجي» سنة ١٩٧١ ولقد أكدت كلية الجغرافيا بجامعة «نانجينغ» باستخدام عنصر

الكربون، أن هاتين الجثتين قد دفنتا قبل ٦٤١٢ سنة من هذا التاريخ، ونشر هذا الخبر في جريدة (الشعب)، كما نشر بجريدة «سينكيانج» في عدد باللهجة الأويغورية بتاريخ ٢٤ فبراير ١٩٨١؛ ومعه تعليق بأنه «تم استخراج هاتين الجثتين بحفر تلال «قوم» المرتفعة قليلا عن مستوى الأرض. وقد وضعت بين كل رأس في كل مقبرة من المقبرتين شجرة، وبرزت أطراف الشجرتين فوق الأرض، وقد حفرت المقبرة بشكل عمودي، ووضعت كل جثة منهما على الجانب الأيمن، ووضعت فوقها ألواح من الأشجار فوقها جلد غنم وحصير من القصب، ولف الجسدان في قطع من القماش الصوفي الغليظ، ووضع على رأس جثة المرأة عمامة صوفية [قالباق] والمرأة يمتد شعرها الأصفر الطويل حتى كتفها، وهي ذات عينين كبيرتين وأهداب طويلة وأنف مستقيم، كما يوجد ضمن الأشياء المدفونة مع الجثة؛ سلة من القصب المشغول بشكل جميل ووضعت داخل السلة بعض الحبوب لكن هذه الحبوب تحولت مع الوقت إلى تراب، أما في السلة القصبية المجاورة لجثة الطفل فكانت توجد حبات من القمح.

وهاتان الجثتان المكتشفتان لهما أهمية كبيرة عند دراسة الخواص العرقية والحضارية لأجدادنا أثناء الهجرة الكبرى التي وقعت قبل ثمانية آلاف عام قبل أن يتركوا أرضهم التي كانوا فيها ويضطروا إلى مواصلة حياتهم في حوض نهر تاريم.

ونستطيع أن نقول باطمئنان أن السكان المحليين القدامى الذين كانوا في حوض نهر تاريم (الذين هاجروا إلى الهند مروراً من فارس في حوالي ١٧٠٠ ق.م)

لم يكونوا ينتسبون إلى الجنس الأصفر أو الآريانيين، لأن السكان المحليين الذين عاشوا في تلك المنطقة كانوا أجداد الأويغور.

فقبل هجرة الآريانيين أجداد الشعوب الفارسية والألمانية والهندية الحالية من المناطق الجنوبية والجنوبية الشرقية من بحر الخزر إلى



الهند بين عامى ٢٠٠٠ - ١٧٠٠ قبل الميلاد، كان يعيش هناك الدراويديون ذوو الشعر الأسود والأنف الأفطس المنتسبون إلى الجنس الأسترالي الآسيوي الهندي. لقد دخل الآريانيون الهند وطردوا السكان المحليين إلى الجنوب، ولا زال أجدادهم يعيشون فى الجنوب إلى الآن. لقد لعبت أقوام الـ «شيانج» الذين هم أجداد التبتيين دوراً ملموساً فى بعض الحروب التى وقعت فى المناطق المتاخمة للتبتيين فى الجنوب وفى «كوك نور» (چنخهه) الواقعة فى جنوب شرق حوض نهر تاريم وذلك فى القرنين السابع والثامن الميلاديين. وعلاوة على ذلك فإن بعض المبشرين المنتسبين للشعوب التى انضمت إلى اللغات الهندوأوروبية (البوذيون والمجوس والمانيون والنسطوريون) والبعض القليل جداً من الناس من التجار وبعض العسكريين والموظفين الحكوميين، جاءوا إلى حوض تاريم فى السنوات الأخيرة قبل الميلاد والسنوات الأولى بعد الميلاد. وكانت العلاقات التاريخية والسياسية والاقتصادية والثقافية والدينية التى بين الدول، سبباً فى مجئ مثل هؤلاء إلى حوض نهر تاريم. مثال ذلك إمبراطورية «كوشان» (٥٠ ق.م - ٤٢٠ بعد الميلاد) التى حكمت الهند فى عهد «قانيشقا الثانى» (٧٨ - ١٢٣م)، وضممت إليها إمارت «خوتن» و«ياركند» و«كاشغر» قبيل أواخر حكمها. وكان «قانيشقا الثانى» من أسرة الياوجي العظام (دا يواجي)، ولم يكتف «قانيشقا» بكونه الحامى الأمين للبوذية، فبذل جهداً كبيراً لجعل الشعوب المختلفة التى تعيش داخل حدود إمبراطوريته، تعتنق البوذية. وهكذا جاء فى عهده كثير من البوذيين الهندود، ضمن الأويغور الذين فى حوض تاريم، ويمكننا القول أنه قد جاء إلى حوض نهر تاريم مع هؤلاء البوذيين كثير من الموظفين الذين يتحدثون التركية والهندية.

وخلافاً لذلك فإنه اعتباراً من عهد «أفختالانوس» إمبراطور الهون البيض، ظلت إمارات أويغورية مثل «خوتن» و«ياركند»، و«كاشغر» و«أقسو» و«كوچار» مرتبطة بإمبراطورية الهون البيض فى زمن حكام آخرين طوال سبعة وثمانين عاماً (٤٨٠ - ٥٦٧)، وفى نفس الوقت جاء

العديد من التجار والموظفين البوذيين الهنود إلى حوض نهر تاريم، بسبب وقوع الهند تحت حكم «الهون البيض»

في عهد «الكوشان» و«الهون البيض» الذين ذكرناهم سالفاً، شكّل النازحون من الهند إلى حوض نهر تاريم مجموعات صغيرة يمكن اعتبارها أقلية بين الأويغور الذين يعتبرون السكان المحليين لتلك المنطقة.

وفي الأزمنة القريبة كان الموتى (رجلا كان أو امرأة) في المقابر الموجودة قرب نهر كونجي وبعض الأماكن الموجودة في حوض نهر تاريم، وقرب جرجن وجارقيليق، يوسدون القبور وقد اتجه رأس الرجل أو المرأة ناحية الشرق وأقدامه إلى الغرب، فماذا أن يعنى هذا؟.

كان أجدادنا الأويغور في الأزمنة السحيقة على العقيدة الشامانية، والشامانيون بوجه عام يؤمنون بالهة الشمس والقمر والسماء والأرض والماء، وبموجب هذا النوع من عقائد الشامانيين كان أجدادنا يجعلون أبواب الخيام صوب مشرق الشمس، وكان سلاطين الترك والأويغور الشرقيون (سلطنة أورخون الأيغورية) في بعض الاحتفالات يجلسون ويولون وجوههم صوب الشمس، وكانوا يلقون التحية بانحناءة بالرأس تسع مرات. حتى أن أسماء السلاطين تعكس هذا النوع من التقاليد، وعلى سبيل المثال كان لقب «جونديخان» وهو من سلاطين أورخون الأويغور هو «كون تانرى ده اولوق بولمش ألب كوجل ك بيلكه سلطان». [ ويعنى السلطان بيلكه إله الشمس العظيم القوى ]

### المصادر التاريخية المكتوبة

تحتوى مؤلفات قدامى المؤرخين الصينيين واليونانيين الرومان والعرب وكذلك الرحالة، على بعض المعلومات الصريحة الموثوق بها عن الأماكن التى عاش فيها الأويغور.

ففى حين أن «سيماجين» وهو من المؤرخين الصينيين القدامى

(ولد عام ١٤٥ ق.م) بيّن في القسم المتعلق بالهون من كتابه المعنون بـ «شيه جي» أي «مذكرات تاريخية»، أن أجداد الأويغور هم أقوام «دينغ-لنغ»، أما «بانقو» (٣٢ - ٩٢م) فيذكرهم في الباب المتعلق بالهون من كتابه المسمى «هان-شو» باسم «دي-لي». وسواء اسم «دينغ-لنغ» الذي كتبه «سيماجين»، أو اسم «دي لي» الذي كتبه «بانقو»، فكلاهما ترجمة الصينية لكلمة «تورا»، وأقوام «تورا» المذكورة هم أجداد الأويغور الشرقيين الذين عاشوا قبل الميلاد بعده قرون قريباً من بحيرة «بايقال» الحالية، ونظراً لأن «سيماجين» و«بانقو» لم يكونا يمتلكا معلومات عن أقوام تورا الغربية التي كانت تعيش بجوار «بحيرة بايقال» و«نهر ارتش» قبل عدة قرون من الميلاد، فلا يوجد في كتابيهما شيء عن هذا الموضوع؛ لكن في مقابل ذلك نجد لدى كل منهما معلومات عن الأوغوز الذين عاشوا في نفس الفترة في حوض «نهر جونغار» الحالي. فكتب «سيماجين» اسم الأوغوز «هوجي»، بينما كتبه بانقو «ووجي». إن «الأوغوز» المذكور اسمهم هنا عاشوا في جنوب غرب جبال «الطاي» الحالية، وفي نواحي «جوجك» قبل الميلاد بعدة قرون.

ويقول عالم التركيات الأستاذ الدكتور ماجانغشو: أن هذا الشعب الذي يذكر باسم «ووخو» و «ووخو» في عهد أسرتي سوي وطانغ الحاكمين، والذي عاش في حوض «نهر جونغار»؛ هو شعب «الأوغوز»، وكان يقال عنهم في عهد أسرة «هان» الحاكمة (ووجي)٢.

وطبقاً للمعلومات التي أمدنا بها «بانقو» في الفصل الخاص بالهون من كتابه المسمى «هان-شو»، فإن «باتور تانريقت» سلطان الأوغوز (٢٠٩ ق.م-١٧٤ ق.م) و«سلطان امبراطورية الهون العظمى [والمشهور باسم أوغوز خان]، كان قد أخضع أقوام تورا التي كانت تعيش قرب بحيرة «بايقال» قبل الميلاد بمائتي سنة، فيقول «أوغوز خان» في الخطاب الذي كتبه إلى هان وندي إمبراطور «أسرة هان» الحاكمة، سنة ١٧٦ قبل الميلاد:

«لقد أخضعت أقوام «لوان» (كيرووران) و«أويصون» و«الأوغوز» (كان الأوغوز حينئذ يعيشون في جنوب غرب الألتاي بجوار جوجك وزايسان)

وكذلك ست وعشرين إمارة مجاورة لهم. ودخلوا كلهم داخل حدود  
إمبراطورية الهون، لقد أصبحت كل الشعوب التي تضرب بالقوس أسرة  
واحدة، والدول التي في الشمال (بجوار بحيرة بايقال) صارت تحت  
حكمنا»<sup>٤</sup>.

ويذكر عالم التركيات البروفسور «سنجونغ - مين» معتمداً على  
الروايات الواردة في الأوستا الكتاب المقدس للزرادشتية، أن أحد سلاطين  
الترك في العصر القديم كان اسمه «تورا»، ولهذا السبب أطلق الترك  
على أنفسهم اسم أقوام تورا نسبة إلى هذا السلطان<sup>٥</sup>.

ويتحدث الشاعر الفارسي الكبير أبو القاسم الفردوسي في كتابه  
المسمى «الشاهنامه»، عن الدولة التي كانت تحت حكم جدنا الكبير  
«آلب أرتونغا» (أفراسياب) والتي حاربت الفارسيين مرات كثيرة، ويذكرها  
باسم «توران». كما يرد في الكتاب المسمى الفن الكوشاني، ذكر أقوام  
تورا الأبطال وهم من أقوام «صاقا» بآسيا الوسطى.

لقد تحدث كل المؤرخين المشهورين بدءاً من المؤرخ «سيماجيان» الذي  
عاش قبل الميلاد بعدة قرون وحتى مؤرخي القرن السابع الميلادي،  
عن أقوام «تورا» الذين هم أجداد الأويغور وذكروهم بأسماء مختلفة مثل  
«دينغ - لينغ»، و«تيلي»، و«جي له»، و«دي لي». وكل هذه المسميات  
هي أشكال الكتابة لكلمة تورا طبقاً للنطق في اللغة الصينية. لقد  
قسم المؤرخون الصينيون القدامى أقوام «تورا» وهم أجداد الأويغور، إلى  
قسمين أقوام «تورا» الشرقيون وأقوام «تورا» الغربيون طبقاً للمنطقة  
والإقليم الذي عاشوا فيه. وكانت أقوام تورا الشرقيون يعيشون في  
المنطقة الممتدة بدءاً من بحيرة بايقال في الشرق حتى جبال «ألطاي».  
إن الشعب المقصود بشعب تورا المذكور في الأبواب المتعلقة بالهون  
في كتابي «ملاحظات تاريخية» و«هان شو» هم شعب تورا الشرقيون  
الذين كانوا يعيشون في هذه الأراضي قبل الميلاد بعدة قرون. وليست  
لدى «سيماجين» أو «بانقو» أية معلومات عن شعب «تورا» الغربيين. أما  
عن الكتابات المتعلقة بأقوام تورا الغربيين، فإننا نصادفها في المصادر

الصينية اعتباراً من القرن الثالث فقط، وهؤلاء كانوا يعيشون بجوار «سهول جونغار» و«نهر إرتش» في الشرق، وفي المناطق الممتدة حتى غرب «بحيرة بايقال» في الغرب.

ويتحدث «يوهوان» (١٩٦ - ٢٥٠م) مؤرخ القرن الثالث عن أقوام تورا الغربيين في كتابه المسمى «التاريخ الموجز لأسرة «وي» الحاكمة قائلاً: «لدى دولة «الأوغوز» التي تتخذ مكانها في شمال غرب أقوام «أويصون» وشمال شرق «إمارة قانغلي»، أكثر من عشرة آلاف جندي. ويعيش الاوغوز في حالة ترحال. ويربون في أوطانهم جيادا ممتازة. ومن الحيوانات المتوحشة يوجد لديهم النمر الأرقط، وتقع دولة القيرغيز (يقصد القيرغيز القاطنين في المجرى الأعلى من نهر ينيساي) في شمال غرب شعب «قانغلي». ولديهم ثلاثون ألف جندي، ويشغلون بالرعي، يوجد في بلادهم النمر الأرقط بكثرة، ولديهم جياد ممتازة، وتأخذ دولة شعب تورا مكانها في شمال شعب قانغلي. ولديها جيش قوامه ستون ألف شخص ويعمل شعبها بتربية الحيوانات. ويجب قطع طريق طوله ٧٠٠٠ لي ٦ للوصول من مركز دولة القيرغيز - وهي إحدى الدول الثلاث التي ذكرت أسماؤها - إلى قصر امبراطور «الهون» بجوار «نهر أورخون». كما يجب قطع طريق طوله ٥٠٠٠ كيلومترا، للوصول من جنوب أقوام القيرغيز إلى «ألتا قوشو» و«ألتا دولت» (الإمارات الست). والمسافة من جنوب غرب أقوام القيرغيز حتى حدود أقوام «قانغلي» ٣٠٠٠ كيلو مترا، كما أن المسافة من غرب بلاد القيرغيز حتى عاصمة «القانغلي» (وهي كش القديمة التي تقع شمال غرب طاشكند الحالية) تقدر بـ ٨٠٠٠ كيلو مترا<sup>٧</sup>.

وتمدنا هذه السجلات التاريخية بمعلومات عن أحوال شعب تورا الغربيين في القرن الثالث، أما الأوغوز الشرقيون الذين يكونون الفرع الأصلي للأويغور في القرن الثالث و«بحيرة زايسان» الحالية و«جبال الطاي» والقيرغيز فكانوا يعيشون بجوار «نيساي» و«نهر أوب». وكان شعب «تورا» الغربيون يعيش في الأراضي الممتدة بدءاً من غرب بحيرة

بالقاش حتى المنابع العليا لنهر «إرتش»، وإذا بدا للعيان طبقاً للمعلومات سالفة الذكر أنه كان يوجد جيش مكون من ستين ألف شخص، على اعتبار ان هناك جندي بين كل خمسة أشخاص فإنه لابد يزيد شعب تورا الغربية فى القرن الثالث على ثلاثمائة ألف شخص، ولم يكن عدد شعب تورا الشرقية بأقل من هذا العدد. ويرد فى باب قصة «سوو» من مذكرات أسرة هان أن تعداد شعب تورا الشرقية قبل الميلاد بعدة قرون كان عشرات الآلاف. ويعتقد أنه مع مجئ القرن الثالث، زاد عددهم ووصل إلى نفس عدد شعب تورا الغربية، واستناداً إلى هذه المعلومات فإن عدد أجدادنا الذين أطلق عليهم شعب تورا الشرقية والغربية قد فهم أنهم كانوا آنذاك أكثر بكثير من إخوانهم (أقوام قانغلي والقيرغيز). إن المعلومات التى أمدنا بها مؤرخو الصين القدماء تحمل أهمية تاريخية كبيرة، ولكنها لم توضح حدود الأراضي التى عاش فيها شعب «تورا»، وقد ملأ هذا الفراغ علماء الآثار السوفيت. ونتيجة للأبحاث الأثرية التى أجريت سنة ١٩٤٠ فى جنوب سيبيريا فقد ثبت أن شعب تورا سكن المنطقة الشاسعة التى تمتد من جبال الأورال فى الشرق حتى جبال «الطاي» فى الغرب وذلك قبل الميلاد بعدة قرون، هذا فضلاً عن الأراضي التى تمتد من بحيرة «بايقال» فى الشرق وبحيرة «بالقاش» فى الغرب، وهكذا عاش شعب تورا فى حوض نهر «جونغار» الواقع بين جبال «الطاي» وجبال «طانري» قبل الميلاد بعدة قرون<sup>١</sup>. ورغم أن المؤرخين الصينيين القدامى أمدونا بالمعلومات عن شعب تورا الشرقية والغربية، إلا أنه لا توجد فى مؤلفاتهم معلومات صريحة عن الخصائص العرقية للأويغور الذين عاشوا فى حوض نهر تاريم. وتعتمد المعلومات التى أمدنا بها سيماجين وبانقو عن آسيا الوسطى، على التقارير التى أرسلها الإمبراطور «جوو جين» إلى «الخان ووتى» (١٤٠ ق.م - ٨٧ م).

وطبقاً لما كتبه هذان المؤلفان فقد كانت الغالبية العظمى من شعوب آسيا الوسطى تعيش فى المدن وتعمل بالزراعة وتربية الحيوانات

والحرف، وطبقاً لنفس المؤلفين أيضاً، كان في آسيا الوسطى حوالي عشرين أو ثلاثين سلطنة صغيرة، ومع ذلك فإن كلا المؤلفين لم يتركا لنا معلومات صريحة عن الخصائص العرقية للأويغور الذين عاشوا في آسيا الوسطى في المنطقة المسماة «باطي أوجي»<sup>(١)</sup> وعلى وجه الخصوص في حوض «نهر تاريم»، أو عن لغاتهم وعاداتهم، وإذا اعتقدنا أن معلومات المؤرخين الصينيين عن «باطي أوجي» اعتمدت فقط على المعلومات التي أمدنا بها السفراء والتجار الذين سافروا إلى تلك المنطقة، فسوف تتبين أن هذا شيئاً طبيعياً.

لقد ورد ذكر شعب تورا الشرقية في الباب المعنون «أصحاب العربات ذات العجلات العالية» من كتاب «دورية أسرة وي الحاكمة» المكتوب في القرن السادس، على أنه (شعب تورا صاحب العجلات العالية). لقد كان شعب تورا الشرقية أي الأويغور الشرقيون يستخدمون منذ القدم العربات ذات العجلات العالية بما يتفق مع الظروف الطبيعية لمنغوليا، وخلال الفترة من القرن الرابع الميلادي وحتى القرن السادس فإن الصينيين الذين عاشوا في الأماكن القريبة من الحدود، رأوا شعب تورا وهم يستخدمون بشكل عام العربات ذات العجلات العالية التي تحمل متاعهم أثناء تجولهم في في السهول، فأطلقوا عليهم (أصحاب العربات ذات العجلات العالية)<sup>(١)</sup>.

وبعد أن ارتحل الهون الغربيون من وادي إيلي إلى الغرب وإلى سواحل بحيرة بلقاش وأرال في الخمسينيات من القرن الأول الميلادي، تأسست إمبراطورية «السيانبي» (١٥٠ - ٢٣٥م) في الأراضى القديمة لامبراطورية الهون. وبعد موت الإمبراطور «طانشقوي» (١٤٧-١٨١م) انقسم «السيانبي» فيما بينهم. وفي عهد إمارات مثل «غوران» (١٨١ - ٢١٦ م) «بودوكين» (٢١٦ - ٢٣٣ م) «قيبانن» (٢٣٣ - ٢٣٥) لم يبق أي أثر من السلطنة التي كانت في زمن «طانشقوي»، وانهارت الإمبراطورية بموت قيبانن سنة ٢٣٥م. وكان شعب «تورا» في تلك الفترة تحت حكم «السيانبي».

(١) تعنى الديار الغربية أو الثغر الغربي ( المترجم العربي)

وبعد أن انهارت امبراطورية السيانبي تأسست دولة «طوبا»، لكنها أيضاً انتهت على يد الأوار المتتركين حوالي سنة ٣٩٤م، وفي سنة ٣٩٤م أصبح شعب «تورا» الشرقية المسمى «أصحاب العربات ذات العجلات العالية» عرضة للهجمات المستمرة من جانب سلطنة طوبا والأوار التي تشكلت على أراضيهم (هي منغوليا الحالية وأراضي إياله منغوليا الداخلية بالصين).

لقد رفع شعب «تورا» الشرقية لواء العصيان ضد «الأوار» تحت قيادة «أي أوجرو» حاكم قبيلة «بوركلي» في سنة ٤٨٧م، وهاجروا من منغوليا إلى الغرب في صورة جماعية مكونة من ١٢٠ ألف خيمة، وعبروا جبال «الطاي» واستقروا في حوض «نهر جونغار» وشرق «نهر ايلي» وبجوار «طورفان» و«قارا شهر»، ولما نما ذلك إلى علم حاكم الأوار السلطان «طولون الثاني» وعمه السلطان «ناغاي»، جردا جيوشهما خلف أصحاب العجلات العالية الذين هاجروا إلى جنوب «جبال طانري»، وانتصر شعب تورا الشرقية، على طولون خان الثاني في الحرب التي خاضها مع الأوار جنوب جبال الطاي، واتحد أقاربهم الذين يعيشون جنوب جبال «تانري» مع شعب تورا الغربية وأسسوا «سلطنة أصحاب العجلات العالية» (كاو- كوي) ولقد حافظت هذه السلطنة على وجودها ستين عاماً حتى سنة ٥٤٦م. وهناك معلومات في حولية أسرة «وي» الحاكمة بشأن هجرة أقوام تورا من منغوليا إلى القطاعات الشمالية والجنوبية من جبال طانري، أما في حولية أسرة «جي الجنوبية» فتتضمن المعلومات التالية المتعلقة بالأوار:

«في العام الثاني لـ شنمغ (٤٨٧م)، أرسل «ليو سونج» والي مدينة «ييجو» (مدينة سيجوان جنغتو اليوم)، سفيره «جانج جينغ شونغ» إلى شعب تورا بهدف عرض قوته. وكان السفير سيصل إلى بيشام شان (جارقليق) الحالية وأودون (خوتن الحالية)؛ ولكن شعب تورا في تلك الآونة كان قد احتل «بيشام شان» وشتت شعب بيشام شان في الأطراف. وكان شعب أودون (شعب خوتن) بوذياً، أما شعب تورا فكان يقدم نفسه



بوصفهم أبناء الرب (تانيقوت) واستقبل شعب تورا «جانغ جينغ شونغ» ونصحوه بالعودة مرة أخرى إلى بلاده»<sup>١٠</sup>.

وبناء على هذه المعلومات طرد «أي أوجرو» كل «الأوار» في سنة ٤٨٧ م وكانوا في جنوب وشمال جبال «طانري»، وأنتزع «بيشام شان» من يد التتبيين.

ويمدنا ويجنغ (٥٨٠ - ٦٤٣ م) مؤلف حولية أسرة سوي الحاكمة في الباب الخاص بشعب تورا، بمعلومات قيمة جدا عن أسماء ما يزيد على أربعين قبيلة من قبائل تورا التي كانت تعيش في الأراضي الممتدة بدءاً من «جبال هنغان» في الشرق إلى البحر الميت (بحيرة آرال في الغرب) وعن أماكن توطنهم وعلاقاتهم مع الأتراك، وعن حالتهم الاقتصادية. وطبقاً لما قد ورد في هذا المؤلف فإن موقف شعب تورا بعد القرن السادس كانت كالتالي:

أن أجداد شعب «تورا» هم أحفاد الهون، وقبائلهم وبطونهم كثيرة»<sup>١١</sup>.  
وطبقاً لنفس المصدر فإن المناطق التي عاشت فيها شعب طور أو أسماء قبائلهم هي كالتالي:

- ١- شعب طوبا في جنوب بحيرة «بايقال».
- ٢- شعوب «بوغو ووطنرا وأويغور وبايرقو وبوركلي» التي تتخذ اسم أركين على سواحل «أنهار سلانكه» و«طولا» و«أورخون» بمنغوليا، وكذلك تعيش قبائل مثل «مونجين» و«طورغور» و«قوغورصو» في منغوليا.
- ٣- شعب جبني في الأراضي الممتدة من شرق «جونغاريا» حتى «وادي إيلي»، وأقوام «بورج» و«الآز» و«صغناق» و«الأوغوز» و«القيرغيز» والـ «أون أويغور».

٤- شعب «صورطاردوش» (سيرطاردوش) في شمال غرب جبال «الطاي» وأقوام «جاروق» و«زبندر» و«توركيش».

٥- أما في شمال سمرقند وفي جوار نهر «ايديل» فهناك شعوب «أديز» و«الخرز» و«البلغار» و«البنجاق» و«القوغاي» و«القبجاق» و«الصوار»

و«البوتاص» و«اليماق».

٦ - وشعب «صاري غور» فى شرق نهر «يايق» (الأورال) والأجزاء الغربية منه، وقبائل «الصاقصين» و«الموقشا» و«الجر كس».

٧ - وقبائل «الأوغوز» و«الالان» و«الباشقورت» و«الهون» فى شرق الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة).

ورغم وجود قبائل كثيرة جداً لشعب تورا فقد كلها بشكل عام شعب تورا، وحسب الجهة التى استقروا فيها؛ فأطلق اسم أتراك الشرق على الذين فى الشرق، وأتراك الغرب على الذين فى الغرب. واخضع «ايسته مي يابغو» أخو «طومان خان» حاكم سلطنة الكوك ترك العظمى التى تأسست سنة ٥٥١م، قبائل شعب تورا التى عاشت فى الأراضى الممتدة من «جبال هنغان» فى الشرق حتى البحر الميت (بحيرة آرال) فى الغرب، وذلك فى سنة ٥٥٢م. ولما انقسمت سلطنة «الكوك ترك» إلى قسمين فى سنة ٦٠٠م، كانت قبائل تورا داخل حدود سلطنة «الكوك ترك» الشرقية (٦٠٠ - ٧٤٤م) وسلطنة «الكوك ترك» الغربية (٦٠٠ - ٧٦٥م).

ويذكر فى الباب الخاص بأقوام تورا من حولية «أسرة سوي» الحاكمة ما يلى:

«كان شعب تورا الذى استقر فى الطرف الغربى يعمل على وجه العموم بزراعة الفاكهة والزراعة بشكل عام، وكانت خيولهم كثيرة، وخرافهم قليلة» ولكن ليست هناك معلومات متعلقة بهذا الموضوع فى باب الأويغور من حولية أسرة «طانغ» الحاكمة. ولكن المؤرخين الذين كتبوا حولية أسرة «طانغ» القديمة وحولية أسرة «طانغ» الجديدة، وجهوا الأنظار إلى الأويغور الشرقيين الذين عملوا بالرعي وكانوا يعيشون فى حالة من البداوة ولكنهم لم يذكروا أية معلومة عن الأويغور الغربيين، ولكن المنطقة المسماة الطرف الغربى (أو الناحية الغربية) فى حولية «أسرة سوي» الحاكمة تبين الأراضى الواسعة التى تتضمن بداخلها

حوض «نهر تاريم» بآسيا الوسطى.

ويذكر في القسم الخاص بأقوام تورا في حولية «أسرة سوي» الحاكمة أيضاً أن عادات وتقاليد شعب تورا تشبه تلك الخاصة بالترك، واعتباراً من القرن السادس بدأت لفظة «أويغور» تحل محل لفظة «تورا» في كتب التاريخ الصينية. إن أجدادنا الذين ذكروا بأسماء مختلفة في كتب التاريخ الصينية قبل الميلاد بعدة قرون حتى القرن السادس بعد الميلاد وهي؛ «شعب تورا»، و«ذوو العجلات العالية» قد أصبحوا يعرفون باسم «الأويغور» وهو الإسم المشترك لقبائل تورا الشرقية والغربية، لأنه من القرن السابع بدأ يكتب في صورة قبائل الأويغور.

ورغم انقسام شعب تورا الغربية والشرقية إلى عدة قبائل وبطون إلا أنهم كانوا شعباً واحداً من حيث العرق واللغة والعادات والتقاليد وخلافاً لذلك فإنه كان بين قبائل تورا، قبيلة تحمل اسم الأويغور، وكانت هذه القبيلة الأكبر والأقوى بالنسبة للآخرين، وبدأت تتزعم قبائل تورا اعتباراً من القرن الخامس. أما في سنة ٤٩٨ م فقد اختار قسم مكون من ست قبائل من شعب تورا الشرقية، «شوقان» أمير قبيلة الأويغور خانا لهم. كما أن خروج هذا الاتحاد على حكم سلطنة «طوبا» (٤٩٤ - ٥٢٤م)، يبين هذا.

اتحدت قبائل الأويغور مع شعب تورا الشرقية في القرن الخامس وأسسوا دولة الأويغور الأورخونيين، وكان يطلق على القبائل التي اتخذت مكانها في بنية الدولة «أون أويغور» و«طقوز أوغوز»، ولكن في هذا التاريخ اتحدت كل قبائل تورا تحت اسم مشترك هو «الأويغور».

ويذكر «شونزانغ» الراهب البوذي الشهير في القرن السابع (٦٠٢ - ٦٦٤م)، في كتابه المسمى «مذكرات رحلة على الطرف الغربي في عهد «طانغ» العظيم، يذكر ما يلي بشكل صريح: «يستخدم أهل «كاشغر» و«خوتن» و«كوچار» الكتابة الهندية، أما أسنتهم فليست اللغة الهندية»<sup>١٢</sup>، بما يعنى أن الأويغور استخدموا الكتابة الهندية في الفترة التي اعتنقوا فيها البوذية، إلا أنهم استمروا في التحدث بلغاتهم الأصلية. ومثال آخر

لذلك أنه بينما كان المؤرخون الصينيون يكتبون أسماء الأماكن والجبال المختلفة في تركستان الشرقية في زمانهم إلا أنهم استخدموا الحروف الصينية وفق نطقها الأصلي في لغة الأويغور، أو أنهم كانوا يكتبون ترجمة معاني تلك الأسماء باللغة الصينية.

وكان شعب «قوشوو» وهم أجداد الأويغور، يعيشون قبل الميلاد في المنطقة الممتدة من «قمول» (حامي) في الشرق وحتى «مناص» في المغرب وطورفان في الجنوب الغربي. وكانوا قبل الميلاد بعدة قرون قد أطلقوا اسم «بارضكول» على باركول الحالية، وترد «بارضكول» بمعنى بحيرة الأسد (كان يطلق على الأسد في الأويغورية القديمة «بارض») وقد أطلقوا عليها اسم «بارضكول» لأن بحيرة بارض كانت تشبه الأسد، أو لأن الأسود كانت تعيش في الأحرش الكثيفة حولها، وكان مؤرخو الصين القدماء يسمون هذه البحيرة «بوشي هاي»، أما «بوشهاي» فهي المقابل الصيني لكلمة بارص أما كلمة «هاي» فتعني البحيرة.

كانت منطقة باركول منذ الأزمنة السحيقة واحة كبيرة شديدة الخضرة، أراضيها خصبة وماؤها وفير، وساحة زراعية وحيوانية مشهورة بتربية الخيل والأغنام والإبل. فضلا عن أنها منطقة مهمة جدا من الوجهة العسكرية، وقبل الميلاد بعدة قرون حاربت أسرة «الهان» الحاكمة وقبائل الهون لمرات عديدة من أجل الاستيلاء على المنطقة. ولهذا السبب أعطى المؤرخون الصينيون أهمية خاصة لهذه المنطقة في كتاباتهم.

لقد ترجم مؤرخو أسرة «الهان» الحاكمة اسم الجبل المسمى جبال «طانري» في اللغة الأويغورية القديمة، ترجموه بشكل يناسب معناها في اللغة الأويغورية الأصلية فكتبوه «تيان شان». وكذلك ترجموا اسم جبال «الطاي» بشكل يتناسب معناها الأصلي في اللغة الأويغورية وكتبوها «جين شان» بحروف تعني في اللغة الصينية آلتون طاغ [ جبل الذهب ]، كما اتخذوا من الثلوج ناصعة البياض التي لا تذوب أبداً على مدار السنين على القمم العليا لجبال جبال «طانري» وكتبوها في الصينية

بحروف «باي شان» وتعنى (آق طاغ) أي الجبل الأبيض.  
ووضع مؤرخو الصين في حسابهم أن الأويغور أطلقوا على كاشغر  
الحالية «صوله» أي المكان غزير الماء، وكذلك وضعوا في حسابهم أن  
اسم (صو - له) في اللغة الصينية قد صار «رمالا في نهر أقصوا».  
أما «جوموا» أي حوض نهر أقصو، فقد كتبوها «ون - صو» وهي الترجمة  
الصينية لكلمة «أون صو» في اللغة الأويغورية.

وهذه الأمور من الناحية اللغوية هي دليل إثبات أن الأويغور هم  
السكان الأصليون لنهر «جونغار» وحوض «نهر تاريم»، وإذا لم يكن  
الأويغور هم الذين عاشوا في هذه المناطق، ولو كانوا شعوباً تتكلم  
بلغة أخرى، لما كانت هذه البحيرات والجبال والأماكن والأنهار تسمى  
باللغة التركية الأويغورية «بارصكول» و«طانري طاغ» و«الطاي» و«قوم»  
و«أونصو» و«صوله».

ولقد ترك لنا علماء اليونان القدامى والعلماء العرب والرحالة أيضاً  
معلومات قيمة جداً عن الأويغور. ويصرح العالم الكبير بطليموس الذي  
عاش في القرن الثاني الميلادي، في باب دولة ساريك (أي دولة الخز) من  
كتابه المسمى «الجغرافيا» والمكون من عشرة أجزاء، يصرح بأن الشعوب  
التي عاشت في حوض نهر تاريم الحالي، هي الشعوب الأويغورية، وأنهم  
كانوا يربون دودة القز وينسجون أجود الأقمشة الحريرية، ولقد أمدنا  
«بطليموس» بمعلومات مفصلة عن الظروف الطبيعية لحوض نهر تاريم.  
هذا فضلاً عما تركه لنا مؤرخون يونانيون ورومان مثل «إكتيسياس»  
و«سترابون» و«بلييني» و«يوميني ميلا» من معلومات قيمة عن دولة  
الحرير في حوض «نهر تاريم» وعن نشاط الأويغور الذين عاشوا في  
هذه الدولة وبنيتهم العرقية وأزيائهم.

وفي سنة ٧٥٠م أرسل أبو العباس عبد الله، أول خليفة عباسي  
(٧٥٠ - ٧٥٤م)، رسوله تميم بن بحر إلى قصر سلطان «بايانجور» (٧٤٧-  
٧٥٨م) حاكم دولة أويغور «أورخون» الكائنة على أفرع نهر «أورخون».  
وبعد أن حكى «تميم بن بحر» في سياحته عن طرز حياة الأتراك

الوثنيين الذي يعتنقون البوذية والشامانية، وعن الطرق التي تبدأ من مدينة «بارسخان» وتصل حتى «كاشغر» و«أقسو» و«كوچار» و«قارا شَهْر» و«طورفان» وعن القرى المرتبطة ببعضها على جوانب هذه الطرق. وعن الثكنات والأحياء يقول أن مبعوث السلطان التركي كان يرتحل جيئة وذهاباً من «بارسخان» وحتى «أورخون».

وأرجح الاحتمالات أن الخليفة العباسي أرسل هذا الرسول بهدف دعوة «بايانچور» حاكم الأويغور إلى الإسلام، لكنه رفض أن يسلم.

وفي سنة ٨٢١م، أرسل امبراطور «أسرة طانغ» أميرة صينية تسمى «طاي-هو» إلى «بيلكه خان» حاكم الأويغور، فأرسل السلطان عشرات الآلاف من الجنود من «كوچار» و«بشباليق» لتدعيم القائمين على حراسة الحدود بهدف عرقلة محاولات جيرانهم التبتين إفساد أمر هذا العرس. وتوضح لنا هذه المعلومات أن حوض نهر «جونغار» و«تاريم» كانا داخل حدود دولة «أويغور أورخون» وأنه لهذا السبب وضع السلطان وحدات حماية حدود كبيرة في هذه الأماكن.

وفي الفترة (٧٤٥ م إلى ٨٣٠ م)، قويت دولة «أويغور أورخون» وامتدت حدود الإمبراطورية حتى منغوليا الحالية، وقسم من ولاية منغوليا الحالية بالصين، وحوض نهر «جونغار» و«تاريم»، و«بحيرة بالقاش» والمناطق المجاورة لفرغانة وقيرغيزيا ونهر إيلي. وطبقاً للمعلومات التاريخية الموثوق بها فإن الحاكم الصيني تعرض لهزيمة فادحة في الحرب التي وقعت في «طلاس» بين امبراطورية «طانغ» والعرب سنة ٧٥١م، وفضلاً عن ذلك فقد ظلت الإمبراطورية مهددة بالإنهيار بسبب تمرد «أونلوق صويغوم»<sup>(١)</sup> الذي استمر بضع سنين (من ٧٥٧ م إلى ٧٦٢م) في الجزء الداخلي من الإمبراطورية، وسرعان ما فقد حاكم طانغ تأثيره في آسيا الوسطى، واستفادت دولة «أويغور أورخون» من هذه الفرصة واستولت على آسيا الوسطى وأصبحت المالك الحقيقي لطريق الحرير العالمي. وعندما استولت سلطنة التبت على «قانسو» سنة ٧٦٠م، اضطرت

(١) وتكتب في المصادر الصينية أن لوشان (المترجم العربي)

امبراطورية «طانغ» لإقامة علاقات مع «باطى أوجي» الثغر الغربي على الطريق الدولى المسمى «طريق الأويغور»، وحتى يصل سفير امبراطور «طانغ» وتجاره إلى دول الغرب، كانوا يجتازون سور الصين العظيم من «جانغ أن» فى الاتجاه الشمالى ويعبرون جبال «الألطاي» باستقامة الغرب من قره بلاساغون عاصمة دولة أويغور أورخون، ويصلون إلى «بشباليق» الكائنة فى حوض نهر جونغار، وكان الطريق من «بشباليق» ينقسم إلى قسمين أحدهما يتجه إلى أقصى الغرب ماراً بفروع نهر «إيلي» ويصل حتى الطرف الغربى، أما الآخر فيتجه إلى الجنوب ويمر من جبال «طانري» ويصل إلى دول الغرب من طورفان وقارا شَهْرَ وأقسو وكوجار وكاشغر، وكان يطلق على هذا الطريق فى عهد دولة أويغور أورخون «طريق الأويغور»، وكان الأويغور قد دخلوا فى حروب كبرى كثيرة مع التبتين من أجل انشاء هذا الطريق الدولى.

مات سلطان الأويغور «قُتْلُق بيلكه آيچور» فى سنة ٧٩٥م، ولأنه لم يحدد ولي عهده أثناء حياته فقد اعتلى عرش الدولة وزيره الأول «قُتْلُق»، وبعد هذا انتقلت السلطنة من قبيلة «ياغلاق» فى دولة «أويغور أورخون» إلى قبائل الـ (آديز) وكانت قبيلة «ياغلاق» أحد الفروع القوية كثيفة العدد بين القبائل المسماة «أون أويغور» أى الأويغور الشرقيين التى منها السلاطين عادة. ولهذا كانت قبائل الـ «ياغلاق» قد تزعمت قبائل الأويغور اعتباراً فى سنة ٦٠٠ م، وكونت دولة «أويغور أوخون» فى سنة ٦٤٦ م واعتباراً من سنة ٧٩٥ م وحتى سنة ٨٢٩ م حكم سلطنة الأويغور من قبائل الـ آديز ستة سلاطين القابهم هى: «آي تنكريده قوت بولمش ألب»<sup>(١)</sup> قُتْلُق بيلكه سلطان (٧٩٥ - ٨٠٥ م)، ثم «آي تنكريده قوت بولمش قُتْلُق بيلكه سلطان» (٨٠٥ - ٨٠٨)، ثم «آي تنكريده قوت بولمش ألب كوجلک بيلكه سلطان» (٨٠٨ - ٨٢١ م)، ثم «كون تنكريده أولوق بولمش»<sup>(٢)</sup> ألب كوجلک بيكله سلطان (٨٢١ - ٨٢٤ م) ثم «خزر

(١) وتعنى اله القمر المبارك ( المترجم العربى )

(٢) وتعنى اله الشمس العظيم ( المترجم العربى )

تكين» (٨٢٤ - ٨٣٢م) و«أي تنكريده قوت بولمش كو- 'ك، بيكله سلطان».  
ونجحت دولة «أويغور أورخون» بين عامي ٧٩٥ - ٨٣٠م في حماية  
بنية الدولة القوية تحت إدارة سلاطين جاءوا من قبيلة «أديز». لكن نشب  
صراع العرش بين «الأديز» وقبيلة «ياغلاقار» في عهد «أي تنكريده قوت  
بولمش كوجل ك بيلكه سلطان» وفي سنة ٨٢٩م، شن «قره بولوك» من  
قبيلة «ياغلاقار» الحرب ضد السلطان بمساعدة الأتراك، وانتحر السلطان  
بعد أن خسر الحرب، واعتلى «قره بولوك كيجيك تكين» أمير الياغلاقار  
عرش السلطنة، وفي هذه الأثناء هرب «بولوك باغا» وهو من أمراء أديز  
إلى القييرغيز الذين كانوا على مقربة من «نهر ينسي»، وطلب منهم  
العون، وفي تلك الأيام أطلت آفة طبيعية برأسها في أراضي الأويغور،  
وانهارت الزراعة وتربية الحيوانات تماماً بسبب الثلج الكثيف والبرد  
القارص والأمراض المعدية ونفقت حيوانات كثيرة ومات بشر كثيرون.  
وأعلن القييرغيز الذين لم يريدوا تفويت الفرصة العصيان، وهجموا على  
العاصمة «قره بلاساغون»، وقتلوا «قره بولوك» و«كيجيك تكين» وأحرقوا  
قصر السلطان ونهبوا الخزينة. ونتيجة لتمرد القييرغيز انهارت دولة أويغور  
أورخون العظيمة التي كانت تمتلك أقوى عهودها ٢٢١ ألف فارس،  
وهاجر قسم كبير من الأويغور الشرقيين من المناطق الشرقية منغوليا  
الحالية إلى آسيا الوسطى التي تحتل مكانها في المنطقة الغربية.

ووصل قسم من الأويغور الذين هاجروا إلى الغرب إلى باركول تحت  
قيادة «بان تكين» ثم إلى طورفان وقارا شَهْرَ وإلى أطراف «كوجار»  
واستقروا هناك ولم يكن عددهم آنذ يزيد عن ٢٠٠ ألف، أما عدد  
الأويغور المتوطنين فكان قرابة المليون.

تلك هي الحقائق التاريخية، أما بعض المؤرخين المحدثين فقد  
توصلوا إلى حكم خاطئ مؤداه أن الأويغور لم يسكنوا هذه الأراضي على  
الإطلاق قبل الهجرة إلى تركستان الشرقية عام ٨٤٠م، ودليل هؤلاء  
ومن على غرارهم هو الكتب «السنسكرتيتية» و«الكاروشتيه» و«البوذية  
الهندية» الكثيرة جداً التي عُثر عليها في الحفريات التي تمت في



«خوتن» و«كوچار» و«قارا شَهْرُ» و«طورفان»، ولكن رغم تعدد الكتب المؤلفة بهذه اللغات إلا أنها لا تكفى لإثبات أن السكان الأصليين لهذه الأراضي كانوا شعوباً ترجع للجنس «الآري».

فى فترة ما قبل الميلاد وما بعده انتشرت البوذية من الهند إلى خوتن وكاشغر وكوچار وقارا شَهْرُ وطورفان الكائنتين فى حوض نهر تاريم، ولأن الكتب التى تخص البوذية فى تلك الحقبة لم تترجم إلى اللغة الأويغورية، فإن الأويغور قرأوا الكتب المؤلفة باللغة السنسكريتية والهندية وأقاموا عبادتهم بهذه اللغات. وهذا الموقف يشبه قراءة عدد متواضع من الأويغور للقرآن الكريم والأحاديث الشريفة باللغة العربية وفهمهم لها، بعد اعتناقهما للإسلام. وإذا كنا لا نستطيع أن نطلق على المعلمين الذين كانوا يدرسون فى الجوامع والمدارس كلمة عرب وعجم لاستفادتهم من الكتب المؤلفة باللغة العربية والفارسية، فإننا لا نستطيع أيضاً أن ننظر إلى الأويغور البوذيين فى تلك الفترة على أنهم هنود بسبب الكتب المؤلفة بالسنسكريتية والهندية. وكل المؤرخين متفقون على أن الأويغور الذين عاشوا فى هذه الأراضي (تركستان الشرقية) انتقلوا إلى طرز الحياة المستقرة منذ أقدم العصور، وكان هؤلاء الأويغور عندما وصلوا إلى تركستان الشرقية بعد هجرتهم من منغوليا سنة ٨٤٠م، متفوقون على الأويغور الشرقيين سواء من ناحية الكثرة العددية أو الحضارة. وبالإضافة إلى ذلك فإن الأويغور الذين هاجروا من منغوليا كانوا على العقيدة المانوية، أما الأويغور المحليون فكانوا بوذيين، أما إذا كان هناك شعب آخر غير الأويغور يعيش فى هذه الأراضي حتى هجرة الأويغور سنة ٨٤٠م مثلما يدعى بعضهم، فكيف استطاع القادمون من الخارج أن يستوعبوا السكان المحليين بهذا البلد فى زمن قصير كهذا، ويحولونهم كلهم إلى أويغور بغض النظر عن الاختلاف الدينى والعرقى، رغم التفاوت بينهما فى عدد السكان.

إن المؤرخين الذين تحدثنا عنهم لم يتمكنوا من الإجابة على هذا السؤال بطريقة منطقية، وهدفهم هو لى وتزييف الحقائق التاريخية

ونقطة أخرى محددة جداً هي أن قسماً من الأويغور الشرقيين الذين هاجروا سنة ٨٤٠م قد استقروا في البداية في «باركول» ثم في «طورفان وكوچار وقارا شَهْر»، وفرع آخر هاجر إلى «يدي صو» واتحد مع الأويغور الغربيين المحليين من آسيا الوسطى الذين كانوا يزيدون عنهم بأضعاف مضاعفة وزادت قوتهم في فترة قصيرة، وطردوا التتبيين من تركستان الشرقية، وكونوا في البداية سلطنة «ايديقوت الأويغورية» ومن بعدها كونوا «دولة القراخانيين». وباعتبار النتيجة، فإن المعلومات الجيولوجية والأثرية التي عرضناها في هذه الباب، وكذلك المؤلفات التي كتبها المؤرخون الصينيون، والقدامى المنتسبون إلى جنسيات أخرى بشأن المناطق التي عاش فيها الأويغور منذ القدم تثبت بشكل واضح أن أقدم وطن أصلي للأويغور هو منطقة آسيا الوسطى، خاصة سنكيانغ (تركستان الشرقية).

## الفصل الثاني: الأصل العرقي للأويغور

كان أجدادنا من الشعوب التي عاشت في قارة آسيا، كما أنهم أحد الشعوب التي اضطلعت بأدوار مهمة على مدار التاريخ. وعبر الزمان تزايد عدد أجدادنا الذين كانوا من السكان المحليين القدامى لوسط آسيا منذ أقدم الأزمنة، وعاشوا في الأراضي الممتدة من البحر الميت في الغرب حتى المحيط الهادي في الشرق من (بحيرة آرال).

إن المجتمعات التي عاشت في مناطق مختلفة من العالم في الأزمنة السحيقة، استطاعت أن تحقق اتصالاً محدوداً للغاية بين بعضها البعض بسبب تخلف المواصلات آنذاك وعاشت منفصلة عن بعضها. ونظراً لاختلاف المناخ بين المناطق التي عاش فيها البشر، فقد ظهرت فروق مختلفة تتناسب مع خصائص كل منطقة منها. فعلى سبيل المثال تبدو الفصول الأربعة واضحة في قطاع كبير من المناطق الشمالية والوسطى بآسيا في حين أن شهور الشتاء في المناطق الشمالية حينئذ كانت شديدة البرودة، أما فصل الصيف فكان معتدلاً. وفي المقابل نجد أنه في المناطق الاستوائية من آسيا مثل ذلك شبه الجزيرة العربية، لم تكن الفصول الأربعة تبدو واضحة. ولهذه الأسباب ظهرت أعراق وشعوب ولغات مختلفة. وفي أيامنا هذه، هناك ثلاثة أعراق رئيسة هي؛ الأبيض والأصفر والأسود. وتتميز الأعراق عن بعضها طبقاً للون البشرة وشكل الشعر، وبنية الوجه والجسم. وقد انقسمت شعوب آسيا الحالية طبقاً للخصائص العرقية إلى نوعين هما؛ الأبيض والأصفر. ويُنسب الهنود والباكستانيون والأفغان والإيرانيون والأتراك والعرب والطاجيك إلى الجنس الأبيض.

وطبقاً للإشارات الأنثروبولوجية فالمنتسبون للجنس الأبيض هم ذوو بشرة بيضاء وأنف طويل وعيون زرقاء أو عسلية وشعرهم بني أو أشقر. والهندوس الحاليون بشرتهم سمراء. أما الآريون أجداد الهنود والإيرانيين والألمان، فعندما هاجروا إلى الهند سنة ٢٠٠٠ قبل الميلاد، لم تكن بشرتهم كما هي اليوم. وبعد أن استقروا في الهند صاروا على هذا الحال مع الوقت بتأثير المناخ الحار للهند.

إن الشعوب التي تنتسب إلى الجنس الأصفر الذي يعيش في قارة آسيا هي؛ الصينيون واليابانيون والكوريون والمغول والمانجو ومن يشبهونهم. وجلود هؤلاء تميل للصفرة وشعرهم أسود ومستو وعيونهم مسحوبة وأنوفهم فطساء.

يتحدث «ج. جريمايلو» عن أقوام تورا التي عاشت في جنوب سيبيريا في الأزمنة القديمة قائلاً: «إن أقوام تورا على وجه العموم متوسطو القامة وذوو بنية قوية وهم أصحاب قوة ووجوههم طويلة وبيضاء وشعرهم أشقر وأنوفهم طويلة ومستوية، وبنية الأنف على وجه العموم مقوسة وعيونهم زرقاء»<sup>١٢</sup>.

ولقد ثبتت صحة هذا الرأي المعتمد على السجلات التاريخية، وثبتت صحته مرة أخرى بواسطة الأبحاث الأثرية التي أجريت مؤخراً. ولكي نصل إلى معلومات مفصلة عن الأصل العرقي للأويغور فإنه يجب أن نلقى نظره على علاقات الأخوة بينهم وبين «الهون» و«الصاقا» والأترك.

### الأساطير والروايات

هناك سلسلة من الأساطير والروايات في الملاحم العبرانية القديمة والإغريقية والفارسية والتركية والوثائق التاريخية الصينية عن أصل أجداد الأويغور، ومن المؤكد أن إصدار حكم متعلق بالأحداث التاريخية المهمة اعتماداً على هذه الأساطير والروايات ليس صحيحاً، ولكنها تلقي الضوء

ولو بشكل بسيط على بعض الحقائق التاريخية ولذلك فأنى مقتنع بجدوى التعرف على هذه الأساطير والروايات المتعلقة بأصول أجدادنا.

والأتراك طبقاً للروايات العبرانية، من نسل ترك ابن النبي نوح عليه السلام. ويذكر اليهود أن الترك جاءوا من نسل يهودي، اعتماداً على هذه الرواية. أما بالنسبة للروايات الفارسية فإن «آلب أرتونغا» (أفراسياب) أقدم أجدادنا، هو أخو سياوش البطل الفارسي الأسطوري. لكن فهذه الروايات لا تحظى بأية قيمة علمية لأنها تعتمد على التوراة و«الشاهنامه».

وفي قناعتنا أن «ملحمة الأوغوز» من بين الروايات الواردة بشأن أجدادنا هي الأكثر اتساقاً مع الحقيقة.

لقد عاشت إمبراطورية الهون (٣٠٠ ق.م - ٢١٦م) أقوى عصورها في الفترة ما بين ٢٤٠ ق.م - ٤٨م، والفترة ما بين عامي (٢٠٩ - ١٧٩ ق.م) هي فترة «باتور تانريقت» (مته خان). ولقد أبدع الشعب التركي «ملحمة الأوغوز» بهدف مدح باتور تانريقت، وحولوه إلى بطل أسطوري. ويظهر «باتور تانريقت» في هذه الملحمة حاكماً على الصين والهند وأوروبا وكل القسم الشمالي من العالم. وفي الحقيقة كان «باتور تانريقت» قد شن حرباً ضد غرب آسيا ووسطها في عام ١٧٧ ق.م وأخضع الدول في تلك المناطق لطاعته ووصل حتى «بحر الخزر».

ومقدمة ملحمة الأوغوز على النحو التالي:

«ذات يوم ولدت «آيخان» غلاماً وكان لون شعر الغلام وحاجبيه أسود، وعيونه زرقاء. وفمه أحمر كالجمر، وكان أجمل حتى من الملائكة. وكانت ساقاه تشبه سيقان البقرة، وخصره كخصر الذئب، وأكتافه كأكتاف الثور الأسود، أما صدره فكان كصدر الدب. وكان يرعى الحيوانات ويركب الخيل ويخرج للصيد. وهكذا أخذ يكبر شيئاً فشيئاً وصار فتى. وفي يوم من الأيام بينما كان «أوغوزخان» يدعو ربه، اسودت الدنيا فجأة من حوله، ونزل من السماء ضوء أزرق. وكانت الضوء أكثر لمعاناً من ضوء الشمس وأكثر ضياءً من ضوء القمر واقترب منه «أوغوزخان» ورأى

داخل النور فتاة جميلة وحيدة، على جبينها شامة بوهج النار وتشبه النجم القطبي، وكانت الفتاة بارعة من الجمال بحيث أنها إذا ضحكت، ضحك رب السماء وعندما تبكي يبكي معها.

وما أن وقعت عينا «أوغوز خان» على الفتاة، حتى جن بها، وصار عاشقاً لها وتزوجها، وبلغ مراده. وحملت الفتاة وجاءت لحظة وضعها، فولدت ثلاثة أبناء فسمت ابنها الأكبر «كون» (أي الشمس) والأوسط «أي» (أي القمر) والأصغر «يلدز» (أي النجم).

ذات يوم خرج «أوغوز خان» للصيد، ورأى شجرة وسط البحيرة التي أمامه. وكانت تجلس داخل الشجرة فتاة وحيدة. كانت الفتاة غاية في الجمال وعيونها في غاية الزرقة وشعرها طويل كالأنهار وأسنانها مثل اللؤلؤ. ورآها أوغوز خان فهام بها حباً وتزوجها ووصل إلى مراده، وحملت الفتاة وولدت ثلاثة أبناء وقامت بتسمية كبير أبنائها «كوك» (أي السماء) والأوسط «طاغ» (أي الجبل) والأصغر «دنيز» (أي البحر).

تبين هذه العبارات إلى أي مدى كان يتم تأليه أوغوز خان. وفي الملحمة يظهر الأخوة الستة الذين أنجبتهم زوجتا أوغوز خان هاتين على أنهم أجداد قبائل الأوغوز الأربع والعشرين الذين هم أخوة للأويغور من الدم. ويشار إلى أبناء أوغوز خان الستة في ملحمة الأوغوز التي تحتل مكانها في الأثر المسمى «جامع التواريخ» لرشيد الدين، بوصفهم أجداد قبائل الأوغوز الأربع والعشرين:

«عندما بلغ «أوغوز خان» من العمر أرذله، سمع الرؤية العجيبة التي رآها وزيره العارف «أولوغ توروك». فقد رأى «أولوغ توروك» في منامه قوساً ذهبياً وثلاثة سهام فضية، القوس يسحب من الشرق إلى الغرب، أما السهام الفضية الثلاثة فأتجهت ناحية الشمال. وبعد أن استيقظ أولوغ توروك حكى الرؤيا التي رآها إلى أوغوز خان. واستناداً إلى تفسير «أولوغ توروك» لهذه الرؤيا، أرسل أوغوز خان أبناءه الثلاثة «كون» [الشمس] و«أي» [القمر] و«يلدز» [النجم] إلى الشرق، كما أرسل أبناءه الثلاثة «كوك» [السماء] و«طاغ» [الجبل] و«دنيز» [البحر] إلى الغرب. وقام

الأبناء الستة بالصيد فى الأماكن التى ذهبوا إليها وتنزهوا وواجهوا أشياء كثيرة لم يروها فى حياتهم قط. وعشر «كون» و«آي» و«يلدز» على قوس ذهبى فى الطريق فأحضره لأبيهم. كما عشر «كوك» و«دنيز» و«طاغ» على ثلاثة سهام وأحضرها لأبيهم. وقسم أوغوز خان السهم الذهبى إلى ثلاثة وأعطاهم إلى «كون» و«آي» و«يلدز»، كما أعطى السهم الفضية الثلاثة إلى «كوك» و«طاغ» و«دنيز» (ملحمة الأوغوز).

وتنقسم القبائل الأوغوزية الأربع والعشرون إلى فرعين رئيسين [ كل فرع منهما يضم اثنتى عشرة قبيلة ] أحدهما «البوز أوق» (بوزوق) وهم أبناء «كون» و«آي» و«يلدز» الذين قسم أوغوز خان السهم بينهم، والآخر التى أطلق عليه اسم «أوج أوق»، وهم من نسل أبناء «أوغوز خان» الذين أعطى لهم السهم الفضية الثلاثة.

تبدو قبائل الأوغوز الأربع والعشرون فى القائمة التى وردت فى كتاب المؤرخ الفارسي رشيد الدين «جامع التواريخ» على هذا النحو:  
تشكل قبائل «بوزأوق» الفرع الأيمن للأوغوز، أما قبائل «أوج أوق» فتشكل الفرع الأيسر.

وتوضح هذه المعلومات أن الأويغور الشرقيين يشكلون مجموعة قبائل «الأوغوز» الكبرى وقبائلها ذائعة الصيت، وأن الأوغوز الشرقيين يتخذوا مكانهم فى بنية سلطنة الأويغور. وفى أيامنا هذه يرى بعض المؤرخين المشهورين أن «قراخان» والد أوغوز خان فى ملحمة أوغوز هو نفسه «طومان» والد «مته».

عندما هاجر الأويغور الشرقيون سنة ٨٤٠ ميلادية من منغوليا إلى آسيا الوسطى، استقر الأوغوز الشرقيون على سواحل نهر «ايرتاش» وبحيرتي «بالقاش» و«آرال»، ويمدنا محمود الكاشغري بهذه المعلومات المتعلقة بالأصل العرقي لهؤلاء «الأوغوز» فى فتره مجدهم:

«الأوغوز هم أحد شعوب الترك، والأوغوز تركمان وهم اثنتان وعشرون قبيلة، ولكل قبيلة منها شعارها الخاص»<sup>١٤</sup>.

ويظهر الأوغوز في قائمة محمود الكاشغري اثنتين وعشرين قبيلة مع أسماء القبائل التي ذكرناها سابقاً، عدا اسم قبيلتين تخلو منها قائمة الكاشغري.

وتثبت ملحمة الأوغوز أن الهون والأويغور والأتراك هم شعوب شقيقة تنحدر من نفس الأصل.

إن «أفراسياب» الذي مر ذكره في الروايات الفارسية والتركية هو أشهر أبطالنا الذين عاشوا قبل الميلاد بسبعمئة عام، وقد أطلق عليه أجدادنا اسم «ألب أر تونغنا». فهو الحاكم الشهير لامبراطورية الصاقا العظمى التي أسسها أجدادنا في الأراضى الواسعة الممتدة من آسيا الوسطى حتى البحر الأسود قبل الميلاد بسبعمئة عام، وكان الفرس يطلقون كلمة «توران» على هذه الإمبراطورية التي حافظت على وجودها حتى القرن الأول قبل الميلاد. وتحتل المعلومات الأولية عن «ألب أر تونغنا» مكانها في «الأفستا» الكتاب المقدس للمجوس، ويجرى الحديث في هذا الكتاب عن امبراطور «توران» بصفته «أفراسياب». ويمدنا شاعر الفرس العظيم أبو القاسم الفردوسى في مواضع مختلفة من كتابه المسمى «الشهنامه» الذى كتبه بأمر السلطان محمود الغزنوي (٩٩٧ - ١٠٣٠م) عن الحروب التى خاضها «أفراسياب» ضد ملوك فارس. وطبقاً لمحمود الكاشغري فقد كان ألب طونغنا يسكن فى «أوردو كنت»<sup>(١)</sup> ذات الطقس الجميل (كاشغري)<sup>(٢)</sup>، وفى ذلك الحين كان الفرس قد كونوا امبراطورية قوية. وفى القرن السابع قبل الميلاد كان كيسخرو حاكم أسرة «الأخمينيين» الفارسية (٧٠٠ ق.م - ٣٣٠ م) التى قامت فى القرن السابع قبل الميلاد، قد هزم «أفراسياب» حاكم «توران». وكان قد انسحب إلى الشرق وعادة مرة أخرى إلى جبال «ألطاي»؛ ولكنه مات بسهم أطلق عليه فى الحرب الثانية التى خاضها ضد الفرس فى أذربيجان عام ٦٢٥ ق.م.

إن الروايات التركية والفارسية المتعلقة بـ«ألب أر تونغنا» أثارت فى عقولنا بعض التساؤلات، هل كان ألب أر تونغنا بطلاً تاريخياً عاش فى

(١) وتعنى مدينة الجيش ( المترجم العربى )



الواقع أم أنه شخصية أسطورية؟ هل «الإسكيت» عند اليونان والشعب  
الذي أطلق عليه الصاقا عند الفرس، هل كانوا أتراكاً أم كانوا أقارب  
الفرس.

إن لدينا الأدلة الكافية عن أن ألب أر تونغنا كان شخصية تاريخية  
حقيقية.

لقد نقل محمد الكاشغري في كتابه بعض النصوص من الأشعار  
(الرثاء) المكتوب عن ألب أر تونغنا:

هل مات «ألب أر تونغنا»

وهل بقيت الدنيا السيئة

هل أخذ الفلك ثأره

فالآن القلب يتمزق<sup>١٦</sup>

الرجل يعوى كالذئب

يشق ملابسه ويصرخ

ويئن كمن سحق

ويغطي الدمع عينيه<sup>١٧</sup>

وفيما يلي أشعار تبين الحالة الروحية للأمرء الذين حضروا وفاة  
«ألب أر تونغنا»:

لقد أتعب الأمرء خيولهم

وأوقفهم الحزن

وقد اصفرت سيماهم و وجوههم

كأنما فقعت مرارتهم<sup>١٨</sup>

هذه القطع الشعرية الثلاث الواردة بالكتاب هي جزء من الملاحم

التي كتبها أجدادنا في وفاة «آلب أر تونغنا» وهذه المرثيات المكتوبة عن «آلب أر تونغنا» هي دليل على أنه كان بطلاً حقيقياً عاش في التاريخ وأنه كان حاكماً عظيماً ذكره أجدادنا دائماً بالاحترام والتقدير. ومن المعروف أنه بعد موت «آلب أر تونغنا» سنة ٦٢٥ ق.م حكم امبراطورية «توران» خانات يتخذون أسماء على غرار «أمورغ» وملكة «طومارس» (طومريس).

بعد أن مات «كيخسرو» اعتلى العرش أخوه استياج (٥٥٥ - ٥٨٤ ق.م). ومن بعده هجم «كيكاوس» (في اليونانية كيروس) الذي كان على رأس أسرة «الأخمينيين» الحاكمة، على التورانيين وأسر «أورج» حاكم توران. ويسجل المؤرخ اليوناني «كيتاسياس» أن زوجة حاكم توران «سيمافيترا» جهزت جيشاً من الرجال والنساء وحاربت الفرس وهزمت «كيكاوس» وأنقذت زوجها «أمورج». وطبقاً لنفس الكاتب أنه بعد هذه الحرب عقد التورانيون معاهدة مع «كيكاوس» ولكن «كيكاوس» لم يحترم المعاهدة وهاجم آسيا الوسطى. وطبقاً للمعلومات التي أمدنا بها «هيردوت» فإن الملكة «طومارس» كانت على رأس «الصاقا» العظام (مصاصيت) في تلك الفترة. وفي الحرب التي قام بها «كيكاوس» ضد آسيا الوسطى، ضل طريقه في الصحراء عند النواحي التي وراء «نهر آمو»، وانفصل عن الصفوف الخلفية وتعرض للهزيمة ومات في الحرب. ويمدنا «هيرودوت» بمعلومات مفصلة متعلقة بهذه الحرب و«بكيكاوس». ونتبين منها أن «هيرودوت» أخذ بعض التفاصيل من الروايات التي تتعلق بـ«طومارس». ومنها أنها ملأت قربة بالدم ووضعت بداخلها رأس «كيكاوس» الذي مات في الحرب وقالت «إنك لم تكن تشبع من الدم فخذ واشرب من الدم ما تشاء»<sup>١٦</sup>. و«طومارس» أم شعوب آسيا الوسطى كانت عاقلة، ذات فراسة، وشجاعة، ونموذجاً لبنات توران المحبات للوطن، ويقال أنها كانت حفيدة «آلب أر تونغنا». وطبقاً لرأي «بول ويتك» فإن الاسم الأصلي لطومارس هو «تومور»، أما المؤرخون اليونانيون فقد أوردوه في صورة «طوماريس» و«تومورس».

وقد أوردنا قبل قليل نماذج من روايات متعلقة به لدى اليونانيين والایرانیین، فضلا عن بعض أجزاء من الملحمة المتعلقة بآلب تونغا فى دیوان لغات الترك، أما الآن فسوف نورد بعض النماذج مما دونه مؤرخو الصين فى العصور الوسطى.

فى عام ۷۱۴م أرسل «قباغان خان» سلطان الترك الشرقیین ابنه «تونغا تکین» بجیش لاسترداد «بشبالیق» من أسرة «طانغ». وحاصر «تونغا تکین» مدينة «بشبالیق»، وذات يوم اقترب من أسوار المدينة بمفرده لیستطلع المكان، فقتله الأعداء الذین كانوا ينتظرونه فى کمین<sup>۲۰</sup>. ومنذ ذلك اليوم أصبح الاحتفال بذكرى وفاة «تونغا تکین» تقليدا بین الترك. والقدر المفهوم من هذا أن «آلب أرتونغا» یذكر بأنه «تونغا تکین» وهو الإسم الذی أطلق على آلب تونغا جد الأتراك القديم.

یذكر محمود الکاشغرى أنه عندما اقترب جیش الاسکندر من حدود آسیا الوسطى سنة ۳۲۹ ق.م، أرسل سلطان الترك الجنودَ ضده.

«ولما اقترب الاسکندر من بلاد الأویغور أرسل ضده سلطان الأویغور جیشاً من أربعة آلاف شخص، وكانت أجنحة قبعات هؤلاء الجنود تشبه أجنحة النسر، وكانوا یتقنون قذف السهام سواء للأمام أو للخلف بنفس البراعة ورأهم الإسکندر فتملكته حيرة شديدة<sup>۲۱</sup>.

إن هذه الروایة التى نقلها محمود الکاشغرى تتفق مع الأحداث التى وقعت أثناء مجيء الاسکندر إلى آسیا الوسطى.

خرج الإسکندر إلى الحرب فى عام ۳۳۴ ق.م صوب الشرق وفى معيته ثلاثون ألف جندى مشاة وخمسة آلاف فارس، واحتل خلال عشرة أعوام آسیا الصغرى وسوريا وفینیقیة ومصر وفارس ووسط آسیا والهند. وفى إحدى هذه المعارك، أنزل الإسکندر هزيمة فادحة بجیش «دارا الثالث» أحد ملوك أسرة «الأکمینین» الحاكمة بفارس، فى مكان یسمى «جاوجامیلا»، وقتل داریوس (دارا)، وعليه هرب أخوه «بسوسى» إلى الشرق. ووصل «بسوسى» فیما بعد إلى آسیا الوسطى وطلب العون

من «الصاقا». وكان على رأس «الصاقا» فى آسيا الوسطى حينئذ حاكم يدعى «شو». وطبقاً لرأى محمود الكاشغري فإن «شو» الذى كان من أحفاد الملكة التركية طومارس هو نفسه الشخص المتحدث عنه هنا، وهو نفسه «شو» الحاكم التركي الذى أرسل جيشاً مكوناً من أربعة آلاف جندى ضد الإسكندر عندما جاء إلى آسيا الوسطى، ليس بطلب «بشوسي» بل لحماية استقلاله. لكن المقدونيين هزموا «الصاقا». وتقدم الأعداء حتى كاشغَر من جهة «ايسيق كول». ووصل أجدادنا الذين نطلق عليهم «صاقا» إلى الشرق أى إلى جبال «الطاي» للمرة الأولى بعد الهزيمة التى منى بها «تونغا ألب» أمام «كيخسرو» فى القرن السابع قبل الميلاد وحدثت الهجرة الثانية للصاقا مع مجئ الإسكندر إلى آسيا الوسطى.

وكان موطن «الصاقا» الأصلي غرب سيبيريا، وفى القرن العاشر ق.م تعرض الصاقا لهجوم «الصارمات» وهم أقاربهم الذين كانوا يعيشون فى الأطراف الغربية مثلهم، فتركوا أراضيهم ووصلوا حتى البحر الأسود. واعتباراً من هذا التاريخ تحول قسم من الصاقا ببطء إلى القومية الفارسية بتأثير الفرس، لكنهم استمروا فى الحفاظ على بعض الخصائص المتعلقة بالشعوب التركية. ويُعرف «الياقوت» الذين كانوا من القبائل التركية القديمة أنفسهم بالصاقا، كما أن عقائد «الصاقا» الدينية وعاداتهم وتقاليدهم هى نفسها التى لدى الهون والترك. وكانوا أيضاً يعتنقون بالشامانية، وتتطابق بدرجة كبيرة المعلومات التى أمدنا بها هيرودوت عن أخلاق الصاقا وعاداتهم وتقاليدهم مع المعلومات التى نقلها المؤرخون الصينيون عن عادات وتقاليد الهون والترك. كان الصاقا يعيشون على تربية الحيوانات وكانت المواد الغذائية الأساسية لديهم اللحوم ومشروباتهم الخمر، وكانوا كالهون والترك يستخدمون جماجم البشر كؤوسا للشراب، وحينما يموت الأب يتزوجون زوجات أبيهم وحينما يركبون خيولهم، فالسهام التى يطلقونها لا تخطئ هدفها. وكان الصاقا كالهون والترك يعبدون الشمس أو القمر، وكان إله القمر يبدو أكثر قداسة، بينما كان

«الصاقا» يعتبرون إله الشمس أعلى قدسية من إله القمر، وهكذا فإن خروج الهون للحرب بشكل عام يكون في الليالي التي يكون فيها القمر بدرًا، ويبدأون في الانسحاب حينما يبدأ القمر في الصغر، ونحن نفهم أن القمر والشمس مقدسان لدى الأويغور بسبب استخدامهم ألفاظ القمر والشمس kun في ألقاب السلطان على وجه الخصوص، وعلى سبيل المثال فقد كان لقب أحد سلاطين الأويغور «كون تنكريده اولوق بولمش كوجلوك»<sup>(١)</sup> بيلكه قاغان»

أما لقب «إيل تكين» فكان «أي تنكريده قوت بولمش إيل توتمش قوچ قولوق»<sup>(٢)</sup> بيلكه قاغان»

وتثبتت هذه الأمثلة أن عادات وتقاليد الأتراك و«الصاقا» ترجع إلى أصل واحد، وقد عاش الصاقا أعظم عصورهم في التاريخ في زمن «ألب تونغغا» في القرن السابع قبل الميلاد.

لقد تحول قسم من «الصاقا» إلى القومية الفارسية مثل تحول فرع من الأويغور وهو «أويرات» إلى القومية المغولية في منغوليا، ويذكر بعض المؤرخين بعد دراسة الموضوع بشكل جاد أن «الصاقا» كانوا ذوي أصل فارسي ولكن هذا ليس صحيحًا، حتى أن المؤرخ الروماني أتالاتا الذي عاش في القرن الأول الميلادي يقول أن الأسكتيت (الصاقا) والترك من نفس الأصل<sup>(٣)</sup>.

### طوتم الذئب

لقد ارتضت الشعوب منذ القدم أشياء كثيرة بوصفها «طوتم» (أي تميمة).

ترد كلمة «طوتم» في لغة الپاپوا الذين يعيشون في أستراليا في يومنا هذا بمعنى المنحدر من أصله. وكان الناس في العصور البدائية يظنون أن بعض الحيوانات أو بعض الأشجار هي أجدادهم، فاستخدموها

(١) وتعني إله الشمس العظيم القوى ( المترجم العربي)

(٢) وتهنى إله القمر المبارك حاكم الإقليم القوى ( المارجك العربي)

كرمز يميزون به أصلهم عن الآخرين ونحن سوف نخدم «الطوطم» هنا بهذا المعنى.

لقد عجز البشر في العصور القديمة من تفسير أحداث الطبيعة من حولهم مثل شروق الشمس وغروبها وكسوف الشمس وخسوف القمر وحركة النجوم وتقلب الليل والنهار والرياح والمطر والثلج وفيضان الأنهار والزلازل وتغير الفصول، فخافوا من أحداث الطبيعة هذه وعبدوها.

إن عقيدة الطوطم (أى التميمة) هي ديانة بدائية. فقد آمن بها البشر الذين عاشوا في مناطق متباينة المناخ، عبدوا تمائم مختلفة، وعلى سبيل المثال اتخذ أجدادنا من الذئب تميمة واتخذ الهنود الثور، أما الصينيون فاتخذوا من التين تميمة لهم.

إن تاريخ الصينيين يعج بالأساطير والروايات الغريبة، ومن بينها روايات عن اتخاذ التين «طوطما». وطبقاً لإحدى الروايات فإن نهر «خوانغ خي» (النهر الأصفر) كان يفيض من وقت إلى آخر، ويلحق بالناس أضراراً بالغة، لذا فإن الناس الذين كانوا يحلمون بالتحكم في مياه «خوانغ خي» واستخدامه في أعمال الري المنتظم ابتدعوا بعض الأبطال الأسطوريين في هذا الموضوع، ورفعوهم إلى مرتبة الآلهة، «ويو» هو واحد من الأبطال المبتدعين.

وطبقاً للرواية فإن «يو» أراد شق ممر بين جبلين ليكون مجرى لنهر «خوانغ خي» بغية السيطرة على فيضان النهر. وبينما كان يشق جبلاً قاسياً لهذا الغرض صادف مغارة عميقة داخل الجبل، وقابل في المغارة مخلوقاً له رأس إنسان وجسم ثعبان، وأعطى هذا المخلوق لـ «يو» صولجاناً من البلور فأطلق عليه «يو» اسم «يو - شي» واتخذته جدياً له، وهكذا فقد اتخذ الصينيون من هذا الثعبان تميمة بدءاً من قبيلة «شيا» القديمة وحولوه مع الزمن إلى تين له أربعة أرجل، والنتيجة أن طوطم الصينيين تحول من الثعبان إلى التين.

لقد اتخذ أجدادنا من الذئب طوطما في العصور القديمة وطبقاً

للروايات القديمة فإن «جوموفانج» حاكم «جو الغربيين» غنم من الهون في إحدى الحروب التي خاضها ضدهم، ذئبين أبيضين وثورين، وأيضاً طبقاً لنفس الروايات فإن هذه الحادثة وقعت في سنة ألف قبل الميلاد.

وقد اكتشفت في منطقة «أروس» في «وادي أوردوس» في وسط منغوليا الحالية في شهور الشتاء من سنة ١٩٧٢م، قبور تخص الهون، بداخلها ميراث حضاري من الذهب والفضة. ومن بين هذه الحاجيات الذهبية تاج من الذهب، حفر فوق طرفه العلوي صورة صقر كامل من الذهب. ويحيط بالصقر من جانبي التاج نفسه ذئبان يشاهدان حملين يتصارعان، والصقر في وضع استعداد للطيران. وطبقاً لرأى الأثريين الصينيين فإن هذا التاج يعود إلى القرن السابع قبل الميلاد، وتبين هذه التصاوير الموجودة على هذا التاج الذهبي، حب الهون للذئب بدرجة كبيرة، كما تبين أنهم عملوا بالتعددين أيضاً قبل الميلاد بألف عام. ولاسيما أنه في «ملحمة الأوغوز» يقال أن ذئباً أغبر أرشده إلى الطريق خلال الحملات التي شنّها نحو الغرب كما يرد أنه تكلم مع أوغوز خان كما يتكلم البشر، فيقال:

«انسحب الأويغور إلى داخل أحد الجبال بعد أن انهزموا أمام العدو في إحدى الحروب، ولم يتمكنوا من العثور على طريق للخروج وشارفوا على الهلاك، فرأوا ذئباً ظهر فجأة في الجبل وأمر سلطان الأويغور رجاله بالسير وراء الذئب. وبعد أن وصل الذئب إلى عمق الجبل دخل مغارة كبيرة، فانتظروا أمام المغارة يترقبون خروجه ولكن الذئب لم يخرج، وبعد أن قطع الجنود طريقاً طويلاً في المغارة وصلوا إلى الطرف الآخر منها، وظهرت أمامهم ساحة جميلة مغطاه بالعشب الأخضر ماؤها غزير، وبها أنواع كثيرة جداً من الطيور، وتقف فيها الثيران والغزلان تداعب بعضها بعضاً. فعادوا على الفور وقصوا ما رأوه على أوغور خان، فتحير الأويغور وفرحوا بسماع هذا الخبر، وبعد ذلك مروا من المغارة التي مر منها الذئب ووصلوا إلى ساحة واسعة وجميلة ونجوا من الخطر».

واعتباراً من هذا التاريخ اعتبر الأويغور الذئب مقدساً وعبدوه.  
وهناك عدة روايات في كتب تاريخ الصين القديمة تتعلق باتخاذ  
أجدادنا من الذئب طوطماً وسنقدم هنا بعض النماذج من الروايات  
المشار إليها:

في زمن ما كان لسلطان الهون إبتان جميلتان، وكانت الفتاتان  
جميلتين لدرجة أن السلطان لم يرغب في تزويجهما لأحد من البشر،  
وقرر أن يزوجهما لإله. وحتى يبعد ابنتيه عن البشر، فقد أمر ببناء  
قلعه عالية في مكان لم تطأه قدم إنسان في منطقة شمالية من  
دولته وأسكن إبنتيه هناك. وبعد أن مرت عدة سنوات أرادت الأم أن  
تري إبنتيها، ولكن السلطان أفهمها أنه سيكون من الخطأ أن يري  
الناس إبنتيه ولم يأذن لها. وفيما بعد ظهر ذئب بجوار القلعة، وحفر  
أسفل سور القلعة واتخذ من ذلك المكان مأوى له، وخرجت صغراهما  
من القلعة وأرادت الزواج من الذئب لكن الأخت الكبرى قالت لها: «إن  
الذئب حيوان فكيف ستتزوجين من حيوان؟ وإذا فعلت ذلك فستكونين  
قد لوثت شرف أجدادنا»، أما هي فقالت: «إن هذا ليس ذئباً، إنه إله  
متخف في شكل ذئب» ونزلت إلى أسفل وتزوجت من الذئب وولدت  
أطفالاً، وبمرور الزمن إزداد عدد الأطفال وأطلق على أحفادها «أصحاب  
العجلات العالية» وهكذا ظهر الأويغور إلى الوجود<sup>٢٣</sup>.

وفي رواية أخرى مشابهة لهذه تزوجت ابنتا سلطان الهون من  
ذئبين جاء في صورة إلهين ويروى أنهما ولدتا أقوام «أون أويغور»  
و«طقوز أوغوز» أي «الأويغور العشرة» و«الأوغوز التسعة».

وفيما يلي رواية أخرى:

«الأتراك هم قبيلة من الهون، ولقبهم الأصلي «أسينا». في البداية  
كانوا قبيلة مستقلة عن الهون، ثم تعرضوا لهجوم دولة مجاورة ابادت  
كل القبيلة بالسيوف حتى وصلوا إلى طفل في العاشرة من عمره، فلما  
رأى جنود العدو أن الولد صغير جداً لم تطاوعهم قلوبهم على قتله،



وفى النهاية قطعوا رجليه وألقوه فى مستنقع مغطى بالعشب، وكانت بداخل المستنقع ذئبة فربت الطفل على اللحم وهكذا ترعرع الطفل وكبر وقام بمعاشرة الذئبة فحملت منه، فلما علم ملك الدولة المجاورة أن الطفل ما زال حياً أرسل رجاله مرة أخرى لقتله، فلما رأى الرجال الذئبة بجانب الشاب أرادوا قتلها أيضاً وبناء على ذلك هربت الذئبة إلى جبل فى شمال دولة قاويجانج (طورفان) واختبأت، وكانت هناك مغارة فى الجبل، ومن داخل المغارة يمتد وادٍ متسع جداً يكتسى بالعشب، وكان الوادى الذى يتسع للمئات محاطاً بالجبال، فاختبأت الذئبة فى الجبال، وهناك ولدت عشرة أولاد فلما كبر الأطفال خرجوا من المغارة وتزوجوا بنساء من خارج (المغارة) فولدوا أطفالاً كثيرة العدد واتخذت كل قبيلة لها اسماً أصلياً واتخذت إحداهن لها اسم أسينا وتزايد عدد أبنائها وأبناء أبنائها حتى أصبحوا مئات من العائلات.

وبعد عدة أجيال، صاروا تابعين لـ «لأوار»، ثم خرجوا من المغارة ليقوموا بخدمتهم وبدأوا فى العيش فى السفوح الجنوبية لجبال «الطاي» وعملوا فى خدمة الأوار كحدايين مهرة»<sup>٢٤</sup>.

وهناك رواية أخرى تقول:

«إن أجداد الترك ينحدرون من أقوام الصاقا الذين عاشوا شمال أقوام الهون. وكان زعيم القبيلة «هو آيانج بو» (آيابك) فى السابعة عشرة من عمره، وكان اسم أحد إخوته الذين ولدتهم الذئبة «إيجي ينشوتو». وكان كل الإخوة وآيانج بو وإخوته قد ولدوا ناقصى الأعضاء، ولهذا السبب تعرضت دولهم فى النهاية للعدوان من الآخرين وانمحت. ولكن ملكاً لمس «إيجي ينشوتو» لمسة، وبها أكسبه مهارة، فكان يمكنه إسقاط المطر إرسال الريح، وتزوج من امرأتين. وطبقاً للرواية كانت إحدى النساء بنتاً لإلهة الصيف والأخرى بنتاً لإلهة الشتاء وولدت إحداهما أربعة أطفال ذكور، وكان واحد من الأولاد قد تحول إلى أوزة بيضاء، وكون الآخر دولة فى الأراضى الواقعة بين «أفو» (أباقان) ونهر «قاما» (اولوكم) وأطلق على الدولة (كي قو) قيرغيز، وحكم الابن الثالث عند

شاطئ نهر (ينسى) أما الرابع فعاش على سفح جبل «شيانجوجي» (غرب صايان) وكان الولد أكبر الأطفال الأربعة، وكانت البطون الأخرى لقبيلة «آيانج بو» تعيش على قمة هذا الجبل، وبسبب برودة الجو في تلك الأماكن، كان أكبر الإخوة يوقد النار لتدفئة أفراد القبيلة والإبقاء عليهم أحياء، وهكذا تمكنوا من الاستمرار في الحياة، وعين أكبر الإخوة زعيماً وأطلقوا عليه اسم (ترك) ٢٥.

ولأن أجدادنا عاشوا بوصفهم جيراناً للتورانيين والصينيين، فقد حفظت الحوليات الصينية القديمة أكثر الروايات المتعلقة بأصولهم. وكان سفراء وتجار الأسر الحاكمة التي كانت تحكم الصين، يذهبون في كل عام إلى الأراضي التي يعيش فيها الهون ويتعرفون على طرز حياتهم هناك وعلى آدابهم وفنونهم وحكاياتهم الشعبية، وعندما يعودون إلى بلادهم، يقدمون إلى حكامهم تقريراً بكل هذا.

وإذا لم نأخذ بعين الاعتبار الفروق الصغيرة التي بين الروايات السالفة فإنها تبدو لنا متشابهة بشكل عام. فبينما يظهر الذئب كأب في الأسطورة المتعلقة بأصل الأويغور فإنه يظهر كأم في الرواية المتعلقة بأصل الأتراك، وهذا التشابه وهذه الفروق تكمل النواقص في كل منها. إن أجدادنا في هذه الروايات يربطون أصولهم بمصدر إلهي عن طريق إظهار الذئب ليس كحيوان بل كإله متخف في شكل ذئب. وهذه الروايات ترجع إلى عهد القرابة الأبوية والقرابة الأمومية بمجتمع الهون البدائي. واستخدام اسم أسينا [أشينا] الذي هو اسم أم الأتراك كإسم قبيلة، لهو دليل على ذلك. وعندما شيد الأتراك والأويغور دولهم، كانت الرايات من القماش الأزرق المربع، ورأس الذئب الذهبي الذي ينظر ناحية الشرق تتخذ مكانها في وسطها تماماً، وكان الأتراك والأويغور يطلقون على حراس القصر من الأتراك والأويغور «ذئبا».

وكما شاهدنا فإن أجدادنا اتخذوا من الذئب رباً مُخْلِصاً (ملحمة الأوغوز، الروايات الأويغورية) ورباً بذاته (حوليه أسرة وي، باب أصحاب العربات ذات العجلات العالية) والإله الأم (حوليه أسره جو، باب الأتراك)

وكذلك اتخذه تميمة، والروايات المتعلقة بإتخاذ الذئب تميمة تثبت علاقة الأخوة بين الهون والترك والأويغور والقيرغيز.

### الوثائق التاريخية

تحتوى الحوليات الصينية القديمة وآثار أورخون معلومات ذات قيمة كبيرة عن نشأة أجدادنا.

يذكر المؤرخ الصينى «وي - سهو» الذى عاش فى القرن السادس ما يلى:

«ينحدر «أصحاب العربات ذات العجلات العالية» (الأويغور الشرقيون) من نسل التورا الذين كانوا فى العصور القديمة. وكان يقال عنهم فيما قبل «التورا». لكن الشماليين (الأسر الحاكمة الشمالية) بدأوا يطلقون عليهم اسم «أصحاب العربات ذات العجلات العالية». وبالرغم من الفروق البسيطة فإن لغتهم هى نفس لغة الهون، وأجدادهم هم أحفاد «الهون»<sup>٢٦</sup>.

لقد كان الأويغور الشرقيون يستخدمون العربات ذات العجلات العالية تلاؤماً مع الظروف الطبيعية للمنطقة التى عاشوا فيها، ولهذا السبب أطلق عليهم المؤرخين الصينيين الذين عاشوا فى القرن السادس، اسم «أصحاب العربات ذات العجلات العالية».

إن الحروب الداخلية التى وقعت فى التسعينيات من الميلاد، انتهت بهزيمة قطاع كبير من الهون الشماليين (والغربيين)، فاستغلت الشعوب المعادية لهم هذه الفرصة وشنت عليهم الهجمات، مما دفعهم إلى الارتحال من سهول منغوليا الحالية غرباً إلى آسيا الوسطى. وعاشوا فى الأراضى التى تمتد من «باركول» حتى «بحيرة بالقاش» حتى سنة مائة وخمسين ميلادية. لكنهم ارتحلوا إلى غرب آسيا فى عهد «طانشقوي» امبراطور «السيانبي» (كان شي هواي) ١٤٨ - ١٨١م، ربما بسبب توجسهم منهم. وبالرغم من ذلك فقد استوطن قسم منهم فى سهول «تكس

وكونس» الحالية، وكونوا دولة حافظت على وجودها من القرن الثاني الميلادي حتى القرن الخامس سميت بدولة «صيبوار» (سابير). ويقول المؤرخ الصينى «ليان شو» الذى عاش فى القرن العاشر فى دراسته لشعب «صيبوار»: «إن عادات شعب صيبوار وتقاليده ولغاته تتطابق مع مثيلاتها لدى «أصحاب العربات ذات العجلات العالية»<sup>٢٧</sup>. أما المؤرخ الصينى «ليوسونج» الذى عاش فى القرن العاشر أيضاً فيقول: «إن أجداد الأويغور هم أحفاد الهون وكانوا فى عهد «أسرة وي» الحاكمة ٣٨٦ - ٥٢٤م يسمون شعب تورا، لم تكن قامتهم زائدة الطول ولكنهم أقوياء جداً وشجعان، وكانوا يرتحلون فى عربات ذات عجلات عالية، وكانوا تحت حكم الأتراك، ثم أطلق عليهم فيما بعد اسم شعب تورا»<sup>٢٨</sup>.

أما «قويانج سيو» المؤرخ الصينى الذى عاش فى القرن الحادى عشر فيقول ما يلى: «أجداد الأويغور هم الهون، إنهم يرتحلون على وجه العموم على «عربات ذات عجلات عالية». وفى عهد «ين وي» كانت بداية اطلاق اسم شعب «تورا» على أصحاب العربات ذات العجلات العالية (قاو قوي أو جي له)<sup>٢٩</sup>.

ويمدنا «وي-جينج» (٥٨٠ - ٦٤٣) وهو من مؤرخى الصين العظماء فى القرن السابع، بمعلومات أكثر تفصيلاً عن الوضع العام لشعب تورا فى أواخر القرن السادس حيث يقول: «إن أقوام «تورا» هم أجداد الهون، ولهم عدة قبائل وبطون، وقد استقروا فى سفوح الجبال التى تبدأ من شرق البحر الغربى (بحر الخزر)»<sup>٣٠</sup>.

إن شعب تورا الذى نتحدث عنه فى هذا المقام كان يعيش فى الأراضى الممتدة من بحيرة البايقال فى الشرق حتى البحر الأسود فى الغرب.

أما فى نقش «بيلكة سلطان» فيذكر:

«كان «الطقوز أوغوز» شعبى، فلما أصبح العالم فوضى ووقع الحسد بينهم صاروا أعداء لي»<sup>٣١</sup>. و«الطقوز أوغوز» موضوع الحديث هنا ليسوا

سوى الأويغور الشرقيين. وفي عهد سلطنة الأويغور، كان الأويغور الشرقيون يتشكلون من الـ «أون أويغور» و«الطقوز أوغوز». وهذه المعلومات التاريخية التي ذكرناها هي دليل على أن الأويغور والهون والأترك ينحدرون من أصل عرقي واحد.

### ◀ الأدلة الأثرية

اكتشفت قبور وأدلة تاريخية تخص أجدادنا في جبال «الطاي» وفي السفوح الشمالية والجنوبية من جبال «طانري» وبالقرب من «شيآن». وقبور الهون والأترك الموجودة في «الطاي بازيريق» ترجع لعصور ما قبل الميلاد. ويستشف من الجثامين الموجودة في القبور التي تعود لأزمة سحيقة أن الهون والأترك كانوا ذوي مناكب عريضة وقامة طويلة وبنية قوية وأنف مستقيم ووجه طويل وأبيض. وقد دفنت هذه الجثامين في أماكن باردة عالية في جبال الطاي. وقبل القيام بدفن هذه الجثامين، أتوا بالحجارة الصلبة الموجودة في مواضع باردة وعالية من الجبال، وبنوا قبوراً من الحجارة الطبيعية تشبه القصور وصقلوا جدرانها بطريقة جميلة وغطوها بالخشب المسطح ودفنوا بها الجثامين التي وضعوها داخل تابوت خشبي، وأغلقوا باب القبر بإحكام لمنع تسرب مياه الثلوج التي تذوب من القمم العالية صيفاً، وهكذا حفظت هذه الجثامين صيفاً وشتاءً دون أن تفسد على الإطلاق بسبب برودة الجو.

وتثبت الوثائق الصينية التاريخية القديمة أيضاً أن «الهون» كانوا ذوي مناكب عريضة وقامات طويلة.

هُزم الهون في الحرب التي وقعت بينهم وبين الصينيين سنة ١٢١ ق.م وتم جلب أحد أمراء الهون إلى قصر أسرة هان الحاكمة، وأطلق «هان فوتي» على أمير الهون اسم «جنيج من تي»، وكلفه بمهمة تربية خيول الحرب. كان طول الأمير الهوني ثمانية جي واثنان سونج وهي تقابل في زماننا هذا مترين وعشرة سنتيمترات<sup>٢٢</sup>، ويتطابق طول

القائمة الموضح هنا مع طول قامة الجثامين الموجودة في مقابر الهون الموجودة في جبال «ألطاي»، وتوضح هذه المعلومات أن الهون كانوا ذوي مناكب عريضة وقامات طويلة.

لقد أطلق المؤرخ الروماني الشرقي «بروسكوبيوس» الذي عاش في القرن السادس الميلادي على أقوام الهون التي عاشت في شرق بحيرة آرال، اسم الهون البيض بسبب بياض وجوههم.

وفي دراسة أجراها مركز الأبحاث الأثرية بأكاديمية العلوم الصينية بين عامي ١٩٥٥ - ١٩٥٧ في مكان يدعى «شانج - لينج - فان» قريبا من نهر «سي أن» الكائن في إيالة - «سانشي»، اكتشفت مقبرة خاصة تم التأكد من أنها ترجع إلى عهد «أسرة هان» الحاكمة، وظهرت بين الأشياء الموضوعية مع الجثمان داخل المقبرة لوحتان من الصلب تأخذان شكلاً عمودياً مربعاً صور فوقها رجلان وحصانان، وكان الشخصان اللذان في هذه الصورة واللذان صورا في وضع المصارعة وكل منهما يمسك بخصر الآخر، ذوي بنية ضخمة وشعر طويل وكل منهما يرتدي سروالا، وطبقاً لرأي الأثريين الصينيين فهؤلاء هم سفراء أرسلهم الهون إلى «أسرة هان» الحاكمة أو أنهم معاونو السفراء، وهذه اللوحة تمدنا بمعلومات من ملابس الهون والمظهر الخارجي لهم وشكل شعرهم إلى آخره.

في سنة ١٩٧٢ اكتشف الأثريون بتركستان الشرقية (سينكيانغ)\* مقبرة الأمير الهوني «قوتقو بانتاي»، الذي كان والياً على طورفان في القرن الخامس، وذلك في مدفن «أستانه» في ولاية طورفان. فضلا عن ذلك كانت توجد ستة تماثيل من الطين في قبر «قوتقو بانتاي» الذي مات ودفن سنة ٤٤٥م، وعلى الرغم من أن التماثيل كانت تبدو سليمة، وكانت التماثيل ذات وجوه طويلة وأنف مستقيم وشعر طويل، ومن المحتمل أن صانعي هذه التماثيل قد صنعوها بالتطابق مع مظهرهم الطبيعي. إن أجدادنا كانوا ذوي وجوه طويلة، وأنف مستقيم وشعر طويل وقصير الرقبة على الصورة التي شرحناها بعاليه.

ويعرف من لديهم معلومات تاريخية قليلة أن قوتقو بانتاي «كان ابن «قوتقو مونسو» (٣٩٧م - ٤٦٠م) حاكم إمارة الهون بـ«قانسو»، وكانت إمارة هون «قانسو» التي عاشت أقوى عصورها في عهد «قوتقو مونسو»، تضم قطاعاً من «هوس وتسي» وجزء من «كوكنور» وقطاعاً من جنوب تركستان الشرقية (داخل طورفان) حتى أن «قوتقو بانتاي» عين والياً على طورفان.

إن هذه الإكتشافات الأثرية التي ذكرناها تتطابق مع المظهر الخارجي لجثامين النساء المتحصل عليها في «لوب نور» و«قمول» وكذلك مع الشكل الجسماني للأويغور الشرقيين في منغوليا وقيرغيز ينيسي.

لقد كان الأويغور الشرقيون ذوي وجوه بيضاء وأنف مستقيم وشعر بني، وكان قيرغيز ينيس لهم نفس الصفات الجسمانية<sup>٢٣</sup>.

وفيما يلي بيت من الشعر للشاعر الصيني «لي لو وانج» الذي عاش في القرن الثامن :

يرقص أويغور «ليانج جو» بسعادة

أنوفهم المستقيمة ووجوههم البيضاء تشبه حجر اليشم<sup>٢٤</sup>

### ◀ الموسيقى والرسوم الصخرية

لاحظ الموسيقيان الصينيان اللذان يدعيان «ليويا - وسونج» و«جانج ليو» وجه الشبه بين الأغاني الكلاسيكية للأويغور الصفر الذين يعيشون في قانسو وبين الموسيقى المجرية الكلاسيكية، وكتبوا مقالات كثيرة جداً في هذا الموضوع، وقد جذبت المقالة العلمية التي كتبها «ليويا وسونج» على وجه الخصوص، اهتمام الموسيقيين الصينيين والأجانب.

درس «ليويا وسونج» الموسيقى في أحد المعاهد في الصين، أما «جانج ليو» فقد درس في المجر، وبينما كان هذان الموسيقيان يقومان بأبحاثهما الموسيقية في المناطق التي عاش فيها الأويغور الصفر في «قانسو»، وبعد أن قارنا البنية الأصلية لهذه الموسيقى اكتشفا أن النغمات الصوتية

فى الموسيقى الكلاسيكية المجرية تشبه النغمات الصوتية فى الموسيقى الكلاسيكية فى تلك المناطق.

وفضلاً عن قيامهما بعمل مقارنة بين البناء الأولى لهذه الموسيقى، فقد درسا الموضوع من زاوية التاريخ والإثنولوجيا وعلم اللغة وحسب رأيهما فإن شعب تورا هم أجداد الأويغور الصفر وممثلى الشعب الذى عاش مع الهون فى نفس المنطقة آنذاك. وكانت لغاتهم قريبة من بعضها، واللغة التركية تنتسب إلى مجموعة الطاي اللغوية، كما أن قسماً من الهون هاجر إلى أوروبا فى القرن الأول الميلادى. أما أجداد الأويغور الصفر الحاليين فقد استقروا بممر «خيشى» فى (قانسو) فى القرن الرابع، وكما حافظ الأويغور الصفر على الموسيقى الشعبية لشعب تورا، فإن قبائل الهون المهاجرة إلى الغرب نقلت إلى المجر موسيقى الهون وأحيوها هناك حتى يومنا هذا. وهكذا فقد أطلق اسم «منطقة الموسيقى «ذات النغمات الخمس» على المنطقة الواسعة التى عاش فيها «الأويغور الصفر» الحاليون، والممتدة من منغوليا حتى البحر الأسود فى الشرق بما فيها بحر الخزر وآسيا الوسطى، ومن هنا ظهر التشابه بين هذه الأغاني الشعبية فى الشرق والغرب لكونهما جاءا من مصدر واحد<sup>٢٥</sup>.

كان لنظرية «ليوياسونج» و«جانج ليو» صدى كبيراً لدى العلماء فى المجر وأمريكا وكندا والأرجنتين وفى دول أخرى وقد استقبل هؤلاء العلماء التأثير الثقافى بين الشرق والغرب بوصفه اكتشافاً هائلاً.

لقد توصل أثريو تركستان الشرقية (سينكيانغ) إلى اكتشافات فى غاية الأهمية منذ عدة أعوام نتيجة للأبحاث التى قاموا بها فى المناطق الشمالية والجنوبية من جبال طانرى، وتحتل الطبقة الصخرية الموجودة على ساحل نهر مولجر الذى يصب بين مضيقى «قره قوروم» و«آلتون طاغ» الجبليين، تحتل موقعاً هاماً، ومن بين هذه الرسوم تحتل الرسوم الحيوانية (مثل الحصان والجمال والثور) ورسوم البشر (البشر ذوو الأقنعة) الذين يرقصون ويقومون بالصيد، والإنسان ذو الذنب، تحتل أماكنها وإلى جانبها صور أخرى مثل الصيد ومناظر الحرب وهذه الرسوم الصخرية



شاهد على أن أجدادنا عاشوا في وادي تاريم في الماضي البعيد.  
هناك أسباب كثيرة جداً وراء التدقيق في دراستنا للأشكال الصخرية  
في وادي مولجر، ويأتي على رأس هذه الأسباب أنها تظهر طرز حياة  
الشعوب البدائية.

ويجذب انتباهنا من بين هذه الرسوم البشر المقنعون والبشر ذوى  
الذنب على وجه الخصوص، فقد كان أجدادنا الذين عاشوا على سواحل  
منطقة تاريم في الماضي البعيد لا يعملون بالزراعة والصناعة فقط، بل  
كانوا يعملون بالصيد أيضاً، وتبين تصاوير الأفراد ذوى الذنب وذوى الأقنعة  
أنهم حينما يخرجون للصيد كانوا يرتدون أذئاباً وأقنعة حتى يخفوا  
أشكالهم البشرية. إن أجدادنا الذين عاشوا في تلك الفترة استخدموا  
كافة أساليب الصيد، فأحياناً كانوا يصطادون بالسهم وأحياناً يحاصرون  
الصيد ويوقعون به في الشرك، وقاموا بالصيد أحياناً فرادى وأحياناً في  
جماعات، وأثناء الصيد كانوا يتخفون أحياناً في صورة الحيوان، وعن  
طريق تقليد أصوات الحيوانات أيضاً كانوا يصطادون الغزلان والحملان  
والحمام عن طريق تدريب الطيور الجارحة. إن تصاوير الكلاب الموجودة  
على التصاوير الصخرية هي على الوجه الأرجح لكلاب الصيد. وهناك  
مزية أخرى تجذب الإنتباه في هذه التصاوير ألا وهي المظهر الحى  
والسعادة البادية على الأشخاص الذين يرقصون. ولقد كان الناس في  
العصور البدائية يظهرون سعادتهم عن طريق الرقص، فكانوا يرقصون على  
أثر صيد جيد وعلى إثر انتصار تحقق في الحرب؛ وكذلك أثناء حفل  
العرس الذى كان يقام بشكل بدائى. وتحتل أيضاً تصاوير الحرب مكانها  
بين الرسوم، وكانت تحدث صدمات للإستيلاء على منطقة بنفس قدر  
الصدمات التى كانت تسببها اللغة والعادات والتقاليد وعلاقات القرابة،  
ومناظر الحرب المنقوشة على الصخور على ساحلي نهر «مولجر»، من  
المحتمل أنها اتخذت من هذه الصراعات موضوعاً.

وهناك وجوه للتشابه بين التصاوير الصخرية الموجودة في منغوليا  
في جبل هانجاي، وفي منغوليا الداخلية «جبل جوغاي»، وجبال الألتاي

وشمال شرق جبال طانري والمكتشفات الصخرية الموجودة في جبال قره قوروم وجنوب جبال «طانري» في السنوات الأخيرة، وكذلك بين الرسوم الصخرية المتحصل عليها في آسيا الوسطى ووجوه الشبه هذه دليل على أن أجدادنا المشتركين عاشوا في المناطق التي تحدثنا عنها فيما سبق.

إن التصاوير الصخرية لها قيمة تاريخية كبيرة في إمدادنا بمعلومات عن موضوعات مهمة مثل طرز حياة أجدادنا وأصلهم العرقي وحضارتهم في عهد المجتمع البدائي.

وبالنظر إلى الرسوم الحجرية التي على طرفي نهر «مولچر» وهي فرع هام من فروع الفن في الماضي السحيق، نندهش لما تكشفه هذه الرسوم الحجرية عن العصور التي عاش فيها أجدادنا ونمط الحياة الأمومي (أي القائم على عائلة الأم)، ونرى مستوى التطور الواضح. وهذه الرسوم الحجرية المنقوشة على الصخور عمرها التاريخي ٨٠٠٠ عام تقريباً. وتثبت أن الأويغورينحدرون من نفس الأصل العرقي لشعوب الترك والصاقا والهون وتورا الذين عاشوا في سالف الزمان في مناطق مختلفة من آسيا الوسطى وجبال «ألطاي» وجبال «چوغاي» وهضاب «أوردوس» وأودية «كورولون» [كيرولين] و«أورخون» و«سلانجا» وسهول سيبيريا الجنوبية.

إن الحضارة التي أسسها الأتراك والصاقا والهون والطوريين كانت حضارة قومية إلى حد ما وقد أثبت العلم الحديث صحة هذا الرأي. امتزج الأويغور طيلة تاريخهم مع الشعوب التي من أصل مغولي مثل شعوب «سيانبي» و«أوار» و«قيطان» (من القرن الثالث قبل الميلاد إلى القرن السادس الميلادي)، أما فيما بين القرن الثالث عشر والقرن السابع عشر فقد امتزجوا على نحو واضح بالمغول أنفسهم واستوعبواهم ولكنهم حافظوا على مظاهر العرق الأبيض الخاصة بأجدادهم وهي (الأنف الشامخ والعين الزرقاء والشعر الأصفر).

إن الأتراك و«الصاقا» و«القانلي» و«الأوسون» وشعب «ياوچی» (دا - يوچی) وشعب «تورا» و«الهون» الذين ينتمون لنفس الأصل من حيث رابطة الدم واللغة والعادات والتقاليد، يشكلون الشعوب التركية المتقاربة فيما بينها والتي تتحدث اللغة التركية والتي امتزجت بدرجة واضحة بالشعوب المنغولية في الشرق من ناحية، وبالشعوب ذات الأصل «الآري» التي تعيش في وسط وغرب آسيا من ناحية أخرى. وتلك الشعوب هي عبارة عن القيرغيز الذين ينتمون لقبائل «ينيساي» و«الياقوت» الذين بجوار «لينا» في شرق سيبيريا وشعوب «طووا» و«بوريات» التي تعيش في جنوب بحيرة بايقال، وهي أيضا عبارة عن شعوب «سالار وصاري أوغور» في «قانصو»، والأويغور في شرق التركستان، وشعوب «چوواش والمولداو والتركمان والتاتار والباشقورت والأوزبك والقيرغيز والقازاق» الذين في غرب تركستان، وعبارة أيضا عن شعوب «أغا أوغوز» التي في أوكرانيا، و«الچركس» في القوقاز، وتاتار داغستان، والأذربيجانيين والآوار وأغا أوغوز والتركمان والأذاريين في فارس، والمغول والتركمان والأوزبك في أفغانستان، والتركمان في العراق، والأتراك في تركيا.

هذه الشعوب التركية التي عدنا أسماءها تعيش في منطقة جغرافية واسعة تمتد من شرق آسيا إلى غربها وحتى جنوبها. وفي أيامنا هذه نجد أغلبية الشعب التركي مسلم سني. ويتجاوز تعداده ١٥٠ مليون نسمة<sup>٣٦</sup>. ولغة الشعب التركي، وفقا للتصنيف اللغوي في أيامنا هذه تنتمي إلى أسرة اللغات الطائية، أما من ناحية العرق فهم ينتسبون إلى الجنس التوراني (الهون - الترك) الأبيض.

## الفصل الثالث: الأويغور قبل سلطنة أورخون

### الهون والأويغور

لقد لعبت أقوام «الهون» أجداد الأويغور المباشرين، دوراً مهماً في تشكل الشعوب التركية الأخرى في أقدم العصور.

إن أقوام الهون خلال عصور طويلة تقدر بألفي عام بدءاً من سنة ١٥٠٠ قبل الميلاد حتى أواخر القرن الخامس الميلادي، تركت في آسيا الوسطى وأوروبا آثاراً مهمة خالدة في ذاكرة البشرية. إن أقوام الهون الذين عاشوا جيراناً لدولة الصين في عهد الأسر الحاكمة التي تأسست طوال تاريخ الصين وهي أسر «شيا» (٢١٠٠ - ١٦٠٠ ق.م)، «ين» (١٦٠٠ - ١١٠٠ ق.م) «جو» (١١٠٠ - ٢٥٦ ق.م) «تسين» (٢٢١ ق.م - ٢٠٧ ق.م)، «هان» (٢٠٧ ق.م - ٢٢٠ م)، شنوا هجمات عديدة على السهول الوسطى، وسببوا لها أضراراً جسيمة، وخلاف ذلك فإن الهون ساهموا في تطور اقتصاد الصين وثقافتها، ولهذا فإن ما قام به الهون في آسيا يشغل مكانة مهمة في تاريخ الصين.

اعتباراً من القرن الثامن قبل الميلاد وعلى وجه الخصوص في القرن الثالث، اتخذ «الهون» مكانهم على ساحة التاريخ كقوة سياسية كبيرة، إذ كونوا امبراطورية الهون، ومثلوا خطراً كبيراً على الصين. إن امبراطورية الهون الكبرى التي حافظت على وجودها حوالي خمسمائة عام، ومن بعدها دولة «الهون» الغربيين التي استمر حكمها ٢٢٨ عاماً، وكذلك امبراطورية «هون أوروبا» الذين حافظوا على وجودهم خمسة وتسعين عاماً وكذلك أقوام الهون، كلها تركت آثاراً لا تمحى من تاريخ آسيا وأوروبا.

لقد ورد ذكر الهون بأسماء مختلفة فى فترة تطور الصين المبكرة، لكنهم ذكروا فى فترة الحكام المحاربين باسم الهون (الهيونغ - نو) فقط.

لقد روى المؤرخ الصينى «سيمانجىن» (المولود ١٤٥ ق.م تقريباً) أقدم معلومات عن الهون، وروى الأحداث التى وقعت فى عهد الإمبراطور «هوانج تى» الذى طردهم نحو الشمال، ويعتقد أن «هوانج تى» كان حاكماً أسطورياً عاش فى الصين فى فترة المجتمع البدائى، ويحكى أنه عاش قبل خسة آلاف عام من هذا. وتبين من هذه المعلومات أن «الهون» عاشوا منذ القدم جيراناً للصينيين، وأنهم كانوا يمثلون عدواً خطيراً على جيرانهم.

كان الهون - الذين عاشوا منذ أقدم العصور بجوار «نهر أورخون» وفى المناطق الجنوبية والشمالية من «جبال جوغاي» (ين شان) وعلى سفوح «جبال الألتاي» و«طانرى». وأيضاً الأويغور والشعوب التركية الأخرى، كانوا يعتنقون الشامانية، وكما هو معروف فإن الشامانية عقيدة ذات آلهة كثيرة، وإله الشمس هو أعظم الآلهة فى هذه العقيدة و منه جاء اسم «كُون» kun، قد طرحت وجهة نظر مؤداها إن لفظ «كُون» kun قد صار لفظاً هونياً، إلا أنها لم تلق القبول.

إن البشر فى فترات عدة على مدار التاريخ، اضطروا إلى العيش مجتمعين فى فترة المجتمع البدائى بسبب بعض صعوبات مثل صيد الحيوانات الكبيرة؛ وقطع الأشجار فى الغابات وزراعة الحقول. وكان هذا النوع من المجتمعات البدائية يتكون على وجه العموم من عدة مئات من الأشخاص، يغلب عليها نظام العمل الجماعى، فهم شركاء فى استخدام الآلات، وفى استهلاك المنتجات. ثم تتلاقى المجتمعات المتجاورة التى تتحدث نفس اللغة فتتكون قبيلة. وكانت عاداتها وتقاليدها قريبة جداً من بعضها، ويدير القبيلة رؤساء يتم اختيارهم من قبل المجلس الذى يشكله أفراد القبيلة.

لقد عاش الناس فى صورة مجموعات وقبائل طوال عدة قرون

وانتقل الهون مثل الشعوب الأخرى من المجموعة إلى القبيلة ومن القبيلة إلى اتحاد القبائل وبعد أن عاشوا المراحل الواضحة للمجتمع البدائي كونوا القوة المسلحة التي كانت البنية الأساسية للدولة، وكانت القبائل في تلك الفترة على وجه العموم تتحارب مع بعضها بهدف الإستيلاء على الأراضي اللازمة للصيد وتربية الحيوانات والزراعة وهكذا ظهر اتحاد القبائل وكان لرابطة الدم واللغة المشتركة وتشابه العادات والتقاليد العامل الأكبر في تشكيله. وكانت القوات المسلحة التي تملكها هذه القبائل المتحالفة والتي تشكلت لحمايتها ضد جيرانها هي أكبر العوامل في ظهور الدولة.

في عام ١٥٠٠ قبل الميلاد كانت هناك عداوة بين «الهون» الذين كانوا يمتلكون جيشاً خاصاً بهم وبين «أسرة ين» الحاكمة، ودارت بينهما معارك استمرت ثلاثة أعوام في عهد «قوتينج» حاكم «ين» (١٣٦٦ ق.م - ١٣٢٤ ق.م). وفي النهاية انهزم الهون<sup>٢٧</sup>، لكنهم استعادوا قوتهم في عهد أسرة «جو» الحاكمة وهاجموا الصين مرة أخرى، حتى أجبروا شعب «جو» على الهجرة من أراضيهم في القرن العاشر قبل الميلاد. وهكذا وصل شعب «جو» إلى «جو يو وان» التي كانت بها أراضى واسعة وخصبة تقع بالقرب من جبل «كي-شان» (القطاع الشمالي الشرقي من منطقة لي شان في شانسي) واستقروا هناك حتى أنه يرد في رباعية قديمة جداً تخص الصينيين:

لقد خرجنا من بيوتنا بلا مأوى

بسبب أقوام الهون

وهاجرنا بسبب خوفنا

بسبب أقوام الهون

وبالرغم من تفوق أقوام «جو» في البداية في الحرب الدامية التي وقعت بين الهون وأسرة جو الحاكمة سنة ٨٢٣ ق.م في شمال نهر

«هوانج-هو» إلا أن الهون انتصروا وأزالوا «أسرة جو» الحاكمة من الوجود. لقد اعتمد الهون الذين حاربوا سوان وانج حاكم «جو» (٨٢٧ - ٧٨٢ ق.م) على أسوار «هاوجينج» العاصمة (الآن هي في غرب شان) وفي الحرب التي وقعت بجوار «سانشي» أثناء الحركة الانتقامية التي بدأها «سوان وانج» ضد الهون في سنة ٨٢٧ ق.م، انتحر «جين قونج» بعد أن تمكن الهون من تشتيت جيش «جو» الذي كان يقوده.

تعرضت السهول الوسطى لكوارث طبيعية شديدة في عهد «يوانج» من أسرة «جو» الحاكمة (٧٨١ - ٧٧١ ق.م) وجفت الأنهار والينابيع، واصفرت الأشجار والخضرة وتشققت الحقول وأصابها البوار من قلة المياه، وأثناء تشتت الناس هنا وهناك لينجوا بأرواحهم، وقعت زلازل عنيفة في سنة (٧٧٩ ق.م) في الوديان الواقعة في مجاري مياه العاصمة «هاوجنج» ونهر «هوانج هو»، و«جن» و«لوي».

بعد اعتلاء «يوانج» حاكم الصين العرش بثلاث سنوات، عشق فتاة تدعى فوتيتس وتزوجها، وأنجب منها طفلاً أطلقوا عليه اسم «بيفو»، ورفض «جويوانج»، أن يكون «يي جو» ابن زوجته الكبرى «سين هو» ولياً للعهد، وعين «بيفو» ولياً للعهد بدلاً منه. وبناء على ذلك غضب «يوانج» والد «سين هو» ولجأ إلى الهون وحرصهم على مهاجمة شعب «جو»، وأيقن الهون أن شعب «جو» في موقف صعب، فاعتدوا على حدود عاصمتهم «هاوجنج» وقتلوا «جويوانج»، وأسروا الأميرة «فوتيتسي شي»، وسوى الهون «هاوجانج» بالأرض واحتلوا «شانسي»، وهكذا انمحي من التاريخ ذكر أسرة «جو» الحاكمة التي عاشت مائتين وستين عاماً. إلا أن «يينج وانج» وهو من أمراء «أسرة جو»، انسحب إلى مدينة «لويانج» مع بعض القبائل، واتخذ من ذلك المكان عاصمة وأرسى أساس أسرة حاكمة جديدة هي أسرة «جو» الشرقية.

دخلت أقوام الهون في القرن السابع قبل الميلاد من القطاع الشمالي لمحافظة «خوبي» و«شان سي» الحاليتين، وتقدمت نحو الجنوب وبدأت في تهديد «لويانج»، لدرجة أنهم دخلوا «لويانج» مرتين

وطردوا «سيانج وانج» حاكم «أسرة جو» الحاكمة الشهيرة ووصلوا بالدولة إلى نقطة الإنهيار.

بعد تأسيس «أسرة جو» الحاكمة، قويت الإمارات التابعة لها، واتحد قسم منها مع بعضه وانمحي القسم الآخر من ذاكرة التاريخ، وضعف قسم ثالث. ويطلق المؤرخون الصينيون على هذه الفترة «قون هو» (أي الصلح العام) وفي هذه الفترة حافظت «أسرة جو» الحاكمة على وجودها اسماً فقط ولكنها في الواقع كانت حكومة صورية.

ظهرت في القرن الخامس قبل الميلاد في الصين سبع إمارات لم تنقطع الحروب بينها حتى أطلق على هذه الفترة في كتب تاريخ الصين «عصر الحكام المحاربين» (٤٧٥ - ٢٢١ ق.م).

ومن هذه الإمارات إمارة «چی» (في ولاية شان تونغ) وإمارة «ين» (في خبي) وإمارة «جاو» في (شن سي) وإمارة «چين» في شانسي وكانت في وادي «هوانج هو»، وكانوا جميعاً جيراناً للهون. أما الإمارات الثلاث المسماة «هان» و «فو» و «وي» فلم تكن على اتصال بالهون مباشرة، لأنها كانت في وادي «يانج تسي» وبسبب ذلك كانت إمارات «چی» و «ين» و «جاو» و «چين» فقط عرضة لهجمات الهون المستمرة.

واستفاد الهون من الفرصة التي سنحت لهم في عهد الحكام المحاربين، فقوموا صفوفهم وجمعوا كل قواهم العسكرية في براري «أوردوس» والسفوح الجنوبية لجبال «چونغاي» ثم أخذوا في شن هجماتهم على جيرانهم في المناطق المجاورة.

وإزاء هذا الخطر بدأت إمارات «ين» و «چاو» و «چين» في بناء الأسوار الشمالية، بهدف الاحتماء من هجمات الهون، إلا أنها لم تجد نفعاً.

فقد عبر فرسان الهون نهر «هوانج هو» في عام ٣١٠ قبل الميلاد واحتلوا الأراضي الواقعة جنوب «أوردوس» (وهي إيكي جاو الواقعة وسط منغوليا) وتوغلوا من حدود إمارات «چين» و «چاو» و «ين» إلى المناطق الداخلية، ومنهم إمارة «چاو» التي أجذبت أراضيها بطول حدودها



الشمالية بسبب هجمات الهون المستمرة.

وفى النهاية نجح جيش «چاو» المكون من مائة ألف جندى تحت قيادة «لى مو»، فى توجيه ضربة لقبائل الهون فى سنة ٢٦٥ قبل الميلاد، وبناء على ذلك سحب سلطان الهون (مجهول الاسم) جيشه على الفور إلى الشمال.

وفى عام ٢٢١ ق.م قضى حاكم الصين (ين چنج - چين شيخوانج) على ست إمارات أخرى، ووحد الصين. وفى عام ٢٥ ق.م وجه نفس الحاكم جيشا ضد الهون يتكون من ثلاثمائة ألف رجلا بقيادة «منج تيان». وكان سلطان الهون «تومان خان» يستريح فى ذلك الحين فى برارى «أوردوس» غير عالم بالخطر وانهزم الهون الذين لم يتمكنوا من التماسك أمام هجوم جيش الصين المباغت ووجهوا قطعانهم وشعبهم إلى الهجرة إلى الشمال. وبعد أن استرد جيش «چين شيخوانج» «أوردوس من الهون، وطن هناك الأهالى من الصينيين وأسس أربع وأربعين ناحية، وهكذا شكل نهر «هوانج هو» حدا فاصلا بين الطرفين.

قرر «چين شيخوانج» مد الأسوار التى كان أمراء «ين» و «چاو» و «چين» قد أمروا من قبل ببنائها بطول الحدود الشمالية فى سنة (٢١٥ ق.م)، فقرر مدها من الناحية الغربية، وكلف «منج تيان» بهذا العمل. كان «منج تيان» قد سخر مئات الآلاف من العمال الذين جمعهم قهرا من مناطق مختلفة من الدولة. وعلاوة على ربط الأسوار القائمة بطول الحدود الشمالية لثلاث إمارات ببعضها، بدءا من «شان هاى هوان» فى الشرق، ومدها إلى «لين تاو» فى الغرب (بلدة ين شان الواقعة فى ولاية قانسو)، وتلك هى الاسوار المعروفة بسور الصين العظيم.

إن ارتفاع سور الصين العظيم تقريبا ثمانية أمتار أما طوله فيبلغ خمسة آلاف كيلو مترا تقريبا وعرضه سبعة أمتار - وقد تعرض الصينيين لهجمات الهون من وقت إلى آخر طوال هذا العهد، حتى أقام «چين شى هوانج» هذه الأسوار.

لقد زادت قوة الهون بشكل كبير وأسسوا امبراطورية الهون العظمى التي حكمت خمسمائة عام من ٢٤٠ ق.م حتى عام ٢١٦ م. وبلغت قوة الإمبراطورية ذروتها في عهد «مته» (باتور تانريقوت) وامتدت حدود امبراطوريتهم من المحيط العظيم في الشرق حتى نهر «لينا» في سيبيريا و«البايقال» و«ينسى» في الشمال وسور الصين العظيم في الجنوب، ومن جبال «آلتاي» الغربية في الشمال الشرقي حتى بحر «الخزر» في الشمال الشرقي وحتى الحدود الشمالية للهند والإيرانيين.

كان «مته» (باتور تانريقوت) مؤسس هذه الإمبراطورية العظيمة، الابن الأكبر لطومان، ووليا للعهد منذ صغره. لكن في النهاية عين «طومان» ابنه من زوجته الصغرى وليا للعهد، وأرسل «باتور تانريقوت» رهنية لدى أقوام «ياوچی» (دا - يواجي) العظمى، ففي تلك الفترة عُقدت معاهدة بين الدولتين تضمنت تبادل الرهائن بينهما ضمانا لعدم نقض أي من الدولتين شروط المعاهدة، وهكذا تم إرسال «باتور تانريقوت» رهنية لأقوام «ياوچی» العظمى تقريبا في سنة ٢١٦ ق.م، وفي الأصل لم يكن «باتور تانريقوت» سعيدا بهذا الأمر ذلك لأن عاقبة الأمراء الرهائن لم تكن تنتهي بخير على وجه العموم، وكان الأمراء يقتلون لأن المعاهدات لم تكن تحترم بين أطرافها. ولهذا السبب كان «باتور تانريقوت» يتتبع العلاقات بين الـ «ياوچی العظماء» و«الهون» عن كثب. وعمل خطط للهرب في حالة نشوب حرب، وحقيقة فقد نجح أخيرا في الهرب وعاد إلى وطنه ثقة منه في مساعدة الفرسان الذين كان قد دربهم بنفسه. ولما قتل والده بسهم أثناء خروجه للصيد اعتلى «باتور تانريقوت» العرش (٢٠٩ ق.م).

ترد عبارة «تانريقوت الهون»<sup>٣٨</sup> حوالي عام ٢٦٥ قبل الميلاد، في الأبواب الخاصة بالهون في المصادر الصينية مثل «رشيه چی» (ملاحظات التاريخ) و«هان شو»<sup>٣٩</sup>. ويتضح من هذه المصادر أن الهون كانوا يطلقون على حكامهم منذ أقدم العصور اسم «تانريقوت» بمعنى ابن الرب، ويظهر

«سيماجين» الخان المسمى «چونج وى» أنه جد الهون فى سنة ١٧٦٤ ق.م<sup>٤٠</sup>، ويجعل البعض تسمية «تانريقوت» الهون تبدأ بـ «تومان» (٢١٠ - ٢٤٠ ق.م) اعتمادا على الحوليات التاريخية الموثوق بها.

لقد قسم «باتور تانريقوت» إدارة الدولة إلى عشرين مؤسسة وعين الأمراء وموظفى الطبقة العليا طبقا لهذا النظام. ونظام هذه الأسرة الحاكمة على النحو التالي:

- أمير الميسرة<sup>٤١</sup>.
- أمير الميمنة.
- الوزير الأعظم.
- إمارة الميسرة.
- إمارة الميمنة.
- بنوة الميسرة.
- بنوة الجناح الأيسر.
- حاكم الجناح الأيسر.
- حاكم الجناح الأيمن.
- أمير الميسرة الأعظم.
- أمير الميمنة الأعظم.
- أمير الحراس الأعظم للجناح الأيسر.
- أمير الحراس الأعظم للجناح الأيمن.
- أمير الخزينة الأعظم للجناح الأيسر.
- أمير الخزينة الأعظم للجناح الأيمن.
- الخان الغربى.
- قائد الفيلق (القائد الأعظم).
- البكباشى (أمر الألف جندى).
- أمر المائة جندى.
- أمر العشرة جنود.

كان حاكم الهون يصرف الأمور العسكرية والسياسية والمتعلقة بالسياسة الخارجية للدولة بمساعدة الوزير الأعظم وأبناء الميسرة والميمنة، وكان الأبناء على وجه العموم يختارون من هذه القبائل الثلاث الكبرى؛ «غويان» و«لان» و«صوبو» (شايو)، وكان أبناء السلطان أيضا يمكنهم الزواج من هذه القبائل الثلاث فقط فالأبناء المختارون من قبيلة «قويان» يجلسون على يسار السلطان، أما الذين من قبيلتي «لان» و«صويو» فكانوا يجلسون على يمينه.

كانت عاصمة الإمبراطورية في عهد «باتور تانريقوت» هي «تانري باليق» الواقعة جنوب شرق مدينة «كوك خوتو» ضمن حدود منغوليا الحالية، أما في مرحلة لاحقة فقد انتقلوا إلى نواحي بحيرة «خوشو صايدام» على الطرف الشرقي من نهر «ادرفون»، أما الحاكم والخاتون فكانا يقيمان في قصرهما في العاصمة.

قسم «باتور تانريقوت» الدولة إلى أربع ولايات، وكان هو نفسه يدير القسم الأوسط منها، وابنه أمير الميسرة يدير القسم الشرقي. وكانت خيمة أمير الميسرة عند المصب الأعلى لنهر «كيرولين» (في منغوليا الحالية) وتمتد الأراضي الواقعة تحت إدارته حتى ساحل المحيط الأعظم. ويتبعه «الطونغوز» (أجداد المانچو) و«المغول» و«الپوروم» (أجداد الكوريين الحاليين). أما القطاعات الغربية من الإمبراطورية فكانت تحت إدارة أمير الميسرة.

وكان أمراء الميسرة والميمنة يعينون على وجه العموم من بين أبناء الحاكم (الشان يو). وتقوم خيمة أمير الميمنة على سفح جبل «هانغاي» الكائن في منطقة «قوبده اولاس طاي»، وتخضع له قبائل «آلسان» و«ارسين» بولاية وسط منغوليا الحالية وحوض نهر «جونغار» الكائن شمال جبال «طانري» والمناطق الشمالية لحوض «نهر تاريم» وكذلك المناطق الكائنة بجوار «قوبدو» الواقعة في الطرف الغربي لنهر سلانكه (داخل حدود منغوليا). وبخلاف أمراء الميسرة والميمنة فإن خان الغرب (الخان الذي يدير المنطقة التي تغرب فيها الشمس) له

سلطات مهمة جدا وكانت المناطق الغربية من الامبراطورية (الأراضي الممتدة من حوض «نهر تاريم» حتى ساحل الخزر) تحت إدارة «خان» الغرب وتقوم خيمته بجوار «كورلا» الحالية.

وفي زمن الحرب كان كل شخص من السلطان حتى أمير الخزينة العظمى يتخذ موقعه في صفوف الجيش كقائد وكانت العسكرية هي الشغل الشاغل لأمرء الفيالق (قادة الألوية) والبكباشية (أمرء الألف جندي) واليوزباشية (أمرء المائة جندي) والأونباشية (أمرء العشرة جنود). وطبقا للنظام العسكري الذي طوره «تانريقوت»، انقسم الجيش إلى فرسان ومشاة. وكان فتیان الهون على وجه العموم فرسانا ولون الفرس الذي تركبه كل كتيبة مختلفا عن الأخرى. ويمكن أن يصل جيش «تانريقوت» إلى أربعمئة ألف شخص. وانقسمت خيول الجيش إلى أربعة مجموعات طبقا لألوانها الأبيض والأسود والرمادي والأحمر، وعدد الضباط ذوى الرتب المختلفة العاملين في الجيش يقدر بأربعين لواء وأربعمئة «بكباشى» وأربعة آلاف «يوزباشى» وأربعين ألف «أونباشى» أى أربعة وأربعين ألف وأربعمئة وأربعين شخصا.

وحسبما ذكر بعض المؤرخين فإن الهون فى تلك الفترة لم يكونوا فى مرحلة بدائية أو فى مستوى اجتماعى بدائى بل على العكس كانوا بمستوى دولة أبوية ونصف إقطاعية، وكان السلطان أكبر سلطة عليا فى الدولة، وصاحب نظام إقطاعى على مستوى الدولة<sup>٤٢</sup>.

وتظهر تشكيلات الدولة والجيش أن «الهون» كانوا أصحاب نظام إقطاعى متفوق، وهناك بعض الأدلة التى تثبت ذلك فعلى سبيل المثال كانوا قد حققوا تقدما كبيرا فى التعدين قبل الميلاد بعدة قرون وكانت الخطابات التى كتبها سلاطين الهون لأباطرة أسرة هان الحاكمة، ذات مستوى رفيع من ناحية الأسلوب الأدبى والمحتوى، وكان الهون يستخدمون أيضا أبجدية «أورخون ينيسى»<sup>٤٣</sup> قبل الميلاد بعدة قرون<sup>٤٤</sup>.

لقد أزعج «باتور تانريقوت» دول شرق آسيا بهجماته المستمرة على الشعوب المجاورة بين سنة ٢٠٧ - ٢٠٠ ق.م. إذ قام «تانريقوت» بهجمة

مفاجئة على «الطونغوز» جيرانه الشرقيين الأقوياء المغرورين فأخضعهم ثم أخضع المغول من بعدهم ثم اتبع هذا باعتداء ضد «الياوچى» العظام الذين كانوا يعيشون فى ممر «خشى» حتى ولاية قانصو. وبعد أن أخضع «باتور تانريقتوت» قبائل «الياوچى» العظمى، حول أنظاره إلى الصين جارتها الجنوبية، وفى تلك الأثناء اندحرت امبراطورية «چين» فى الصين وتأسست بدلا منها «أسرة هان» الحاكمة. كانت هناك صدمات داخلية فى إمبراطورية «هان» التى آل إليها ميراث منهار اقتصاديا، ولم يتمكن من تأسيس هيبة للدولة بصورة كاملة. وفى البداية استفاد «باتور تانريقتوت» من هذه الفرصة فانتزع من يد الصينيين سهوب «أوردوس» التى فقدت فى سنة ٢١٥ ق.م، لكنه لم يتمكن من كظم غيظه فتوغل داخل حدود امبراطورية هان سنة ٢٠٠ قبل الميلاد واحتل بلدة «چاوشيان» فى ولاية «شن سى» الحالية.

وأعلن «هان وانج سين» القائد الصينى المسئول عن الدفاع عن هذه المنطقة تسليمه للهون. وتقدم الهون أكثر، وهاجموا مدينتى «طايوان» و«جنگ يانج» الواقعتين فى شانسى. وأمام هذا الوضع الصعب قرر «هانقاوتسو» أول حاكم لأسرة هان الحاكمة إعلان الحرب ضد الهون، لكن وزيره «ليوچنج» اعتقد أن الحرب مع الهون ستسفر عن نتائج خطيرة وحذر الحاكم بشكل جاد، فلم يأخذ «قاوتسو» تحذيره هذا مأخذ الجد، وأمر بحبس وزيره، وسار ضد الهون بجيش قوامه ثلاثمائة وعشرين ألف جندى.

علم «باتور تانريقتوت» بالأمر فنصب كميناً عند سفح جبل «پاي تنگ» الواقع جنوب مدينة «ينج چنج» (تاتونج الحالية)، وانتظر اقتراب جيش «هان». ولما جاء «قاوتسو» امبراطور الهان مع قسم من جيشه إلى «پنج چانج»، وهو لا يعلم شيئا عن خطط «تانريقتوت»، حاصره جيش الهون. وطبقا لما ذكره المؤرخ سيماچيان، ان فرسان الهون الذين يركبون الخيول السوداء فى الشمال، والزرقاء فى الشرق، والبيضاء فى الغرب والرمادية فى الجنوب، حاصروا جيش «هان». واندحر جيش هان

الذى انقطعت صلته بالعالم الخارجى، وقاسى الجوع والعطش ليل نهار طوال سبعة أيام. ووصلت نوائح «چنج پينج» وهو احد وزراء «قاوتسو» لإغاثته بعد ان وقع فى الشرك لأنه لم يصغ لنوائح «ليوچنج». ذلك أن «چنج پينج» دخل سرا إلى خيمة الزوجة الكبرى لباتور تانريقوت وأقنعها بأن كسب زوجها الحرب لن يفيدھا فى شئ وأقنعھا بأن وزراء أسرة هان وأمرائها سيقدمون الفتيات الجميلات لتانريقوت إذا كسب الحرب، وإنه سينساها بعد رؤية هذه الفتيات فائقة الجمال وطلب منها أن تقنع زوجها بأن يرفع الحصار وأعطائها مقدارا كبيرا من الذهب والفضة. فوعدته زوجة «باتور تانريقوت» بهذا. والحقيقة إنها بعد فترة قصيرة أقنعت زوجها برفع الحصار على الفور وأقسمت باسم آلهته الشامانية إنه ان لم يفعل فسيحل عليه غضب إله السماء. وصدق «باتور تانريقوت» كلمات زوجته ورفع الحصار جزئيا، وخرج جيش «هان» من الممر الذى فتح ونجا بجيشه. وهكذا انتهى حصار «ينج چنج» الشهير الذى يحتل مكانة مهمة جدا فى تاريخ الشرق الأقصى. وقد كتب الشعراء الصينيون بعد ذلك أشعارا عن هذا الحصار.

يا «پنج چنج» كم كان هذا مرعباً

ومصائب مخيفة وراء بعضها

جوع وعطش طوال سبعة أيام

ولم تعد هناك طاقة لسحب القوس<sup>٤٥</sup>

فى عام ٢٠٠ قبل الميلاد عُقدت معاهدة بين «الهون» و«أسرة هان» الحاكمة المهزومة. وبموجبها كانت «أسرة هان» مجبرة على أن تعطى للهون كل عام مقدارا كبيرا من قماش الحرير والقمح. وقد اجتهد مؤرخو الصين القدماء لإظهار هذا النوع من الضرائب المدفوعة بشكل منتظم على أنها هدية. وبموجب هذه المعاهدة كان يجب على «أسرة هان» أن تزوج أميراتها وبناتها لحكام الهون بجهاز كبير. وفضلا عن

ذلك كانوا يسمحون بتبادل التجارة مع «الهون» فى المناطق الحدودية. واضطرت «أسرة هان» الى دفع الضرائب كبيرة للهون كل سنة لمدة سبعين عاما امثالا للاتفاقية ودفعوا لشهرهم.

ورغم رعاية أسرة هان للاتفاقية المبرمة إلا أن الاتفاقية لم تراع بجدية فى عهد سلاطين الترك «باتور تانريقوت» و«كوك تانريقوت» و«كون تانريقوت»، فقام الهون بهجمات لاتنقطع على الحدود الصينية. زادت قوة «باتور تانريقوت» الذى أجبر «أسرة هان» إلى دفع الجزية بعد حصار «پای تنج»، وبعد وفاة «قاوتسو» عام ١٩٥ ق.م أعتلى العرش ابنه «هواتى» الذى كان يبلغ من العمر فقط سبع سنوات لكن كل السلطات كانت فى يد أمه «لوهو» (كاو هو). وفى سنة ١٨٨ ق.م مات الامبراطور عن ثلاثة عشر عاما.

أما الأمير الذى كان يجب جلوسه على العرش بدلا منه، فقد قتل فى سنة ١٨٧ ق.م حيث أنه لم يكن ابن لو - هو أم الأمير المقتول، وهكذا أصبحت «لوهو» امبراطورة فعلية لأسرة «هان» الحاكمة.

فى سنة ١٩٢ ق.م كتب «باتور تانريقوت» (مته) الذى تزوج من «ماو چونج» ابنة «ليو بان»، الخطاب التالى إلى «لوهو» ملكة أسرة هان:

«إننى حاكم أعيش وحيدا، ولقد ولدت وسط المستنقعات وكبرت حيث يرعى الجاموس الوحشى والخيل وكم من مرة وصلت إلى حدود دولتكم، إننى أريد التنزه فى دولتكم.

جلالتك تعيشين وحيدة وكلانا حاكم غير سعيد ولم يتبق لكلينا شئ نستمع به، ولذلك فأنا أريد أن أعطيك ما ليس عندك.

أراد «باتور تانريقوت» بخطابه هذا، الحط من شأن «لوهو» والزواج بها، ولما ادركت الإمبراطورة ماهية الخطاب الذى حمله إليها سفير الهون استشاطت غضبا وعلى الفور جمعت مستشاريها لأخذ رأيهم، واقترح «فان قواى» السير ضد الهون على الفور بجيش قوامه مائة ألف



جندى. لكن الوزير «چى يو» عارض هذا الرأي قائلا: «إن رأى «فان قواى» يزعزع الوطن ويؤدى إلى شتات الأمر، فالهجوم بجيش قوامه مائة ألف محض خيال، فضلا عن أن الهون يشبهون الحيوان الوحشي فلا ينبغي ان نسعد لكلماتهم الجميلة كما أن كلماتهم البذيئة لا تستحق الغضب»<sup>٦</sup>.

واستحسنت «لوهو» رأى «چى يو» لأن امبراطورية «هان» آنذاك كانت في وضع لا تقارن فيه بالهون. ولهذا السبب كظمت غيظها وأمرت بكتابة هذه الرسالة إلى «باتور تانريقوت»:

«أيها الحاكم، إنك لم تنس دولتنا فتكرمت بإرسال رسالة. إن بلدى فى خوف واضطراب. وكلما مضت الأيام أفكر فى نفسى. لقد هرمت وضاق صدرى وإن شعرى وأسنانى تتساقط وعندما أسير تتعثر خطواتى. أيها الحاكم لا بد أن ما سمعته كان خطأ. أيها الحاكم لا تسئ فهمى، ولا تغضب منى، فليس لبلدى ذنب فى هذس، والتمس عفوك. وأقدم لكم عربتين امبراطوريتين تجرهما طاقمان من الجياد التى تمتلكها عبدتك وإن كان هذا لا يليق بمقامكم، وأرجو أن تتفضل بقبولهما».

إن هذا الخطاب الذى كتبه «لوهو» إلى «باتور تانريقوت» هو إشارة إلى أن أسرة هان لم تكن أمامها حيلة سوى أن تستعطف الهون.

فى سنة ١٦٦ ق.م فى عهد «كوك خان» قاغان (سلطان) الهون، شن اتحاد الهون الذى تشكل من مائة واربعين ألف شخص، الحرب على الصين واقتربوا لمسافة مائتى كيلو من العاصمة «چانأن» وأحرقوا واحداً من قصور الإمبراطورية.

رأت «أسرة هان» أن عاصمتها اصبحت مهددة تهديدا خطيرا فاستطاعت أن تضمن سلامتها بقبول كل طلبات الهون. وبعد هذا الحادث بأربعة أعوام طلب «كوكخان تانريقوت» من الإمبراطور «ونتى» زيادة الجزية المدفوعة للهون والبضائع المرسلة خاصة الأقمشة الحريرية<sup>٧</sup>، وأرسلت «أسرة هان» أميرتين من القصر الصينى إلى باتور ليتزوجهما؛ إحداهما

فى سنة ١٥٦ ق.م والأخرى فى سنة ١٥٢ ق.م<sup>٤٨</sup>.

وهكذا تطورت العلاقات بين الهون وامبراطورية «هان»، أما العلاقات بين الهون والأويغور فصارت على النحو التالى.

عندما تأسست امبراطورية الهون العظمى كانت بعض الخانيات التى أسسها أجداد الأويغور والشعوب القريبة لهم، قائمة بالفعل وكان بعضها بجوار البايقال وفى قانصو وبعضها الآخر فى وسط وغرب آسيا. ويمكننا قراءة المعلومات المتعلقة بهذه الخانيات فى الأبواب المتعلقة بالهون وفرغانة فى كتب «سيماجيان» المسماة «ملاحظات تاريخية، وهو من مؤرخى الصين فى تلك الفترة، وكذلك فى باب «المعلومات المتعلقة بشعوب الغرب» فى الكتاب المسمى «هان شو» لـ «پانقو» أيضا. وطبقا لهذا كانت سلطنة الأويغور الشرقية قائمة بجوار بحيرة البايقال فى القرن الثالث قبل الميلاد، وسلطنة القيرغيز فى المصببات العليا لنهر «ينيسى». وسلطنة الأوغوز بجوار «بحيرة زايسان» الحالية وفى الطاي، وكذلك سلطنات «ياوچى العظام» و«الأويصون» فى ممر «هوسى» فى «قانصو» وفى وادى «إيرسين» الواقع فى «نينج سيتان»، وخلاف ذلك فقد كانت هناك إمارات موجودة فى كاشغر التى تحتل مكانها فى حوض نهر تاريم فى آسيا الوسطى وكوچار وأقصو، كاشغر و«ياركند» و«خوتن» و«لولان». كما كانت هناك دول صغيرة فى القطاع الغربى من آسيا الوسطى مثل سلطنة فرغانة وسلطنة «قانغلى» وسلطنة «آلال» فى غرب آسيا، وكانت حدود دولة «قانغلى» تمتد من سمرقند حتى بحيرة البلقاش وبحيرة «الآلال». أما أقوام «الآلان» فقد استقرت فى شمال بحر الخزر.

وفى سنة ٢٠٢ ق.م أخضع «باتور تانريقوت» أقوام القيرغيز الكائنة فى المصببات العليا للينيسى وكذلك الأويغور الشرقيين بجوار بحيرة بايقال. أما «الياوچى العظام» و«الأويصون» فكان قد تم فتح بلادهم أصلا قبل فترة «حصار پای تنج». أما خانيات الأويغور فى آسيا الوسطى والإمارات الأخرى فى غرب آسيا فقد دخلت فى طاعته سنة ١٧٧ ق.م.

فى عام ١٧٦ ق.م أرسل «الخان مته» هذا الخطاب إلى «ون-تى»  
إمبراطور أسرة هان الحاكمة :

«يسأل حاكم الهون الأعظم الجالس على العرش بإرادة السماء عن  
حال امبراطور «هان» بكل احترام، وكان الإمبراطور قد تحدث من قبل  
عن مسألة تدعيم الصداقة بالمصاهرة، وأن أمنيته الواردة فى رسالته قد  
أسعدت الطرفين.

عندما تحرك حرس حدود «دولة الهان» وهاجموا «صاغ بلكيه»،  
تحالف «صاغ بلكيه» بدون إذن منى مع «هولوبيك نانجى» وآخرين  
غيره. ووقعت مصادمات بينهم وبين موظفي الهان، فأفسد المعاهدة بين  
الحاكمين، ومزق رابطة الأخوة بينهما. فلما وصلت رسالة الإمبراطور  
المفعمة بالشكوى، أرسلت خطاباً مع السفير رداً عليها، ولكن السفير  
الذى أرسلته إليكم لم يرجع، كما لم يأت سفير من دولة «هان». وكان  
تصرف دولة «هان» فى هذا الأمر تصرفاً عدوانياً. ومن جراء هذا فإن  
الدول المجاورة سترفع راية العصيان. واليوم أرسلت الموظف «بيلكه»  
عقاباً له للبحث عن «الياوچى» الذين فى الغرب ومهاجمتهم. وأنزلنا  
بالياوچى هزيمة فادحة بفضل مساعدة السماء وجنودنا الأكفاء وخيولنا  
القوية، وقتلناهم جميعاً وجعلناهم تابعين لنا وهكذا تم حل هذه  
القضية. وأصبحت أقوام «لولان» و«أويصون» و«الأوغوز» وست وعشرون  
دولة مجاورة لها أصبحت كلها خاضعة للهون. وتجمعت كل الشعوب  
التي تضرب بالقوس فى عائلة واحدة. وهكذا تحقق الأمن فى المناطق  
الشمالية، والآن أريد لجنودى أن يرتاحوا وأطعم خيولى وأنحى الأحداث  
السالفة جانباً، وأجدد معاهدتنا لأحقق أمان الشعوب التي على الحدود،  
كما أريد أن يكبر الصغار كما كان فى الماضى، وأضمن للشيوخ أن  
يعيشوا فى أمن حيثما يكونون. وأن أديم السلام وتلك السعادة من  
جيل إلى جيل. إننى لم أتمكن بعد من معرفة ما يتمناه الإمبراطور،  
ولهذا السبب أود أن ترسل حاجبك الصغير حامى القصر «سهوجيان»  
برسالة لأعرف رأيك. وبعد فأنا أهديك جملاً وفرسى ركوب وخيولاً لست

عربات. وإذا لم يكن إمبراطور الصين يريد اقتراب الهون من الحدود، فليأمر إذن موظفيه وشعبه بأن يقيموا بعيداً. وعندما يأتي سفيري فلا تأسروه وأعيدوه فوراً.

وصل «باتور تانريقوت» في مسيرته التاريخية التي قام بها نحو الغرب في سنة ١٧٧ ق.م، حتى بحر الخزر، وأخضع خانيات آسيا الوسطى و«يدى صو» في غرب آسيا. وازدادت قوة إمبراطورية الهون إلى أقصى حد وأدهشت جيرانها الأقوياء فامتدت في الشرق حتى المحيط ومن الغرب حتى بحر الخزر.

وبعد عام من الحرب المظفرة التي شنها «باتور تانريقوت» على الغرب، فإن النتائج ينبغي استخراجها من الرسالة السالفة التي أرسلها إلى إمبراطور أسرة «هان ون تي». إن الرسالة تعرض الأحداث المثيرة التي وقعت في تلك الفترة، كما تعرض قوة الهون وقدرتهم المشهودة. بينما كان «باتور تانريقوت» الأول مشغولاً بالحرب الطويلة والمرهقة التي شنها على الغرب في سنة ١٧٧ ق.م وقعت بعض المعارك بين الهون وإمبراطورية هان. مثال ذلك؛ لم يسمح أمير ميمنة الهون لقائد وحدات المحافظة على الحدود في «أسرة هان» بأن يتخذ سلوكاً عدائياً تجاه الهون، وهاجم «بولينج» الكائنة في ولاية «شانسي» ولهذا السبب ظهرت بعض الخلافات بين الطرفين.

في سنة ١٧٦ ق.م أعلن «الياوچي العظماء» العصيان في «قانسو»، وكلف أمير الميمنة بالتنكيل بهم. وطبقاً لرواية «بانقو»، فإن أمير الميمنة بعد أن أذاق «الياوچي العظام» هزيمة منكرة قطع رأس ملوكهم وغطاها بالذهب، واستخدمها كؤوساً للشرب. إن «الياوچي العظماء» و«الهون» و«الأويصون» وهم أخوة، كانوا جيراناً منذ القدم. لقد كان «الياوچي العظماء» و«الأويصون» يعيشون في «ممر خشى». أما الهون فيعيشون في الجهة الشرقية منهم أي في وسط منغوليا الحالية، وهاجم «الياوچي العظام» على «الأويصون» في القرن الثالث قبل الميلاد وقتلوا «ناندومي» سلطان «الأويصون» واحتلوا أراضيهم، ولجأ فهاجر الأويصون

إلى الشرق ولجأوا إلى الهون. وأصطحب «بوغو» حاكم «الأويصون» في معيته أمير «الأويصون» المولود حديثاً ويدعى «راجومي». فشمل «باتور طانرى قوت» أمير الأويصون برعايته وتربيته واشركه في الحروب مع الهون وبعد أن أظهر بطولات عديدة عينه «باتور طانرى قوت» خانا على «الأويصون».

وأعيدت الأراضي القديمة إلى أقوام «الأويصون» ولكن قبل أن تمر فترة طويلة نشبت حرب جديدة بين «الأويصون» و«الياوچى العظام» وخسر «الأويصون» الحرب وهاجروا إلى الغرب من «وادي أيرسين» و«ممر خشى» واستقروا بجوار نهر «إيلي». أما الواقعة المشروحة في الخطاب وهي الهجوم الذى شنته وحدات الهون بقيادة أمير الميمنة سنة ١٧٦ ق.م فإن «الياوچى العظام» الذين خسروا الحرب فى النهاية، تحركوا إلى الغرب تحت قيادة الملكة التى تحكمهم، وطردهوا الأيصون من وادي ايلي واستقروا هناك، وبعد خمسة وعشرين عاماً حصل «الأويصون» على المساعدات من «كون جين» حاكم الهون، وأعادوا الهجوم على الياوچى العظام وطردهم. وبعد هذه الواقعة تقدم الياوچى العظام فى الطرف الجنوبى الغربى ووصلوا حتى كاشغَر لكنهم لم يمكثوا هناك طويلاً وتقدموا نحو الغرب وانتشروا على سواحل «باكتريا» و«أمودريا».

يذكر «باتور تانرىقوت» فى خطابه أنه أثناء حربه على الغرب فى سنة ١٧٧ ق.م، أخضع لسيطرته شعوب «لولان» و«أويصون» و«الأوغوز» وستة وعشرين سلطنة كانت فى جوارهم. وهذا دليل على استيلاء «الأويصون» فى «يدى صو»، وأقوام «قانقلى» فى سَمَرْقَند وبحيرة البلقاش وبحيرة الأوال والأرض الواقعة بجوار الخزر وإمارات أخرى فى آسيا الوسطى. والأكثر أهمية هنا هو إخضاع الهون للإمارات الأيغورية التى كانت فى حوض «نهر تاريم» خلال هذه الحرب؛ ذلك لأن الأويغور الغربيين فى آسيا الوسطى يظهرون تحت حكم الهون بعد هذا التاريخ. ويعلن «باتور تانرىقوت» فى خطابه الذى أرسله إلى «ونتى» أن كل

الشعوب التي تضرب بالقوس اتحدت في عائلة واح مهيدا إمبراطور «هان». فكان جواب «ونتي» على هذه:

«إمبراطور الهان، حاكم الهون الأعظم، تحية واحتراما؛

كان لرسالتك التي أرسلتها مع «بيبي هوجيان» تقول فيها: فلنرح جنودنا ونطعم جيانا ونزيد الرفاهية والسعادة الأجيال المقبلة ولنبدأ عصرا جديدا من الأمن، هذه الكلمات كان لها أطيّب الأثر في نفسي»<sup>١</sup> وقد أرسل «ونتي» مع الرسالة هدية عظيمة إلى الحاكم عبارة عن ملابس قيمة متعددة، وحزام ذهب وأقمشة حريرية متعددة الأنواع.

ويفهم من الرسائل المتبادلة بين حاكمي الهان والهون أن العلاقات بين الدولتين اتجهت إلى التحسن في سنة ١٧٥ ق.م. لكن في واقع الأمر كانت أسرة هان قد بدأت سرا في استعدادات طويلة الأمد لمقاومة الهون في المجالات الاقتصادية والعسكرية وغيرها. حتى أنهم في عهد «فوتى» (١٤٠ - ٨٧ ق.م) بدأوا حروب دامية ضد الهون استمرت لسنين طويلة، وأهمها الحرب التي وقعت في سنة ١٢٧ ق.م. وفي النهاية هجم «وي جينج» على الهون بجيش قوامه عدة مئات من الآلاف وانتزع براري أوردوس من يدهم، وفي سنة ١٢١ ق.م حدثت حرب مهمة أخرى، وفيها استولى جيش الصين الضخم بقيادة «هوجيونج» على السهول الواقعة بسفوح جبال طانرى في قانصو (جيان شان الحالية) وسفوح جبال الجى (ين شى شان الحالية)، كما غنموا من الهون «ممر خشى» و جلبوا مائتى ألف شخص من مناطق الصين الداخلية وأسكنوهم بتلك المناطق. وأقام الهان الرحل المزارع في المناطق التي استقروا فيها واشتغلوا بالزراعة، وكانت أهم طريقة لتقوية الدفاع عن الحدود في نظر الخان «فوتى»، هي تهجير أكبر عدد من الأهالى إلى مناطق الحدود وتوطينهم فيها. وقسم المنطقة إلى ولايات «فوفى» و«يوجوان» و«جانج لي هان» و«طون هوانج». وأبدع الهون هذه المرثية بسبب حرمانهم من السهول في «ممر خشى».

فارق الباقون جبال طانرى  
ولم تعد تزداد حيواناتنا  
وفارق الباقون جبال «ألجى»  
وملت نساؤنا

إن ارتباط شطرة «وملت نساؤنا» بجبل ألجى فى المراثية تعبير يتضمن معنى عميقاً جداً. وذلك أن نساء الهون كن يصنعن دهانا من الزهور الحمراء والصفراء التى تنبت هناك للعناية بالوجه وأطلق الهون على هذا الدهان اسم ألجى (بمعنى الأحمر)، كما كانوا يطلقون اسم ألجى على زوجة الحاكم.

وتركز المراثية على أن نساء الهون اللاتى ابتعدن عن جبل «ألجى» فقدن سعادتهن وجمالهن بسبب أنهن أصبحن لا يتمكن من وضع هذا الدهان.

بعد أن أتم «ووتى» احتلال «ممر خيشى» بعامين، استأنف حروبه العسكرية على الهون فى سنة ١١٩ ق.م. وكان لدى جيش الصين مائة ألف فارس بقيادة «وى جينج» و«هوجوينج» (كان تحت أمر كل منهما خمسون ألف فارس)، وكان هناك بضع مئات الآلاف من الجنود المشاة بخلاف مائة وأربعون ألف حصان احتياطى. إن جيش الصين الذى اجتاز سور الصين العظيم توغل داخل حدود إمبراطورية الهون. وكان جيش الهون الذى يقوده القائد «الشانيو» ينتظر العدو فى صحراء منغوليا. وإذا كان جيش هان قد حاصر وحدات الهون إلا أن قائدها نجح فى النجاة. وفقد جيش هان فى هذه الحرب الدفاعية مائة ألف جندى ومائة وعشرين ألف حصان، أما الهون فقد خسروا تسعين ألف مقاتل وعشرات الآلاف من الجياد. والحقيقة أن جيش هان لم يكثرث باستمرار الحرب وانسحب، كما أن الهون لم يقدرُوا على المخاطرة بملاحقة العدو.

وانتحر «لى هوانج» أحد قادة جيش الصين لخوفه من أن يعدم لتخلفه عن ميدان المعركة. وفى النهاية وبعد ثلاثة حروب وقعت بين

«أسرة هان» وبين الهون تحول جيش الصين من الدفاع إلى الهجوم، وبعد ذلك جلب «ووتى» سبعمائة ألف صيني وأسكنهم في المنطقة الحدودية.

وقبل دخول «ووتى» في حرب مع الهون، لم يهمل استغلال سلاح الدبلوماسية، فقد كانت سياسة الصين تقوم على مبدأ «توافق مع البعيد، وحارب القريب» حتى أرسل القائد «جانج جيان» مرتين إلى أقصى الغرب في سنتي ١٢٧ - ١١٥ ق.م بهدف تقوية روابط الصداقة مع البعيدين. وبعد أن قدم «جانج جيان» تقريراً مفصلاً للإمبراطور عن الحكام والأراضي التي في الطرف الغربي، استمال «ووتى» الأويغون في البداية بإرسال هدايا قيمة وعدة أميرات للزواج من القصر الصيني. هكذا صار «الأويغون» الذين أفسدوا التحالف مع الهون، أصدقاء لأسرة هان. ورغم أن «ووتى» شن عدة هجمات جديدة على الهون، بعد أن استمال الأويغون إلى جانبه، فإن هذه الهجمات انتهت بهزيمة جيش الصين. وعلى سبيل المثال، إن جيش المشاة التابع لأسرة «هان» والمكون من خمسة آلاف جندي تحت قيادة «لينج» سنة ١٠٠ ق.م، بعد أن قطع هذا الجيش مسيرة ثلاثين يوماً، قتلهم «فوتيجو» «جوته - هو» حاكم الهون على ساحل «طولة»، فلما وقع «لى لينج» في أسره، تخلى «ووتى» عن إخراج الجيش الأساسي للحملة (على الهون).

في سنة ٩٧ ق.م قاد الإمبراطور «ووتى» جيشاً ضد الهون قوامه ١٨٠ ألف شخص من الفرسان والمشاة بقيادة «لى هوانج - لى» ضد جيش «لى» الذى دخل أراضي الهون والمكون من مائة وأربعين ألف شخص وسبعين ألف فارس وسبعون ألف مشاة). قابله «فوتيجو شانيو» على الساحل الجنوبي لنهر طولة، وأسفرت الحرب التي استمرت عشرة أيام عن هزيمة منكرة لجيش «هان»، ولم تكن لدى «فوتى» نية الاستسلام، فجرد جيشاً جديداً تحت قيادة «لى هوانج لى» في سنة ٩١ ق.م بهدف الثأر لهزيمة مرتين من الهون. تمركز «هولوشاينو» الذى كان على علم بالموقف، عند سفوح جبل «هانكاى» بجيش من الهون مكون من



خمسين ألف شخص. كما أمر بحفر خنادق عميقة في الناحية الجنوبية وأحكم حصارهم. وخلال ذلك تحرك جيش الصين المكون من سبعين ألف ووصل أمام العدو وهو لا يعلم شيئاً عن الخنادق المعدة. فتسلل الهون من خلف العدو في ظلمة الليل وشنوا عليه هجوماً مفاجئاً. فأصاب جيش الصين الرعب، وشرعوا في الانسحاب فسقطوا في تلك الخنادق وتكبدوا خسائر فادحة، وطبقاً للرواية فإن أحداً لم ينج من جيش الصين وحقق الهون أيضاً نصراً مؤزرًا.

أمر حاكم الهون (الذي انهزم من قبل في حملتين شنهما على فرغانة) بقتل «لى هوانج لى» القائد البائس الذى أسر فى هذه الحرب قربانا لأمه المتوفاة. ونال الانتصار الذى حقه فى سنة ٩١ ق.م، أهمية كبيرة فى أرجاء الدنيا.

استمالت إمبراطورية «هان» الأويغون إلى صفها اعتباراً من سنة ١٠٤ ق.م وبدأت محاولات تكوين حلف ضد الهون، وخلال ثلاثين عاماً، أرسلت الأميرتين «شى يون» و«جايو» كعرائس لحكام الأويغون. لم تتمكن الأميرة «شى يون» التى تزوجت حاكم الأويغون «راجومى» فى سنة ١٠٤ ق.م، من إدراك أهمية وظيفتها الاستراتيجية التى كلفت بها وكان «راجومى» طاعناً فى السن ولم تكن الأميرة تعرف لغة «الأويغون»، ولهذا لم تعتاد على تقاليد الأويغون المختلفة، ولما كانت تعيش الحنين إلى الوطن قالت هذه الأبيات :

أرسلونى إلى مكان بعيد  
كزوجة لحاكم الأويغون  
منازلهم غرف من خيام مستديرة  
وطعامهم اللحم وشرابهم أحمر  
وعيونى تدمع كلما اشتقت إلى وطنى  
ليتنى أصبح طائراً وألقاه

يزوج «راجومي» نظرا لشيخوخته الأميرة «شى يون» بحفيده «قون شومي» وترزق الأميرة منه بطفلة لكنها تموت بعد فترة قصيرة.

عندما علم إمبراطور الهان بهذا، يزوج «شومي» (سنة ١٠٠ ق.م) هذه المرة أميرة أخرى تدعى «جايو». وعموماً فإن «قون شومي» يموت بعد فترة قصيرة. ولما كان ابن «قون شومي» من زوجته الهندية والذي يدعى «أونغومي» لا يزال طفلاً، فإن «ووينج جومي» وهو من أقاربه اعتلى عرش الأويصون. وطبقاً للتقاليد، تزوجت الأميرة «جايو» من «ووينج» وولدت له خمسة أطفال ثلاثة صبيان وبنيتين.

كان «هو - ين - تي» إمبراطور الهون غاضباً بسبب العلاقات التي بين أسرة «هان» الحاكمة وبين «الأويصون»، يرسل إمارة «قوشو» المنتسبة للأويغور الغربيين، وإمارات أويغورية أخرى ضد «الأويصون» في سنة ٧٤ ق.م. كما أرسل سفيراً وطلب تسليمه «جايو» أميرة «هان»، وقطع العلاقات مع إمبراطورية هان. وبناءً على ذلك كتب حاكم الأويصون «أونغومي» وزوجته «جايو» إلى الصين وإلى الإمبراطور الجديد «سوان» رسالة طلبوا فيها المساعدة. ووجه إمبراطور الهان «ووتى» في سنة ٧١ ق.م جيشاً من ١٦٠ ألف شخص من خمسة أفرع مختلفة ضد الهون لإنقاذ الأميرة «جايو». وعبر جيش «الهان» سور الصين العظيم ودخل أراضي الهون إلا أنه اضطر للانسحاب عندما لم يتمكن من مواجهة قوات العدو الرئيسية؛ ذلك أن «هوينتى» فضل الانسحاب لعدم الإضرار بالقوات الرئيسية لجيش الهون، لهذا السبب لم يحدث صدام. ولكن في تلك الآونة هاجم «الأويصون» الهون من الناحية الغربية ودمروا قصر أمير الميمنة وغنموا أربعين ألف أسير وسبعمئة ألف رأس من الحيوانات. وفي نفس العام شن الحاكم «هوين تي» حرباً انتقامية على الأويصون، لكنه بعد ضرب الأويصون، تعرض أثناء عودته لخسائر فادحة بسبب الثلوج الشديدة والعواصف. ولم تقف الكارثة عند هذا الحد، ذلك أنه لما علمت أقوام «تورا» الشرقية بأن «الهون» ضعفوا بما حل بهم من كوارث، هاجموهم من الشمال سنة ٧١ ق.م، بينما كانت إمبراطورية

«هان» منشغلة بسحق أقوام «قوهو وان» في الجنوب.

وكما كانت أقوام تورا الشرقية تعيش مستقلة عن الهون بين عامي ٧١ - ٥٠ ق.م، فقد شنوا هجوماً جديداً على الهون سنة ٦١ ق.م وأرسل حاكم الهون «شولوى قانقوي» (هو لو جوان جو) جيشاً مكوناً من عشرة آلاف شخص للثأر، إلا أن الحرب باءت بالفشل.

عقب وفاة الحاكم «شولوى قانقو» سنة ٦٠ ق.م بدأ صراع شديد على العرش لدى الهون واستمر ثمانى سنوات بين أمراء الهون وهم: «قوغوشار» (هوهان يه) و«قوتى أوش» (جى جى) و«طوجو» (طوجى) و«أغوز» (هوجيه) و«جىلى»، وقد سمي هذا الصراع بـ «صراع الحكام الخمس».

وخلال أربعة أعوام، انتصر «قوتى أوش» ابن الحاكم «شولوى قانقوي» (هولو جوان جو) بجيش قوامه ٥٠ ألف فارس، على كل الأمراء مثل «قوغوشار» الذى أعلن نفسه حاكماً وكانت مدة حكمه بين (٥٦ - ٥٢ ق.م) و«طوجو» و«أغوز» و«جىلى». ومات خلق كثير فى هذه الحرب الداخلية التى استمرت عدة أعوام وتحولت أراضى الإمبراطورية إلى بحيرة من الدم، وكانت الذئب الملطخة أفواهها بالدماء تعوى فوق الجثث. وصرخات الطيور التى تأكل الجيف تملأ الأرجاء. وامتلات السهول الخضراء فى الأماكن التى دارت بها الحروب بعظام البشر البيضاء، ونفق تسعون بالمائة من القطعان وصار الناس وجهاً لوجه أمام خطر المجاعة، وتمكن ٥٠ ألف فقط من البقاء على قيد الحياة من ٣٥٠ ألف محارب شاركوا فى الحرب الداخلية.

دخل «قوتى اوش» [جى جى] أوتوكن عاصمة الهون بعد أن أزاح منافسيه، وجلس على العرش فى مراسم مهيبه. احتار «قوغوشار» فيما ينبغى عمله بعد الهزيمة أمام أخيه الأكبر، فجمع المقربين منه وسألهم، فنصحه مستشاره «إيلقو ساي» أن يلجأ إلى إمبراطور «هان» وأن يهزم «قوتياوس» بمساعدته ويستولى على عرش الهون. لكن أمراء الهون الآخرين وقفوا ضد هذا الرأى.

وقالوا : «إن الهون مهرة فى ركوب الخيل وليس فى العالم من يدانيهم فى الحرب. إن الهون يعرفون أن البطولة شيء مقدس، أما الخضوع فيعرفون أنه عار والموت فى الحرب دليل البطولة، أما ما يحدث الآن فهو صراع على العرش بين الإخوة. إن عرش الهون ليس فى يد أعدائنا، بل انتقل إلى يد أخوتنا».

وجد الأمير «قوغوشار» رأى الوزير صحيحاً، فاقترب فى عام ٥٢ ق.م من الحدود الشمالية لإمبراطورية هان وفى معيته بضعة آلاف من الفرسان وأرسل ابنه سفيراً إلى «جانان» فغضب «قوتى اوش يابغو» (جى جى) من تصرف «قوغوشار يابغو» هذا، وتسبب مجيء «قوغوشار يابغو» الذى خرج صوب «جانان» فى سنة ٥١ ق.م. ووصل حتى جسر «وى خي» الكائن فى غرب العاصمة، فى إرباك «سوان تى» إمبراطور هان اليابغو وهو فى كامل معيته وتباحث «قوغوشار يابغو» مع الإمبراطور فى موضوعات التفوق على «قوتى اوش يابغو» بالقوة العسكرية التى سيوفرها، وقبل الإمبراطور كل رغباته وودعه فى غرب «باوطو» الموضح أنها مقر مؤقت، وخصص عدداً من الجنود لحمايتها. وأرسل مرة أخرى ابن «قوتى اوش» الذى كان قد أرسل من قبل كرهينة إلى «جانان». وكان هذا يعنى أن اتفاقية الصداقة التى أبرمتها إمبراطورية هان مع «قوتى اوش يابغو» (جى جى) قد ألغيت.

اعتقد «قوتى اوش يابغو» أنه تصرف تصرفاً عكسياً فترك العاصمة «اوتوكن» سنة ٤٩ ق.م وتوجه نحو الشمال وأخضع فى البداية الأوغوز الذين كانوا يعيشون بالقرب من «جوجك» ٥١. ثم قوى صفوفه وسار ضد القيرغيز القاطنة فى المنابع العليا للينيسى وأخضعهم لطاعته، ثم أخضع أقوام «تورا» القاطنة بجوار «البايقال». وبعد أن أخضع هذه الإمارات الثلاث، شن «قوتى اوش يابغو» الذى بلغ حداً كبيراً من القوة -هجوماً على الأويغون. وأبدى «الأويغون» مقاومة شديدة إلا أنهم فى النهاية وجدوا من الخير أن يستسلموا. إن الأويغون -الذين عاشوا - مستقلين عن الهون من سنة ٧١ حتى ٥٠ ق.م بعد أن أخضعهم «قوتى

اوش يابغو» سنة ٤٩ ق.م عاشوا تحت حكمهم حتى سنة ٨٥ بعد الميلاد.  
بعد مغادرة «قوتى اوش يابغو» اوتوكن انسحب «قوغوشار» مرة أخرى  
دون أن يصغى إلى تحذير إمبراطور الهان، وجلس على عرش إمبراطورية  
الهون ثم قام بزيارة «جانان»، وتباحث مع «هان يانتى» إمبراطور هان  
فى موضوع العلاقات بين الدولتين - ذلك لأنه بعد قتل «قوتى اوش  
يابغو» على يد القائد «جينج» فى طالاس سنة ٣٦ ق.م، كان يرى فى  
نفسه الإمبراطور الأوحى لكل الهون قاطبة حتى أنه بعد موت «قوتى  
اوش»، لجأت أقوام تورا والقيرغيز والأوغوز والإمارات الأويغورية الكائنة  
فى «حوض تاريم» لجأت إلى «قوغوشار». وكان حاكم الهون قد تزوج  
بالأميرة الصينية «وانج جاو جون» فى سنة ٣٣ ق.م. وكانت هذه آخر  
مصاهرة بين «أسرة هان» وبين الهون.

حدثت تطورات مثيرة فى دولة الهون خلال تسعين عاماً، اعتباراً  
من «قوغوشار يابغو» حتى «هوتو ارشى طاوغانوتى» (يو) (٤٣ ق.م-  
٤٦م). فبعد أن عاد «قوغوشار يابغو» إلى عاصمة الهون فى سنة ٤٣ ق.م  
تخلى عن ارتباطه بإمبراطورية الهان. وفى البداية أصلح اقتصاد الدولة  
الذى انهار بسبب الحروب الداخلية والكوارث الطبيعية، واستعاد الهون  
مجدهم الغابر فى آسيا الوسطى وغرب آسيا بعد أن قوا اقتصادهم  
ونظموا صفوف جيوشهم.

وفى الأيام التى تجمعت فيها إمبراطورية الهون وزادت قوتهم، انتزع  
عرش إمبراطورية «الهان» من يدعى «وانج مانج» الذى ينحدر من أسرة  
الإمبراطور من ناحية الأم، وأعلن نفسه إمبراطوراً وهكذا بدأت العلاقات  
بين الإمبراطوريتين تفسد مرة أخرى.

كوّن «وانج مانج» جيشاً قوامه ٣٠٠ ألف من المحكوم عليهم بالإعدام  
فى الصين، ومن الفقراء الذين اضطروا للتمرد بسبب ظروف الحياة ومن  
المتمردين الشبان. وقسم «وانج مانج» جيشه إلى اثنتى عشرة فرقة  
تحت امره اثنى عشر قائداً وفى السنة العاشرة بعد الميلاد قاد جيشه

ضد الهون من اثنتى عشرة جهة وتجمع بجوار سور الصين العظيم ينتظر الأمر بالهجوم.

تمركز جيش الهون المكون من عدة مئات من الآلاف تحت قيادة «كيانوتي يابغو» (چه په نوتي)، شمال سور الصين العظيم. ورغم أن كلا الطرفين استغل الفرصة للهجوم على الآخر، إلا أن أى صدام لم يحدث، لكن الهون الذين لم يكونوا سعداء بسبب موقف «وانج مانج» هذا - اجتازوا سور الصين العظيم وتوغلوا من داخل حدود أسرة هان، وهكذا تحولت الصداقة القديمة إلى عدا.

فى العام الثالث عشر للميلاد هجم «وانج مانج» على أقوام الأويغور الذين يعيشون على الحدود الغربية للهون، ووفرت «إمارة قرأشهر» المساعدات للهون وأعملت القتل فى إحدى وحدات جيش «هان» التى كانت تحت قيادة «تنج - تسين». وقتل جيش أسرة هان خلال المعركة، لكن لم تكن لدى «وانج مانج» نية للإستلام. وقاد جيشاً ضد قارا شهر فى السنة السادسة عشرة للميلاد إلا أن وحداته العسكرية أبيدت من آخرها، وبعد هاتين الهزيمتين إلتعاقبتن اللتين منى بهما «وانج مانج» من قبل الأيغور الغربيين، أغلق الطريق الأساسى بين امبراطور «أسرة هان» وبين آسيا الوسطى، ذلك لأن الهون لم يكونوا يريدون ل«وانج مانج» أن يضع هذا الطريق تحت سيطرته.

ومهما يكن من شيء فإن «وانج مانج» لم يكن أحد ممن يستسلمون بسهولة، فقام فى عام تسعة عشر ميلادية بجمع جيش مكون من عدة مئات من الآلاف وبدأ الإعداد للهجوم على الهون، لكنه قتل خلال التمرد الذى قاده ثورة الفلاحين، والذى بدأ فى سنة ٢٤م فى الصين بدون أن يجد الفرصة لتنفيذ خطته.

بدأت علامات انقسام الهون مع مجئ سنة ٤٦م عندما مات «طاوغانوتي». فى ذلك العام حل محله ابنه «اورانغو» (واطاته هو) لكنه أيضاً مات فى نفس العام فاعتلى عمه «يانو» (يونو) العرش وأطلت الكوارث الطبيعية الشديدة برأسها فى أراضى الهند فى تلك الأيام،

وحدث قحط شديد استمر عدة أعوام أعقب ذلك غزو الجراد فتحولت كل المزارع والسهول والمراعى إلى صحراء قاحلة ومات نفر كثير من الناس والدواب بسبب الأمراض المعدية والجوع. واستفادت امبراطورية هان من ضعف الهون هذا، فتراجع «بانو» عن هجومه على إمبراطورية «الهان»، وأرسل سفيراً إلى القصر الصينى، وقرر إقامة العلاقات الدبلوماسية لتخفيف التوتر بين الدولتين. فأرسل الإمبراطور «كوانج وو - تي» وفداً برئاسة «لي ماو» إلى عاصمة الهون. وفى تلك الأثناء أرسل أمير الهون المسمى «باي» إلى إمبراطور الهان خريطة إمبراطورية الهون مع شخص صيني يُدعى «هو هينج»، وأعلن أنه سيقف بجانب جيش الصين فى مواجهة «بانو». فقبل إمبراطور «هان» بسعادة اقتراح «باي» بالتحرك لأنه رأى أن الفرصة التي كان ينتظرها منذ سنين عديدة قد واثته أخيراً، وفى ذات الوقت رفض طلب بانو بالزواج من إحدى الأميرات.

وفى عام ٤٨ م أعلن «باي» نفسه حاكماً (يابغو) باسم «إيل هو - هان يه» الثانى. وهذا العام يعتبر نقطة تحول فى تاريخ امبراطورية الهون، فقد انقسمت الإمبراطورية رسمياً إلى (شرقية) فى الشمال، و(غربية) فى الجنوب.

عاشت إمبراطورية الهان الغربية (٤٨ - ٣٥٠م) فترة اضطرابات كبيرة فى عهد «بانو» (٤٨ - ٨٣م) أول حاكم لها. ففي عام ٤٩م رفعت قبيلتا «أوغان» [وو - هوان] و«سيانبي» راية العصيان واتحدوا مع أعداء الهون. وعمل إمبراطور «هان» كل ما فى وسعه من أجل تفتيت الهون الغربيين، واحتلال أراضهم والقضاء على دولتهم. حتى أنه أراد أن يقطع علاقاته مع الأويغور الغربيين الذين كانوا يعيشون على الحدود الغربية لهون الجنوب، لكنه لم يحقق النجاح الذى كان يتمناه.

لم يستطع الهون الجنوبيون أن يتحملوا الكوارث الطبيعية التى استمرت عدة أعوام، ولم يتحمل الهون الشرقيون هجمات قبيلتي «أوغان» و«سيانبي»، فبدأوا بالانسحاب رويداً رويداً نحو الغرب. وبرغم هذا الموقف البائس، نجح «بانو يابغو» فى بسط سيطرته مرة أخرى

على المناطق الغربية للهون. وناضل من ناحية من أجل الاحتماء من هجمات إمبراطورية «هان»، ومن ناحية أخرى لقطع العلاقات بينه وبين هون الشرق. ولتحقيق هذا الهدف أرسل السفراء إلى عاصمة «هان» أربع مرات في أعوام ٥١، ٥٢، ٥٥، ٦٤ ميلادية، ووجد اقتراحه بتطوير العلاقات التجارية، والزواج بأميرة من القصر الصيني. وفي النهاية أرسل إمبراطور «هان» سفيراً في عام ٦٤م يحمل رسالة إلى «بانو يابغو»، وأعلن أنه يوافق على تطبيع العلاقات التجارية، لكن هذه العلاقات قطعت أثناء الحرب التي اندلعت بين الطرفين في عام ٧٣م.

وشن «بانو يابغو» الحرب على إمبراطورية هان بعد أن استجمع قوته في الداخل والخارج. ولم تتوان إمبراطورية هان عن صد الهجوم، واتحدت مع الهون الشرقيين وقبيلتي «أوغان» و«سيانبي»، وقادت الوحدات المكونة من عشرات الآلاف من الفرسان ضد الهون الغربيين من جهات مختلفة. وبدأ السير من «يو - تشوان» في «جانسو»، وقضى الجيش المتحد المتوجه نحو الغرب على حاكم الهون الغربيين، «غويان هان» في شمال «طورفان» (بالقرب من جيميسار) واستولى على «قومول». أما الوحدات الأخرى التي خرجت ضد الهون من جهة أخرى، فقد عادت أدراجها ولم تواجه قوات الهون الأصلية.

بعد ان استولت إمبراطورية «هان» على «قومول» الإستراتيجية الواقعة على مشارف طريق الحرير في عام ٧٣، سعت إلى قطع العلاقات التي بين الهون والإمارات الأخرى في حوض «نهر تاريم». وذلك لأن جزءاً كبيراً من احتياجات الهون الغذائية كان يتم الحصول عليه من هذه المنطقة. وأرسل الإمبراطور «منج - تي»، «بان تشاويو» سفيراً إلى حوض نهر تاريم مع وفد مكون من ٣٦ شخصاً. وقام «بان تشاو» الذي مكث ثلاثين عاماً في حوض نهر تاريم، بسلسلة أعمال تستهدف مصلحة الإمبراطورية متجاوزاً بذلك صلاحيات السفارة.

وبينما كان «بان تشاو» مستمراً في جهوده ضد الهون في حوض «نهر تاريم»، ضمن «بانو تانريقوت» مساندة إمارتي «كوچا» و«قارا شَهْر»،



ووجه ضربة شديدة لوحداث «هان» فى أراضى إمارتى «أرقه قوشو» (أرقه جه شيه) فى قومول (بالقرب من جيميسار)، و«أون قوشو» (طورفان). وأمام ضغط «بانو تانريقت»، سحب الإمبراطور «تشانج - تي»، «بانتشاويو» وجيش المتمردىن الذى نشره إلى قومول. وهكذا قطع الهون طريق القوافل الذى ظل مفتوحاً بين أعوام ۷۳ - ۷۷م، وظل مغلقاً (حتى عام ۹۱م). وأثناء استعداد «بانتشاو» للعودة إلى بلده بأمر الإمبراطور، طلب أمير «خوتن» منه عدم الذهاب. وقرر بقاء «بانتشاو» فى إمارة خوتن بصفته سفيراً. وطلب فى الخطاب الذى أرسله إلى الإمبراطور «تشانج - تي» فى عام ۸۰م إرسال الجنود إليه قائلاً: «سيصير من مصلحة إمبراطوريتنا القضاء على أعدائنا من البربر بيد أعداء البربر أيضاً». ووافق الإمبراطور على طلبه وأرسل إليه وحدة مكونة من ألف جندي تحت إمرة قائد يدعى «هوي - هان».

كان «بانتشاو» الذى استغل المشاحنات بين الإمارات الأويغورية فى حوض نهر تاريم، وأحدث الواقعة فيما بينهم، وتسبب فى وقوع أحداث دامية كثيرة فى المنطقة. وعلاوة على ذلك فقد استغل فرصة الهزيمة المنكرة التى منى بها الهون أمام قبيلة «سيانبي» فى ساحل أورخون فى عام ۸۷م، وحرّض إمارات «خوتن» و«ياركند» و«كاشغر» على محاربة إمارتى «كوچا» و«قاراشهر» اللتين كانتا صديقتين للهون، وأعد العدة لسحقهما.<sup>٥٢</sup>

وفى ما بين أعوام ۸۵، ۸۷، ۹۰، ۹۱م أذاقت إمبراطورية هان، الهون الغربيين الهزيمة أكثر من مرة اعتماداً على قوة الهون الجنوبيين وقبيلتى «سيانبي» و«تورا» (اللتان تمردتا على الهون عام ۸۵م). وبرغم قتال الهون الشرقيين ببسالة فى صفوف إمبراطورية «هان» للقضاء على إخوانهم الهون الغربيين، فقد قضى «ساو ساو» عليهم فى النهاية عام ۲۱۶م.

وبعد الهزيمة التى تعرض لها الهون الغربيين أمام أعدائهم فى عام ۹۱م، منحوا «قومول» (حامى) لإمبراطورية «هان»، وهكذا انفتح ثانية

طريق القوافل الذي ظل مغلقاً أربعة عشر عاماً. واعتباراً من هذا التاريخ ظل طريق القوافل الدولي مفتوحاً طوال ستة عشر عاماً. وعليه فعندما اضطر قصر «هان» إلى استعادة السفير «بانتشاويو» في عام ١٠٦م، استرد الهون الغربيين «قومول»، وسيطروا على طريق الحرير، وتقربوا من جديد من الإمارات التي في حوض نهر تاريم.

وفي ١٢٣م أرسلت إمبراطورية هان «بان يونج» إلى حوض نهر تاريم مع وحدة مكونة من ٥٠٠ جندي. وسعى «بان يونج» الذي مارس نشاطه قرب «لوكجون»، إلى القضاء على نفوذ الهون في المنطقة من خلال مساندة بعض الإمارات. وبرغم احتلال «بان يونج» لقومول، استطاع الهون بزعامه «كويان خان» أن يتحدوا مع إمارة «أرقة قوشو»، وانقضوا على قوات هان في قومول في عام ١٢٤م، وقتلوا قائدهم «هسوبان». ثم أخضعوا إمارة «أون قوشو»، واستولوا على موقع الممر الكائن بين الشرق والغرب. وقد استدعى امبراطور هان «بان يونج» سنة ١٢٧م إلى العاصمة، وأمر بحبسه بحجة ارتكابه جريمة عسكرية بعدم ذهابه إلى الجبهة في الوقت المناسب.<sup>٥٢</sup>

حارب الهون الغربيون إمبراطورية «هان» ٥٠ عاماً (٧٠ - ١٢٧ م)، من أجل المحافظة على هيمنتهم على آسيا الوسطى. وكانت أكبر نقطة خلاف بين الأطراف هي «قومول». ولم يتحقق مشروع استيلاء إمبراطورية «هان» على حوض نهر تاريم لأسباب عديدة، والحقيقة أن الهون هم الذين أعاقوا تحقيق هذا المشروع.

### السيانبي والأويغور

«السيانبي» في الأصل إحدى قبائل «الطونغوز». وبعد أن أخضع «باتور تانريقت» حاكم الهون، «الطونغوز» الذين كانوا يعيشون في الأراضي الممتدة من شرق منغوليا الداخلية (الولاية الصينية الحالية)، ومنغوليا الحالية حتى المحيط الأعظم، في عام ٢٠٦ قبل الميلاد، جاء فرع منهم من السفوح الشمالية لجبال «قديرخان» إلى جبال «سيانبي»، واستقروا

في المنطقة التي تسمى حالياً بـ (لياو - تونج)، واعتباراً من ذلك التاريخ اتخذوا لأنفسهم اسم «سيانبي» نسبة إلى اسم الجبل الموجود في المنطقة التي سكنوها.<sup>٤٠</sup>

عاش «السيانبي» مرتبطين بالهون منذ عام ٢٠٦ ق.م وحتى عام ٤٨م؛ ولكنهم رفعوا راية العصيان في عام ٤٨م، مستغلين انقسام الهون إلى قسمين، وحصلوا على استقلالهم. ثم هاجروا من السفوح الشمالية لجبال «قديرخان» إلى المناطق القريبة من بحيرة «هولون بر». وبعد هذه الهجرة التي جرت في عام ٦٠م تحركوا من وادي «قارا - مورين» نحو الغرب، واستقروا في منطقة «قوبدو» في منغوليا الحالية.

هاجر «السيانبي» في أواخر القرن الثاني الميلادي من «قوبدو» باتجاه الجنوب الشرقي تحت قيادة زعيمهم «تشي - بان خان». وتقول إحدى الروايات إن حيواناً مقدساً يُسمى «سايبي»، له شكل الحصان وصوت الثور، كان يرشدهم خلال هذه الهجرة الشاقة. وتبع «السيانبي» هذا الحيوان المقدس، وبعد عام من المسير بين الوهاد الخطيرة، وصلوا إلى الأراضي التي طالما اشتاقوا إليها؛ واعتباراً من هذا التاريخ أطلقوا على أنفسهم اسم «سايبي» بسبب هذا الحيوان الذي اتخذوه رمزاً مقدساً.<sup>٤١</sup> وتوضح هذه الرواية أن اسم سيانبي جاء من اسم «سايبي». وكما رأينا فإن هناك روايتين مختلفتين بشأن اسم سيانبي، أحدهما تقول إنه نسبة لاسم جبل، بينما تقول الرواية الأخرى إنه نسبة لاسم حيوان مقدس يُسمى «سايبي». ولكن لم يثبت حتى الآن صحة أي منهما.

ونظراً لأن «السيانبي» عاشوا خاضعين لحكم الهون على مدى ٣٠٠ عام، من عام ٢٠٦ ق.م حتى عام ٥٠م، أصبح جزء كبير منهم أتراك أو تم تتركهم.

وعندما انقسم الهون في عام ٤٨م إلى قسمين، أعلنت قبيلة «أوغان» (وو - هونلر) التي شكلت جزءاً مهماً من «الطونغوز» العصيان، وحصلت على

استقلالها. وانتهزت إمبراطورية «هان» هذه الفرصة، وسعت إلى تحريض السيانبي ضد الهون. ولجأت قبيلة أوكان التي منيت بالهزيمة على يد «بيان - هو» الحاكم السيانبي، إلى إمبراطورية «هان»، وهاجرت إلى مناطق سور الصين العظيم الداخلية. وعندئذ بدأ نجم «السيانبي» في التآلق.

وفي عام ٨٥م هجمت قبيلتا «تورا» و«سيانبي» على الهون بتحريض من إمبراطورية «هان». وانتهت الحرب التي شنها السيانبي قرب «نهر أورخون» عام ٨٧م، بهزيمة الهون الغربيين. وأسر «السيانبي» أمير الهون الغربيين وقتلوه، فثاروا بذلك لأنفسهم ثأراً تاريخياً. إذ عندما هزم «باتور تانريقوت»، الطونغوز في عام ٢٠٦ ق.م، دمر مقابر حكام الطونغوز، ولكن السيانبي الذين جاءوا من نسلهم لم ينسوا هذه الواقعة على الإطلاق.

بعد أن تعرض الهون الغربيون لهزيمة فادحة أمام جيوش إمبراطورية هان وجيوش السيانبي والهون الشرقيين المتحدة، في عامي ٨٩ و ٩١، هاجر قسم منهم إلى آسيا الوسطى، أما الذين لم يرغبوا في ترك وطنهم (وكان عددهم حوالي ٦٠٠ ألف نسمة)، فقد قبلوا البقاء تحت سيطرة السيانبي، وغيروا هويتهم. وهكذا حل السيانبي محل الهون، وأخذت قوتهم تزداد يوماً بعد يوم.

انزعجت إمبراطورية هان من تطور الأحداث على هذه الشاكلة، فاتحدوا مع الهون الشرقيين و «الأوغان» اعتباراً من القرن الثاني الميلادي، وبينما كانوا يخططون للقضاء على «السيانبي»، لمع من بين السيانبي في نفس القرن شخص يُدعى «طانشيجوي» [طان شيه - هواي]. وهناك روايات كثيرة ومختلفة عن «طانشيجوي» هذا.

تقول إحدى الروايات إنه كان هناك شاب من السيانبي يُسمى «طوروغور»، يخدم في جيش الهون في عام ١٣٠م، وبعد إنتهاء خدمته العسكرية التي استمرت ثلاثة أعوام، عاد إلى بيته فوجد زوجته ولدت له طفلاً، وأطلقت عليه اسم «طانشيجوي». فقرر «طوروغور» الذي اعتقد أن زوجته خانتها، أن يقتلها. وروت المرأة، التي خشيت من قتل زوجها

لها، هذه الواقعة له: «ذات يوم ساء الطقس، وبدأت الصواعق المخيفة ترعد في السماء. وأنا خائفة وأنظر إلى السماء، وفجأة بدأت السماء تمطر بشدة، ودخلت في فمي حبة مطر كبيرة. فابتلعتها. وحملت بعدها، ثم ولدت هذا الطفل». فصدق «طوروغور» حكاية زوجته وتراجع عن قتلها.

وطبقاً لما هو مسجل في المصادر التاريخية الموثوق بها، فإن «طانشيجوي» ولد عام ١٢٥م، لكن قول امه بأنه جاء نتيجة حبة مطر كبيرة ابتلعها، جعل منه أسطورة. وفي سن الرابعة عشرة بدأ «طانشيجوي» في جذب الأنظار إليه بشجاعته وحكمته. وعندما استولى أحد أمراء السيانبي على قطيع حيوانات خاص بأحد أقاربه، امتطى «طانشيجوي» فرسه وتعقب هذا الأمير بمفرده واستعاد القطيع كله. وبذلك نال احترام الجميع، وعندما بلغ الخامسة عشرة من عمره أجلسه «السيانبي» على العرش.

شكل «طانشيجوي» الذي أقام مقره بجوار «جانج - جيا - كو» الحالية، جيشاً قوامه مائة ألف جندي، وأسس دولة سيانبي، واجتمع تحت لوائه أمراء «السيانبي» الآخرين في منغوليا ومنغوليا الداخلية والمناطق الواقعة في شرقهم وغربهم. وفي القسم الخاص «بالسيانبي» من كتاب «وي - شو»، بشأن الإمبراطورية التي أسسها «طانشيجوي» الذي خضع له «الطوريون» الذين بجوار بايقال وشعوب الشرق، والهون الذين لم يتركوا وطن الأجداد، وأقوام أويصون في الغرب في الفترة ما بين أعوام ١٥٠ - ١٧٠م، يرد ما يلي:

«كانت حدوده الجنوبية تجاور حدود إمبراطورية هان. وقد شن «طانشيجوي» الهجمات على الطوريين في الشمال، وقبائل «بوروم» في الشرق (أسلاف الكوريين حالياً) وقبائل «وو - صون» في الغرب، وأخضعهم لسيطرته، وحل محل الهون. وكانت حدود الإمبراطورية تمتد بطول عشرة آلاف كيلو متر من الشرق إلى الغرب، وبطول سبعة آلاف كيلو متر من الشمال إلى الجنوب.»

وتوضح هذه المعلومات أن حدود إمبراطورية السيانبي التي أسسها «طانشجوي» خلال الأعوام (١٥٠ - ٢٣٥ م)، كانت تمتد إلى الحدود الغربية لكوريا في الشرق، وتقترب من «بايقال» في الشمال، وحتى سور الصين العظيم في الجنوب وحتى الأجزاء الشرقية لقازاقستان في الغرب.

وشن «طانشيجوي» بعض الحروب على إمبراطورية «هان» خلال الفترة من ١٥٦ - ١٧٨م وألحق أضراراً بالغة بالأهالي الذين يعيشون في «يو - تشوان» في «قانسو» والمناطق الشمالية لـ «خو - بي» و«شان - سي» و«شين - سي هويي». وخضع قوم «أوغان» (وو - هونلر) لسيطرة «طانشيجوي» وكانوا قد لجأوا من قبل إلى إمبراطورية هان في سنة ١٦٦م. وأرسل «هوان - تي» إمبراطور «هان» الذي كان في موقف في غاية الصعوبة سفيراً إلى «طانشيجوي»، يخبره برغبته في منحه أميرة من هان كزوجة له، والعيش في سلام مع السيانبي، لكن «طانشيجوي» رفض العرض. فهجم «هوان - تي» الذي أعيته الحيلة، على السيانبي في عام ١٧٧م بجيش قوامه عشرة آلاف جندي من الصينيين والهون؛ لكن أبعد جيشه بالكامل باستثناء عدد قليل جداً من الجنود.

وتسبب خلو العرش بموت «طانشيجوي» في عام ١٨١م بعد ٣٢ عاماً في السلطة، في ظهور الحروب الداخلية بين أمراء «السيانبي» وفتح الطريق لتقسيم السيانبي أولاً، ثم إنهيار الدولة فيما بعد.

وبعد موت «طانشيجوي» اعتلى العرش ابنه «غاران»، لكنه لم يكن حاكماً قدير كأبيه، فقد كان يركن إلى الراحة وغداراً. لهذا السبب قتل بعد فترة قصيرة.

واعتلى العرش بعده ابن أخيه «قوي - تو»، وفي عهد انفرط عقد السيانبي وتفرقت صفوفهم عندما طالب «تشان - مان»، «بن غاران» بحقه في العرش. ومات «قوي - تو» في عام ٢١٦م واعتلى العرش بعده شقيقه «بودوكين». وفي عهده استعادت إمبراطورية «سيانبي» قوتها رغم وقوع بعض الصدمات الداخلية. وعندما مات «بودوكين» في عام ٢٣٣،

اعتلي ابنه «قبنين» العرش. وكان «قبنين» مفكراً استراتيجياً وجندياً جيداً، كما كان أيضاً دبلوماسياً ناجحاً. فقد هزم إمبراطورية «وي» أكثر من مرة، وقضى على جميع وحدات «وي» العسكرية في الحرب التي دارت في شمال «شان - سي» في عام ٢٣٤م، واحتل جزءاً من «شان - سي» و«شين - سي». وفي هذه الحرب أزرتة جيوش دولة «شو - هان» التي أسست علاقات صداقة معه.

وأثناء حصار جيش «وي» بالقرب من مدينة «هي - شان» الواقعة غرب قانسو، توجه «جوكليانغ» أحد وزراء «شو - هان» سفيراً إلى «قبنين»، وطلب منه المساعدة، فجاء «قبنين» بنفسه على رأس جيشه، واشترك بالفعل في الحرب التي دارت بجوار مدينة «جاو - ليانج». وأثار سير الأحداث على هذا النحو، قلق إمبراطورية «وي». فسعى قادة «وي» لدعم وحدات حرس الحدود من ناحية، وبدأوا من ناحية أخرى في البحث عن وسيلة تمكنهم من القضاء على قبنين باغتياله. فأرسل والي بكين قنصاً يقال له «خلونغ» سرا، نجح في اغتيال «قبنين» في عام ٢٣٥م.

بعد موت «قبنين» تأسست إمارة «طوبا» سيانبي التي حلت محل إمبراطورية سيانبي. وكان يُطلق على «طوبا سيانبي» منذ القدم، سيانبي فقط؛ ولكن اعتباراً من عام ٢٠٦ ق.م تشكل شعب يسمى «طوبا سيانبي» نتيجة امتزاج الهونين مع السيانبي. ونعرف من التاريخ أن انصهار شعب بأكملهم داخل شعب آخر يستغرق زمناً طويلاً. واستغرق التمازج التام بين الهون والسيانبي مائتي عام تقريباً، بداية من خمسينات قبل الميلاد، وحتى عام ١٥٠م، وهكذا ظهر شعب جديد باسم طوبا سيانبي. وتتضمن كتب التاريخ معلومات صريحة حول أصل كلمة «طوبا». تقول هذه المعلومات إن الأطفال الذين يولدون من أب سيانبي وأم هونية كانوا يسمون طوبا<sup>٧</sup>. وباختصار فإن شعب طوبا سيانبي هم أساساً من السيانبي الذين تم تتركبهم، وظهروا على مسرح التاريخ بعد انهيار إمبراطورية سيانبي. واستقروا عند سفوح جبال «چوغاي»، وأسسوا إمارة

«طوبا سيانبي». وقد قضى «الأواريون» في النهاية على إمبراطورية سيانبي في عام ٣٩٤م، بعد أن استمر وجودهم ١٦٠ عاماً.

أما أقوام تورا فنجد إنهم حافظوا على وجودهم في الفترة من ١٥٠ - ٢٣٥م تارة مرتبطين بالسيانبي وتارة أخرى مستقلين. وتتضمن المصادر المكتوبة في القرن الثالث ق.م معلومات تتحدث عن أقوام تورا التي عاشت قريباً من بايقال. مثلاً في المؤلف المسمى «التاريخ الموجز لإمارة وي» الذي كتبه «وي - هوان»، وردت في باب «أقوام رونج الغربية»، معلومات عن أقوام «تورا» التي تعيش في الأراضي الممتدة من نهر إرتيش، حتى ساحل بحيرة «بالقاش».

وتقول هذه المعلومات إنه اعتباراً من ذلك التاريخ أصبح من المعتاد تسمية الذين يعيشون بالقرب من بايقال بـ «شعب تورا» الشرقية، وتسمية الذين يعيشون في الأراضي الواقعة بين نهر «إيرتيش» وبحيرة «بالقاش» بـ «شعب تورا» الغربية. وهاجر قوم تورا الشرقية في أواخر القرن الثالث الميلادي لأسباب غير معروفة، من المنطقة القريبة من بحيرة «بالقاش» إلى أقصى الجنوب، وانتشروا بالقرب من نهر «أرخون».

وكما أوضحنا من قبل أن «الأوار» قضوا على إمارة «طوبا سيانبي» في عام ٣٩٤م. واعتباراً من عام ٢٨٦م وحتى أواخر القرن الرابع الميلادي، أسس شعب يسمى طوبا - والمعتقد أنه ذو أصل سيانبي - «دولة وي»، وكانت عاصمتها «طا - طونج» الحالية، وفي نفس الوقت تشكل شعب باسم «الأوار» في منغوليا. أما قوم تورا الشرقية فقد انحصروا بين هاتين الدولتين، ولم تكن هناك في تلك الآونة وحدة بين قوم تورا الشرقية.

وفي عام ٣٩٠م شن «طوباقوي» وهو أول حكام «طوبا» هجوماً على شعب «تورا الشرقية» بجيش كبير، ووصل حتى سواحل «نهر أورخون». وفي تلك الآونة لم يستطع شعب «تورا الشرقية» الذي يُسمى «أصحاب العربات ذات العجلات العالية»، مواجهة شعب طوبا. وخلال هذه الحرب هجم «طوباقوي» على الأويغور، وبلغت غنائمه في هذه الحرب حوالي ٢٠٠ ألف رأس من الحيوانات ٥٨، وأسر مائة ألف أسيراً من شعب تورا



الشرقية، وقام بتوطينهم بالقرب من «طا - طونج». وخلال هذه المسيرة العسكرية دفع أمامه غنائمه من الحيوانات التي بلغت أكثر من مليون. في عام ٤٧١م، نقلت «طوبا» عاصمتها من مدينة «طا - طونج» إلى «لو - يانج»، وبعد العمل على تقوية الدولة بالاستفادة من القوة البشرية لشعب تورا الشرقية، وإمكاناتهم المادية، بدأت في الاستعداد للقيام بعملية عسكرية واسعة النطاق ضد «تشي» الجنوبية وذلك في عام ٤٩٨م. وفي تلك الآونة أرسل «شاو وين - تي» (٤٧١ - ٤٩٩م)، حاكم أسرة «وي» الشمالية، سفيراً إلى تورا الشرقية، وطلب منهم الانضمام إلى الحروب التي سيشنها ضد أسرة «تشي» الجنوبية. لكن تورا الشرقية التي اختارت شوقاً أمير قبيلة الأويغور حاكماً لها، رفضت اقتراح «شاو وين - تي». فأرسل «شاو وين - تي» بعد رفض طلبه، جيشاً ضخماً تحت قيادة «يو وين - بو» ضد تورا الشرقية. وقضت تورا الشرقية تحت قيادة «شوقا» على وحدات «وي» الشمالية، وترك «يو وين - بو» ميدان القتال وهرب. لم يقبل «شاووين - تي» الهزيمة التي تكبدها، وتوجه بجيش كبير بقيادة «جانج فانج - وانج» ضد تورا الشرقية للمرة الثانية، وانتصرت تورا الشرقية في هذه المرة أيضاً. وبعد هزيمة «شاو وين - تي» الثانية هذه راجع نفسه، وأرسل سفيراً إلى تورا الشرقية وقدم اعتذاره. والواقع أن تماسك تورا الشرقية ووحدتها الداخلية ضمن لها الانتصار على الأعداء؛ كما أن هزيمة «وي» الشمالية أنقذتهم من هجوم قوم «تشي» الجنوبيين. وعاشت تورا الشرقية مستقلة بعد أن اختارت شوقاً أمير الأويغور حاكماً لها، وتطورت بمرور الأيام. واستمر هذا الوضع حتى عام ٥٥٥م. وخلال هذه العهود لم تتمكن «طوبا» ولا «الأوار» من إخضاع تورا الشرقية، إذ أخذ الضعف يدب في كلتا الدولتان.

بعد أن نقلت «طوبا» عاصمتها من «طا - طونج» إلى «لو - يانج» كما أوضحنا من قبل، غيرت اسم الدولة إلى «يوان». وتخلت عن تقاليدھا بعد أن استحسنّت العادات والتقاليد الصينية، واستمر وجودها ٦٥ عاماً، وفي النهاية امتزجت بالصينيين وانمحت من التاريخ.

## الأوار والأويغور

بدأ «الأوار» في الظهور في أراضي منغوليا الحالية في أواخر القرن الرابع الميلادي. وكانوا يعيشون في العهود القديمة بالقرب من جبال «قديرخان». وفي أواخر القرن الرابع الميلادي هاجروا إلى الطرف الشمالي الغربي من السهول المنغولية، وانتشروا بجوار سواحل نهري «أورخون» و«طولا».

كان كتاب الوقائع الصينيون يذكرون الأوار في لغتهم الصينية برمزين هما «رو - رو» و«رو - ران». وأستعملت هذه الرموز التي تعنى الذئب المتعفن أو الذئب المتأهبة، في الأصل لتحقير الأوار. في حين أن كلمة «أوار» تعني في اللغة الأوارية، «المتمرد الشجاع»<sup>٩٠</sup>. وهناك آراء مختلفة عن منشأ الأوار. يقول بعض المؤرخين إنهم في الأصل أسلاف «الطونغوز»، ويقول البعض الآخر إنهم أسلاف المغول الذين تم تتركهم. ولذلك كانت عادات الأوار وتقاليدهم في الفترة التي ظهر فيها لا تختلف كثيراً عن عادات وتقاليد الأويغور.

تقول إحدى الروايات إن في عهد «ليفني» السيانبي، تم القبض على طفل مجهول الاسم والأصل وصار عبداً، وأطلق عليه اسم «مغولوي»، وتعني (صاحب الرأس الأقرع). وبعد أن كبر مغولوي أعتق وجرى ضمه إلى الجيش. وذات يوم فر «مغولوي» من الجيش، وجمع حوله الهاربين مثله؛ وبعد موته جمع ابنه «چولوغوي» من كانوا حول أبيه في جماعة، وصار رئيساً للأواريين. أما أبناء مغولوي فقد اختاروا اسم أبيهم، واتخذوه لقباً لهم.

في عام ٣٩٤م أطلق الأوار الذين حلوا محل طوبا سيانبي، لقب «قاغان» على حكاهمهم. وحافظت الإمارة «الأوارية» على وجودها ١٥٨ عاماً، وقويت شوكتها في عهد «طولون - قاغان»، ونجحت في توسيع حدودها حتى بلغت كوريا في الشرق، و«قاراشهز» في الغرب، وسواحل بحيرة «بايقال» في الشمال، وصحراء منغوليا في الجنوب.

ويمكننا أن نستقي المعلومات عن العلاقات التي كانت بين إمارة الأوار والأويغور والقبائل الأخرى، من خلال ما سجل في باب «الأوار» في حولية سلالة «وي»، وباب «أصحاب العربات ذات العجلات العالية» بنفس الأثر، وأيضاً في باب «أصحاب العربات ذات العجلات العالية» في تاريخ السلالة الشمالية، وباب «الأوار» في حولية سلالة «تشي» الجنوبية، وأيضاً من مصادر أخرى. ويتضح من هذه المصادر أنه مع نهاية القرن الرابع، في الفترة التي بدأ فيها صعود «الأوار»، انقسمت تورا الشرقية التي تكونت من مجموع ثماني عشرة قبيلة إلى قسمين. وفيما يلي أسماء القسم المكون من ست قبائل، وهم :

١ - أقوام تورا الحمراء<sup>٦٠</sup>

٢ - أقوام الأويغور

٣ - خوغورصو

٤ - جبني

٥ - أقوام القييرغيز

٦ - إيل تكين

ويتكون القسم الآخر من أقوام تورا الشرقية من ١٢ قبيلة، وهم :

١ - چيبولي

٢ - تورا

٣ - إيلجان

٤ - طارلان

٥ - قوغا

٦ - طاربوقان

٧ - أيرون

٨ - بايان

٩ - أركين

١٠ - بوركلي ( طوماغلق )

١١ - كي أوي

١٢ - يوشوبي

وكما ذكرنا فيما سبق فإن الآوار بدأو في الظهور في الفترة التي انقسم فيها قوم تورا الشرقية إلى قسمين. وكما فهمنا من هذا أيضاً أن قوم تورا الشرقية في تلك الآونة، لم يكونوا متحدين.

وبعد هزيمة الآوار في عام ٣٩١م على يد «طوباقوي» حاكم طوبا، تقهقر «طولون» حاكم الآوار إلى شمال صحراء منغوليا في عام ٣٩٤م، وأسس الإمارة «الآوارية». وهجم «طولون - خان» الأول على تورا الشرقية في عام ٤٠٢م وأخضعها. ورغم أن إمارة الآوار قويت شوكتها اعتباراً من ذلك التاريخ، فإن قوتها آنذاك لم تبلغ الذروة بعد. وفي عام ٤٠٢م أخضع طولون - خان الأول تورا الشرقية، لكن «بك قولي» زعيم قبيلة «خوغورصو» رفض الخضوع، واصطدم مراراً بالآوار. وفيما بعد استطاع «بجقولي» الذي صار اسمه «السلطان باتور»، تحقيق انتصارات كبيرة على الآوار، لكنه انهزم في الحرب التي شنّها ضدهم في عام ٤٣٠، ولجأ إلى إمارة «طوبا»، ومات هناك بعد فترة قصيرة. وأعلن «طوباقوي» الحداد عليه، ورتب له جنازه مهيبه. حتى أنه في تلك الآونة لُحنت أغنية بين قوم تورا الشرقية عنه تقول:

أواه، حين تقول الأم أن بك قولي أت

ينقطع حينئذ بكاء الأطفال

حينما كانت الفتيات تغني كن يقلن

ليت فتياننا في شجاعة بك قولي

هذه الأغنية هي مدح في بطولة «بك قولي» وبسالته، فالأويغور منذ القدم يبجلون الأبطال والمحاربين. ولهذا السبب كانت فتيات الأويغور

يفضلن الزواج من محاربين وأبطال.

تعرض الآوار فى عهد «طالان - خان» (٤١٤ - ٤٣١) لهجوم إمارة «طوبا»، وانهزموا هزيمة فادحة. فرفع «بك قولى» راية العصيان ضد الآوار فى عام ٤٣٠، وفى نفس الفترة وتزوج «أوتيا - خان» سلطان «الآوار» (٤٣١ - ٤٤٤ م) من إحدى بنات حاكم طوبا. وفى نفس العام تمت خطبة شقيقة «أوتيا - خان» لـ «طاي وو - تي» حاكم طوبا.

فى عام ٤٣٠ م تمردت تورا الشرقية بقيادة «بك قولى» على الآوار، ووجهت لهم ضربة شديدة، ولكنها انهزمت على يد قائد الآوار «وو - تي». وفى تلك الأثناء تم القضاء على ٨٠٪ من قبيلة «خوغورصو» التى ساندت «بك قولى» الذى تزعم العصيان، كما تعرض بك قولى أيضاً لهزيمة فادحة ولجأ إلى إمارة «طوبا».

بعد أن سيطر الآوار على تورا الشرقية وأترك «الآطاي» (خضع الأتراك للآوار فى عام ٤٣٨ م)، استفادوا من قوتهم العسكرية والاقتصادية فى تدعيم جيشهم لأن الأتراك كانوا ماهرين فى صنع الأسلحة، وقويت شوكة الآوار إلى حد كبير فى عهد «طالان - خان»، وكانت حدود إمارة الآوار تمتد حتى برارى «تاكس» الواقعة فى «وادي إيلي» فى الغرب، وحتى «قومول وطورفان وقارا شَهْرُ وكوچا وأقصو».<sup>٦١</sup>

وسعى الآوار إلى إحكام سيطرتهم على وادي تاريم فى عهد «چولوق - قاغان» (٤٤٤ - ٤٦٤ م) و«يوجين قاغان». وقام «قوطقو أرجونى» حاكم دولة «قوطقو - هون» التى أسسها فى عام ٤٦٠ م على أساس نظام دولة الهون، بتأسيس إمارة طورفان بعد أن استقر بها، وعين حليفه «كنبايجيون» خانا عليها. وفى عام ٤٧٠ م هجم الآوار على إمارة «خوتن»، وحاصروا عاصمتها حتى يتيسر لهم إخضاعها. وبينما سعى «أودون» حاكم [خوتن] من ناحية لجمع جيشاً للمقاومة، قام من ناحية أخرى بإرسال سفير إلى «وي» الشمالية، طلباً للمساعدة. فامتنع «طوباهون» حاكم «وي» الشمالية عن مساعدته متعللاً بطول الطريق<sup>٦٢</sup>. واستغل الآوار الفرصة، واستولوا على الأراضى الخصبة الواقعة فى وادي تاريم.

وفي عام ٤٨٠ دخل الآوار في فترة حرجة جداً. لأنه من ناحية كان الهون البيض قد دخلوا وادي تاريم، ومن ناحية أخرى رفعت «تورا» الشرقية راية العصيان ضد الآوار.

دخل «الهون البيض» وادي تاريم من جبال «قره قوروم» في عهد الإمبراطور «أفتالانوس» (٤٧٠ - ٤٩٦). وتحاربوا مع الآوار، وتقدموا في اتجاه الشرق، وانتزعوا منهم كوچا وأقصو وكاشغر وخوتن.<sup>٦٣</sup>

وبينما كان طولون الثاني (شالون) حاكم الآوار يستعد للهجوم على أسرة «وي» الحاكمة الشمالية في عام ٤٨٧ م، طلب من تورا الشرقية إرسال جنود له. ولكن تورا الشرقية لم تكن تميل إلى هجوم الآوار على «وي» الشمالية، لذا رفعت راية العصيان وقررت تأسيس دولة مستقلة. وكان «آي أوجرو» (أ - فو - تشي - لو) وشقيقه «چونجي»، وهما من أمراء قبيلة بوركلي يقودان حركة الاستقلال هذه. إذ تقدما على رأس ١٢ قبيلة من قبائل «تورا» الشمالية تجاه الغرب قادمين من صحراء منغوليا الحالية، ووصلوا إلى «وادي جونغار» الكائن بين جبال الألتاي وجبال «طانرى». وكان عددهم حينئذ عبارة عن ١٢٠ ألف خيمة أي حوالي ٦٠٠ ألف شخص. وانضم قوم «تورا» الشرقية التي هاجرت إلى «وادي جونغار» إلى قوم تورا الغربية التي تعيش شمال وجنوب جبال طانرى، فأدى هذا إلى زيادة قوتهم. رفض السلطان «طولون» وخاله «ناغاي» هذه الحركة، وخرج بجيش كبير لمطاردة «آي أوجرو» وچونجي. ودارت رحى الحرب في جنوب جبال الطاي، وانهزم فيها السلطان طولون الثاني هزيمة فادحة أمام «آي أوجرو» وهرب إلى وجهة غير معلومة، وبعد فترة قصيرة قتله أمراء «الآوار».

بعد انتصار «آي أوجرو» (أ - فو - تشي - لو) على الآوار، نصب خيمته بجوار ماناص الحالية، وأسس إمارة أويغورية (٤٨٧ - ٥٤٦ م) باسم «أصحاب العجلات العالية». واتخذ «آي أوجرو» لقب «أولو تانر يقوت»، واتخذ «چونجي» لقب «ألوبك». واستطاعت هذه الإمارة الأويغورية التي ظهرت على مسرح التاريخ كدولة قوية جداً، أن تكون بمنتهى السهولة

جيشاً قوامه ١٢٠ ألف مقاتل. وكانت حدود الإمارة تضم القطاعات الشرقية لوادي إيلي، و«قومول» الشرقية، وجبال «ألطاي» الشمالية، والسواحل الجنوبية لبحيرة «لوب - نور» في الشمال الشرقي، والقطاع الجنوبي الغربي من قارا شَهْر. وبعد أن هزم «آي أوجرو» الآوار وأسس دولته المستقلة قتل «قانشوغوي» حاكم إمارة «طورفان» المرتبط بالآوار، وأجلس مكانه على العرش شخصاً يُدعى «چانج منج - مين» (منقول عن الصينية على نحو خاطئ). وهكذا اقتطع «آي أوجرو» إمارتي «طورفان» و«لولان» من «الآوار»، وبعد أن أخضعهما لحكمه، استولى على إمارة «چرچن» الواقعة في جنوب «لوب - نور» من يد «قوم طويجون» [طوجون / طو - يو - هون] وهي (دولة التبت الموجودة حالياً في جينهاي).

بعد أن اتخذ «آي أوجرو» التدابير العسكرية اللازمة لحماية إمارة الأويغور، التي تأسست حديثاً من ضربات الأعداء، باشر جهوداً دبلوماسية كبيرة. فقد كان هناك عدوان قويان للإمارة حديثة العهد، وهما «الآوار» و«الهون» البيض. وظهر في القطاع الشمالي من بحر الخزر في القرن الخامس، قوم «أبدال» (يطلق الأوربيون عليهم أفتاليت)، الذين ينحدرون من فرع ده - ياوچي (الياوچي العظام) ومن الهون، وتقدموا ناحية الشرق وسحقوا قوم «كوشان».

أما قوم آبدال الذين يسميهم المؤرخ البيزنطي «بريقوبيوس القيصري» الذي عاش في القرن السادس «الهون البيض»، فقد أسسوا إمبراطورية الهون البيض تحت إدارة «أقشونوار». وكانت أراضيها تضم أفغانستان وباكستان الحالية، وعاصمتها القديمة ماراكنت (سَمَرْقَنْد الحالية)، لكنهم فيما بعد نقلوا العاصمة إلى بلخ. وقويت شوكة الهون البيض منذ عام ٤٨٠م وهزموا الحاكم الفارسي «فيروز» في عام ٤٨٤، وبعد أن فرضوا عليه الجزية، أخضعوا لسلطانهم الإمارات التي بجوار جبال «قره قوروم»، مثل «خوتن» و«ياركند» و«كاشغر» و«كوچار» و«قارا شَهْر».

أخذ «آي أوجرو» هذا الوضع في الاعتبار، وأرسل شقيقه «چونچي»

بقسم من الجيش إلى قارا شَهْرُ ليتخذ تدابير التصدي للهون البيض». أما هو فقد انتظر مستعداً بجيش كبير لحماية الطرف الشمالي للسلطنة من اعتداءات الآوار.

كانت إمارة الأويغور محاطة بشعوب غير صديقة، ففي شمالها يوجد الآوار، وفي جنوبها الشرقي هناك الهون البيض، وفي جنوبها يوجد قوم «طوغون». وبعد أن اتخذ «أي أوجرو» التدابير اللازمة للدفاع عن بلاده، أرسل سفيراً إلى «لو - يانج» عاصمة إمبراطورية «طوبا» واتصل بهم. وبعد أن اطلع إمبراطور طوبا على الوضع الذي شرحه السفير، أرسل من فوره سفيراً بالرد، كما أرسل إلى «أي أوجرو» و«چونجي» ملابس قطيفة و ١٠٠ طومار من القماش الفاخر. ونتيجة للعلاقات الودية التي نشأت بين «وي» الشمالية وإمارة الأويغور في عام ٤٨٧م، تم عقد تحالف ضد الإمارة الآوارية. أما في عام ٤٨٨م، فقد نشأت علاقات بين «تشي» الجنوبية الواقعة في وادي «تشانج - تشيان» وبين «أي أوجرو». وأحجم «الآوار» عن شن أي هجوم واضعين نصب أعينهم البنية القوية لإمارة الأويغور، والعلاقات الودية التي بين «وي» الشمالية و«تشي» الجنوبية.

بيد أن «الهون البيض» جاءوا فجأة من ناحية «كوچار» في عام ٥٠٨م وهجموا على «قارا شَهْرُ»، وفقد «چونجي» حياته في هذه الحرب. كما أسر الهون البيض أبناء «چونجي» الاثنين وهما «باتور» و«إيلبك» وحبسوهما، وبعد هذه الواقعة توجه جزء من الأويغور الموجودين في «قارا شَهْرُ» إلى طورفان، بينما اجتاز الجزء الآخر جبال «طانرى» ووصلوا إلى أطراف «جيميسار». بعد أن استولى الهون البيض على «قارا شَهْرُ» قتل أمراء الأويغور «أي أوجروا» ونصبوا أحدهم المسمى «باريان» حاكماً. ذلك لأن «أي أوجرو» بعد أن صار حاكماً، حدث له خلل عقلي، وأصبح دكتاتوراً جباراً وكرهه الشعب.

وفي عام ٥٠٩م أيضاً شن «الهون البيض» هجوماً على إمارة الأويغور من الناحية الجنوبية. وقتل أمراء الأويغور «باريان» بعد أن أدركوا أن «باتور بن چونجي» موجوداً بين جيش الهون البيض واستقبلوا «باتور» ونصبوه



على العرش. وهكذا انتهت الحرب بين الأويغور والهون البيض ونشأت علاقات ودية بينهم. وسعى الهون البيض إلى إحكام سيطرتهم على «وادي تاريم» إعتباراً من عهد الحكام «إيفتالانوس» والسلطان «طورامان» و«ميهر كولا». وبرغم قيام الهون البيض بمهاجمة إمارة الأويغور مرتين في عهد «ميهر كولا»، فقد تأسست علاقات ودية بينهم مع جلوس «السلطان باتور» على العرش.

وفي عهد السلطان «باتور» [مي - وو - تو] (٥١٠ - ٥١٦)، تطورت العلاقات الودية بين إمارة الأويغور وإمبراطور «وي» الشمالية، «وو - تي». وفي عام ٥١٠ أرسل السلطان باتور سفيراً إلى إمبراطورية «وي» الشمالية محملاً بالهدايا عبارة عن صرة من الذهب وصرة من الفضة، ووصولجانين من الذهب، وهدايا أخرى تحملها سبعة جياذ وخمسة عشر جملاً. وفي مقابل ذلك أرسل «وو - تي» بعثة من السفراء معها ٦٠ طومارا من حرير أطلس تعبيرا عن إمتنانه،

بعد تنظيم العلاقات بين الهون البيض وإمارة الأويغور، صار من الممكن أن يستكمل السلطان باتور الاستعدادات لبدء الحرب ضد الآوار، ثم بدأت الحروب العنيفة بين الأويغور و«الآوار».

انطلق «طوق - خان» [فو - تو] حاكم الآوار للهجوم على السلطان باتور في عام ٥١١م. فقابله السلطان «باتور» الذي كان مستعداً في شمال «باركول». وانتهت الحرب بهزيمة السلطان باتور، وانسحابه مسافة ٣٠٠ كيلومتر، حتى بلغ مشارف «جيميسار». أما السلطان «طوق» [فو - تو] فانحسب إلى الجبل الكائن في شمال «قومول».

وصل إلى قومول [حامي] في تلك الأثناء جيشاً قوامه عدة آلاف جندي، أرسلته إمبراطورية «وي» الشمالية بقيادة أحد الأمراء واسمه «مينج - وي» بناءً على حلف الصداقة القائم بينهما. فلما رأى «طوق - خان» ذلك تملكه الخوف، وبينما كان يحاول الهرب، انتهز السلطان «باتور» [مي - وو - تو] الفرصة وجاء مسرعاً وشن حرباً أخرى في شمال «باركول»، وانتهت الحرب بانتصار الأويغور. وأسر السلطان باتور

«طوق - خان» حياً وقطع رأسه، وأرسلها هدية إلى إمبراطور «وي» الشمالية. وعلاوة على ذلك أرسل بعد الحرب خمسة جياذ مرصعة بالذهب والفضة برفقة سفير للتعبير عن شكره وامتنانه. واستقبل «وو - تي»، سفير الأويغور بكل الاحترام، وأرسل من جانبه سفيراً و ٨٠ عازفاً يجيدون العزف على الآلات الموسيقية، و ١٠ طومار من الحرير الأحمر، و ٢٠ طومار من الحرير المنقوش بالأزهار، وهنأه بالانتصار الذي حققه ضد الآوار.

ولكن بعد ستة أعوام انهزم السلطان باتور في الحرب التي شنّها ضد سلطان الآوار، «چونو - خان» [تشه - وو - نو]. وربط «چونو - خان» السلطان «باتور» من قدميه ويده اليمنى إلى جوادين، وبعد أن جره على الأرض قطع رأسه. وهكذا ثأر لأبيه، ولم يكتف بهذا بل قام بتغليّف جمجمة السلطان باتور بالذهب، وجعلها كأساً لشرب الخمر.

وحاول الأويغور الذين تعرضوا لهزيمة فادحة على يد الآوار في عام ٥١٦م، حشد قوتهم بمساعدة الهون البيض بمقتضى معاهدة الصداقة التي عقدت بينهما من قبل. وبعد مقتل السلطان «باتور» قام الهون البيض بتنصيب شقيقه الأصغر «إيلبك» على عرش إمارة الأويغور. سعى «إيلبك خان» بعد تنصيبه إلى تحسين الوضع، فأرسل سفيراً إلى إمبراطورية «وي» الشمالية، ودعم علاقاته معها. ثم بدأ الحرب ضد الآوار بعد ذلك في عام ٥٢١، وهزم «براهمان - خان» [پو - لو - مينج]، ففر براهمان خان إلى «وو - وي» الكائنة في قانسو الحالية. وبعد عامين أرسل إمبراطور «وي» الشمالية سفيراً إلى إيلبك - خان محملاً بهدايا عديدة.

انهزم «إيلبك - خان» في الحرب التي شنّها ضد «أيناجاي» [أناهوان]، حاكم «الآوار» في عام ٥٣٠م، وقتله ابن أخيه «يوقو» (ابن چونجي الصغير). وكان أهم سبب لهزيمة الأويغور أمام الآوار هو انحياز حلفائهم القدامى الهون البيض إلى جانب الآوار. ذلك لأن «الآوار» اعتباراً من عام ٥٢٠م بدأوا في عدد من الفعاليات الدبلوماسية حتى يتركوا

الأويغور بلا حليف؛ ففي نفس العام قام «آيناغاي» [آنا هوان] بتزويج ابنته لحاكم الهون البيض «مهير كولا» ونجح في ضمه لصفه. وفي نفس العام أيضاً زار «آيناغاي» «لو - يانج» عاصمة إمبراطورية «وي» الشمالية. وفيما بعد صار «آيناغاي» صهراً لإمبراطور «وي» الشمالية في عام ٥٢٣، وفي عام ٥٣٨ م صار صهراً لإمبراطور «وي» الشرقية، ووقع معاهدة صداقة مع الهون البيض.

كان حاكم الآوار «آيناغاي» يوطد علاقاته بكل من «وي» الشرقية، و«وي» الشمالية والهون البيض، في حين لم يكن للأويغور حليف واحد من حولهم، لذلك انهزم الأويغور في كل حرب خاضوها ضد «الآوار».

عندما انهزم «يوقو» في عام ٥٣٧ على يد «آيناغاي»، قتله «بكجي» [بي - تي] بن إيلبك، لكنه هو نفسه لم ينج من تذوق ألم الهزيمة على يد «الآوار». وإذا كانت المصادر التاريخية تقول إن «جوبين بن يوقو» اعتلى عرش إمارة الأويغور بعد «بكجي»، فمن المعروف أنه عندما انهزم «بكجي» أمام «الآوار» في عام ٥٣٧ م، هرب «جوبين» إلى إمبراطورية «وي» الشرقية، ومرض هناك ومات.

وبينما تستعد جيوش الأويغور للحرب مع الآوار في عام ٥٤٦ م (غير معروف من كان حاكم الأويغور في تلك الفترة)، تفرق شملها نتيجة هجوم غير متوقع شنه «طومان - خان» و«إيستهمي - خان» سلاطين «الكوكتورك» الذين ظهروا خلفهم عند جبال «الطاي». وخضعت إمارة الأويغور المذكورة في كتب التاريخ باسم «إمارة أصحاب العجلات العالية» [كاو كوي] لسيطرة أقاربهم «الكوكتورك» بعد أن حافظوا على وجودهم لمدة ستين عاماً.

وقد اضطلعت إمارة الأويغور هذه التي تحدثنا عنها بأدوار مهمة في التاريخ. ويتم إثبات الدور التاريخي الذي لعبته الإمارة من ناحيتين: فمن ناحية أقامت إمارة الأويغور منذ تأسيسها علاقات صداقة مع إمبراطورية «وي» الشمالية التي ظهرت في وادي «هوانج - هو» وقام الاثنان معاً بمحاربة «الآوار» باستمرار. وتحارباً معاً بصورة مستمرة مع

الأوار، ومن ناحية أخرى لم تنقطع الحروب بين سلطنة الأويغور و الأوار وطوال ستين عاماً بدءاً من تاريخ تأسيسها ولم تستطع سلطنة «الأوار» القوية التي امتدت حدودها سنة ٤٠٠م شرقاً حتى كوريا وغرباً حتى كازاخستان وفي الجهة الجنوبية الغربية حتى «قارا شَهْرُ»، لم تستطع ان تخضع «أصحاب العجلات العالية» الأبطال والشجعان واليقظين. لقد طرد الأويغور «الأوار» من الأراضي التي سكنوها (من بين جبال طانرى ومن طورفان وقارا شَهْرُ ولولان وجرجن الخ) ووجهوا لهم ضربات شديدة، وخلال فترة تقدر بستين عاماً تمتد من ٤٨٧م إلى ٥٤٦م بذل الأوار كل طاقاتهم من أجل الحرب مع الأويغور. ومن ناحية أخرى لم تتح لهم فرصة للهجوم على «وادي هوانج هو» بسبب الصراعات داخلية وهكذا اتاحت الفرصة لتطور «وادي هوانج» من الناحية الاقتصادية.

ومن ناحية أخرى فإن حروب الأويغور المستمرة مع الأوار أتاحت الفرصة لتعاظم قوة «الكوك تورك» بصورة بطيئة تحت سلطة «الأوار»، كما أتاحت الفرصة لهزيمة سادتهم في النهاية، ومهدت الطريق لتأسيس دولة «الكوك ترك».

### الكوك تورك والأويغور

أسس «الكوك تورك» سلطنة قوية وعظيمة استمر حكمها قرنين من الزمان بداية من القرن السادس وحتى أربعين عاماً من القرن الثامن. وقد توسعت حدود السلطنة بعد تأسيسها واتسعت على مدى ٦٠ عاماً حتى بلغت ساحل «آرال» في الشرق، والبحر الأسود في الغرب، وأطراف «بايقال» والقطاع الأوسط لـ «يني ساي» في الشمال، ووصلت حتى سور الصين في الجنوب، والأجزاء الشمالية من هندستان في الجنوب الشرقي. صارت سلطنة «الكوكتورك» أقوى من الإمبراطورية الرومانية (البيزنطية) في الشرق والإمبراطورية الساسانية في فارس، اللتين كانتا أقوى دولتين في العالم في ذلك الوقت. وفي هذا الموضوع يقول البروفيسير «بارتولد»: «إن السلطنة التركية التي ظهرت قبل المغول كانت أقوى امبراطورية

تتشكل من قبائل رُحل» ٦٤ «واعتباراً من العام ٥٧٠ الميلادي تمركزت القوات الحربية التركية في المنطقة الممتدة من المحيط الهادي حتى البحر الأسود» ٦٥

وكان عدد جنود الجيش في العهد الذي بلغت فيه السلطنة التركية أوج قوتها لا يقل عن ٤٠٠ ألف جندي. وبلغت هذه السلطنة مكانة غاية في الأهمية في تاريخ العالم. وفي العهد التركي تطورت العلاقات السياسية والاقتصادية والثقافية بين شعوب آسيا وأوروبا إلى حد ما بالنسبة لهذا الزمن الماضي. وفي العهد التركي أيضاً تأثرت الشعوب الغربية والشعوب الشرقية ببعضهما البعض، وبعد ذلك، في «العهد القراخاني» بدأت النهضة في آسيا الوسطى. فالنهضة التي سادت في العهد القراخاني بدأت (في القرن الحادي عشر) أي قبل ٣٠٠ عاماً من النهضة التي بدأت في أوروبا. وكان من رواد حركة النهضة يوسف خاص حاجب ومحمود الكاشغري. فظهور كتب عظيمة وخالدة مثل «قوتادغو بيليك» و«ديوان لغات الترك» وأهميتها للحضارة في عهد سلطنة الأتراك و«أويغور أورخون»، كان نتيجة قبول جوهر الحضارة الأوروبية القديمة (اليونانية أساساً) التي نُقلت إلى آسيا الوسطى عن طريق العالم الإسلامي.

لعب الأويغور دوراً هاماً في تأسيس سلطنة «الكوك تورك» وتطورها، ولعب «أورخون» صاحب الآثار الأدبية والتاريخية المنقوشة على أحجار «منجو» دوراً هاماً في تاريخ الحضارة في العالم.

وثمة آراء مختلفة حول معنى كلمة «تورك»، والرأي الذي اتفق عليه أكثر المؤرخين هو أن معناها صاحب القوة والقدرة. وبالإضافة لذلك فإن كلمة «كوكتورك» تعني «الأتراك الإلهيين»، ذلك لأن الأتراك كانوا يتفقون على أن الإله قد وضع سماءهم في أعلى مكان. ولهذا فإن كلمة «كوك» لاتعني لون بل تعني «الإله».

واسم «الترك» له معنى عرقي من حيث كونه اسماً يُطلق على الأتراك الذين عاشوا في العصور القديمة في منطقة معينة، وفي ظروف

تاريخية معينة. مثلاً هذا الاسم يشير إلى الأتراك الذين عاشوا بجوار نهري «إيديل» و«ياييق» (أورال) قبل ٦٠٠ عام من الميلاد، وأطلق في النهاية على الأتراك الذين يعيشون في الطاي. وكان مؤرخو اليونان وروما قد بدأوا استخدام كلمة «تورك» من قبل في آثارهم التي كتبوها قبل ٥٠٠ عام من الميلاد. وقد بحث المؤرخ اليوناني «هيرودوت» عن الأتراك (قبل خمسة قرون من الميلاد) باسم «توركاي». أما المؤرخان اليونانيان «بلانيوس ساكندوس» (٢٣-٧٩ ميلادي)، و«بومبيني ميلا» فقد كتبا هذه الكلمة في شكل «توركاي». والأتراك الذين تشير إليهم كلمة هذين المؤرخين، هم الأتراك الذين عاشوا في «إيديل» و«أورال». وبدأت كلمة «تورك» تُستخدم في حولية «سلالة جو» - وهي من الحوليات التاريخية العالمية - (في أوائل القرن السابع الميلادي) أي بعد ١١٠٠ عام من «هيرودوت».

كان الأتراك شعباً محارباً وجسوراً يعشق الصيد وركوب الخيل. والمثل القائل: «إن التركي عندما يمتطي جواده لا يعرف جده» ليس مجرد قول بلا معنى. فقد عاش الأتراك حياتهم لاجئين لدى «الهنون» و«الأوار» إلى أن أسسوا سلطنة «الكوك تورك».

فكلمة «تورك»، في العصر الذي تأسست فيه سلطنة الكوك تورك (في القرن السادس)، كانت بالنسبة للآخرين تحمل معنى العرق الذي يضم الأتراك الذين يعيشون في الطاي فقط. لأن كلمة «تورك» في ذلك العصر أصبحت تعنى اسم الملة الوثنية لشعوب «الأويغور» و«الأوغوز» و«القيرغيز» و«القبجاق» و«چيجيل» و«باسميل» و«توركش» و«القيطانيين» الذين تركوا، وشعوب أخرى تتشابه أو قريبة الشبه من بعضها البعض من ناحية العرق والعادات والتقاليد وتحدث اللغة التركية. يعني كلمة «تورك» تحولت إلى اسم يميز الأغلبية القومية السياسية لكل الشعوب التي عاشت داخل حدود السلطنة التركية.

كان أتراك الطاي يجيدون منذ القدم تشكيل معدن الحديد. وكانوا ماهرين جداً في صنع أسلحة الحرب مثل السيف والرمح والدرع والخوذة

والترس والقوس والسهم، كما كانوا ماهرين أيضا في صنع أدوات الزينة والأدوات المنزلية المتنوعة من معدن الذهب مثل (العرش الذهبي والطبق والقدح والكسرولة والخاتم والأبرة وكسوة الرأس والمسلة والسوار والحزام ودبوس الشعر والمشط والحلق والتاج...الخ) وكما عرفنا من قبل، أن الأتراك في العصور التي عاشوا فيها تحت سيطرة الآوار كانوا يصنعون أدوات الزينة والأدوات ذات الاستخدام المتنوع ويقدمونها للأمراء الآواريين، كما كانوا يصنعون الأسلحة الخاصة بالجيش الآواري، حتى أن سلاطين الآوار كانوا يذكرونهم بقولهم «عبيدنا الحدادين».

وهكذا فإن الأتراك الذين صاروا غير قادرين على تحمل المزيد من الخضوع قاموا بالسيطرة على أقاربهم الأويغور الموجودين بالقرب منهم و(السير تاردوشلر) الذين في «الطاي»، وبعد أن زادت قوتهم تخلصوا من ظلم «الآوار»، وسعوا إلى تأسيس سلطنة تركية كبيرة. وصارت السلطنة التركية التي تأسست بشرط قبول حكم الآوار وتحقيق هذا النموذج الكبير، من نصيب «طومان» و«إيستامي خان» أبناء «يابغو طوروم».

في عام ٥٥٠ أرسل «طومان-خان» مبعوثاً إلى «آيناغاي» [أناهوان] سلطان الآوار يخبره برغبته في الزواج من ابنته. وبعد أن استمع «آيناغاي» إلى طلب المبعوث، قال مبدياً احتقاره لطومان - خان: ألا يعرف عبيدنا الحدادين حدودهم حتى يطلبوا طلباً كهذا؟ فغضب «طومان - خان» من هذا الرد الوقح من «آيناغاي»، وقتل مبعوث «الآوار» الذي أبلغه هذه الرسالة. وبعد ذلك أرسل مبعوثاً إلى «وين-تي» حاكم «وي» الغربية ينهى إليه رغبته في الزواج من أميرة. وكان حاكم «وي» الغربية يريد محاربة سلطنة الآوار بالاشتراك مع الأتراك، فقدم إلى «طومان» الأميرة «چانج لو» عروساً له في الشهر السادس من ذلك العام. وضم «طومان خان» إلى صفوف الأويغور(الطوريين) كل شاب يستطيع حمل السلاح، عدا مساعدته في دعم جيش «وي» الغربية، وعقد معاهدة معها. وبعد ذلك قاد جيشه في عام ٥٥٢م وهاجم الآواريين. فجمع «آيناغاي» سلطان الآوار جيشاً كبيراً، وخلال شهرين جاء إلى المكان الذي ستدور

فيه الحرب مع «الكوك تورك». فجاء جيش الكوك تورك بقيادة «طومان - خان» وأخيه «إيستامي - خان» وتمركز خلف سور الصين الذي يقع الآن في شمال منطقة «هو - بي»، وانتهت الحرب الدموية التي اندلعت بين الطرفين بانتصار الأتراك. وانتحر «أيناغاي» الذي مُني بهزيمة ثقيلة للغاية، وبهذا قام الأتراك بتأسيس السلطنة التركية الكبيرة.

وواصل بعض سلاطين الآوار الحرب ضد الأتراك، لكن في عام ٥٥٣م استطاع الأتراك أن يجردوهم تماماً من نفوذهم. وهرب جزء من الآوار تجاه الغرب لدى حكومة «بايان - خان»، وفي عام ٥٥٨م استقروا في الطرف الشمالي من البحر الأسود. وبعد ذلك أسسوا السلطنة الآوارية في أوروبا (٥٦٥م - ٨٢٥م)، واستمر وجودهم ٢٣٠ عاماً.

بعد أن قضى «طومان - خان» على سلطنة الآوار، لقب نفسه بـ «إيل - خان»، وأعلن «أوتوكان» عاصمة له. أما أخوه «إيستامي» فقد تزعم القسم الغربي من السلطنة، ولقب نفسه بلقب «يابغو»، واستقر جيش «إيستامي - خان» بجوار نهر «تكاس».

مات «طومان - خان» في عام ٥٥٣م وترك ثلاثة أبناء أسماؤهم، «قره - خان» و«موكان - خان» و«تاوار - خان». وبعد وفاته اعتلى ابنه الكبير «قره - خان» عرش السلطنة. لكنه توفي بعد أن قضى عاماً في السلطنة، ليعتلى العرش «توكان - خان» الابن الأوسط لـ «طومان - خان».

ومن بين السلاطين الأتراك الذين جاءوا «بعد طومان - خان» نال «موكان - خان» شهرة كبيرة في التاريخ العالمي بعقلانيته ودهائه الدبلوماسي وذكائه الحاد وقدرته الحربية. وفي عهده (٥٥٤ - ٥٧٤ م) بلغت سلطنة «الكوكتورك» أوج قوتها. ويتعين علينا تسميته بـ «أتيلا الأتراك» فهو أشهر قائد ظهر بعد سبعة قرون من «باتور تانريقت»، وخمسة قرون من أتيلا.

في عام ٥٥٤ م شن «موكان - خان» الحروب في الشرق، واستطاع السيطرة الكاملة على أسلاف شعب مانچو والمغول. وتوسعت حدود



السلطنة الشرقية حتى بلغت سواحل المحيط، وأضاف إلى حدوده جزيرة صاهال والجزء الشمالي من كوريا. بعد أن عاد «موكان - خان» من حرب الشرق، وجه جيشه نحو الشمال، وسيطر على الأويغور الشرقيين الذين يعيشون في قبائل على نهر «أورخون» و«طولا» و«سالانجه»، وبقوار بحيرة «بايقال»، والقيرغيز الذين يعيشون في الأقليم الأعلى لـ«يني ساي». وفي تلك الفترة سيطر «إيستامي - خان» على الأويغور الغربيين ومن ضمنهم الأويغور الذين في وادي تاريم. وبعد أن ضم الأتراك الأويغور إليه، شكل جيشاً قوامه حوالي ١٠٠ ألف جندي اعتمداً على القوة العسكرية والمادية لهم، وأشركهم في حركات الفتح التي نظمها تجاه الشرق والغرب.

وبدأ «موكان - خان» الاستعدادات العسكرية الجادة للقضاء على إمبراطورية «آق هون» (الهون البيض) في الغرب. وفي عام ٥٥٤م أرسل مبعوثاً إلى شاهنشاه فارس الساساني «خسرو أنوشروان»، وعقد معه اتفاقاً ضد آق هون. ومن أجل التأكيد على هذا الاتفاق أرسل إيستامي - خان ابنته «أسينا بيكه» عروساً لأنوشروان. وبعد ذلك عقد اتفاق مع إمبراطور «وي» الغربية، ونظم حرباً ضد سلاطين «كوكنور» (تويغون) (٣١٧ - ٦٦٣م) وأدخلهم في طاعته. وفتحت سيطرة الأتراك على سلاطين كوكنور (تويغون)، الطريق أمامهم إلى وسط آسيا وغربها.

أصبح الاتفاق الذي عقده «موكان - خان» في عام ٥٥٤م مع الساسانيين في فارس، بمثابة أمل لإنقاذهم من نير «الآق هون». واستناداً إلى الاتفاق المبرم بين الساسانيين و«الكوكتورك» قام الساسانيون فجأة بقطع الجزية التي كانوا يدفعونها للآق هون، ثم هجموا عليهم واستولوا على أفغانستان. وفي نفس العام وبأمر «موكان - خان»، هجم «إيستامي - خان» على «الآق هون» وأخرجهم من «وادي تاريم».

وكما أوضحنا من قبل، فإن «موكان خان» بعد أن أنهى أعماله بدأ حرباً فعلية ضد «الآق هون» اعتباراً من عام ٥٥٧م، وتقدم الجيش التركي ناحية الغرب عن طريق وادي تكس، ودخل آسيا الوسطى من

أعلى «يدي صو» لكن قسم كبير من الصدمات التي اندلعت بين الطرفين دارت على الأراضي الأفغانية، وفي غضون خمس سنوات قضى «موكان - خان» على إمبراطورية «الاق هون» تماماً، وعاد إلى «أوتوكان» بعد أن أحال إلى «إيستامي يابغو» أمر القضاء على آخر بقايا «الاق هون».

بعد أن كسر «إيستامي - يابغو» شوكة ما تبقى من جيش «الاق هون»، ضم أراضيهم إلى سلطنة الكوك تورك، وبذل محاولات كثيرة من أجل تهدئة التوتر الذي تصاعد بينه وبين فارس (لأن فارس كانت قد سيطرت من قبل على جزء من أراضي «الاق هون»)، وسعى للسيطرة على الشعوب التي تعيش في المنطقة الممتدة حتى ساحل البحر الأسود بادئاً من أطراف بحيرة «آرال» وبحيرة «بالقاش» (وهي أساساً شعوب تركية) ووضع بصمته على أهم الأحداث التاريخية حتى عام ٥٦٥م.

وفي عام ٥٦٢م بعد أن انتهى الأتراك من أمر «الاق هون» ساءت علاقاتهم بفارس، وتحول حلفاء أمس فجأة إلى أعداء. وبينما سيطر «الكوك تورك» على شمال هندستان ووادي تاريم وآسيا الوسطى وهي من ميراث «الاق هون» بقيت خراسان في أيدي الفرس، ولكن الأتراك لم يرضوا عن ذلك. بقي أن فارس لم تكن تنوي الاكتفاء بخراسان فقط، لهذا السبب سعت للسيطرة على بعض المناطق من أراضي الاق هون. ومن ناحية أخرى كان الأتراك يسعون للسيطرة على طريق الحرير الممتد حتى بيزنطة، أما فارس فكانت تريد إعاقة هذه التجارة. وذلك لأن جزءاً من خط سير القافلة يمر من الأراضي الفارسية، وكانت شعوب آسيا الوسطى وما جاورها - قبل سلطنة «الكوكتورك» - تتناحر من أجل تأمين سيطرتها على طريق الحرير الممتد حتى بيزنطة. ولهذا السبب بدأت فارس في خوض صراع مع الأتراك.

وأرسل «إيستامي - خان» إلى الساسانيين وفدا برئاسة «مانيه» بأمل عدم إفساد العلاقات الودية التي تربطه بفارس من قبل. ولكن تم

إحراق عينات الحرير التي أحضرها مبعوث الترك أمام عيون الشعب بناءً على توصية وزراء «خسرو أنوشروان» شاه فارس.

فعاد وفد البعثة التركية الذي أصيب بخيبة الأمل نتيجة المعاملة التي عومل بها في فارس. فقام إيستامي - خان مرة أخرى بإرسال وفداً ثانياً إلى فارس بعد أن أغضبه ما حدث. ويقول «ميناتادروس» مؤرخ الإمبراطورية الرومانية الشرقية، إن وفد البعثة التركية الذي ذهب إلى فارس للمرة الثانية قد أصاب الفارسيين بالضيق الشديد، فقاموا بقتلهم بإضافة السم إلى طعامهم، ولكن تم إنقاذ بعضهم. وقال «خسرو أنوشروان» الذي خشى أن تنكشف سوء نيته «إن الأتراك أناس ولدو وتربوا في مناطق باردة وثلجية، وهم لا يستطيعون العيش بعيداً عن مناطقهم الباردة. وإن أفراد البعثة التركية الذين جاءوا إلى فارس لم يستطعوا تحمل الجو الحار الجاف، فماتوا.»

وبعد مؤامرة قتل بعض أفراد البعثة التركية الثانية، أرسل إيستامي - خان في عام ٥٦٨م وفداً برئاسة «مانيه» إلى القسطنطينية عاصمة الإمبراطور «جوستنيان» إمبرطور روما الشرقية (بيزنطة)، وهي (استانبول الحالية). وخلال حديث المبعوث التركي مع الإمبراطور أوضح له أن مهمته التي جاء من أجلها هي عقد معاهدة من أجل حماية العلاقات التجارية بين بيزنطة والأتراك، وبناءً عليه أرسل «جوستنيان» بعثة برئاسة «زيمار كهوس» إلى إمبراطورية الكوك تورك برفقة البعثة التركية. وأعجب مبعوثوا روما الشرقية الذين جاءوا مع وفد البعثة التركية إلى مقر «إيستامي - يابغو» بجوار نهر «تكاس»، بالعادات والتقاليد التركية وبجيش «إيستامي - خان». استقبل إيستامي - خان مبعوثي بيزنطة بوجه باسم وبود صادق. وقبل إحضار وفد بعثة بيزنطة إلى مقر اليابغو تم تطهيرهم بأن مروا فوق النار. وسلم وفد البعثة على إيستامي - خان وفق التقاليد التركية وقدموا إليه تحيات «جوستنيان» وسلامه، وانبهروا بالأشياء رائعة الجمال التي رأوها في الخيمة. ومن ضمنها أشياء تأخذ العين مثل الأطباق والأواني والأقداح المصنوعة من الفضة والذهب ذات

الأحجام المختلفة، وعرش ذهبي ذو عجلتين يسحبه حصان، وسرير من ذهب. وكانت أرجل العرش الذهبي على شكل طائر الطاووس. وتحدث «إيستامي - خان» مع مبعوثي بيزنطة وهو جالس فوق هذا العرش. وناقش إيستامي - خان ومبعوثي بيزنطة باستفاضة مسألة تجارة الحرير بين الدولتين، ومسألة التحرك المشترك ضد فارس. كما ناقشوا مسألة «الأوار» وتم عقد معاهدة بهذا الشأن، وبعد ذلك بدأت حروب طويلة لاهوادة فيها.

وكما أوضحنا من قبل أنه بعد أن قضى «الكوك تورك» على سلطنة الأوار في عام ٥٥٢م، هرب قسم من الأوار ناحية الغرب. وهؤلاء ظهروا في عام ٥٥٨م في القطاع الشمالي للبحر الأسود، وأسسوا سلطنة أوار في أوروبا عام ٥٦٥م بزعامة «بايان - خان»، وكانوا يشنون هجمات شديدة على الإمبراطورية البيزنطية. وخلال النقاش الذي دار مع «إيستامي - خان» أثار المبعوث البيزنطي مسألة الأوار. فأيده «إيستامي - خان» قائلاً إنه يلزم التحرك معاً ضد الأوار «إذا كان الأوار طائراً فوق السماء، أو سمكة في أعماق البحار فلن يستطيع أن يهرب من سيفي». وعندما ودع إيستامي - خان مبعوثي بيزنطة قدم هدايا قيمة لتوصيلها إلى «جوستنيان الثاني» وأيضاً هدايا قيمة لكل فرد من أفراد الوفد العشرين الذين في معية «زيمار كهوس». كما أهدى «إيستامي يابغو» إلى زيمار كهوس جارية تسمى قيرغيزية. خرج البيزنطيون من هضاب «تَكْس» صوب القسطنطينية على متن أجمل خيول «توران».

وبعد أن عقد الأتراك المعاهدة مع بيزنطة قاموا بالهجوم على فارس. ودخل «إيستامي - خان» خراسان في عام ٥٦٩م وشنت جيوش فارس، واستولى على جميع الأراضي التي سبق أن استولت عليها فارس من «الاق هون». واضطرت فارس إلى طلب الصلح، ووافقت بموجب المعاهدة المبرمة على دفع جزية سنوية مقدارها ٤٠ ألف جنيه ذهبي بيزنطي إلى «الكوكتورك»<sup>٦٦</sup>.

وفي عام ٥٧١م فقد بدأت المعارك من جديد بين بيزنطة وفارس.

وبينما أخذت فارس في الضعف، زادت قوة الأتراك واستمر التعاون الدبلوماسي مع بيزنطة واستمرت زيارات السفراء المتبادلة. وبعد موت «موكان - خان» و«إيستامي - خان» (عام ٥٧٦م)، لانعرف إن كانت قد شنت أية حرب ضد فارس في عهد «تاوار - خان» (٥٧٦ - ٥٨١م) الذي تولى العرش بعدهما، أوفي عهد «ساوارلو» ويُسمى أيضا «باغا إيشبارا - قاغان» (٥٨١ - ٥٨٧م). أما في عهد «چورباغا - قاغان» (قاراچور) (٥٨٧ - ٥٨٨م) فقد وقعت معارك بين الطرفين وانتصر جيش فارس بقيادة «بهرام چوبين» على الجيش التركي بقيادة «چورباغا - سلطان» وقوامه ٣٠٠ ألف جندي في منطقة تقع بين هرات وبلخ. ومات «چورباغا سلطان» أثناء القتال. وهجم «بهرام چوبين» على مدينة «بايكنت» المجاورة لبُخارى وأسر «بارمودا - تكين» ابن «چورباغا - سلطان»، وأرسل إلى شاهنشاه فارس هرمزد (أمه هي ابنة إيستامي - خان) — الثروات القيمة التي في خزينة بايكنت محمولة على ألف ناقه. وفي نفس الوقت انتصرت فارس أيضا على جيوش بيزنطة في الجبهة الغربية في القفقاس، ولكنها لم تنجح في تأمين سيطرتها على طريق التجارة الدولية.

وفي تاريخ السلطنة التركية اتخذت العلاقات بين الأتراك والصين منحى آخر. يعرف المهتمون بالتاريخ الصيني أنه منذ تقويض أسرة خان وحتى تأسيس أسرة «سوي» (أي حتى عام ٥٨٠م) لم تكن هناك دولة قوية طيلة تلك الفترة. ولكن تخللتها عهود مهمة. هي عهد («ويي وشو - خان»، و«وو» بين أعوام ٢٢٠ - ٢٨٠م) وعهد الأسرة الصينية الغربية والشرقية (بين أعوام ٢٦٥ - ٤٢٠م) وعهد الإمارة الـ ١٦ (بين أعوام ٣٠٤ - ٣٣٩م)، وعهد أسرة الجنوب (بين أعوام ٤٢٠ - ٥٨٩م)، وأسرة الشمال (بين أعوام ٣٨٦ - ٥٩١م). طيلة هذه العهود صارت هناك ثلاث وأحيانا عشر دول تعيش في نفس الوقت على أرض الصين الأساسية (هوانج - هو ووادي يانجتسي). هذه الدول تقاتلت فيما بينهما قتالا شديدا، وهذا الوضع أدى إلى تدعيم قوة جيران الصين وخاصة جيرانها الشماليين (كانوا يعيشون في شمال سور الصين)، مما سبب للصين

متاعب وأزمات كثيرة. وفي عهد تأسيس سلطنة «الكوك تورك» كانت هناك عدة دول في الصين: «وي» في الغرب (٥٣٥ - ٥٥٧ م)، و«جي» في الشمال (٥٥٠ - ٥٧٧ م) وجين (٥٥٧ - ٥٨٩ م). وفي عام ٥٥٧ م بعد القضاء على دولة «وي» في الغرب، تم تأسيس دولة «جو» في الشمال (٥٥٧ - ٥٨١ م). هذه الدول (وخاصة «جي» الشمالية و«جو» الشمالية) حاربت بعضها البعض باستمرار. ونجحت سلطنة الكوك تورك في تقدير قيمة هذا التحول الذي حدث في شرق الصين وعملت على دعمه.

لم يعتمد الأتراك على جيشهم فقط عند ضم أراضي الآخرين إلى دولتهم، بل اعتمدوا أيضا على المناورات الدبلوماسية، وعلى مساعدة الدول الأخرى. وأحد أصول الدبلوماسية القديمة لدى الأتراك هو إقامة صلة قرابة عن طريق الزواج. وهذا النوع من القرابة بصفة عامة، كان خطوة دبلوماسية مطروحة. مثلاً في عام ٥٥١ م تزوج «طومان - قاغان» من الأميرة «چانج - لو» من أميرات قصر «وي» الغربية، وفي عام ٥٥٤ م زوج «إيستامي - يابغو» ابنته «أسينا» من خسرو أنو شروان شاهنشاه فارس، وفي عام ٥٥٨ م أرسل «موقان - خان» ابنته الأميرة «أسينا» لتكون زوجة لإمبراطور «جو» الشمالية «مينج - تي»، وفي مقابل هذا أرسلت أسرة «طانغ» وأسرتي «جو» و«سوي» الأميرات إلى سلاطين الأويغور والترك، وبهذه الطريقة استطاعت الدول الوليدة المحافظة على الصداقة والسلام فيما بينهم، فتقف إحداهما بجانب الأخرى ضد الدولة العدو. وعموماً فإن علاقات القرابة التي تأسست بين الحكام كانت مبنية على مصالح دبلوماسية وسياسية، ولكن هذا الوضع لم يحقق الصداقة بين الشعوب، والوقائع والأحداث التاريخية تؤكد صحة رأينا هذا.

ولم يتبع «موقان - خان» نفس السياسة في علاقاته مع دولتي «جو» الشمالية و«جي» الشمالية في وادي «هوانج - هو»، فإذا تقرب إلى «جو» الشمالية اتخذ جبهة ضد «جي» الشمالية، ولهذا قامت «جي» الشمالية التي كات تخشى الأتراك، بجمع مليون وثمانمائة ألف شخص وأرسلتهم لبناء سور الصين العظيم على طول الحدود الشمالية للدولة (بطول ٩٠٠

كم) ٧٧. وعندما سيطر موقان - خان على «طويغون» [طوغون] في عام ٥٥٦م، شعرت «جي» الشمالية بمزيد من القلق، ولهذا أمر الإمبراطور «كاوجي» ببناء سور الصين العظيم، ليبدأ من مكان اسمه «شخي»، ويمتد حتى البحر في الشرق بطول ثلاثة آلاف كيلو متر. وأمر أن يقف الحرس خلف السور. وكلفهم بإقامة نقطة عسكرية كل عشرة كيلو مترات بطول السور، ووضع مفرزتين في النقاط المهمة والمناطق العسكرية<sup>٧٨</sup>. وعندما زوج «موقان - خان» ابنته «أسينا» لحاكم «جو» الشمالية في عام ٥٥٨م، قامت «جي» الشمالية على الفور بتحسين أطراف أراضيها الشمالية، وباشرت إصلاح سور الصين العظيم وتعميره. وقد مات أثناء بناء هذا السور ما يزيد على مائة ألف شخص. وبرغم صعوبة بناء هذا السور وتكلفته المالية العالية، فقد أصرت حكومة «جي» الشمالية على بنائه لدرء خطر الأتراك.

وبينما يدعم «موقان - خان» علاقاته مع «جو» الشمالية التي قامت على أنقاض «وي» الغربية كانت تبدو «جي» الشمالية غير مكترثة كسابق عهدها، إذ لم تؤيد الأتراك في الحرب التي خاضوها ضد «الأوار»، بل قدمت مساعدة عسكرية للأوار ضدهم. والواقع أن «جو» الشمالية و«جي» الشمالية قررا أن تقضي إحداهما على الأخرى من أجل فرض السيطرة على «وادي هوانج»، ولكن تحقيق هذا الهدف كان يستدعي كسب تأييد السلطنة التركية. وجرب «موقان - خان» كل وسيلة ممكنة من أجل إشعال العداوة والتنافس بين هاتين الدولتين، فعندما يتوودد إلى «جو» الشمالية، كان يتحفظ في علاقته مع الأخرى.

وبعد أن قضى «موقان - خان» على إمبراطورية «أق هون» في عام ٥٦٢م، توجه من الغرب إلى الشرق وجاء إلى العاصمة «أوتوكان»، وشن بالاشتراك مع جو الشمالية حربين شديديتين ضد «جي» الشمالية، إحداهما في عام ٥٦٣م والأخرى في عام ٥٦٤م. ولكن لم يحرز الأتراك نجاحاً ولم ينتصرا في أي من الحربين. والأرجح أن الأتراك لم يريدون القضاء تماماً على «جي» الشمالية، ولهذا السبب كانوا يحافظون على

وجود كلتا الدولتين («جو» و«جي»)، مع الحرص على استمرار العداوة بينهما.

ومن الطبيعي أن هذا كان لمصلحة الأتراك. لكن شنهم الحروب فوق أرض «جي» الشمالية أدى إلى بقاء الدولة في وضع صعب، مما أدى إلى إضعافها بشكل كبير. وفي نفس الوقت كان الأتراك يحرصون على وجود دولة «جين» في القسم الجنوبي من الصين، ونجحوا في توحيد جنوب الصين. ولكن العداوة التي بين «جو» و«جي» الشمالية جعلتهما في وضع لايساعدهما على التنسيق فيما بينهما للعمل على إعاقة الأتراك عن دخول الأراضي الصينية. ومن ناحية أخرى فإن زواج حاكم «جو» الشمالية من ابنة موقان - خان «أسينا» في عام ٥٥٨م جعل هذه الدولة تقدم للأتراك كل عام مائة ألف ثوب حرير، وأحكم الأتراك الذين يعيشون في «جانغ - أن» عاصمة «جو» الشمالية سيطرتهم على المدينة، وكان يتم تخصيص عشرة آلاف جنيه ذهبي من أجل ملابسهم وطعامهم. و كانت «جي» الشمالية تقدم الهدايا إلى الأتراك بشكل مستمر في حدود امكانياتها لتجنب هجومهم عليها»<sup>٦٩</sup>.

في عام ٥٧٤م، مات موقان - خان فخلفه شقيقه «طومان» أو «تاوار - خان». وفي عهده كان الأتراك الذين قويت شوكتهم يشعرون بالقلق الشديد من الصين. وعملت «جي» الشمالية و«جو» الشمالية ما في وسعهما لنيل رضا الأتراك حتى يعيشوا في أمان. حتى أن «تاوار - خان» قال ذات مرة للمحيطين به بفرور: «لا أخشى من أي بلاء ولا حتى أعتى الزلازل، فأبني المخلصين في الجنوب»<sup>٧٠</sup>. والدولتان اللتان وصفهما «تاوار - خان» بإبنيه في الجنوب هما دولتي «جو» الشمالية و«جي» الشمالية. فهاتان الدولتان في الواقع كانتا خاضعتين للأتراك، والهدايا المرسلة منهما إلى سلطنة الأتراك كل عام لم تكن سوى جزية.

كانت دولة «جو» الشمالية تهاجم «جي» الشمالية اعتماداً على قوة ودعم «تاوار - خان» ودعمه. في تلك الأثناء أرسلت «جي» الشمالية رسولا إلى مقر «تاوار - خان» ووضحت له حقيقة الوضع، لكن حدث



الكثير بعد ذلك. وعلى أية حال فإنه خلال استعداد جيش الأتراك للحرب، قامت «جو الشمالية» بالقضاء على جارتها «جي الشمالية»، والتجأ الأمير «كاو شاو» إلى تاوار - خان. هذه المرة قام الأتراك في عام ٥٧٩م بتجهيز «كاو شاو» للحرب ضد «جو الشمالية»، وكان تاوار - خان يسعى لإحياء «جي الشمالية» من جديد. فقد كان من مصلحة الأتراك أن تكون هناك دولة أخرى في الصين. وعندما أرسلت «جو الشمالية» الأميرة «جين جينج» عروسا إلى تاوار-قاغان في عام ٥٧٩م، تخلي بسبب هذه الأميرة عن فكرة إحياء «جي الشمالية»، وأرسل «كاو شاو» إلى «جانج - أن» عاصمة «جو الشمالية».

واعتباراً من عام ٥٨٠م بدأت تغيرات مهمة داخل حدود شرق آسيا، ففي عام ٥٨١م ظهرت أسرة «سوي» (٥٨١-٦١٨م) مكان «جو الشمالية». واعتباراً من ذلك التاريخ سوف تحمي امبراطورية «سوي» التي أقامت دولة قوية في الصين وجودها لفترة طويلة. وفي ظرف ٥٠ عاماً (بين أعوام ٥٥٠ - ٦٠٠م) منذ حكم «طومان - قاغان» وحتى «توران - سلطان»، قويت شوكة السلطنة التركية وعلا مقامها. لكن ظهور أسرة «سوي» ودعمها (وهي الأسرة التي قضت على دولة «جن» في عام ٥٨٩م) كانت من العوامل التي بدأت تنبئ بضعف السلطنة التركية وانقسامها.

بعد وفاة «تاوار - خان» في عام ٥٨١م بدأ صراع على السلطة بين أولاد كل من «تاوار - خان» و«موقان - خان». وفي النهاية أصبح «سافارلو» [صاپوليو] ابن «أوار - خان»، السلطان الكبير. أما «أبا - خان» بن «موقان - خان» الذي خسر الصراع على السلطة، فقد أحس بالإحباط. واقتنص الإمبراطور «وين - تي» (يانج جين) الذي كان يخشى الأتراك فرصة الخلافات التي تصاعدت بين الحكام الأتراك، وبدأ فوراً في تحصين سور الصين العظيم وحشد الجيش.

واستفاد الإمبراطور «وين - تي» من النزاع الداخلي بين الأتراك، فانخرط في العمل على زيادة انقسامهم وخلافهم مع بعضهم البعض،

ثم القضاء عليهم جميعاً بعد ذلك. وكان المخطط لهذا الأمر هو القائد الذكي، الفطن «جانج سون - شينغ». يقول «سون - شينغ»: «إن هذه الأيام تفرض علينا أن نصبح أصدقاء للأتراك البعيدين عنا وأن نهجم على هؤلاء القريبين منا. وبهذا نستطيع أن نفتت وحدتهم وقوتهم ونعمل على إضعافهم... وفي غضون عشرة أعوام يصبح الوقت ملائماً للهجوم على الأتراك والقضاء على دولتهم.»<sup>٧١</sup>

وبدأ «وين - تي» في استقبال الوفود المختلفة حسبما يخطط له «جانج سون شينغ» من أجل تقسيم الأتراك وإضعافهم ثم إسقاطهم بعد ذلك. فكان يبدي التقرب من بعض الحكام الأتراك ويقدم لهم المحظيات والهدايا القيمة والأموال والمقتنيات الثمينة، ومن ناحية أخرى ينظم للهجوم عليهم. مثلاً قام [جانقان/جانجار] باستمالة «كي - مين تورا بن ساوارلو - خان» إلى صفه، وحرّضه ضد السلطان الكبير «تونغا توران - خان» (٥٨٨ - ٦٠٠م) وقدم له اثنين من الأميرات ليتزوج بهما، الأولى في عام ٥٩٧م واسمها «آن - آي» والأخرى اسمها «يه - جينج».

ولهذه الأسباب التي ذكرناها وقعت حرب بين الأتراك والصين في عام ٥٨٢م. ففي ذلك العام هجم «ساوارلو - خان» على الصين بجيش قوامه ٤٠٠ ألف جندي. وبقيت أسرة «سوي» في وضع صعب للغاية، واقتربت وحدات الفرسان من «جانج - آن». وفي الوقت نفسه لم يصغ «تاردو - خان» (سلطان القسم الغربي) لأوامر السلطان الكبير، ومنع جيشه من الاشتراك في الحرب.

ومن ناحية أخرى خدع الدبلوماسيون الصينيون «آبا - خان»، ويُسمى أيضاً [آ - پوخان/طوراميان] - الذي شارك في الحرب رغم احباطه، وذهب إلى «جانج - آن» وانضم إلى «يانج جيان». وأرسل «جانج سون - شينغ» مبعوثاً إلى «زام - خان» [زاما - خان] الذي بقي مرتبطاً بـ «ساوارلو» وأخبره أن الطوريين [ونعني بهم الأويغور الشرقيين] ينوون العصيان ضد «ساوارلو - خان». ونشرت أيضاً شائعات كاذبة مثل إنهم يريدون الإغارة على مقر سلطانهم<sup>٧٢</sup>. صدق «ساوارلو - خان» هذه الشائعات الكاذبة التي

وصلت إليه عن طريق «زام - خان»، فجمع جيشه وانسحب. وهكذا تم إنقاذ أسرة «سوي» من خطر كبير. وبعد ذلك اليوم بدأت حرب داخلية داخل السلطنة التركية. وخذل «آيا - خان» [طورامان] «ساوارلو - خان» وهرب إلى جانب «تاردو - خان». وخاض «آيا - خان» عدة محارك ضد «ساوارلو - خان» مدعوماً بالجنود الذين قدمهم له «تاردو - خان».

وبسبب الحروب الداخلية التي وقعت خلال ٢٠ عاماً — بداية من زمن «ساوارلو» (٥٨١ - ٥٨٧ م) و«چورباجا خان» (٥٨٧ - ٥٨٨ م) وحتى «تونغا توران - خان» (٥٨٨ - ٦٠٠ م) — وأيضاً بسبب دسائس أسرة «سوي» انقسمت السلطنة التركية إلى قسمين: السلطنة التركية الشرقية والسلطنة التركية الغربية.

وفي عام ٦٠٠ م أرسل «وين - تي» جيشاً كبيراً دعماً لـ «مين تورا - خان» ضد السلطان الكبير «تونغا توران - خان». وبهذا الدعم الذي قدمته الصين انهزم «توران - خان». في تلك الأثناء أعلن «تاردو - قاغان» نفسه سلطاناً كبيراً واتخذ لنفسه لقب «بيلكا تاردو - خان». وفي عام ٦٠٣ م دعمت أسرة «سوي» «بيلكه تاردو - خان» أمام «كي - مين - خان» لكنه انهزم. وهرب «بيلكه تاردو - خان» إلى «كوكنور» ومات خلال صدام وقع هناك. وفي عام (٦٠٣ م) صار فيه «كي - مين تورا - خان» «السلطان الكبير» للأتراك، فأعلن سلاطين الأتراك الغربيين استقلالهم وعدم اعترافهم به، واعتباراً من هذا التاريخ بدأ أبناء «آيا - خان» يحكمون السلطنة التركية الغربية. ودخلوا وادي إيلي وآسيا الوسطى وغرب آسيا وأفغانستان ضمن حدود السلطنة التركية الغربية. أما السلطنة التركية الشرقية فقد بدأت من منطقة أرض المغول في الغرب المعروفة اليوم بـ «قوبدو» وامتدت حتى المحيط في الشرق. وصارت «أوتوكان» عاصمة الأتراك الشرقيين، أما عاصمة الأتراك الغربيين فكانت «مينبولاق» (التي تقع حالياً داخل حدود قيرغيزستان).

ولم تنجح إمبراطورية «سوي» في القضاء على الأتراك الذين انقسموا فيما بينهم في عام ٦٠٠ م. وفي عام ٦٠٩ م مات «كي - مين تورا

- خان» سلطان الأتراك الشرقيين. وكان لديه ثلاثة أبناء وهم: «سوار» و«چولوق» و«قره - خان»، حكموا السلطنة بعده على التوالي.

وفي عهد سوار - خان (٦٠٩ - ٦١٩) صارت السلطنة التركية الشرقية أقوى دولة في شرق آسيا. وبلغ عدد جيش السلطان حوالي مليون رجل. وفي عام ٦١٥م خرج إمبراطور الصين «يانج - تي» في إحدى رحلاته، وعندما سُرب خبر اقترابه من حدود بلاده الشمالية تم الاستعداد لمهاجمته بجيش فرسان تركي قوامه حوالي مائة ألف جندي بغرض أسره. بيد أن الأميرة الصينية «يي - جينج» زوجة السلطان التركي، أرسلت رجلاً سراً إلى «يانج - تي» لأخباره بالأمر. وعندما سمع «يانج - تي» هذه الأخبار تملكه الخوف وعاد أدراجه إلى مدينة «يان - مين». لم يضع «سوار - خان» أي وقت وذهب في إثره ودخل إلى مدينة «يان - مين». وسيطر الأتراك على ٣٩ محافظة من محافظاتهما الـ ٤٠ في قلب «يان - مين». وكان «يانج - تي» يجهل ما يجري بعد موت أتباعه، ويقضي وقته مضطرباً باكياً ليلاً ونهاراً بصحبة ابنه الصغير «يانج كاو». وأثناء، هذا الوضع الصعب الذي يعيشه الإمبراطور أرسل أحد وزراء الإمبراطور ويدعى «شاويو»، هدايا كثيرة عبارة عن مشغولات فضية وذهبية إلى الأميرة «يي - جينج» وأفهمها أن تستغل هذه الهدايا في اتخاذ التدابير اللازمة لإنقاذ «يانج - تي» من هذا الحصار. وكانت الأميرة «جينج» تتسم بالمكر والذكاء فأرسلت رجلاً إلى «سوار - خان»، تنفيذاً لتعليمات «شاويو» ليخبره قائلاً: «لقد ظهرت توأ مشكلة مهمة خلفنا في الطرف الشمالي». صدق «سوار - خان» كلام الأميرة وانخدع به وظن أن هناك عصياناً تركيا في المنطقة، فرفع الحصار عن «يان - مين» وعاد إلى بلاده. وهكذا تم إنقاذ «يانج - تي» من الوقوع أسيراً في أيدي الأتراك.<sup>٧٣</sup>

وبسبب العصيان الداخلي، تقوضت إمبراطورية «سوي» في عام ٦١٨م، وانطوت صفحاتها وهي تجتر الآلام كطائر في مهب الريح. ورأت إمبراطورية «تانغ» الذي استمر وجودها حوالي ٣٠٠ عام (٦١٨ - ٩٠٧م)

المساعدة والدعم من «سوار - خان» خاصة في مرحلة تأسيسها في عهد إمبراطورها الأول «لي يوان».

وكان الأتراك يقدمون لهم الدعم العسكري من أجل السيطرة على مدينة «جانج - آن». وتصرف مبعوثو الأتراك الشرقيين الذين جاءوا إلى «جانج - آن» بغيرور، وتعاملوا مع دولة «طانغ» وكأنها دولة تابعة لهم. غير أن الإمبراطور «لي يوان» أوضح منذ البداية أنه نفسه مرتبط تماماً بـ سوار - خان.

وعندما مات «سوار - خان» في عام ٦١٩م خلفه «چولوق - خان» الذي سار على نفس تقاليد السلاطين الأتراك، وتزوج هو أيضاً من أميرة صينية. لكن الأميرة «يي - جينج» دست له السم. وبعد السلطان «چولوق - خان» اعتلى العرش «قره - خان» (٦٢١ - ٦٣٠م)، وفي عهده ظلت الصين مجبرة على السير في ركاب الأتراك. ولم تكن سلالة «طانغ» قد أبيدت حتى ذلك الوقت برغم جميع أعدائها في الداخل. أما «قره - خان» فقد استفاد من خلافاتها، وكان دائم التهديد لها. وفي عام ٦٢٢م شن «قره - خان» هجوماً على الصين بجيش قوامه مائة ألف جندي تقريباً. وأرسل «لي - يوان» مبعوثاً إلى السلطان التركي ورجاه أن يعقد معاهدة صلح، فوافق على ذلك. وبموجب للمعاهدة المبرمة أجبرت الصين على دفع الجزية التي كانت قد توقفت عن دفعها منذ زمن طويل، وأجبرت أيضاً على إرسال مقدار كبير من المال كل عام (بالإضافة إلى السلع القيمة مثل الشاي وغيره). ثم انسحب «قره - خان» مرة أخرى إلى حدوده وخشى «طانغ» من تكرار «قره - خان» هجومه على الإمبراطورية، ففكر في نقل العاصمة من «جانج - آن» إلى مكان آخر. وكان المؤيدون لفكرة نقل العاصمة يرون أن إخلاء «جانج - آن» من ثرواتها الهائلة وجعلها مدينة خربة سيجعل الأتراك لا يفكرون في دخولها مرة أخرى. ولهذا السبب كان لابد من نقل العاصمة إلى مكان بعيد عن الأتراك. ورحب الإمبراطور «لي يوان» بهذه الفكرة، لكن ابنه «لي شيه - مين» (٦٢٦ - ٦٢٩م) رفضها، ولذلك تم إرجاء موضوع

## نقل العاصمة.

وفي عام ٦٢٦م قام «قره - خان» بتمزيق المعاهدة المبرمة من قبل، وهجم على الصين واستولى على المناطق التي تبعد عن العاصمة «جانج - آن» بنحو ٤٠ كم. فقام «لي شيه - مين» بمنح قره - خان مقداراً كبيراً من الذهب والفضة والقماش، فأنقذ العاصمة من الوقوع في يد الأتراك ونهبها. وفي نفس العام حاسب «لي شيه - مين» أعداءه في الداخل، ونجح في المحافظة على وحدة الصين. وعمل على صرف «قره - خان» عن تحقيق مطامعه، وفي ذات الوقت بدأ في التجهيز الجاد لمواجهة الأتراك.

واعتباراً من عام ٦٢٧م ظهرت في السلطنة التركية الشرقية مشاكل كثيرة وصعبة. فقد قضت الكوارث الطبيعية على جزء كبير من رعايا السلطنة، وأضرت ثروتها الحيوانية ضرراً كبيراً. وبدأ الناس يعانون من المجاعة بعد نفاذ آخر ما يملكون من طعام. وفضلاً عن هذا ظهرت الاضطرابات الداخلية. وكان أبرزها أعمال التمرد الشديدة التي قام بها الأويغوري الشرقيون. وكان الأويغور الشرقيون آنذاك يتكونون من ١٥ قبيلة: الأويغور و«سورتاردوش» [سيرتاردوش]، و«چيبين» و«طوبا» و«قوريقان» و«تالانغوت» و«بوكو» و«بايرقو» و«طونغرا» و«هون» و«إيزجيل» و«فوغورسو» و«قوموق» و«أديز» و«بولساري» (بايساري). وهذه القبائل جميعها أصلاً من شعوب السلطنة التركية الشرقية، وكانت تستقر آنذاك في منغوليا وأطراف بايقال.

وبدءاً من عام ٦٠٠م أخذ الأويغور في تقوية أنفسهم. وقبل «تكين أركن (?) - ٦٠٥م) و«پوسا» (?) - (?) وهم الأمراء الياغلق أحد عشائر الأويغور الشرقيين، قبلوا سيادة الأتراك الشرقيين.

وعندما أعلن الأويغور عصيانهم في عام ٦٢٨م، أرسل «قره - خان» ابنه «يوقوق - شادي» مع «تورا بن سوار - خان»، على رأس جيش قوامه ١٠٠ ألف جندي للقضاء على العصاة. لكن الجيش التركي انهزم على يد الأمير الأويغوري «پوسا» وألقى «قره - خان» بمسئولية الهزيمة

على عاتق «تورا - خان» وقام بسجنه لفترة. وعندما سمع «لي شيه - مين» بهذا أعلن تأييده لـ «تورا - خان» ودعمه لمواجهة «قره - خان». وفي نفس العام (أي في عام ٦٢٨م) الذي انتصر فيه الأويغور على الأتراك الشرقيين، أسسوا سلطنة «سيانتو» بالاتحاد مع «السيرتاردوشلر (السيناتوريين من قبائل تلا). واستقبلت إمبراطورية «طانغ» خبر تأسيس هذه السلطنة (٦٢٨-٦٤٨م) بالفرحة واعترفت بها رسمياً، وأرسلت هدايا كثيرة مع سفيرها إلى «إينان» الموجود على رأس السلطنة. وعندما صار الأتراك الشرقيون في هذا الوضع الصعب بسبب التمرد والنزاعات الداخلية، قام «لي شيه - مين» بحملة عسكرية ضدهم. سار «الجنرال لي جينج» على رأس جيش صيني كبير قوامه أكثر من مائة ألف جندي ضد الأتراك الذين كانوا عبارة عن ٢٠ كتيبة فقط واستولى على أراضيهم. وفي عام ٦٢٩م انتهت الحرب التي اندلعت عند جبال «جوغاي» بهزيمة الأتراك، وهرب «قره - خان» إلى الغرب صوب «نينغ - شيا».

وفي عام ٦٣٠م قبض أمير خائن يُسمى أسينا [آچينا] سونيش على «قره - خان» وسلمه إلى «لي جينج» قائد الجيش الصيني. كما أسر الجيش الصيني في تلك الأثناء المئات من الأتراك نساء ورجالا. وتم ترحيل هؤلاء الأسرى إلى داخل نطاق سور الصين. أما المجموعة التي على رأسها «قرا - خان» وتضم أميراً قريباً لـ «أسينا» [آچينا] فقد تم ترحيلهم إلى «جانج - آن». وأثناء الحرب هرب قسم من الأتراك الذين نجوا من الوقوع في الأسر إلى آسيا الوسطى، وقسم آخر انضم إلى الأويغور. وفي عام ٦٣٤م مات «قرا - خان» في «جانج - آن».

وفي عام ٦٣٦م قام «لي شيه - مين» بتنصيب أحد الأشخاص ويدعى «أسينا سيربا» - الذي صار اسمه «لي سسي - ما» وفقاً للمصادر الصينية - سلطاناً على الأتراك الشرقيين الذين سقطوا في الأسر. لكن الأتراك الذين يحرصون على حرياتهم لم يتقبلوا أن يصبح «أسينا سيربا» سلطاناً عليهم، لأنهم كانوا يعتبرونه العوبة في يد الصين. وأسس هؤلاء

الأتراك فيما بينهم سلطنة تركية مستقلة، وبدأت حركة استهدفت إنقاذ الأتراك من نير الصين. وكان على رأس هذه الحركة «كورشاد بن سيوار - خان» الصغير. وأسس «كورشاد» تنظيماً مختاراً بعناية يضم أربعين شخصاً من الأتراك المحتجزين في «جانج - آن»، وفي الاجتماع السري للتنظيم تقرر اختيار «كورشاد» سلطاناً في حال بلوغ الهدف، وإقامة السلطنة التركية، ولكنه لم يوافق على هذا، ورشح أحد أبناء أخيه ليتولى هذا المنصب ولقي ترشيحه قبولاً من الجميع.

وتقرر أن تبدأ حركة إنقاذ الأتراك الشرقيين في شهر إبريل عام ٦٣٩م. في تلك الأثناء كان «لي شيه - مين» على رأس أسرة «طانغ». وكما أوضحنا من قبل إنه كان مايزيد عن مائة ألف تركي كان قد تم أسرهم في عام ٦٣٠م محتجزين في أحد المناطق المعروفة في شمال الصين.

وبعد الكثير من المناقشات الجادة، نظم هؤلاء الذين انضموا إلى حركة التمرد بزعامة «كورشاد» خطة تحرك من مرحلتين. وتستهدف هذه الخطة في المرحلة الأولى الوصول إلى مقر الأتراك الذين أسرههم الإمبراطور «لي شيه - مين» من قبل، وضمن تحرير الأتراك المحتجزين في عاصمة إمبراطورية «طانغ»، أما في المرحلة الثانية فيتم توحيد الأتراك وإحياء السلطنة التركية الشرقية المستقلة من جديد. وكان «كورشاد» يعلم أن «لي شيه - مين» اعتاد التنكر والإنخراط بين أفراد شعبه في شوارع «جانج - آن» للاستماع إلى مشاكلهم، فقرر أن يستغل هذه الفرصة ويقوم بخطفه. لكن هبت عاصفة غير متوقعة في ليلة تنفيذ الخطة فلم يخرج الإمبراطور من قصره.

وانتابت «كورشاد» الوسواس والقلق من أن تكون الخطة قد إنكشف أمرها، وفكر أن يذهب إلى القصر مباشرة ويقوم باختطاف الإمبراطور.

وفي نفس المساء حزم «كورشاد» أمره ومعه ٤٠ شخصاً ممن يتصفون بالشجاعة والقوة وهجم على القصر، وبدأ صدام دام. ومات حوالي مائة من رجال الحرس من جراء ضربات المتمردين، ولكن



عندما وصل «كورشاد» إلى المكان المتوقع أن يكون قليل الحرس،  
وجدتهم أكثر مما يتوقع فأمر رفاقه بالانسحاب بعدما أيقن أنه لن  
يستطيع خطف «لي شيه - مين». وبعد انسحاب كورشاد ومن معه  
من الطرف الخلفي للقصر، اتجهوا مباشرة نحو نهر «ويي - هو»، وامتطوا  
جيادهم الموجودة هناك. وخلال المعارك التي تعرضوا لها طوال الطريق  
لقي هؤلاء المتمردون جميعاً حتفهم.

وظلت جثث «كورشاد» ورجاله ملقاة في منحدرات نهر «ويي - هو»  
الصفراء. وهذا ما ذكرته المصادر التاريخية الصينية عن كورشاد.<sup>٧٤</sup>  
وبالرغم من فشل التمرد الذي قاده البطل القومي التركي «كورشاد»،  
لم تخمد نار الحرية والاستقلال في صدر الأتراك الشرقيين. وصار اسم  
«كورشاد» رمزاً للحرية والاستقلال، وبقي هو في قلب كل من يتوق إلى  
الحرية.

## الفصل الرابع: تأسيس سلطنة أورخون الأيغورية

### «توميد أولغ إلتبر»

لما فشل العصيان التي قاده «كورشاد» عام ٦٣٩م، بدأت أسرة «طانغ» الحاكمة في تغيير سياستها تجاه مملكة «صور طاردوش» التي كانت بمثابة العمود الفقري للأويغور الشرقيين، والتي سبق لها وأن دعمتهم ضد «قرا خان»، واتبعت تجاههم سياسة تتسم بالعداء. ولهذا نقلت مائة ألف أسير تركي وقعوا في الأسر إلى خارج سور الصين في عام ٦٢٩م. وكما أوضحنا من قبل فإن أسرة «طانغ» عينت «أسينا سيرباي» سلطانا علي هؤلاء الترك وحرصته ليكون جبهة ضد أسرة «صور طاردوش» وقد توالى عليها اعتبارا من هذا التاريخ عدد من السلاطين.

وكما دفعت أسرة «طانغ» بسلاطين الترك الموالين لها للقضاء على مملكة «صور طاردوش» سعت أيضا للاستفادة من الأويغور الشرقيين.

وفي تلك الأثناء حاول أجداد الكوريين الحاليين أن يستميلوا الأويغور الشرقيين إلى صفهم بهدف التصدي لسيطرة أسرة «طانغ».

وفي عام ٦٤٣م حاول حاكم كوريا (ين - كو صو - وينج) أن يحقق تعاوناً مع أسرة «صور طاردوش» ويضم إليه السلطان «بوركلي» للتصدي للصينيين .

وعندما علم (لي شيه من) بهذا قرر أن يقضي على أسرة «صور طاردوش». وفي عام ٦٤٦م تمكن «لي شيه من» بالتعاون مع سلطان الأويغور (توميد أولغ إلتبر) من القضاء على مملكة (صور طاردوش).

وأعقب هذا سلسلة من الفعاليات لإخضاع الأويغور الشرقيين لطاعته. لكن «أولغ التبر» أعلن نفسه سلطانا على الأويغور في عام ٦٤٦م، وهي السلطنة التي استمر وجودها ٢٠٠ عام، و دخلت التاريخ بوصفها سلطنة أورخون الأويغورية.

ورغم أن «لي شيه مين» اضطر للاعتراف رسميا بقيام هذه الدولة الفتية، فقد أضمر في نفسه قتل سلطان الأويغور. فسدس جواسيسه ونجح في الاتصال بابن أخي «توميد إلتبر» ويدعى «سيد أويغور». وحرّضه على قتل السلطان «توميد» مع الوعد بأنه سيضمن له أن يكون سلطانا على كل الأويغور.

في مساء اليوم الذي قُتل فيها السلطان «توميد» وصل «السيد أويغور» إلى «يانغ لي جي» وهو أحد رجال «لي شيه مين» الموثوق فيهم، وأبلغه البشري. اغتال (يانغ لي جي) «السيد أويغور» وتخلص منه ليخفي عن الناس السبب الحقيقي لوفاة السلطان. لكن الناس عرفوا الحقيقة، ورفعوا «بايان» ابن السلطان «توميد» إلى العرش، وسرعان ما سيطر السلطان الجديد على الوضع.

### سلطنة الأويغور والأتراك

مع تأسيس سلطنة أورخون الأويغورية في عام ٦٤٦م، على أراضي سلطنة الترك الشرقية، تم أيضا تأسيس سلطنة تركية عند الحدود الجنوبية التي كانت بمثابة صحن العسل لأسرة «طانغ».

وكما أوضحنا سابقا، فإن الأتراك لم يعترفوا بهذه الدولة الدمية، وكانوا يعملون في الخفاء للقضاء عليها. ولهذا السبب ثار الأتراك في عام ٦٧٩م لكي يعيدوا تأسيس سلطنة الترك الشرقية ورفعوا الأمير «أسينا نيزاق» على العرش، وفي القتال الذي دار عام ٦٨٠م انهزم جيش الأمير «أسينا نيزاق» أمام جيوش أسرة «طانغ»، وقُتل مع رجاله. وفي هذه المرة أعلن الأتراك «أسينا إينان» سلطانا مكانه. ولكنه قُتل

بدوره سنة ٦٨١م في مؤامرة دبرها جواسيس أسرة «طانغ». وبناء على موت هذين السلطانين نجح أمير تركي يدعى «أسينا قُتلُق» في إعادة تأسيس سلطنة الترك الشرقية من جديد في عام ٦٨٢م. ورجعت كل الجيوش التي أرسلها ضد أسرة «طانغ»، بل انه خرج منتصرا من عدة حروب ولقبه الاتراك بلقب «أل تريش قُتلُق» (بمعنى السلطان القوى الذي استعاد الشعب والأرض). وفي سنة ٦٨٢م انتصر «إلتريش قُتلُق» علي الأويغور بالقرب من بحيرة «انكيلير». واستولى علي «أتوكن».

في عهد «قُتلُق إلتيرش» (٦٨٢ - ٦٩٢م) والسلطان «قباغان» (٦٩٢ - ٧١٦م) والسلطان «بيلكه» (٧١٦ - ٧٣٤م)، قويت شوكة سلطنة الترك الشرقية، وظهرت في تلك الأثناء ثلاث دول قوية في الجزء الشرقي لآسيا هي: «سلطنة الترك الشرقية» (٦٨٢ - ٧٤٤م) و«امبراطورية طانغ» (٦١٨ - ٩٠٧م) و«الخلافة العربية».

وإذا كانت سلطنة الترك الشرقية تأسست متأخرة نسبيا، وسيطرت فعليا علي دولة أورخون الأويغورية اعتباراً من عام ٦٨٢م، فقد نجح الأويغور في المحافظة علي استقلالهم.

وقد ساق الأتراك الشرقيون الجيوش إلى وسط آسيا لطرد العرب مرة في عام ٧٠٩م ومرة أخرى في ٧١١م. وكان «كول تكين» الإبن الأصغر لألتيرش قُتلُق قائداً لهذه الحملات العسكرية. اشتبك «كول تكين» مع القائد العربي قتيبة بن مسلم في المعارك التي وقعت بجوار بخارى، لكنه ولأسباب مختلفة لم ينجح الاتراك الشرقيون في إخراج العرب من آسيا الوسطى.

وكان أويغور الشرق يدفعون الضريبة لأتراك الشرق منذ عام ٦٨٢م، ولكنهم لم يتخلوا قط عن الكفاح للخروج من تحت هيمنتهم، وكسب استقلالهم مرة أخرى. وفي عام ٧١٥م تدهورت العلاقات بين الطرفين تماماً، وبعد عام واحد وقع (قباغان خان) سلطان أترك الشرق في كمين في إحدى الغابات نصبه له مقاتلون ينتمون الي قبيلة «بايرقُقر»

الأويغورية، وقُتل بالقرب من نهر (كرولن kerulen).

وبعد «قباغان» خان اعتلى عرش خانية أترك الشرق «بيلكه سلطان» وأعقبه «أسينا بيلكه» على التوالي، وفي زمن هذين الخانين استطاعت خانية أترك الشرق تحافظ بصعوبة كبيرة على مكانتها كأكبر دول آسيا. وفي هذه الفترة كان لخانية الأترك الشرقيين جيش مكون من مائتين وعشرين ألف مقاتل. وفي عام ٧٣٥م حشد امبراطور «طانغ» أكثر من أربعمئة ألف جندي على الحدود الشمالية تحسباً للتهديدات المستمرة من قبل جيرانه الشماليين<sup>٧٥</sup>.

في عام ٧٤٥م خرجت السيطرة على السهوب من يد سلطنة الترك الشرقية وانتقلت فعلياً إلى دولة أورخون الأويغورية.

كنا قد وضعنا سابقاً العلاقات التي بين سلطنة الترك الشرقية والأويغور في الفترة التي انقسمت فيها إمبراطورية «الكوك ترك» عام ٦٠٠م إلى قسمين هما سلطنة الترك الشرقية والغربية. أما الآن فلنتطرق بالحديث بشكل مختصر عن العلاقات بين الأويغور (سلطنة أورخون الأيغورية في الاصل) وسلطنة الترك الغربية.

وبعد وفاة السلطان (استمي) الذي حكم المناطق الغربية بصفته (يابغو<sup>٧٦</sup>) ونائباً للقائد الأعلى لمملكة الترك، تولى السلطان «بيلكه تاردو» هذه المهمة وتحملها من عام ٥٧٦م إلى عام ٦٠٠م. وحكم مملكة الترك معه (أبا ابن السلطان موقان) لمدة ١٧ عاماً. وبعد السلطان (أبا) حكم السلطان (إينال) السلطنة الغربية بالتعاون مع (بيلكه تاردو - خان) لمدة سبع سنوات من عام (٥٩٣ - ٦٠٠م). ولكن بعد وفاته عام ٦٠٠م انقسمت السلطنة إلى قسمين شرقي وغربي، وظهر من جديد أبناء السلطان (أبا) على رأس سلطنة الترك الغربية.

وأول من تولى عرش مملكة الترك الغربية بعد السلطان (أبا) وابنه السلطان إينال هو السلطان «جولو» حفيد السلطان «إينال خان» وذلك من عام (٦٠٠ - ٦١١م). وفي هذه الفترة كانت تقع من حين لآخر

معارك بين سلطنتي الترك الشرقية والغربية، وفي إحدى هذه المعارك قُتل السلطان «تشلو» سلطان الترك الغربيين على يد سلطان الترك الشرقيين السلطان «سيوار» أو «سبر».

وهكذا أصبحت مملكة الترك الغربية في عهد السلطان «تشلو» والسلطان «شاه» (٦١١-٦١٨م) وابنه السلطان «طنغ يابغو» (٦١٨-٦٣٠م) واحدة من أقوى دول آسيا، يحدها من الشمال الشرقي «سلسلة جبال ألطاي»، ومن الجنوب نهر «جیحون» أو «آمو داريا» وفارس، وتمتد من «باركول» شرقا حتى بحر الخزر غربا.

وفي عهد (السلطان شاهو) سلطان أترك الغرب، كانت تقع بين الفرس والأترك معارك أحيانا، وفي أحيان أخرى تقوم بينهما علاقات صداقة. في السنوات العشر بين عامي ٦٠٩ - ٦١٩م استطاع القائد الساساني «خسرو برويز» بفضل الصداقة التي أقامها مع الأترك أن ينتزع من أيدي البيزنطيين بلاد كثيرة مثل مصر واليمن وفلسطين وروُدس وآسيا الصغرى ويضمها إليه، أما الأمبراطور البيزنطي «هيراكليس» فقد نجح في إقامة علاقات صداقة نسبية مع الأترك وذلك بعد ما فرط في أراض كثيرة لفارس. ولكن هذه العلاقات تفسد مع تولى «بيلكه تاردو» عرش سلطنة الترك الغربية سنة (٥٧٦م)، وتقع بين الدولتين بعض المناوشات المحدودة.

يحتل السلطان «طنغ يابغو» مكانة مهمة في تاريخ الأترك ولا تقل أهميته أبدا عن السلطان «مقان» من حيث بالشجاعة، والفتوة، والوفاء، والاستراتيجية والتكتيك الحربى، فبعد أن أقام علاقات ودية مع الامبراطورية البيزنطية، نقل عاصمة سلطنة الترك الغربية من «يلدز» إلى «مين - بولاق» الواقعة على وادي «طالاس». وهاجم فارس من ناحية الشرق (من ناحية من خراسان) بالاتفاق مع هيرقل الأول إمبراطور بيزنطة. وبعد أن أعمل السيف فى الجيش الفارسي فى خراسان، استولى على طهران واصفهان ثم واصل تقدمه واتجه الى عاصمة البلاد «كتسيفون» الري حاليا. وفي نفس الوقت هاجم الإمبراطور البيزنطي

هيرقل الأول فارس من الغرب (من ناحية سوريا). وبشكل متزامن هاجم جيش سلطنة «الخزر» (٤٨٦ - ٩٦٠م) التابع لمملكة الترك الغربية، فارس من ناحية أذربيجان بجيش مكون من أربعين ألف شخص تحت قيادة (السلطان أوباچ). واستولى الترك وجيش الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) معا على مدينة (كتسيفون). وأجلسوا «كيقباد الثاني» على العرش بدلا من «خسرو الثاني»؛ بهدف المحافظة على الأسرة الساسانية الفارسية التي انتهت بالفعل. وكان السلطان «تونغ - يابغو» الذي استولى على جزء من أراضي فارس وخاصة خراسان قد ولى عليها «إلتبر» و«تودون». واسترد «هيرقل» الأراضي التي انتزعتها فارس من بيزنطة في وقت ما وأسس من جديد الإمبراطورية الرومانية الشرقية قوية كسابق عهدها. وضعفت فارس التي تلقت ضربات ثقيلة وفقدت الكثير من أراضيها، مما سيجعل فتحها على يد العرب أمرا سهلا.

وبعد أن أتم السلطان «تونغ يابغو» حملته على فارس بنجاح في عام ٦٢٤م (في مصادر أخرى في عام ٦٢٨م)، ذاع صيته وعاد مرة أخرى الي «مين - بولاق». ولكنه قتل بعد فترة قصيرة، تحديداً في عام ٦٣٠م على يد ابنه الاصغر «السلطان بيلكه تاردو» المعروف باسم السلطان «باغاتور». ومهد هذا الحادث السبيل أمام أبناء «السلطان إستمي» لمحاولة انتزاع الحكم من أبناء السلطان «طومان». ولكن «صيابغو» ابن السلطان «طنغ يابغو» أنزل ضربة عسكرية ثقيلة بالسلطان «باغاتور» وأصبح القائد الأعلى لأتراك الغرب. وبهذا ارتفع لهيب الحروب الداخلية بين أتراك الغرب بعد وفاة السلطان الكبير «تونغ يابغو». وخسر السلطان «يابغو» الحرب التي خاضها مع السلطان «باغشاد طولو» حفيد (أبا - خان) عام ٦٣٣م وفر إلي (قانغلي). وبعد فترة قصيرة، قسّم «باغ شاد طولو» (٦٣٤ - ٦٣٩م) الكتلة الأساسية للقبائل التركية إلي فرعين كبيرين وذلك في سنة ٦٣٤م. كل فرع يضم خمس قبائل، وسُمي أحد هذين الفرعين باسم «نوشيبى». وهم يعيشون اليوم في الأراضي التي تقع فيما بين نهري «جو» و«إيلي» بدولة قيرغيزستان الحالية.

وقام السلطان «إشبارا تَريش طُنغا» بتعيين سلطان علي رأس كل قبيلة من القبائل الخمس تلك وأعطى هؤلاء الامراء لقب «ألغ اركين». أما الفرع الآخر والذي ينقسم بدوره الي خمس قبائل فسمي بـ«توليس - طلو»، واستقر هؤلاء أيضاً بين نهري «جو» و«إيلي»، وكان آل (تور كيش) ضمن مجموعة (توليس) تلك. وعين على رأس كل قبيلة من القبائل الخمسة هذه خانات، ويلقب الواحد منهم بلقب «ألغ تُشر». ويُمكن أن يُقال أن جماعة «نُشيبى» عاشت في القسم الغربي لبحيرة «إِصِق»، كما عاش «التوليس» في القسم الشرقي من البحيرة نفسها، وأطلق على كلتا المجموعتين اسم «أون أوقلار» [أى السهام العشرة].

بعد أن هزمت الصين سلطنة الترك الشرقية في عام ٦٣٠م كما بينا فيما سبق، صار الأتراك الغربيين فى موقف صعب وأدخل الأويغور فى دوامة استمرت طوال خمسين سنة إلى عام ٦٨٠م حتى تمكن الأتراك الشرقيون أن يعيدوا تأسيس دولتهم، ويحققوا استقلالهم. وبعدها قام «لي شيه مين» فى عام ٦٣٠م بأسر سلطان اترك الشرق «قراخان»، بادر بعدها بعدة تحركات للإستيلاء على أرضى جيرانه من ناحيتى الشرق والغرب. وقال «وي تشينج» كبير مستشارى «لي شيه مين»: «إذا أرادت الصين أن تعيش فى راحة فينبغى ألا يكون هناك اى دولة قوية حولها، وعليها أن تخلق الأسباب لكي تصبح جميع الدول المجاورة تحت حكمها»<sup>٧٧</sup>. الحق أن مقاله «لي شيه مين» ومستشاره العاقل جرى تطبيقه بحذافيره.

كنا قد ذكرنا أن الحرب الداخلية التي نشبت بين اترك الغرب بعد مصرع سلطان «طنغ يابغو» استمرت عدة سنوات. وهكذا لم تفوت الصين هذه الفرصة التى سنحت لها للقضاء على سلطنة الترك الغربية؛ لأنها كانت تخشى فى حالة استعادة سلطنة الترك الغربية قوتها القديمة، سيمكنها عندئذ المطالبة بحقها فى أراضي سلطنة الترك الشرقية، والاتحاد معهم ويُقيموا من جديد سلطنة الترك القوية العزيزة. والحق أن سلاطين الترك الغربيين كان لديهم ذات الفكر.



خططت ادارة «طانغ» للاستيلاء أولا على حوض «تاريم» الواقع في جنوب جبال «طانري» ثم المناطق الشمالية لنفس السلسلة الجبلية، وذلك للقضاء على سلطنة الترك الغربية التي تشكل خطرا كبيرا عليه. ووضعت ادارة «طانغ» لهذا الامر خطة استراتيجية محكمة هي «قمع البربر بالبربر».

وبعد أن خرب (لي شيه مين) سلطنة الترك الشرقية عام ٦٣٠م، أعد جيشا قويا مكونا من ١٠٠ ألف شخص من الأسري؛ وأسند قيادته إلى الأمراء الترك المنحازين إلى أسرة «طانغ» مثل «أسينا طور». كذلك الجيش الأويغوري الذي تم تشكيله بقيادة «جبنى ألب» أمير آل «جبنى» احد قبائل الأويغور التسعة. وقد لعب هذان الجيشان اللذان يقودهما «أسينا طور» و «جبنى ألب» دورا فى غاية الأهمية في حملات آل «طانغ» الغربية.

كان «أسينا طور» الأبن الأوسط لـ «جولو» سلطان الترك الغربية قد صار تحت سيطرة امبراطورية طانغ في عام ٦٣٦م، وخدم السادة الصينيين بإخلاص حتى وفاته عام ٦٥٥م. وعمل قائدا أعلى في الحملة التي نظمت ضد أترك الغرب. أما (جبنى ألب) فقد كان أويغوريا. ودخل في خدمة امبراطور «طانغ» في سنة ٦٣٢م بجيش مكون من عدة آلاف شخص إختارهم من قبيلته، وبذل قصارى جهده لخدمة الامبراطور حتى وفاته سنة ٦٧٦م.

وبعد عام ٦٤٠ بدأ «لي شيه مين» بشن الحملات العسكرية ضد أترك الغرب. وفجأة قام الجيش الصيني بقيادة «هوتشونغ-تشي» (وكان في صفه مقاتلو «أسينا» الترك، ومقاتلو «جبنى ألب» الأويغور) بالهجوم على سلطنة الترك الغربية وانتزعوا منها إمارة طرفان التي استمر وجودها من عام ٦٤٠م حتى ٦٦٠م. وفضل الوالى العام «اليابغو» لـ «إبى طلو طرفان» سلطان الترك الغربية فى «باشباليق» طاعة «هو تشنغ تشي» بدل تقديم العون لإمارة طرفان ضد الصين، واحتل جيش الصين قاراشهر في سنة ٦٤٤م. وعقب هذا في عام ٦٤٨م قام الجيش التركي

المكون من مائة الف شخص بقيادة «أسينا طور» (وكان هذا الجيش يتكون من الترك والأويغور بوصفهما مركز الثقل)، بالاستيلاء علي إمارات (كوجا، وكاشغر وخوتن)، ورغم ما بذله أتراك الغرب من جهد في التضييق علي الجيش الصيني لحماية امارة الأويغور الموجودة في حوض «نهر تاريم» لكن جهدهم ذهب بلا جدوى. وفي عام ٦٥٠م فقد أتراك الغرب حوض نهر تاريم.

وفي عام ٦٤٠م وجه «لي شيه مين» حملة ضد أتراك الغرب الذين في السفوح الجنوبية لجبال «طانري»، كما بدأ إعداد حملة ضد «كوريا» في الشرق، وقد سبق وأن أشرنا الي هذا باختصار.

بعد استيلاء امبراطورية «طانغ» علي حوض «نهر تاريم» من أتراك الغرب في مدة ١٠ سنوات، تحركوا للاستيلاء علي «وادي جونغاريا». وأثناء هذا نجح «أسينا ألب» في توحيد صفوف أتراك الغرب بانتصاره علي (اولوغ اشبارا - خان)؛ وفي عام ٦٥٢م نظم حملة إلي الشرق واستعاد من امبراطور «طانغ» مدينة «بشبالق» التي تعتبر أهم موقع استراتيجي علي طريق القوافل.

انزعج امبراطور «طانغ» من هذا الحادث فاعتمد علي جيش «بايان» ملك أويغور أورخون والمكون من خمسين ألف شخص، فضلا عن اعداده جيشا مكون من عشرين ألف شخص بقيادة «كاو كاي» وأنزل ب «أسينا ألب» ضربة مؤلمة، وعادت مدينة «بش باليق» الي امبراطورية «الطانغ» مرة أخرى. وفي سنة ٦٥٧م جمع «أسينا ألب» جيوشه، واستعد للاستيلاء علي السفوح الشمالية لجبال «طانري». وكان هدفه هو توحيد أتراك الشرق والغرب. وأثناء هذا قام (بايان) خان دولة أويغور أورخون بتوحيد جيشه المكون من خمسين ألف شخص مع جيش مشاة صيني مكون من ٣٠ ألف شخص بقيادة (صو-تنغ-فانغ su - ting - fang)، وخاض حربا ضد جيش «أسينا ألب» المكون من مائة ألف شخص في منطقة تحمل الآن اسم (بوروتولا Borotola). وخسر أسينا ألب معركة (خاليج Hallig)؛ وانسحب ناحية الغرب بمن بقي معه من جنود.

وقام «بايان» و «هسي ياوسيه يا» بملاحقة «أسينا ألب» حتى مدينة «شاش» الواقعة الآن في شمال غرب «تاشكند». إلا أن «اينال طارخان» حاكم مدينة «شاش» غدر به بعد أن تظاهر بالخروج لمقابلته فقبض على «أسينا ألب» - بغتةً - وسلمه لعدوه.

وحققت إمبراطورية طانغ بعض الانتصارات على الأتراك بهدف السيطرة على وسط آسيا مستخدمةً القوة العسكرية للأويغور، وأسست إمارات تحت مسميات مختلفة في المنطقة وعينت عليها خانات من أمراء الترك. ورغم أنها استولت على الحكم في وسط آسيا، إلا إراضي سلطنة الترك الغربية لم تكن تحت سيطرتها بعد. وعندما وقع (أسينا ألب) في الأسر عام ٦٥٧م. نجح سلاطين الترك الغربيين في المحافظة على استقلال مملكتهم، وهم (أسينا ميش (٦٥٧ - ٦٦٢م)، وأسينا بوركين (٦٦٦ - ٦٦٨م) وأسينا طورجي (٦٧١ - ٦٧٩م)، أسينا نيزوق بك (٦٧٩ - ٦٨٠م)، وأسينا بالجين (٦٨٥ - ٦٩٣م)، وأسيناخو جيلو (٦٨٦ - ٦٩٠م)، أسينا أون اوق سلطان (٦٩٤، ؟)، وأسينا هو خوجيلو (في المرة الثانية). إلا أن «أسينا قايدو» و«أسينا شان» (٧٠٤ - ٧١١م) هما من حكام أترك الغرب رضيا بحكم إمبراطورية «الطانغ» لهم. وبعد عام ٧١١م انتقلت السلطة من أسرة «أسينا» من أترك الغرب الي أسرة طوركش. التي استطاعت أن تحكم سلطنة الترك الغربية حتى عام ٧٤٢م فقط، بعدها عاد الحكم الي أسرة «أسينا»... كانت هناك عوامل أخرى حالت دون سيطرة إمبراطورية «طانغ» على وسط آسيا رغم قيامها بتقويض سلطنة الترك الغربية، فدولة (التبت Tibet) (٦٢٩ - ٨٤٨م) - على سبيل المثال - واحدة من القوى التي اعاقت آل «طانغ» من السيطرة على هذه المنطقة بشكل تام. وهناك سبب آخر هو إعادة تأسيس سلطنة الترك الشرقية على يد (قُتلُق التريش)، وكان اجتياح العرب ووصولهم الى وسط آسيا اعتباراً من عام ٦٥١م سبباً ثالثاً حال دون سيطرة أسرة «طانغ» على وسط آسيا. وفي عام ٦٧٠م استولت دولة (التبت) على قاراشهر، وكوچار kuga وكاشغر kasgar وختن Hoten.

ومع ان امبراطورية «طانغ» نجحت في اقتلاع «قاراشهر» و«كوجار» و«كاشغر»، و«ختن» من التبت عام ٦٩٢م، الا أن التبتيون والعرب قاموا بانتزاع حوض «تاريم» منهم قبل ان يمضي وقت طويل علي الاتفاقية التي أبرموها مع ال «طانغ». وفي عام ٧٥١ حدثت حرب دامية بين الصينين والعرب عند سواحل نهر طالاس الواقعة داخل حدود قيرغيزستان للاستيلاء علي وسط آسيا. وانتصر العرب بقيادة زياد بن صالح علي الجيش الصيني بقيادة (كاو-شن - جي)، وهرب (كاو - شن - جي) بثلاث جيشه الذي بقي علي قيد الحياة. وبهذه الحرب انتهى حلم الصين في السيطرة علي وسط آسيا. فبعد معركة «طالاس» وقع حوض «تاريم» في يد دولة أورخون الأويغورية.

ويمكن ان نتناول سلطنة «الكوك تورك» التي تمكنت من المحافظة علي حكمها وسيطرتها طوال ١٣٩ سنة علي ثلاث مراحل رئيسية:

المرحلة الأولى: استمرت ٥٠ عاما من (٥٥٢م حتى عام ٦٠٠م) وهي فترة تأسيس دولة الكوك تورك. وامتدت حدود دولة «الكوك تورك» في هذه الفترة من «ساخالين» في الشرق حتى ساحل البحر الأسود في الغرب. و«بايقال»، «بلخاش»، «آرال» في الشمال، أما في الجنوب فقد امتدت حتى فارس، فكانت دول «افغانستان»، و«كشمير»، و«التبت»، وولاية «قانسو» الموجودة حاليا في الصين ضمن حدودها.

المرحلة الثانية: وهي المرحلة التي انقسمت فيها دولة «الكوك تورك» إلي «سلطنة الترك الشرقية»، و«سلطنة الترك الغربية» وحافظت سلطنة الترك الشرقية علي كيانها طوال ١٤٥ سنة خلال الفترة ما بين اعوام (٦٠٠ - ٧٤٥م) الي أن استحوذ عليها أويغور الشرق. وعاش أتراك الشرق مستقلون طوال خمسين عاما من ١٤٥م أي من الفترة ما بين اعوام (٦٣٠ - ٦٨٠م). وفي عام ٦٨٢م نجح «أسينا قتلُق» من أمراء الأتراك الشرقية في تحقيق استقلال المملكة مرة أخرى.

المرحلة الثالثة: وهي فترة حكم «التريش قتلُق» واحفاده والتي استمرت ٦٣ عاما خلال أعوام (٦٨٢ - ٧٤٥م).

أما مملكة الترك الغربية التي استمر وجودها من عام ٦٠٠م حتى عام ٧٤٢م عندما انهزمت أمام اتحاد جيوش الأويغور وإمبراطورية طانغ. وفقدت جزءاً من أراضيها وانتهى كيانها كدولة مستقلة عام ٧٤٢م.

وهنا يمكن أن يُطرح سؤال على النحو التالي: لماذا انهزم الأتراك في الحروب التي خاضوها مع الصينيين طوال هذه الفترة؟ وإن كان هناك أسباب كثيرة لهذا إلا أنه من الممكن أن نجمعها في عاملين رئيسيين.

السبب الأول: الانقسام بين الأتراك: فإن لم تنقسم مملكة «الكوك تورك» إلى قسمين (مملكة شرقية وأخرى غربية) عام ٦٠٠م، لَمَا تَعَرَّضُوا لتلك الهزائم يقينا. لجأت الصين (سواء في عهد أسرة «صوي» أو أسرة «تانغ») إلى طريقة غير الحل العسكري في مواجهة الأتراك، فَعَمِدَت إلى استخدام كل الوسائل الممكنة للايقاع بينهم ومن ثم إضعافهم. كما أنها حاولت إبادة الأتراك بالأتراك أنفسهم. وخير دليل على هذا ما قاله وزير سلالة صوي «تشانغ صُن شينغ» لـ «سوي وندي» سنة ٥٨٢م.

يقول (بينج وان - لين - ping - wen - lien) عن هزيمة مملكة «الكوك تورك» - لو حافظ الأتراك علي وحدتهم ولم ينقسموا إلي دولتين شرقية وأخرى غربية، لَمَا استطاعت إمبراطورية «تانغ» أن تكسر شوكتهم، وكذلك إذا لم تنقسم مملكة الترك الغربية أيضاً إلي قسمين قسم شرقي وآخر غربي لما استطاعت أيضاً إمبراطورية «تانغ» أن تقضي عليهم. وعندما ظهر اختلاف وجهات النظر بين أتراك الغرب، استغلت إمبراطورية «الطانغ» هذا في تعديل وتقويم مصالحها الخاصة ومنفعتيها الشخصية.

السبب الثاني: استغلال «إمبراطورية طانغ» الانقسامات - التي وقعت بين التُّرك سواءً سلطنة الترك الشرقية أو الغربية - في تقويض هاتين الدولتين، واستفادوا من الأويغور - الخاضعين لسلطنة الترك - بشكل محترف، غير خاف أن الجنس الأويغوري كان الأكثر قوةً وقتالاً وجراءةً بين الشعب التركي آنذاك.

لذلك حشد اعداء الترك كافة امكانياتهم لاستغلا فنجد «بايان» سلطان دولة أورخون الأويغورية، يوحد جيشه مع جيش آل «طانغ» أكثر من مرة بهدف سحق الأتراك. نعم ولكن لماذا فعل هذا؟ ربما كان هناك سبب مهم وراء مساندته للصين، وكان «بايان قاغان» يعزم على ضم أراضي سلطنة الترك الغربية بعد تقويضها وزيادة موارده ومكاسبه، ولكن لم يستفد الحلفاء (الصينيون والأويغور) من انهيار سلطنة الترك الغربية.

نستطيع ان نقول ان الأويغور مثلما كان لهم دور مهم في تأسيس سلطنة «الكوك تورك» والإرتقاء بها، فإنهم ايضاً لعبوا دوراً كبيراً في تقويضها وإنهيارها.

وينبغي كذلك الإشارة الى سمات الحروب بين الاتراك والصينيين. إن الحروب التي كانت بين الدولتين مرت بظروف مختلفة كثيرة، إذ لا يمكن تقييمها من ناحية واحدة وإدخالها في قالب واحد. فتارة يدخل الاتراك الى الاقسام الداخلية للصين متجاوزين سد [سور] الصين. وتارة أخرى يرسل الصينيون جيشهم الى ما وراء السور الكبير ويهاجمون الاتراك.

قد لا يكون هدف الصين هو إنزال ضربة عسكرية بالاتراك فحسب، ولكن كان هدفها هو الاستيلاء على أراضيها متى أتيح ذلك كأهداف مستقبلية. وغير خاف أن الحروب والهجمات التي وقعت بأهداف ومقاصد عدوانية كانت حروباً جائرة.

وانطفأت نيران الحرب بين الطرفين نسبياً ولم يتبادل الطرفان الثقة بالمعنى الحقيقي حتى في الفترة إلي وقعت فيها اتفاقية السلام والصداقة بينهما. وأرسل (قابغان) سلطان الترك الشرقيون عام ٦٩٧م سفيراً إلي قصر (وخوو) إمبراطورة «الطانغ» مطالباً إياها بإعادة الآلاف الأسر التركية، وطلب فضلاً عن ذلك مائة ألف (بود) ضريبة غلات القمح، و٥٠ ألف قطعة قماش قيمة، وكذلك عدد ثلاث الآلاف آلة زراعية و٤٠ ألف «تشنغ» حديد (٢٠ ألف كيلو جرام)، وعلي الرغم من أن

«وخوو» إمبراطورة «طانغ» لبّت مرغمة طلبات الملك «قباغان» إلا أنه لم يكن هناك ود وصداقة بين الطرفين.

ولهذا السبب ارسل «قباغان خان» رسولا لتوصيل رسالة إلى إمبراطورة الصين سنة ٦٩٨م، جاء فيها:

أولاً: إن بذور القمح التي قمت بإرسالها لنا لم تثمر بعد زراعتها؛ وذلك لأنها كانت فاسدة. ثانياً: حاجيات الذهب والفضة اتضح أنها مزيفة. ثالثاً: جميع الآلات الزراعية كانت من النوع رديء الجودة. رابعاً: الأميرة التي تم إرسالها على أنها زوجة (إذ تم إرسال أميرة للقصر لابن «قباغان خان») ليست في مستوانا. ولهذا سأتي عليكم بكل جيشي). وطبقاً لهذه الوثيقة التي نقلناها، لم يكن (وو - هوو) صافي النية. والأميرة المرسلة كعروس لـ «ابن قباغان» لم تكن من عائلة (لي) في إمبراطورية «طانغ»، ومن المحتمل أنها تنسب لعائلة (وو) (أو كانت قريبة «وو»).

## الفصل الخامس : سلطنة أورخون الأويغورية وأسرة « طانغ »

### قوتلق بيلكه قاغان

بلغت سلطنة أورخون الأويغورية أوج قوتها في الفترة بين أعوام (٧٤٢ - ٧٤٧م) أثناء حكم «قُتْلُق بيلكه قاغان». وكما أوضحنا من قبل أن دولة الأويغور كانت تحت زعامة الياغلاقار وهي إحدى قبائل الأويغور الشرقية. ولم تتفق مع سلطان أتراك الشرق بل أصبحت في حالة حرب دائمة معه. وفي عام ٧٤٢م اتحد «قُتْلُق بيلكه سلطان قارلوق» مع «الباصمیل» هاجموا أتراك الشرق.

كانت أسرة «قارلوق» واحدة من الأسر الأكثر عدداً بين قبائل إترك. فضلا عن كونهم من أفضل المجاربيين. ووفقاً لرواية وردت في «أوغوز نامه» أن أوغوز خان هو من أطلق عليهم اسم «قارلوق». وقيل أن «أوغوز خان» أثناء عودته من إحدى غزواته في الغرب هرب حصانه الأشهب إلى داخل الجبل. فخرج أحد أمراء أوغوز خان للبحث عن الحصان ووجده بعد ثلاثة أيام. وأثناء هذا هطلت الأمطار بشدة وغطي الثلج رأس هذا الأمير تماماً. وعندما رأى أوغوز خان هذا لقبه «بقارلوق بك» (الأمير الثلجي karlubelk) وعينه أميراً علي القبائل التي في تلك المنطقة. ومنذ ذلك اليوم أطلق على هذه القبيلة لقب (قارلوق)<sup>٧٨</sup>. وفي القرن الثامن نصادف لقب «قارلوق» بين القبائل التي عاشت بين الأورخون، وانقسمت قبائل «القارلوق» إلى ثلاث مجموعات رئيسة كبيرة هي: بويلا Boyla، صاباص Sabas، وطاشلي (تاشلك) Tasli. في البداية عاش القارلوق في القسم الجنوبي الغربي لجبال «ألطاي» وبعد ذلك توجهوا



إلي جبال «أتوكن» ومن ثمّ اتصلوا عن قرب بأويغور الشرق. وفي عام ٧٤٢ إتحد «قُتلُق بيلكه قاغان» مع «الكارلوق» وأسرة «باصميل» وقضي علي «أوزمش» سلطان أتراك الشرق. ولكن في هذه المرة ثار «الباصميل» للاستيلاء علي عرش المملكة. وصار «أسيناس» امير آل «باصميل» ملكاً. وفي هذه الحالة كان ملوك القارلوق والأويغور مضطرين أن يكونا قائدين لجناحي الميمنة والميسرة، ولكن هذا لم يُرض «قُتلُق بيلكه خان» وقام باتخاذ تدابير للقضاء علي ملك «باصميل».

عاشت أسرة «باصميل» من قبل في منطقة «أتوكن»، علي الساحل الجنوبي لبحيرة «بايقال» وفي جنوب شرق القرغيز. و كان يُقال لهم قديماً (جَدَه اتلر). وأثناء فترة سلطنة «الكوك ترك» كان حاكم الباصميل هو «طودون» الذي عينه سلطان الترك. وبعد ذلك زحف الباصميل ناحية الغرب رويداً رويداً، واستقروا في منطقة «جيميسار» الحالية. وفي عام ٧٤٤م قام «قُتلُق بيلكه» بقتل «بولمش» سلطان الترك الشرقية. ولقب نفسه «بُقُتلُق بيلكه سلطان»، ثم هاجم «أسيناس» سلطان باصميل وقتله ومن ثم أخضع أسرة «باصميل» لسيطرته.

وبعد أن أخضع «قُتلُق بيلكه قاغان» الاتراك الشرقيين سيطرته سنة ٧٤٤م قام بتقسيم قبائل الأويغور الشرقيين التسعة عشر إلى قسمين أحدهما عُرف «بالأويغور العشرة» والآخر «بالأويغور التسعة»...  
قبائل أويغور العشرة: -

ياغلاق

قوتورغور

بوقاسقر

أوجاغ

هازار

خوغورسو

ياغما

آياور

تورلام ويبور

أديز

### قبائل الأويغور التسعة:

أويغور

بايرغو

خون

بوكو

تونغرا

جبنى

إزكيل

قارلوق

باسميل

ويمكن أن نقسم تاريخ سلطنة الأويغور الي ثلاث مراحل :

المرحلة الأولى: وهي مرحلة تكوين الدولة المستقلة: واستمرت هذه المرحلة قرابة قرن من الزمان وهي مرحلة العلاقات المتبادلة التي أشرنا اليها بين الأويغور والترك.

المرحلة الثانية: وهي فترة ظهور امبراطورية «أورخون الأويغورية» الكبرى والقوية في شرق آسيا، وتمتد هذه الفترة ثمانين عاما، وتبدأ ب«قتلوق بيلكه قاغان» (٧٤٤م) حتى تولى ألب بيلكه طانرى» سلطان الأويغور الحكم (٨٢٥ - ٨٣٢م) وفي هذه الفترة ارتفع عدد جند سلطنة أورخون الأويغورية الي ٢٢١ ألفا، وكان عددهم عند بدايتها ٥٠ ألفا. وكان هذا الجيش يتالف من سبع عشرة فرقة خيالة، في كل فرقة ثلاثة عشر

الف مقاتل. وكانت سلطنة أورخون الأويغورية في هذه الفترة يحدها من الشرق السفوح الشرقية لـ «هنغان» ومن الشمال «بايقال»، وأوسط نهر «ينيساي»، ومن الجنوب «سد الصين العظيم» وفي الجنوب الغربي «آلتون داغ» وفي الغرب إلى وادي «فَرغانة» و«يدي سو».

وسيطر الأويغور الشرق على «الكيدانيين» في الشرق و«القرغيز» في الشمال وامارة «تاريم» الأويغورية فضلا عن قبائل الترك التي في «فَرغانة» و«يدي سو»، وقام «قُتْلُق بيلكه قاغان» بالحفاظ على بنية الدولة التي أسسها «توميد سلطان» عام ٦٤٦م واتخذ «قارا بالاساغون» عاصمة البلاد.

المرحلة الثالثة : وهي مرحلة ضعف خاقانية أويغور أورخون لأسباب مختلفة. وفي هذه المرحلة التي استمرت عشر سنوات تحولت عاصمة البلاد من مدينة «اتوكن» الى سفوح جبل «طانري»، وفيما يلي سنتوقف قليلا عند الاحداث التاريخية التي حدثت في خاقانية أويغور أورخون في المرحلتين الثانية والثالثة.

### تَمَرْدُ «اونلق» ( ان لوان )

كانت العلاقات بين «سلطنة أورخون الأويغورية» وأسرة «طانغ» تسير بشكل ودي منذ جلوس «قُتْلُق بيلكه خان» على العرش. والحق أن هذه العلاقات لم تكن جيدة قبل ذلك. وبعد وفاة «قُتْلُق بيلكه خان» سنة ٧٤٧م تولى ابنه «بايان چور» العرش ولقب بـ «تنغيرده بولمش التوتمش بيلكه خان» [الإله الحاكم بيلكه خان] وفي سنة (٧٤٧ - ٧٩٥م) ساعد الأويغور أسرة «طانغ» بقمع عصيان «اونلق» و«صوغوم». وكانت أسرة «طانغ» في زمن «طانغ تسونغ» قد تعرضت لأيام عصيبة سواء داخل البلاد او خارجها وتوترت العلاقات بينها وبين الدول المجاورة وكما أشرنا، اضطر «طانغ - تسونغ» سنة ٧٤٠م لحشد أكثر من أربعمئة ألف جندي في شمال وشرق غرب الصين للتصدي لتهديدات أتراك الشرق والتبت فيما بعد، على أن سد احتياجات جيش جرار مثل هذا في حد

ذاته سبب مشكلة كبيرة لأسرة «الطانغ».

وكانت التبت تدعي بحقها في ولاية «قانسو» الصينية وبناء عليه كانت خلال الفترة (٦٧٠ - ٧٢٠م) تقوم باستمرار بحشد جيوشها لمواجهة الصين والاستيلاء على «قانسو»، ولم يقتصر الأمر على ذلك فقد انهزمت أسرة «الطانغ» أمام العرب في معركة «طالاس» (في قيرغيزستان حالياً)، واستطاع جنرال الصين ومعه عدد من الجنود النجاة بصعوبة وتركوا آسيا الوسطى.

بعد هزيمة «طالاس» لم تتمكن الصين طوال ألف سنة من السيطرة على زمام الامور في آسيا الوسطى وخاصة في حوض نهر «تاريم».

وتعرضت الصين لمشكلات وأهوال عسيبة أدت إلى ضعفها وضياع هيبتها، كما أن امبراطور الصين «طانغ تسونغ» انصرف عن شؤون البلاد، أمضى أوقاته في اللهو والشرب وترك مهام البلاد لمستشاره الرئيس «يانغ تشي وان»، واكتفى هو بمداعبة «يانغ كوي في» أخت المستشار. في تلك الأثناء فإن «أونلق» أو «آن لو شان» وهو تركي الأصل وكان متواجداً في ولايتي «خوبي» و«شان سي» على الحدود الشمالية للدولة ضمن قوات حرس الحدود - فقد قدر الموقف العام وخطط للإستيلاء على الحكم بتوجيه ضربة إلى القصر. وكان «أونلق» يبدو في الظاهر متواضعا ومخلصا، لكنه كان في الاساس قائدا ماهرا وحاذقا، واستطاع أن يستميل «يانغ كوي في» وأن يحظى بثقة «طانغ تسونغ»، وكان الجيش الذي يتزعمه «أونلق» يضم عناصر أخرى غير الصينيين مثل «الترك» و«القالموق» و«القطانيين» و«الشيبين». وبرر «أونلق» للملك «تشنغ» سبب وجود تلك العناصر غير الصينية في صفوف الجيش بأنهم مقاتلون بارعون وأولى بأس في معاركهم.

وبدأ «أونلق» التمرد والعصيان سنة ٧٥٥م، بعد أن سلح جنده تسليحا كاملا، وانضم له القائد «صوي غوم» أو «شيه سيه مينغ» وهو أيضاً تركي الأصل، ومن قواد أسرة «الطانغ» واتجه «أونلق» ومعه جيش مكون من مائة وخمسين ألف مقاتل نحو شرق ولاية «خوبي»، واستطاع أن يهزم

جيوش «الطانغ» التي ارسلت إليه بهدف الحيلولة دون تقدمه بالقرب من «لو يانغ» ثم استولى عليها واثناء ذلك انسحب صويغوم للدفاع عن «خوبى». وبعد أن سيطر أونلق على «لويانغ» أعلن نفسه الإمبراطور الأعظم.

وبعد انسحاب جيش طانغ من «لويانغ» اتخذ موضعاً عند «طون هوانغ» في غرب «جانغ آن» وتم قتل اثنين من خير قادة هذا الجيش بأمر من الإمبراطور «خوسوان توسونغ» فقد عاقب «يونغ تشانغ تشنغ» بتهمة أنه بالغ في تقدير قوة جيش العدو وحط من الروح المعنوية لجيشه، كما اتهم «كاوسيان تش» بالتفريط في الأراضي الواسعة في «شين سي»، وتخفيض رواتب الجند ليثري هو». وتولى قوشو خان (وهو من القارلوق) قيادة الجيش الذى فى «طون هوانغ» وبعد أن قمع «أونلوق» الفوضى التي ظهرت بين جيوشه، تحرك لمهاجمة جيش «الطانغ» المتواجدة في «طون هوانغ» بقيادة «قشغو خان»، وهزمهم بسهولة، ووقع «قشغو خان» فى أسر أحد الضباط الذى حمله إلى «أونلوق». وبعد أن خسر الإمبراطور خوسوان طسونغ الحرب فى طون هوانغ ترك العاصمة «جانغ آن» ولاذ بالفرار الى مدينة «تشنغ تو» بولاية «سيه تشوان».

بعد أن استولى «أونلق» على «جانغ آن» ازدادت قوته ونفوذه بشكل كبير، وأمر «طانغ تسونغ» بقتل «يانغ كو تشونغ» مستشاره الرئيس الذى انشق عنه وذلك بعد أن جاء الى منطقة «شنغ في» بولاية «شين سي». وطالب الجنود كذلك بقتل «يانغ كو في» ابنة المستشار ورفيقة «طانغ تسونغ» التي غدرت به وانضمت لـ «أونلق»، فكانت بالنسبة للجنود هي أس المصائب التي حلت بهم.

انفصل الأمير «لي خينغ» عن والده الإمبراطور «طانغ تسونغ» وذهب الى ولاية «قانصو» وأعلن نفسه امبراطوراً للبلاد ولقب نفسه بـ «سو تسونغ» بمساندة أحد كبار رجال الولاية المعروف بـ «كوتسا». وفي تلك الأونة وقعت فوضى بين صفوف المتمردين وقتل «أونلق» علي يد ابنه،

ورفض القائد «صوي غوم» طاعته والامتثال له، بل وأمر بقتل ابن «أونلق» الذي عزم على الاستعانة بسلطنة الأويغور لقمع العصيان نهائياً والسيطرة على الحكم وعودة الحياة لطبيعتها في أقرب فرصة.

في سنة ٧٥٧م أرسل «طانغ تسونغ» مبعوثاً هو «كوزيبي» برفقة وفد كبير الى «قارا بالغاسون»، وكان ضمن الوفد الأمير الأويغوري الكبير «بوكو قاين» الذي عمل لدى أسرة «طانغ».

واضطر المبعوث الصيني أن يقبل مكرها الشروط الثقيلة التي وضعها «بايانجور» سلطان الأويغور آنذاك مقابل تقديم المساعدة العسكرية. وطبقاً لما جاء في نصوص الاتفاقية، يقوم الأويغور بتطهير عاصمة الصين «جانغ آن» ومدينة «لو يانغ» من المتمردين على أن تترك أسرة «الطانغ» الصينية جميع الثكنات والأشياء غير المنقولة الموجودة في تلك المدن، وأن يبقى الذهب والفضة والنساء والفتيات عند الأويغور، وأن يتزوج سلطان الأويغور من إحدى أميرات الصين اللاتي في القصر. وقام امبراطور «الطانغ» بالتوقيع على الاتفاقية من أجل أن يستعيد بلاده من المتمردين وأن تعود لسابق عهدها في أقرب فرصة ممكنة. ولكنه لم يفكر قط كيف أن هذه الاتفاقية وهذه الشروط أساءت الى دولته، وكيف أن شعبه سيدفع ثمن هذا؟.

وبناءً على الاتفاقية المبرمة سنة ٧٥٧م أرسل «بايانجور» الأمير ابنه «يابغو تكين» الى الصين بجيش يضم في صفوفه خمسين ألف جندي، وانضمت اليه عناصر من المشاة الصينية، وتحركوا لمواجهة المتمردين. وفي خريف ذلك العام انتصرت هذه القوات المتحالفة على جيوش المتمردين في غرب «جانان»، وانسحب المتمرّدون الى «طن هوانج». ودخل «يابغو تكين» العاصمة «تشانغ آن» وفقاً للاتفاقية، لكن اتضح أن تفعيل شروط تلك الاتفاقية في ذلك الوقت في «جانان»، قد يكون لها تأثير سيئ على شعب «لويانغ» وربما سيدفعهم ذلك للإنضمام لصفوف المتمردين لما في الاتفاقية من اذلال وعدم تقدير لهم ولتاريخيهم، لذا طلب امبراطور الصين أن يتم تفعيل شروط الاتفاقية بعد أن يقضوا على

التمرد تماماً ويُغادر الأويغور «جانآن»، ولكن «يابغو تكين» رفض هذا الاقتراح مما دفع الصينيين بالتوسط لدى والدة «يابغو تكين» الذي لم يكن ليرفض أي طلب لها واستجابت والدته لنداء امبراطور الصين وقبل «يابغو تكين» ذلك الاقتراح. وبعد أن تم تخليص مدينة «لويانغ» من المتمردين في زمن قصير، بدأ «يابغو تكين» تطبيق الشروط المدونة في الاتفاقية.

من ناحية أخرى إنهارت معنويات المتمردين بعد هزيمة «جانآن» و«لويانغ»، ولاح لديهم نوع من الإعراض عن القتال، وفي سنة ٧٥٩م قام «صوي غوم» بقتل «آن تشنغ شوي» ابن «أونلق»، وضم جيشه لنفسه، ولكن بعد فترة قتل «صوي غوم» أيضاً على يد ابنه «شيه تشاوي» ولقب نفسه بـ «الامبراطور الاصفر» وكان سيحتل «لويانغ» فوجدت أسرة «طانغ» نفسها وجها لوجه أمام الخطر مرة أخرى.

وفي تلك الأثناء كان «بوكو قاغان» على رأس خاقانية أويغور أرخون، إذ اعتلى العرش عقب وفاة «بايانجور» سنة ٧٥٩م.

واستناداً للمعلومات التاريخية يمكن القول أن «يابغو تكين» بعد أن طهر سواحل «جانآن» و«لويانغ» من المتمردين، رجع الى العاصمة «قارا بالغاسون» على ساحل أرخون. وبعد فترة وجيزة تم إعدامه لجرم اقترفه (من المحتمل انها محاولة قتل الملك «بايانجور»).

وكان على رأس سلطنة الأويغور آنذاك «بوكو سلطان» الذي تولى العرش بعد وفاة «بايانجور» سنة ٧٥٩م، واتخذ لنفسه لقباً هو «آي تنغريد قوت بولمش، أل توتמוש كوج كولوغ بيلكه قاغان» (وتعنى بلكه قاغان إله القمر، الحاكم المسيطر، ذو البطش). ولبوكو اسم آخر هو «ألتكين».

وأرسل امبراطور الطانغ «سو تسونغ» ابنه «طاي تسونغ» (٧٦٢ - ٧٧٩م) رسولا إلى «بوكو سلطان»، وطلب منه مساندة لإخماد المتمردين، وعليه توجه «بوكو سلطان» الى الصين سنة ٧٦٢م. وبدوره قام امبراطور الطانغ «سو تسونغ» بتعيين «لي شيه» الابن الاكبر لـ «طاي تسونغ»

لقيادة الجيش وأرسله مع قواد آخرين لمقابلة «بوكو سلطان». وعندما ذهب الوفد الصيني الى سلطنة الأويغور لم يلق منهم حفاوة، حتى أن «بوكو سلطان» لم يعر ممثل أسرة «طانغ» التفاتا وتصرف بغير زائد. وحسب مراسم الاستقبال كان على امير الطانغ ومن معه عندما يمثلون في حضور «بوكو قاغان» أن يلقوا عليه التحية وينحنوا أمامه اجلالاً وتوقيراً له ثم يقوم هذا الوفد بأكمله بتقديم رقصة أويغورية. ورغم ان قادة جيش طانغ رقصوا رقص الأويغور، فإن ليه شى لم يرقص. بناء عليه دعا أحد قواد «بوكو سلطان» «لي شيه» قائد جيوش الطانغ للرقص، وعلى الفور هب أحد القواد الصينيين من مكانه بغير احترام بدعوى أن الأمير لا يزال صغيراً ولا يستطيع أن يرقص رقص الأويغور. فانزعج سلطان الأويغور من هذا الموقف وأمر بالقبض على عدد من كبار قواد «الطانغ» وأمر بضرب كل واحد منهم مائة ضربة بالعصا. وفي تلك الليلة فقد بعض القواد الصينيين حياتهم من جراء الضرب ومن بينهم «وچي غوي». وغضب «لي شيه» غضباً شديداً من تصرف الأويغور هذا، وفكر في فسخ الاتفاقية، ومحاربة «بوكو سلطان» ولكنه أدرك أن هذا التفكير لن يسفر عن شئ فتغاضى عما حدث.

وفي سنة ٧٦٢م استردت أسرة طانغ مدينة «لويانغ» من المتمردين بدعم الأويغور، وفر «شيه تشاو» الى «خوبي» وبهذا تم القضاء نهائياً على حركة «أونلق» و«صوي غوم»، ودخل الأويغور «لويانغ» واستولوا على غنائم هائلة، واندلع حريق بالمدينة أستمر عشرين يوماً، واحترقت المنازل والأبنية حتى احترقت المدينة بأكملها. وعاد الأويغور لبلادهم، وخلال فترة وجيزة تمكنت الصين من استرجاع نفسها واعادة بناء دولتها، وازدادت الحركة الإنتاجية من جديد وهدأ الشعب.

إن التمرد الذي استمر سبع سنوات كاملة، خلف خسائر بشرية ومادية ومعنوية هائلة، فكان عدد سكان امبراطورية الطانغ سنة ٧٥٤م قبيل التمرد ثلاثة وخمسين مليون شخص تقريباً، وعند إخماد التمرد كان عددهم سبعة عشر مليوناً فقط. أي أن قرابة ستة وثلاثين مليون



شخص لقوا حتفهم أثناء ذلك التمرد البغيض، بسبب الأمراض والأوبئة  
والجوع والفوضى وانعدام الأمن وغيرها من الأسباب المختلفة.

## الفصل السادس: الحرب مع التبت

بعد إخماد تمرد «أونلق» صارت إمبراطورية «طانغ» أمام كارثة كبيرة، إذ صارت الحدود الشمالية الغربية للدولة بلا حماية بسبب أن القسم الأكبر من جيش «طانغ» أرسل لمحاربة المتمردين. فحرس الحدود الموجودين في المنطقة كان عددهم قليل وضعفاء. واستغل جيش التبت هذه الفرصة واستولى على مضيق «خشي» في ولاية «قانصو»، وفي عام ٧٦٣م تقدم جيش التبت وقوامه ٢٠٠ ألف جندي من ناحية «لونج - هسي» في ولاية «قانصو»، وتوجه مباشرة نحو الشرق، ودخل «شين - سي». واقترب من العاصمة «جانغ - أن». ولم يكن جيش «طانغ» في وضع يؤهله للدفاع عن العاصمة من جراء معاناته واضطرابه بسبب الحرب الداخلية. ولهذا السبب غادر الإمبراطور «طاي - تسونج» العاصمة، وانسحب إلى منطقة تدعى «شانج - تصو». واجتاحت جيوش التبت «جانغ - أن» وأضرموا فيها النيران، وجمع التبتيون الشباب والفتيات والصناع الموجودين في المدينة، واستعدوا للعودة إلى بلادهم. في تلك الأيام لم يحسن التبتيون تقدير حقيقة الوضع الداخلي لجيش «طانغ»، لذلك غادروا تشانج أن باعتبار أنه ليس هناك ما يثير القلق بشأنها. وانسحبوا تجاه هو - يانج (جو - ين) الموجودة في «نينج - هسي - يانج» وناحية «تشين - يانج» و«فنج - لي يانج» الموجودة في «قانصو» وانتظروا الوقت المناسب للهجوم مرة أخرى. وفي تلك الآونة حدث احتكاك بين «بوكو - قاين» ذو الأصل الأويغوري وهو أحد القادة المعروفين من أسرة «طانغ»، وبين الإمبراطور «طاي - تسونج». وشعر «بوكو قاين» بالأسى بسبب عدم تقدير الإمبراطور له بشكل كافٍ، رغم

ماقدمه من خدمات جليلة في سبيل إخماد التمرد، حيث تم استدعاؤه الي العاصمة، وعين الإمبراطور «كوتسي» مكانه. وعندما علم «بوكو - قاين» بهذا جاء الي منطقة «نينج - شيا» ومعه مائة فارس، وجمع جيشاً هناك. وبعد ذلك طلب المساعدة من سلطنة الأويغور، واتصل بالتبتيين وخطط للانقلاب على أسرة «طانغ». فقام «بوكو سلطان» زعيم الأويغور بإرسال «آلب كولوك طوطوق تكين» من قبيلة ياغلاقار، ومعه مايقرب من عشرة آلاف فارس لتقديم المساعدة. وتوجه «بوكو - قاين» سنة ٧٦٤م صوب «جانغ - آن» بجيش مكون من مائة ألف جندي تقريباً، شكله من المساعدات التي تلقاها من دولة التبت ومن الجنود المرسلة من سلطنة الأويغور وذلك بالإضافة إلى جيشه. وصار وضع العاصمة صعباً للغاية. في تلك الأثناء أخذ القائد الصيني «كوتسي» يذكر القائد الأويغوري «آلب كولوك طوطوق تكين» بعلاقات الصداقة السابقة التي كانت بين سلطان الأويغور وأسرة «طانغ». فاستماله لجانبه وأقنعه بالهجوم معاً على جيش التبت. وبناءً على هذا انسحب جيش التبت المكون من ١٠٠ ألف جندي بعد أن كان على مشارف العاصمة «جانغ - آن»، وعسكروا بعد انسحابهم في مكان اسمه «لينج - ووه» في «نينج شيا». وفي أكثر أيام الشتاء برودة (في شهر يناير) من عام ٧٦٥م اقترب قائد الأويغور «آلب كولوك طوطوق تكين» على رأس الجيش الأويغوري، من مركز قيادة جيش التبت الموجودة في «لينج - ووه». وفي ليلة قارصة تساقط فيها الثلج قام «آلب كولوك» بتنظيم هجوم ضد جيش التبت اثناء استغراقه في النوم، واستطاع تجريد مايقرب من خمسين ألف جندي من سلاحهم وأسر الباقي. واستولى الأويغور الذين هزموا التبتيين على أكثر من مليون رأس من الإبل والخيول والأبقار والأغنام. وقدم الجيش الصيني العون لهم اثناء هذا الهجوم. وعندما بُشر إمبراطور طانغ «طاي - تسونج» بهذا النصر، أهدى الأويغوريين مائة ألف طومار من قماش الحرير.

وقد تلقى «بوكو - قاين» المساعدات من التبت وسلطنة الأويغور

للانقلاب على أسرة طانغ، لكنه مات وهو في طريقه إلى «جانغ - أن» على رأس جيش قوامه مائة ألف جندي، نتيجة إصابته بمرض مجهول وذلك في عام ٧٦٤م.

### إرسال أميرات الصين للزواج من سلاطين الأويغور

في عام ٧٥٠م كانت هناك ثلاث دول عظمى في شرق آسيا، وكانت علاقاتهم متينة وذات ابعاد متعددة، وهذه الدول هي: «سلطنة الأويغور» و«إمبراطورية طانغ» و«إمارة التبت». في تلك الأثناء كانت إمبراطورية «تانغ» قد فقدت سطوتها السابقة، بينما بلغت قوة إمبراطورية «أورخون الأويغورية» الذروة في عهد «قُتْلُق بيلكه سلطان» (بداية من عام ٧٤٤م)، أما دولة التبت التي استطاعت أن تشكل جيشاً قوامه مائة ألف جندي، فقد كانت تشن الهجوم باستمرار ضد جيرانها، وخاصة الصين، وتلحق بهم أضراراً جسيمة. وكانت العلاقات بين إمبراطور «تانغ» وسلطنة الأويغور ودولة التبت متباينة وليست على نفس المستوى. فكانت التبت تهدد الصين وتسعى للسيطرة على مناطقها الغربية والشمالية الغربية في حين لم تكن هناك نية لدى سلطنة الأويغور لانتزاع أراض من الصين آنذاك. ولهذا أبرم إمبراطور «تانغ» اتفاقية مع سلطان الأويغور وقرر المضي نحو التبت.

لم يستعن إمبراطور طانغ بدولة التبت لقمع تمرد أونلق وصويغوم (وذلك بسبب سوء نواياها) بل طرق باب مملكة الأويغور. واعتباراً من ذلك اليوم لم تكن العلاقات بين إمبراطور «تانغ» وملك الأويغور مجرد علاقة جوار جيدة فحسب، بل كانت بينهما صلة نسب وقرابة. وكان من بنود الاتفاقية التي أبرمت بين إمبراطورية «تانغ» وسلطنة الأويغور سنة ٧٥٦م عقب إخماد حركة التمرد في «أونلق»، بند ينص على ضرورة إرسال أميرات من إمبراطورية طانغ الصينية لتزويجهن بسلاطين الأويغور، فضلاً عن قيام الصين بتقديم عشرين ألف طومار من الحرير كل عام لسلطنة الأويغور. والحق أن أسرة «تانغ» نفذت تلك الشروط

علي مدى مائة عام تقريباً خلال الفترة ما بين أعوام (٧٥٧ الي ٨٤٠م).  
وسُجِلت هذه الضريبة في «الوقائع نامه» أي كتاب الوقائع الصينية تحت  
اسم «هدية»؛ ولكن تغريم الصينين تقديم عشرين ألف طومار من  
الحرير سنوياً، لم يكن في الأساس سوى جزية مفروضة.

وفي عام ٧٥٨م أرسل إمبراطور أسرة طانغ «صو - تسونج» ابنته  
«نينج - كو» كعروس إلى سلطان الأويغور «بايانچور» حسب الاتفاقية  
المبرمة بين الدولتين. وأرسل السلطان «بايانچور» بدوره ألفين من  
الخيول الأصيلة من أجل مراسم العرس. كما أرسل ألفي شخص على  
رأسهم كبير مستشاريه ويسمى «أديز» ليكونوا في شرف استقبال  
الأميرة. وكانت أخت السلطان «بايانچور» وزوجات وبنات أمراء الأويغور  
و ٥٦ جارية من بين مستقبلي الأميرة.

الحق أن الأميرة «نينج - كو» لم يخطر ببالها إطلاقاً أنها قد تصبح  
في يوم ما عروساً لحاكم دولة أخرى بعيدة هكذا. ولهذا قبل أن تغادر  
إلى «قارا بالغاسون» ذهبت لأبيها الإمبراطور ووضعت رأسها علي صدره  
وبكت وقالت: «إن مصلحة الدولة أمر مهم، لذا لن أحزن ولو كان  
مصيري هو الموت». وهذه الكلمات توضح مدى إدراك الأميرة للمسئولية  
السياسية التي أقيت علي عاتقها. وينبغي أن نشير هنا الي أن الأميرة  
«نينج - كو» كانت قد تزوجت مرتين قبل زواجها من «بايانچور».

ولم تمض سنة واحدة على زواج الأميرة «نينج - كو» من «بايانچور»  
حتى فارق سلطان الأويغور الحياة. وطالب الأويغور بأن تُدفن الأميرة  
«نينج - كو» مع زوجها السلطان طبقاً لما هو متبع في عاداتهم. ولكنها  
توسلت إلى الأيغور لإعفائها من تلك العادة المتبعة في اسرة السلطنة،  
ونجحت في الحفاظ على حياتها بشق الأنفس. واضطرت حداداً على  
بايانچور، أن تُسيل دماؤها وتذرف دمعها. ثم سُمح لها في النهاية بالعودة  
إلى وطنها الصين، لأنها لم تُنجب من «بايانچور»، وبعد وفاة «بايانچور»  
تولى العرش ابنه الأصغر «بوكوخان».

وتزوج «بوغو - سلطان» بالأميرة «شاو نينج - كو» التي كانت قد جاءت مع الأميرة «نينج - كو» إلى «قارا بالغاسون» وهي ابنة أحد المنتمين لأسرة «طانغ» الحاكمة. وقضت هذه الأميرة عشرين عاماً مع «بوغو - سلطان». وبعد مقتله ظلت أرملة لمدة ثلاثة وثلاثين عاماً في «قارا بالغاسون» حتى توفيت عام ٧٩١م. وكان للأميرة «شاو نينج - كو» طفلان من الملك «بوكو - سلطان» ولكنهما قُتلا عام ٧٧٩م على يد «طون - باغا».

وحدثت تغيرات مهمة في أحوال الأويغور في عهد «بوكو - سلطان». فبعد أن كان الأيغوري يعيش حياة بسيطة، صار إنساناً ينشد الفخامة والرفاهية ويشيد المباني العالية.

وفي سنة ٧٧٨م تم الهجوم على مدينة تيوان الحالية، فجاء «طانغ - تشانج هوان - شينج» الوالى العام لمنطقة «داي» بجيشه فانسحب الأويغور. واستمرت أسرة «طانغ» تبدي الاحترام لبوكو - سلطان وكان شيئاً لم يحدث. وفي سنة ٧٧٩م أراد «بوكو - سلطان» أن يشن هجوماً على الصين، ولكن كبير مستشاريه «طون باغا طارقان» (وتقول بعض المصادر أنه خال بوغو - قاغان، بينما تقول مصادر أخرى أنه أخوه غير الشقيق) أوصاه أن يقيم علاقات صداقة مع أسرة «طانغ» وذكره كيف أن الهجوم الذي شنه على «تيوان» في الأعوام الماضية أسفر عن هزيمة منكرة. ولكن «بوكو - سلطان» لم يصغ لنصائح «طون باغا». والواقع أن «طون باغا طارقان» كان يخطط منذ زمن طويل للاستيلاء على الحكم، فاتخذ من عناد «بوكو - قاغان» حجةً وقام بقتله وقتل ألفين آخرين من أقاربه واستولى على الحكم.

وبعد أن أصبح «طون باغا طارقان» سلطاناً، تدهورت العلاقات بين إمبراطورية «طانغ» وسلطنة الأويغور. ففي تلك الأثناء اعتلى «تي تسونج» (٧٨٠ - ٨٠٥م) عرش الصين. و«تي - تسونج» كان هو نفس الشخص الذي رفض هو والأمير «لي - شيه» الرقص في مراسم الاحتفال عندما جاء لزيارة «بوكو - قاغان» في عام ٧٦٢م، وأخطره أن الأويغور قتلوا

بعض قادة «طانغ».

وكان «تي - تسونج» أيضاً مثل «هسوان - تسونج» و«صو تسونج» حانقاً علي الأويغور ولم تكن في نيته استمرار العلاقات الودية معهم. ومن ناحية أخرى كانت قد بدأت في عهده الانقسامات وحركات التمرد داخل الدولة. وأرسل «تي - تسونج» سفيراً إلى التبت وطلب منهم المساعدة مقابل منحهم مساحة من الأرض<sup>٧٨</sup>.

وفي عام ٧٨٠م عاد «تودون» أمير الأويغور من «جانغ - آن» إلى «قارابالغاسون» وبصحبه أكثر من ألف تاجر. كان «تودون» يقوم بتنظيم أمور سلطنة الأويغور التجارية التي في الصين. وقد أنهى نشاطه التجاري هناك، وفي طريق عودته إلى بلده في قافلة تتكون من ألف جمل وحصان، وعند اقترابه من الحدود أوقف حرس حدود بلدة «هوان - شينج» في «تشانج» القافلة بدعوى أنه يقوم بتهريب فتيات صينيات في الصناديق، ولذلك قاموا بقتل أكثر من ألف تاجر أويغوري، واستولوا على الألف جمل وحصان ومائة ألف طومار من الحرير وغيرها من الأمتعة. وأعادوا الفتيات المختبئات داخل الصناديق إلى «جانغ - آن». وهكذا تحولت العلاقات الودية بين الدولتين إلى علاقات عدائية.

وقد أخطأت الصين خطأ كبيراً بتقاربها مع التبت الذي أدى إلى إضعاف العلاقات بين «تي - تسونج» والأويغور. وانتهزت التبت الفرصة واستفادت من خطأ «تي - تسونج» هذا، فسعت للقضاء على أسرة طانغ. وبسبب أنشطة القوى الداخلية الانفصالية اضطر «تي - تسونج» إلى مغادرة العاصمة «جانغ - آن»، لكنه عاد مرة أخرى في عام ٧٨٤م. وأعد «لي - ميه» وهو أحد نبلاء «تي - تسونج» خطة. وبموجب الخطة يتم القضاء على التبت عن طريق عقد اتفاق مع سلطنة الأويغور في الشمال، ودولة «نان - تشاو» (اليونان حالياً) في الجنوب، ودول الخلافة العربية ودولة هندستان في الغرب<sup>٧٩</sup>. وإن كان «تي - تسونج» لم يرغب في إقامة علاقات صداقة مع الأويغور، فقد اضطر بتأثير «لي - ميه» ألا يظهر عداوته لهم.

وفي عام ٧٨٧م أرسل «تي - تسونج» سفيراً إلى سلطان الأويغور. في ذلك العام كثر هطول الثلج، واضطرت البعثة الدبلوماسية التي جاءت إلى «قارا بالغاسون» إلى الانتظار فترة طويلة تحت الثلج المنهمر بكثافة أمام خيمة «طون باغا طارقان». وفي النهاية جاء أحد المستشارين إلى البعثة الدبلوماسية الصينية نيابة عن «طون باغا طارقان» وقال لهم: «أنتم قمتم بقتل أكثر من ألف رجل من رجالنا الذين كانوا تحت قيادة «تودون». وقانون أجدادنا يقول الدم لا يمحوه إلا الدم. لكن سلطاننا قرر أن يمحو الدم بالماء هذه المرة.»<sup>١</sup>، وعندما سمع سفراء طانغ كلام سلطان الأويغور على لسان مستشاره، صمتوا وأطرقوا برؤوسهم. وهكذا تحسنت العلاقات العدائية بين سلطان الأويغور وإمبراطور «تانغ».

في الشهر الثامن من عام ٧٨٧م، أرسل «طون باغا طارقان» سلطان الأويغور إلى «تي - تسونج» وفدا دبلوماسياً برئاسة «بكچور طرخان» لينقل له رغبته في الزواج من أميرة صينية، ورأي «تي - تسونج» أن طلب سلطان الأويغور منطقي، ووافق على إرسال «الأميرة شون - أن». وأرسل الأويغور عشرة آلاف جواد إلى الصين لإجراء مراسم الزواج. وأرسل الإمبراطور «تي - تسونج» الأميرة إلى «قارا بالغاسون» مُحملةً بالكثير من الهدايا القيّمة. ومات «طون باغا طارقان» بعد عامين قضاها مع الأميرة «شون - أن». وهذه الأميرة تُعد ثالث أميرة يتم إرسالها لسلاطين الأويغور، ومن المعلوم أن هذه الأميرة توفيت سنة ٨٠٨م. ولكن ليس هناك معلومة تُبين هل ماتت في «قارا بالغاسون» أم في الصين.

وبعد أن مات «طون باغا طارقان» الملقب بـ «ألب قتلُق بيلكه سلطان»، حل مكانه ابنه «طاراس». وهو أيضاً يلقب بـ «تنكريده بولمش كولوك بيلكه سلطان»، ولكن بعد موته بالسّم على يد زوجته الصغيرة في عام ٧٩٠م، قام أمراء الأويغور بتولية العرش لابنه «آي چور» الملقب بـ قتلُق بيلكه سلطان. وتولى إدارة الدولة رئيس الوزراء لأن «آي چور» كان لا يزال طفلاً حينئذ. وفي عهد «آي چور» (٧٩٠ - ٧٩٥م) تدهورت



العلاقات الخارجية لسلطنة الأويغور كثيراً. وانهزم الأويغور في الحرب التي خاضوها ضد التبت. وسيتم الحديث عن هذا الموضوع لاحقاً.

مات أي چور سنة ٧٩٥م، وأصبح رئيس الوزراء «قُتلُق» سلطاناً. وطوال عشر سنوات من تولي «قُتلُق» العرش وحتى وفاته سنة ٨٠٥م، كانت قبيلة «ياغلاقار» الأويغورية هي العنصر الحاكم في الدولة، واشتد ساعد قبيلة «أديز» التي ينتمي إليها «قُتلُق».

بعد وفاة «قُتلُق» سنة ٨٠٥م اعتلى ابنه العرش. واتخذ لنفسه لقب «أي تنكريده قوت بولمش كولوك بيلكه سلطان». وبعد ذلك في عام ٨٠٨م تولى العرش شخص يسميه المؤرخون الصينيون «پو - إي قاغان»، وتلقب بـ «أي تنكريده قوت بولمش كوچ بيلكه قاغان». ولكن نحن نعرفه باسم «أي تنكري - خان». ويعتبر «أي تنكري - خان» (٨٠٨ - ٨٢١م) من أكثر سلاطين الأويغور شجاعةً وتفوقاً. وفي عام ٨١٩م طلب «أي تنكري - خان» الزواج من أميرة من أميرات طانغ. ووجد إمبراطور طانغ «هيسياو - تسونج» (٨٠٦ - ٨٢٠م)، أن من المناسب أن يرسل له الأميرة «يون - آن». ولكنه أعلن بعد مشاورات مطولة مع مستشاريه أن الأوفق إجراء مراسم زواج «يون - آن» بعد عدة أعوام. ووافق «أي تنكري - خان» على هذا الاقتراح.

فقد كان الإمبراطور «طانغ» يعرف مدى عظمة وشجاعة «أي تنكري - خان»، وإنه ينبغي أن يصرف من الخزينة مبالغ مالية كبيرة لكي يرسل الأميرة محملة بالهدايا التي تليق بعظمته، ولذلك أعلن أن إرسال الأميرة يحتاج إلى عدة أعوام. والواقع أن إمبراطور «طانغ» كان في موقف صعب، ولكن للأسف مات «أي تنكري - خان» سنة ٨٢١م، وبالتالي لم يتحقق زواجه من الأميرة «يون - آن». وعقب وفاة أي «تنكري - خان» صارت الأميرة «يون - آن» راهبة.

وتذكر المصادر التاريخية الصينية أنه بعد وفاة «أي تنكري - خان»، اعتلى العرش شخص يُدعى «تشونج - تي». وكان يُلقب بـ «كن تينكرده

أولغ بولميش كوچ كوچلك بيلكه سلطان» [إله الشمس السلطان القوي]. وفي فترة حكمه (٨٢١ - ٨٢٤م) أرسل إمبراطور «طانغ»، «مي - تسونج» أخته «طاي - كو» كزوجة له في عام ٨٢١م. ونجد في الأثر المُسمى «تاريخ أسرة طانغ» في باب «معلومات متعلقة بالأويغور»، تفاصيل كثيرة حول مراسم الزفاف تلك. حيث ذكر أن الإمبراطور «مي - تسونج» جعل أخته «طاي - كو» ترتدي ملابس العيد، وقام بوداعها حتى باب «تونج - هو أمين» الواقع شرق «جانغ - آن»، وأجريت مراسم الوداع أمام معبد «تشانج - تشينج» برفقة مائة جندي وكبار موظفي الدولة. وبعد وداع الأميرة أرسل مرسوما لحكام وأمراء الولايات والمناطق الواقعة على طوال خط السير حتى الحدود، أمرهم فيه أن يتم استقبال الأميرة بجيش مكون من ثلاثة آلاف شخص وأيضاً بتنظيم احتفالات لتوديعها. أما من ناحية الأويغور فقد انضم لحفل استقبال الأميرة السلطان «تشونج - تي» بنفسه والأمراء وكبار رجال الدولة. وكان من بين هؤلاء «إينانجو» و«أولوغ طوطوق» و«إيزجيل» و«طارخان» المسئول عن الشؤون الخارجية و«يابغو» و«بيكه» و«أسرة طارخان» وغيرهم من كبار موظفي الدولة. وتم إرسال أكثر من ألف جواد وجمل وعربة أحمال إلى منطقة تُسمى «صاري قاميش قايناعي» (وهي منطقة موجودة داخل أراضي سلطنة الأويغور) لأجل استقبال الأميرة. وعندما وصلت الأميرة «طاي - كو» إلى قارا بالغاسون عاصمة سلطنة الأويغور، أقيمت مراسم الزواج حسب تقاليد الأويغور؛ ففي أثناء مراسم الزواج صعد سلطان الأويغور على ربوة عالية حتى بلغ أعلى مكان تجاه الشرق، وهناك استدار تجاه الشمس وجثا. وكان أمام تلك الربوة بيت من اللباد كان لراهبات الأويغور فدخلته الأميرة وبدأت الراهبات يشرحن لها العادات التي ينبغي أن تؤديها، واستجابت الأميرة «طاي - كو» لهذه العادات فقامت بخلع ملابسها وارتدت ملابس أويغورية. ثم صعدت إلى الربوة مع سيدة أويغورية تُسمى باللغة التركية «ينكه»<sup>٨٢</sup>، وبدأت الدعاء ثم استدارت صوب مشرق الشمس وعظمته. وشاهد السلطان من المكان

الذي يجلس فيه ما تؤديه الأميرة من طقوس. وأمالت الأميرة رأسها تجاه السلطان، ثم جثت وأخذت تتلو الدعاء ودخلت إلى الخيمة، وقبل الدعاء قامت بخلع الملابس التي كانت ترتديها، وارتدت ملابس تليق بزوجة السلطان، ووضعت على رأسها تاجاً ذا مشط مذهب يبرز إلى الأمام كالقرون. وخرجت أمام البناية وانحنت مرة أخرى احتراماً للسلطان. وأشار مستشاروا سلطان الأويغور للأميرة «طاي - كو» بالجلوس في مكان صغير أعد لها في القسم الأمامي للمحفة الكبيرة، ثم قام «تسعة» من أسرة طارخان» الأويغورية (وهم موظفون، يعمل ثلاثة منهم في الشئون الداخلية وستة يعملون في الشئون الخارجية)، بحمل المحفة على أكتافهم ثم الدوران بها تسع مرات بادئين من اليسار إلى اليمين، بعد هذا نزلت الأميرة «طاي - كو» من المحفة وصعدت إلى المبنى. واستدارت بوجهها صوب الشرق ثم جلست بجوار السلطان. ثم قدم المستشارون تهانيمهم للأميرة<sup>٨٢</sup>.

وعاشت الأميرة «طاي - كو» عشرين عاماً في «قارا بالغاسون» بعد وفاة «تشونج - تي» في عام ٨٢٤م. وليس هناك أي معلومة تبين هل تزوجت بعد ذلك بأي سلطان أويغوري آخر أم لا.

ينبغي في هذا المقام الإدلاء ببعض المعلومات حول التوجه السياسي لعلاقات المصاهرة بين الصين وسلطنة الأويغور.

من الثابت تاريخياً أن العلاقات بين الشعوب تستند أساساً وبصفة عامة على أهداف سياسية. فعندما يرسل قياصرة الصين فتياتهم كزوجات أو جواري لحكام دول أخرى كانوا بذلك يسعون لتحقيق ثلاثة أهداف وهي:

١ - التأكيد على الاتفاقية التي يتم توقيعها مع الدولة الأخرى. فعندما أعطى إمبراطور «طانغ» أميرة تنتمي لقصره لسلطان الأويغور، كان يهدف بذلك إلى ضمان انحياز سلطنة الأويغور له في الحرب التي سيخوضها ضد دولة التبت، ولنتذكر مقولة الأميرة «نينج - كو» وهي تبكي أثناء ذهابها إلى «قارا بالغاسون» عام ٧٥٨م حين قالت: «... إن

مصلحة الدولة أمر مهم، لذا لن أحزن ولو كان مصيري هو الموت».

٢ - كان حكام الصين يتلقون معلومات تخص الشؤون الداخلية للدول الأخرى عن طريق العرائس أو الجوارى اللاتي يتم إرسالهن إلى تلك الدول.

وكانت الأميرات والمستشارون السياسيون الذين تم إرسالهم برفقتهن يقومون بتحويل مسار بعض الأحداث لجعلوها تصب في مصلحة بلادهم، وكانت الأميرات يخدعن أزواجهن ويدبرن المكائد المختلفة. ومثال ذلك ما حدث في عام ٦١٥م عندما حاصر «سيوار» سلطان الأتراك الشرقيين «يانج - تي» إمبراطور «صوي» في منطقة «ين - مين»، فقد قامت الأميرة «يي - چينج» التي كانت قد أرسلت كزوجة للسلطان من قبل - بإرسال رجل إلى «سيوار» يحمل له خَبْرَ كاذِبٍ مَفَادُهُ: «إن ثمة مشاكل خطيرة تحدث الآن في شمال البلاد»، فاعتقد سلطان الأتراك أن هناك حركة تمرد وقعت في أراضيه، فشرع بالقلق ورفع الحصار وعاد إلى بلاده؛ وبذلك ولى الإمبراطور الصيني هارباً.

٣ - وثمة هدف آخر دفع حكام الصين إلى إرسال الأميرات الصينيات للزواج من حكام الدول الأخرى، وهو الاستفادة من أبناء تلك الأميرات في المستقبل عندما يتولون حكم تلك البلاد، حيث يقومون بربط تلك الدول بالصين والاتحاد معها. علاوة على ذلك فإن وارثي العرش يستغلون الصراع على العرش في إشعال الحروب الداخلية في تلك الدول مما يؤدي إلى انقسامها وإمكان القضاء عليها في النهاية. ومثال ذلك الأميرة الصينية «جيه - يو» التي عاشت في دولة «أويصون» خمسين عاماً قبل مائة عام من الميلاد، حيث تزوجت من ثلاثة ملوك من ملوك دولة «أويصون» وهم (قون شو - مي «١٠٤ - ٩٣ ق.م»، و«ونج قو - مي» ٩٣ - ٦٠ ق.م، و«وني - مي «٦٠ - ٥٢» ق.م)، وكانت تقدم الأخبار والمعلومات المهمة لإمبراطور الصين باستمرار؛ وفي سنة ٥٣ خاضت صراعاً سياسياً من أجل أن يتولى ابنها «يانج كومي» الذي انجبت منه «ونج كو - مي» العرش، وكانت النتيجة انقسام دولة «أويصون» إلى دولتين؛ وتولى «يانج

كو - مي» ابن الأميرة الصينية، حكم «كون بيك»، وتولى «يوكوت» ابن أميرة الهون حكم «كوچوك كون»؛ وضم «يانج كو - مي» أكثر من ستين ألف أسرة، بينما انفرد «يوكوت» بخمسين ألف أسرة. وأقيمت حدود فاصلة بين أراضي كلا الملكين. وأعتقد أن سلاطين الأويغور قد تعلموا درساً مهماً من التاريخ، فكانوا شديدي الدقة والحظر تجاه دسائس أميرات الصين وفسادهن المثير للفتنة. فعلى سبيل المثال ما حدث عام ٧٧٩م عندما قام «طون باغا» بقتل «طارخان بوغو - خان» قام أيضاً بقتل أبنائه الاثنيين اللذين أنجبهما من الأميرة الصينية «شاو نينج - كو» ومن المحتمل أن خوفه من مطالبة هذين الطفلين بحقهما في العرش فيما بعد هو ما دفعه لارتكاب فعلته تلك.

وجاء بعد الأميرة الصينية «شاو نينج - كو» أميرات أخريات من الصين للزواج من سلاطين الأويغور مثل الأميرتان «شونج - آن» و«طاي - كو» ولكن لم يكن لهن أبناء من أولئك السلاطين، ولعل هؤلاء السلاطين لم يرغبوا في ذلك. وبالنظر إلى الأمر من الناحية الموضوعية نجد أن الأميرات الصينيات اللاتي تزوجن من سلاطين الأويغور، لم يكن يهدفن إلى التقريب بين الدولتين، بل على العكس كن يعملن على التباعد بينهما.

### تجارة الخيول والحرب بين الأويغور والصينيين

كانت تربية الحيوانات هي وسيلة الإنتاج الأساسية لسلطنة الأويغور. وقد أولت أهمية خاصة لتربية الخيول، لأن المحاربين الفرسان كانوا يلعبون الدور الأهم في الحروب. وكانت الخيول آنذاك بشكل عام باهظة الثمن. فالسيادة والتفوق في الحروب مرهون بوحدات الفرسان. وكان أويغور الشرق يحبون الخيول وتربيتها. ومن بين مليون حصان يختارون مائة ألف فقط، وكونوا جيشاً من الفرسان مؤلفاً من ٢٢١ ألف شخص. وكان الفرسان يمثلون مركز الثقل في جيوش الهون والترك والأويغور، وبينما عدد المشاهة قليلاً نوعاً ما. وكان الهون، والترك، والأويغور عند ذهابهم

للحرب، يأخذون معهم مئات الآلاف من الجياد الاحتياطية. فالحصان كان حيواناً لا مثيل له بوصفه وسيلة سريعة لتبادل الأخبار. كان لكل قبيلة وعشيرة في الأويغور الشرقيين أختامها التي تطبعها على أفخاذ الخيول الخاصة بها، لكل منهم مراعيها الخاصة. ولهذا نجد الأويغور يطلقون على الخيول اسم «الخيول المدموغة».

وسعى قياصرة الصين منذ القدم إلى تأسيس جيوش الفرسان وليتمكنوا من منافسة جيранهم المحاربين في الشمال؛ على أن قياصرة «طانغ» كانوا أكثر منهم اهتماماً بالخيول، وقد اكتشفوا السهول الغنية بالمراعي والمياه في كل من «لونج - يو» و«لان - تشو» و«فينج - لين» و«تاين - شو» بولاية «قانصو»، وأيضاً في ممر «خشى»، وأسسوا وحدة خاصة للمحافظة على هذه السهول، يرأسها أحد كبار موظفي الدولة<sup>(٨٤)</sup>.

وعلى مدى أربعين عاماً، خلال الفترة ما بين (٦٣٠ - ٦٧٠م) ترعرع في هذه السهول أكثر من ٧٠٠ ألف جواد. وأدت الصراعات التي وقعت بين الصين والتبت اعتباراً من عام ٦٧٠ إلى تعرض تلك المراعي بما فيهما مراعي قانصو لكثير من أعمال التخريب.

ونتيجة تحول تلك المراعي لأراضٍ جدداء هلكت كثير من الخيول. حتى عددها وصل في عام ٧٥٤م إلى ٣٢٠ ألف جواد، منهم ٢٠٠ ألف فقط صالحاً للعمل. ولهذا السبب تعرضت إمبراطورية «طانغ» لأزمة كبيرة في الخيول سواء التي تُستخدم في الحروب أو تلك التي تُستخدم لأغراض أخرى كالزراعة والنقل. ناهيك عن الأزمة الحقيقية التي تمثلت في تمرد أونلوق عام ٧٥٥م واستيلائها على ولايتي «لو - يانج» و«جانغ - آن»، وتعرض الصين ككل للفوضى بسبب هروب الإمبراطور «طانغ - تسونج» إلى «سيه - تشوان»؛ ولم يبق مع الإمبراطور سوى ثلاثين ألف جواد<sup>(٨٥)</sup>. ومع تولى «طانغ تسونج» عرش «طانغ» عام ٧٥٦م استولت التبت على قسم كبير من ولاية «جانسو»؛ ونظراً لتعرض مراعي المنطقة للدمار أصبحت تربية الخيول فيها أمراً مستحيلاً. واضطرت إمبراطورية «طانغ» أن تحصل من سلطنة الأويغور على عدد كبير من الخيول. في

تلك الأثناء كان القسم الأكبر من جيش «طانغ» من المشاة في حين أن المتمردين كان معظمهم من الفرسان. ولو لم تقم سلطنة الأويغور آنذاك بتقديم المساعدة لإمبراطورية «طانغ» لما كان لها وجود. بموجب الاتفاقية الموقعة فيما بين الطرفين كان يتم مقايضة الحرير بالخيول فيما بين الصينيين والأويغور. فاذا كانت الصين في حاجة إلى خيول الأويغور، فالأويغور في الوقت ذاته كانوا في حاجة إلى حرير الصين. وكان الأويغور يستخدمون كمية كبيرة من الحرير التي يحصلون عليه من الصين، ويقومون ببيع ما تبقى منه في الأسواق العالمية بأسعار عالية. وبلغ ثمن الجواد الأويغوري ما يعادل خمسين طومارا من الحرير. وكانت عملية المقايضة تجري على هذا النحو نظراً لإحتياج إمبراطورية «طانغ» الشديد إلى الخيول في الحروب.

كان الأويغور يمدون الصين كل عام، وعلى مدى مائة عام اعتباراً من تاريخ تمرد «أونلوق»، بأعداد من خيول الحرب تراوح عددها ما بين الألف كحد أدنى إلى العشرين ألف والثلاثين ألف والمائة ألف كحد أقصى. مثلاً بينما كان عدد الخيول التي تم بيعها إلى الصين في عام ٧٧٣م عشرة آلاف جواد، وصل هذا الرقم في عام ٨٧٢م إلى مائة ألف. وإذا كان متوسط ثمن الحصان الواحد يبلغ ٤٠ طومار من الحرير، يتعين على الصين أن تقدم للأويغور ٤ مليون طومار من الحرير من أجل شراء ١٠٠ ألف جواد. وكانت الصين عاجزة عن الوفاء بهذه الديون لسلطنة الأويغور بسبب حروبها الداخلية التي أدت إلى اضطراب نظامها وتدهور حالها الاقتصادي.

ولهذا السبب لم يتمكنوا آنذاك (في عام ٧٨٢م) من دفع سوى ١٠٠ ألف طومار من الحرير، و ١٠٠ ألف صار من الذهب والفضة، (الصار يساوي ٣١،٢٥ جرام)<sup>(٨٦)</sup>. ولم تستطع إمبراطورية «طانغ» الوفاء بكامل ديونها للأويغور حتى عام ٨٤٠م الذي شهد الإنقسام والهجرة الكبيرة. وبهذا لم ترق عملية تبادل الخيول والحرير بين سلطنة الأويغور وإمبراطورية طانغ إلى مستوى يرضي كلا الطرفين حتى بداية القرن

التاسع. فقد كان هناك عدم تنظيم وخلافات حول كم البضائع التي تبادلوها فيما بينهما ونوعها. فكل دولة فيها كانت تفكر في مصالحها الخاصة، فقد كانت حكومة «طانغ» تقوم بجمع الحرير الذي تُقدمه للأيوغور عنوةً من الشعب وليس من مصانعها. وكان حكام الأيوغور يخلطون الخيول التي تُستخدم في عمليات النقل والبغال بالخيول الحربية وذلك بهدف توفير الكمية المطلوبة. وعليه كانت الصين تتعامل بالمثل فخفضت من معايير جودة الحرير من حيث عرض الحرير وطوله ونوعيته. ولم تكن ٦٠ - ٧٠٪ من الخيول التي يقدمها الأيوغور مطابقة للمواصفات المحددة. وقد ألحق هذا الأمر ضرراً كبيراً بإمبراطورية «طانغ».

حتى أن الشاعر «باو تشو» وهو من شعراء تلك الفترة (٧٧٢ - ٨٤٦م)، عبر عن ذلك بقصيدة اسمها «طرق چوغاي». ففي شعره الذي يبدأه بقوله: «طريق چوغاي، طريق چوغاي.. يالك من طرق طويلة...»، بعد أن يصور حال الخيول التي قام الأيوغور بإرسالها الي الصين. وكيف كانت هزيلة ومريضة ولا تستطيع الوقوف على قدميها، وكيف تعرضت للمعاناة في طريق لا توجد فيه مراعي فمات الكثير منها، صور غضب الأيوغور من ذلك الحرير الرديء المُرسَل من الصين؛ فأرسل سلطان الأيوغور رسولاً إلى إمبراطورة الصين يطلب منها التحقق من هذا الأمر، وعلى الفور قامت إمبراطورية الصين بإرسال جميع أصناف الحرير ذات الجودة العالية الموجود في المخازن إلى سلطنة الأيوغور بواسطة الخيول، ومن ذلك الحين توقفت الصين عن إرسال الحرير رديء النوعية.

وفيما يلي نقدم قائمة بكميات الحرير المرسلة من إمبراطورية طانغ إلى سلطنة الأيوغور مقابل الخيول، اعتباراً من عام ٧٨٢م<sup>(٨٧)</sup>:

١٠٠ ألف طومار	عام ٧٨٢
٥٠ ألف طومار	عام ٧٨٧
٣٠٠ ألف طومار	عام ٧٩٠
٧٠ ألف طومار	عام ٧٩٢



١٦٧ ألف طومار	عام ٨١٥
٨٥ ألف طومار	عام ٨١٦
٢٠٠ ألف طومار	عام ٨٢٢
٤٦٠ ألف طومار	عام ٨٢٧
٢٣٠ ألف طومار	عام ٨٢٩
١ مليون و ٦٦٢ ألف طومار.	المجموع

وينبغي أن تذكر مرة أخرى أن إمبراطورية «طانغ» اضطرت أن تقدم أربعة مليون طومار من التحرير مقابل مائة ألف حصان اشترتها من الأويغور. غير أنها قامت بتسديد مائة ألف طومار فقط. وحدث نفس الشيء في عام ٨٢١م عندما اشترت ٢٠ ألف حصان وكان عليها أن تقدم ٨٠٠ ألف طومار من التحرير مقابل هذا، لكنها لم تسدد سوى ٢٠٠ ألف طومار فقط. وهذا يعني أن إمبراطورية «طانغ» كانت مدينة دوما لسلطنة الأويغور.

في عام ٧٨٠م أرسلت سلطنة الأويغور وفداً دبلوماسياً الي قصر «طانغ» بخصوص تسديد الديون، ولكن القصر في الصين طلب إرجاء تسديد الدين لفترة أخرى مُعللاً أن الوضع الاقتصادي في البلاد متدهور. وكانت أسرة طانغ في مأزق فهي تفكر من ناحية في تسديد هذه الديون التي تثقل كاهلها ومن ناحية أخرى كان عليها تجهيز الهدايا لرسل الأويغور الذين كانوا يقومون دوماً بزيارة العاصمة طانغ. ولا سيما أن الوفد المرسل يضم على الأقل مائة رسول. وأحياناً كان الوفد يتشكل من أكثر من ألف شخص. وكانت هذه الهدايا التي يتم إرسالها مع وفد سلطنة الأويغور كبيرة وكثيرة للغاية لدرجة أن ألف عربة كانت تسعها بالكاد. وفي سنة ٧٧٣م بذل إمبراطور «طانغ» جهداً كبيراً لكي يرسل هدايا مُقنعة لسلطنة الأويغور.

## الفصل السابع: سلطنة الأويغور والتبت

### العلاقات بين التبت والأويغور

بعد أن سيطر «سونج - زان كام - بو» في عام ٦٣٠م، على قبيلتي «جانغ» و«دي» (أجداد التبتيين) اللتين كانتا تعيشان في أراضي التبت بالقرب من «كوكنور» داخل حدود التبت قام بتأسيس «إمارة التبت». ونجح في الحفاظ على وجود هذه الدولة لأكثر من قرنين (٦٣٠ - ٨٤٥م). وأعلن «سونج - زان كام - بو» مدينة «لهاسا» عاصمة للسلطنة. وأسس البيروقراطية ونظم الجيش ووضع الدستور. ثم بعث برسول خاص إلى مدينة «خوتن» لتعلم الأبجدية من الخوتن الأويغور (يحتمل أن تكون الأبجدية السنسكريتية)، واستخدم هذه الأبجدية في الكتابات الرسمية. وفي عام (٦٤١م) أرسلت أسرة «طانغ» الأميرة «وين - چينج» كعروس لـ «سونج - زان كام - بو» لإقامة علاقات طيبة مع التبت، ولاستخدامه ضد أعدائهم. وبعد وفاة «سونج - زان كام - بو» عام ٦٥٠م ضعفت العلاقات بين أسرة «طانغ» و«التبت» على نحو ملموس. وبعد ذلك اندلعت حرب طويلة بين الصين والتبت في عهد «مانغ - زونغ مانغ - زان» حاكم التبت (٦٥٠ - ٦٧٩م). ثم بدأ سلطان التبت يستولى على الدول المجاورة عندما تعرضت أراضي التبت لسوء الأحوال المناخية ونقص المحاصيل. غير أنه لم تكن لديه نية للإغارة على جيران سلطنة الأويغور. وهذا ما قاله «ليو ين - شنغ» قائد جيش «طانغ» لـ «شانج تي - شينج» قائد جيوش التبت في عام ٨٣٠م:

«عندما حلت علينا المصائب قام الأويغور بمساندتنا، وإنقاذنا من

تلك الأهوال، ولم يتطلعوا أبداً لشبر واحد من أراضينا. أيصح ألا نتوجه بالشكر لشعب أحسن إلينا؟»<sup>(٨٨)</sup>.

وكنا قد أوضحنا من قبل أن أسرة «طانغ» قررت الخروج ضد التبت بعد أن عقدت اتفاقاً مع سلطنة الأويغور.

واعتباراً من عام ٧٦٠م اشتدّ ساعد التبت بشكل ملحوظ. وتمكنت بسرعة من خلال حروب مستمرة مع الصين من احتلال جزء كبير من ولاية ما تسمى اليوم «سيه - تشوان» وولاية «قانصو» بأكملها. ووقع إمبراطور «طانغ» معاهدة سلام مع التبت في عام ٧٨٣م. واضطرت إمبراطورية «طانغ» التي فقدت هيبتها وقوتها القديمة أن تترك للتبت بموجب الاتفاقية المناطق التي احتلتها، وأن تكف عن التصرفات العدائية ضد إمبراطورية التبت. وبفقدان الصين ولاية قانصو إنقطع اتصالها بالشعوب الموجودة في غرب البلاد. وكان خط السير الوحيد الذي يضمن الاتصال بين المناطق الغربية والصين، يمر من الحد المسمى «أويغور يولي» أي طريق الأويغور. وكان تجار الصين وسفراؤهم الذين يخرجون إلى الطريق من «جانغ - أن» عندما يريدون التوجه ناحية الشمال يدخلون داخل حدود سلطنة الأويغور بعد أن يعبروا سور الصين العظيم؛ ثم يتقدموا نحو الشمال وتحديداً نحو «قارا بالغاسون» ومن هناك يتوجهون نحو الغرب ليصلوا إلى «بشباليق» مروراً بآل الطاي. ويمر خط السير بعد «بشباليق» من «وادي إيلي» و«يدي صو» في اتجاه الغرب ويمتد حتى غرب ووسط آسيا. وسمي خط السير هذا في كتب التاريخ بـ «أويغور يولي» أي طريق الأويغور، لأن جزءاً كبيراً منه يمر عبر أراضي سلطنة الأويغور.

وفي عام ٧٨٣م قيدت التبت الصين وأضعفتها بالمعاهدة التي عقدتها مع إمبراطورية «طانغ»، ودخلت في حرب مع سلطنة الأويغور. وفي عام ٧٩٠م هاجمت التبت الأراضي الأويغورية، واستولت على وادي تاريم. وفي عهد «أيچور» ضعفت سلطنة الأويغور بدرجة كبيرة. وفي عام ٧٥٦م تمردت قبيلة «قارلوق» - وهي من قبائل الأويغور - التي دخلت ضمن

اتحاد الأوغوز التسع - على ظلم قبيلة «ياغلاقار» وعلى السياسة التي تنتهجها، وانسحبت إلى الغرب وذهبت إلى منطقة «بشباليق» و«يدي صو» وساندهم أعداء الأويغور اعتباراً من هذا التاريخ. مثال ذلك، كانت التبت تقوم بتحريض قبيلة «قارلوق» المستقرة على حدود «بشباليق» ضد الأويغور بصفة مستمرة. وفي النهاية هاجمت التبت مدينة «بشباليق» عام ٧٩١م واستولت عليها.

وإثر ضياع «بشباليق» سار رئيس الوزراء صاحب السلطة في الدولة والملقب بـ«حاكم الولاية»، على رأس جيش قوامه ٥٠ ألف جندي نحو «بشباليق». والواقع إن ضياع «بشباليق» لم تكن خسارة لسلطنة الأويغور فحسب، ولكنها كانت خسارة كبيرة أيضاً لإمبراطورية «طانغ». غير أن حاكم المدينة انهزم في الحرب التي خاضها ضد التبت وعاد إلى «قارا بالغاسون». ولكنه لم يدر أمور الدولة بل جمع جيشاً قوامه خمسين ألف مقاتل وعاود الهجوم على «بشباليق». و«بشباليق» هذه تربط بين الدول الغربية والشرقية وتمثل آخر نقطة في طريق القوافل الدولي المسمى «أويغور يولي». وانهزم حاكم الدولة في صدامه الثاني مع التبت وفقد الأويغور نصف جيشهم. ولم يتلق الأويغور أية مساعدة من إمبراطورية طانغ أثناء ما بين الحربين اللتين شنتا من أجل استرداد «بشباليق». وذلك لأن إمبراطورية طانغ كانت تواجه في تلك الفترة مشاكل داخلية عديدة. فضلاً عن أن أسرة طانغ كانت ترى أن هذا الصدام الذي يقع بين الدولتين يصب في مصلحة الصين. وخروج سلطنة الأويغور مهزومة من الحربين اللتين خاضتهما من أجل إنقاذ «بشباليق» أدى إلى إضعاف الدولة أكثر.

### حملات «آي تنكري - خان»

ظلت مدينة «بشباليق» وفقاً للمعطيات التاريخية، في يد دولة التبت طوال ١٧ عاماً في الفترة ما بين (٧٩١ - ٨٠٨م). وبدأ «آي تنكري - خان» في عهد «قُتلُق بيلكه سلطان» (٨٠٥ - ٨٠٨م) بتنظيم وضع

سلطنة أويغور الأورخون. وتمكن «قُتلُق بيلكه» في عام ٨٠٨م من طرد التبت من «بش باليق» واستولى على مدينة «يو - مين» الواقعة في «قانسو». وتقول كتب التاريخ الصينية أن الدولة الأويغورية اشتد ساعدها مرة ثانية في عهد «أي تنكري - خان» المعروف بـ«بو - إي سلطان» (٨٠٨ - ٨٢١م). ونظرا للمعلومات التي في حوليات الصين وفي كتابه طقوز أويغور «أي تنكريده قوت بولمش ألب بيلكه سلطان» [إله القمر المبارك ألب بيلكه سلطان] نستطيع أن نقول أن الشخص الذي نسميه «أي تنكري - خان» إختصاراً، قد عُرف في التاريخ بفتوحاته المظفرة. سار «أي تنكري - خان» بجيش جرار يضم ٢٠٠ ألف مقاتل الي التبت وإلى القبائل التي لم تكن خاضعة له. وفي عام ٨١٠م هجم على القييرغيز عند المنابع العليا لنهر «يني ساي» وكان القييرغيز من قبل خاضعين لسلطنة الأويغور.

فقد تمردوا في نهاية الأمر وسعوا للحصول على استقلالهم. ولكن الأويغور لم يمنحوا للقييرغيز الفرصة للانفصال عنهم، وشنوا عليهم الحملات العسكرية واحدة تلو الأخرى وأخضعوهم. لكن القييرغيز أعلنوا استقلالهم في عام ٧٩٠م عندما انشغل الأويغور بمشاكلهم بسبب الصراعات التي خاضتها مع المحتلين التبتيين. وعندما جاء «أي تنكري - خان» إلى قبائل «يني ساي» فإنه لاقى مقاومة شديدة من القييرغيز، لكنه قمع مقاومة هذه القبائل بقسوة وأراق الكثير من الدماء.

وفي عام ٨١٥م خرج «أي تنكري - خان» بقسم من جيشه لحملته المشهورة الى الغرب. فهاجم جيوش التبت الذين عاودوا احتلال «بشباليق» ولقى التبتيون هزيمة ثقيلة في منطقة «جيميسار» الحالية. وبعد ذلك توجه إلى مدينة «كوچار». وفر التبتيون إلى «قاراشهر»، وتعقب «أي تنكري - خان» العدو تجاه الغرب حتى أدركهم عند منطقة «أشمه» الحالية أو «چرچي» وأعمل فيهم القتل. وتحمل الانتصارات التي حققها «أي تنكري - خان» في «بشباليق» و«كوچار» و«قاراشهر» لها أهمية كبيرة من الناحية التاريخية، لأنها ساهمت في استقرار الأوضاع في

المنطقة، وإعادة الصلة بين الشرق والغرب، ومن ثم السيطرة على طريق القوافل.

وبعد أن هزم «أي تنكري - خان» التبت في «قاراشهر» استدار ناحية الغرب، ومضى من فوق «كاشغر» إلى «فرغانة» و«يدي صو». وأعاد إخضاع قبيلتي «قارلوق» و«توركيش» لسيطرته، وبعد أن عين الولاة لإدارة شئون البلاد ثم عاد منتصراً إلى بلاده، وإلى العاصمة قارا بالغاسون على ساحل «أورخون». وبهذا أصبح «أي تنكري - خان» من أعظم سلاطين سلطنة «أويغور الأورخون» وأرسل في عام ٨١٨م رسولا إلى «جانغ - أن» لنقل رغبته في الزواج من إحدى أميرات الصين. فبادر إمبراطور «طانغ» بإرسال الأميرة «يون - أن» إليه في عام ٨١٩م، وذلك بموجب المعاهدة المبرمة وذهبت الأميرة إلى بلاد الأويغور بعد إقامة الاحتفالات ومراسم الزواج التي أشرنا إليها من قبل، ولكن سلطان الأويغور مات عام ٨٢١م. واستناداً للمعلومات التاريخية نجد أن التبتيين لم يجرؤوا على الدخول إلى أراضي سلطنة أويغور الأورخون مرة أخرى طوال ثلاثين عاماً خلال الفترة ما بين (٨١٥ - ٨٤٨م)؛ ولكن إثر هجرة أويغور الشرق عام ٨٤٠م نحو الغرب، ومع ظهور حالة الفوضى داخل حدود السلطنة، أعاد التبتيون الاستيلاء على «بشباليق» و«طورفان» وبعض المدن الأخرى، ولكن تصدى لهم هذه المرة «بوكو - تكين» وردّهم على أعقابهم. وسنوضح لاحقاً هذه الوقائع بالتفصيل.

لنعد الآن لتعقب الأحداث وفقاً لتسلسلها الزمني. في عام ٨٢١م تزوجت «طاي - كو» أميرة طانغ من «كون تنكريدا أولوق بولمش سلطان الأويغور» (٨٢١ - ٨٢٥م). وقام السلطان باصطحاب «طاي - كو» إلى قارا بالغاسون، ودعم حامية «كوچار» و«بشباليق» بوضع جيش قوامه عشرة آلاف جندي على كل مدينة؛ تحسباً لأي هجوم من قبل التبت. وفي عهد السلطان «كون تنكري» دارت معركة حامية بين الأويغور والتبت؛ وصار التبتيون على مسافة خمسة أيام من «قارا بالغاسون». ولكن الصدامات التي جرت أوقفت قدمهم.

عاشت سلطنة الأويغور أضعف سنواتها في عهد السلطان «تشونج - تي» و«هزار تكين» (٨٢١ - ٨٣٢م) دون أن تنهار. فقد كانت إمبراطورية «طانغ» تدعمها، وأرسلت لها على سبيل الجزية ٢٠٠ ألف طومار من الحرير في عام ٨٢٢م و ٤٦٠ ألف طومار في عام ٨٢٧م، و ٢٣٠ ألف طومار في عام ٨٢٩م.

وفي النصف الأول من القرن التاسع أخذت دولة التبت القوية هي الأخرى في الاضمحلال والضعف، حيث سقط جيش التبت الذي أنهكتها الحروب المتواصلة مع الأويغور؛ ومع هذا ظلت دولة التبت محتفظة بقوتها حتى عام ٨٤٥م، أما سلطنة الأويغور فكانت قد أخذت اعتباراً من عام ٨٣٠م في فقدان قوتها وهيبته يوماً بعد يوم وبشكل سريع.

### هجرة أويغور الشرق

#### ◀ أسباب الهجرة

عاشت سلطنة الأويغور على مدى عشر سنوات (٨٣٠ - ٨٤٠م) المرحلة الثالثة من عمرها التي انتهت بهجرة أويغور الشرق إلى الغرب، وانتقال عاصمة البلاد من «قارا بالغاسون» إلى سفوح جبال «طانري». وفي عهد سلطان الأويغور «هزار تكين» الملقب بـ «آلب بيلكه تنكري» اشتد النزاع على العرش وبدأت الصراعات الداخلية. وظلت السلطة لفترة طويلة لحكام ينتمون لقبيلة «ياغلاقار». ولكن بعد وفاة الملك «أيچور» في عام ٧٩٥م، انتقل الحكم إلى قبيلة «آديز» المنتمية لاتحاد القبائل الأويغورية العشر، وتولى «قُتلُق سلطان» حكم البلاد. قبل وفاة «أيچور» لم يكن هناك ولي للعهد لذا تولى إدارة الدولة بعد وفاته رئيس وزرائه «قُتلُق». والواقع إن مجيء «قُتلُق» المنتمي لقبيلة آديز على رأس الدولة لم يؤدِ إلى وقوع صدام جدي بين قبيلة آديز وقبيلة ياغلاقار. وفي عهد السلاطين الذين ينتمون لقبيلة آديز كانت دولة الأويغور قوية

حيث استطاعوا أن يطردوا التبت من مدن «بشباليق» و«كوچار» فضلاً عن سيطرتهم على قبائل «قارلوق» و«تور كيش» و«القيرغيز» الذين أعلنوا عصيانهم بغية الانفصال عن السلطنة الأويغورية، وإخضاعهم تحت حكمهم مرة أخرى. بيد أن في عهد السلطانين «هزار تكين» و«هو تكين» (٨٢٤ - ٨٣٩م) وهما من قبيلة «أديز»، دخل بعض أمراء الأويغور من قبيلة ياغلاقار في صراعات دموية مع قبيلة «أديز» للسيطرة على الحكم، ونجحوا في ذلك نجاحاً جزئياً.

وقُتل «هزار تكين» أثناء الصدام الذي وقع في عام ٨٣٢م. واشتدت الحرب الداخلية أكثر في عهد خليفته «هوتكين». وفي عام ٨٣٩م اتحدت قوات «شونقار تكين» و«أرچون ألب» الملقب بـ «ألب كولوك بيلكه سلطان»، وهما من أعداء «هو تكين» وأرادا قتله. ولكن «هوتكين» كشف أمرهما وأمر بقتلهما. فغضب «قره بولوك» وهو أحد وزراء الدولة، ورفع راية العصيان ضد «هوتكين»، ولجأ إلى الأتراك المتواجدين في الصحراء وطلب العون منهم. وكان أتراك الصحراء يتألفون من قبيلتي «چومول» و«چيجيل» اللتان تعيشان عند السفوح الشرقية لجبال طانري. وكان المچوموليون قد انتشروا في المنطقة الشرقية بين «قومول» و«أورومچي» الحالية، أما «الچيجيليون» فقد انتشروا في المنطقة الواقعة بين غرب «ماناس» وشرق «أورومچي». كان مؤرخو الصين الأقدمون يسمون الأتراك الذين يعيشون أمامهم في الصحراء الجرداء بـ «أتراك الصحراء». وهكذا ظهر اسم المعروفين بأتراك الصحراء «أتراك شاتو». وبعد ذلك اتجهت قبيلة «چيجيل» جهة الغرب لأسباب عدة وجاءت إلى «يدي صو» واستقرت بـ «وادي طلاس»؛ أما قبيلة «چومول» فقد هاجرت من المنطقة التي كانت تقطن فيها عام ٧٩٠م إلى أطراف «جيميسار» واستقرت في منطقة «وو - وي» بولاية قانصو، وفي منطقة «لونج - بو» بولاية «نيغشيا»، وانضمت إلى إمبراطورية «طانغ». ومنحت إمبراطورية طانغ أمراء تلك القبيلة لقب «لي». وأتراك الصحراء هؤلاء هم الأتراك الذين أسسوا دولة طانغ الأخيرة في «هوانج - هو» و«يانجتسي» بعد ذلك. غير أن هذه



الدولة لم تبق سوى أربعة عشر عاماً فقط، وتم إدماج أترك الصحراء تماماً على يد الصينيين.

في عام ٨٣٩م توجه «قره بولك» [كورا - بر] بمساعدة أترك الصحراء لمواجهة «هوتكين». وانتحر «هوتكين» بعد هزيمته في الحرب. وهكذا اجلس «قره بولك» أحد أمراء قبيلة «أديز» ويدعى «كيجيكتكين» على العرش، واعتقل بعض أمراء «ياغلاقار». فهب «كولو ك باغا طارخان» (من قبيلة ياغلاقار) وهو المستشار الحربي للبلاد للاستيلاء على العرش. في تلك الأثناء كانت تتعاقب علي سلطنة الأويغور الكوارث الطبيعية الشديدة الواحدة تلو الأخرى. فقد ذكر في القسم المتعلق بالأويغور في حولية أسرة طانغ أن الثلوج هطلت بشدة في عام ٨٣٩م فتعرضت

البلاد لموجة من الصقيع الشديد مما أدى إلى نفوق الكثير من الخيول والثيران والأبقار. وأودت الأوبئة بحياة الكثير من البشر، وتناقص الإنتاج الزراعي والحيواني وواجه الناس خطر المجاعة، وصار الشعب لا يدري ماذا يفعل، فالحرب الداخلية من ناحية، وانتشار الأمراض والكوارث الطبيعية من ناحية أخرى أدخلت الشعب كله في دوامة اليأس.

وبينما تمر سلطنة الأويغور بتلك الأيام العصيبة، قرر «قولوك باغا» زعيم قبيلة «ياغلاقار» أن يطلب مساعدة القيروغيز في نزع العرش من أيدي قبيلة «أديز»، فهرب إلى القيروغيز في «يني ساي» عام ٨٤٠م وشرح لهم أحوال بلاده. فوافق خان القيروغيز—الذي كان قد تمرد من قبل على سلطنة الأويغور وحقق استقلاله، وافق على اقتراح «قولوك باغا» وقرر انتهاء هذه الفرصة لتقويض سلطنة الأويغور والحصول على الغنائم والثروة الكبيرة الموجودة فيقصر السلطان في قارا بالغاسون. وعليه توجه إلى «قارا بالغاسون» على رأس جيش من فرسان يضم مائه ألف مقاتل بقيادة «أبا».

واستناداً للمعلومات التي جاءت في القسم المتعلق بالقيروغيز من «حولية طانغ القديمة»، نجد أنه قيروغيز «يني ساي» كانوا أقارب

الأويغور، فلغتهم وهيئتهم الجسمانية تشبه الأويغور. فقد كانت بشرتهم بيضاء، وعيونهم زرقاء وشعرهم أشقر. وظل القييرغيز تحت حكم «الهون» و«الكوك ترك»، و«الأويغور» لفترة ليست بقصيرة. وكان القييرغيز قد انضموا بشكل عام إلى الأويغور في عهد سلطنة أويغور الأورخون، ولكنهم كانوا يعلنون عصيانهم كثيراً، وفي النهاية استطاعوا الحصول على استقلالهم عام ٨٣٩م من خلال حركة تمرد كبيرة.

وفي عام ٨٤٠م تمكن جيش فرسان القييرغيز المكون من مائة ألف مقاتل بقيادة «آيا» أن يستولى على «قارا بالغاسون» عاصمة سلطان الأويغور. وقام القييرغيز بقتل سلطان الأويغور «كيچيك تكين» وقتلوا أيضاً «قره بولوك». ونهبوا كل ما في خزانة السلطنة من ثروات وأضرموا النيران في قصر السلطان حتى صار رماداً تذرّوه الرياح. وكانت الحروب الداخلية، وتفشي الأمراض والأوبئة، ونزول الكوارث الطبيعية بسلطنة الأويغور، فضلاً عن سيطرة القييرغيز عليها، سبباً في انهيار تلك السلطنة التي حافظت على بقائها زهاء قرنين من الزمان، وتركت بصمة واضحة وهامة للغاية في التاريخ وخاصة في تاريخ آسيا. فلم تكن سلطنة الأويغور في وضع يمكنها من التصدي للقييرغيز، وبعد هذه المحنة هاجر قسم كبير من أويغور الشرق إلى الغرب، إلى السفوح الشمالية والجنوبية لجبال «طانري»، والقسم الآخر هاجر إلى مناطق «هو - بي» و«شان - سي» شمالي الصين.

وهكذا لم يحقق «كولوك باغا» رغبته في أن يصير سلطاناً للأويغور.

### عاقبة الأويغور الفارين نحو الجنوب

وجد في أجزاء حولية «طانغ» القديمة تحت عنوان «أخبار خاصة بالأويغور» و«معلومات متعلقة بـ «لي تي - يو»، معلومات مهمة عن الأويغور الذين فروا إلى الجنوب. ففي عام ٨٤٠م بعد انهيار سلطنة الأويغور، فرّ جزء كبير من أويغور الشرق بزعامة «بان تكين» نحو الغرب. وسوف نتطرق فيما بعد إلى خط السير الذي سلكه هؤلاء والمناطق

التي استقروا فيها، والأدوار التي لعبوها في التاريخ.

في أغسطس عام ٨٤٠م جاءت طليعة الأويغور الذين فروا إلى الجنوب تحت قيادة «هورموزد تكين» إلى منطقة «طاتونج» داخل مغولستان حالياً. واقترب جزء كبير منهم في ربيع عام ٨٤١م من الأطراف الشمالية لولايتي «هو - بي» و«شان - سي» الصينيتين. وكان زعيم الأويغور الذين هربوا تجاه الجنوب آنذاك هو السلطان «أوجه» من قبيلة آديز. فقد تم اختيار «أوجه تكين» سلطاناً بعد سقوط «قارا بالغاسون». وكان «أوجه تكين» ينوي إنقاذ الأويغور من هذه المحن والمصائب وتأسيس السلطنة مرة أخرى، ولهذا كان يفكر في طلب المساعدة من إمبراطورية طانغ. فاصطحب معه في طريقه نحو الجنوب ١١ أميراً، و ٨ طارخان (المسئول عن الشؤون الداخلية والخارجية للبلاد) وسيدتين (إحدهما زوجته والأخرى أخته) و ١٠ جنرالات و ١٣ قبيلة كانوا يعيشون بالقرب من «قارا - بالغاسون». وأرسل «أوجه تكين» وفداً دبلوماسياً برئاسة رئيس الوزراء الذي في مقام «حاكم الولاية» إلى «جانغ - آن» عاصمة إمبراطورية «طانغ»، وطلبوا المساعدات المادية والعسكرية لإعادة تأسيس السلطنة. ووافق إمبراطور «طانغ» على تقديم المساعدات الغذائية بقدر كاف إلى الأويغور، وذلك بناءً على توصية «لي تي - يو» أحد مستشاري الإمبراطور، وأوضح أنه بهذا يؤدي ديناً تاريخياً في عنقه، وعاد الوفد الأويغوري الذي رأسه رئيس الوزراء من «جانغ - آن» يائساً. وعاش الأويغور أياماً سيئة وصعبة مرة أخرى مع «أوجه تكين» الذي كان مجتهداً ونشيطاً، ولكن حالفه سوء الحظ. فقد كان «أوجه تكين» يعتقد أن إمبراطورية «طانغ» ستدعمه بقدر كبير.

لا سيما أن الأويغور جاءوا إلى الصين للمساعدة أثناء تمرد «أونلوق - صويغوم» بين أعوام (٧٥٦ - ٧٦٢م) وأنقذوا إمبراطور «طانغ». في حين أن إمبراطورية «الطانغ» رفضت مساعدة «أوجه تكين» الذي أنهى الأمر. والخلاصة نجدتها في المثل القائل: «نزل الثلج على الجبال التي رجوها».

لم يكن عدد الأويغور الفارين نحو الجنوب مع «أوجه تكين» يقل عن ٣٠٠ ألف شخص. وكانت تلبية احتياجات هذا العدد، وتوفير المأكل والملبس والمسكن لهم تمثل مشكلة بحد ذاتها. وفي شهر ديسمبر من عام ٨٤١م أرسلت إمبراطورية طانغ كمية كبيرة من القمح للأويغور كدين يُسدد في صورة خيول فيما بعد. غير أن في تلك الأيام كان دين إمبراطورية «طانغ» إلى الأويغور لا يستهان به.

وكانت الظروف التي يمر بها الأويغور الذين اتجهوا إلى الجنوب مع «أوجه تكين» صعبة للغاية، زاد عليها أن «هورمزد تكين» أبى الخضوع لـ «أوجه تكين» وأخذ معه ثلاثة قبائل وانضم لإمبراطورية طانغ؛ وقام إمبراطور «طانغ» بمنحه هو والأمراء الأويغور الذين كانوا بصحبته أسماء تحمل لقب لي على النحو التالي.

هُورمزد تكين صار اسمه (لي سيه - تشونج)

أروجي (لي سيه - تشنج)

صاروچور (لي سيه - تشو)

آياثير (طارقان) أصبح (لي هوي - شوي)

ولم يصفح «أوجه تكين» أبداً عن هؤلاء الخونة الذين تنصلوا من وطنهم ومن شعبهم، وفي عام ٨٤٢م طلب من إمبراطور «طانغ» اعادتهم له. ولكن الإمبراطور «ووتسونج» رفض طلبه هذا. وعليه قرر السلطان «أوجه» معاقبة هؤلاء الذين لجأوا إلى أسرة طانغ بقيادة «هورموزد». كان من بين الأويغور الذين فروا إلى الجنوب «نائل چورتكين» رأس المتمردين الذي كان السبب في الخروج عن طاعة السلطان وحدث النزاع الداخلي بين الأمراء. فقام السلطان «أوجه» بمهاجمة «نائل چور» وقتله. في الوقت نفسه قام الأويغور الذين هربوا إلى الجنوب والذين كانوا يمرون بظروف صعبة، بمهاجمة جماعات اللاجئين لأسرة «طانغ». ولكن في تلك الأثناء شن القرغيز هجوماً من ناحية الشمال. وأيضاً في نفس الوقت قامت وحدات حرس حدود ولايتي «هو - بي» و«شان - سي

«التابعتين لإمبراطورية «طانغ»، بشن هجوم آخر على الأويغور. وحاول القرغيز أثناء هجومهم في عام ٨٢١م اختطاف الأميرة الصينية «طاي - كو» وإعادتها إلى «جانغ - آن» لكن «أوجه تكين» تمكن من تخليصها؛ وظلت معه بعد هذا الحادث، ولا ندري هل بقيت معه برغبتها أم كان ذلك مجرد إرضاء له. وفي عام ٨٤٣م قام القائد الصيني «شيه - صوي» أثناء هجومه على «أوجه تكين» بخطف «طاي - كو» واستعادتها. وعندما قُتل «أوجه تكين» في عام ٨٤٦م على يد «ماين» أحد وزرائه، تولى العرش شقيقه الصغير «إينان تكين». لكن مصيره صار في مهب الريح، لذلك ذهب إلى «آل شيراي» [شيه - وي] المنقادين لسلطنة أويغور سابقا، ولكن «آل شيراي» اعتقلوه وأرادوا تسليمه إلى أعدائه. في تلك الأثناء كان قد بقي على قيد الحياة حوالي خمسمائة شخص فقط من مجموع الـ ٣٠٠ ألف أويغوري الذين فروا تجاه الجنوب، وذلك بسبب الصراعات الداخلية وهجوم العدو عليهم من الشمال والجنوب وأيضا بسبب المجاعة. وانضم قسم من الأويغور الفارين نحو الجنوب (حوالي ألف شخص) إلى إمبراطورية طانغ، ومجموعة أخرى وقعت في أسر القرغيز. وفي ظل هذه الظروف الصعبة، لجأ «إينان تكين» إلى أسرة «شيراي» الحاكمة. ولكنه عندما علم بنوايا «آل شيراي» السيئة هرب إلى الغرب هو وزوجته «قارلو» وابنه «دوست تكين» وتسعة من أصدقاء السلاح. ولا توجد في المصادر التاريخية أي معلومة توضح مصير السلطان «إينان» بعد ذلك. ولكن بعض المصادر تقول أنه توجه إلى سَمَرْقَنْد.

ولم يستطع الأويغور الذين هربوا تجاه الجنوب بزعامة السلطان «أوجه» تحقيق فكرة إعادة تأسيس السلطنة، وتفرقوا يمينا ويسارا، ولهذا سببين، السبب الأول هو أن قسما من الأويغور الذين هربوا تجاه الجنوب، خاضوا الحروب بشكل فردي وليس جماعي. ودخل قسم منهم تحت حماية إمبراطورية طانغ، فانقسمت قوة الجماعة مما أثر سلبيا على الأويغور. أما السبب الثاني: فيتمثل في رفض إمبراطور طانغ تقديم

المساعدة العسكرية للسلطان «أوجه». فلو أن الأويغور اتحدوا تلك الأيام العصيبة، ولو قامت إمبراطورية طانغ بتقديم المساعدات لهم، لتمكنوا من مهاجمة القرغيز وردعهم، ومن ثم إعادة تأسيس سلطنتهم، ولم ينقسموا إلى شعوب شتى.

وعندما نأتي للحديث عن الأويغور الفارين نحو الغرب بقيادة «بان تكين» نجد أنهم لم يحاولوا القضاء على بعضهم البعض، بل سعوا إلى توحيد صفوفهم ما أمكن، وبدأوا يحلمون معا بإعادة تأسيس سلطنة الأويغور.

ولذا بعد أن ذهب قسم منهم إلى «بش باليق» و«كوچار» اتحدوا مع ذويهم من القبائل الموجودة هناك، أما الذين ذهبوا إلى «قانسو» فقد أسسوا إمارة «قانسو الأويغورية» (٨٧٠ - ١١٢٥م)؛ وأسست المجموعة الثالثة إمارة «إيديقوت» الأويغورية. وبادرت قبيلة «ياغما» التي تُعد أشد القبائل الأويغورية بأسا بعد أن هاجرت إلى الغرب بإقامة الدولة «القراخانية» الأيغورية.

## الفصل الثامن : الاقتصاد والثقافة في عهد سلطنة الأويغور

### البنية الاجتماعية ومؤسسات الدولة

يقول بعض المؤرخين إن سلطنة أورخون الأويغورية استمرت مائة عام (٧٤٤ - ٨٤٥م)، بينما يقول البعض الآخر إنها استمرت مائتي عام (٦٤٦ - ٨٤٥م). ويُذكر في الكتابة المحفورة على النصب التذكاري لسلطان الأويغور «بايانچور» ما يلي: «لقد حكمنا شعوب الأويغور العشرة وشعوب الأوغوز التسعة الذين استمروا أكثر من مائة عام». وتقول كتابة «بايانچور» التي كُتبت عام ٧٥٧م إن سلطنة الأويغور قد تأسست عام ٦٤٦م. واستنادا إلى ما ورد في الجزء الذي يتضمن معلومات عن الأويغور في «حولية طانغ القديمة» نجد أن سلطنة الأويغور تأسست سنة ٦٤٦م، وكان «توميد أولوغ إلتبر» هو سلطان الدولة في تلك الأثناء. وإذا سلمنا بصحة هذه المعلومات التاريخية، فيمكن القول أن سلطنة أورخون الأويغورية استمر وجودها ٢٠٠ عام.

وليست هناك أي معلومة بشأن تحول أويغور الشرق من البنية القبلية إلى نظام يعتمد على العبودية. ولقد مرّ الشعب الأويغوري كبقية الشعوب التركية الأخرى بمرحلة الإقطاع في مرحلة مبكرة نسبيا. ويقول بعض رجال العلم إن دولة الهون قبل الميلاد أسست بنية مجتمع أبوي وعاشت في ظل مجتمع شبه إقطاعي. وعندما نأتي للحديث عن الأتراك، نجد أنهم كانوا في القرن الرابع لايزالون في بداية المرحلة الإقطاعية، أما أويغور الشرق الذين حلوا محلهم في عام ٧٤٤م فقد كان نظامهم الإقطاعي قد بلغ مرحلة النضج.

واعتباراً من بداية القرن السابع كان لدى أويغور الشرق نظام السلطنة وفيه ينتقل الحكم من الأب إلى الابن. ويدل هذا على التطور الإثني - السياسي عند الأويغور. إن اتخاذ الشعب لنفسه اسم «أويغور» في أول الأمر يُعد أحد أهم خصائص الوحدة العرقية والسياسية. وليس موضوعنا هنا الحديث عن أنواع التحالف لدى الأويغور الذين كانوا في حالة فيدرالية قبلية واتحاد عشائري في مرحلة مبكرة من تاريخهم. غير أن الإئتلافات الجديدة توضح أنه قد بدأ التشكيل الإثني، فظهرت نتيجة لهذا مؤسسة «السلطنة» التي ارتضى بها كل فرد عرف نفسه باسم الأويغور. ومن هنا يمكن القول إن مفهوم «الشعب» حل محل اتحاد القبيلة أو العشيرة. وإذا نظرنا لهذا الأمر من ناحية التطور المجتمعي يمكن القول إن وحدة العشيرة قد تخلت عن مكانها للنظام الإقطاعي<sup>٨٩</sup>.

واعتباراً من القرن الخامس نجد أن قبيلة الأويغور التي لعبت دوراً رئيساً في فيدرالية القبائل التي شكلتها قبائل تورا الشرقيون، قد صارت في أواسط القرن السابع اسماً مشتركاً لجميع قبائل تورا الشرقية. وكانت القبائل المتقاربة خاصة من الناحية العرقية هي القبائل التي تسمت بـ «الأويغور العشرة» أو «الأوغوز التسعة»، والتي احتلت مكاناً في الفيدرالية الإثنية السياسية في عام ٧٤٠م. ولهذا السبب اتحدوا، وعلى الفور وبشكل سريع ارتضوا اسم «الأويغور».

وفي هذه الفترة كانت البنية الإقطاعية عند الأويغور تتكون من مجموعتين أو طبقتين وهما طبقة النبلاء وطبقة المواطنين العاديين. وكانت طبقة المواطنين تعمل على توفير وتلبية احتياجات الأمراء من المواد الغذائية والحاجات المنزلية، فضلاً عن أدائهم للخدمة العسكرية، ويقومون بتجهيز المعدات الحربية كالسيف والرُمح والترس وغيرها من أدوات الحرب، كما يجهزون أيضاً خيول الحرب. وكان الأمراء يحصلون على الجزء الأكبر من غنائم الحرب. فالأمراء في نظر السلطان متميزين، ويعدون حكام الشعب. والفتيات اللاتي يتم جلبهن من الصين يقمن بجميع الأعمال المنزلية لدى أمراء الأويغور. وكان السلطان هو الحاكم



الأعلى. وبرغم وجود نظام «الديمقراطية العسكرية» في دولة أورخون الأويغورية كما هو الحال عند دولة الهون والكوك تورك، لم يكن السلطان يتم انتخابه من طرف مجلس النواب. وكان السلطان يُعين في حياته ولياً للعهد، ولذلك لم يكن هناك صراع على العرش بعد وفاته. والترتيب الإداري لحكام الدولة في السلطنة الأويغورية على النحو التالي:

السلطان

السلطانة

الوزير الأعظم

الطرخانات (الوزراء) التسعة (ثلاثة منهم مسئولين عن الشؤون الداخلية، وستة مسئولين عن الشؤون الخارجية)

اليانغون (يانغونتار) (وهم موظفون يهتمون بأحوال الشعب وهمومه)

تكين (أمير)

طوطوق

طودون (الوالي العام)

أركين

باش سانغون (المستشار العسكري)

بويروق (الوزير المسئول عن القضاء)

المچور

إيلتابر

السانغون: الجنرال

كانت زوجة السلطان وتسمى «خاتون» بمعنى السلطانة، صاحبة الكلمة في الدولة بعد السلطان. ولعبت السلطانات أدواراً مهمة، وأحياناً كثيرة كان لهن القول الفصل في إدارة أمور الدولة. وهذا تقليد شائع عند الأويغور منذ القدم، ومحتمل أن يكون السبب هو الإحساس

بالاحترام التقليدي تجاه الأمهات. ولم تتدخل السلطانات في الشؤون العسكرية، ولكنهن يشاركن في الحروب في أحيان كثيرة. على سبيل المثال عندما جاء سلطان الأويغور «بوغا» إلى الصين لإخماد تمرد أونلوق في عام ٧٦٢م، رافقته زوجته «بيلكه خاتون». واشتركت «بيلكه خاتون» في المعارك ضد المتمردين وأظهرت بطولة في التصدي لهم. وكان «أبا طرخان» أي «حاكم المدينة» يُدير الشؤون الداخلية والخارجية لسلطنة الأويغور. ويشارك حاكم المدينة في الحروب ضد الأعداء إذا تطلب الأمر ذلك. وكان يعمل تحت إمراته «الطرخان» أو الوزراء التسعة الذين يديرون الشؤون الداخلية والخارجية للبلاد. ويتولى ستة وزراء من أولئك التسعة الأمور الخارجية، وهذا مؤشر على مدى اهتمام سلطنة الأويغور بالدبلوماسية. ويتولى المُلقبون بـ«طوطوق» و«طودون» الأمور الهامة التي يكلفهم بها الوزير. فالطوطوق معنيين بالمسائل العسكرية بصفة عامة، أما الطودون فيعنون أكثر بإدارة أمور شعب السلطنة. مثلاً «الكيدانيون» الذين عاشوا في الأجزاء الشرقية للسلطنة (في الولايات الموجودة في شمال شرق الصين حالياً)، كان يتولى إدارة شؤون قبائل «شيه - وي» الوالي العام الأويغوري (طودون). وكان «البويروق» هم المضطلعون بالشؤون القانونية، أما السانغون أي الجنرالات فهم أبناء السلطان وكانوا يُلقبون بـ«تكين». وبصفة عامة كان هؤلاء التكين هم ورثة العرش.

### ◀ الاقتصاد

كان الأويغور في الجزء الشرقي من السلطنة (منغوليا الحالية ومنغوليا الداخلية) يشتغلون أساساً بالرعي، في حين كانوا في الجزء الغربي من البلاد (وسط آسيا) يشتغلون أكثر بالزراعة. وكانت الجبال الواقعة في الجزء الشرقي للسلطنة مثل جبال (هنغان، وخانجاي، وچوغاي، الطاي الشرقية)، والمراعي والسهول الجذبة بل والصحراء، كانت جميعها صالحة للرعي وتربية الماشية. وكان الأويغور بصفة عامة يُربون الخيول والأبقار

والإبل والماشية. وكان للخيل دور مهم في أوقات الحروب وأيضاً في الانتقالات. ولذلك نلاحظ وجود مراعى صالحة لتربية ملايين الجياد. وكُنّا قد بيّنا فيما تقدم كيف أن الأويغور قاموا ببيع الخيول لإمبراطورية طانغ مقابل حصولهم على الحرير والقماش. وهذا يعني أن الخيول الأويغورية احتلت مكانة رئيسية في عملية التجارة.

أما حرفة الرعى فقد احتلت مكانة مهمة في الجزء الغربي للسلطنة وخاصة في وادي تاريم، وأيضاً في جبال طانري الواقعة في الشمال (جونغاريا حالياً). وازدهرت الزراعة في وادي تاريم، فكان يُزرع فيه الأرز والقمح والشعير والذرة والحمص والقطن. كما كان لزراعة العنب بصفة خاصة أهمية كبيرة في هذا الوادي. وكانت توجد في ذلك الوقت الكثير جداً من البساتين المليئة بأشجار الفاكهة متنوعة الثمار، إذ كانت تحوي على ما لا يقل عن عشرين نوعاً. لعل أبرزها الفستق والرمان واللوز والخوخ والتين والعنب. كما كان يُزرع في هذا الوادي أيضاً محاصيل مثل القطن والقنب والكتان والسّمسم والخردل.

وازهت الزراعة أيضاً في الجزء الشرقي للسلطنة. وكانت تربية الحيوان هي الحرفة الأساسية لأويغور الشرق، أما الزراعة فنجدتها في الأودية التي ترويتها أنهار «سلانجا» و«أورخون» و«طولا» و«كورولن». قام علماء الآثار الروس بعدة أبحاث في قارا بالغاسون عاصمة الدولة الأويغورية وفي مدن أخرى، فوجدوا أنهم كانت لديهم طواحين يدوية مصنوعة من الحجر، ووحدات أوزان يستخدمونها في وزن الدقيق. وكشفوا أيضاً عن وجود قنوات ري في أطراف «قارا بالغاسون» وعن آثار جداول الماء القديمة.

«وقد أدى استخدام قنوات الري، إلى استقرار قسم كبير من الأويغور الرّحل، وإنشاء القرى والمدن. وفي وتيرة التحول إلى نظام الاستقرار الذي ساد القرى والمدن، حلت علاقة المدينة محل العلاقات القائمة على صلة القرابة.»<sup>١٠</sup>

وبدأ جزء من أوغور الشرق الذين تحولوا إلى حياة الاستقرار يشتغلون بالزراعة والصناعة اليدوية والتجارة. واحتياجات الطلب الداخلي والتجارة الخارجية أدى إلى تطور الصناعة اليدوية. وشعر سلاطين أوغور باحتياجهم إلى الحديد من أجل تجهيز جيش فرسان قوامه مائة ألف فارس. واكتشف علماء الآثار الروس في خرائب «قارا بالغاسون» مناضد حدادة وآلات معدنية وأشياء معدنية في أشكال مختلفة. ويلاحظ أن «وادي تاريم» كان أكثر إنتاجاً للحبوب في عهد الهون، كما كان لديهم في جبال «ألطاي» و«طانري» الأفران الحديدية وكانوا يشكلون معدن الذهب. أما في عصر سلطنة أوغور فقاموا باستخراج الحديد وصهره، وحظيت صناعة الأسلحة والآلات الزراعية ولوازم المنزل مكانة هامة.

وفي المناطق الغربية للسلطنة ازدهرت صناعة السجاد وصناعة الحرير (خاصة في مدينة خوتن)، وازدهرت صناعة أدوات الزينة وصناعة النسيج القطني والحرير في مدن «كاشغر وياركند وكوچاروخوتن وطورفان». واحتلت التجارة موقعا مهما في الحياة الاقتصادية للسلطنة. وكنا قد بينا سابقا عملية تبادل الحرير والخيل بين سلطنة أوغور والصين. وفيما يلي سنتوقف مرة أخرى عند التجارة الخارجية في السلطنة.

كان تجار أوغور ماهرين إلى حد كبير في التجارة بين سلطنة أوغور وإمبراطورية طانغ. فكان لتجار أوغور متاجر في المدن الصينية الكبيرة مثل (جانغ - آن، ولو - يانغ، وطا - طونج، وها - يانج، وتشين - يان، ويان - تشو)، ويمكننا القول إن تجار أوغور كانوا متواجدين في كل مدن الصين تقريبا.

وكانوا يعدون بالمئات وربما بالآلاف. وفي المقابل نجد تجار الصين يزاولون نشاطهم التجاري داخل حدود سلطنة أوغور. وكانت لسلطنة أوغور سفارة في الصين، كما كانت للصين سفارة في سلطنة أوغور. وكانت مهمة السفارة تنظيم العلاقات التجارية بين الدولتين.

كان أوغور يقدمون الخيول للصين، ويأخذون منها الحرير والشاي،

ويقومون بتصديره إلى طهران ودلهي والقاهرة والشام والقسطنطينية؛  
ويبيعونه بأرباح عالية ويحققون أرباحاً طائلة. وكان الأويغور يستبدلون  
بالحرير والقماش والسجاد وغيرها من المواد المتنوعة التي يصدرونها  
إلى بلاد آسيا وأوروبا الذهب والمواد الأخرى التي يحتاجونها في  
حياتهم اليومية (واللؤلؤ والماس والعاج والمرايا والمصنوعات الزجاجية  
وغيرها).

### ◀ الثقافة

بلغت ثقافة الشعب الأويغوري في عهد سلطنة أورخون الأيغورية  
مستوى رفيعاً نسبياً. وفي عهد إمبراطورية الصين (٣٨٦ - ٥٨١م) المعروفة  
باسم سلالة الشمال، تم تدوين موسيقي للأغاني الشعبية التي كان لها  
مكانتها في تلك الفترة، كما احتلت ترجمات أغاني أويغور الشرق مكانها  
بين هذه التدوينات. والحقيقة أنه برغم وجود أغاني كثيرة لأويغور  
الشرق في هذا العهد، لم يبق منها إلى يومنا هذا سوى القليل بسبب  
عدم تدوين الكثير منها.

وتم حفظ بعض تلك الأغاني في الأثر المسمى «نماذج من الشعر  
الموسيقي لأسرة الشمال».

وبقيت حزينا

امتلاً قلبي بالغم وبقيت حزينا

إذا ارتبكت في سيرك، فكأنما سوط حصان يلهبني

أنا فوق جدران القلعة قريب منك أناصرك

بشجاعتني ومعصمك نحارب سوياً من أجل «تورا»

ومن بين الأغاني المدونة في هذا الأثر، أغنية تكشف أن نساء  
الأويغور كانت لديهن منذ القدم شجاعة وإقدام، وكن يحاربن في جميع  
المعارك ضد الأعداء مع الرجال جنباً إلى جنب.

## ◀ منظومة بك قولو

نجد في نفس الأثر المذكور أنفا أن أوغور الشرق كتبوا في بداية القرن الخامس أغنية عن أحد الأمراء الأبطال ويسمى «بك قولو». وكان «بك قولو» زعيم أوغور الشرق، أميرا من خوغورسو، وهي إحدى قبائل الأوغور. ففي عام ٤٠٢ انهزم «طولون الأول» أمير «الأوار» على يد «طو - باكوي» حاكم دولة «طوبا» فهرب «طولون» إلى الأطراف الشمالية لصحراء مغولستان وهاجم الأوغور، فهزم «بك قولو» الأوار. لكنه انهزم بعد ذلك في الحرب التي دخلها ضد «طولون» ولجأ إلى حكومة «طوبا»، وفي النهاية مات هناك ودُفن بمراسم رسمية أمر بها «طوباكوي». وهكذا كتب أوغور الشرق أغنية لإحياء ذكرى هذا الأمير، تقول الأغنية:

عندما تقول الأم أن بك قولو قادم  
يكف الطفل عن بكائه بسرعة

وعندما يغني الفتیان والفتيات أثناء قطف المحصول يقولون

ياليتني شجاع مثل «بك قولو»

ثمة عادة لدى الأوغور منذ القدم وهي إبداء الاحترام لمن يتصف بالشجاعة والإقدام. وهذا ليس بالشيء الجديد، وذلك لأن الشعوب جميعها منذ العصور القديمة وحتى يومنا هذا تحترم وتثق في جيوشها التي تتكون من الأبطال الذين ينقذون بلادهم من الأعداء. وكان الأوغور في العصور القديمة يحترمون وحدات الفرسان الخاصة بهم. فقد كانت تلك الوحدات تهجم على جيش العدو الكبير الذي قد يكون خمسة أو عشرة أضعافهم ويهزمونه. كما أن الجيش الأوغوري الذي أرسل لمساعدة إمبراطور طانغ على إخمد عصيان «أونلوق وصويفوم» فيما بين أعوام

٧٥٦ - ٧٦٢م لم يتجاوز خمسين ألف مقاتل.

في العصور القديمة عندما كانت الفتاة الأويغورية تنتقي زوجاً كانت تعطي أهمية لبطولته، وكان هذا ناجماً عن عادة تتعلق بروح المحارب وحب الوطن المتأصلة فيهم.

### ◀ منظومة تورا

في القرن السادس قام واحد من أويغور الشرق يُدعى «خوغورسور ألتون» (٤٨٧ - ٥٨٧م) بكتابة منظومة أطلق عليها اسم «أغنية تورا»، تقول الأغنية:

يشق نهر الطورين  
صدر جبال چوغاي متموجاً  
تقف تلك الهضبة كخيمة  
يغطيها جبين السماء  
سما صافية، شديدة الزرقة  
وهضاب لامتناهية، لا يبدو لها حدود  
وتظهر للعيان أحياناً مثل أشياء مكدسة  
وتحني الأعشاب رؤوسها عند هبوب الرياح

في منظومة «تورا» تصوير بديع ومؤثر لما تحويه الهضاب من مناظر؛ فهي تصف جبال «چوغاي» التي يكسوها العشب الأخضر والتي تتحد أطرافها مع الأفق، وتمايل الأعشاب في هضابه وتماوجها مع هبوب الرياح. فقد كان الأويغور منذ القدم يرعون الأبقار في هضاب «أوردوس» الموجودة في قلب جبال «چوغاي». وكانت المراعي الأصلية للأويغور توجد في سواحل «سلانغا» وحول أنهار «أورخون» و«طولا» و«كيرولون» التي تغذيها ويضم هذا الوادي مراعي غنية وأنهار متدفقة وغابات وهضاب فسيحة.

كتب «خوغورسور ألتون» منظومة «تورا» في العالمة السادسة، وكان ينبغي أن تُسمى هذه المنظومة باسم «منظومة الأويغور». خاصة أن «خوغورسور» كان يقصد بلفظ تورا الأويغور الشرقيين. وأوزان هو الاسم الحقيقي لـ «خوغورسور» لقب «خوغورسور» بهدف الإشارة إلى قبيلته، والاشتهار بلقب أسرته. وتقول بعض المعلومات التاريخية إن «خوغورسور» كانت إحدى قبائل الأويغور العشرة في عهد سلطنة أويغور الأورخون. واستناداً إلى هذه المعلومات التي وردت في تاريخ أسرة «جي الشمالية» والتي تتناول «خوغورسور ألتون» بالبحث، يمكننا القول إن «أوزان» كان أحد أركان الدولة. وقد كتب «خوغورسور ألتون» أغنيته باللغة الأويغورية القديمة، وبالأبجدية الأورخونية كأمر طبيعي؛ وترجم شعره فيما بعد إلى اللغة الصينية.

بعد هجرة أويغور الشرق إلى الغرب في عام ٨٤٠م ظهرت ملحمة الهجرة، مستندة على الأحداث والوقائع التي حدثت في ذلك العصر الطويل، مع الأخذ في الاعتبار أن دولة أويغور أورخون استمرت قرنين من الزمان. وتقول الملحمة:

«... كان هناك مكان يُسمى «قوملانجو» في النقطة التي يلتقي فيها نهرا «طولا» و«سلانجا» النابعان من جبال «قره قورم». وكانت هناك شجرتان ملتصقتان، أحدهما اسمها فستق وتُشبه شجرة البق، أما الشجرة الأخرى فشجرة الدلب وكانت شديدة الإضرار. وكانت شجرة البق كثيفة الأغصان، أما الشجرة الثانية فكانت شجرة برية. وفي يوم من الأيام ظهر تل صغير بين هاتين الشجرتين، وأخذ يكبر يوماً بعد يوم. كان يتحرك على هذا التل ضوء يُشبه ضوء الشمعة. وجاء الأويغور أمام التل وعظّموا ذلك الضوء. وكانت تأتي أصوات من داخل التل كأنها أغنية واستمر هذا كل مساء. أما الضوء الذي فوق التل فكان يشتد تدريجياً، وأخذ يُضيء مسافة ثلاثين خطوة وذات يوم فتح باب أعلى هذا التل. وخلف هذا الباب، كانت خمس غرف مثل غرف البيت. وفي كل غرفة عرش من فضة ويعتلي تلك العروش أطفال صغار. وفي



فم كل طفل قارورة يرضع منها اللبن. وعندما شاهد أمراء الأويغور هؤلاء الأطفال اقتربوا منهم وقاموا بتعظيمهم. وبمجرد أن استنشق هؤلاء الأطفال الهواء اشتد ساعدهم وخرجوا من الغرف. واستدعى الأويغور النساء اللاتي قمن بإرضاعهم. وعندما تكلم هؤلاء الأطفال سألوا عن أجدادهم. فأشار الأويغور إلى هاتين الشجرتين.

نظر الأطفال الخمسة إلى الأشجار وعظموها، ونطقت الأشجار وتكلمت كالإنسان ونصحتهم بأن يكونوا على خلق وتمنت لهم العمر المديد. وأبدى الأويغور الاحترام لهؤلاء الأطفال، واعتبروهم مثل الحكام. وأطلقوا على أكبرهم اسم «شونقار تكين» والثاني «كولچورتكين» والثالث «بوقا تكين» والرابع «أور تكين» والخامس «بوغو تكين». وقرر الأويغور أن يختاروا أحد هؤلاء الأطفال السماويين ليكون سلطاناً عليهم. وكان «بوغو تكين» طفلاً وسيماً، ذكياً، بارعاً، ويعرف لغات عديدة، لذلك اختاره الأويغور ليكون سلطاناً عليهم. وبعد أن أصبح «بوغو تكين» سلطاناً عليهم، نهض بالبلاد من جديد؛ وازداد عدد الشعب بشكل سريع. وأهدى الله لـ«بوغو تكين» ثلاثة طيور، وكانت تلك الطيور تعرف لغات عديدة. فكان «بوغو تكين» يرسلهم دوماً إلى جميع أنحاء العالم، فتأتى له بالأخبار ومعلومات عما وقع في العالم.

وذات ليلة، بينما كان «السلطان بوغو» على وشك أن ينام في مرقدته تمثلت أمامه روح على شكل فتاة. فأوجس في نفسه خيفة وتظاهر بأنه نائم، ولم يستطع أن يتفوه بكلمة. وفي الليلة التي تلتها حدث نفس الشيء معه. وفي اليوم الثالث قص السلطان «بوغو» هذه الواقعة على رئيس وزرائه، وقال أن حورية قادته إلى داخل جبل يُسمى قوتتاغ «قوتلو داغ»، وظل معها حتى بزوغ الفجر. وبعد ذلك تكرر نفس هذا الأمر كل ليلة لمدة سبع سنوات وستة أشهر، واثنين وعشرين يوماً.

وأثناء حديث السلطان «بوغو» مع الحورية قالت له: «سيخضع لك جميع الناس من حيث تشرق الشمس إلى مغربها. وعندئذ احكم الشعب بالعدل». واختفت الحورية بعد أن انتهت من حديثها. فجمع

السلطان «بوغو» جيشه، وعين أخاه الأكبر «شونقار تكين» على رأس جيش قوامه ثلاثمائة ألف جندي، وأرسله إلى المناطق التي يعيش فيها المغول والقرغيز. كما أمد أخاه الثاني «كولچورتكين» بجيش قوامه مائة ألف مقاتل، وأرسله لملاقاة «الطانغوت». وأرسل أخيه الثالث، «بوقا تكين» إلى الصين بجيش يتكون من مائة ألف مقاتل. أما أخوه الرابع «أوارتكين» فتركه بجواره لكي يحمي أراضيهم. وفتحت هذه الجيوش التي أرسلها بلدانا كثيرة، ثم عادت إلى ساحل «أورخون» ومعها الكثير من الأسرى والغنائم. وقامت تلك الجيوش بتأسيس مدينة «أوردو باليق» في الأماكن التي فتحوها. وهكذا خضعت جميع بلدان الشرق للسلطان. وذات ليلة رأى السلطان «بوغو» رؤية غريبة في منامه. إذ رأى إنه يرتدي ملابس بيضاء، وتقدم نحوه ملاك يحمل في يده عصا بيضاء أعطاه له قطعه من الماس، وقال له: «إذا حافظت على هذا الحجر الكريم، سيتيسر لك فتح العالم كله». ورأى رئيس وزراءه نفس هذه الرؤية. وعليه نظم السلطان «بوغو» جيشه وأرسله نحو الغرب. وذهب هذا الجيش حتى تركستان؛ وشاهد هناك أنهاراً غزيرة ومراع غنية بالعشب. فتركوا قطعانهم ترعى فيها وأسسوا مدينة بالاساغون. ثم تفرقوا بعد ذلك جماعات وتوجهوا إلى جهات مختلفة. وفي خلال عشرين عاماً فتحوا بلداناً كثيرة حتى ذهبوا إلى الأراضي التي يعيش فيها أناس بدائيون. وجاء كثير من ملوك الدول لرؤية السلطان «بوغو» وأحضروا معهم الهدايا وأبدوا احترامهم له... فصرفهم السلطان «بوغو» إلى دولهم، وعاد من «بالاساغون» إلى مسقط رأسه بعد أن حقق انتصارات عظيمة.

وبعد وفاة السلطان بوغو تولى العرش أحد ابنائه... وعاصر الأويغور في تلك الأيام أحداثاً عجيبة. وكان الجميع في هذا الوقت وحتى الأطفال والحيوانات أيضاً سواء البرية أو المستأنسة يسمعون صوتاً يردد «الهجرة.. الهجرة..». ولذلك هاجر الأويغور من أراضيهم، ولكنهم أينما حلوا كانوا يسمعون نفس الأصوات. وفي النهاية حلوا في أحد الأماكن فانقطعت الأصوات التي تردد «الهجرة.. الهجرة». وعليه شيد الأويغور في ذلك

المكان خمس قلاع، وأطلقوا عليه اسم «بشباليق».

ويتحدث المؤرخ الفارسي الجويني الذي عاش في القرن الثاني عشر، عن ملحمة هجرة الأويغور في مؤلفه «تاريخ جهانكشاي».

تتضمن الملحمة وقائع رائعة، وكان السلطان «بوغو» هو بطل الملحمة والشخصية الأسطورية. وتناولت هذه الملحمة القصيرة تاريخ أويغور الشرق بشكل أدبي.

وتستند ملحمة الهجرة في «قسم الأويغور» في «طانغ - شو» على وقائع تاريخية حقيقية. فبطل الملحمة السلطان «بوغو» كان أحد سلاطين سلطنة أويغور الأورخون، وهو من أبناء السلطان «بايانچور». واسمه الحقيقي «إلتكين» وخلال حكمه الذي استمر في الفترة ما بين أعوام ٧٥٩ - ٧٧٩م، كان يُعرف بلقب «آي تنكري قوت بولمش، ألتوتمش ألب قولوك بيلكه قاغان» [وتعني إله القمر، وصاحب السعادة، والحاكم ألب بيلكه قاغان].

ويتضح في الملحمة أن السلطان «بوغو» مكث مع الحورية سبع سنوات وستة أشهر وأثنين وعشرين يوماً، و «إنه بعد أن أقام مدينة بالاساغون، فتح بلدانا كثيرة خلال عشرين عاماً...». وإذا قمنا بحساب السنوات المذكورة في الملحمة، يكون الحاصل هو الرقم عشرون.

وكان السلطان بوغو هو أحد السلاطين الأقوياء، عاش في الفترة (٧٤٥ - ٨٢٠م) في عهد صعود سلطنة أويغور الأورخون، وقد ظل في الحكم عشرين عاماً. وتوضح الملحمة أيضاً أنه كان أصغر خمسة أبناء، وتورد أسماء كل واحد منهم، والحروب التي قاموا بها. كما تذكر الملحمة أسماء أبناء السلطان «بايانچور» المذكورة في حولية أسرة «طانغ» المتعلقة بالتسلسل التاريخي للأحداث إذ تقول: «... كان لبايانچور خمسة أبناء...» وهم: «يابغو تكين» و «كولجور تكين» و «ألب كولوك» طوطوق ياغلاقار تكين و «طون باغا» (تقول بعض المصادر إنه عم السلطان بوغو) و «بوغو تكين».

وإذا قارنا بين حروب هؤلاء الابناء الخمسة والوقائع التاريخية التي ذكرت في «حولية أسرة طانغ»، نجد أن الوقائع المذكورة في «ملحمة الهجرة» أحداثاً واقعية.

وكما بينا من قبل أن الأويغور أرسلوا إلى الصين جيشاً يضم أكثر من ألف جندي لمساعدة أسرة طانغ إثر عصيان «أونلوق» الذي اندلع هناك بين الأعوام ٧٥٦ - ٧٦٢م. وبموجب المعاهدة الموقعة بين حكام الصين وسلطان الأويغور دخل «يابغو تكين» ابن «بايانچور» الصين بجيشه، أما في عام ٧٦١م فقد جاء السلطان بوغو إلى الصين على رأس جيشه واستطاع قمع عصيان «أونلوق» و«صويغوم» الذي استمر عدة سنوات. وحقق «ألب تكين» الابن الآخر للسلطان «بوغو» نصراً ساحقاً على جيش التبتيين (الطانغوتيين في الملحمة) وقوامه مائة ألف جندي. والذي كان يُهدد أسرة «طانغ» من ناحية الغرب في المنطقة التي تسمى اليوم «نينغ - شيا». وفي عهد السلطان بوغو خضع القرغيز الذين كانوا يعيشون بجوار «ينيساي». وإذا كانت المصادر الموثوقة تقول أن بلاد القرغيز تم فتحها عام ٧٥٨م، فمن المؤكد على أية حال أنه تم إخضاعها في عهد «بوغو تكين».

وثمة احتمال كبير أن «شونقارتكين» الذي ورد اسمه في الملحمة هو «يابغو تكين» و«كولچور تكين» هو «كولچور تكين» و«بوغا تكين» هو «طون باغا» و«أورتكين» هو «ياغلاقارتكين».

تروي الملحمة أن السلطان «بوغو» شن حرباً في آسيا الوسطى وأسس مدينة «بالاساغون». وإذا كانت لا تتوفر معلومات مؤكدة بشأن تأسيس السلطان «بوغو» لمدينة بالاساغون الموجودة حالياً في «وادي چو» داخل حدود قيرغيزستان لكننا نعرف بالتأكيد أن سلطان دولة أويغور الأورخون، «أي تنكري - خان» شن حرباً في آسيا الوسطى في عام ٨١٥م وأنه أخضع «آل قارلوق» و«آل توركيش» في «يدي صو» الذين كانوا في حالة عصيان.

وفي «كتابات سلطان الأويغور التسع» ما يشير إلى هذا. ويُحتمل أن

تكون الحرب التي شنها السلطان «بوغو» في الغرب، هي نفس الحرب التي شنها السلطان «أي تنكريده كوت بولمش أل ب بيلكه» في عام ٨١٥م. وتروي الملحمة «إن الله أهدى السلطان «بوغو» ثلاثة طيور. وكانت هذه الطيور تعرف الكثير من لغات الشعوب..». رُبما يُقصد بهذه الطيور الدبلوماسيين المرسلين إلى سلطان الأويغور الذين يعرفون لغات عديدة، أو السفراء الذين يتم إرسالهم إلى جميع أرجاء العالم. وتشير الملحمة في الجزء الأخير منها إلى أن أويغور الشرق هاجروا إلى الغرب لأسباب عديدة وأنهم استقروا في الوديان التي هناك (يقصد جونغاريا)، وأسسو مدينة «بش باليق».

تُعد النقوش الحجرية في عهد سلطنة أويغور الأورخون من أعظم الإرث الثقافي لأويغور الشرق. وأسفرت الجهود المهمة التي بذلها علماء أجانب بداية من أواخر القرن ١٩ وحتى الستينيات عن اكتشاف بعض أجزاء من نقوش أويغور «الأورخون» التي شكلت أكبر جزء من الآثار الأويغورية. ومع إن عدد هذه النقوش كبير جداً، فإننا سنقف فقط عند بعض منها.

١ - النقوش عن مذكرات سلطان الأويغور التسعة، وقد تم اكتشافها بين أطلال مدينة «قارا بالغاسون» عاصمة سلطنة الأويغور التي تقع على ساحل نهر «أورخون».

٢ - واكتشف العالم الفنلندي، رامستيدت في عام ١٩٠٩م، نقوش عن مذكرات السلطان «بايان چور» بالقرب من بحيرة «شينه - أوسو» في ساحل نهر «سلانغا» في مغولستان.

٣ - اكتشف عالم الآثار الروسي بي. واي. فلاديميرتسوف أثناء قيامه بجولة في شمال غرب مغولستان، صخرة عليها نقوش أورخونية، بين الغابة وصخور جبل «خانغاي» الجرانيتية عند نهر «تاس». وهي الكتابة التي يرد ذكرها في المؤلفات باسم «نقوش صخرتاس».

٤ - في عام ١٩٥٧م اكتشف عالم الآثار المغولي «إس. دورجي

سورون» نقوش في وادي «تيرهين» (شمال غرب جبل خانغاي) بالقرب من بحيرة «چاغان نور» وأطلق على هذه النقوش التي اكتشفها اسم «نقوش تيرهين» نسبة إلى المكان التي اكتشفت عنده.

والنقوش الخاصة بمذكرات «أمير أويغور الأوغوز التسعة» السلطان «بوغو» المعروف أيضا باسم «أي تنكريده قوت بولمش ألب بيلكه قاغان، المتوفي عام ٨٢١م، تتحدث عن الأعمال التي قام بها «ألب بيلكه قاغان» الذي يعد من أعظم سلاطين الأويغور. كما تحكي النقوش بشكل كبير عن الهزيمة التي لحقت بالتبت في «بش باليق» و«كوچار» و«قارا شَهْر» وعن خروجهم من وسط آسيا (وبالتحديد من وادي تاريم وجونغاريا)، وأيضاً عن الحرب التي شنّها السلطان في آسيا الوسطى، ضد «فَرغانة» و«يدي صو» في الغرب.

ويوجد تسعة وأربعون سطرًا في «النقوش الخاصة بمذكرات السلطان بايانچور» المتوفي عام ٧٤٩م. كما يوجد في «نقوش تاس» التي نقشها «بوغو قاغان بن بايانچور» عام ٧٦١م إحياءً لذكرى والده، أربعة اتجاهات (الشمال والجنوب والشرق والغرب)، وتحتوي على اثنين وعشرين سطرًا. أما «نقوش تيرهين» فقد نقشها أيضا «بوغو قاغان» عام ٧٥٤م إحياءً لذكرى والده وتحتوي على ثلاثين سطرًا. وتشتمل هذه النقوش أيضا على بعض القوانين التي شرعتها الدولة وحدود البلاد واجراءات قمع حركات التمرد في الدولة، فهي بصفة عامة تحكي عن جميع الأحداث التي وقعت في عهد «بايانچور» وما بعده. ويمكن القول أن سبب قيام السلطان «بوغو» بنقش كتابات «تاس» و«تيرهين» بنفسه، ليس لأنه رجل دولة عظيمة وقائدها فحسب، بل لأنه كان في الوقت ذاته كاتبًا بارعا مؤهلا، مثل الكاتب «يوليغ تكين».

إن نقوش «مينغو» التي تعود لعهد سلطنة أويغور الأورخون هي نقوش مكتوبة بالحروف الذهبية التي ابتكرها الأويغور في العصور القديمة، وتحظى بأهمية علمية كبيرة. إذ أن هذه الأحجار تمدنا بمعلومات مهمة عن تاريخ سلطنة الأويغور وأدابها وبنية الدولة. وهذه النقوش سُطرت

بأبجدية «يني ساي الأورخونية» التي تُشبه نقوش «الكوك تورك» تماماً. كانت الموسيقى والرقص عند الأويغور في مستوى متقدم الى حد كبير. وقد انتشرت في الجزء الشرقي للسلطنة الموسيقى السائدة في الجزء الغربي من السلطنة، وخاصةً في «كاشغر» و«كوجار» و«طورفان»، وكانت الموسيقى تُعزف باستمرار في مقر السلطان. وكان الشعب أيضاً يحب الرقص والموسيقى. ولم يكن فن الرقص والموسيقى أقل تقدماً من هذا الفن عند الصينيين. حتى قيل أن الصينيين حاولوا أن يلحقوا بالأويغور في هذا الفن.

وكان للموسيقى الأويغورية تأثير كبير على الموسيقى الصينية، حتى أن المقام الأويغوري حُظي بمكانة مهمة بين المقامات الموسيقية السبع التي كانت تُعزف في قصر الأسرة السلطانية في القرن السابع. وسُميت هذه المقامات المستخدمة في القصر الصيني على النحو التالي:

«موسيقى ين» و«موسيقى لو - يانج» الغربية، وموسيقى هند وموسيقى كوري، وموسيقى كوجار وموسيقى بخارى وموسيقى كاشغر وموسيقى سمرقند وموسيقى طورفان. وكانت «موسيقى ين» هي الموسيقى القومية للصين. وكانت موسيقى الهند وكوريا تُعد موسيقى أجنبية؛ أما الموسيقى الست الأخرى فتعود إلى الأويغور وإلى شعوب آسيا الوسطى جيرانهم.

وعندما نأتي للحديث عن فن الرقص لدى الأويغور ينبغي أن نؤكد على أنه لم يكن مجرد رقص، بل على العكس لعب دوراً مهماً خلال مراسم الاستقبال الدبلوماسية. فقد كان الحكام والسفراء الأجانب الذين يأتون لزيارة سلطنة الأويغور، يضطرون قبل الدخول لملاقاة السلطان إلى الإنحناء احتراماً أمام رايات زرقاء عليها رأس ذئب باللون الذهبي، مغروسة أمام مدخل مقر السلطان، والرقص وفقاً للأصول الأويغورية، والعبور من خلال دخان يتصاعد من مدخنة حجرية بحيث يتم تبخيرهم. وكان ممثلو الدول الأجنبية الذين لا يراعون واحدة من هذه القواعد، يسببون مشاكل كبيرة

لدولهم. فعندما رفض أمير أسرة طانغ «لي - شيه» الرقص وفق الأصول الأويغورية في مقر سلطان الأويغور «بوغو» مما أغضب الأويغور، فانهاجوا على بعض أركان الدولة الذين كانوا بصحبة الأمير ضرباً بالعصا.

وقد أثر فن الموسيقى والرقص الأويغوري في عهد سلطنة الأويغور كثيراً على الصينيين لدرجة أن بعض شعراء «طانغ» نظموا أشعاراً في هذا الصدد. فعلى سبيل المثال، يقول «وانجتشي - يان» في شعره المسمى بـ «السفر إلى ليانج - تشو» ما يلي:

عندما يُسمع صياح الديكة، فجر كل صباح  
تبدأ ربابات «خو»<sup>١</sup> بالعزف في كل منزل في لو - يانج

أما الشاعر «يوان يانج» فيقول في أحد أبياته الشعرية ما يلي:

يتسلى الشعب في «ليانج - تشو» كل ليلة  
بالإصغاء لرسائل كوچار الجميلة

وهكذا يقول نفس الشاعر في بيت آخر:

صار كثير من النساء والفتيات يرتدين ملابس أويغورية  
وأصبحن بارعات في العزف على الربابة مثل الأويغور

وتوضح الشاعرة «هوارو - إي» في إحدى قصائدها أن كثيراً من الناس، وكذلك الفتيات الجميلات، كانوا يرتدون الملابس الأويغورية في أيام العيد التي يتم الاحتفال بها في شهر ديسمبر، وينشدون الأغنية التالية أثناء تواجدهم في قصر أسرة «طانغ»:



نحيلات الخصر، رقيقات، يتبخترن بدلال  
في ملابس أوغورية، وعلى متن خيول أوغورية<sup>٩٢</sup>

وهذه المعلومات تُبين لنا أن الصينيين لم يأخذوا من الأوغوريين فن الموسيقى والرقص فقط، بل أخذوا أيضاً عنهم طريقة لبسهم. ارتفع مستوى معيشة الشعب في عهد سلطنة الأوغور نتيجة للازدهار الاقتصادي. وعندما تطورت العلاقات التجارية ونما الإنتاج الزراعي والصناعي أقيمت المُدن. فأقام السلطان «بايانچور» مدينة «باي باليق» - وتعني مدينة مزدهرة - على ساحل نهر «سلانغا» واستقدم الخبراء من «سَمَرَقَنْد» لتأسيسها. أما في عهد السلطان «بوغو» فقد أقيمت مُدن عديدة على سواحل أورخون مثل «قارا بالغاسون» و«أوغور باليق» و«باليق»<sup>٩٣</sup>: كما أمر السلطان «بوغو» بتشييد القلعة الخلابية، الرائعة المزخرفة بالنقوش الملونة من أجل زوجاته<sup>٩٤</sup>. كما أقيمت مدينة «خاتونباليق» على ساحل نهر «إيرسن» في منطقة «نينغ - شيا» الحالية وكانت مدينة «قارا بالغاسون» الكبيرة تقع على ساحل نهر أورخون عند جبل «أوتوكون»، شمال غرب جبل «هانغاي». ووفقاً للبحوث التي أجراها علماء الآثار السوفيت، نجد أن مساحة مدينة «قارا بالغاسون» كانت تبلغ ٢٥ كم مربع، أما طول السور المحيط بها فيبلغ ٢٠ كم. وارتفاع السور الذي يحمي المدينة أكثر من عشرة أمتار (في حين كان ارتفاع سور الصين ثمانية أمتار، أما ارتفاع حصونها فيبلغ ١٣ متراً. والمدينة مُحاطة بالحدائق والبساتين. وهناك قلاع داخل المدينة يبلغ إرتفاع أسوارها ١٤ متراً. ويمكن أن نفهم من هذه المعلومات كيف تم تشييد هذه الأبنية لمراقبة أطراف المدينة وحمايتها. وتقول كثير من المعلومات المختلفة التي وصلت إلى يومنا هذا إن طول المدينة كان يبلغ ٢٤ كم. وظلت مدينة «قارا بالغاسون» عاصمة الأوغور منذ القرن الثامن وحتى منتصف القرن التاسع، وإن كانت هذه المدينة أصغر من مدينة «جانغ - آن» عاصمة إمبراطورية طانغ، فهي تعد ثاني أكبر مدن

آسيا. وكان طول سور مدينة «تشانج - آن» يبلغ ٣٥ كم.

كانت قارا بالغاسون عاصمة السلطنة مركز الدولة الاقتصادي والسياسي والثقافي. ولذلك كان التجار والدبلوماسيون الأجانب يفدون إليها من الشرق والغرب؛ فقد كانت المدينة بمثابة جسر ثقافي بين الشرق والغرب.

ويقول الكاتب العربي «القاسم بن خرداذبة» في كتابه «المسالك والممالك» الذي كتبه عام ٨٤٦م عن قارا بالغاسون:

«إن سكان عاصمة سلطنة الأويغور (يقصد قارا بالغاسون)، يتشكلون من الأتراك. ويعيش السلطان في هذه المدينة العظيمة ذات الإثنى عشر بابا. وسكان المدينة يعتنقون المانوية. ويعيش سلطان الأوغوز التسعة في سرادق ذهبي مبهر مقام على أعلى ربوة في العاصمة، ويبدو للعين من على بعد خمسة فراسخ (الفرسخ يساوي ٧ كم تقريبا)، ويقع هذا السرادق أعلى قمة في العاصمة، ويتسع لمائة شخص».

كانت معتقدات الأويغور الدينية مختلفة. فأويغور الشرق إعتنقوا الشامانية، في حين أن أويغور الغرب كانوا بوذيين. وكانت السماء هي الإله الأعظم في الشامانية القديمة وهم يؤمنون بأن إله السماء يعيش في قصر فضي في السماء السابعة بينما يعيش الإنسان على الأرض. وبعد أن يموت الشخص السيء يدخل جهنم؛ وإذا أراد الإنسان أن يرتقي للسماء يمكنه ذلك بمساعدة الشامانيين. والشامانية عقيدة متعددة الآلهة، وأعظم هذه الآلهة وأفضلها هو الإله الموجود في «السماء الزرقاء». وعدا ذلك الإله فهناك إله الماء وإله الأرض، وحتى الإله أوماي الذي يحمي الأطفال والنساء. وطبقاً لتعاليم الشامانية كان الأويغور عند خروجهم للحرب يأتون بجواد أبيض ويضعونه في مقدمة الجيش، ويضعون على ظهره حشية مُخملية حمراء لها جرس ذهبي. وتقول رواية أخرى إن روح الإله «صولدي» كانت تجلس فوق هذا الجواد، وتقول الرواية الأخرى إن إله النصر «مانيس» كان يعتلي هذا الجواد. ولذلك عندما ثار القييرغيز في عام ٨٤٠م على سلطنة أويغور الأورخون ودمروها، قاموا بمنح لقب «مانيس» لأمرائهم تخليداً لتلك الواقعة.

وبينما كان السلطان «بوغو» عائداً لبلده بعد أن نجح في قمع تمرد أونلوق في عام ٧٦٢م قابل أربعة من رهبان المانوية في مدينة «لو - يانج» فأحضرهم معه. وفيما بعد تأثر بهم وتخلّى عن الشامانية، واعتنق المانوية، ومنذ ذلك الحين أخذت المانوية في الانتشار بين أوغور الشرق. وكانت المانوية قبل ذلك التاريخ خاصة من القرن الرابع إلى القرن الخامس، منتشرة في المناطق الجنوبية لجبال طانري في (كاشغر). ولقد تصادمت المانوية مع الشامانية فترةً من الزمن، ولكنها انتصرت في النهاية بمساندة السلطان «بوغو» وأصبحت العقيدة الرسمية للبلاد.

ومؤسس المانوية رجل فارسي يُدعى «ماني». وهذه العقيدة عبارة عن مزيج من الوثنية والبوذية والمسيحية، وذات نظام إيماني مُعقد نوعاً ما؛ أما أساسها فقائم على الصراع بين عنصري النور والظلام. وانتشرت هذه العقيدة في فارسٍ وسوريا وغيرها من الدول، وعندما بدأت المانوية تضر بالمسيحية كثيراً، تم إعدام «ماني» شنقاً في القسطنطينية في عام ٢٧٠م. وعليه فر رجال العقيدة المانوية نحو آسيا الوسطى خشية تعقبهم، وعندما وجدوا المناخ الملائم شرعوا في نشر عقيدتهم هناك.

وفي القرن الخامس نظم مانويون من الأوغور قصيدة بعنوان «الضريح المُقدس». وبعد أن ترسخت المانوية بين الأوغور، وأصبحت العقيدة الرسمية للبلاد وقد اندس بعض الرهبان المانويين بين مستشاري سلطان الأوغور، ولعبوا دوراً مهماً للغاية وتدخلوا في شئون الدولة. كما ذهب الدعاة المانويون الذين اشتغلوا بالتجارة إلى الصين وأخذوا ينشرون عقيدتهم هناك. ولم يكن مجال الدعوة مقصوراً على وادي «هوانج - هو» بل نجحوا أيضاً بعد فترة من الزمن في نشر عقيدتهم في وادي «يانج - تسه». وأسس المانويون الأوغور المعابد في مُدن «تشانج - آن» و«لو - يانج» و«تشن - تشو» و«يان - تشو» و«هوانج - تشو».

كان للأوغور آنذاك عادات وتقاليد خاصة بهم. فكانوا مولعين برؤية البرق؛ فعندما يبرق البرق يقومون برمي السهام نحو السماء، ثم يتركون

المكان الذي سقط فيه البرق. ويقومون بتغذية جيادهم في الربيع حتى تسمن، ثم يعودون أدراجهم إلى نفس المكان الذي سقط فيه البرق، ويقومون بدفن شاة هناك، ويثبتون فوقها سكين ويشعلون المشاعل. ثم تشرع النساء في تلاوة الأدعية، ويمتطي الرجال الخيول ثم يدورون عدة دورات حول النقطة التي سقط فيها البرق. وأخيراً يقومون بقطع غصن صغير من أغصان الصفصاف، ويدفنونه في الأرض، ثم يسكبون حليب الفرس المخمر على طرف الغصن المقطوع.. وتعتقد النساء شعورهن كالقبة حول رؤوسهن ثم يتركونه ينسدل على الجانبين..»<sup>٩٥</sup>

وعند وفاة أحد الأويغور كان يتم دفنه في وسط القبر تماماً. ويضعون في يده سهمًا وقوسًا، ويُعلّقون على خصره سيفًا، ويضعون بجانبه حربة ٩٦. وكان أقارب الموتى يذبحون مقدارًا كبيرًا من البقر والخيول، ويكدسون الذبائح أمام الخيام، ثم في النهاية يعلنون الحداد. فتقوم النساء والرجال بجرح أجزاء متفرقة من أجسادهم بسكين، وتسيل دماؤهم، وينخرطون في بكاء مستمر.

وكانت تقاليد الزفاف لدى أويغور الشرق مثيرة إلى حد ما. وتجلت تلك التقاليد الأويغورية كلها في مراسم زفاف سلطان الأويغور «تشونج - تي» على الأميرة الصينية «طاي - هو» في عام ٨٢١م في مدينة «قارا بالغاسون».

وثمة فرق بين زفاف أغنياء القوم وزفاف الأشخاص العاديين. فقبل الزفاف يقوم الشخص العادي بتحديد عدد الأبقار والخيول التي سيقدمها كمهر للعروس؛ وبعد الإتفاق على المهر يشرع على الفور في التحضير للزفاف. وكان أقارب العريس يحضرون الخيول لأقارب العروس، ويضعونها في حظيرة ويختار أهل العروس ما يعجبهم منها. والحصان الذي يتم اختياره يعزلونه بعيداً عن باقي الجياد، ثم ينادي صاحب القطيع الخيول بأصوات متقطعة فيتجمعون عند الحافة. والشخص الذي يدخل الحظيرة وينجح في إخراج الحصان المختار إلى الخارج بدون أن يسقط من على ظهره يكون هذا الحصان من نصيبه. وإذا سقط من

على ظهر الحصان يحق له اختيار حصان آخر، وينتهي هذا التقليد عندما يختار كل واحد من الموجودين هناك من طرف العروس جوادا لنفسه.. وفي يوم الزفاف يقوم الشباب بتقديم لبن الفرس المخمر ولحوم الضأن لضيوفهم. وبينما يتربع المدعوون إلى بيت الزفاف من جانب العروس حول منضدة، لا يتم التفرقة بين غني وفقير من هؤلاء المدعوين. ثم يجلس الضيوف بعد ذلك أمام الخيمة على بساط من لباد. وفي الغالب كانت الوليمة تستمر طوال النهار، ومن يريد الاستمرار في تناول الشراب كان يمكث طوال الليل. وفي اليوم التالي تذهب الفتاة لبيت أسرتها الأصلية. ثم يأتي العريس إلى بيت أسرة العروس ومعه قطيع من الخيول؛ فتقوم أسرة العروس باختيار ما يروقه من خيول هذا القطيع. وأهل العروس وأشقائها وشقيقاتها برغم إدراكهم إنها سوف ترحل عن المنزل وتذهب إلى بيت زوجها، كانوا يكتمون حزنهم ولا يجعلونها تشعر بشيء.<sup>٩٧</sup>

وهذه عادات وتقاليد دأب عليها أوينغور الشرق الرعاة في حفلات الزفاف التي كانوا يقيمونها في المراعي.

### شجرة النسب

#### ◀ ملوك الهون

#### ◀ قبل الميلاد

١ - جونغوي ١٨٠٠ أقدم الحكام الذين ذكرتهم

المصادر التاريخية وهو حاكم مملكة الهون القديمة وعاش حتى ٣٨٠٠ ق.م).

٢ - ؟؟ تنريقوت ٢٧٠ - ٢٤٠ (لا نعرف اسمه تماما).

٣ - طومان ٢٤٠ - ٢١٠ ق.م (مته)

(۲۱۰ - ۱۷۴) ق.م (تہ - )  
 (۱۷۴ - ۱۶۱) ق.م (لاو - شانغ)  
 ۱۶۱ - ۱۲۶ ق.م (کون - حبن)  
 ۱۲۶ - ۱۱۴ ق.م (ایجیح - حسیا)  
 ۱۱۴ - ۱۰۵ ق.م  
 ۱۰۵ - ۱۰۲ ق.م (و - صحیح - لو)  
 ۱۰۲ - ۱۰۱ ق.م (هو - لي - هو)  
 ۱۰۱ - ۹۶ ق.م (جو - تي - هو)  
 ۹۶ - ۸۵ ق.م (جو - تي - هو)  
 ۸۵ - ۶۸ ق.م (هو - يانتي)  
 ۶۸ - ۶۰ ق.م (هو - لو جوان جو)  
 ۶۰ - ۵۸ ق.م (و ين جو تي)  
 ۵۸ - ۳۸ ق.م (هو - خان - ياه)  
 ۳۸ - ۳۱ ق.م (جي - جي)  
 ۳۱ - ۲۰ ق.م (فو - جو - لي - جو - تي)  
 ۲۰ - ۱۲ ق.م (صو - هيسور جو - تي)  
 ۱۲ - ۸ ق.م (جو - يا - حو - تي)  
 ۸ ق.م - ۱۳ بعد الميلاذ (صو - حو - ليو)  
 ۱۳ - ۱۸ م (هين)  
 ۱۸ - ۲۱ م (يو)  
 ۲۱ - ۴۶ م (و - تي - تيهو)

۴ - باتور  
 ۵ - كوك - خان  
 ۶ - كون - خان  
 ۷ - ايلجسي  
 ۸ - او - وي  
 ۹ - اويلشر  
 ۱۰ - قو - لي غو  
 ۱۱ - كو تيغو  
 ۱۲ - غو - لي - قو  
 ۱۳ - غوياندى  
 ۱۴ - شولويقانقوي  
 ۱۵ - اوينقوتي  
 ۱۶ - قوغوشار (هو - هي - بي)  
 ۱۷ - قو تيو شين  
 ۱۸ - فوجو لونوتي  
 ۱۹ - شوجنتي  
 ۲۰ - قيانوتي  
 ۲۱ - اوجيلونوتي  
 ۲۲ - اولونوتي  
 ۲۳ - غودورار شيداغانوتي  
 ۲۴ - اوداتقو

## ● ملوك الهون الشرقية

بعد الميلاد

٤٨ - ٥٦ م (بي الثاني، هو - خان -

٢٥ - باي

ياه)

٥٦ - ٥٧ (مو)

٢٦ - جو بو نوتي

٥٧ - ٥٩ (خان)

٢٧ - ايلغه اولوتي

٥٩ - ٦٣ (ني)

٢٨ - شيتنونس سو يغوتي

٦٣ - ؟ (صو)

٢٩ - قوجي قيليدي

٦٣ - ٨٥ (جانغ)

٣٠ - غوشي شيصو قوتي

٨٥ - ٨٨ (حصوان)

٣١ - الطو

٨٨ - ٩٣ (طون - نو - هو)

٣٢ - شولان شيش قوني

٩٣ - ٩٤ (انا - جو)

٣٣ - ارقو

٩٤ - ٩٨ (صحيح - فاي)

٣٤ - تندو قوتي

٩٨ - ١٢٤ (تخان)

٣٥ - وانجي شيصو قوتي

١٢٤ - ١٢٨ (با)

٣٦ - اوجيقو شيصو قوتي

١٢٨ - ١٤٠ (?)

٣٧ - قوتينو شيصو قوتي

وفي عام ١٤ انتحر تنكري كوت

قوتينو شيصو قوتي وبقي العرش

فارغادون ملك في العام ١٤٠-١٤٣.

١٤٣ - ١٤٧ (ي - و - لو - جو)

٣٨ - كورانو شيصو قوتي

١٤٧ - ١٧٢ (?)

٣٩ - ايللين شيصو قوتي

١٧٢ - ١٧٩ (?)

٤٠ - اوتينو شيصو قوتي

١٤٩ - ١٨٨

٤١ - غوجين

٤٢ - قانقوي

١٨٨ - ١٩٥

٤٣ - فيز شيصو قوتي

١٩٥ - ٢١٦

٤٤ - غوجو خان

### ● ملوك الهون الغربية

٤٥ - بانو

٤٨ - ٨٣ (بونو)

٤٦ - صانمولو اوطنري

٨٣ - ٨٤

٤٧ - ألوغ

٨٤ - ٨٩

٤٨ - ملك الشمال

٨٩ - ٩١ (لا يوجد له اسم واحد)

٤٩ - ايل تكين

٩١ - ٩٣

٥٠ - بانغو

٩٣ - ١١٨

وبداية من هذا التاريخ لم يتم تحديد اسماء الهون الغربيين.

### ● نسب امراء اويصون

قبل الميلاد

١ - ناندومي

١٩٧ - ؟ ق.م

٢ - راجومي

١٩٧ - ١٠٤

٣ - قونشومي

١٠١ - ٩٣

٤ - أونغومي

٩٣ - ٦٠

٥ - ني - مي

٦٠ - ٥٣

٦ - اوغوت

٥٣ - ٣٣

٧ - يان غومي

٥٣ - ٥١ (ولده احدى الاميرات الصينيات)

٨ - شين - مي

٥١ - ٣٣ (هو ابن جو مي)

٩ - جي - صو - مي

٣٣ - ١٦ ق.م



١٠ - إل قو - مي

١٦ - ١٠ م

### ● دفتر نسب السايبار

ملوك امبراطورية سيانبي (بعد الميلاد)

١٤٨ - ١٨١ م	١ - تامشيغوي
١٨١ - ٢١٦	٢ - غوران
٢١٦ - ٢٣٣	٣ - قويطو
٢١٦ - ٢٣٣ (كانت فترة حكمه تقاسمها مع كو - صو)	٤ - بودوقين
٢٣٣ - ٢٣٥	٥ - قيبنين

### ● قادة (حكام طوبا سايبى)

٢٣٥ - ٢٦١	١ - قي بان
٢٦١ - ٢٧٧	٢ - ليوي
٢٧٧ - ٢٩٧ (استمر هؤلاء القادة الثلاثة على العرش لمدة عشرين عام)	٣ - لفو - جاو - فو
٢٩٧ - ٣١٠	٤ - او - تا (بي - طو)
٣١٠ - ٣١٦	٥ - بي - لو
٣١٠ - ٣١٦ (الاثنان حكموا في نفس الفترة)	٦ - لونغ وينغ
٣١٦ - ٣٢٥	٧ - ي لو
٣٢٥ - ٣٣٠	٨ - غونو
٣٣٠ - ٣٣٥	٩ - ق - قي نا

٣٣٧ - ٣٣٥	١٠ - يي خوي
٣٣٧ - ٣٣٨ (امسك بالحكم)	١١ - ق - قي نا
(مرتين)	
٣٣٨ - ٣٧٨ (مثله)	١٢ - يي خوي
٣٧٨ - ٣٨٠	١٣ - تكين
٣٨٠ - ٣٨٦	١٤ - فوكين
٣٨٦ - ٣٩٤	١٥ - كي - بي

### ● ملوك دولة طوبا

٣٨٦ - ٤٠٩	١ - طو باغوي
٤٠٩ - ٤٢٣	٢ - طو با سي
٤٢٣ - ٤٥٢	٣ - طو - با تو
٤٥٢ - .....	٤ - طو با يو
٤٥٢ - ٤٦٥	٥ - طو با زي
٤٦٥ - ...	٦ - طو با خون

### ● ملوك الاوار Avar

	بعد الميلاد
٣٩٤ - ٤١٠ م	١ - طولونا الأول
٤١٠ - ٤١٤	٢ - خولي - و
٤١٤ - ٤٢٩	٣ - طا - طان
٤٢٩ - ٤٤٤	٤ - او - تي
٤٤٤ - ٤٦٤	٥ - طوغاجين
٤٦٤ - ٤٨٥	٦ - اوجين

٤٩٢ - ٤٨٥  
 ٥٠٦ - ٤٩٢  
 ٥٠٨ - ٥٠٦  
 ٥٢٠ - ٥٠٨  
 ٥٢١ - ٥٢٠  
 ٥٥٢ - ٥٢١  
 ٥٥٣ - ٥٥٢  
 ٥٥٣ - ٥٥٣  
 ٥٥٣ - ٥٥٣  
 ٥٥٥ - ٥٥٣  
 ؟ - ٥٥٣

٧ - طولون الثاني  
 ٨ - ناغاي  
 ٩ - طوكخان  
 ١٠ - جونو  
 ١١ - بيرهمان  
 ١٢ - ايا ناغاي  
 ١٣ - طوبا  
 ١٤ - تينغ هو  
 ١٥ - قوت  
 ١٦ - طانغ - شوتز  
 ١٧ - يانلوجين

● ملوك الأويغور

(الدول الغربية ذات العربات العالية)

٤٨٧ - ٥٠٨ م  
 ٥١٠ - ٥٠٨  
 ٥١٦ - ٥١٠  
 ٥٢٠ - ٥١٦  
 ٥٣٧ - ٥٢٠  
 ٥٤١ - ٥٣٧

١ - اي اوجرو  
 ٢ - باريان  
 ٣ - باتور  
 ٤ - ايل - بك  
 ٥ - يو - قو  
 ٦ - بكجي

● ملوك الترك

٥٥٣ - ٥٥٢ م  
 ٥٥٤ - ٥٥٣

١ - طومان  
 ٢ - قراخان

٥٧٤ - ٥٥٤

٥٨١ - ٥٧٤

٥٨٧ - ٥٨١

٥٨٨ - ٥٨٧

٦٠٠ - ٥٨٨

٦٠٣ - ٦٠٠

٦٠٩ - ٦٠٣ م

٦١٩ - ٦٠٩

٦٢١ - ٦١٩

٦٣٠ - ٦٢١

٦٣٩ - ٦٤٦

٦٤٦ - ٦٤٧

٦٥٣ - ٦٤٧

٦٥٩ - ٦٥٣

٦٧٦ - ٦٥٩

٦٧٨ - ٦٧٦

٦٧٩ - ٦٨٠

٦٨٠ - ٦٨١

٦٨٠ - ٦٨١

٥٨٣ - ٦٦٣

٦٠٥ - ٦٦٣

٦٠٥ - ٨٠٥

٨٠٥ - ٠٦٥

٠٦٥ - ١٦٥

١٦٥ - ٦٥٥

٦٥٥ - ٦٥٥

٦٥٥ - ٦٥٥

٦٥٥ - ٦٥٥

٦٥٥ - ٥٥٥

٦٥٥ - ٦٥٥

٦٥٥ - ٦٥٥

٦٥٥ - ٦٥٥

٦٥٥ - ٦٥٥

٦٥٥ - ٦٥٥

٦٥٥ - ٦٥٥

٦٥٥ - ٦٥٥

٦٥٥ - ٦٥٥

٦٥٥ - ٦٥٥

٦٥٥ - ٦٥٥

٦٥٥ - ٦٥٥

٦٥٥ - ٦٥٥

٦٥٥ - ٦٥٥

٣ - موقانخان

٤ - طاوارخان

٥ - سوارخان

٦ - جور باغا

٧ - طونغ توران

٨ - كي مين توره

١ - كي مين طوره

٢ - سيوار

٣ - جوك

٤ - قره خان

٥ - صيرباقاغان

٦ - جابي

٧ - ابن طولو

٨ - جينجو يابغو

٩ - أسينا طورجي

١٠ - طوجي

١١ - أسينا نيوزق

١٢ - أسينا إنان

### ● سلاطين الترك الشرقيين

٦٣٩ - ٦٤٦ بداية من هذا

الملك إلى ملك طوجي كانت الملوك

عملاء

٦٧٩ - ٦٨٠ في عهده نال جميع

الاتراك الشرق استقلالهم التام.

٦٨٠ - ٦٨١

٦٨٢ - ٦٩٢

٦٨٢ - ٦٩٢

٦٩٢ - ٧١٦

٧٣٤ - ٧٣٩

٧٣٩ - ٧٤١

٧٤٢ - ٧٤٢

٧٤٢ - ٧٤٢

٧٤٢ - ٧٤٤

٧٤٤ - ٧٤٥

١٣ - اسبينا قوتلق

١٤ - قابغان

١٥ - بيلكه

١٦ - أسينا بيلكه

١٧ - بيلكه قوتلق

١٨ - بان كول

١٩ - صوين

٢٠ - اوزميش

٢١ - بولمش

### ● سلاطين الترك الغربيين

٥٥٢ - ٥٧٢ م

٥٦٧ - ٦٠٠

٥٧٦ - ٥٩٣ (بالمشاركة)

٥٩٣ - ٦٠٠

٦٠٠ - ٦١١

٦١١ - ٦١٨

٦١٨ - ٦٣٠

٦٣٠ - ٦٣٣

٦٣٣ - ٦٣٤

٦٣٤ - ٦٣٩

٦٣٩ - ٦٥١

٦٥١ - ٦٥٨

١ - استمي سلطان

٢ - بيلكه طاردو سلطان

٣ - ابا سلطان

٤ - ابينال سلطان

٥ - جولو سلطان

٦ - شغوي سلطان

٧ - طون يابغو سلطان

٨ - سي يابغو سلطان

٩ - باغاشا طوليس سلطان

١٠ - ايشبارا تبرش طونغ

١١ - ابي طولو سلطان

١٢ - أسينا الب سلطان

۶۶۲ - ۶۵۸  
 ۶۶۶ - ۶۶۲  
 ۶۷۱ - ۶۶۶  
 ۶۸۰ - ۶۷۹  
 ۶۹۳ - ۶۸۶  
 ۶۹۰ - ۶۸۶  
 ۷۰۴ - ۶۹۹  
 ۷۱۱ - ۷۰۴  
 ۷۱۰ - ۷۰۰  
 ۷۱۸ - ۷۱۰  
 ۷۳۸ - ۷۱۸  
 ۷۴۲ - ۷۳۸

۱۳ - أسينا ميشه  
 ۱۴ - أسينا بوركين  
 ۱۵ - أسينا طورجي  
 ۱۶ - أسينا نزوك بکه  
 ۱۷ - أسينا يالجين  
 ۱۸ - أسينا هوجيلو  
 ۱۹ - أسينا قادو  
 ۲۰ - أسينا شان  
 ۲۱ - اوجلي  
 ۲۲ - صو - کو  
 ۲۳ - صو غي  
 ۲۴ - أسينا اون اوق سلطان

### ● سلاطين اويغور اورخون

۶۰۵ - ..... م  
 ۶۴۶ - ؟  
 ۶۴۸ - ۶۴۶  
 ۶۶۱ - ۶۴۸  
 ۶۸۱ - ۶۶۱  
 ۷۱۵ - ۶۸۱  
 ۷۱۹ - ۷۱۵  
 ۷۱۹ - ؟  
 ۷۲۷ - ؟

۱ - تکين ارکين  
 ۲ - بو صا  
 ۳ - توميد  
 ۴ - بايان  
 ۵ - باز خان  
 ۶ - توکوجي  
 ۷ - اوتي بکه  
 ۸ - جين زون  
 ۹ - اوتينان

٧٢٧ - ؟  
٧٤٢ - ٧٤٧ قوتلوقبيلكه  
سلطان  
٧٤٧ - ٧٥٩ « تنكري دة  
بولموش ايل توتموش بيلكه  
سلطان  
٧٥٩ - ٧٧٩  
٧٧٩ - ٧٨٩  
٧٧٩ - ٧٩٠  
٧٩٠ - ٧٩٥  
٧٩٥ - ٨٠٥  
٨٠٥ - ٨٠٨ ( ايا تنكري دة  
كوت بولموش كوتلك بيلكه  
سلطان)  
٨٠٨ - ٨٢١ ( ايا تنكري دة  
كوت بولموش الب بيلكه  
سلطان)  
(كون تنكري دة اولوغ  
بولموش كوتج كوچلك بيلكه  
سلطان)  
٨٢٤ - ٨٣٢ (أي تنكري دة  
كوت بولموش بيلكه  
سلطان)

١٠ - غو شو

١١ - اتميش بيلكه

١٢ - بايان جور

١٣ - إلتكن

١٤ - تون باغا

١٥ - طاراس

١٦ - آيجور

١٧ - قوتلك

١٨ -

١٩ -

٢٠ - ٨٢١ - ٨٢٤

٢١ - خازر تكين

٨٣٢ - ٨٣٩ (تنكري دة كوت

بولموش كوجلك بيلكه

سلطان)

٨٣٩ - ٨٤٠

٨٤٥ - ٨٤٦

٨٤٦ - ٨٤٧

٨٤٧ - ٨٤٨

٨٤٨ - ٨٤٩

٨٤٩ - ٨٥٠

٨٥٠ - ٨٥١

٨٥١ - ٨٥٢

٨٥٢ - ٨٥٣

٨٥٣ - ٨٥٤

٨٥٤ - ٨٥٥

٨٥٥ - ٨٥٦

٨٥٦ - ٨٥٧

٨٥٧ - ٨٥٨

٨٥٨ - ٨٥٩

٨٥٩ - ٨٦٠

٨٦٠ - ٨٦١

٨٦١ - ٨٦٢

٨٦٢ - ٨٦٣

٢٢ - هو تكين ٧٧٧ - ٧٧٨

٧٧٧ - ٧٧٨

٧٧٨ - ٧٧٩

٧٧٩ - ٧٨٠

٧٨٠ - ٧٨١

٧٨١ - ٧٨٢

٧٨٢ - ٧٨٣

٧٨٣ - ٧٨٤

٧٨٤ - ٧٨٥

٧٨٥ - ٧٨٦

٧٨٦ - ٧٨٧

٧٨٧ - ٧٨٨

٧٨٨ - ٧٨٩

٧٨٩ - ٧٩٠

٧٩٠ - ٧٩١

٧٩١ - ٧٩٢

٧٩٢ - ٧٩٣

٧٩٣ - ٧٩٤

٧٩٤ - ٧٩٥

٧٩٥ - ٧٩٦

٧٩٦ - ٧٩٧

٧٩٧ - ٧٩٨

٧٩٨ - ٧٩٩



## القسم الثاني : القراخانيون

### الفصل التاسع : آسيا الوسطى قبل الدولة القراخانية الأويغورية

#### الخصائص الطبيعية

تعتبر آسيا الوسطى مركز قارة آسيا أكبر قارة في شرق نصف الكرة الشمالي، وتنقسم إلى أربعة أقسام هي الغرب والشرق والوسط وجنوب شرق آسيا. ومساحتها ٤٤ مليون كم<sup>٢</sup> وهي تشكل ٣٠٪ من مساحة العالم.

وتنقسم آسيا الوسطى إلى قسمين هما؛ غرب شرق آسيا وشرق غرب آسيا. وتشتمل آسيا الوسطى على وادي «جونغاريا» وواحة «تاريم»، وتركستان الغربية وتضم حالياً قازاقستان، وأوزبكستان وطاجيكستان وتركمانستان وقسم من أفغانستان. والمساحة الكلية لآسيا الوسطى ٥ مليون و٧٥٢ ألف كم<sup>٢</sup> وتمثل ٧/١ مساحة قارة آسيا. والخصائص الطبيعية للمنطقة متنوعة؛ فتتكون من الجبال والأنهار والبحيرات والغابات والمراعي والسهول والصحارى.

وتقع جبال طانرى في شمال وادي تاريم وجبال «آلتون طاغ» و«قارانلق» في جنوبه، وقراقورم في الجنوب الغربي منه، و«قيزيل يورت» و«كوكجال» في غربه. أما في وسط الوادي تماماً فتمتد صحراء «تكلامكان - Takla - Makan» المشهورة في كل الدنيا.

تمتد جبال «طانرى» من الشرق للغرب لمسافة ٢٥٠٠ كيلو متر وتفصل «وادي تاريم» عن «جونغاريا». أما «جونغاريا» فتقع بين جبال «الطاي» وجبال «طانرى». وتقع جبال الطاي في شمال جونغوريا، وجبال طانرى في جنوبها. وتمتد جبال طانرى من الشمال للجنوب لحوالي ٢٥٠ - ٣٠٠ كيلو متر. ويبلغ ارتفاع قمة «تيمور» ٧٤٣٥ مترا، أما قمة «خان - طانرى» فتبلغ ٦٩٩٥ مترا. وبالنسبة للأنهار في آسيا الوسطى فهي أنهار: «سيرداريا»، و«چو»، و«إيلي»، و«أقصو»، و«قاراشهر». وهذه الأنهار تكونت بفعل مياه جليد جبال طانرى. وتتخلل جبال «طانرى» سهول «فرغانة» و«قاراشهر» و«طورفان» و«وادي إيلي». وفي السفوح الشمالية لذات الجبال تقع غابات «قره آغاچ»، و«آقچام»، أما في جنوبها فتوجد المراعي الجبلية. ومن غرب جبال «طانرى» حتى المناطق الداخلية عبارة عن قيرغيزستان الحالية، وفي شرقها تقع «قانسو».

وتحيط جبال التاي التي يبلغ ارتفاعها ٧ آلاف مترا بجنوب وادي فرغانة. فتحيط هذه الجبال التي تمتد حتى أراضي تاجيكستان وقيرغستان، وادي فرغانة من ثلاث جهات، باستثناء ناحية الغرب. ويقسم نهر «سرداريا» وادي فرغانة إلى قسمين. وتحيط الجبال طاجيكستان وقيرغيزستان. ويتدفق نهر «نارين» قيرغيزستان من الغرب إلى الشرق فيقسمها إلى قسمين.

وتوجد في أوزبكستان وتركمانستان وقازاقستان جبال شاهقة وفي الغرب من تركمانستان بالقرب من بحر الخزر، تمتد جبال «بالقان» العالية، ويصل ارتفاعها إلى ١٦٣٤ مترا فوق سطح البحر. ويتكئ طرف جبال «طارباغاتاي» الممتد في شرق قازاقستان على «جونغاريا».

وجبال «الطاي» هي واحدة من الجبال الكبيرة في وسط آسيا. وكلمة الألتاي Altay تعني في اللغة التركية القديمة (الذهب). وهذا الجبال تقع في القسم الشمالي لجبال جونغاريا في جمهورية منغوليا (منغولستان). وتمتد في اتجاه الشمال الغربي حتى حدود الاتحاد

السوفيتي القديمة. وتبلغ من الشرق للغرب ألفى كيلو متر.  
وأكثر بقاع جبال الطاي بسطة هي «بلوخه»، وتقع في منطقة  
الاتحاد السوفيتي القديم، على ارتفاع ٤٥٠٠ مترا فوق مستوى سطح  
البحر. والمساحات المغطاة بالثلوج في هذه الجبال كثيرة وتبلغ  
المساحة الكلية المغطاة بالثلوج ثمانمائة كيلو مترا مربعا. ومنها سهوب  
«قاطون» و«جوي» الثلجية ومساحتها حوالي من ثمانية إلى عشرة كيلو  
مترا. وفي هذه الجبال كميات وفيرة من الذهب والنحاس والحديد  
والزنك والرصاص وكثير من مناجم المعادن المهمة الأخرى. هذا فضلا  
عن الغابات الغنية التي تغطي هذه الجبال علاوة على هذا توجد مراعي  
كثيرة واسعة وشديد الخصوبة. وتقع جونغاريا وقازاقستان في القسم  
الجنوبي لجبال الطاي. وترسم جبال الطاي الكبرى حدود تركستان  
الغربية ومغولستان. وتمتد شعبة من ذات الجبل حتى سلسلة جبال  
سيبريا الجنوبية.

أما جبال بامير وتعني في الفارسية «سقف العالم» فإنها تشكل  
واحدة من أكبر سلاسل الجبال في العالم. وتمتد من جنوب شرق  
أفغانستان. وتقع جبال بامير وقراقورم (وتعني مكان صخري كبير)  
وجبال هندوكوش داخل سلسلة جبال طانرى. وأكثر القمم انخفاضا في  
جبال بامير هي قمة «كونغور» وارتفاعها ٧٧١٩ مترا.

أما ارتفاع جبال «موزتاغ - آتا» فيبلغ ٧٥٤٦ مترا. وتغطي المراعي  
والغابات الباسقة جبال البامير. وقيم هذه الجبال قارسة البرودة وتغطيها  
الثلوج التي لا تنقطع صيفا أو شتاء. ويبلغ امتداد هذه الثلوج من الشمال  
إلى الغرب ٧٧ كيلومترا، حيث أنها تعتبر أطول منطقة ثلوج بالعالم.

ونهر تاريم واحد من أكبر أنهار وسط آسيا ويتدفق باستقامة شرق  
قراقورم. ويجري هذا النهر على امتداد وادي تاريم فيشكل حدودا  
طبيعية بين «وادي تاريم» وكشمير، ويتدفق من الغرب للشرق. ويصب  
في بحيرة (لوب - نور) التي تقع شمال «آلتونطاغ». ويقع نهر تاريم على  
سواحل أقدم ثلاث مدن مشهورة هي (كاشغر - يار كند - خوتن) ثم

ينساب على واد منبسط كبير. وينبع نهر «خوتن» من جبال «قارانلوق»، أما نهر «ياركند» الذي يقع في غرب تاريم، فيتدفق في اتجاه الشرق. ونهر «قرا إرتش» أكبر أنهار «جونغاريا». ويتدفق نهر «هورونغو» في الشرق. ويشكل نهر قوبدو Kobdo الواقع في الشمال الشرقي، الحدود الطبيعية بين مغوليا و«جونغاريا».

وفي القسم الغربي لوسط آسيا يتدفق نهرا «أمو داريا» و«سرداريا» وقد أطلق العرب في القرن السابع على المنطقة الموجودة فيما بين هذين النهرين اسم بلاد «ما وراء النهر» ويصب النهران في بحيرة آرال، وينبع نهر «أمو داريا» من جبال «قيزيل يورطه» الواقعة شمال «قراقورم» ويشكل الحدود الطبيعية لطاجيكستان وافغانستان وأوزبكستان. ويتدفق على امتداد الشمال الغربي، كما أنه يكون الحدود الطبيعية بين اوزبكستان وتركمانستان ويصب في بحيرة «آرال».

أما نهر «سرداريا» فينبع من جبال «الآلي». ويقسم «وادي فرغانة» لقسمين وينتهي مصبه في بحيرة «آرال» ناحية الشمال الشرقي. ونهر «نارين» الذي ينبع من جبال «كوك جال» يقسم قيرغيزستان من الشرق للغرب إلى قسمين.

ونهر «إتريك» الذي ينتهي مصبه من ناحية الجنوب لبحر الخزر، فيجري على امتداد قسم كبير من ولاية خراسان الفارسية، ويشكل الحدود الطبيعية بين فارس وتركمانستان. أما نهر امبه Embe الذي يتجه مصبه من ناحية الشمال حتى بحر الخزر، وينبع نهر «يايق» بين جبال «الأورال» ويجري من أراض كازاخستان ويجري جزء كبير منه في أراضي قازقستان ويكون دلتا عند بداية نهر «الخزر»، ويكون الحدود بين آسيا وأوروبا.

أما نهر «زرافشان» والذي يُعد من الأنهار الداخلية لوسط آسيا فينبع من جبال «آلي». وتقع مدينتا بخارى وسمرقند في السواحل الجنوبية للنهر. أما نهر «جو» فينبع من جبال الواقعة في الجنوب الغربي لبحيرة

«إسيق». ومن الأنهار الداخلية لقازاقستان نهر «طورغاي» الذي يصب في بحيرة «جالقار» ونهر «نورا» الذي يصب في بحيرة «نورا».

ويعد نهر «ايريتش» من أكبر أنهار شمال قازاقستان، وينبع من بحيرة «زايسان». و ذراع النهر الذي يتدفق على امتداد القسم الشرقي لزايسان ويصل الى اراضى جونغاريا فيسمى «قرا ايرتيش». ويقع نهرا «إشيم» و«طوبول» وهما من أذرع نهر «إريتش» اقصى شمال قازاقستان. ويعتبر «ايريتش» أحد فروع «نهر اوب» Ob. وتقع بحيرة «باغراش» في القسم الشرقي لوسط آسيا. ومساحتها ٩٦٠ كيلومترا مربعا، أما عمقها ٨٩٦ مترا. وتقع بحيرة «لوب نور» في جنوب شرق بحيرة باغراش ومساحة هذه البحيرة ٢٠٠٠ كيلومترا مربعا، أما عمقها ٧٩٠ مترا، وأكبر بحيرات «جونغاريا» هي «أبي نور» Ebinor. وهى على ارتفاع ١١٠ مترا فوق سطح البحر، والقسم الجنوبي الغربى لجونغاريا، فتقع فى الجنوب الشرقى من «الطاغ» قريبا من منطقة «يدي - صو».

ونسبة سقوط الأمطار سنوياً في آسيا الوسطى ٥٠ مليمترا، أما المناطق الصحراوية فلا تسقط بها أي أمطار.

ومن هذه الناحية فإن معدل سقوط الأمطار سنوياً في جبال طاجيكستان وفيرغيزستان ٧٠ مليمترا. أما فى المنطقة الشمالية لقازاقستان فتبلغ ٦٥ مليمترا. والمناخ جاف بصفة عامة. وتمثل أنهار «تاريم، وايلي، وامو داريا وسرداريا، وجو» أهم مصادر المياه لزراعة المحاصيل والبساتين. وبالإضافة لذلك فإن وسط آسيا غني جداً بمناجم البترول والحديد والذهب والفضة والنحاس والكبريت والملح. وتحتل مكانة مهمة في الترتيب العالمي.

### آسيا الوسطى في عهد الاكمنديين

تكشف الحفريات الأثرية أن الإنسان في أراضى آسيا الوسطى اشتغل بالزراعة القائمة على الري، وأن حياة الاستقرار في تلك الأراضى بدأت قبل الميلاد بالآف السنين. وتأسست الدول القوية في المنطقة مع

بداية حياة الاستقرار.

وهناك اكتشافات توضح أن أسلافنا في وادي تاريم، الذي يعد الطرف الشرقي لآسيا الوسطى، بدأوا في الاشتغال بالزراعة قبل خمسة آلاف عام من الميلاد. وقد اكتشفت مجموعة من علماء الآثار من أكاديمية العلوم الاجتماعية الأويغورية مقبرة قديمة عند ساحل نهر «كونجى» في عام ١٩٧٩م ووجد بالمقبرة رفات شخصين، أحدهما لسيدة شابة والأخرى لطفل. والتحليل المعملّي لأجزاء من الشجرة الموجودة داخل المقبرة أثبت أنها تعود إلى قبل ٦٤١٤ عام. ووجدوا بجانب الطفل سلة من البوص تحتوي على بذور القمح، لكن هذه الحبوب صارت رمادا بفعل عوامل الزمن.<sup>٩٨</sup> وهذا يثبت أن الزراعة نشأت في حوض تاريم منذ عهود غاية في القدم.

وليس في أيدينا معلومة قاطعة بشأن زمن استخدام نظام الري في وادي تاريم. وعلى أية حال فإن الزراعة الموجودة في «وادي تاريم» في الجزء الشرقي من آسيا الوسطى ليست متأخرة عن الخبرة الزراعية القديمة الموجودة في الجزء الغربي من آسيا الوسطى بل ربما كانت أكثر تقدماً.

وثمة دليل على أن تاريخ شعوب آسيا الوسطى موغل في القدم، ألا وهو العلاقات التجارية التي كانت بينهم وبين الأشوريين ومصر. ويمكن القول، استناداً على المعلومات التاريخية، إن الدولة الأشورية والحضارة التي أسستها في المنطقة الواقعة بين نهري دجلة والفرات، والمشهورة بثقافتها الخاصة بها، تعد واحدة من أقدم المراكز الحضارية. فهذه الدولة تأسست قبل ستة آلاف عام من يومنا هذا، وامتدت حدودها حتى شمال بلاد ما بين النهرين.

وهكذا تأسست علاقات تجارية بين شعوب آسيا الوسطى والدولة الأشورية قبل أربعة آلاف عام من الميلاد. وهذه المعلومات أكيدة لا يمكن إنكارها. فمثلاً وجد الزمرد السلطاني ضمن أدوات الزينة التي عُثر عليها في مقبرة الملكة شوبات التي عاشت قبل أربعة آلاف عام من

الميلاد في بلاد ما بين النهرين. ووجود الزمرد في مصر الذي يرجع تاريخه لألفي عام قبل الميلاد، يعد دليلاً على العلاقات التجارية التي كانت بين آسيا الوسطى وبلاد ما بين النهرين ومصر.<sup>١١</sup> لأن هذا النوع من الزمرد كان يوجد فقط في آسيا الوسطى.

واعتباراً من القرن الثامن قبل الميلاد، فإن شعوب باكتريا (هذه الكلمة التي تعني أم المدن تغيرت فيما بعد لتصبح بلخ)، وخورزم و صغد (وهي كلمة تعني باللغة التركية القديمة الأراضي المبتلة)، وهي من شعوب آسيا الوسطى، أسست الدول في الوقت الذي أسس فيه أجدادنا أيضاً المدن في «وادي تاريم» و«جونغاريا».

وبعد قرن من هذا التاريخ قامت دولة «أكميند الفارسية» في آسيا الوسطى. وقد تحدث الفردوسي في «الشاهنامه» عن تاريخ للتاجيك والفرس يعود إلى خمسة آلاف عام. ولكن يجب ألا ننسى أن بعض الموضوعات في «الشاهنامه» خيالية تماماً. ويقدم الفردوسي معلومات عن عهد أسرتي «أرشاقلي» و«كايان» الحاكمين (٣٢٠٠ - ٧٨٠ ق.م). وبالرغم من أن هذه المعلومات قد صيغت بشكل روائي وأسطوري، فهي ذات أهمية بالنسبة لنا لأنها تمثل تسجيلاً لمعلومات عن العلاقات التي كانت تربط بين «الأكمينديين» و«التورانين» في آسيا الوسطى، أي أجداد الأويغور.

وتقول معلومات موثوقة إن دولة «ميديا» كانت قائمة في القرن الثامن ق.م على أراضي أذربيجان والمنطقة الغربية لفارس الحالية، وكانت عاصمة الدولة تُسمى «أكباطانا» وهي «همذان» الحالية. وقامت قبائل فارس التي تعيش في الجزء الجنوبي الغربي من فارس بفتح «ميديا» التي كانت أقوى دولة في زمانها.

وفي عام ٧٠٠ ق.م، رفع «أكمين» ملك فارس راية العصيان ضد «الميديين» وحصل على استقلاله. وهكذا تأسست دولة «توران» في آسيا الوسطى وما يجاورها في الفترة التي استولى فيها الأكمينديون في فارس على السلطة. وقال اليونانيون القدماء (الإسكيت) إن التورانين

خاضوا حرب طويلة ضد الفارسيين.

وقد اهتم حكام «أكمينيد» الفارسية بآسيا الوسطى، ووضعوها نصب أعينهم وشنوا هجمات عديدة ضد التورانيين. ودخل «التورانيون» و«طور» و«بيشان» و«أفرسياب» و«أرجاسب» و«توميريس» وغيرهم من الحكام في صراع مستمر ضد الأكمينيين من أجل المحافظة على استقلالهم. وحتى يضيفى سلاطين «الأكمينيد» المشروعية على حربهم ضد التورانيين، زعموا أنهم رأوا رؤيا غامضة. مثلاً قالت والدة «كيخسرو» أنها رأت كأن غصن كروم يخرج من بطنها، وسرعان ما كبر هذا الغصن حتى غطى آسيا كلها. وفسر منجموا القصر هذه الرؤية لكيخسرو الشاب (قمبيز الأول) بقولهم إنه يجب شن الحرب ضد آسيا الوسطى، وقالوا له: «سيجعلك الله حاكماً على آسيا الوسطى».

وحارب «طور» وهو من حكام توران المار ذكره في الشهنامة، «تسيبس» شاهنشاه أكمينيد، أما «بيشان قاغان» فقد حارب «أرتابانوس». والمعلومات التاريخية تثبت صحة هذه الرواية.

وفي عام ٦٢٥ ق.م مات «أفراسياب» حاكم توران المشهور في أذربيجان أثناء حربه ضد «أرتابانوس». وحارب «أفراسياب» الأكمينيد عدة مرات، وهزمهم، وبهذا أنقذ «توران» ووسط آسيا من السقوط في يد الغزاة.

وقويت شوكة أسرة اكمينيد الحاكمة خاصة في عهد «كيخسرو» (قورش). وبعد أن أحكم «كيخسرو» (٥٥٨ - ٥٢٩ ق.م) سيطرته على «ميديا»، استولى على الأناضول؛ ثم استولى بعد ذلك على «فينيقيا» و«فلسطين»؛ أما في عام ٥٢٨ فقد استولى على بابل وجعلها عاصمة للدولة. أما ابنه «قمبيز الأول» فقد فتح مصر، وفي عهده خضع الشرق القديم بأكمله للأكمينيين. وفي عام ٥٢٩ م قُتل «كيخسرو» أثناء هجومه على حدود آسيا الوسطى على يد «توميريس» ملكة توران (ملكة ماساجيت).



وفي عهد «دارا الأول» عاش الأكمينيون أكثر العهود ازدهاراً في تاريخهم؛ وخضعت لحكمهم» فارس كلها وأذربيجان وأفغانستان والجزء الجنوبي من وسط آسيا وبلوجيستان وآسيا الصغرى وبابل وأرمينيا وسوريا وفلسطين ومصر. وتوجد في كتابة «بهيستون» الحجرية معلومة عن فتح دارا لوسط آسيا.

وكما فهمنا فإن «دارا الأول» أمر في عام ٥١٩ م بالكتابة عن الشرف الذي حظي بإخضاعه شعباً كبيراً من شعوب آسيا الوسطى على حجر في جبل «بهيستون» الموجود على بعد ٦٥ كيلومتر جنوب غرب همذان. وكان هذا الحجر المعروف في التاريخ بـ«نقيش بهيستون»، وما كتب فوقه بمثابة الرابط الذي ربط في الماضي بين بابل وأكباتانا. ففي الجزء الأعلى من الكتابة المحفورة فوق حجر على ارتفاع خمسمائة متر يوجد رسم لإله النار والشمس. ورسم لدارا الأول رافعاً يده اليمنى تجاه الإله، وبقدمه اليسرى يسحق أعداءه المهزومين. أما في مواجهة «دارا» فيوجد نقش لتسعة من الأسرى، أيديهم مكبلة من الخلف والأغلال في أعناقهم.

وقد ورد في الكتابة المحفورة في كتابة «بهيستون»، ذكر شعوب «صاقا» و«صغد» و«خوارزم» الذين كانوا يعيشون في آسيا الوسطى، ولكن لم يرد ذكر اسم شعب مساجيت. ونحن نعرف أن شعب مساجيت أجداد الأويغور، كانوا يحافظون على استقلالهم.

بعد أن فتح «دارا الأول» جزءاً من وسط آسيا، عين والياً عاماً هناك. وهكذا ظهرت مناطق الولاية العامة. وقسم «دارا» المناطق التي تحت سيطرته في آسيا الوسطى إلى ثلاث ولايات عامة. وتقول المعلومات التي سجلها «بطليموس» إن واحدة من قبائل صغد التي تعيش في جنوب سرداريا، كانت تدخل ضمن حدود الولاية العامة الثانية عشر. وكانت هذه القبيلة تدفع جزية كل عام مقدارها ٣٦٠ طالانت (أي حوالي ٨٦٠ ألف سكه ذهبية). والأراضي التي يعيش فيها شعبا صاقا وكاسبى كانت داخل منطقة الولاية العامة الخامسة عشر. وهؤلاء كانوا يدفعون

جزية سنوية مقدارها ٢٥٠ طالانت (٦٠٠ ألف سكه ذهبية). وكانت أراضي بارتيا وخورزم وصغد، في منطقة الولاية العامة السادسة عشر، وكانت تلك المنطقة تدفع كل عام جزية مقدارها ٣٠٠ طالانت (٧٠٠ ألف سكه ذهبية).<sup>١٠٠</sup> وكما رأينا فإن آسيا الوسطى كانت تدفع جزية كبيرة للأكمينيين، واستمرت هذه الجزية على مدى ١٩٠ عاماً، من عام ٥٢٠ ق.م وحتى عام ٣٣٠ ق.م. وكان حال شعوب آسيا الوسطى صعباً للغاية. ووقعت هذه الجزية السنوية على كاهل الشعب. ولذلك أعلن شعب المنطقة العصيان مرات عديدة من أجل التحرر من الخضوع الأكمينيين. مثال ذلك ما حدث في عام ٥١٣ ق.م، عندما اضطر «دارا الأول» أن يدفع بجيش كبير إلى آسيا الوسطى لإخماد عصيان شعب صاقا. في تلك الأثناء جاء راع من شعب «صاقا» اسمه «شيراك» إلى معسكر الجيش الفارسي، كان هذا الراعي مشوهاً. فقد غطت الجروح جسده بأكمله، وسُحقت أنفه وأذناه. قال «شيراك» للفرس أن «الصاقيين» هم من فعلوا به هذا وأنه يريد أن يحرقهم انتقاماً منهم. فخرج الفرس معه إلى الطريق الذي أرشدهم إليه وفي النهاية وجدوا أنفسهم خلف «الصاقيين». إذ بعد مسيرة استمرت سبعة أيام وليال وجدوا أنفسهم في وسط الصحراء. فأدركوا أن شيراك خدعهم، فقال لهم شيراك عندما أرادوا أن يفتكوا به ويقطعوه إرباً: «أنا احترقت! ولكني وضعتكم في قبضة الجوع والعطش من أجل إنقاذ أهل بلدي. إنكم ستموتون هنا من الجوع والعطش!»<sup>١٠١</sup> وبالفعل انقض الفرس عليه وقطعوه إرباً، ولكن الصاقيين استطاعوا أن يقضوا على جيش دارا الأول.

وبحلول القرن الرابع، أصاب الضعف الشديد إمبراطورية «الأكميند» بسبب النزاعات الداخلية والهجمات الخارجية.

### الغزاة المقدونيون وآسيا الوسطى

استعد الإسكندر بن فيليب ملك «مقدونيا» بعد مقتل والده لتحقيق خطته التي تستهدف غزو شعوب الشرق بمساعدة الفرس.

ولد الإسكندر في عام ٣٥٦ ق.م، ورباه والده وأحسن تدريبه، وكان معلمه الفيلسوف اليوناني المعروف أرسطو.

شكل الإسكندر جيشاً على أعلى مستوى من التجهيز والتدريب في ذلك الزمان. وفي عام ٣٣٤م عندما كان في الثانية والعشرين من عمره، بدأ غزو الشرق بجيش يتكون من ٣٠ ألف جندي مشاة وخمسة آلاف فارس. وفي نهاية الحروب التي استمرت عشر سنوات، سيطر الإسكندر على الأناضول وسوريا وفينيقيا ومصر وفارس وآسيا الوسطى وبلاد الهند. واضطر دارا الثالث، شاهنشاه الأكمينيد الأخير أن يشن عدة حروب من أجل فتح فارس. وبعد فتح آسيا الصغرى انهزم دارا الثالث أثناء حرب «إيسوس» وتمكن من الهرب، لكن الغزاة استولوا على أسرته وخزინته، وأرسل «دارا» سفيراً إلى الإسكندر وعرض عليه السلام، وتزويجه من إحدى بناته، ولكن عرضه قوبل بالرفض.

وفي عام ٣٣١م استولى الإسكندر على جزء من إمبراطورية الأكمينيد (آسيا الصغرى وفينيقيا وفلسطين ومصر)، ثم عبر دجلة والفرات وتقدم تجاه الجزء الداخلي للإمبراطورية الفارسية. وتشنت جيش «دارا الثالث» وقوامه ٩٢ ألف جندي على يد جيش الإسكندر وقوامه ٤٠ ألف جندي في الحرب الكبيرة التي وقعت بالقرب من بابل، وهرب «دارا» ثم قتله «بسوس» والي باكتريا العام الذي أعلن نفسه شاهنشاه الأكمينيد. وعندما علم الإسكندر بذلك تسلق جبال «هندوكوش» سيرا لمدة ١٥ يوماً بصعوبة بالغة ودخل باكتريا. فترك «بسوس» مدينة «بارتيران» الكبيرة وانسحب إلى شمال «أمو دريا». ووصل الإسكندر إلى «أمو دريا» بعد خمسة أيام وأسر «بسوس» وأحضره إلى أقباتانا، وأعدمه أمام عيون الفرس و«الميديين» ليلقن درساً لمن تسول له نفسه إعلان العصيان من أسرة أكمينيد الحاكمة.

وبعد أن انتهى الإسكندر من أمر «بسوس» سار تجاه سَمَرْقَنْد (ماراكاندا). وقاوم شعب سَمَرْقَنْد الغزاة وأبدوا بطولة في مواجهته، وبناءً على ذلك فهم الإسكندر أنه بحاجة إلى قوة أكبر للسيطرة على ماوراء

النهر. وواجه الإسكندر مقاومة شديدة أثناء هذه الحرب في أريته  
[أوراتبه] (طاجيكستان الحالية)، وقد لقي ٢٢ ألف شخص حتفهم أثناء  
غزو ماوراء النهر.

بعد أن فتح الإسكندر جزءاً مهماً من آسيا الوسطى (ماوراء النهر  
وباكتريا)، عين الولاية. ولم تعترف شعوب آسيا الوسطى بالسيطرة  
المقدونية التي فرضت بالسيف والنار. ولأنهم كانوا تواقين إلى الحرية  
فقد أعلنوا تمردهم ضد الولاية المقدونيين. وأكبر هذه التمردات هو ذلك  
الذي تزعمه «سبيتامن». ودخل «سبيتامن» سمرقند في عام ٣٢٨ ق.م.  
وقضى على قسم كبير من الحامية العسكرية المقدونية. ولجأ من تبقى  
منهم إلى قلعة سمرقند.

ولما علم الإسكندر بهذه الواقعة سار بجيشه الأساسي إلى ماراكندا  
(سمرقند). فلما رأى «سبيتامن» مجيئ الإسكندر رفع الحصار، ولجأ إلى  
تكتيك الكر والفر. وبعد عدة محاولات انسحب سبيتامن إلى الصحراء  
وهناك جمع قوة جديدة وعاود الهجوم على سمرقند. ولكن للأسف قتل  
على يد بعض الخونة الذين ظهروا في معسكره، وأحضروا رأسه إلى  
الإسكندر لينالوا المكافأة.

وتقول بعض المعلومات التاريخية إن زوجة «سبيتامن» هي نفسها  
التي قتلتها وأحضرت رأسه إلى الإسكندر.

وقد استمر عصيان «سبيتامن» ثلاثة أعوام حتى مقتله في عام  
٣٢٧ ق.م، وبموته انتهى العصيان. ولعب شعب «صاقا» (وشعب مساجيت  
بالطبع) في آسيا الوسطى دوراً كبيراً أثناء عصيان سبيتامن. إذ أن  
«سبيتامن» عندما ينهزم كان يلجأ إلى شعب «صاقا» في الصحراء، فيتم  
إنقاذه وحمايته من القتل. والحقيقة أن شعب صاقا قد أبدى بطولات  
كبيرة أثناء العصيان.

أما الإسكندر الذي بدأ حرب الشرق في عام ٣٢٤ ق.م، فإنه نجح  
مع حلول عام ٣٣٤ ق.م، في تأسيس الإمبراطورية المقدونية اليونانية في

الأراضي التي فتحها والتي تمتد من شرق البحر الأبيض وحتى شرق هندستان ؛ ولكن هذه الإمبراطورية استمرت ٢٢ عاماً فقط (٣٢٢ - ٣١٠).

بعد أن أحمّد الإسكندر عصيان «سبيتمان» خرج في عام ٣٢٧ ق.م لحرب هندستان واستولى على وادي البنجاب من هندستان، لكن جيشه لم يستطع التعود على المناخ الحار لهذه البلاد. وأعلن الجنود الذين كلوا من الحروب عن رغبتهم في العودة إلى بلادهم. فأمر الإسكندر بالعودة إلى فارس عن طريق البحر والبر واضعاً نصب عينيه رغبة جيشه. وعاد هو نفسه إلى بابل في عام ٣٢٤ ق.م ورغم أن حرب الشرق التي شنها الإسكندر كانت بهدف الغزو، فعند تقييم هذه الحرب بموضوعية نجد إنها كانت تهدف إلى إقامة علاقات ثقافية واقتصادية بين الشرق والغرب. والحقيقة إن آسيا الوسطى وهندستان قد أدركتا مدى التأثير الثقافي اليوناني الذي أحدث ثراءً ثقافياً غاية في الأهمية في تلك المنطقة.

عندما غزا الإسكندر شعوب آسيا الوسطى واجه صعوبات غير متوقعة، فرأى ضرورة الاستفادة من خيانة الاقطاعيين. ولكن قسم كبير من الشعب انغمس في بحر الدماء. وبعد ١٥٠ عام (أي في عام ١٨٠ ق.م)، تخلصت شعوب آسيا الوسطى من نير الإمبراطورية اليونانية المقدونية، أما باكتريا فقد نالت حرיתהا بعد ١٨٠ عام (أي في عام ١٥٠ ق.م).

وعندما مات الإسكندر عام ٣٢٣ ق.م في الثالثة والثلاثين من عمره، تمزقت الإمبراطورية بعد فترة قصيرة تاركة مكانها ثلاث دول: الدولة اليونانية وتشمل مقدونيا واليونان؛ دولة «سلاؤكوس» وتشمل سوريا وفارس وآسيا الوسطى، والدولة التي تأسست في مصر. ومن هذا التقسيم يتضح أن الشخص الذي نال نصيب الأسد من هذا التقسيم هو «سلاؤكوس» الذي كان أحد جنرالات الإسكندر.

وكانت عاصمة هذه الدولة التي أطلق عليها اسم دولة «سلاؤكوس» والتي تشمل آسيا الوسطى، هي مدينة «سلاوكيا» الواقعة عند نهر دجلة.

ودامت هذه الدولة ٢٤٨ عام، وحكمها ١٧ حاكماً. وفي عام ٢٥٠ ق.م وقعت أحداث مهمة جداً في دولة «سلاؤكوس». ونشب صراع على العرش بين أبناء الإمبراطور «أنطيوخس» سلاؤكوس الثاني (٢٤٦ - ٢٢٦)، وأخيه الصغير «هيراكليس». وانتهزت «باكتريا» و«بارتيا» (الجزء الشمالي الشرقي الجبلي لفارس) هذه الفرصة وأعلنتا استقلالهما. وأعلن «ديودوت» الوالي العام في بارتيا نفسه حاكماً. واستولى «أرشاق» أمير قبائل داهيا التي تعيش بجوار نهر تاجان في أفغانستان على الجزء الشمالي الشرقي من فارس. وهكذا أسس «أرشاق» دولة بارت. وسمى المؤرخون الصينيون هذه الدولة «آن شي» مضافاً لاسم أرشاق. فكلمة آن - شي هي ترجمة صينية لأرشاق.

وبالنسبة لإمبراطورية «سلاؤكوس» فقد قضت عليها إمبراطورية روما في عام ٦٤ ق.م. أما آسيا الوسطى فقد تم تخليصها بالكامل من السيطرة اليونانية المقدونية في عهد «أنطيوخس الثالث» أي في عام ١٨٠ ق.م.

ومع أن «باكتريا» انفصلت عن «سلاؤكوس» عام ٢٥٠ ق.م، وأعلنت استقلالها، فإن من فعل هذا ليس الحاكم المعين والياً عاماً من بين شعوب آسيا الوسطى، بل على العكس كان الوالي العام لدولة باكتريا الذي عينه السلاؤكوسيين ويدعى «ديودوت». ودامت هذه الدولة ١١٠ عام. وذكرت في التاريخ باعتبارها دولة باكتريا الأخرى.

وفي عهد «أوتديميوس» و«ديمتريوس» قويت شوكة دولة باكتريا الإغريقية. وكانت حدود هذه الدولة تضم صغديانا والجزء الشمالي الغربي من هندستان (ويضم ولاية السند)، والسفوح الجنوبية لجبال هندوكوش، وساحل بجيرة «هامون» في شرق فارس بالإضافة إلى ولايتي هيرات وقندهار في أفغانستان.

أقامت دولة باكتريا الإغريقية علاقات سياسية واقتصادية مع الأويغور الذين يعيشون في وادي تاريم. وفي عهد ديمتريوس (١٩٠ - ١٦٧ ق.م)،

«امتدت حدود دولة باكتريا الإغريقية حتى دولة السريكيين (الأويغوريين الذين يعيشون في وادي تاريم) ودولة الهون.»<sup>١٠٢</sup>

وفي عهد «أوتديموس» وقعت حرب بين دولة باكتريا الإغريقية والسلاوكيين. وفي عام ٢٠٨ ق.م شن أنطيوخس الثالث ملك «سلاووكوس» هجوماً على باكتريا الإغريقية وحاصر العاصمة «زاري أسب». وبعد حصار استمر لمدة عامين رفع «أنطيوخس» الثالث الحصار عندما أنذره «أوتديموس» بأنه سيطلب المساعدة من البدو<sup>١٠٣</sup>. وفي عام ٢٠٦ ق.م جاء «ديمتريوس بن أوتديموس» إلى مركز قيادة العدو للتفاوض مع «أنطيوخس الثالث» نيابة عن والده. وأثناء المفاوضات انبهر «أنطيوخس» الثالث بذكاء «ديمتريوس» وشجاعته. وهكذا تم توقيع إتفاق سلام بين الطرفين، وقبل «أنطيوخس الثالث» مساواة «أوتديموس» به، بل وافق أيضاً على إرسال إحدى بناته لتصبح عروساً لديمتريوس.

وقد أوضحنا من قبل أن دولة «باكتريا الإغريقية» قويت شوكتها في عهد «ديمتريوس بن أوتديموس» وخليفته. وبالرغم من هذا وجه القائد «أوجراتيد» ضربة للدولة منتهزاً فرصة غياب ديمتريوس عنها أثناء حربه في هندستان في عام ١٧٤ ق.م، فصار للدولة حاکمان لمدة سبعة أعوام، من عام ١٧٤ وحتى عام ١٦٧ ق.م. وفي عام ١٦٧ ق.م انفرد «أوجراتيد» بإدارة الدولة. لكن لدى عودته من حملته على هندستان عام ١٥٥ ق.م قتل على يد ابنه «أبولودوت» الذي قُتل هو أيضاً بعد بضعة أعوام على يد ابنه «هليوكيل».

وفي عام ١٤٠ ق.م أنهى الياوچي الكبار المار ذكرهم في المصادر الصينية باعتبارهم «دا - يوچي» (فيدرالية قبائل مساجيت)، سيطرة «باكتريا الإغريقية» على آسيا الوسطى.

وفي عهد «هليوكيل» انقسمت دولة باكتريا الإغريقية إلى دولتين هما: دولة باكتريا الإغريقية ودولة الهند الإغريقية. وانتهزت «الياوچي الكبار» هذه الفرصة ودخلت أفغانستان وقضت على دولة باكتريا الإغريقية. كانت «الياوچي الكبار» قبل ذلك تعيش في ممر «هو - هسي» في

قانسو الحالية، وفي عام ٢٠٩ ق.م أخضعها حاكم الهون الكبير «باتور تانريقوت» [متا - خان] لسيطرته.

وكان الياوچي الكبار [دا - يوچي لرا] مستقلون قبل إخضاعهم على يد الهون في القرن الثالث قبل الميلاد. وكان لديهم جيش مكون من ١٥٠ ألف جندي. وبالنظر لهذا الرقم يمكن القول أن عدد «الياوچي الكبار» - الذين كانوا يشتغلون بالزراعة كحرفة رئيسية - كان حوالي مليون نسمة. وكانوا جيران قبيلتي «الهون» و«أويصون» منذ القدم. وبينما كانت «الياوچي الكبار» تعيش في ممر «هو - هسي» مع قبيلة «أويصون»، كان الهون يعيشون في شرقهم في منغوليا الحالية ومنغوليا الداخلية. وفي القرن الثالث قبل الميلاد هجمت «الياوچي الكبار» على قبيلة «أويصون» وقتلت حاكمها، «نان - دو - مي» واستولت على أراضيها. وانسحبت قبيلة «أويصون» التي واجهت وضعاً قاسياً، تجاه الشرق ولجأت إلى الهون. أما والي «أويصون» الذي نجح في الهروب إلى الهون، فقد اصطحب معه أمير «أويصون راجومي» بن (نان - دو - مي) الذي كان حينئذ طفلاً لم يتجاوز عمره بضعة شهور. وأخذ «باتور تانريقوت» سلطان الهون الطفل تحت حمايته، وعندما شب «راجومي» أظهر بطولة كبيرة في الحروب التي خاضها الهون. وولاه «باتور طانري - قوت» حكم شعب «أويصون» وأعاد شعب أويصون بأكمله إلى أراضيهم. وبعد فترة بدأت الحروب من جديد بين قبيلتي «أويصون» و«الياوچي الكبار». وانهزمت قبيلة «أويصون» مرة أخرى أمام «الياوچي الكبار» ورحلت تجاه الغرب عبر إيرسين (في نينغ - شيا) وممر «هو - هسي» واستقرت في وادي «إيلي».

وبدأت «الياوچي الكبار» تمرداً على الهون في عام ١٧٦ ق.م. فأرسل «باتور طانري - قوت» ابنه «كوك - خان» (قايقو تانريقوت) [لاو - شانج] لإخماد التمرد. وأخمد «كوك - خان» تمرد «الياوچي الكبار» وقتل حاكمهم. ومنيت «الياوچي الكبار» بهزيمة ساحقة في هذه الحرب



الدامية، وهربوا تجاه الغرب في عام ١٧٥ ق.م بقيادة أرملة حاكمهم الذي لقي حتفه، فوصلوا أولاً إلى مدينة كوچار؛ ومن هناك وصلوا سيرهم حتى وصلوا إلى «وادي إيلي» وطردوا قبيلة «أويصون» التي كانت قد استقرت هناك قبل فترة قصيرة. وعاشت «الياوچي الكبار» ٢٥ عاماً في وادي إيلي ولكنهم طردوا من هناك بعد هزيمتهم أمام قبيلة «أويصون» بدعم من الهون. فانسحبت «الياوچي الكبار» تجاه الجنوب الغربي ووصلوا إلى كاشغر؛ ولكنهم لم يمكثوا هناك طويلاً، ودخلوا أراضي باكتريا الإغريقية (شمال أفغانستان) وفي عام ١٤٠ ق.م، قضاوا على هذه الدولة، أسسوا الدولة المعروفة في التاريخ باسم «طخارستان».

وفي عام ١٢٦ ق.م جاء السفير الصيني «تشانج تشين» إلى «الياوچي الكبار» وحرصهم ضد الهون، وطلب منهم أن ينحازوا إلى إمبراطورية الهان في الحرب التي ستشنها ضد دولة الهون. واستقبلت «الياوچي الكبار» السفير الصيني بحفاوة، ولكنها رفضت طلبه الذي قدمه نيابة عن الإمبراطور «وو - تي».

### آسيا الوسطى في عهد الهون والكوشان والأقهن

في عام ١٧٧ ق.م شن «باتور تانريقوت» حملة باتجاه الغرب، ووصل حتى ساحل بحر الخزر ثم رجع. وبعد عام أرسل هذه الرسالة مع سفير إلى «وين - تي» إمبراطور «هان» جاء فيها: «إنني استوليت على إمارة «لولان» و«أويصون» و«الأغوز» [كان الأغوز في هذه الفترة يعيشون بالقرب من «چوجك» وزايسان في قازاقستان]، و٢٦ إمارة بجوارهم. وجميعهم كانوا من ضمن دولة الهون. واتحدت جميع الشعوب التي تم إخضاعها بالسلاح، في أسرة واحدة.»<sup>١٠٤</sup>

وكما أوضحنا بعاليه أن «باتور تانريقوت» أخضع الدول التي أسستها «الياوچي الكبار» في غرب آسيا وآسيا الوسطى و«يدي صو»، وحتى يحكم الهون الإمارات التي في الغرب، عينوا أميراً هونياً يسمى «باطيس خان». وكان مقر قيادة باطيس خان بالقرب من مدينة كورلا، وتتبع

له أراضي الهون التي في سط وغرب آسيا. واستمرت سيطرة الهون على آسيا الوسطى فترة طويلة. ويمكن القول إن هذه السيطرة كانت في الفترة من ١٧٧ ق.م - ٢٠٠ بعد الميلاد. وكما أشرنا من قبل أيضاً أن دولة طخارستان التي أسستها «الياوچي الكبار» كانت تتكون من خمس إمارات، كل إمارة منها يحكمها «يابغو» أو والٍ على النحو التالي:

إمارة واهان (في شمال شرق أفغانستان)

إمارة ماستوچ (في شمال باكستان)

إمارة كوشان (في غرب واهان)

إمارة فاروان (في شمال كابول)

إمارة كابول

شكلت إمارات «طوخار» التي استمر وجودها حوالي مائة عام في الفترة من ١٤٠ - ٥٠ قبل الميلاد، إمبراطورية «كوشان» القوية.

وفي عام ٥٠ ق.م أخضع حاكم «كوشان» قانيشقا الأول الإمارات الأخرى، وجاء ذكره في التاريخ بوصفه حاكم أراضي كوشان. وأنزل «قانيشقا الأول» مؤسس إمبراطورية «كوشان» هزيمة ساحقة بإمارة «پارتيا» التي بجوار كابول في جنوب «هندكوش» وضم لنفسه جزء من أراضيها.<sup>١٠٠</sup>

ويؤرخ «قباغا» تاريخ إمبراطورية «كوشان» التي استمر وجودها حوالي خمسة قرون على النحو التالي:

في عهد «قادفيس الأول» (في الفترة من ٤٠ - ٧٥م)، و«قادفيس الثاني» (في الفترة من ٧٥ - ٩٥م) كانت الأراضي الرئيسية لإمبراطورية «كوشان» توجد في آسيا الوسطى. وفي عهد «قادفيس الأول» كانت حدود الإمبراطورية تمتد من خوارزم وصغديانا وحتى هندستان وپامير وپارتيا. أما في عهد «قادفيس الثاني» فقد دخلت هندستان بأكملها التي كانت تمتد حدودها حتى «بيناريس» ضمن حدود الإمبراطورية.

وكانت عاصمة الإمبراطورية مدينة بيشاور الواقعة في شمال شرق هندستان. وبلغت الإمبراطورية أوج قوتها في عهد «قانيشقا الثاني» الذي اتخذ لقب «ملك الملوك» (استمر حكمه في الفترة من ٧٨ - ١٢٣م تقريباً)، وعهد من جاءوا بعده، وفي عهد «قانيشقا الثاني» صارت إمبراطورية «كوشان» ليست أقوى دولة في العالم فحسب، بل صارت أيضاً دولة الثقافة في آسيا.

وفي عام ٨٩م أرسل «قانيشقا الثاني» سفيراً إلى إمبراطور «هان» وأخبره أنه يريد أن يتزوج من أميرة صينية. ورفض الإمبراطور «هو - تي» هذا الطلب بل واعتقل سفير كوشان إذ رأى أن إقامة علاقات ودية مع فارس ستضره. وعندما علم «قانيشقا الثاني» بهذا الأمر سار بجيش قوامه ٦٠ ألف جندي منطلقاً من پامير إلى وادي تاريم. وكان «پان - چاو» سفير «هان» موجوداً في كاشغر في تلك الأثناء فتولى قيادة جيش الأويغور الذي تم جمعه من خوتن وياركند وكاشغر، وهزم جيش كوشان. وفي عام ١٠٣م، اضطرت أسرة هان أن تسحب «پان - چاو» من كاشغر بسبب ضغط الهون الغربيين (والهون الشماليين). وبعد هذه الواقعة قطعت الشعوب التي تعيش في المنطقة الغربية علاقاتها مع أسرة هان.

وتبادل «قانيشقا الثاني» المعلومات السرية مع حكام الأويغور في «وادي تاريم». وتمكن في عام ١٢٠م، من ضم خوتن وياركند وكاشغر إلى حدود إمبراطورية «كوشان»

وفي عهد «قانيشقا الثالث» لم تكن للكوشان علاقات بالشعوب الشرقية فحسب بل بالشعوب الغربية أيضاً. ونجح الوفد الدبلوماسي لكوشان الذي توجه إلى روما في عام ٩٩م في إقامة علاقات دبلوماسية مع إمبراطورية روما، والدليل على ذلك وجود النقود المعدنية الكثيرة التي ترجع إلى إمبراطورية كوشان السابقة والتي عثر عليها في أماكن كثيرة من أراضى إمبراطورية روما في زمن الإمبراطور «نيرون» (٥٤ - ٦٨م). وبالإضافة إلى العلاقات مع روما، أقام الكوشان علاقات دبلوماسية

مع دول أخرى في أوروبا الشرقية.<sup>١٠٦</sup>

ولا تتوافر لدينا معلومات قاطعة بالقدر الكافي عن العهد التاريخي المتأخرة لكوشان. تقول بعض المصادر إن إمبراطورية «كوشان» أخذت في الضعف في القرن الثالث، وانكشفت حدود الدولة، وبقيت لها حدود فقط مع آسيا الوسطى ووادي كابول وكشمير وهندستان في الشمال الغربي. وضعفت سيطرة «الكوشان» على آسيا الوسطى، وفي العهد المتأخر للكوشان أعلنت خوارزم وصغديانا استقلالهما. وبدأ أباطرة «كوشان» في العيش داخل حدود هندستان فقط، واستخدموا لقب «راجا». وباختصار فقد تم استيعاب الشعب الكوشاني داخل الشعب الهندي.

وفي عهد الكوشان (٥٠ ق.م إلى ٤٢٠م) بلغت العلاقات التجارية بين الشرق والغرب أوجها، ولعبوا دوراً كبيراً جداً في تشكيل ثقافات غنية طورت في أساس الثقافة الغربية (خاصة الثقافة اليونانية القديمة). ويدل على هذا تماثيل الموسيقيين الحجرية التي في معبد «أيرتام» البوذي الموجود بالقرب من مدينة ترمذ في أوزبكستان.<sup>١٠٧</sup>

وقد ترك الفن «الكوشاني» أثراً مهماً في الثقافة الهندية (الأثار الهندية التي في مدينتي طاقيس ومادور)، وفي الثقافة الأويغورية (تماثيل الآلهة في كوچار وكاشغر)، وفي الثقافة الأوروبية الشرقية (بواسطة الألابيين).<sup>١٠٨</sup>

وكان يتم التحدث بلغات مختلفة داخل حدود إمبراطورية كوشان مثل (اللغة التركية والفارسية والهندية)؛ أما بالنسبة للحروف الأبجدية فقد كانت تُستخدم أبجدية «خوارزم» و«كاروشي» (كانت تتكون من بعض حروف الأبجدية السريانية)، وأبجدية «كوشان» (التي تدخل فيها بعض الأبجدية اليونانية القديمة).

اعتنقت الشعوب التي عاشت في إمبراطورية كوشان العقائد الزرداشية والشامانية المانوية والبوذية. والمعابد البوذية التي أكتشفت في آسيا

الوسطى و«يدي صو» توضح هذا.

وتم تحديد أسماء أباطرة كوشان التسعة الذين قضى عليهم «الآق هون» في عام ٤٢٠م:

قبل الميلاد:

١ - قانيشقا الأول (٥٨ - ٣١) - ٢٧ عام؛

٢ - خويشقا (٣١ ق.م - ١٠ م) - ٤٠ عام؛

بعد الميلاد:

٣ - واصودوا (١٠ - ٤٠ م) - ٣٠ عام؛

٤ - قوجولا قادفيس الأول (٤٠ - ٧٥) - ٣٥ عام؛

٥ - ويما قادفيس الثاني (٧٥ - ٩٨) - ٢٣ عام؛

٦ - وايشقا (٩٥ - ١١٩) - ١٥ عام؛

٧ - قانيشقا الثاني (١١٠ - ١٢٩) (تقول بعض المصادر إن حكمه كان

في الفترة من ٧٨ - ١٢٣)؛

٨ - واصودوا (... - ٢٥٠)؛

٩ - كيتارا (ولد في القرن الخامس).

وللأسف لا توجد الآن المعلومات التي تمكننا من عمل جدول تاريخي كامل لأباطرة كوشان، والجدول الذي قدمناه هنا هو فقط ما تم تحديده.

كنا قد أوضحنا إن إمبراطورية «كوشان» بدأت في الضعف بداية من القرن الثالث. وفي نفس الفترة استولت الدولة الساسانية (٢٢١ - ٦٥١م)، التي قويت شوكتها في فارس على أفغانستان في فترة قصيرة، أما دولة هند جوبتا (٣٢٠ - ٤٤٥م) التي قويت شوكتها في القرن الرابع، فقد أحكمت سيطرتها على شمال غرب الهند. وفي هذه الفترة اقتصر وجود الكوشان على منطقة «هندكوش» الشمالية فقط.

في بداية القرن الخامس (في عام ٤٢٠م) ظهر «انيشقا» وجاءوا من شمال شرق «بحيرة آرال» وهجموا على الجزء الشمالي الغربي لهندستان، واستولوا على «باكتريا» وقضوا على الباقيين من «الكوشان». كان القانيشقا ذوي بشرة بيضاء لأنهم أحفاد «الياوچي الكبار». ولذا يقول المؤرخ البيزنطي «بروكوبياس» في القرن السادس، إن هذا هو السبب الأساسي للقول بأن «الآق هون» ينحدرون من شعب «الياوچي الكبار»

وقد أوضح المؤرخون الأرمن في القرن الخامس: «إن شعبي «كوشان» و«إيفتاليت» (الآق هون) لا يمكن فصلهما عن بعضهما البعض.» لأن كلا من الكوشان والآق هون جاءوا من شعب «الياوچي الكبار». وأشار لهذا في «حولية أسرة طانغ» تحت عنوان «أخبار متعلقة بشعب إيفتاليت» حيث يقول: «إن شعب «إيفتاليت» قد جاء من شعب «الياوچي الكبار» [دايوچي] الذي عاش في عهد «أسرة هان».

وسعى «الآق هون» للقضاء على دولتي خوارزم والصغد في آسيا الوسطى، والاستيلاء على أراضي «الكوشان» التي استولت عليها الأسرة الساسانية في فارس، ولهذا السبب وقعت معارك استمرت لفترة طويلة جدا بين الطرفين.

حارب السلطان «آق سيوار» سلطان الآق هون الأول (٤٢٠ - ٤٧٠م)، «بهرام غور» شاهنشاه فارس الساساني بالقرب من مرو، لكن الحرب انتهت بانتصار فارس. وهكذا تم الاتفاق على أن تكون مدينة «طالقان» [طالاقان] الواقعة بين مرو وبلخ حدا بين الدولتين. وفي عام ٤٥٧م استولى «آق سيوار» على بدخشان وطخارستان وچيجاتيان وجورجان (عند التيار الأوسط لنهر مرغاب). وفي عهد شاهنشاه الساساني «فيروز» وقعت عدة حروب بين شعبي فارس والآق هون، وهزم «آق سيوار» سلطان الهون «فيروز» في الصدام الأول وأسرته، ثم أطلق سراحه بعد أن افتداه «زنون» إمبراطور روما الشرقية [بيزنطة] الذي كان حليف فارس في تلك الفترة. وبعد هذه الواقعة تعهد «فيروز» بترك مدينة «طالقان»

للاق هون وإنه لن يتجاوز الحدود التي تم تحديدها في عهد «بهرام غور» لكنه لم يف بوعده، وأعلنت بيزنطة وسفير روما الشرقية الموجود في العاصمة الساسانية، الحرب ضد شعب إيفتاليت (لأن بيزنطة في تلك الأثناء كانت تساعد فارس بالمال وتحرضها على محاربة الآق هون). وهزم الآق هون جيش فارس الذي كان يقوده «إيفتالايوس» ووقع «فيروز» أسيراً مرة أخرى. وكان المفروض أن يقدم الحكام الفرس حمولة ٣٠ بغلاً محملة بالدينارات الفضية فدية لإطلاق سراحه. لكن «فيروز» لم يستطع جمع سوى حمولة ٢٠ بغلاً من النقود. ولهذا السبب وافق على ترك ابنه «قوباد» رهينة حتى يتم الوفاء بالجزء الباقي من الفدية. كما تعهد «فيروز» بإرسال إحدى شقيقاته لتكون زوجة لحاكم الآق هون بهدف إقامة علاقة نسب معهم

ولكن «فيروز» فكر أن يخدع «إيفتالانوس» فأرسل فتاة من عامة الشعب بدلاً من أخته. وعندما اكتشف إيفتالانوس هذه الخدعة، قتل نصف الخبراء العسكريين الذين جاءوا من فارس، وأمر بتشويه النصف الآخر.<sup>١١٠</sup>

وصار الفرس في وضع صعب للغاية بعد هزيمتهم مرتين أمام الآق هون. ودخل فيروز حرباً ثالثة ضد الآق هون في عام ٤٨٤م مدعوماً من روما الشرقية. لكن الجيش الفارسي بقيادة فيروز سقط في الخنادق المغطاة التي أمر حاكم الأقهون بتجهيزها ولقوا مصرعهم، كما لقي «فيروز» وسبعة من أولاده حتفهم في نفس الحرب، وفي تلك الأثناء استولى الآق هون على بعض مدن مرو وفرضوا جزية كبيرة على فارس. وبعد هذه الانتصارات، استولى «إيفتالانوس» على كابول ووادي البنجاب في هندستان. وبعد ذلك دخل أراضي «الآن» من أعلى قره قورم. وسيطر على الإمارات الأويغورية مثل خوتن وياركند وكاشغر وكوچار.<sup>١١١</sup> وفي عهد «إيفتالانوس» صارت آسيا الوسطى (ومن ضمنها وادي تاريم) والجزء الشرقي لفارس وجزءاً آخر من الهندستان، ضمن حدود دولة «الآق هون».

وكانت فارس في عهد شاهنشاه «قوباد» (٤٨٤ - ٥٣٠م) و«خسرو أنوشروان» (٥٣٠ - ٥٨٠م) وهما من الحكام الساسانيين، تدفع الجزية إلى الآق هون، وكانت أساساً تحت وصاية «الآق هون» بداية من عام ٤٥٩م وحتى عام ٥٥٤م. ويقول المؤرخ الأرمني «لازار» الذي عاش في القرن السادس: «إن فارس كانت مرتبطة بشعب «إيفتاليت» في عهد فيروز، ولم تكن هناك فرصة للتخلص من هذه العبودية.»<sup>١١٢</sup>

وبعد إفتالانوس آلت رئاسة الآق هون إلى كل من «تورامانخان» (٤٩٦ - ٥١٠م) ثم «ميهيراقول» [ميهريقورا] (٥١٠ - ٥٤٠م)، ثم جاء بعدهم «غاد پارا». في عهد «ميهيراقول» شن «الآق هون» عدة حروب ضد إمارة الأويغور التي بجوار مدينة «قارا شَهْر». ولكن المصادر الصينية تقول: إن «ذوي العجلات العالية» وتعنى بذلك الأويغور بصفة عامة، خاضوا عدة حروب إلى جانب «الآق هون» ضد الآوار. وبعد أن تزوج «ميهيراقول» شقيقة «أيناغاي» سلطان «الآوار»، انتهت الحروب بينهم.

واستطاعت فارس في عام ٥٥٤م فقط التخلص من الخضوع للاق هون والحصول على استقلالها التام بفضل الأتراك. لأن الأتراك الذين أسسوا دولتهم في عام ٥٥١م هجموا على الآق هون، ووجهوا لهم ضربة قاضية، وبذلك استطاعوا أن يضموا لحدودهم طخارستان الفارسية الساسانية التي تخلصت من وطأتهم.

وقضى الأتراك في عام ٥٦٠م على دولة آق هون التي استمرت ١٤٠ عاماً. واستولوا على جزء كبير من أراضيهم. وفي عهد «ميهيراقول» نقل الآق هون عاصمتهم «ماراكاندا» إلى «ساركوت» في البنجاب. والحقيقة إن الآق هون قد سيطروا على معظم شعوب آسيا الوسطى، ولكنهم لم يتدخلوا في شئونهم الداخلية.

كان «الآق هون» يعيشون بصفة عامة في المدن. ولديهم جيوش مقاتلة ومجهزة تجهيزاً جيداً ويتحدثون بلغة الهون الغربيين. ويعيش داخل هيكلمهم المجتمعي شعوب مختلفة مثل (الأتراك والفرس والهنود)، ويدينون بعقائد مختلفة مثل (البوذية والباجاتية والمانوية)، وكانوا ذوي



ثقافات ثرية. وتعلم الصينيون منهم صناعة الزجاج الملون. ويقال في «حولية أسرة وي» في جزء «شعوب الطرف الغربي»، في باب «شعب دايجو» : «قال تجار «ياوجي» الذين جاءوا إلى العاصمة (إلى طا - طونج، عاصمة أسرة وي)، إنهم أذابوا الحجارة وصنعوا منها زجاجاً ملوناً بألوان مختلفة. فهم جلبوا المعادن من الجبل وابتجوا الزجاج في العاصمة. والزجاج الذي صنعوه كان أكثر لمعاناً من الزجاج القادم من البلاد الغربية. ولهذا السبب أمر الإمبراطور (طو - باتاو حاكم أسرة وي) بعمل أشياء متنوعة من الزجاج الملون الخاص بهؤلاء التجار. فقد كان زجاجهم ليس لامعاً فحسب بل كان منمقاً أيضاً». وكل من شاهد هذا الزجاج انبهر وأطلقوا على هؤلاء الذين صنعوه اسم المقدسين.»<sup>١١٣</sup> وهذا في عام ٤٢٤م. وكما أوضحنا من قبل أن المقصود بـ «الدول الغربية» التي تحدثنا عنها هنا، روما أو سوريا.<sup>١١٤</sup> لأن الصينيين كانوا يحضرون الزجاج من روما وسوريا قبل ذلك.

وفي عهد «الآق - هون» ارتقت الزراعة والصناعة والتجارة والثقافة وتطورت كثيراً في آسيا الوسطى.

### آسيا الوسطى والعرب

قبل الحديث عن الفتح العربي لآسيا الوسطى والحرب التي خاضتها شعوب المنطقة ضدهم، من المفيد أن نتحدث قليلاً عن الفتح العربي لسوريا والعراق وفارس منذ ظهور الإسلام.

الإسلام هو من الديانات الكونية مثل المسيحية والبوذية. ارتبط ظهور هذا الدين بتغيرات كبيرة وقعت في حياة الشعوب. أقدم هذه الديانات الثلاث الكبيرة هي البوذية التي ظهرت قبل ستة آلاف عام من الميلاد، وبينما ظهرت المسيحية قبل ألفين عام من وقتنا هذا، فإن الإسلام ظهر في القرن السابع الميلادي. والإسلام منتشر اليوم في الدول العربية وتركيا وفارس وأفغانستان وهندستان وباكستان وأندونيسيا وماليزيا وبعض دول شمال أفريقيا والصين والاتحاد السوفيتي السابق.

## وشبه الجزيرة العربية هي مهد الدين الإسلامي...

في عهد الخليفة أبي بكر الصديق استعد العرب لنشر الإسلام بين الشعوب المجاورة لهم. أما في عهد عمر بن الخطاب، فقد بدأوا شن الحرب على الجيران في الشرق والغرب. وكان أول هدف لعمر بن الخطاب هو الإمبراطورية الرومانية الشرقية، فهجمت الجيوش الإسلامية بقيادة القائد خالد بن الوليد على بيزنطة، واستولت على الشام. أما في عام ٦٣٦م، فقد قضى خالد بن الوليد في اليرموك على الجيش البيزنطي الذي كان قوامه ٢٠٠ ألف جندي بقيادة «هرقل»، واستولى على فلسطين. ولقي قائد الجيش البيزنطي «ثيودوروس» حتفه في هذا الصدام.

وبعد فتح فلسطين وسوريا صار هدف الخليفة عمر هو فارس. تقول الرواية إنه في عام ٦٢٨م أرسل الرسول محمد صلى الله عليه وسلم رسالة إلى خسرو برويز كسرى فارس، ودعاه للدخول في الإسلام، ولكن «برويز» مزق رسالة الرسول. فقام الخليفة عمر في عام ٦٣٧م بتوجيه الجيوش الإسلامية إلى فارس بقيادة سعد بن أبي وقاص، والتقى الجيشان، الإسلامي والفارسي في القادسية. وكان يوجد في جيش الفرس ٣٠ فيلاً. في اليوم الثالث للحرب جرح العرب الأفيال بمزاريقهم، وقطعوا خراطيمهم بالسيوف. وغنم العرب الذين أنزلوا هزيمة ساحقة بالفرس غنائم كثيرة من بينها العلم الفارسي.

تقول الرواية إن هذا العلم كان يخص «دميرجي كاوي» البطل الشعبي الفارسي، وكان مزيناً بالماس واللؤلؤ. ويقول الفردوسي في «الشهنامه» إن «دميرجي كاوي» كان قد تمرد على «داهاق الطاغية» في العصر القديم، وأنه أحضر هذا العلم ليكون راية للثوار.

وخرج «يزدجرد الثالث» شاهنشاه فارس (٦٣٤ - ٦٥١م) إلى أطراف خراسان، وانشغل بجمع جيش جديد، وسار هذا الجيش الذي جمعه، وكان قوامه ١٥٠ ألف جندي إلى الغرب بقيادة «مردانشاه بن هورمزد

الرابع». وانتهت الحرب الدامية التي وقعت بين الطرفين في نهاوند عام ٦٤٥م بهزيمة الفرس. وهرب «يزدجرد» إلى شرق فارس مرة أخرى، وهكذا لفظت الأسرة الساسانية آخر أنفاسها. وفيما بين الأعوام (٦٤٢ - ٦٤٤م) استولى جيش الخليفة عمر بن الخطاب على الولايات الفارسية (أصفهان وتبريز وارمينيا وفارس وكرمان وسيستان وخراسان) الواحدة تلو الأخرى، أما في عام ٦٥١م فقد وصلت الجيوش الإسلامية حتى أسوار مرو، واستولت على المدينة بدون حرب. وهكذا طوى التاريخ صفحة الدولة الساسانية التي استمر وجودها ٤٢٧ عاماً.

تُرى لماذا خضعت فارس هكذا وبشكل سريع للعرب؟ في أول الأمر تعرضت فارس للهجوم من قبل الجيش المشترك لـ «طون يابغو» سلطان الترك الغربيين وهرقل إمبراطور بيزنطة، وتلقت ضربة ثقيلة (عام ٦٢٨م). واستولى «طون يابغو» على «كتيسيفون» عاصمة فارس آنذاك. وأسقط «خسرو برويز» من على العرش، ونصب كاوى على العرش مكانه. وكانت هذه الحرب بمثابة صفة لفارس، وأدت إلى إضعافها، وهذا هو سبب عدم قدرة الساسانيين على مقاومة الفتح العربي.

وفي عهد الخليفة علي بن أبي طالب بدأت الاضطرابات الداخلية بين العرب، وبعد وفاته عام ٦٦١م خرجت الخلافة من قريش، وانتقلت إلى الأمويين. فقد كان الخلفاء الأربعة السابقون جميعهم من قريش.

وفي عهد الأمويين انتقل مركز الخلافة من الكوفة إلى الشام. وبعد ذلك بدأت حركة فتح آسيا الوسطى، وكان سبب تحقيق العرب الانتصارات السهلة، هو أن الدول التي استهدفوا فتحها كانت آيلة للسقوط من داخلها نتيجة الصراع على العرش، والحروب الداخلية، كما كانت ضعيفة بسبب الثورات وتدهور الوضع السياسي والاقتصادي. هذا بالإضافة إلى الخبرات القتالية الهائلة التي اكتسبها العرب من خلال الحرب ضد بيزنطة وفارس.

كان لدى العرب وحدات فرسان مجهزة بأسلحة ثقيلة وخفيفة، كما كان لديهم وحدات مشاة أيضاً. ولم يكن في الوحدات المدرعة الفرسان

فحسب بل الخيول أيضاً كانت مدرعة. وكان عدد الفرسان مساوياً لعدد المشاة.

بعد أن فتح العرب «مرو» في عام ٦٥١م حولوا أنظارهم إلى آسيا الوسطى. ومن المحتمل أن الشيء الذي جذبهم إلى هذه المنطقة هو الأرض الخصبة والمحاصيل الوفيرة فأثناء الفتح العربي كانت آسيا الوسطى لاتنعم بالاستقرار. وفي ذلك الوقت داخل مجال سيطرة السلطنة التركية الغربية؛ وكانت السلطنة التركية نفسها ضعيفة جداً بسبب الحروب الداخلية والهجمات الخارجية. وذلك لأنه بعد موت طون يابغو في عام ٦٣٠م بدأت الاضطرابات الداخلية. وتولى حكم الأتراك الغربيين: سي يابغو (٦٣٠ - ٦٣٣م) وطولو قاغان (٦٣٣ - ٦٤٠م) وإيشبارا تيريش تونغاقاغان (٦٣٤ - ٦٣٩م) وباغاتور إبي قاغان (٦٣٩ - ٦٤٠م) وإبي طولو قاغان (٦٤٠ - ٦٥٣م).

وبعد هزيمة «يزدجرد الثالث» أمام العرب في نهاوند عام ٦٤٢م جاء إلى مرو، ولجأ إلى «إبي طولو» سلطان الأتراك الغربيين، لكن «إبي طولو» كان هو نفسه في وضع ضعيف، لا يمكنه من الدفاع عنه ضد العرب.

وعلاوة على ذلك فإنه اعتباراً من عام ٦٤٠م شنت «أسرة طانغ» عدة هجمات ضد الأتراك الغربيين. وأنزلت إمبراطورية طانغ بالمساعدة التي حصلت عليها من الأويغور ضربة ثقيلة بـ «چن - چو يابغو» (اسمه في المصادر الصينية أسينا هو - لو)، سلطان الأتراك الغربيين بالقرب من بوروتولا عام ٦٥٩م، وبعد ذلك لم يستطع الأتراك استعادة وحدتهم التي كانوا عليها.

كان هذا هو الوضع في آسيا الوسطى أثناء هجمات العرب على آسيا الوسطى، وفي عهد معاوية (٦٦١ - ٦٨٠م) عبر عبيد الله بن زياد نهر «أمودريا» وهجم على آسيا الوسطى، واستولى على «بايكنت» وبخارى وعاد إلى «مرو» بغنائم وفيرة والكثير من أسرى الحرب.

والحروب التي شنها سعد بن عثمان في عام ٦٧٦م ضد بخارى ومدن صغديانا الأخرى كانت خطوات مهمة في مسار الفتح العربي لآسيا الوسطى. فبعد استيلاء سعد على بخارى توجه إلى سمرقند، وكان النصر حليف العرب وحصلوا على غنائم كبيرة فضلا عن ٢٠ ألف أسير.

لم يستطع الولاة الذين تم تعيينهم في عهد الخلفاء يزيد (٦٨٠ - ٦٨٣م) ومعاوية الثاني (٦٨٣ - ٦٨٤) ومروان الأول (٦٨٤ - ٦٨٥) وعبد الملك (٦٨٥ - ٧٠٥م) أن يسيطروا على شمال شرق فارس (خراسان) بأكملها، إذ لم يستطع ربيع بن زياد وعبد الله بن حازم ويزيد بن المهلب، وهم من الولاة العموميين، الاضطلاع بهذا الأمر، والسبب هو تمرد شعوب آسيا الوسطى الذين تم فتح بلادهم على أيدي العرب، والمقاومة الشديدة التي أبدوها ضد هذا الفتح.

فقد استغرق إخضاع العرب لآسيا الوسطى ٥٠ عاماً تماماً حيث تعين على الخلفاء الوليد الأول (٧٠٥ - ٧١٥) وسليمان (٧١٥ - ٧١٧) وعمر الثاني (٧١٧ - ٧٢٠) ويزيد الثاني (٧٢٠ - ٧٢٤) وهشام (٧٢٤ - ٧٤٣) والوليد الثاني (٧٤٣ - ٧٤٤) أن يبذلوا جهوداً كبيرة.

أما في عام ٦٨٢م فقد تأسست من جديد السلطنة التركية الشرقية، كما انتعشت السلطنة التركية الغربية بحلول عام ٧٠٠م، ولذلك لم تسمح السلطنة التركية سواء الشرقية أو الغربية للعرب بالاستيلاء على آسيا الوسطى، فلو تيسر للعرب الاستيلاء على آسيا الوسطى لتنحي الأتراك (خاصة الأتراك الغربيين) جانباً واستطاع العرب إخضاع شعوبها، لهذا كانت الشعوب التركية في مقدمة الصفوف التي قاتلت العرب، وكان هذا هو سبب المقاومة الشديدة التي واجهها العرب.

كان هدف قتيبة بن مسلم، الوالي العام على خراسان الذي عينه الخليفة الوليد (٧٠٥ - ٧١٥) هو إخضاع آسيا الوسطى. فتحرك قتيبة من مرو بجيش كبير لفتح بخارى في عام ٧٠٩م. وبناءً على طلب شعوب آسيا الوسطى، أمر «قباغان - خان» الموجود على رأس السلطنة

التركية الشرقية آنذاك بخروج الجيش التركي بقيادة «كول - تيكين»  
لمواجهة قتيبة

كان «كول - تيكين» بن «قوتلوك إيلتيريش قاغان» وابن شقيق  
«قباغان - خان» بطلاً مشهوراً وجديراً بالاحترام. غير أن الأتراك انهزموا  
على يد العرب وانسحب «كول - تيكين» واستولى قتيبة على بخارى.  
وفي عام ٧١٢م جاء «كول - تيكين» مرة أخرى إلى آسيا الوسطى  
بجيش جديد. في تلك الأثناء تحرك قتيبة للاستيلاء على مدينة  
سَمَرْقَنْد التي كانت بمثابة قلب الصغد. في بداية الحرب كان النصر  
حليف الأتراك الشرقيين، ولكن فجأة استدعى «قباغان خان» كول -  
تيكين. إذ أن العلاقات بين السلطنة التركية الشرقية وإمبراطورية طانغ  
قد توترت.

والواقع أن انسحاب «كول - تيكين» سهّل كثيراً من أمر قتيبة.  
فاستولى قتيبة على سَمَرْقَنْد في عام ٧١٢م، وحول أنظاره إلى وادي  
فَرغانة، واضطر إلى الانسحاب دون أن ينجح في الاستيلاء على كاشغر.  
وفي عام ٧١٥م انشغل العرب باستكمال فتح آسيا الوسطى؛ و برغم عدم  
الاستيلاء على كامل ما وراء النهر، لكنهم نجحوا في الاستيلاء على  
زرفشان ووادي قاشقادريا وخورزم.

وبعد موت الوليد ساءت علاقة قتيبة بالخليفة الجديد سليمان بن  
عبدالمك. فقد أراد سليمان أن يقضي على الحجاج الذي خرج عليه،  
لكن قتيبة انحاز للحجاج ولم ينصع لأوامر سليمان. بيد أن قتيبة قُتل  
في عام ٧١٥م على يد الجنود العرب الذين تمردوا في فَرغانة. وانشغل  
الخلفاء الذين جاءوا بعد موت قتيبة على مدى ٣٥ عاماً بمحاولة إخضاع  
شعوب آسيا الوسطى وعلى رأسهم الأتراك الغربيين، وفي النهاية بلغوا  
هدفهم، ولنقف قليلاً عند هذه الأحداث.

لم يكتف العرب بالسيف والسوط لإخضاع شعوب آسيا الوسطى بل  
لجأوا إلى وسائل أخرى. مثلاً كانوا لا يأخذون خراجاً من الذين قبلوا

الدخول في الإسلام. وأراد بعض الخلفاء أن يرجعوا عن ذلك، لكن ولاية خراسان لم يوافقوا على ذلك، وواصل أهالي آسيا الوسطى الذين لم يرضوا عن سياسة الجزية هذه التي طبقها العرب، نضالهم بزعامة «صولو - خان» سلطان الأتراك الغربيين.

وفي عام ٧١٧م تأسست سلطنة «طور كيش» الوريث الشرعي لسلطنة الأتراك الغربيين. وينتمي شعب «طور كيش» إلى الأتراك الغربيين وبصفة خاصة إلى شعب «أون أوق» وكان يتشكل من «صاري طور كيش» و «قارا طور كيش»، وكان «صولو - خان» ينتسب إلى «صاري طور كيش».

في عهد «صولو - خان» (٧١٧ - ٧٢٨م) كان لتوحيد قوى شعوب آسيا الوسطى الفضل في تأخير الاستيلاء على بلادهم لمدة عشرة أعوام. مثلاً في عام ٧٢٨م انسحبت الجيوش العربية من معظم البلاد ولم تبق في يدهم سوى سمرقند فقط. أما في عام ٧٣٧م فقد خاض شعوب آسيا الوسطى حرباً دامية مع العرب.

وفي الحرب التي وقعت في «ختلان» التي تقع الآن في طاجيكستان، كان قائد الجيش العربي للمرة الثانية هو أسد بن عبد الله الوالي العام لخراسان وماوراء النهر. أما جيش آسيا الوسطى المشترك فكان بقيادة «صولوخان». وكان جيش «صولو - خان» يضم جنوداً من الطور كيش والقارلوق وصغد وطشقند وختلان وغيرهم. بيد أن الصدامات التي جرت لصالح «صولو - خان» في بداية الحرب انتهت بانتصار العرب. وبسبب المعارضة الشديدة التي أبدتها «صولو - خان» وتصرفاته المسببة للتمزق والشقاق، أطلق عليه العرب لقب «أبو مزاحم»، ويعني «من يتناطح ويكثر من المشاكل».

خلاصة القول إن العرب عندما جاءوا إلى آسيا الوسطى كانت السلطنة التركية الغربية والشرقية يسودها الفوضى والاضطرابات. فقد ذهبت وحدتهم، وانتهزت إمبراطورية «طانغ» هذه الفرصة للقضاء عليهم. لذلك لم يكن الأتراك الغربيون والشرقيون في وضع يمكنهم من توحيد قواهم من أجل الدفاع عن أراضيهم أمام العرب.





## الفصل العاشر: قيام الدولة القراخانية

### الياغما

في عام ٨٤٠م ولأسباب مختلفة فرّ قسم كبير من الأويغور الشرقيين بقيادة (بانتيكين) في اتجاه الغرب (خاصة السفوح الشمالية والجنوبية لجبال طانرى). والجزء المتعلق بالأويغور من «حوليات أسرة طانغ» يبين أن من فروا واتجهوا ناحية الغرب لجأوا إلى «الكارلوق». واستنادا إلى هذه المعلومة، تذكر بعض المصادر أن قيام «الدولة القراخانية» كان على يد «الأويغور» و«الكارلوق». لكن ما نفتنع به أن الأحداث لا تؤيد وجهة النظر هذه. لأن حولية «أسرة طانغ» في الجزء المتعلق بالطور كيش، يبين أن الأويغور الذين فروا إلى الغرب بقيادة «بان تكين»، وصلوا إلى كاشغر وكوچار، وأن «بانتيكين» أقام لفترة في كاشغر وكوچار، وبعد أن ضم أراضيها واعتبارا من سنة ٨٥٠م أخضع لحكمه طورفان وبشاليق وأسس دولة أديقوت الأويغورية. واعتمادا على هذه المعلومات الموثوق بها، يمكن القول أن الأويغور الذين فروا ناحية الغرب اضطلعوا بالدور الرائد في قيام دولتي الأويغور خاصة «سلطنة اديقوت» (٨٥٠ - ١٢٣٥م) و«سلطنة «أويغور قانصو» (٨٧٠ - ١٠٣٦م). نتوقف عند هذا الموضوع للإحاطة به.

إن القناعة المشتركة لدى المؤرخين هي أن قبيلة «ياغما»، لعبت الدور الرئيس في قيام الدولة القراخانية الأويغورية. لكن يجب أن نوضح أيضا أنه دائما ما لعبت قبيلة أو عشيرة دورا رئيسا في حكم كل دولة أسسها أجدادنا.

مثال ذلك أن عشائر «لانتي» و«غويان» و«شابو» الثلاث، لعبت الدور الرئيس في قيام دولة الهون. فكل حكام الهون كانوا من عشيرة «لانتي»، لكن الكلمة العليا في الإدارة كانت للعشيرتين الأخيرين. وكان أبناء حكام الهون لايتزوجون إلا من بنات أمراء «غويان» و«شابو». وأما بناتهم فلا يزوجهن إلا من أمراء هذه العشائر فقط. ولا يمكن لأمرء القبائل الأخرى مصاهرتهم. فقد كان لعلاقات المصاهرة مع الحكام الأجانب أهمية كبيرة لما تعنيه من أهمية سياسية.

وفي زمن سلطنة «الكوك تورك» (٥٥١ - ٧٤٤م) شكلت عشيرة «أسينا» السلطة السياسية بين الترك في الطاي، وقيمت إدارة «دولة الكوك تورك» طوال مائتي عام، في يد من ينتمون إلى هذه العشيرة، ولهذا كان حكام الترك يحملون لقب «أسينا» وكان الحاكم يستخدم لقب «أسينا» قبل اسمه مثل «أسينا طوفان»، «أسينا موقان»، و«أسينا قوتلق» وهكذا. وقد أسست سلطنة أوغور أورخون على يد ممثلي قبائل «ياغلاق» المنضمة باتحاد الأوغور العشرة، لكن في سنة ٧٩٥م انتقلت السلطة فيها من قبيلة ياغلاق إلى يد عشيرة أديز التي هي من الأوغور العشرة. وكان «طانريده اولغ بولمش الب كلك بيلكه سلطان» الحاكم السابع عشر لسلطنة أورخون الأوغورية أول من اعتلى العرش ممن ينتسبون إلى «أديز». ورغم هذا لم يكن هناك انقسام بين قبائل الأوغور الشرقيين، وحققوا تكاملا داخليا فيما بينهم الأمر الذي كان باعثا على التطور عند النظر إليه من زاوية التطور الاجتماعي، كما تولى ممثلو قبيلة «أديز» المنسوبة للأوغور العشرة الإدارة في سلطنة أديقوت الأوغورية أيضا.

وكان خانات سلطنة أورخون الأوغورية (سواء الياغلاق أو الأديز) لايزوجون أبناءهم وبناتهم إلا من أبناء وبنات حكام قبيلة «بوقو» المنسوبة إلى اتحاد قبيلة الطقوز أوغوز.

كما أسس الأمراء المنسوبون إلى عشيرة «ياغلاق» التي فرت إلى الغرب سنة ٨٤٠م سلطنة «قانصو الأوغورية» (٨٧٠ - ١٠٣٦م). ومازال

اسم «ياغلاق» موجودا بين الأويغور الصُفر الذين يعيشون إلى اليوم في إقليم «صولان» من «قانسو»، وهذا يظهر أن الأويغور الصُفر الذين فروا إلى الغرب سنة ٨٤٠م هم أحفاد الأويغور الشرقيين.

وسنقف فيما يلي عند قبيلة «يغما» التي لعبت الدور الأساس في تأسيس الدولة القراخانية الأويغورية، وحكموا الدولة نفسها من بدايتها حتى نهايتها.

«اليغما» هم أفضل المقاتلين بين كل قبائل الأويغور، وتاريخهم مغرق في القدم. لأنهم أحفاد الهون الغربيين (الهون الشماليين). واعتبارا من عام ٩٠ ميلاديا، كانت قبيلة «يوابان» تعيش في الإقليم الممتد من نهر إيلي إلى طلاس، بجوار بلقاش وبحيرة ايسيق كول. لكن بعد عام ٤٥٠م لا يرد ذكر لليوابان في حوليات الصين. لكن يظهر اسم «اليغما» في الأيام التي انمحي فيها اسم «اليوابان» من المصادر. وفي عام ٦٢٠م، انضم اليغما الذين انفصلوا عن «طون يابغو» سلطان الأتراك الغربيين إلى الأويغور الذين في الشرق (مغولستان اليوم). وظل القسم الرئيس من «الياغما» بجوار بحيرة «إيسيق» (وفي القسم الشمالي من كاشغر).

ويرد ذكر عن «اليغما» الشرقيين في نقوش أورخون التي نُقشت في عام ٧٥٠م.

وكتاب حدود العالم، وهو كتاب مجهول المؤلف، يبين بالتحديد الأراضي التي عاش فيها «اليغما» في القرن العاشر (٩٥٠م)، وعليه كان «اليغما» في القرن العاشر يعيشون في «يولدوز»، و«تكس»، «كونس»، وفيما يجاور كاشغر و«ايسيق كول». وفي نفس الكتاب يتضح أيضا أنهم والحكام القراخانيين ينحدرون من نفس العشيرة.

وربما أن هؤلاء «الياغما» ليسوا الفرع الشرقي للأويغور الذين فروا من مغولستان في عام ٨٤٠م، تحت إدارة «بان تكين» وربما كانوا الفرع الذي جاء من «وادي ايلي» من فوق «يدي صو» واتحد مع الياغما الغربيين، وبمجيئهم اكتسب اليغما الشرقيون قوة مهمة ومؤثرة.

و«الياغما» الذين جاءوا فى القرن التاسع إلى الجنوب الغربى من «يدى صو» وإلى جنوب «ايسيق كول»، وشرق كاشغر وغربها، واستقروا هناك. وكانت قدرة «الياغما» على القتال والحرب تثير الانتباه بين قبائل الترك الأخرى<sup>١١٠</sup>.

والحقيقة أن كانت شجاعة «الياغما» وخبرتهم تختلف عن غيرهم. وليس من التصادف أن تأتى كلمة «ياغماجى» بمعنى «قاطع الطريق» أيضا.

وهكذا، كان هؤلاء «الياغما» هم المؤسسون للدولة القراخانية الأويغورية سنة ٨٥٠م بالاشتراك مع «الكارلوق» و«الجغيل».

### «كُل بيلكه قراخان» وأبناؤه

لم تتفق المصادر التاريخية على رأى واحد فى مسألة من هو أول سلطان قراخانى، وهذا الموقف منشأه التساؤل عما يكون «كُل بيلكه قراخان».

«كُل بيلكه قراخان» هو الرجل الذى أسس الدولة القراخانية الأويغورية فى الأعوام الثلاثين التى بين ٨٥٠ - ٨٨٠م، وأرسى الحكومة والتشكيلات العسكرية فيها. وقد أطلق الأويغور على الدولة الجديدة اسم «قراخان» وعلى الأسرة التى أسستها اسم «القراخانية». والمدعش أن الأويغور يشعرون بالاحترام الزائد لإسم قراخان، ويظهرون نحوه احتراماً إلهياً. (كان أجدادنا فى الأزمنة القديمة يعبدون الروح الإلهية وكانوا يسمون هذا الدين الشامانية، ويقال فى الشامانية على الإله الأعظم «باي أولكن» (بايجونغ). وكان «بايجونغ» يعيش فى قصر السماء الذى فى الجبل الذهبى ذوالطبقات التسعة. وكان له تسعة أولاد هم: «ياشى خان»، و«قرشيتخان»، و«باهطاخان»، و«قراخان»، و«قوش خان»، و«قائيمى خان» و«يايق خان». ومن بينهم هرب «قراخان» من قصر أبيه المتلألئ بالبريق. وقراخان الذى هو إله النجم، كان يشبه النجم

الذى يسميه الأوربيون Saturn، والعرب «زحل» والأتراك «سكندر». وفى الأزمنة القديمة، كان يقال عن «زحل» فى اللغة البابلية «قرايلدز»<sup>١١٦</sup>. وقد أضفى الأويغور، وربما استنادا إلى هذه الرواية، على «أويغور خان» مؤسس الدولة الجديدة صفة الألوهية، فجعلوه يشبه «قراخان بن بايجونغ» كبير الآلهة. ولاسيما أنهم قبل الميلاد بعدة قرون، كانوا يطلقون على خانات الهون اسم «طانريقتوت». ونحن نعرف أن لفظ طانري يعنى القوة الإلهية، أما لفظ قوت فيعنى الإبن، وعلى هذا فإسم تانريقتوت يعنى «ابن الإله». حتى أن تانريقتوت الهون «كوك خان» (وبمعنى آخر كوك تانريقتوت) يذكر هذا فى الرسالة التى أرسلها إلى امبراطور الهان «فو-تى» عام ١٦٢ قبل الميلاد: «إن تانريقتوت الهون العظيم الذى فى السماء والأرض، وعرشه من الشمس والقمر، يرجو السلامة لامبراطور الهان». خلاصة القول أن الهون مثلهم مثل الأويغور، كانوا يعتنقون الشامانية منذ القدم، ولهذا كانوا يسمون السلطان «تانريقتوت».

أرسل السلطان «ساوارلو» سلطان كوك تورك رسالة إلى «ون - تى» امبراطور «أسرة سوي» فى عام ٥٨٤م، جاء فيها: ليكن معلوما للجميع بأن تانريقتوت سلطان العالم التركي «قولوق شادباغا ساوارلو» ابن الإله فى السماء.....»

ويقول المؤرخ «سيماهوانغ» الذى عاش فى زمن «أسرة سونج» فى الصفحة ١٧٦ من كتاب وقائعه، هذه الرسالة التى كتبها سلطان الكوك تورك: «كان سلاطين أورخون الأويغورية، يتسمون بأسماء ذات قدسية مثل «آى طانرى خان»<sup>١١٧</sup>، و«كُون طانرى خان»<sup>١١٨</sup>، وليس من قبيل المصادفة أن يكون اسم السلطان مؤسس الدولة القراخانية «قراخان»، واسم الدولة «القراخانية» (بمعنى المقدسة). ومع هذا فهناك أيضا مؤرخون فسروا اسم «قراخان» بشكل آخر. مثال ذلك أن بعض المؤرخين المعاصرين، مازالوا يطلقون اسم «قره بودون» على الأويغور دون غيرهم، وعلى حكاهم «قراخان» بمعنى حاكم الشعب. أما بعض المؤرخين فيوضحون

أن الأويغور القدامى استبدلوا كلمة قرا بكلمة «أولوغ»، وهكذا ظهر لقب «قراخان» ويعنى «الخان الكبير». وإذا كانت وجهتا النظر الثانية والثالثة تختلفان بشكل محدود عن وجهة النظر الأولى التى جاءت بمعنى «ابن السماء»، فإن الاختلاف فى المعنى ليس هو ما يعيننا. إنما باختصار أن لفظ قرا خان يعنى «ابن السماء».

والأويغور فى زمن القراخانيين استخدموا فى أسماء «السلطان» ألقاب «قراخان» جنبا إلى جنب مع «بوغرا» و«أرسلان». (مثل كل بيلكه قراخان (بوكه قراخان؟)، «ساتوق بوغراخان»، و«السلطان هارون بوغرا»، و«آلب أرسلان خان»، و«سليمان أرسلان خان»). وليس من قبيل المصادفة أيضا إضافة ألقاب «بوغرا» و«أرسلان» إلى اسم سلطان الأويغور.

ومن عادة أجدادنا منذ الأزل تقدير الشبان الأبطال ذوى الفراسة، وكذلك البنات. وكان هذا هو الشرط الوحيد الذى تتطلع إليه بنات الأويغور فى الرجل الذى سوف تمنحه قلبها. إذ احتلت البطولة فى الدفاع عن الوطن المرتبة الأولى منذ القدم. كما أن بنات الأويغور، كن يشترطن دوما فيمن يتزوجنه حب الوطن والبطولة.

اعتنق الأويغور الإسلام فى زمن القراخانيين بعد أن تخلوا عن الشامانية والبوذية، واستمروا فى تقاليدهم باستخدام أسمائهم القومية القديمة إلى جانب الأسماء الإسلامية.

مثال ذلك أن الإسم الأويغورى لـ «ساتوق تكين» هو «ساتوق بوغراخان»، لكن اسمه المسلم «عبد الكريم». ولنفس الخان ابنان أطلق على أحدهما اسم «بايطاش» (واسمه المسلم موسى) والآخر اسم «تونغا ايلك» (اسمه المسلم سليمان).

وكان سلاطين القراخانيين يطلقون على أبنائهم أسماء الحيوانات والطيور على اختلافها. مثال ذلك أن أحد أبناء السلطان يوسف قادر كان اسمه «بوغرا تكين» والآخر اسمه «ياغان تكين» والثالث «طغرل قراخان». وهذه الأسماء كانت تعنى البطولة والمهارة والقوة. وقد

أوضحنا من قبل معنى «بوغرا» و«قراخان». وكان الأويغور منذ القدم يسمون الفيل «ياغان». كما أوضحنا معنى كلمة «تكين» وعلى هذا فكلمة «ياغان تكين» تعنى أمير الفيل. وكما عرف أن الفيل هو الأقوى والأشجع بين الحيوانات. أما «طُغْرُل» فتعنى «شُنقار» (الصقر) الذى لا يوجد بين الطيور المفترسة من يفوقه فى السرعة وحدة البصر.

وبعد أن اتخذ الأويغور كاشغَر عاصمة للدولة القراخانية، أطلقوا عليها اسم مدينة الجيش (المدينة المركزية). وكان خانات القراخانيين يذهبون إلى «بلاساغون» على ساحل نهر «جو» لقضاء الصيف، أما الشتاء فيمضونه فى كاشغَر.

ورغم أنه لا توجد معلومات مؤكدة عن تأسيس مدينة كاشغَر أقدم مدن الأويغور، التى نشأ فيها كثير جدا من أصحاب المقدرة والاستعداد، لكننا نملك تاريخا طويلا لا يمكن إنكاره.

فيتكلم محمود الكاشغَرى فى «ديوان لغات الترك» عن حياة «ألب أرتونغا» فى كاشغَر، وعن شهرتها بنقاء هوائها ومبانيها الفخمة. و«ألب أرتونغا» الحاكم العظيم لشعب توران، مات فى حملة له على أذربيجان شنها فى عام ٦٢٥ قبل الميلاد. واستنادا على هذه المعلومة، يمكن القول أن كاشغَر مدينة موغلة فى القدم.

وبالنظر إلى بعض الكتابات التاريخية، كانت كاشغَر فى زمن الهون معروفة باسم «مدينة الهون» وذلك قبل الميلاد بعدة قرون. وكما هو معروف أنه فى القرن الثانى قبل الميلاد (فى عام ١٧٢ قبل الميلاد) عندما فتح «تانريقوت الهون» وسط وغرب آسيا، كانت كاشغَر أقوى مدينة داخل حدود أراضى الهون. لكن غير معروف ماذا كان اسم المدينة فى زمن «ألب أرتونغا».

وكانت المدينة تعرف باسم «قاش قيا» إلى أن اتخذها القراخانيون عاصمة لهم. ويمكن القول أن الإسم الذى أطلق عليها يعبر عن الموقع الجغرافى، واضعين فى الاعتبار المكان الذى تشغله المدينة اليوم بين

الطرف الشمالي لجبال «أرطش»، والمصببات والمنحني، الجنوبية لنهر «طومان» المعروفة باسم «قاش».. والقول أنه أن كلمة كاشغر التي جاءت من «قاش قيا» تعنى فى اللغة «الحاجب المقوس».

وكانت راية الدولة القراخانية مربعة الشكل من الحرير الأحمر، يتوسطها شجرة صنوبر فى طرف منها ستة أغصان ذهبية وفى الآخر ثلاثة. وفى زمن «كول بيلكه خان» أول خان قراخانى، كانت الدولة القراخانية تضم داخل حدودها «يدى صو»، و«وادی ایللى»، والسفوح الجنوبية لـ «جبال طانرى» وبعض مناطق كاشغر.

وحسب بعض المعطيات التاريخية، انه عندما توفى «كول بيلكه خان» عام ٨٨٠م تولى مكانه ابنه «بازرخان» (بارخان؟). ويظهر بعض المؤرخين المعاصرين بازرخان بوصفه ثانى خانات الدولة القراخانية. وغير واضح إن كان «بازرخان» و«بارخان» شخصا واحدا أم لا. كما توجد فى مؤلفات المؤرخ الأويغورى «جمال القارشى» اقتباسات كثيرة من كتاب «تاريخ كاشغر» للمؤرخ الأويغورى عبد الجبار الكاشغرى. وعليها فإنه لا شك قط فى كون «بارخان» هو ثانى خانات القراخانية وكانت مساحة الدولة فى عام ١٠١٠م ثلاثة ملايين كيلو مترا مربعا تمتد إلى الطرف الغربى من كشميروإلى خوارزم الغربية، وإلى شمال «بلقاش»، وإلى بحير «آرال» وإلى «مرو» فى الجنوب. وبقول آخر أكبر من خمسة أضعاف مساحة فرنسا الحالية.

وحسبما نقله «جمال القارشى» كان لـ «كول بيلكه قراخان» (يرد عند جمال القارشى كول بيلكه قادرخان) ابنان هما «بازير» و«أوغلتشاق». وبالقدر المفهوم أن «بازرخان» اعتلى عرش القراخانية فى ٨٨٠م. وأنه جرت حروبا دامية بين «أوغلتشاق» والأمير اسماعيل السامانى فى الفترة من (٨٧٧ - ٩٠٧م).

وقد حاصر اسماعيل السامانى مدينة طراز أكبر مدن القراخانيين فى «يدى صو» فى عام ٨٩٣م (مارس أو إبريل)، وبعد حصار طويل نجح فى الاستيلاء عليها. وحسب ما هو مدون فى إن اسماعيل السامانى



قتل من الجيش القراخاني حوالي عشرة آلاف؛ ووقعت زوجة «أوغلتشاق» وخمسة عشر ألف شخص في الأسر. وحول اسماعيل الساماني معابد المسيحين التي في «طراز» إلى جوامع. وهرب «أوغلتشاق» في هذه الأثناء إلى كاشغر، وجمع جيشا جديدا وحاصر السامانيين في ٩٠٧م. وبدأ السامانيون في الاستيلاء على «يدي صو» في عام ٨٤٠م. وفي ذات العام آلت إليهم اصفهان وبذلك بدأت فترة ارتفاع نجم السامانيين وسطوتهم في آسيا الوسطى. وفي زمن ناصر بن أحمد أول حكام السامانيين استولى السامانيون على المنطقة حتى مدينة «شاوغار». هذه الأحداث كانت تشير إلى العلاقات المبكرة بين السامانيين والقراخانيين. «ونظرا لعدم طرح النقود السامانية للتداول في «يدي صو» وعدم تعيين الموظفين السامانيين، يمكن أن نقول أن حكم «يدي صو» كان غير تابع للسامانيين»<sup>١١١</sup>، ولهذا استمرت «يدي صو» في يد القراخانيين، حتى بعد هزيمة «أوغلتشاق» أمام السامانيين عام ٨٩٢م.

اعتلى «أوغلتشاق» عرش القراخانيين بعد موت «بازر أرسلان خان» عام ٩١٠م. إذ كان «ساتوق تكين ابن بازر أرسلان خان» طفلا آنذاك. اعتلى «أوغلتشان» العرش القراخانيين مكان ابن أخيه الطفل، وتزوج من أرملة أخيه. وبعد حكم أوغلتشاق الدولة القراخانية لمدة تسع سنوات، استرد «ساتوق تكين» العرش عندما بلغ الثالثة والعشرين من عمره. (ربما في عام ٩٢٠م) واعتنق الإسلام قبل أن يعتلى العرش.

### **ساتوق بوغراخان واعتناق الأويغور الإسلام**

كنا قد بينا أن أجداد الأويغور كانوا يعتنقون «الشامانية». وكانت الشامانية هي الدين الرئيس بين كل الأتراك من زمن «الهون» (قبل الميلاد بعدة سنوات) حتى القرن التاسع الميلادي.

وبتدخل «بوغو سلطان» تولى أويغور الشرق (الذين يعيشون الآن في منغوليا وما حولها) عن الشامانية في القرن الثامن الميلادي

واعتنقوا المانوية. أما أوغور الشرق الذين كانوا يعيشون في جنوب جبال «طانري» (وادي تاريم) فقد تحولوا منذ القرن الأول الميلادي من الشامانية إلى البوذية.

وفيما بعد فإن قسما من الأوغور الذين فروا إلى المناطق الغربية في الأربعينيات من القرن التاسع الميلادي (٨٤٠م)، ظلوا محافظين على اعتناقهم المانوية، والذين اتجهوا نحو الشمال والجنوب من جبال طانري اعتنقوا البوذية بتأثير أوغور الغرب.

وبالرغم من اعتناق «ساتوق بوغراخان» الإسلام في القرن العاشر الميلادي فإن قسما لا يستهان به من الأوغور قد ظل على البوذية. وكما هو معروف أن البوذية ظهرت في الهند في القرن السادس قبل الميلاد وذاعت في أكثر بلدان آسيا في القرن الثاني قبل الميلاد.

ولفظ «بوذا» يعنى الاستنارة. وقد ولد «سكياموني» صاحب هذه العقيدة في عام ٥٦٥ قبل الميلاد وتوفي عام ٤٨٥ ق.م، وينتسب إلى واحدة من قبائل شاقية.

عاش «سكياموني» في سفوح جبال الهيمالايا (في نيبال الآن) وانشغل وهو في سن الشباب بالتفكير في الإنسان، مولده وحياته، ومرضه وموته وما يبتلى به الإنسان من مصائب. وفكر فيما يهون على إنسان ما قدر له. وذات ليلة وكان في التاسعة والعشرين من عمره، امتطى جواده ودخل غابة اعتكف بها مدة ست سنوات في ظل شجرة تين، قائلا لن أبرح هذا المكان قبل أن أبلغ المعرفة الكاملة التي ما بعدها معرفة، وإن جف جلدى ولحمى ودمى». وذات مساء وهو في الخامسة والثلاثين، رأى نجما يلمع في ناحية الشرق، وفي تلك اللحظة استنار ووجد الطريق الحقيقي، وأسس البوذية. وعقب ذلك طاف بأماكن كثيرة من الهند يدعو للبوذية.

انتشرت البوذية في كشمير وقندهار (ولاية بيشاور في باكستان الحالية) في زمن أشوقا، حاكم دولة ماوريا (٢٧٣ - ٢٧٣ ق.م)، واستطاع

أشوقا أن يوحد شمال الهند وجنوبها. وفي عام ٢٦٠ ق.م اتخذ البوذية عقيدة لدولته. وشاعت البوذية بواسطة المجموعات التي أرسلها إلى مختلف بلدان آسيا.

وفي زمن الكوشانيين تخطت البوذية بلاد الهند وانتشرت في مناطق مختلفة، ودخلت البوذية بين الأويغور في زمن قانيشقا الثاني. وحسب بعض المصادر أن قانيشقا الثاني جاء بنفسه إلى خوتن مع بعض دعاة البوذية. وبين القرنين الأول والسادس، انتشرت البوذية في خوتن وكاشغر وطورفان وبقية مناطق الأويغور، وأصبحت العقيدة الحاكمة في المدن ذات الشأن.

وإذا كانت البوذية قد انتشرت في أنحاء خوتن، فإن «كوچار» أصبحت الموطن الثاني لهذا العقيدة في القرن السادس الميلادي. ففي هذا القرن كان في «كوچار» المئات من معابد البوذية، وعشرة آلاف راهب وراهبة. ويقول المؤرخ الياباني «يوشى - لياو - تى» إن «كثرة الرهبان البوذيين، يبين أنهم كانوا مدعومين من حكام كوچار». وأثناء رجوع «كاماراجيو» من الهند جاءه «بك جونغ» حاكم كوچار بنفسه واستقبله عند «أقسو»، وأعد له كرسيًا مغطى بالذهب والمخمل الرومى، وأهداه إليه راجيا إياه أن يجلس عليه<sup>١٢٠</sup>.

وقد لعب الأويغور دورا مهما في تعريف الصينيين بالبوذية، لكن يبقى هنا أن نبرز الدور الذى لعبه كاماراجيو الشاعر والمترجم البوذى المشهور الذى جاء «شانج أن» في القرن الخامس الميلادي، وترجم الكثير من إلهيات بوذا إلى اللغة الصينية.

أما فيما يتعلق بسبب انتشار البوذية في كثير من بلدان آسيا، فهناك بعض الأسباب التي تتعلق بالبوذية ذاتها.

فحسب العقيدة البوذية أن من يصنع الخير في الدنيا فسوف يلقاه في الدنيا. ومن يفعل السوء، فسيلقاه أيضا في الدنيا، ومع أنه يبين ما سيلقاه البشر في الدنيا من ثواب أو عقاب، فإن البوذية ضد الحرب،

ومن هذه الناحية فإن الحكام سواء في الهند أو في بلدان آسيا استفادوا من تعاليم البوذية في تمكين سلطتهم، وإطالة فترات بقائهم فيها. لهذا السبب عملت البوذية على الاستفادة من الحكام والأمراء في أول الأمر، وهم أيضا شجعوا الناس على اعتناقها تحقيقا لغاياتهم.

وبعد انتشار البوذية انقسمت إلى عدة مذاهب، أحدها «الماخيانا» والمذهب الآخر «الخنايانا» وحسب قول المؤرخ الياباني «لياوتى» إن الأويغور كانوا على مذهب «ماهيانا» البوذي. وهذا هو قولنا عن البوذية التي كان ينتسب إليها الأويغور قبل اعتناقهم الإسلام.

والآن سنقف بالتفصيل على موضوع إسلام «ساتوق بوغراخان» وجهاده من أجل نشر الإسلام بين الأويغور.

وإذا كانت هناك بعض الأساطير حول موضوع اعتناق «ساتوق بوغراخان» الإسلام، فلا ينبغي التوقف عندها. واستنادا على الوقائع التاريخية، كان لأبي ناصر الساماني دور كبير في إسلام ساتوق بوغراخان. وأبو ناصر الساماني من الأمراء السامانيين. وقد هرب إلى كاشغر عاصمة القراخانيين بعدما خسر نزاعه على العرش الذي خاضه في زمن نصر الثاني. وهناك بسط عليه «اوغولتשאق» حمايته، وأقره في أتوش في شمال كاشغر. وهكذا يفسر فريق من المؤرخين سبب مجيئ أبي نصر إلى كاشغر. بينما يفسره بعضهم الآخر بأن الحاكم الساماني نصر الأول، أرسل أبا نصر إلى كاشغر لكي يستميل ساتوق بوغراخان إلى الإسلام. وأيا ما كانت إحدى هاتين الروايتين هي الصحيحة، فمن المؤكد في كل الأحوال أن أبا نصر لعب دورا كبيرا في إسلام ساتوق بوغراخان.

وحسب إحدى الروايات أن أبا نصر الذي كان على معرفة جيدة بلغة الأويغور وعاداتهم، خرج ذات يوم من «أرغو» إلى جوار «أتوش» للصيد، وأثناء ذهابه التقى في الجبال الأمير الأويغوري «ساتوق بوغرا» وصارا صديقين. وبمرور الوقت اعتنق «ساتوق بوغرا» الإسلام بتأثير منه. وواقع الأمر أن الإسلام كان قد انتشر نسبيا في هذه المنطقة قبل إسلام «ساتوق بوغرا». وبعد جهاد شديد خلع ساتوق بوغرا «اوغولتשאق» من

العرش (وربما قتله) واستولى على الحكم فى عام ٩٢٠م.

وفىما بعد نجح ساتوق بوغراخان فى نشر الإسلام وخاض فى هذا السبيل صراعا مع الأويغور البوذيين فى كاشغر وأقسو، وبالاساغون، وبارسخان (فى شرق ايسيق كول) وغيرها، وأيضا مع القارلوق الشامانيين الذين فى «يدى صو» والحقيقة أن الأويغور البوذيين قاوموا بشدة «ساتوق بوغراخان»، لكن السلطان طرد من بالاساغون من يقاومون الإسلام فى عام ٩٤٣م.

ومع اعتناق ساتوق بوغراخان الإسلام فى عام ٩٢٠م، تحسنت العلاقات إلى حد ما بين القراخانيين والسامانيين. حتى أن ساتوق بوغراخان دخل أرض السامانيين فى عام ٩٢١م لإخماد التمرد الذى ظهر فى أنحاء خراسان.

وباعتناق ساتوق بوغراخان الإسلام، ومساعدته فى إخماد التمرد، ضمن أن يمد السامانيون له يد المساعدة متى احتاج إليها. وجاء كثير من العلماء من ما وراء النهر على عمومها، ومن خراسان وأفغانستان إلى كاشغر وبالاساغون. وهم الذين أطلقوا على ساتوق بوغراخان اسم عبد الكريم. وقد كتب على العملة الذهب التى سكت فى زمن ساتوق بوغراخان «قراخان ساتوق عبد الكريم». هذه العملات محفوظة الآن فى متحف سان بطرسبرج.

تُرى لماذا تخلى ساتوق بوغراخان عن البوذية واعتنق الإسلام؟. ليس فى الدنيا شىء بلا سبب، وبالتأكيد هناك أسباب مهمة دفعت الأويغور إلى اعتناق الإسلام. فكثير جدا من خانات الأويغور استفادوا من البوذية فى تحقيق سلطتهم؛ لكن الأويغور باعناقهم البوذية فقدوا إلى حد كبير روحهم القتالية. لأن تعاليم البوذية كانت ترفض الخلاف أى القتال. وكان الأويغور يعرفون أن الإسلام مقارنة بالبوذية يحرض الناس على الجهاد، ويأمر بالقتال. وكان هذا الوضع له تأثيره المهم فى استمالة الناس إلى الإسلام. علاوة على أن خانات الأويغور أيضا كانوا يريدون

توحيد رعاياهم الذين يعتنقون ديانات ومعتقدات شتى مثل الشامانية والبوذية والزرادشتية والمانوية والمسيحية تحت دين واحد ويقضون على النزاعات المذهبية والدينية بينهم ليكونوا أصحاب دولة قوية ومتحدة. ومن ناحية أخرى كانوا يتطلعون إلى طرق دبلوماسية تغني عن قوة سيف العرب الذين رغبوا في نشر الإسلام. فلم يوقف العرب في القرن الثامن الميلادي جهودهم لاستمالة شعب وسط آسيا إلى الإسلام. بل على العكس دفعوا الأتراك والأويغور الذين في شرق آسيا إلى نفس الفعاليات فيما بينهم. مثال ذلك الخليفة الأموي هشام الذي أرسل في عام ٧٣٠م رسولا إلى «أوتوكن» عاصمة الأتراك الشرقيين، يدعو «بيلكه قاغان» إلى التخلي عن الشامانية واعتناق الإسلام. أما في عام ٧٥٠م فقد أرسل عبد الله بن عباس أول الخلفاء العباسيين تميم بن بحر إلى «قرا بالاساغون» عاصمة «خان أويغور أورخون» لحث بايانجور على اعتناق الإسلام. لكن سواء الأتراك الشرقيين أو الأويغور الشرقيين كلاهما ولأسباب مختلفة رفض التخلي عن الشامانية واعتناق الإسلام<sup>١٢١</sup>.

وفي القرن العاشر الميلادي أصبح الدين الإسلامي ديناً عالمياً، وكان له تأثير كبير في آسيا وأفريقيا وأوروبا.

ونتيجة للأسباب التي أوضحناها عليه، تحول الأويغور والشعوب القريبة منهم عن الشامانية والبوذية واختاروا الدخول في الإسلام. كان اعتناق ساتوق بوغراخان الإسلام في عام ٩٢٠م وسعي لنشره بين الأويغور على مدى ٣٦ عاما (بين ٩٢٠ - ٩٥٦م)، ففي عام ٩٢٠م أرسل «آلماسخان» حاكم دولة إيديل - بلغار (٩٠٠ - ٩٢٥م) مجموعة من مسلمي الخزر برئاسة شخص يُدعى عبدالله إلى الخليفة العباسي المقتدر ليعلن عن رغبته في دخول الإسلام، وطلب منه إرسال علماء دين لتعليمه الإسلام. واستقبل الخليفة المقتدر سفراء «آلماس خان» بترحاب ووجه باسم، وأرسل إلى دولة إيديل بلغار وفدا كبيرا برئاسة سوسون الراسي، وكانت القافلة التي تحركت تتشكل من ٥٠٠٠ فرد و ٣٠٠٠ جمل. وكان هذا يعد حدثاً كبيراً بالطبع. لأن هذه القافلة كانت

حدثاً خارج العادة ليس من الناحية التجارية فقط، بل من الناحية السياسية أيضاً. فقد كانت القوافل التي تذهب إلى مناطق بعيدة بصفة عامة تتشكل من بضعة مئات من الدواب ونفس العدد من الأفراد. كما إنها ليست قافلة تجارية مثل القوافل التجارية الكبيرة، ولم يكن في القافلة التجار والحراس والخدم فقط بل كان فيها أيضاً الحرفيون وعلماء الدين والمهندسون المعماريون والخبراء والدبلوماسيون والسائحون الذين أرسلهم الخليفة.<sup>١٢٢</sup> علاوة على ذلك كان معظم التجار قد تلقوا تدريباً دبلوماسياً.

وعندما بلغت قافلة الخلافة التي خرجت برئاسة سوسون الراسي والسكرتير ابن فضلان مدينة بلغار، لم تعمل فقط بالتجارة بل قامت في نفس الوقت بمهام دبلوماسية مهمة، وقدمت مساعدات عسكرية فنية ونفذت مهام دينية. ومرت هذه القافلة التي خرجت من بغداد على خراسان وبخارى وخوارزم، ووصلت إلى إمارة إيديل - بلغار، وسلم الوفد الهدايا القيمة التي أرسلها الخليفة المقتدر إلى «ألماس» حاكم البولغار. وفي تلك الأثناء كان الخزر (في عهد هارون قاغان الثاني، ٩٣١ - ؟) يعيشون في المنطقة الممتدة من الساحل الشمالي الشرقي لبحر الخزر وحتى شمال البحر الأسود، أما بين الخزر وآرال فقد كان يعيش الأوغوز الذين كانوا تحت حكم «سلجوق بك».

ترك ابن فضلان الذي عاد من إمارة إيديل - بلغار إلى بغداد في عام ٩٢٢م معلومات قيمة جداً عن شعوب البلغار والخزر والأوغوز. وهذه الرحلة التي تعد مصدراً مهماً للغاية في دراسة تاريخ الشعوب التي نتحدث عنها إلى يومنا هذا.

ويتحدث زكي وليدي طوغان عن «ألماس» حاكم البلغار عند اعتناقه الإسلام فيقول ما يلي: «عندما صار وفد السفارة الذي أرسله الخليفة العباسي المقتدر على مسيرة يوم من مدينة بلغار، خرج وزراء «ألماس» وأبناؤه والمقربون منه لاستقبال الوفد. وعندما صار على مسيرة ١٥ كيلومتر من مدينة بلغار خرج «ألماس خان» بنفسه

لاستقبال الوفد. ونزل «آلماس خان» عن جواده على عادة أجداده، وعظم ضيوفه الأجلاء. ونثر النقود الذهبية والفضية وقال أهلاً بالضيوف. وبعد ذلك دخلوا مدينة بلغار في موكب رائع ومهيب. وأخذ السلطان «آلماس» الضيوف إلى الخيمة التي نصبها من أجلهم. ونظم أعيان المدينة وأمرؤها وكبار موظفيها احتفالاً بالمسلمين على مدى أربعة أيام. وأقيمت مأدبة كبيرة سادها الود والاحترام. ودعا «آلماس خان» حكماء المدينة والسفراء لحضرته. وغير «آلماس» اسمه إلى جعفر. وأمر بإنشاء جامع وأمر بقراءة اسمه في الخطبة. وحدثت هذه الواقعة في ١٦ محرم عام ٣١٠ هجري (١٥ مايو عام ٩٢٢ ميلادي).<sup>١٢٣</sup>

وبعد قبول شعب إيديل - بلغار الإسلام، ذهب السلطان «أحمد بن آلماس» مع مجموعة كبيرة تضم أركان الدولة إلى قصر الخليفة المعتمد في بغداد. وفي عام ٩٨٦م أرسل السلطان محمد حاكم البلغار سفيراً إلى «فلاديمير» غراندوق روسيا، ودعاه للدخول في الإسلام. ولكن محاولاته لنشر الإسلام بين الروس باءت بالفشل. فقد كان فلاديمير (٩٨٠ - ١٠١٥م) على علاقة وثيقة ببيزنطة، وكان متزوجاً من شقيقة واسيلي الثاني (٩٨٦ - ١٠٢٥م). فقد اعتنق المسيحية وصار صهراً لإمبراطور بيزنطة بهدف دعم سلطانه، ولذلك لم يرحب بالدين الإسلامي وذلك بتأثير بيزنطة. وقد اعتنق المسيحية في عام ٩٩٨م ووضع نهاية للوثنية التي كانت منتشرة في كييف. وأجبر شعب كييف على قبول المسيحية بالاعتسال في مياه «نهر الدنيبر».

خلاصة القول أنه في مطلع القرن العاشر انتشر الإسلام في مناطق كثيرة من العالم. وبعد اعتناق ساتوق بوغراخان الإسلام عام ٩٢٠م، ثار سلاطين خوتن وكوچار البوذيان وسلطنة إيديقوت الأويغورية (وكان قد تم إخضاعهما في زمن كول بيلكه قراخان) وأعلنوا استقلالهم. ومن ناحية أخرى أعلن الأويغور البوذيون والشامانيون الذين يسكنون بجوار نهر إيلي في «الطاي» عصيانهم. واتخذ «ساتوق بوغراخان» تدابير غاية الشدة في مسألة إخماد هذه التمردات. وخرج بنفسه على رأس جيش



من الأويغور المسلمين وسار إلى خوتن. وهزم سلطان خوتن بعد معارك دامية، وضرب حصارا على المدينة. وتم فتح المدينة بمساعدة أهلها من المسلمين. وبعد خوتن سار ساتوق بوغرا صوب كوجار ضد الأويغور البوذيين والشامانيين. واستطاع أن يأخذ المدينة رغم المقاومة الشديدة التي أبدتها أهل كوجار التي كانت الموطن الثاني للبوذية بعد الهند.

وقد فارق السلطان ساتوق بوغرا الحياة في عام ٩٥٦م بعد أن أمضى فترة كبيرة من عمره في نشر الإسلام بين الأويغور، ودفن حسب وصيته بجوار قبر أستاذه أبي نصر الساماني. وقبر «عزيز سلطان» الموجود اليوم في أتوش ليس سوى المكان الذي دفن فيه. إذ يوجد في نفس المكان قبر أبو نصر الساماني.

ترك السلطان ساتوق بوغرا ولدين، الأول اسمه بايطاش (واسمه المسلم موسى)، والآخر اسمه تونغايك (واسمه المسلم سليمان). وبعد موت والدهما، اعتلى السلطان موسى بوغرا عرش القراخانيين، لكنه توفي بعد زمن قصير (٩٥٦ - ٩٥٨م).

وفي زمن السلطان سليمان أرسلان (٩٥٨ - ٩٧٠م) زاد انتشار الإسلام بين الأويغور والشعوب التركية الأخرى. وفي سنة ٩٦٠م أسلمت مائت ألف خيمة من الأويغور الذين يعيشون في «يدى صو» و«وادي تاريم». وفي نفس السنة أعلن سليمان أرسلان خان الإسلام ديناً رسمياً للدولة.

في تلك الأثناء، رفعت سلطنة خوتن وإيديقوت راية العصيان مرة أخرى. والواقع أن السلطان سليمان أرسلان سبق وأن أخضع خوتن لطاعته، لكن أهلها أعادوا التمرد عليه. وحسب المصادر التاريخية، أن الحروب التي خاضها ضد الخوتن البوذيين استمرت لمدة عشرين عاماً من ٩٧٥م إلى عام ٩٩٨م.

وفي عام ٩٦٥م ساق السلطان سليمان أرسلان جيش القراخانيين بقيادة «ألب تكين» ضد «المغغلاق» في وادي ايلي (الآن غولجا). وانتصر «ألب تكين» على الأويغور الذين يعتنقون البوذية وسوى بلادهم بالأرض،

حتى وضعت أغنية بهذه المناسبة تقول:

جلسنا داخل السفينة  
ومضينا إلى وادي إيلي  
توجهنا تجاه الأويغور  
وفتحنا مينغلاق<sup>١٢٤</sup>

هجمنا في ظلمة الليل  
وأحكمنا سيطرتنا على جميع الأماكن  
وأسكتنا صهيل الخيول  
وقتلنا جنود مينغلاق<sup>١٢٥</sup>

كما وضعت أغان تدور حول الحروب التي خاضها القراخانيين ضد  
أويغور خوتن البوذيين، مثال ذلك:

تدفعنا حشودا كالسيل  
ودخلنا المدن وتغلبنا عليها  
وهدمنا معابدهم  
ووطأنا اصنامهم<sup>١٢٦</sup>

وفي عام ٩٧٠م أرسل سليمان أرسلان خان، «ألب تكين» لفتح  
سلطنة «ايديقوت الأويغورية» ودعوتهم إلى الإسلام. وجاء «ألب تكين»  
من فوق أقصو وكوچار، وحاصر قاراشهر، ثم هاجم «قراخوجه»، حيث  
القصر الشتوي لايديقوت الأويغور. وخسر «ايديقوت الأويغور» حربه مع  
«ألب تكين» وانسحب إلى نواحي «بشباليق». واستولى «ألب تكين»  
على طرفان وماحولها التي كانت على طريقه وهو يتجه إلى بشباليق.

ولكن «أرسالان تكين» حشد جيشا كبيرا فى جبال طانرى جنوب بشباليق واستعد لحرب جديدة على طريق «قراخوجه». و فقد «ألب تكين» حياته فى هذه الحرب. وتفرق جيش القراخانيين الذى منى بهزيمة ثقيلة. وهكذا انتزع «أرسالان تكين» قراغوجه» و قاراشهر من يد القراخانيين.

وحسبما تقول الرواية أن ألب تكين دفن فى المكان الذى مات فيه (فى الربوة التى على طريق «قراخوجه»). وبعد أن اعتنق أوينغور طرفان الإسلام فى القرن الرابع عشر الميلادى، شيدوا مقبرة «الفتاح» لذكرى «ألب تكين». واسم هذه المقبرة جاء من اسم ألب تكين وأصله عبد الفتاح.

وقد حفظ أوينغور طرفان إلى يومنا هذا اسطورة باسم «قراخوجه». و تبعا لهذه الأسطورة أن «ألب تكين» أثناء هجومه على قصر شتوى أوينغور ايديقوت أقام خيمته فوق ربوة «سينغيم» الحالية. وكان يظهر فى شفق كل يوم فوق ربوة «سينغيم» على صهوة جواده فى حالة استعداد للهجوم على «قراخوجه» وعندما يراه الأوينغور البوذيون الذين على أسوار المدينة، كانوا يصيحون قائلين «جاء قراغوجه! جاء قرا غوجه». وهكذا أصبح قراغوجه اسما للمدينة والقرية المجاورة لها. ويقال اليوم فى طرفان عن المدينة القديمة مدينة ايديقوت وقراغوجه. كما أنه يوجد أيضا قرية كبيرة اسمها «قرا غوجه».

ولا توجد معلومة تاريخية مؤكدة عما كانت تعنيه «مدينة ايديقوت» فى أطلال مدينة طرفان فى الأزمنة القديمة.

تُرى لماذا أطلق الأوينغور البوذيون اسم قراغوجه على ألب تكين؟ حسب الرواية أن ألب تكين اشتهر ببطولته بين الأمراء القراخانيين. و نعتقد أنهم أطلقوا عليه اسم «قراغوجه» واضعين نصب أعينهم كون لفظ قرا المكون لاسم قراخانى، يعنى الكبير والعظيم. وهناك رواية أخرى، مفادها أن «ألب تكين» كان أسمر البشرة لكونه من أصول عربية (فالكتابة التى على قبره تبين أنه حفيد النبى (عليه الصلاة والسلام)،

ولهذا أطلقوا عليه اسم قرا غوجه. لكن لا نرى صواب هذا الرأي. لأن «آلب تكين» ليس عربيا. والأصح أنه فارسي ذو أصل طاجيكي، وحفيد للسامانيين. ولهذا السبب فإننا نعتقد أن الرواية الأولى هي الأصوب. أي أن سبب تسمية «آلب تكين» باسم «قرا غوجه» مرتبط بكلمة قرا التي في اسم قراخاني.

ويوجد الآن مكان اسمه «أتلاش غوجم» فوق ربوة سينغيم. وتتداول بين أهالي طرفان اليوم رواية أن آلب تكين يظهر كل يوم فوق جواده هناك في وقت الشفق ليهاجم المدينة. وأظن أن الناس أطلقوا اسم «أتلاش غوجم» على هذا المكان لهذا السبب (فكلمة اتلاش تعني راكب الجواد).

## الفصل الحادى عشر: السامانيون والقراخانيون

### الدولة السامانية

فى سنة ٧٣٠م، تحرك محمد بن على حفيد العباس عم النبى صلى الله عليه وسلم ضد الأمويين. وكان أنصاره يرغبون فى انتزاع الحكم من الأمويين الذين ليسوا من أقارب الرسول، ويجعلونه للعباسيين. وكان أبو مسلم يتزعم هذه الحركة. وكثرت صفوف جيش أبى مسلم فى فترة قصيرة، حتى أن والى الأموى نصر بن سيار لم ينجح فى القبض عليه فى خراسان، وهكذا انهارت الخلافة الأموية فى سنة ٧٥٠م. أما العباسيون الذين صاروا فى موقع الاقتدار فقد دخلوا مع الأمويين فى تصفية حساب لا رحمة فيه.

وكانت أشد فترات الخلفاء العباسيين وطأة هى فترات حكم الخلفاء السفاح (٧٥٠ - ٧٥٤م) والمنصور (٧٥٤ - ٧٧٥م) والمهدي (٧٧٥ - ٧٨٥م). وفى سنة ٧٥٠م ثار الشاريك فى بخارى ضد العباسيين، وفى ٧٧٥م ثار الصنباد فى طهران، وفى إعام نفسه ثار المُقائنه فى سطر آسيا أيضا ضد العباسيين. وأكثر ما أخذ بالشدة من بينهم هو عصيان المُقائنه الذى استمر عشر سنوات من ٧٧٥م إلى ٧٨٥م.

وقد أنهك العباسيين انشغالهم بإخماد هذه التمردات، لكنهم أدركوا أنه من الأفضل لحكم أهل تلك المناطق التى فتحوها أن يعينوا الولاة من الأمراء المحليين بدلا من الولاة العرب.

مثال ذلك أنه اعتبارا من قيام الخلافة العباسية، كان الحكم فى خراسان فى يد من ينحدرون من نسل خالد بن برمك.

لكن فى زمن هارون الرشيد، عندما ظهر الاسد من البرامكة، أخذ مكانهم الطاهريون الذين خرجوا من بوشن الواقعة بالقرب من هرات. وأيد الطاهريون المأمون فى النزاع على العرش الذى نشب بين الأمين والمأمون ابنى هارون الرشيد. وقد وضع المأمون فى عين الاعتبار جهود طاهر المؤثرة التى بذلها فى الدفاع عن بغداد والعرش، فجعله واليا عاما على خراسان فى عام ٨٢١م. وقد استقل الطاهريون فعليا اعتبارا من هذا التاريخ. وكان ولاية ماوراء النهر أيضا هم الولاية لخراسان بشكل عام. ولم يظهر طاهر بن حسين، وطلحة بن طاهر، وعبد الله بن طاهر، وطاهر بن عبد الله ارتباطهم بالعباسيين، وكان كل واحد منهم حاكما للدولة الطاهرية المستقلة.

وفى زمن الطاهريين (٨٢٠ - ٨٧٠م) بدأت قوة سامان فى الظهور وهو فى الولاية التابعين للطاهريين.

وسامان مؤسس هذه الأسرة من طاجيك خراسان وكان مجوسيا. لكنه أسلم فى زمن المأمون، وبعد أن عينه الطاهريون واليا على مرو، أصبح موضع تقدير المأمون. وعين طاهر أبناء أسد ابن سامان ولاية فى عام ٨٢١م؛ فأرسل منهم نوحا واليا إلى سمرقند، وأحمد إلى فرغانة، ويحيى إلى طاشكند.

وفى ٨٧٠م، عندما انهارت الأسرة الطاهرية، قوى السامانيون فى آسيا الوسطى وزادت قوتهم فى افغانستان وخراسان وأسسوا الأسرة السامانية الحاكمة. أما الخلفاء العباسيون، فقد ضعفوا من جراء النزاعات الداخلية، ولهذا أصبحوا فى وضع لا يمكن أن يعرقل الطاهريين أو السامانيين من تأسيس دولتهم.

### تحرك القراخانيين ضد السامانيين

فى سنة ٩٧٠م، تبوأ السلطان على أرسلان ابن السلطان موسى بوغرا عرش القراخانيين بعد وفاة السلطان سليمان أرسلان. وفى زمن السلطان أرسلان وضع القراخانيون نصب أعينهم اقتلاع السامانيين. وكان

السلطان هارون بوغرا بن السلطان سليمان أرسلان، هو نائب السلطان علي أرسلان. وبتعليماته فتح سلطنة ايديقوت الأويغورية وبعض المدن. وفي تلك الأثناء لم يكن بين القراخانيين نزاع حول العرش أو تباين في الرؤى. فضلا عن أن السلطان هارون بوغرا أيضا كان في الخبرة والسياسة لا يقل عن السلطان ساتوق بوغرا. واستطاع أن يكون جيشا قويا من المسلمين ومن أتباعه يتمتع بمهارة قتالية عالية.

فاقتلع بهذا الجيش السامانيين وقضى عليهم. وكان يخطط لضم أراضيهم وجعلها ضمن حدود الدولة القراخانية. وحتى عهد السلطان «هارون بوغرا»، كانت العلاقات بين القراخانيين والسامانيين تتقلب بين الصداقة والعداء. وكما أوضحنا من قبل أن حرب اسماعيل بن أحمد مع «الأوغولجق» طال أمدها بسبب علاقات الصداقة التي كانت بين السامانيين والقراخانيين في زمن السلطان ساتوق بوغرا. لكن في زمن نوح بن منصور (٩٧٦ - ٩٩٧م) واجه السامانيون مشكلات حقيقية؛ فقد اندلع الخلاف على العرش، وبلغت تمردات الإقطاعيين المحليين أبعادا خطيرة. وكان يشعر أن السلطة تحتاج إلى المال إلى جنب قوة البشر والموارد المادية حتى يقضى على السخط، ففرض ضرائب متفاقمة على الشعب وهذا أدى إلى تفاقم سخط الشعب وغضبه.

وفضلا عن علو كعب الجيش الساماني أينما ذهب، فإنه يتشكل كله تقريبا من الأوغوز. وهؤلاء كانوا يحكمون السيطرة فعليا على قواتهم المسلحة، بل أن الوالي العام الساماني على خراسان كان تركيًّا من الأوغوز.

استغل السلطان هارون بوغرا ضعف السامانيين وطردهم من اسفجياب سنة ٩٩٠م بأمر من السلطان علي أرسلان. وكان السامانيون قد استولوا على اسفجياب سنة ٨٩٠م في الفترة التي كان والي الإقليم من العرب. وبعد أن فتح السلطان هارون بوغرا «اسفجياب»، جمع من «يدى صو» حشدا غفيرا من الجند وبدأ في الإعداد لحرب حاسمة مع السامانيين. وقبل أن يهاجم السلطان هارون بوغرا بخارى عاصمة السامانيين،

بدأوا في إجراء مراسلات سرية مع أبي علي سيمجورى الوالى العام على بخارى (وهو من الأتراك الأوغوز). وبموجب الاتفاق الذى توصلا إليه كانت ماوراء النهر ستترك للقراخانيين، أما الأراضى المتبقية فى الساحل الجنوبى لأموداريا، فستعطى إلى أبي علي سيمجورى.

وبعد أن أتم السلطان هارون بوغرا كل الاستعدادات تحرك بالجيش القراخاني من «يدى صو» فى عام ٩٩٢م، وهاجم السامانيين. ورغم أن نوح بن منصور كان فى موقف فى غاية الصعوبة، وبذل قصارى جهده لجمع كل جيشه، لكنه لم يستطع أن يعرقل تقدم السلطان هارون بوغرا صوب بخارى بجيشه الجرار. ولا توجد معلومات مؤكدة عن عدد الجيش القراخاني الذى شارك فى حملة السلطان هارون بوغرا على بخارى.

وربما أن الجيش الساماني المتكون من الأوغوز وهم مركز الثقل، لم ينصع لأمر نوح بن منصور بالحملة، كما لم يؤيد الحاكم. ولهذا السبب واصل الجيش القراخاني تقدمه دون أن يلقى مقاومة جادة.

بدأ السلطان هارون بوغرا أولا بإعمال السيف فى الجيش الساماني الذى يقوده «آيانج تكين». فلما علم نوح بن منصور بهزيمة جيشه ووقوع «آيانج تكين» فى الأسر انهارت عزيمته، رغم أنه واحد من أكفاء الرجال وأثبتهم. والحقيقة أنه كان فى موقف صعب. فجمع جيشا كبيرا مرة أخرى بقيادة «باييق تكين» الذى كان كثير الكلام لكنه عاجز عن إنجاز شئ، وساقه ضد السلطان هارون بوغرا. وفى الحرب التى وقعت فى الأماكن المفتوحة من بخارى، انفتح الطريق لخيانة السامانيين وخسر «باييق تكين» الحرب. ومع ضوء النهار تجلت خيانة «باييق تكين» إذ عينه بوغراخان واليا على ترمذ وبلخ.

وبناء على هزيمة الجيش الساماني فى ضواحي بخارى وخيانة «باييق تكين»، اضطر نوح بن منصور إلى ترك عاصمته. وهكذا دخل السلطان هارون بوغرا بخارى فى موكب فخم «جويي مليان» حيث يوجد قصر دولة السامانيين وذلك فى سنة ٩٩٢م. لكنه بسبب مرضه لم يطل البقاء هناك، واتجه إلى سمرقند وانزوى هناك للراحة. وكان مرضه



فى ازدياد. ولهذا ترك سَمَرْقَنْدَ أيضا واتجه إلى كاشغَر، وفارق الدنيا فى «آتابشى» الواقعة اليوم داخل حدود قيرغيزستان. ونقل نعشه إلى كاشغَر حيث دفن فى منقطة قراصقال التابعة لقرية «باش كرم» بالقرب من المدينة. وأهل كاشغَر اليوم يقولون على الضريح «قليج بوغراخان»، والارجح الكبير أن به مرقد السلطان هارون بوغرا.

بعد فتح بُخارى على يد السلطان هارون بوغرا، عين السلطان على أرسلان واليان عموميان برتبة «إليك خان» لتقوية الحكم القراخانى. أحدهما سيحكم الساحل الشرقى لسيرداريا مع السفوح الشمالية لجبال طانرى داغ، وتولى الوظيفة بوصفه نائب السلطان القراخانى هناك. وكان مقر إقامته فى بلاساغون. أما الوالى العام الآخر فستكون فى عهده إدارة ماوراء النهر، ويقيم فى أوزكند. وعين السلطان هارون بوغرا «طوغان الأول» من أمراء القراخانيين على بلاساغون. وكان يقال عنه إليك خان الشمال. كما عين ناصر ابن السلطان على أرسلان على أوزكند. وكان يقال عنه إليك خان الغرب.

فتح موت السلطان هارون بوغرا الطريق لالتقاط الأنفاس لفترة وجيزة، وبدأ نوح ابن منصور فى تحسين أوضاعه. فبدأت العلاقات بين نوح ابن منصور وأبى على «السيجورى» فى التحسن نتيجة فتح السلطان هارون بوغرا لبُخارى؛ فسيجورى الذى خرج على السامانيين واتخذ مكانه إلى جانب السلطان هارون بوغرا من البداية، نكث عهده بعد فتح بُخارى (فقد سبق وأن تفاهم مع السلطان هارون بوغرا بشأن تقسيم أراضى السامانيين)، وانضم إلى جانب نوح بن منصور.

استغل نوح بن منصور موت السلطان هارون بوغرا، ودخل بُخارى فى ١٢ أغسطس ٩٩٢م، مساعدة أبى على سيجورى، وقتل «عزيز» وهو الوالى الذى عينه السلطان هارون بوغرا وهو فى الوقت ذاته ابن أخيه الشقيق.

والحقيقة أن نوح بن منصور استولى على بُخارى، لكن موقفه لم يكن واعدا بسبب عدم وجود رجال ثقة حوله. ولأن أبى على سيمجورى

لم يعد الآن رجلاً يوثق به، فقد طلب في عام ٩٩٧م المساعدة من «سوبوق تكين» الذي استولى على السلطة في غزنة. ولم يكن «سوبوق تكين» الذي نجح في جمع غزته وهرات في دولة واحدة، لم يكن يشعر بالود تجاه السامانيين. لأنه ولد في مدينة بارسخان الواقعة على ساحل «إيسيق كول» وكان من قبيلة قارلوق.. وقد أسلم «سوبوق تكين» في عام ٩٦٠م، ودخل في حماية «ألب تكين» والي السامانيين على غزنة والمنحدر من أصول أوغوزية، حتى أنه صاهره. في هذا الموقف لم يكن «سوبوق تكين» يفكر في إقامة مودة مع الحاكم الساماني نوح بن منصور، وسوف تتطور الأحداث فيما بعد في هذا الاتجاه.

لم يكن نوح بن منصور في وضع يمكن أن يحول دون انهيار الدولة السامانية. فقد كانت لاضطرابات الداخلية والهجمات الخارجية في بؤرة اهتمامه، ولاسيما أن نصر ابن علي إيليك خان الغرب بدأ في الاستعداد في عام ٩٩٦م للقضاء على السامانيين بأمر من السلطان علي أرسلان.

#### نهاية الدولة السامانية

اعتزمت الحكومة القراخانية إعادة فتح إمارة خوتن في الشرق، والقضاء على الدولة السامانية في الغرب.

ويوضح التسلسل التاريخي أنه في عهد علي أرسلان (٩٩٠ - ٩٩٨م)، تقرر إيجاد حل لهاتين المسألتين المهمتين، وتم حلها فعلياً في عهد السلطان أحمد «طوغان خان» (٩٩٨ - ١٠١٨م). ففي عهد السلطان علي أرسلان بدأت معارك دامية من أجل إخضاع الأويغور البوذيين في خوتن، وتم فتح بلادهم في عهد السلطان ساتوق بوغرا والسلطان موسى بوغرا والسلطان سليمان أرسلان، ولكنهم نجحوا في النهاية في الحصول على استقلالهم بعد العصيان عدة مرات. وتقول المعلومات التاريخية إن البوذيين في خوتن لم يخضعوا للسلطان سليمان بوغرا وأنهم حاربوا القراخانيين بصفة مستمرة على مدى ٢٥ عاماً، من عام ٩٧٥ وحتى عام ١٠٠٠م، وفي هذه الحروب كانوا تحت قيادة «ياغلاقالقو» أمير خوتن، حتى أن السلطان علي أرسلان لقي حتفه أثناء حرب دامية وقعت في

عام ٩٩٨م. وتقول المعلومات التاريخية أيضاً إن هذه الحرب وقعت في مكان يقع بين مدينتي يانكي شهر (المدينة الجديدة) ومدينة يانكيسار الحالية، وهناك قبر باسم «أوردام» يعد مزاراً للأهالي هنا. وتقول الرواية إن السلطان علي أرسلان يرقد في قبر «أوردام». ويوجد قبر السيد علي أرسلان في قرية «أشاغي طاربوغوز» (على ساحل نهر طومان) في منطقة «كونيشار» القريبة من كاشغر حيث مرقد السيد علي أرسلان.

ويتذكر شعب الأويغور في يومنا هذا السلطان علي أرسلان، ويقومون كل عام في الربيع بزيارة قبر «أوردام» والدعاء له. وفي إحد الأوقات بلغ عدد زوار هذا القبر حوالي مائة ألف شخص. أما الآن فإن نفس عدد الزوار يتدفقون على قبر السيد السلطان علي أرسلان الموجود في قرية «طاربوغوز» القريبة من كاشغر.

وبعد وفاة السلطان علي أرسلان تولى العرش القراخاني ابنه السلطان أحمد طوغان. وبعد أن أخضع السلطان أحمد طوغان البوذيين في خوتن اعتزم إدخالهم في الإسلام، ولتحقيق هذا الهدف، أرسل في عام ٩٩٠م جيشاً قوامه ٤٠ ألف جندي بقيادة السلطان يوسف قادر إلى خوتن. وهزم السلطان يوسف قادر جيش خوتن، وقتل «ياغلا قالقالو» عندئذ بدأ الشعب في دخول الإسلام أفواجا. وبعد هذا الحادث الذي وقع في عام ١٠٠٠م عين السلطان أحمد طوغان، السلطان يوسف قادر والياً على خوتن.

إذا استمرت الحروب التي بين الأويغور المسلمين والأويغور البوذيين في خوتن ٢٥ عاماً؟

هناك سببان لهذا، أولهما أن البوذية كانت متأصلة بشكل كبير لدى خوتن. وإذا أخذنا في الاعتبار أن البوذية قد بدأت في الانتشار في عهد «قانيشقا الثاني» إمبراطور كوشان في ذلك الوقت واستمرت على مدى ٧٤ عاماً قبل الميلاد. فلا بد وأن يكون هذه العقيدة قد ضربت بجذورها في أعماقهم. كما أن «باي - روجانا الكشميري» الذي جاء بالبوذية إلى

خوتن قد جاء إليها قبل مائة عام من الميلاد.

ويقول المؤرخ الياباني «يوشي لياو - تي» في كتابه المسمى «البوذية في الغرب» مستفيداً من مذكرات «فاشي - نينغ» المبشر الصيني البوذي الكبير الذي جاء إلى خوتن في عام ٤٠٠م يقول: «إن هذه الأراضي متطورة و شعبها مضياف للغاية. وهم يؤمنون ببوذا. وينظمون احتفالاتهم وفقاً لعقيدتهم البوذية. وعدد الرهبان الموجودين هنا حوالي عشرة آلاف. وجميعهم أنصار «كولونغو العظيم». وعندما يسمع ثلاثة آلاف راهب صوت الجرس يتوجهون فوراً إلى القاعة حيث يجلسون في مقاعدهم بكل أدب ونظام، ويجلس كل واحد منهم في مكانه صامتاً.

ويوجد هنا ١٤ نوعاً من معابد «جوماتي». وأنا هنا لا أتحدث عن المعابد الصغيرة. ويقوم الأهالي بداية من الشهر الرابع بكنس شوارع المدينة وغسلها بالماء، وجميع الشوارع واسعة. ويبسطون ستائر كبيرة على أبواب المدينة الرئيسية، والستائر مزخرفة بزخارف كثيرة. ويجلس خلف الأبواب حاكم المدينة وزوجته وجواريه. والحاكم يحترم جداً للراهب «جوماتي» نصير «كولونغو العظيم». وهذا الراهب يحضر الصنم، ويخرج الحاكم من باب المدينة وفي يده تاج ذهبي ويرتدي ملابس جديدة ونظيفة ويستقبل الصنم. ويدخل الصنم إلى الداخل محمولاً على عربة. وفي تلك الأثناء تنحني الملكة والجواري باحترام، ويعظمون الصنم. وهذا العيد يبدأ في الأول من إبريل وينتهي في ١٤ إبريل. وبعد أن ينتهي المهرجان يعود الحاكم وزوجته إلى قصرهما.»<sup>١٢٧</sup>

هذه الروايات توضح أن البوذية قد ضربت بجذورها وتأصلت في شعب خوتن. ولا بد أن هذا هو سبب رفض الأويغور البوذيين الدخول في الإسلام لفترة طويلة.

أما السبب الآخر لمقاومة شعب خوتن للقراخانيين لفترة طويلة فهو دعم إمارة أويغور إيديقوت والبوذيين في التبت لهم. والحقيقة إن إمارة إيديقوت الأويغورية والتبتيون قدموا مساعدات كبيرة خلال المعارك التي وقعت بين القراخانيين والخوتن. علاوة على ذلك فإن القضاء على

الدولة السامانية الذي استغرق فترة طويلة، ضمن إخضاع شعب خوتن للقراخانيين.

وفي عهد السلطان علي أرسلان قام ناصر إيليكخان بالهجوم على السامانيين مرة أخرى في عام ٩٩٦م، وطلب نوح بن منصور المساعدة من «سبكتكين» والي عام خراسان، فخرج بجيش كبير لمساعدة سيده، وبينما «سبكتكين» في مقر قيادته في منطقة كش (شهر سبز) ينتظر انضمام جيش سيده إليه، رفض نوح بن منصور طلبه هذا، وأمره بالمجيء إليه في الحال، فأرسل سبكتكين إلى بخارى جيشاً يضم ٢٠ ألف جندي بقيادة ابنه محمود وأخيه الصغير بوغراچوق.

وبعد أن استولى «سبكتكين» على بخارى أجرى حواراً مع ناصر إيليكخان واتفقا على تقسيم الأراضي السامانية فيما بينهما. وينص الاتفاق الذي تم التوصل إليه على التنازل عن وادي سرداريا إلى القراخانيين، أما الأراضي المتبقية من الساحل الجنوبي لأمو - دريا فيترك لسبكتكين. وعين ناصر إيليكخان «پاييق تكين» والياً على سمرقند. وفي تلك الأثناء توفي نوح بن منصور الذي أصيب بالشلل بسبب ما فعله «سبكتكين» في عام ٩٩٧م.

وبعد موت نوح بن منصور تولى بعده ابنه أبو الفارس منصور. وبرغم إنه كان شديد الذكاء وذا خبرة وحذر، لم يستطع هذا الأمير سيء الحظ منع سقوط السامانيين. وفي الأيام الأولى من شهر فبراير عام ٩٩٩م خلع «پاييق تكين» أبو الفارس منصور من على العرش وأمر بسمل عينه، ونصب على العرش الساماني هذه المرة شقيقه الأصغر عبد الملك. وفي عام ٩٩٩م مات «پاييق تكين». واعتزم ناصر إيليكخان القضاء على الوجود الساماني فيما وراء النهر، وفي تلك الأثناء لم يكن لدى السامانيين لا الجيش ولا القائد الذي يمكنه مقاومة القراخانيين. وعلاوة على ذلك كان الأهالي غير مباليين بالأحداث التي أنهكتهم.

يلفت الانتباه مارواه أحد التجار عن تسليم بخارى وعن واقعة جرت

في بداية شهر اكتوبر من عام ٩٩٩م في عهد ناصر إيكخان. فقد سجل هذا الحدث الذي رواه هلال السابي أحد كتاب القرن الحادي عشر الميلادي على النحو التالي: «عندما جاء ناصر إلى بخارى، أمر أعضاء الأسرة السامانية الوزراء بالعمل على ضمان تأييد الشعب. فصعد الوزراء إلى المنارات ودعوا الشعب في العاصمة لمساندة الأسرة السامانية. فرجع الشعب إلى القضاة لمعرفة رأي الشرع في هذا. فقال لهم القضاة ما يلي:

«إذا كان القراخانيين يحاربون السامانيين في سبيل الدين فإن مساعدتهم واجبة. أما إذا كانت الحرب من أجل أمور دنيوية فلا داعي لها حتى لا يكسر المسلمون بعضهم بعضاً...»<sup>١٢٨</sup>

وهذه الواقعة توضح أن الأهالي لم يدعموا السامانيين. وعند دخول ناصر إيكخان بخارى أدلى بهذا الحديث القصير: «إنني جئت إلى بخارى بوصفي صديق وحامي للسامانيين.» فصدق «بك طوسون» و«إينال تكين» وهما من قادة السامانيين قول ناصر هذا، وجاءا إلى مقر اقامته لكن تم اعتقالهما. وهكذا دخل الجيش القراخاني بقيادة ناصر إلى بخارى في ٢٣ اكتوبر عام ٩٩٩م دون أي مقاومة. ووضع ناصر في نفس اليوم يده على الخزينة السامانية، واعتقل عبد الملك آخر حاكم ساماني وأقاربه وأرسلهم إلى أوزكنت. وبعد ذلك عين «چغري تكين» والياً على بخارى، وعاد هو إلى «أوزكنت».

وهكذا انتهت الدولة السامانية في عام ١٠٠٠م بعد أن دام وجودها ١٢٠ عاماً. والحقيقة أن أبا إبراهيم اسماعيل شقيق عبد الملك استمر في الحرب ضد القراخانيين على مدار خمسة أعوام، وبرغم إنه لقب نفسه بـ المنتصر، اعتقله ناصر إيكخان، وأرسله إلى أوزكنت. إذ لم تسفر الحرب التي شنّها المنتصر من أجل إحياء الأسرة السامانية عن شيء، فقد أنزل به الجيش القراخاني في عام ١٠٠٤م هزيمة ساحقة بالقرب من بخارى. واستطاع المنتصر الإفلات من الأسر ونجح في الهرب إلى خراسان؛ ولكن شقيقه وأقربائه وقعوا في الأسر وتم إرسالهم إلى



## الفصل الثاني عشر: الغزنويين والقراخانيين

### سلطنة غزنة

بعد زوال السامانيين من ساحة التاريخ، صارت العلاقات التي بين القراخانيين والغزنويين محل اهتمام.

تأسست الدولة القراخانية في عام ٨٥٠م، أما السلطنة الغزنوية فقد تأسست في عام ٩٦٠م.

عين الحاكم الساماني عبد الملك الأول (٩٥٤ - ٩٦١م) «ألب تكين» والياً على خراسان الشرقية (هرات) في عام ٩٥٥م، وفي عام ٩٦١م جعله والياً عاماً على خراسان بأكملها. وبدأ «ألب تكين» الذي كان من قبيلة «قينيقي» الأوغوزية، في وضع قوانين في الجيش الساماني للمهنية العسكرية، ولفت الانتباه إلى شجاعته وجسارته في الحروب التي شنّها السامانيون. ولكن في عام ٩٦١م عندما عُين والياً عاماً على خراسان بأكملها أعرض عن الخضوع لساته، واضطر السامانيون أن يقبلوه والياً عاماً على خراسان له صلاحيات كاملة.

وبدأ نجم السامانيين يخبو اعتباراً من نوح بن منصور. فالاضطرابات الداخلية التي لاتنتهي والصراع على العرش أضعف الدولة؛ واستغل «ألب تكين» هذا الوضع وأعلن استقلاله في عام ٩٦١م، وهكذا ارسى أساس السلطنة الغزنوية.

وعندما مات «ألب تكين» في عام ٩٦٣م جاء بعده إبراهيم (٩٦٣ - ٩٦٦م)، ومن بعده جاء «بيلكه تكين» (٩٦٦ - ٩٧٢م)، ثم پيري تكين



(٩٧٢ - ٩٧٧م).

وباعتلاء «سبكتكين» سُدة الحكم فى ٩٧٧م، بدأت معه فترة قوة السلطنة الغزنوية. وأصل «سبكتكين» من القارلوق وكان صهرا لألب تكين. وفى سنة ٩٧٧م انتزع العرش من يد ورثة «ألب تكين». وكانت أول إجراءات «سبكتكين» هى التوغل داخل الحدود السيادية لكابل وما حولها.

وفى فترة حكمه شملت حدود سلطنة غزنة المنطقة الممتدة من بيشاور فى الشرق (فى باكستان الآن) حتى خراسان فى الغرب.

عندما هاجم هارون بوغراخان بخارى عاصمة السامانيين فى عام ٩٩٢م، ساعده «سبكتكين» فى إخضاعها. مع أن السلطان هارون بوغراخان عينه واليا عاما لغزنة إلا أنه لم يأبه بهذا، وحافظ على استقلاله ولم يخضع للقراخانيين.

وعندما توفى «سبكتكين» فى سنة ٩٩٧م، تولى مكانه ابنه محمود وكان فى السابعة والعشرين من عمره. وبهذا اتخذت الدولة التى وضع أساسها «ألب تكين» اسم سلطنة غزنة من اسم مدينة غزنة عاصمة دولته. وفى زمن محمود الغزنوى (٩٧٧ - ١٠٣٠م) اتسعت حدود دولته اتساعا كبيرا وامتدت من وسط البنجاب فى شرق الهند حتى وسط غرب فارس ووسط خوارزم.

وفى الأيام التى فتح فيها «ناصر ايليك خان» بخارى فى عام ٩٩٩م اتخذ محمود الغزنوى لنفسه لقب سلطان. وأطلق القادر بالله الخليفة العباسى فى بغداد على السلطان محمود لقب (يمين الدولة وحمى المؤمنين) وأرسل له عمامة للسلطنة. وقد أدى هذا إلى زيادة سلطة السلطان محمود.

وكانت أهم المشكلات التى تواجه السلطان محمود هى ضم مناطق الهند المعمورة والغنية والمجاورة له من ناحية الشرق إلى دولته. ولهذا شن سبع عشرة حملة على الهند (البنجاب - كشمير - ومناطق اخرى).

وكان يقوم بهذه الحملة بوصفه غازيا وهدفه تخليص الهند من البوذيين.

ولكي يتمكن محمود الغزنوي من تحقيق هدفه هذا، كان مضطرا إلى حل مسألتين أولا: المسألة الأولى هي أن يمتلك أسطولا جيدا وجيشا قويا،

والثانية: هي أن يقيم علاقات صداقة من القراخانيين حتى يؤمن ظهره.

وفي عام ١٠٠٠م، أرسل السلطان محمود سفارة إلى «ناصر ايليك خان» برئاسة أبي سعيد طاهر بن محمد. وقد استقبل «ناصر ايليك خان» هذا السفير لدى وصوله إلى «أوزكند» بكل احترام. وأسفرت المفاوضات التي جرت بينها عن حل المشكلات المتعلقة بالحدود بين الدولتين، واعتبار أمودريا حدا فاصلا بين دولتيهما.

وفي ذات العام تزوج السلطان محمود بابنة «ناصر ايليك خان». وبعد ان أنجز السلطان محمود هذين الأمرين المهمين وهما تشكيل الجيش وإقامة علاقات طيبة مع القراخانيين، بدأت حملاته العسكرية تجاه جيرانه. فدخل بيشاور في عام ١٠٠٠م ولعب دورا مهما في استمالة البوذيين في الهند إلى الاسلام بوصفه خير من يمثل الاسلام السني.

وفي عام ١٠٠١م تمكن السلطان محمود من هزيمة جيش الهند المكون من ثلاثمائة فيل واثنين وأربعين ألف رجل، واستولى على وادي البنجاب. وأرسل الغنائم الثمينة التي حصل عليها إلى غزنة، وبعد ذلك بعام واحد استولى على سسيتان أيضا. وفي حملته العاشرة سيطر السلطان محمود على «الكانج»، وفي الحملة الثالثة عشرة تمكن من الانتصار على جيش الهند المكون من مائة وخمسين ألف رجل. وكانت حملته السادسة عشرة من حملاته على الهند هي المتوجة لهذه الحملات وأنجحها، وفيها دخل إقليم الكجرات (جنوب الهند). ومن حيث النتائج فقد أصبحت الدولة الغزنوية مع مجيء عام ١٠٢٥م

واحدة من أقوى دول العالم.

وإثناء حملات السلطان محمود على الهند غنم غنائم هائلة. ومن بين غنائم الهند التي حملها إلى غزنة أصنام آلهة مصنوعة من الذهب والفضة، وأنية ومتاع وأقمشة وأسلحة وقطعان وأفيال وما شابه ذلك من الغنائم الثمينة. فكانت القوافل التي تحمل هذه الغنائم متواصلة بغير انقطاع. وفي آخر هذه الحملات نقل إلى غزنة عشرين مليون درهما من العملات الفضية، و٥٧ وخمسين ألف جارية هندية، وثلاثمائة وخمسين فيلا، والمحتمل أن هذه الجوارى قد تم بيعهن إلى الأهالي الأتراك في وسط آسيا وخراسان.. فقد حققت هذه الحملات القوة لسلطنة غزنة وجيشها في الوقت نفسه.

وحسبما نتبين من الرسالة التي أرسلها محمود الغزنوي إلى مؤمن خوارزم شاه عام ١٠١٥م، أن عدد جيش غزنة يبلغ مائة ألف من الفرسان والمشاة. وعدد الأفيال التي يضمها جيشه يبلغ خمسمائة فيل. وقد استخدم السلطان محمود العمال والفلاحين الذين جمعهم من الهند في بناء القلاع والقصور والجوامع والمدارس. ويقول «جيبون» عن السلطان محمود في كتابه المسمى «تاريخ انهيار الامبراطورية الرومانية»: يعد السلطان محمود من أعظم السلاطين الغزنويين. فقد استولى السلطان محمود على الأقاليم الشرقية من فارس بعد ألف سنة من الميلاد...

وكان هذا البطل المسلم لا يهاب البرد ولا الجبال الشاهقة التي لا يمكن اجتيازها والوديان الواسعة، ولا الصحراء والسهول، ولا جيوش أعدائه التي لا تحصى عددا.

وهذه الأسطر تشير إلى شجاعة السلطان محمود وقدرته وعزيمته. وهو ما تبرهن عليه حملاته التي شنّها ضد أعدائه. وينبغي القول صراحة إن السلطان محمود كان رجلا مهيبا وجسورا وفتحاً عظيماً. وقد أسهم السلطان محمود إسهاماً مهماً في تطوير الشعر والأدب

وشهد الأدب الفارسي في عهده أزهى أيامه. ولاسيما أن الفردوسي كتب في عصره وبأمر منه شاهنامته المشهورة. وقد أثرى الحروب القراخانيين والغزنويين الأدب الفارسي في زمن الغزنويين، وبعد ذلك في زمن السلاجقة.

### حروب القراخانيين والغزنويين

سرعان ما فسدت علاقات الصداقة التي بين القراخانيين والغزنويين، والسبب في هذا هو مطالبة القراخانيين بالأرض.

وكما هو معروف أن أفغانستان وخراسان تتبع السامانيين. كما أن القراخانيين الذين قضوا على الدولة السامانية، كانوا يريدون ضم هذه الأقاليم إلى حدودهم ويعتبرون هذا حقا لهم. في حين أن السلطان محمود ضم أفغانستان وخراسان إلى مملكته، وطبيعي أن القراخانيين الذين لم يقبلوا هذا الوضع، كانوا يريدون استرداد خراسان وأفغانستان من السلطان محمود.

في زمن «أحمد طوغان» حاكم القراخانيين العظام (٩٩٨ - ١٠١٨م) حدثت حربان بين القراخانيين والغزنويين، وحربا أخرى بين القراخانيين والكيدانيين.

أما القراخانيون الذين لم يتخلوا أصلا عن فكرة الاستيلاء على أفغانستان وخراسان، فقد هاجموا سلطنة غزنة في عام ١٠٠٦م. وفي تلك الأثناء كان السلطان محمود مشغولا بحملته على الهند، وساق «ناصر» حاكم الإيلخانيين الغربيين جيشه إلى خراسان وكان قسم من جيش القراخانيين تحت «قيادة تكين». وجيش آخر توجه إلى أفغانستان بقيادة «چغرى تكين». واستولى القسم الذين يقوده «تكين» على نيسابور وطوس من خراسان (في مشهد اليوم). وقد استقبل أعيان خراسان الجيش القراخاني استقبالا جيدا، حتى أن الخطبة قرأت في مدينة طوس باسم «ناصر ايليك خان» كما دخل الجيش القراخاني الذين يقوده «چغرى تكين» بلخ، لكن استقبله أهلها بمقاومة شديدة.

لما علم السلطان محمود بدخول القراخانيين خراسان وأفغانستان، وكان آنذاك في ملتان، عاد من فوره إلى غزنة وتحرك صوب القراخانيين. أما السلطان محمود الذي أجبر «چغرى تكين» على الانسحاب إلى ترمذ، فقد أجبر القائد «تكين» على الرجوع إلى ما وراء النهر من عند أمودريا.

ورغم أن «ناصر ايليك خان» انهزم أمام جيش غزنة سنة ١٠٠٦م، فقد بدأ في الإعداد لحملة جديدة بعد ذلك بعام واحد. لكنه في هذه المرة طلب العون من السلطان يوسف قادر والى خوتن. وفعلا تحرك «ناصر ايليك خان» بجيش قوامه خمسين ألف رجل عام ١٠٠٧م وحاصر بلخ. فلما علم السلطان محمود بالأمر تحرك من غزنة بجيش كبير وخمسمائة فيل. وفي الرابع من يناير ١٠٠٧م حدث صدام بين الطرفين عند وادي «كَطْر» على مسافة ١٢ كم من بلخ أسفر عن هزيمة القراخانيين.

ولعبت الأفيال التي في جيش الغزنويين دورا مهما في هذه الحرب. ولكن انسحاب القوات الاضافية التي كانت تحت قيادة السلطان أحمد طوغان من ميدان المعركة، جعلت من هزيمة القراخانيين أمرا لا مفر منه.

ولما تيقن «ناصر ايليك» من خسارته هذه الحرب جمع جيشه وانسحب إلى بلخ وأخذ ما بها من جنوده وسلك طريق من ما وراء النهر عند أمودريا. لكن تُرى لما لم يتعقب السلطان محمود جيش القراخانيين، ولم يقض عليهم كلهم في وادي «كَطْر»؟.

ويذكر بعض المؤرخين أن الذي فتح الطريق لهزيمة جيش القراخانيين هروب السلطان طوغان خان، وسبب ذلك وجود اتفاق سرى بينه وبين السلطان محمود.

وأرسل السلطان محمود رسلا إلى السلطان «أحمد طوغان» من سلاطين كاشغر و«ناصر ايليك خان» و«يوسف قادرخان» وذلك لخوفه

من نشوب الحرب مرة أخرى، وأخذ يبحث عن سبب لبناء علاقات صداقة معهم، ورجع السفراء الغزنويون الذين ذهبوا إلى «ناصر ايليك» و«يوسف قادر خان» بشكل لا يدعو للتفاؤل.

ذلك لان كلا الخانين رفض اقتراحات السلطان محمود، لكن السلطان «أحمد طوغان» أحسن استقبال السفير الغزنوي ووضع معاهدة وفق الشروط التي أقرها السلطان محمود. هذا الموقف الذي أثار غضب «ناصر ايليك خان» دفعه لأن يجمع جيشه في شهر مارس ١٠٩٩م (في بعض المصادر ١٠١٢) والتحرك صوب أخيه السلطان «أحمد طوغان» الموجود في كاشغَر. لكن ما أن وصل إلى بلاساغون، حتى تراجع بسبب الثلوج القوية، لكن تدخل بينهما السلطان محمود الغزنوي، فتصالح الأخوان في هذه السنة. والواقع أن السلطان «أحمد طوغان» أعاق هجوم أخيه «ناصر ايليك خان» على الغزنويين، لكن دب الخلاف حول هذا الأمر بين السلطان أحمد طوغان ويوسف قادر خان حاكم خوتن. ونتيجة موت «ناصر ايليك خان» سنة ١٠١٢م أجبر يوسف قادر خان الذي استولى على يار كند وكاشغَر، السلطان أحمد طوغان إلى الانسحاب إلى بلاساغون<sup>١٢٩</sup> (في سنة ١٠١٥م)

وفي سنة ١٠١٢م صار منصور أخو السلطان أحمد طوغان سلطانا للقراخانيين الغربيين.

وعندما مرض السلطان أحمد طوغان في سنة ١٠١٧م ساق به «لولونج-صو» حاكم الكيدانيين الشرقيين (٩٨٣ - ١٠٣١) جيشا قوامه مائة الف رجل ضد القراخانيين. وحسب بعض المصادر التاريخية، أن من خرجوا في هذا الجيش هم مائة ألف أسرة كيدانية تعرف في التاريخ بإسم القراخطاي. والاحتمال الأكبر أن المائة ألف أسرة كيدانية التي هاجرت في اتجاه الغرب، جاءوا إلى وادي إيلي من فوق الألطاي. وتشكل من هذه الأسر الجيش المكون من مائة ألف شخص، واتجه الألطاي الذين هم القسم الشمالي الغربي من القراخانيين، وهذه الأسر التي احتلت وادي إيلي، اتجهوا إلى بلاساغون.

فى تلك الأثناء تلقى السلطان أحمد طوغان الجالس على عرش القراخانيين آنذاك (والذى رجع من بالاساغون إلى كاشغر عام ١٠١٥م)، تلقى خبر هزيمة القراخانيين أمام جيش الكيدانيين، فاتجه فوراً إلى بالاساغون، وهزم الكيدانيين فى مكان على مسافة ثمانية أيام من المدينة، وطارد من هرب وتمكن من أسر مايزيد على عشرة آلاف أسير. كما غنم أعداداً كبيرة من البغال وغيرها، واستمرت حملة أحمد طوغان هذه ثلاثة شهور، لكن فى النهاية تمكن من إخراج الكيدانيين من «الطاي» ومن «وادي ايلي»، وأعادهم إلى الأماكن التى جاءوا منها. ومنذ ذلك اليوم لم يجرؤ الكيدانيين على مهاجمة القراخانيين. ولما توفى السلطان أحمد طوغان سنة ١٠١٨م، تولى مكانه أخوه منصور أرسلان خان (١٠١٢ - ١٠١٨م) وعين محمود أرسلان خان أخوه محمود كحاكم «إليك خان» الغربيين.

ولم يسعد يوسف قادر خان لاختيار «منصور أرسلان خان» حاكماً للقراخانيين، فوقع هو وابن أخيه (أو أخته) علي تكين معاهدة مع السلطان محمود ثم قرر أن يخوض صراعاً مع السلطان منصور أرسلان خان. كما جاء السلطان محمود بدوره فى عام ١٠١٩م إلى ما وراء النهر بغرض مساعدة يوسف قادر خان. لكنه غادر ورجع من هناك لسبب غير معروف. بناء على ذلك أعلن يوسف قادر خان طاعته لأخيه منصور أرسلان خان وهاجم خراسان لى ينتقم من الخيانة التى اقترفها محمود الغزنوي. وانتهت الحرب التى وقعت أمام بلخ بانتصار السلطان محمود. وقد تشتت قسم مهم من جيش القراخانيين الذى انسحب بعد هزيمته وذلك أثناء تجاوزه سرداريا. وأرسل «آلتون طاش خوارزم شاه» خطاباً يعلن فيه تهنيئته للسلطان محمود الغزنوي بهذا النصر على القراخانيين.

بعد رجوع يوسف قادر خان مهزوماً من حملة خراسان عام ١٠١٩م، تخلى عن المطالبة بحقه فى عرش القراخانيين فى الفترة بين ١٠١٩ - ١٠٢٥م.

## خوارزم من زاوية القراخانيين والغزنويين

كانت خوارزم الواقعة على الشاطئ الغربي لنهر أمودريا، بلدا غاية في الخصوبة ومباركة. وقد ارتقت في خوارزم الزراعة، وزراعة الكروم وتربية الحيوان والصناعة والتجارة قبل الميلاد بألف عام. وفي الأزمنة القديمة عرف السكان المحليون لآسيا الوسطى الذين استقروا واشتغلوا بالزراعة، بأسماء المناطق التي عاشوا فيها مثل الخوارزمي، والصغدي، والباكتريالي. ونصادف اسم خوارزم للمرة الأولى في الكتابة المنقوشة على صخرة (باهي ستون) التي أقامها الأحمينيون عام ٥٢٠ قبل الميلاد احتفالا بانتصار دارا الأول. ولخوارزم تاريخ موغل في القدم وربما يعنى اسمها(البلاد المشمسة).

ويذكر أنه عندما انتصر الإسكندر المقدوني على دارا الثالث آخر ملوك الأسرة الأخمينية في عام ٣٣٠ قبل الميلاد، واستولى على فارس، وقبلها بعامين أرسل «پارامسان خوارزمشاه» رسولا إلى الإسكندر ليعرب عن رغبته في إقامة علاقات صداقة معه، ومن ناحية أخرى ليبلغه أنه سيساعده في شن حملة على نواحي البحر الأسود؛ لكن الإسكندر استقبل السفراء بوجه باس، وقدم لهم الهدايا القيمة، لكنه كان يفكر في أن يسوق حملة إلى نواحي الهند وليس في اتجاه الغرب.

وخوارزم التي انتقلت إلى حكم الكوك تورك اعتبارا من القرن السادس الميلادي صارت في أعقاب الحملة التي ساقها [قتيبة بن مسلم] في عام ٧١٣م، تابعة للوالي العام لخراسان وماوراء النهر؛ وظلت تحت حكم الطاهريين في الفترة من ٨٢٠ - ٨٧٠م، وحكم السامانيين في الفترة من ٨٧٠ - ١٠٠٠م، لكنها في زمن السامانيين كانت شبة مستقلة.

وغير معروف إن كانت خوارزم بعد انتهاء السامانيين قد صارت تابعة للقراخانيين بشكل كامل أم لا. الشيء الوحيد الذي نعرفه أن خوارزم صارت أكثر قربا من الغزنويين في أعقاب خروج القراخانيين مهزومين من حملتهم على خراسان التي قاموا بها في عامي ١٠٠٦، و١٠٠٨م.



وكانت خوارزم وقت انهيار الدولة السامانية في عام ٩٩٩م كيانا واحدا. لأنها فيما قبل كانت مقسمة إلى قسمين: شمالي وجنوبي، عاصمة الشمال «أوركنج»، أما عاصمة الجنوب فكانت «قياط». وكان مؤمن بن محمد حاكم خراسان قد وحد الشمال والجنوب في عام ٩٩٦م، واتخذ لقب خوارزم شاه، وجعل «أوركنج» عاصمة الإقليم.

وكان محمود الغزنوي يريد أن يجعل دولة خوارزم ذات الثروة والثقافة مربوطة به، حتى أنه زوج اثنين من أخواته إلى مؤمن بن محمد وابنه علي بن مؤمن (٩٩٧ - ٩٩٩م). وكان هدفه أن يصبح صاحب خوارزم عن طريق المصاهرة؛ لكن صهره حرصا على الاستقلال بما لديهما من قوة، وكانا يتحريان السبل التي تجعلهما أقوى من الواجهة العسكرية.

وبعد موت علي بن مؤمن، تولى العرش أخوه مؤمن بن مؤمن، وبذل جهودا كبيرة لكي يتمكن من جعل خوارزم دولة قوية ومستقلة. وكان غاية في العقل والذكاء، لكنه كان مفرطا في انفعاله ويحب التملق. أما الخليفة القادر بالله العباسي، فقد أرسل في عام ١٠٤١م سفيرا إلى «أوركنج» اسمه البيروني (غير أبي ریحان البيروني)، بقصد بذور العداوة بين دول آسيا الوسطى لإضعافها، وأطلق على مؤمن بن مؤمن لقب (عين الدولة ومجد المؤمنين) كما أرسل له الملابس القيمة. لكن محمود الغزنوي كان قد علم بأمر الرسالة والهدايا التي أرسلها الخليفة إلى مؤمن، فقرر أن يختبر مؤمن حسب توصية وزيره أبو القاسم ميمندي بأن أرسل رسولا إلى قصره خفية. وكانت مهمة الوزير أن يفعل كل ما يمكنه لتقرأ الخطبة باسم الخليفة وباسم السلطان محمود. وأراد الرسول قراءة الخطبة باسم السلطان وأوضح أنها رغبتة هو الشخصية؛ لكن مؤمن ابن مؤمن وهو الرجل العاقل، فهم السر من وراء هذا الطلب. فلم يعط الرسول جوابا شافيا، لكن أصر الرسول على طلبه. وإزاء هذا الموقف الصعب جمع مؤمن أمراءه وأركان دولته للمشورة. فاعترض الأمراء وأركان الدولة وشهروا سيوفهم وهددوا مؤمن قائلين: «إذا وافقت هذا الرسول على طلبه فسنقتلك وأنت في مكانك

هذا». وصار مؤمن بين نارين. فإذا لبي الرسول إلى طلبه فسيكون ضد شعبه، وإذا رفض فسيستعدى عليه رجل مثل محمود الغزنوي. في هذا الوضع المحير قرر أن يعقد اتفاقاً مع القراخانيين وأن يخرج ضد محمود الغزنوي. وعلى الفور أرسل رسولا إلى القراخانيين، الذين رأوا بدورهم أنه من المناسب الخروج معه ضد محمود الغزنوي.

عندما علم السلطان محمود باتفاق القراخانيين مع خوارزم ضده، أرسل من فوره مبعوثاً للاعتراض على هذا الأمر. وعلنت الإدارة القراخانية في متن الرد الذي أرسلته مع هذا المبعوث بأسلوب دبلوماسي، أن الغزنويين إذا كانوا يريدون تطبيع علاقاتهم بالخوارزميين فإنهم مستعدون للوساطة في هذا الأمر. لكن السلطان محمود كان غير راض عن وساطة «منصور الإليخان الغربي القراخاني بين السلطنة الغزنوية والخوارزمية» وتدخله في الأمر. وفي عام ١٠١٥م أرسل السلطان محمود خطاباً إلى شاه خوارزم الذي كان في موقف صعب، يهدده فيه بقوله: «إنك تعرف أن بيننا عهداً وموathيق وعليك التزامات. ومعلوم لديك كم كان أخوكم الأكبر سلطان خوارزم قبلكم، مدينا لنا.

أما بالنسبة لمسألة قراءة إسمننا في الخطبة، فقد امتثلتم لهذا الأمر، حيث رأيت ما سيجره عليك عدم قراءة إسمننا في الخطبة، ولكن شعبك اعترض عليك. ولا أنوى الضغط عليك بقولنا (افعل ولا تفعل) كما يفعلون هم. فهم قد قالوا لك يا أيها السلطان (افعل ولا تفعل). وهذا الوضع هو أساس ما بلغت دولتك من ضعف. والحقيقة أنني غاضب على مثل هؤلاء الرجال. إنني في بلخ منذ زمن طويل، مستعد بجيش فرسان قوامه مائة ألف جندي وخمسمائة فيل لأرد رجالكم إلى صوابهم. وهدفي أن أوقفك يا أخي وصهري من غفلتك. إن حاكماً مثلك لا يظل في الحكم فترة طويلة». ويوضح السلطان محمود، أنه في حالة حدوث أي من الأمور الموضحة في نهاية خطابه، فإنه سيعود بجيشه إلى غزنة مرة أخرى وهي:

١ - ضرورة ان يذكر سلطان خوارزم اسم السلطان محمود الغزنوي

في الخطبة.

٢ - أن يرسل سلطان خوارزم إلى السلطان محمود الهدايا والأموال، ولكن السلطان محمود في المقابل سيعيدها سرّاً إليه، لأنه غني وليس بحاجة إليها.

٣ - أن يرسل سلطان خوارزم كبار موظفيه للاعتذار للسلطان محمود. ١٣٠.

لم يستطع مؤمن نتيجة عدم خبرته وحسمة، تحقيق الاستقلال سواء لنفسه أو لخوارزم. وعدم حسمه هذا فتح الطريق إلى عصيان الأمراء، ففي عام ١٠١٧م قام الأمراء بقتل مؤمن ووضعوا على العرش ابن أخيه أبا الحارس محمد بن علي.

وهذا العصيان الذي حدث في خوارزم كان الذريعة التي يبحث عنها محمود الغزنوي. فسار إلى خوارزم بجيش كبير بحجة «الثأر لمقتل صهره مؤمن». لكن لم يسع القراخانيون سعياً جاداً لإعاقه ذلك برغم التصريحات التي أصدروها بأن السلطان محمود يستعد للاستيلاء على خوارزم. والنتيجة، استولى السلطان محمود في عام ١٠١٧م على خوارزم، واعتباراً من هذا التاريخ ضاع استقلال خوارزم، وأصبحت ولاية تابعة للسلطان الغزنوي. وعين السلطان محمود عليها أميراً يسمى «آلتون طاش» من قبيلة قارلوق ليحكم خوارزم بإسم الغزنويين.

### السلطان يوسف قادرخان ومحمود الغزنوي

وقعت في عهد السلطان منصور أرسلان وقائع مهمة. ففي العام الذي تولى فيه العرش (في عام ١٠١٧م) استولى محمود الغزنوي على خوارزم. وفي عام ١٠١٩م انتهت الحرب التي شنها القراخانيون على خراسان بهزيمة ثقيلة، واتحد «علي تكين» مع «يابغو الأوغوز» أرسلان اسرائيل (فيما بين أعوام ٩٩٠ - ١٠٢٥م)، ورفع راية العصيان ضد السلطان منصور أرسلان خان.

واستولى «علي تكين» على بخارى في عام ١٠٢٠م. وعندما خرج السلطان منصور أرسلان ضد هذا العصيان انهزم بسبب دعم «الأوغوز» لعلي تكين. وفي نفس تلك الأيام مات «طوغان الأول الإليخان الشمالي» وتولى بعده «طوغان خان الثاني» الذي حرك العصيان. ونتيجة هذا العصيان تنازل السلطان منصور أرسلان خان عن العرش في عام ١٠٢٤م ومات بعد فترة قصيرة. وتولى العرش بعده السلطان «أحمد طوغان الثاني» وهو حفيد هارون بوغراخان (ابن حسن)، وبينما انشغل السلطان أحمد طوغان بتهدة العصيان، أصبح عمه السلطان يوسف قادرخان، السلطان الأعظم للقراخانيين في عام ١٠٢٥م.

وفي عام ١٠٢٥م بدأ السلطان يوسف قادرخان التحرك من كاشغر بهدف القضاء على العصيان، وهاجم السلطان طوغان الثاني الإليخان الشمالي، لكنه انهزم في الحرب التي اندلعت في المناطق القريبة من بالاساغون. وأعرب «علي تكين» الذي علم خبر هذه الواقعة، عن أمله في أن يصبح السلطان الأعظم للقراخانيين. وكان قد اتحد مع الأوغوز قبل ذلك في عام ١٠٢١م واستولى على بخارى، أما في عام ١٠٢٥م فقد اتحد مع يابغو الأوغوز أرسلان إسرائيل، ورفع راية العصيان ضد السلطان يوسف قادرخان.

كان الأوغوز يستقرون في مدينة جند وماحولها في المناطق التي تقع أسفل نهر سرداريا ويرأسهم أبناء سلجوق، أمير الأوغوز الأعظم. والواقع إن عصيان السلطان طوغان الثاني الإليخان الشمالي، واتحاد «علي تكين» مع الأوغوز ضد القراخانيين كانا يمثلان وضعا غاية في الصعوبة. ومن ناحية أخرى كان هذا الوضع واضحا بالنسبة للغزنويين، فقد كان كل من يوسف قادرخان والسلطان محمود يدرك أن دعم الأوغوز يمثل خطرا بالنسبة له.

وكان الأوغوز في العصور السحيقة يستقرون في القسم الشمالي لإمبراطورية الكوك تورك التي تقع في القسم الشمالي من آسيا. وتوضح

المصادر الصينية أنه اعتباراً من القرن الثاني قبل الميلاد ورد ذكرهم في كتاب ملاحظات تاريخية، وفي الجزء الخاص بالهون من كتاب تاريخ أسرة خان. أما اعتباراً من القرن السادس الميلادي فقد ورد ذكرهم في كتاب تاريخ أسرة سوي، في قسم «التورا» أي شعب تورا. وقد ورد اسم الأوغوز في إحدى كتابات أورخون يني ساي (في القرن السادس)، قبل كتابات أورخون بعدة قرون. وعلمنا من هذه الكتابات أن «أوريجين ألب توران» سلطان الأوغوز قد مات في عمر الشباب.

وفي عهد سلطنة أوغور أورخون أدخل الأوغور العشرة، والطقوز أوغوز سلطة الكوك تورك تحت إمرتهم. وكان الأوغور الشرقيون (ومن ضمنهم الأوغوز) قد هربوا في عام ٨٤٠م من أراضي منغوليا الحالية إلى الغرب. وظلوا هناك حتى اليوم، واتجه قسم كبير من الأوغوز أيضاً إلى الغرب، وجاءوا حتى شمال بحر الخزر وبحيرة آرال.

والأغوز الذين هربوا من الأراضي المغولية، استوطنوا عند سواحل نهري «إيديل» و«ياييق» ودخلوا في محيط سلطنة الخزر منذ عام ٨٥٠م وحتى عام ٩٦٥م.

وهذه هي أسماء سلاطين الأوغوز الشرقيين عند فرارهم من الأراضي المغولية إلى الغرب، وهم: «طوقصورمش إلبجي» و«طوغان بيك» (وهو لقمان بيك في مذكرات ابن فاضلان) و«ارطغرل» بيك (وهو «إيرطيق» في مذكرات ابن فاضلان) وطاقاق (دوقاق).

وعندما دخل الأوغوز تحت سيطرة الخزر في عام ٨٥٠م أصبح من يدعى طاقاق (دوقاق) من عشيرة «قينييق» أحد عشائر الأوغوز، وزيراً في سلطنة الخزر. ولكن بعد قتله في عام ٩٠٣م تولى المنصب بعده ابنه «سلچوق» (٨٨٥ - ١٠٠٠م)، وكان في الخامسة والعشرين من عمره، برتبة «سوباشي» وكيل السلطان (أي ضابط الفرسان والقائد الأعلى). وكان «سلچوق» ذا شخصية جيدة ويتسم بالشجاعة والقوة والقدرة والذكاء،

وكان الجنود يحبونه جداً ويقدمون له فروض الطاعة. والشعب أيضا يقدره ويحبه. ولهذا السبب عندما فكر أمير الأوغوز أن «سلچوق» قد يتمرد شعر بالحقده عليه، ثم صمم على قتله، وأحس «سلچوق» بهذا فتوجه إلى منطقة تسمى جند أسفل بحر سردريا في عام ٩١٥م، ومعه ١٠٠ فارس و ١٥٠٠ جمل و ٥٠ ألف شاة، ودخل الإسلام بتأثير موظفي المكوس من المسلمين.

وقد أوضحت بعض المصادر أن أمير الأوغوز كان يعمل مساعدا لسلطان الخزر. كان لدى «سلچوق» خمسة أبناء وهم: اسرائيل وميكائيل وداوود ويوسف وموسى. وبالنظر إلى هذه الاسماء يمكن إدراك أن أمراء الأوغوز وقعوا تحت تأثير سلاطين الخزر وإنهيم تخلوا عن العقيدة الشامانية واعتنقوا اليهودية. وإذا كان هذا صحيحا فإنه من هذا المنطلق يكون «سلچوق» قد تخلى عن اليهودية في عام ٩١٥م واعتنق الإسلام. ويتضح في «رسالة» ابن فضلان أن السفراء العرب الذين أرسلهم الخليفة المقتدر في عام ٩٢٢م إلى البلغار والخزر والأوغوز قاموا بتلقيهم تعاليم الإسلام، ولكن في نفس الوقت لم يتم تسجيل من هو الشخص الذي كان يرأس الأوغوز ويحمل لقب يابغو.

كنا قد أوضحنا أن الأشخاص الذين كانوا على رأس الأوغوز قبل سلچوق هم: «طوقصورميش إيلچي» و«طوغان بك» و«أرطغرل بك» و«دوقاق». وفي كتابات ابن فضلان يرد اسم «كراكوجي غوجا» وهو خامس جد لسلچوق (والد طوقصورميش إيلچي). واسمه الأصلي ليس «كراكوجي غوجا» وإنما «كيرجيچي» وذلك لأن أجدادنا الذين كانوا يشتغلون بالرعي كانوا يعيشون في خيام مصنوعة من اللباد. ومن أجل نصبها يلزم آلات مصنوعة من الأشجار تُسمى «كيرجي» وكان الشخص المسئول عن تجهيز هذه الآلة المستخدمة في نصب الخيام يسمى «كيرجيچي» ولذلك من المحتمل أن ابن فضلان كان يكتب كلمة كيرجيچي في شكل كلمة قراقوشي.

واستمرت العداوة التي بين سلچوق وحاكم الأوغوز حتى نهاية القرن

العاشرة. وعندما قضى «سيفياتوسلاف الغراندوق» الروسي على سلطنة الخزر في عام ٩٦٥م، دخل الأوغوز تحت سيطرة القراخانيين ثم اعتنقوا الإسلام. وذلك لأن الإسلام في تلك الفترة كان هو الدين الرسمي للدولة القراخانية، وبذلك تم القضاء نهائياً على الديانة الشامانية.

وفي عام ٩٩٠م أسس أبناء سلجوق دولة الأوغوز (هذه الدولة استمرت من عام ٩٩٠م حتى عام ١٠٤٠م). وكانت عاصمة هذه الدولة هي «يانكي كنت» التي تقع شمال غرب بحيرة آرال. وفي تلك الفترة كان عدد سكان الأوغوز يبلغ مليون نسمة تقريباً، وهم في حد ذاتهم كانوا يشكلون قوة. وهكذا ظل الأوغوز فيما بين أعوام ٩٦٥ - ١٠٤٠م مرتبطين تارة بالقراخانيين وتارة بالغزنويين.

والأوغوز الذين اتحدوا مع الإيليك خان القراخانيين في عام ١٠٢٥م تحت حكم أولاد سلجوق، خرجوا ضد السلطان الأعظم لقراخان، ورفضوا الانصياع للسلطان يوسف قادرخان أو لمحمود الغزنوي.

وفي عام ١٠٢٥م أرسل السلطان يوسف قادرخان مبعوثاً إلى السلطان محمود. وقابل السلطان محمود البعثة الدبلوماسية التي جاءت إلى غزنة بوجه باسم. وفي نهاية المناقشات التي جرت تم الاتفاق بين السلطان يوسف قادرخان والسلطان محمود على ضرورة قمع عصيان الأوغوز.

فهم السلطان يوسف قادرخان عن طريق مبعوثه الذي أرسله أن وجهة نظره تتفق مع وجهة نظر السلطان محمود، فتوجه من كاشغر على رأس جيش قراخاني كبير قاصداً سَمَرْقَنْد. وفي نفس الوقت خرج السلطان محمود بجيش ضخم و (٥٠٠ فيل) واتجه نحو بلخ وعَبَّرَ بحر آمو بواسطة جسر أقاموه بالطوافات المربوطة ببعضها بالجنازير وتوجه نحو سَمَرْقَنْد.

وعندما علم «علي تكين» و «اسرائيل أرسلان يابغو» باقتراب السلطان يوسف قادر والسلطان محمود من سَمَرْقَنْد، تركوها هي وبُخارى وهربوا إلى أطراف «نورآتا»، وقال «بيلكه تكين» وهو من الأمراء الغزنويين إنه

لم يتمكن من ملاحقة «علي تكين» أو الإمساك به، ولكن أخذ زوجته وأطفاله الذين تركهما خلفه. وأبدي السلطان محمود أقصى درجات الاحترام لممثلي الأسرة القراخانية الحاكمة. واهتم بتطور الأحداث ولم يكن يشعر بأي حقد شخصي تجاه «علي تكين» لكنه كان يريد فقط الاستفادة من النزاع على العرش بين القراخانيين، ولهذا السبب لم يسع للقبض على «علي تكين» بل إنه أيضا لم يهتم بذلك.

وبعد هروب «علي تكين» و«اسرائيل أرسلان يابغو» أقام السلطان يوسف قادرخان والسلطان محمود في ضواحي سَمَرْقَنْدُ مجالس فخمة وتحدثوا في موضوعات مهمة واتفقت آراؤهم فيها. وقد تحدث المؤرخ الفارسي البيهقي في كتابه «تاريخ مسعودي» والكرديزي في كتابه «زين الأخبار» بالتفصيل عن هذه المناقشات. ويقول الكرديزي إن كلا الحاكمين تبادل هدايا قيمة جداً وأقام الولائم. وقال إن الخزينة القيمة التي قدمها السلطان يوسف قادر للسلطان محمود كانت مرصعة بالأحجار الكريمة، والوليمة المبهرة التي أقامها السلطان محمود للسلطان يوسف قادر كانت غاية في الفخامة، فقد أقام له خيمة مزركشة بخيوط الذهب، ومزينة بالمجوهرات من داخلها وخارجها، وأعد وليمة فخمة وقدم له هدايا قيمة للغاية.

يُروى أن الخيمة التي نصبها كانت فخمة لأقصى درجة وتتكون من عدة غرف. منها غرف للضيوف وأخرى لتناول الطعام.

والهدايا التي قدمها السلطان محمود إلى السلطان القراخاني كانت كما يقول الكرديزي عبارة عن: أحجار كريمة وأكواب من ذهب وفضة وأطقم للخيل مرصعة بالذهب وعاج وسجاجيد قيمة وملابس ثمينة وغيرها. وعندما دخل قادرخان الخيمة ورأى هذه الهدايا القيمة أمر بجمع جميع الأشياء القيمة التي أحضرها معه حتى لا يشعر بالخجل من السلطان الذي قدم له هذه الهدايا. وكانت الأشياء التي جمعها عبارة عن نقود كثيرة وأمتعة وخيول أصيلة ذات حدوات ذهبية وسجاجيد تركية موشاة بخيوط الفضة وفراء ثعالب أسود وحيوانات مفترسة وغيرها



من الأشياء التي أرسلها إلى السلطان محمود<sup>١٣١</sup>.

وبعد المناقشات التي استمرت لعدة أيام عقد السلطان يوسف قادر والسلطان محمود معاهدتين مهمتين. إحداهما تنص على تقديم كل طرف المساعدات العسكرية للآخر، وضرورة القضاء على «علي تكين»، وتعيين «ياغان تكين» بن السلطان يوسف قادر ليصبح «إيليخان الغرب»، أما المعاهدة الأخرى فكانت متعلقة بمسألة القضاء على الأوغوز الذين تحت حكم أولاد سلجوق والذين يهددون القراخانيين والغزنويين. وتقرر تشتيت الأوغوز فيما بين كاشغر وخراسان وفارس، هذا بالإضافة إلى زواج زينب ابنة السلطان محمود من «ياغان تكين». وتقرر أيضا زواج الأميرة القراخانية «شاه خاتون» من ولي العهد الغزنوي محمد.

كنا قد أوضحنا من قبل أنه بسبب اقتراب جيوش الغزنويين والقراخانيين من سمرقند، ترك «علي تكين الإليخان الغربي» ما وراء النهر ولجأ إلى حلفائه الأوغوز الرحل الذين يعيشون بجوار «نورآتا» على الساحل الأيمن لنهر زرافشان، وبعد المعاهدات المبرمة بين السلطان يوسف قادر والسلطان محمود بالقرب من سمرقند تم إرسال جيش إلى الأوغوز في نورآتا وأسر اسرائيل أرسلان يابغو بن سلجوق. وعفا السلطان محمود عن اسرائيل وأرسله إلى غزنة بناءً على رغبته.

وفي عام ١٠٢٦م عاد السلطان محمود إلى غزنة. في تلك الأثناء كان «طوغان خان الثاني» إليخان الشمال قد طلب العفو من السلطان يوسف قادر وخضع له مرة أخرى.

وبعد أن عاد السلطان يوسف قادر إلى ما وراء النهر، رفعت إمارة خوتن وسلطنة إيديقوت الأويغورية راية العصيان وأعلنتا استقلالهما.

وفي عام ١٠٢٧م أرسلت سلطنة إيديقوت الأويغورية مبعوثاً إلى السلطان محمود وطلبت منه المساعدة ضد السلطان يوسف قادر. لكن السلطان محمود استقبل السفير الأويغوري بجفاء شديد ورفض طلبه. وتقول بعض المصادر إن سلطان كيدان أرسل أيضا في نفس الفترة

مبعوثاً إلى السلطان محمود مع مبعوث سلطنة إيديقوت الأويغورية،  
وانشغل السلطان يوسف قادر الذي عاد إلى كاشغر من ماوراء النهر  
بتهدئة عصيان إمارة خوتن وسلطنة إيديقوت الأويغورية، وفي عام  
١٠٢٦م أخضعهما لسيطرته مرة أخرى. لكن سلطنة إيديقوت الأويغورية  
التي اعتمدت على دعم وتأييد الكيدانيين وافقت على دفع الجزية  
وطاعة القراخانيين مع منحها حرية التصرف في شئونها الداخلية.

وعندما رجع السلطان يوسف قادر من ماوراء النهر، أراد أن يستقر  
قسم من الأوغوز بجوار كاشغر تطبيقاً للمعاهدة التي أبرمها مع سلطان  
غزنة، ولكن الأميران «چغري» و«طغرل» لم يثقوا في كلامه ورفضوا هذا  
الاقتراح.

وبعد أن رجع السلطان محمود إلى غزنة أرسل خطاباً إلى أرسلان  
يابغو وعده فيه بوعود كثيرة. فجاء أرسلان يابغو الذي وثق في السلطان  
محمود إلى غزنة مع عدد قليل من الأوغوز. أما أولاد أخيه فقد مكثوا  
في أراضيهم مع عدد كبير من المحاربين، وبعد أن دخل «أرسلان  
يابغو» إلى غزنة تم اعتقاله هو وبعض أمراء الأوغوز وحبسهم في قلعة  
كالنجار في الهندستان. وبعد فترة مات «أرسلان يابغو» هناك.

وبعد موت «أرسلان يابغو» تولى رئاسة الأوغوز يوسف إينانچ (ابن  
موسى إينانچ الابن الأوسط لسلچوق). في تلك الأثناء كان قادة جيش  
الأوغوز هما الأميران «چغري» و«طغرل» (وهما أبناء ميكائيل) وأحفاد  
سلچوق. هذان الأميران تعلمتا درساً من المأساة التي لحقت بأرسلان  
يابغو، ولذلك رفضا اقتراح السلطان يوسف قادر بالاستقرار والعيش بجوار  
كاشغر.

وبعد عودة السلطان يوسف قادر إلى كاشغر ظهر «علي تكين» مرة  
أخرى وبدأ تحركاته. ولكن الأميرين «چغري» و«طغرل» لم يؤيداه،  
وأيده فقط «يوسف إينانچ يابغو». قام «علي تكين» بمحاصرة سمرقند  
وبخاري اعتماداً على تأييد «يوسف إينانچ»، ثم بدأ التحرك بعد ذلك  
منفرداً. ولذلك سار السلطان يوسف قادر على رأس جيش إلى ماوراء

النهر للقضاء على «علي تكين» ولكن «علي تكين» قام بتشتيت جيشه. وأمام هذا الوضع أرسل «ياغان تكين» بن السلطان يوسف قادر مبعوثاً إلى السلطان محمود وطلب منه مساعدته ضد «علي تكين» و«يوسف إينانچ». وعندما اتضح أن السلطان محمود سوف يرسل المساعدة إليه لكن بعد عودته من حرب هندستان، صرف النظر عن السير ضد «علي تكين» بمفرده. الحقيقة إن السلطان محمود كان ينظم في تلك الفترة لحملة السادسة عشرة على الهندستان التي استولى في نهايتها على كوجارات.

أراد «علي تكين» أن ينتهز هذه الفرصة النادرة، فطلب من «يوسف إينانچ يابغو» الهجوم على الأميرين «چغري» و «طُغُرُل» اللذين رفضا مساعدته. ولكن «يوسف إينانچ يابغو» اتجه للتعاون مع الأميرين «چغري» و «طُغُرُل» وهما من أقاربه، بدلاً من الاستجابة لرغبة «علي تكين». وعندما علم «علي تكين» بتلك الوقائع قتل «يوسف إينانچ يابغو». وإزاء هذا سار «چغري» و «طُغُرُل» ضد «علي تكين» للأخذ بثأر «يوسف إينانچ يابغو». والمعارك التي تطورت في البداية لصالح الأوغوز انتهت بهزيمتهم فيما بعد. وجاء «چغري» و «طُغُرُل» اللذان تعرضا لضربة «علي تكين» إلى كاشغَر على رأس الأوغوز واستقروا بالقرب منها في عام ١٠٢٨م وخضعوا للسلطان يوسف قادر.

وفي نفس العام أيضاً أعلن «علي تكين» أنه يريد الارتباط بكاشغَر مركز القراخانيين طالباً العفو من السلطان يوسف قادر. فقام السلطان يوسف قادر الذي كان يريد السيطرة على الأميرين «چغري» و «طُغُرُل» اللذين استقرا بجوار كاشغَر، باستدعائهما للقائه بحجة ما. ولكنهما لم يحضرا إلى السلطان يوسف قادر معاً. فخرج أحدهما من طريق بينما انتظر الآخر مستعداً لأي احتمال. فلم يجد السلطان يوسف قادر سبيلاً سوى اعتقال «طُغُرُل» الذي جاء بمفرده. وإزاء هذا رحل الأمير «چغري» عن كاشغَر مع الأوغوز. وعندما صادفوا في الطريق بعض الأمراء القراخانيين الذين كانوا يصطادون، قاموا بأسرهم وحملوهم

معهم. فقام السلطان يوسف قادر بإطلاق سراح الأمير «طُغْرُل» لتحرير الأمراء القراخانيين وبعد أن قدم له هدايا سخية وتحدث معه وأخذ منه الوعد بضمنان عودة الأمراء القراخانيين سالمين إلى كاشغَر. وكان الأمير «چغري» قد حط رحاله في مدينة جند. ولحق به الأمير «طُغْرُل» وأرسل الأمراء القراخانيين إلى كاشغَر بناءً على الوعد الذي تعهد به، وقد وقعت هذه الواقعة في عام ١٠٢٩م.

بيد أن الأوغوز الذين جاءوا إلى جند لم يستقروا في تلك المدينة. لأنها كانت أرضاً تابعة للإليخان الشماليين وبذلك فهي تعد أرض القراخانيين.

ولذلك تشاور الأميران «چغري» و «طُغْرُل» مع شاه خوارزم هارون وطلباً منه منحهما مراع، وافق هارون سلطان خوارزم فخصص لهما منطقة كبيرة لاستقرار الأوغوز.

### انقسام القراخانيين

عندما مات السلطان محمود الغزنوي في ٢٦ مايو عام ١٠٣٠م، أصبح الأمير مسعود سلطاناً على غزنة بعد أن أقصى أخاه الصغير محمد، الوريث الأصلي للعرش.

في عام ١٠٣٠م أرسل السلطان مسعود بعثة دبلوماسية إلى السلطان يوسف قادر. وطالت المباحثات كثيراً، ومن الموضوعات الأساسية التي تطرقت إليها المناقشات موضوع المعاهدة المبرمة بين السلطان محمود والسلطان يوسف قادر في عام ١٠٢٦م بالقرب من سَمَرْقَنْد حيث لم يتم حسم مسألة الزواج المتبادل. إذ تنص المعاهدة على أن تتزوج زينب ابنة السلطان محمود من «ياغان تكين» (محمد بوغراخان) ابن السلطان يوسف قادر، وأن تتزوج «خان ملك شاه خاتون» (شقيقة ياغان تكين) وابنة السلطان يوسف قادر من ولي العهد محمد. ولما كان السلطان مسعود هو الذي تولى العرش، فمن الضروري أن تتزوج خان ملك شاه خاتون من مسعود وليس من محمد.

وكان السلطان مسعود يريد ان يزوج ابنه السلطان مودود إلى ابنة بوغرا تكين (سليمان أرسلان خان)، زعندما ناقشت البعثة الدبلوماسية التي جاءت إلى كاشغر هذا الموضوع مع السلطان يوسف قادر لم يتم التوصل إلى قرار واضح. في تلك الأثناء مات السلطان يوسف قادر في عام ١٠٣٢م واعتلى العرش ابنه سليمان أرسلان خان.

واستمرت البعثة الدبلوماسية الغزنوية التي مكثت عدة أعوام في كاشغر في مباحثاتها مع سليمان أرسلان خان، وفي النهاية أنهت مهمتها في عام ١٠٣٤م. وودع سليمان أرسلان خان أخته «خان ملك شاه خاتون» وابنته إلى غزنة برفقة البعثة الدبلوماسية الغزنوية مع جهاز عرس قيم لكلتيهما. ولكن مع الأسف أثناء الطريق ماتت الأميرة الكاشغرية التي كانت ستصبح زوجة السلطان مودود. وإزاء هذا الوضع وصلت خان ملك شاه خاتون إلى غزنة بمفردها وتزوجت من السلطان مسعود، وهذه الأميرة تزوجت بعد ذلك من السلطان السلجوقي «ألب أرسلان» بعد وفاة السلطان مسعود في عام ١٠٤١م.

بينما يودع سليمان أرسلان خان بعثة غزنة الدبلوماسية من كاشغر في عام ١٠٣٤م أرسل محمد بوغراخان مبعوثاً إلى غزنة وأعلن أنه لا بد من إرسال زينب ابنة السلطان محمود إليه ليتزوجها ولكن السلطان مسعود رفض هذا الطلب، فامتعض محمد بوغراخان من هذا الموقف وأرسل خطاباً سرياً إلى الأمير «طغرل» وطلب منه التحرك ضد السلطان مسعود. لكن الجنود الغزنويون قبضوا على ناقل البريد خلال مروره من بحر آمو واستولوا على الخطاب الذي كان يحمله. ولم يفصح السلطان مسعود - الذي علم بمحتوى هذا الخطاب الذي استولى عليه - عن محتواه ولكنه أرسل فقط ناقل البريد الذي كان يحمله إلى الهندستان، وأراد أن يتكتم هذا الحادث، فلم يكن يود افساد علاقة محمد بوغراخان بالأمير «طغرل». وبعد ذلك أرسل في عام ١٠٣٧م خطاباً إلى سليمان أرسلان خان وطلب منه أن يتوسط بين أخيه بوغراخان والغزنويين، وأقام المبعوثون الغزنويون الذين جاءوا إلى كاشغر لمدة عام ونصف هناك، ثم

رجعوا إلى غزنة بعد أن أنجزوا مهمتهم في عام ٣٩

في عهد سليمان خان الذي يعد من كبار سلاطين القراخانيين ساد الهدوء والاستقرار أحوال الدولة القراخانية الداخلية والخارجية فيما بين أعوام (١٠٣٢ - ١٠٤٠م). وفي عام ١٠٣٥م مات «علي تكين» وصار ابنه «يوسف بن علي إلكخان» مكانه بناءً على أمر سليمان أرسلان خان، وخضع يوسف لكاشغر بدون قيد أو شرط بل إنه قام في عام ١٠٣٥م بطرد الأوغوز الذين تحت سيطرة الأمير «طغرل» من ما وراء النهر، وهرب الأوغوز جماعات إلى خراسان.

وفي عام ١٠٣٦م تزوج يوسف بن علي (الذي كان إلكخان فيما بين أعوام ١٠٣٥ - ١٠٤٠م) من ابنة ناصر قريب السلطان محمود. وكانت علاقاته مع الغزنويين جيدة، ولكنه لم يمكث في مقام الإلكخانية فترة طويلة. لأن محمد بن نصر وإبراهيم بوغراتكين ابنا ناصر الإلكخاني الغربي ثارا ضده فيما وراء النهر. واحتل محمد بن ناصر «أوزكنت» في عام ١٠٣٧، واحتل إبراهيم بوغراتكين بخارى في عام ١٠٤٠م وهرب يوسف بن علي إلى سليمان أرسلان خان طلباً لمكان يلوذ به.

ومحمد بن ناصر الذي استمر حكمه فيما بين أعوام (١٠٤٠ - ١٠٤٢م) تخلى عن لقب إلكخان، وفي عام ١٠٤٠م اتخذ لنفسه لقب «تاوغاچ بوغراخان» بعد أن أصبح حاكماً مستقلاً

واعتباراً من ذلك اليوم انقسمت الدولة القراخانية إلى قسمين: غربية وشرقية. واستمر سليمان أرسلان خان سلطاناً على القراخانيين الشرقيين. ولم يسع سليمان أرسلان خان إلى إعاقة استقلال محمد وإبراهيم بوغراتكين الإلكخانيين الغربيين، إذ رفعت قبائل «ياباقو وباسمیل وچومول ویمک» التي تعيش في سواحل «إيرتيش» و«بالقاش» راية العصيان في تلك الأثناء وبالتحديد في عام ١٠٤١م.

وتقول المصادر التاريخية الموثوق بها أن «بوزراچ» زعيم «ياباقو» جمع جيشاً كبيراً من «باسمیل» و«چومول» و«یمک» وسعى للسيطرة

على العاصمة القراخانية كاشغر، فخرج سليمان أرسلان خان بجيش قوامه ٤٠ ألف جندي تحت قيادة «بيكاچ أرسلان تكين» لمواجهة جيش المتمردين الذي كان قوامه ٧٠٠ ألف أو ربما ٧٠ ألف على الأصح.

وأثناء المعارك قتل «أرسلان تكين» بوزراج ودخل الياباقويون ثانية تحت سيطرة سليمان أرسلان خان، وبرغم عقد معاهدة بين الطرفين، فقد انتهك الباسميليون والچوموليون المعاهدة بعد فترة، فسيطر عليهم مرة أخرى ودخلوا تحت إمرته. وهكذا انضمت الأراضي المجاورة لبلقاش وآرال مرة أخرى إلى الحدود القراخانية.

وهناك معلومات قيمة للغاية أوردها محمود الكاشغري فيما يتعلق بهذه الوقائع ١٣٢

بعد أن انهزم «بوزراج» في المعركة مع «أرسلان تكين»، جمع جيشاً مرة أخرى واستمر في الحرب ١٣٣.

يتضح من هذا الاقتباس من كتاب ديوان لغات الترك أن الياباقويين أرادوا الثأر لمقتل أميرهم «بوزراج» على يد «أرسلان تكين». والباسميلي الذين انحازوا إلى جانب الياباقويين في البداية تخلوا عن حلفائهم أثناء الحرب وانحازوا لأرسلان تكين، ولهذا السبب سعى الياباقويون إلى إحراق أمير الباسميلي انتقاماً منهم.

ووفقاً لما روى في النص المأخوذ من كتاب ديوان لغات الترك<sup>١٣٤</sup> يتضح أن اليماق الذين هم ذراع القبجاق احتشدوا وهم غضبي وأخذوا يستعدون للهجوم، وقد أوضحنا سابقاً أن اليماق الذين في نواحي إيرتيش قد اتحدوا مع الياباقويين وتمردوا ضد القراخانيين.

ارتفعت الراية الحمراء،

وثار الغبار الأسود،

وجاء الأوغراق وانضموا إلينا

وانشغلنا بالحرب ولهذا تأخرنا<sup>١٣٥</sup>.

ووفقاً لهذه المعلومة المأخوذة من كتاب محمود الكاشغري يتضح أن بعد هزيمة الياباقويين على يد «أرسلان تكين» اتفق حلفاؤهم «الباسميليون» و«المچومول» على طاعة السلطان القراخاني سليمان أرسلان خان، لكن بعد فترة نقضوا هذا الاتفاق، فجاء إليهم سليمان خان بجيشه وهزمهم وأخضعهم لطاعته مرة أخرى.

ومن هذا الاقتباس يمكن الخروج بنتيجتين قاطعتين: إحداهما، كما أوضحنا من قبل أن العلم القراخاني صار لونه أحمر بدلاً من شجرة السندان ذات الأفرع التسعة التي كانت تتوسطه. وعندما يقال في الشعر أنه نصبت راية جيش الإسلام الحمراء، فإن هذا يعني راية القراخانيين المسلمين. فالحرب المثارة ضد الياباقويين والباسميليين الذين يعتنقون الشامانية قد وقعت في عام ١٠٤١م. ونفهم أيضاً من نفس الرباعية المأخوذة من كتاب ديوان لغات الترك أن الأوغراقيين تعاونوا مع القراخانيين في هذه الحرب.

ومما روى في كتاب «ديوان لغات الترك» لمحمود الكاشغري نفهم أن هدف القراخانيين الوحيد ليس هو السعي إلى إدخال الأويغور البوذيين إلى الإسلام ولكن المعارك الدموية التي شنوها كانت من أجل أيضاً إدخال الياباقويين والمچومول واليماق الذين يعتنقون الشامانية إلى الإسلام. وبسبب الحرب التي شنت ضد الياباقويين في عام ١٠٤١م لم يستطع سليمان أرسلان خان منع الحركات الانفصالية للإليخانيين الغربيين.

والنتيجة الثانية هي انتهاء محمد وإبراهيم بوغراتكين هذه الفرصة، وإعلان استقلالهما. وبعد عام ١٠٤٠م اتخذ القراخانيون الغربيون سمرقند عاصمة لهم، واعتباراً من هذا التاريخ انقسمت الدولة القراخانية بالفعل إلى قسمين، شرقية وغربية.



## الفصل الثالث عشر: دولة السلاجقة الكبار

### موقعة دندانقان

أصبح «چغرى بك» و«طغرل بك» حفيدى سلجوق بعد فرارهما مع الأوغوز من كاشغر إلى ما وراء النهر فى عام ١٠٢٩م، أصبحا يمثلان تهديداً حقيقياً للغزنويين.

وبدأ الأوغوز الذين عاشوا فيما وراء النهر لمدة تناهز نصف القرن من عام ٩٨٥م إلى ١٠٣٥م، فى شن الحملات على خراسان اعتباراً من عام ١٠٣٠م، وبعد عام ١٠٣٥م هاجروا إلى هناك واستقروا.

وعندما بدأ «الأوغوز» فى الهجوم على خراسان، طلب «أرسلان جاذب» والى خراسان المدد والعون من السلطان محمود. بناء عليه جاء السلطان محمود بجيشه إلى طوس، وأخرج الأوغوز منها، فانسحبوا إلى شمال خراسان، واستقروا فى القسم الشمالى الغربى منها. وفى تلك الغزوة استولى السلطان محمود على طهران وهمدان وقزوين، وشدد الوطأة على الأوغوز الموجودين فى تلك الانحاء وأخرجهم منها.

لكن «چغرى بك» و«طغرل بك» تمكنا من القضاء على سلطنة غزنة، واتجها لتأسيس واحد من أقوى الدول فى العالم.

وبعد عام ١٠٣٠م وعلى أثر موت السلطان محمود، شن الأوغوز هجمات منظمه على خراسان. وتزايدت هذه الهجمات بشكل واضح، ذلك لأن «طغرل بك» كان يرى انه ينبغى له أن يسيطر على خراسان أولاً لكي يتمكن من القضاء على الغزنويين.

كان القسم الغربى من فارس الحالية، والقسم الشمالى الغربى لافغانستان والأجزاء الجنوبيه من «أمودريا» فى الأزمنة القديمة، تشكل كلها الاقليم المسمى خراسان، وتعنى مشرق الشمس.

لأن كلمه خور فى الفارسية تعنى الشمس والشروق. وإقليم خراسان له أهميه كبيرة من النواحي الاقتصادية والسياسية والاستراتيجية العسكرية. ولهذا بدأ «طغرل بك» فى شن الحملات المتوالية على خراسان اعتباراً من عام ١٠٣١م.

ترتب على موت السلطان محمود، أن نشب النزاع حول العرش بين ولديه محمود وأخيه الأكبر مسعود. واستعان محمود الوريث للعرش، بـ«علي تكين» ضد أخيه مسعود. وقد وعده بإعطائه «ختلان» (فى طاجيكستان اليوم) نظير هذه المساعدة. لكن الأمير مسعود سمل عينى محمود، وحمله مع أبنائه إلى غزنه، وانفرد بالعرش. هذه الحرب بين الاخوين فتحت طريق خراسان أمام «طغرل بك». وفى عام ١٠٣٥م انتصر «چغرى بك» على جيش غزنه الجرار، واستولى على قسم كبير من خراسان.

ويعد عام ١٠٣٧م هو ذروة قوة أحفاد سلجوق، وهو عام قيام دولة السلاجقة الكبار. وفى نفس العام أيضاً استولى «چغرى بك» على «مرو» إحدى أكبر مدن خراسان، وقرئت الخطبة بإسمه، ولقب بملك الملوك. وفى هذه الاثناء انتقلت مدينة بلخ الواقعة فى جنوب «أمودريا» إلى يد الأوغوز.

وفى عام ١٠٣٨م تم الاستيلاء على نيسابور، واتخذ «طغرل بك» لقب السلطان، وقرئت الخطبة باسمه. وكان اطلاق لقب السلطان على «طغرل بك» يعنى بداية انهيار سلطنة غزنه التى اعتبرت من أقوى دول العالم آنذاك.

وعندما أدرك السلطان مسعود أن الخطر الذى تتعرض له دولته قد صار خطراً مؤكداً. أوقف حملاته على الهند وسار على رأس جيشة

الجرار إلى خراسان واسترد مدينة مرو من الأوغوز. وفي موقعة على آباد سنة ١٠٣٩م نجح في إجبار «چغرى بك» على التراجع القهقري. فلما رأى «چغرى بك» تفوق عدد جيش غزنة، اضطر إلى الانسحاب لينقذ الأوغوز من هزيمة ثقيلة. وفي شهر مايو من ذات السنة، نظم السلطان مسعود حملة أخرى ضد الأوغوز، وفي هذه المرة طلب «چغرى بك» المساعدة من أمراء الأوغوز، فجاءه «طغرل بك» من نيسابور، و«مسعود يابغو» من مرو لمساعدته. واحتمت قوات الأوغوز في سرخس، ورغم خسارة جيش غزنة هذه الحرب، فقد عرض عليه أمراء الأوغوز الصلح، فوافق السلطان مسعود وأمر جيشه بالرجوع إلى غزنة، لكن الأوغوز خدعوا السلطان مسعود بعرضهم الصلح وتعقبوا جيش غزنة وانقضوا عليه من الخلف. بناء عليه قرر السلطان مسعود عدم الرجوع إلى غزنة وعن فكرة شن أى حملة أخرى على الهند حتى يحسم مسألة الأوغوز. تقدم السلطان مسعود بجيشه إلى خراسان واستولى على نيسابور. وترك «طغرل بك» نيسابور في ١٥ مايو ١٠٤٠م وجاء إلى «سرخس»، لكنه عندما علم بمجيء السلطان مسعود بجيش جرار من نيسابور قاصداً سرخس، تركها قبل مجيء جيش غزنة بيوم واحد. فتقدم السلطان مسعود إلى مرو في ١٧ مايو، بهدف استردادها من الأوغوز وطرد أحفاد سلجوق من خراسان.

فلما بلغ الموقف هذا الحد، عقد أمراء الأوغوز مجلس حرب في مرو، وقال أحد الأمراء الكبار في هذا المجلس أن النزاع مع واحدة من أقوى دول العالم من شأنه أن يجلب المتاعب والمصائب على الأوغوز، والأجدى بدلاً من هذا هو ترك خراسان، والتوجه نحو أذربيجان وآسيا الصغرى مرورا من شمال فارس، وسيكون الأصوب هو قتال الامبراطورية الرومانية الشرقية، وبهذا لن يتمكن الغزنويون من قتال الأوغوز الذين سيكونون في أرض بعيدة عنهم. لكن «چغرى بك» رفض هذا الاقتراح رفضا قاطعا، وأكد أنه على أى حال عقد النية على قتال الغزنويين لتقوية دولة السلاجقة القائمة، ويمكن للدولة بهذه الطريقة فقط أن

تدخل معترك الحياة.

وأيد بقيه أمراء الأوغوز «جغرى بك» فى رأيه هذا، وقرروا محاربة الغزنويين<sup>١٣٦</sup>. واختير «طغرل بك» ليكون القائد الأعلى فى هذه الحرب. وفى ٢٢ مايو ١٠٤٠م جاء «طغرل بك» على رأس جيش مكون من ستة عشر ألف فارس إلى موضع يسمى «دندانقان» على مسافة ٦٠ كم من مرو. وكان هذا الموضع الواقع بين مرو وسرخس، مكاناً ملائماً للمعركة. أما السلطان مسعود فقد تحرك إلى نفس الموضع بجيش قوى مكون من خمسين ألفاً من الفرسان والمشاه، وثلاثمائة فيل قتال. كان «طغرل بك» واثقاً من انتصاره إذ كان يعرف جيداً موقف السلطان مسعود. ومع كون السلطان مسعود ذائع الصيت، وعليماً وقديراً، فقد ضم جيشه بوذيين وأكراد وعرب وتاجيك وأتراكا من الأوغوز والقارلوق، وكان يعرف أن مثل هذا الجيش المتعدد الأديان والأعراق، ينقصه التلاحم أثناء الحرب. لذا كان أملهم معقوداً على أفيال القتال.

فى ٢٣ مايو ١٠٤٠م بدأت فى دندانقان واحدة من أكبر حروب العصور الوسطى وأكثرها دموية وأمطر الأوغوز الذين بدأوا الهجوم تحت قيادة «طغرل بك»، الأفيال التى كانت فى مقدمة الغزنويين بالسهم. فلما جفلت الأفيال من السهم التى تخرق بدننها وغرقت فى الدماء وولت هاربة، كرر الأوغوز هجومهم صوب القلب حيث يوجد السلطان مسعود. وفى أخرج فترات المعركة، انسحب الأوغوز فجأة وتراجعوا وذهب الغزنويون فى أعقاب جيش السلجوقى فى الصحراء لمسافة بعيدة لكن فى اللحظة التى كانوا يخططون فيها للتراجع بسبب ندرة المياه، استدار الأوغوز فجأة وأعادوا عليهم الكرة وهكذا شتتوا الجيش الغزنوى. وأمام هذا التطور فى مجريات الامور فإن بعض أمراء الغزنويين أعلنوا طاعتهم للسلطان «طغرل بك» سواء خوفاً منه، أو بسبب النصر الذى أحرزه. لكن رغم تخلى بعض قادة السلطان مسعود عنه إلا أن حالته المعنوية لم تضعف، فشهر سيفه، وخاض بنفسه غمار المعركة. لكن الشجاعة والفتوة لم تكونا كافيتين لانقاذ الموقف وتشتت جيش غزنة

وبدأ في الفرار وترك ميدان المعركة. وإزاء هذا الموقف اضطر السلطان مسعود بدوره إلى ترك الميدان.

ورغم ما أريق في هذه الحرب من دماء كثيرة، فقد أحرز السلاجقة نصراً مدوياً في كل أنحاء الدنيا. وفي مساء اليوم الذي انتهت فيه المعركة اعتلى «طغرل بك» العرش الذهبي الذي جاءوا به إلى ميدان المعركة، وتلقى التهاني من أمراء الأوغوز.

وقد أنهت معركة دندنقان شهرة السلطان مسعود، وانطوت بالفعل صفحة سلطنة غزنة التي كانت أكبر دول الدنيا والتي فتحت الهند، وهكذا فإن الغزنويين الذي فقدوا فارس اجتهدوا أن يحتفظوا بالهند وأفغانستان بصعوبة كبيرة، لكن انتهت سيطرتهم على خراسان وآسيا الوسطى.

ووجد السلطان مسعود الذي انهزم في دندنقان أن بقاءه في أفغانستان محفوف بالمخاطر فانسحب إلى الهند. وهناك جمع جيشاً جديداً وفكر في محاربة الأوغوز. وغادر غزنة بكل خزائنه وأقاربه لهذا الغرض. لكن ما أن وصل إلى وادي السند حتى تخلى عنه رفاقه بل انهم نهبوا خزينة السلطان، وأمسكوا به وأجلسوا ابنه على العرش. وقد قتل السلطان مسعود في عام ١٠٤٠م بعد دندانقان بسبعة شهور.

بعد موقعة «دندانقان» أعلن الأفغان سكان الجبال انفصالهم عن سلاطين الغزنويين في الهند وبدأوا في حشد قوتهم، وأعلنوا عصيانهم. ولم يكن جيش غزنة الذي أصابه الوهن بسبب الحرب في حال يسمح له بالدخول في قتال مع السلاجقة والأفغان سكان الجبال. وفقدت سلطنة غزنة خراسان وأفغانستان، وانطوت صفحتهم بعد سلطنتهم مدة ٢٢٤ عاماً.

«طغرل بك» (١٠٤٠م - ١٠٦٣م)

يقول المؤرخ الروماني «جيبون» عن «طغرل بك» في كتاب

المسمى «تاريخ انهيار الامبراطورية الرومانية»: تكافأ في «طُغرُل بك» سوء النية والبطولة. فبعد أن فتح آذربيجان وميديا، اقترب من الحدود البيزنطية. وأرسل ذلك البدوي رسولا إلى الإمبراطور البيزنطي، وطلب منه أن يؤدي له الضرائب، ويعترف بسلطته»<sup>١٣٧</sup>.

فبعد انتصار الأوغوز على السلطان مسعود في دندانقان، طبقت شهرتهم الآفاق بوصفهم فاتحين، وأسسوا دولة السلاجقة الكبار التي استمر كيانها السياسي لمدة تناهز مائة عام. وأطلق «طُغرُل بك» و«چُغرى بك» علي دولتهم الجديدة اسم آبائهم واسموها السلطنة السلجوقية، واعتبارا من هذا التاريخ صاروا يعرفون باسم السلاجقة. كان «چُغرى بك» أخو «طُغرُل بك» الذي تبوأ سلطنة الأوغوز، حسبما ورد في المصادر التاريخية محبا للعدل، صادق الوعد، وفيما وسياسيا ودبلوماسيا بارعا، والتف حوله كثير من الرجال المرتبطين به. أما «طُغرُل بك» فكان عسكريا قديرا وفي نفس الوقت مخططا استراتيجيا بارعا، ورجل حرب، ويتفوق على أخيه في هذا الجانب من شخصيته. وهذا هو ما دفع الأوغوز إلى وضعه على رأس دولة السلاجقة. كانت نيسابور هي عاصمة دولة السلاجقة عند نشأتها، وبعد فترة صارت العاصمة طهران.

كان «طُغرُل بك» في الخامسة والأربعين من عمره عندما تولى السلطة، واستمر فيه لمدة ٢٣ سنة. وأثناء هذه الفترة جرت أحداث سنتناولها باختصار.

واتخذ «طُغرُل بك» مجموعة من الاجراءات لجعل الدولة الناشئة محكمة البنيان وتوسيع رقعتها. بدأها أن عين واليا على كل إقليم فيها. ثم اتبعها بالسير إلى الغزنويين في الشرق وانتزع منهم عدة مدن. أما ناحية الغرب فقد أعلن طاعته للخلافة العباسية، ثم بدأ في إعداد حملة ضد الإمبراطورية الرومانية الشرقية.

أما «چُغرى بك» فقد استولى على بلخ في سنة ١٠٤١م وأخضع

شمال افغانستان تماما لسلطنة السلاجقة. وقام «قره أرسلان قاورد» قريب «آلب أرسلان» بأعمال مهمة فى جنوب فارس وتوسعة حدود الدولة إلى بلوجستان (فى غرب باكستان اليوم). ووصل السلاجقة إلى ساحل عمان والخليج الفارسى. وبعد فترة وجيزه امتدت حدودهم حتى البحر الأحمر والبحر الأسود والبحر الأبيض.

وفى عام ١٠٥٤م استولى «ياقوت بك» أحد أبناء «چغرى بك» على سسيتان (بين كرمان وخراسان) ومكرمان (بين كرمان ولوجستان)، فى هذه الفترة حاصر السلطان مودود بلخ عدة مرات، لكنه انهزم امام «آلب أرسلان»، وارتضى الطرفان جبال الهند كوش حدودا بينهما.

وفى عام ١٠٥٥م دخل السلطان «طغرل بك» بغداد عاصمة العباسيين ورغم أنها كانت عاصمة للخلافة إلا أن الأسرة البويهية الفارسية كانت صاحبة الكلمة فيها. وقد تأسست الأسرة البويهية فى عام ٩٣٢م على يد على بن بويه الشيعى المذهب. وأصبح القسم الغربى من فارس والعراق تحت سيطرته. كما لقبه الخليفة القاهر بلقب (أمير الأمراء)، لكن أحمد أخو على بن بويه دخل بغداد فى سنة ٩٤٥م وقتل الخليفة المستكفى. وقد كانت الأسرة البويهية أسرة فارسية تحت حكم الخلافة العباسية ولعبت دوا مهما فى انتشار التشيع الذى ظهر فى مصر فى زمن الفاطميين وفى فارس والعراق وغيره من المناطق.

أما بالنسبة للخلافة الفاطمية (٩٠٩ - ١١٧١م) فهى أيضا دولة قامت فى شمال افريقيا (فى تونس) وفق المذهب الشيعى. أسسها أحفاد السيدة فاطمة ابنة النبى (صلى الله عليه وسلم) وزوج سيدنا على (رضى الله عنه). ومنها اشتق اسمها.

وقد قويت الخلافة الفاطمية فى عام ٩٦٥م وامتدت إلى سوريا وفلسطين. وانتقلت عاصمتها من تونس إلى القاهرة فى سنة ٩٧٣م. وقد انتهت هذه الدولة على يد صلاح الدين الأيوبى فى عام ١١٧١م. لما علم الخليفة العباسى القائم بأمر الله فى عام ١٠٥٥م بأن

«طُغْرُلُ بَك» فى طريقة إلى بغداد، وأدرك أنه لا يمكنه أن يوقف تقدمه، سمح بقراءة إسمه فى الخطبة، وهكذا فقد الخليفة سلطته الفعلية، وصار يمثل مقاما «دينيا» فحسب. وتم اعلان «طُغْرُلُ بَك» سلطانا، وبعد تسعة أيام دخل «طُغْرُلُ بَك» بغداد، وانتهت سلطة البويهيين. وقبض على «أرسلان البساسيرى» رأس المعارضين للإسلام السنى (وهو أحد قادة القائم بأمر الله، وكذلك أحد رجال الدولة الفاطمية، وله أصول أوغوزية).

استقبل الخليفة القائم بأمر الله السلطان «طُغْرُلُ بَك» فى احتفال مهيب، وخلع عليه سبع خلع، وأهداه سبعا من العبيد. ويأتى رقم سبعة هنا إشارة إلى أن الخلافة تمثل الأقاليم السبعة. وبعد الاحتفال علق الخليفة خنجرين فى حزام «طُغْرُلُ بَك». وهذه إشارة إلى أن «طُغْرُلُ بَك» أصبح سلطانا على الشرق والغرب. وهكذا، أصبح الخليفة ممثلا للمكانة الدينية، و«طُغْرُلُ بَك» ممثلا للسلطة السياسية. وبعد ان أخذ «طُغْرُلُ بَك» بغداد أعلنها عاصمة للدولة السلجوقية ثم ولى وجهه ناحية الغرب.

بعد دخول «طُغْرُلُ بَك» بغداد بأربعة شهور تزوج من خديجة ابنة الخليفة القائم بأمر الله. وفى عام ١٠٥٥م غادر «طُغْرُلُ بَك» بغداد على رأس حملة متجها ناحية الغرب، فاستولى على الموصل وديار بكر وعدد من المدن الأخرى.

بعد مغادرة «طُغْرُلُ بَك» بغداد استطاع «أرسلان البساسيرى» أن يفر من محبسه، وجمع حوله الشيعة ودخل بغداد. وقد تصدى له الخليفة القائم بأمر الله، لكنه خسر الحرب. واغتر «أرسلان البساسيرى» بهذا الانتصار، فرفع اسم الخليفة والسلطان «طُغْرُلُ بَك» من الخطبة وقرأ الخطبة باسم الخلافة الفاطمية. وأرسل «البساسيرى» رسولا إلى الخليفة الفاطمى فى القاهرة لكى يضى الشرعية على حكمه.

وسرعان ما تنهى هذا إلى سمع «طُغْرُلُ بَك» ما يجرى فى بغداد، فعاد أدراجه فورا إلى بغداد لإخماد هذا العصيان فلما علم «أرسلان



السباسيرى» باقتراب «طُغْرُل بك» فر من بغداد وأطلق سراح الخلفية عقب دخوله بغداد. وأعرب أهل السنة فيها عن سعادتهم. وعمل على إعادة انفاذ القوانين والفرمانات التى صدرت قبل هذا العصيان، وقرر «طُغْرُل بك» لدى عودته إلى بغداد فى المرة الثانية الزواج من خاتون ابنة الخليفة. وكان الخليفة يخشى من هذا الأمر. ودار بخلدة أنه فى حال انجابه غلاما، لا يستبعد أن يطالب بالحق فى الخلافة، وبذلك تنتقل فعليا» من العباسيين إلى السلاجقة. فى حين أن هذا لم يكن يشغل تفكير «طُغْرُل بك»، لكن كان يريد فحسب أن يصير صهرا للخليفة حسب الاعراف الجارية. ولذا أجل مسألة اتمام زواجه منها إلى تاريخ لاحق.

وكان عاما ١٠٥٨ - ١٠٥٩م عامين عسيرين على «طُغْرُل بك»، فقد اتجه «أرسلان السباسيرى» إلى العصيان فى بغداد، ودعم ابراهيم الأخ غير الشقيق لـ «طُغْرُل بك» من جهة الأم، وكانت أمه قد تزوجت «يوسف اينال» عم «طُغْرُل بك» بعد وفاة ابنه ميكال، وانجبت منه ابراهيم اينال هذا.

ورفع «ابراهيم اينال» راية العصيان ضد «طُغْرُل بك» فى عام ١٠٥٨م وذلك طمعا فى اعتلاء عرش السلاجقة العظام. وكان فى همدان جيش قوى تابعا له. وأيده فى هذا العصيان أحمد ومحمود ابنا أخيه الاكبر «ارطاش يابغو» (كان يابغو قائدا عسكريا) فى الفتره من ١٠١٣ - ١٠٤٠م) ولأن «طُغْرُل بك» كان سياسيا رفيعا ورجل دولة قديرا وخبيرا وبصيرا، فقد أرسل على الفور الأمراء والأوامر إلى «ألب أرسلان» الحاكم العام لخراسان، و«قرا أرسلان قاورد» والى كرمان، و«ياقوت» والى شرق الاناضول والثلاثة هم أبناء «چغرى بك» ودعاهم إلى توحيد صفوفهم، وتشكيل جيش قوى.

وفى عام ١٠٥٩م دارت حرب دامية بين «طُغْرُل بك» و«ابراهيم اينال» فى هفتاد بالقرب من طهران، انتهت بوقوع «ابراهيم اينال» ومن معه فى الأسر. وتم قتل الأمراء السلاجقة امثالاً لأعراف الأوغوز القديمة.

بعد عامين من تمرد «ابراهيم اينال» أى فى سنة ١٠٦٠م توفى «چغرى بك» أخو «طغرل بك» عن سبعين عاما ودفن فى طهران. وكان له ثمانية أبناء وأربع بنات، فعين ابنه «آلب أرسلان» واليا عاما على خراسان، و«قره أرسلان قاورد» واليا عاما على كرمان، و«ياقوت» واليا عاما عن أذربيجان، أما بناته فتزوجت الأولى من حاكم القراخانيين الغربيين، والثانية من «قتلمش» الوالى فى الاناضول (وهو ابن اسرائيل أرسلان يابغو) اما الرابعة منهم فقد تزوجت من حاكم البويهيين.

فى زمن «طغرل بك» انتشر المذهب السننى فى العالم الاسلامى بشكل كبير. وبعد وفاة السلطان محمود الغزنوى، عمل «طغرل بك» على نشر المذهب السننى فى كل أنحاء العالم الاسلامى، واتخذ اجراءات قوية فى هذا الشأن. ولهذا نال حب العالم الاسلامى واحترامه. كما اتسعت مساحة الدولة السلجوقية فى زمنه وضمت من الدول التى نعرفها اليوم كلا من فارس والعراق وأذربيجان وأرمستان وافغانستان وتركمستان وقره قباقستان وسهول أوستيورت، وصحراء «قيزيل قوم». وحازت من الأرض مساحة تبلغ ٣ مليون و ٦٠٠ الف كيلو مترا مربعا وحقت شهرة واسعة. وأصبحت من الناحية الاستراتيجية بمثابة الجسر بين الشرق الاوسط وآسيا الوسطى والهند فى الشرق، ودول البحر المتوسط فى الغرب.

وفى عام ١٠٦٣م توفى السلطان «طغرل» عن عمر ٦٨ سنة. ودفن فى طهران وحسبما بينت المصادر التاريخية، تزوج «طغرل بك» قبيل وفاته بأربعة أشهر من سيدة خاتون ابنة الخليفة القائم. والبعض الآخر يذكر انه غادر بغداد وذهب إلى طهران حيث كان من المقرر أن يقام حفل الزواج وتوفى هناك.

### السلطان آلب أرسلان

بعد سبعة شهور من وفاة «طغرل بك» اعتلى «آلب أرسلان» ابن «چغرى بك» سدة الحكم بوصفه سلطانا للسلاجقة. وخلال عام بعد

اعتلائه العرش أى فى سنة ١٠٦٤م اضطر لخوض مواجهات لإخماد بعض الاضطرابات الداخلية. إذ أن «قتلمش» ابن خاله اسرايل أرسلان بابغو الذى توفى فى قلعة «كالنجر» من الهندستان سنة ١٠٢٥م رفع راية العصيا، وكان «قتلمش» الوالى العام لشرق الاناضول وتحت أمرته جيش قوامه سبعون ألف فارس. وانضم اليه فى هذا العصيان أمراء السلاجقة فى أذربيجان وأرمنستان والعراق.

اتخذ «قتلمش» طريقه بجيش جرار للاستيلاء على طهران عاصمة دولة السلاجقة الكبار. وعندما علم «ألب أرسلان» بالأمر، خرج من نيسابور قاصدا طهران، وفى هذه الاثناء أرسل رسولا إلى «قتلمش» موضحا له ما سيلحق بالدولة من ضرر كبير، وشارحا له خطأ ما اقترفه، ويدعوه للتخلى عن العصيان، فأصم «قتلمش» أذنيه، وجرت بينهما حرب دامية بالقرب من طهران قتل فيها «قتلمش» وأحمد عصيانه. ووقع «سليمان شاه بن قتلمش» و«منصور بك» و«محمد بك» فى الأسر فضلا عن أخيه «رسول تكين» ووضع «ألب أرسلان» نصب عينه نسب هؤلاء الأمراء السلاجقة فلم يعاقبهم، بل أنعم على كل واحد منهم بمنصب رفيع، والواقع انهم أسدوا فيما بعد خدمات جلييلة إلى «ألب أرسلان» أثناء فتح الاناضول.

جاء ألب أرسلان إلى الاناضول عقب إخماد عصيان «قتلمش». وفى ذات الوقت تمكن أخوه «ياقوت بك» من الاستيلاء على مدن مهمة فى نواحي «بحيرة وان» وفى أرمنستان، كما فتح ألب أرسلان جورجستان. وهكذا بسط السلاجقة سيطرتهم على القوقاز. ومع دخول السلاجقة إلى جنوب القوقاز، انقطعت رابطة البيزنطيين بالبحر الأسود.

ورجع ألب أرسلان من الاناضول إلى وسط آسيا فى عام ١٠٦٥م وزوج ابنته عائشة خاتون من شمس الملوك حاكم القراخانيين لتوطيد علاقته بهم، وزوج ابنه ملكشاه لتركمان خاتون أخت شمس الملوك.

وكان فتح ألب أرسلان خوارزم فى عام ١٠٦٧م بمثابة شل يد

القرخانيين الغربيين. وفي زمن وجيز (١٠٦٤ - ١٠٧٠)م انتزع من الخلافة الفاطمية مكة والمدينة كما فتح سوريا. وبعد انتصار ألب أرسلان على البيزنطيين في «ملازكرد» عام ١٠٧١م، استطاع أن يحقق الاتساع والقوة لدولة السلاجقة الكبار.

وفي ١٣ مارس ١٠٧١م تحرك الامبراطور البيزنطي «رومانوس ديوجينيس» من القسطنطينية بجيش كبير قوامه مائتا الف رجل متجهها ناحية الشرق، وكانت أثقال الجيش البيزنطي تتكون من ثلاثة آلاف عربة وبضعة آلاف من الإبل والخيول. كما كان يضم آلات خاصة تعمل في هدم الأسوار يقوم على استخدامها ١٢٠٠ شخص.

فلما اقترب الامبراطور «رومانوس ديوجينيس» من مدينة سيواس عقد اجتماعا مع قواده. وفيه حاول اثنان من قاداته ممن يعرفون قوة السلاجقة وهما «بريانوس» و«تراجنيوس» أن يثنيا الامبراطور عن هذه الحرب، لكن بلا جدوى.

وعلم ألب أرسلان بخبر مجيء الامبراطور البيزنطي بهذه القوة الكبيرة. فخرج لملاقاته بجيش مكون من خمسين ألف مقاتل وكان ألب أرسلان يقدر صعوبة هذه الحرب وخطورتها، فأرسل سفارة إلى «ديوجينيس» يرأسها «صاوتكين». لعرض الصلح لكن «ديوجينيس» رفض هذا العرض، وقال لصاوتكين: إذهب، وقل للسلطان: إن المفاوضات بيننا ستكون العام القادم في طهران. فجيشنا سيبقى في اصفهان، وستنطلق جيادنا لترعى في همدان، فرد «صاوتكين» على هذه الإهانة التي وجهها ديوجينيس والذي كان يظن انه لن يقهر في هذه الحرب أبدا، بقوله نحن واثقون ان جيادكم ستعسكر في همدان، لكننا لانعرف اين ستعسكر انت، والتقى الجيشان في سهل «ملازكرد» في ٢٦ أغسطس ١٠٧١م، وكان يفصل بين معسكريهما سبع كيلو مترات ويمكن لكل منهما أن يرى الآخر.

وفي يوم الجمعة رفع عدة مئات من الرهبان النصارى صلبانهم

عاليا وأخذوا يقرأون الانجيل بصوت عال، ويسألون عيسى عليه السلام أن يجعل النصر من نصيب الجيش البيزنطى، وكان الجيش البيزنطى كان يضم ممثلين للجنك (وهم من الأوغوز) وسائر الشعوب المسيحية. وقبل بدء الحرب امتطى السلطان «آلب أرسلان» جواده بمنتهى الهدوء والوقار وبعد أن تفحص صفوف جيشه أعطى الأمر ببدء الهجوم. والتحم الجيشان كالعاصفة، وعند المساء كان الجيش السلجوقى قد حقق نصرا حاسما على الجيش البيزنطى. وعندما وقع الامبراطور البيزنطى جريحا وأسيرا فى يد «آلب أرسلان» تراجع جيشه، وألقى سلاحه واستسلم. ولأن المعركة وقعت فى وادى «ملازكرد» الواقع على مساحة ٤٥ كم جنوب «بحيرة وان» التى ترتفع عن سطح البحر ١٥٠٠ متر، فقد ذكرت هذه الواقعة فى التاريخ باسم «واقعة ملازكرد».

وقد طبق آلب أرسلان تكتيكا جيدا لكى يخدع عدوه وينزل به ضربة قوية. فقد تراجع الجيش السلجوقى إلى الورا قبل بدء المعركة بساعتين، فلما إبتعد كثيرا عن مركز الجيش البيزنطى الذى كان يتعقبه، أصبح محاصرا بقوات «آلب أرسلان» فانهارت معنوياته. وفى ذات الوقت ساق «آلب أرسلان» فرسانه نحو رومانوس ديوجنيس، وبهذا التكتيك تمكن من هزيمة الجيش البيزنطى الذى كان ثلاثة أضعاف جيشه فى «ملازكرد». ولهذا السبب كانت «ملازكرد» ذات أهمية تاريخية إذ أن فئة قليلة يقودها رجل خبير وذكى، يمكن أن تهزم فئة تفوقها بأضعاف مضاعفة يقودها رجل يفتقر إلى الخبرة، وهذا الانتصار الذى حققه «آلب أرسلان» ضد الامبراطورية الرومانية الشرقية (البيزنطيين). خاصة رومانوس ديوجنيس، شكل صدمة للشرق والغرب على السواء، خاصة العالم المسيحى الذى يشعر بالرجفة دوما من هذا الحدث.

وقد عامل السلطان «آلب أرسلان» أسيره «رومانوس ديوجنيس» بما يليق بلقبه ومكانته، مما أثار دهشة «رومانوس». فقد أعد له آلب أرسلان وليمة فخمة وشرح له أثناء الوليمة الأخطاء التى ارتكبها فى الحرب، ثم أوضح له تكتيك الحرب الذى توارثه الأوغوز عن اجدادهم

والذى يطبقه الأوغوز. ثم وقع معه معاهدة بموجبها أصبح الامبراطور البيزنطى تابعا للسلطان السلجوقى ويؤدى له جزية سنوية. ثم اطلق «آلب أرسلان» سراح «رومانوس ديوجنيس» فيما بعد، وأرسله إلى القسطنطينية. فى حين أن «ديوجنيس» لم يكن يتصور أن يلقى مثل هذه المعاملة من عدوه الذى أسره، وظن أن الموت فى انتظاره بعد وقوعه فى الأسر.

بعد انتصار «ملازكرد» توجه آلب أرسلان مرة أخرى إلى وسط آسيا بجيش قوامه مائتا الف رجل فتجاوز أمودريا أولا، لكنه واجه عند ساحل النهر مقاومة من «يوسف بك» أمير أمراء القراخانيين الغربيين. وقد انهزم «يوسف بك» ووقع فى الأسر، وأثناء نقاش بينهما استل «يوسف بك» خنجرا كان يخبئه فى عبه، وطعن به «آلب أرسلان». فانقض عليه الامراء السلاجقة وقتلوه فى الحال، لكن «آلب أرسلان» فاضت روحه بعد بضع ساعات. وقد كتبوا هذه الأسطر على شاهد قبر «آلب أرسلان» المدفون فى مرو: «رأيتم آلب أرسلان يسير رافعا رأسه والزهو يملؤه، ورأيته بعد مجيئه إلى مرو وقد صارت رأسه تحت الثرى».<sup>١٣٨</sup>

### السلطان ملكشاه

كان مقتل السلطان «آلب أرسلان» عاملاً فى أن يلتقط القراخانيون الغربيون أنفاسهم لفترة وإن كانت قصيرة، فاستولى شمس الملوك ناصر بن ابراهيم، خان القراخانيين الغربيين على ترمذ وبلخ فى ١٦ ديسمبر ١٠٧٢م، لكن سرعان ما استردها السلاجقة.

وفى عام ١٠٧٢م اعتلى السلطان «ملك شاه» بن آلب أرسلان عرش السلاجقة وكان فى السابعة عشرة من عمره. وفى هذه الفترة رفع «قره أرسلان قاورد بك» عم «ملكشاه» لواء العصيان طمعا فى العرش. وقد دعمه فى هذا أخوه «ملك عثمان». لكن انتصر «ملكشاه» على عمه فى جغل عام ١٠٧٣م. ومات «قره أرسلان قاورد بك» ووقع أخوه ملك عثمان

فى الأسر. وبعد إخماد تمرد «قاورد» الوالى العام لكرمان تحرك «ملك شاه» صوب جيرانه البيزنطيين، والخلافه الفاطمية فى مصر. واستولى على سوريا وفلسطين عام ١٠٧٦م. وبعد الاستيلاء على بركة الشام رفع اسم الخليفة الفاطمى من الخطبة وقراها باسم الخليفة العباسى، واسم السلطان «ملكشاه». أما فى عام ١٠٧٨م فقد استولى السلاجقة على كل القوقاز التى كانت تحت سيطرة البيزنطيين.

وفى ١٠٧٨م جاء «ملكشاه» إلى بغداد، وهناك زوج ابنته «ماه ملك خاتون» من الخليفة المقتدى. وفى عام ١٠٩٠م دخل الجيش السلجوقى الحجاز، واستولى على مكة المكرمة والمدينة المنورة. وبعد عامين استولى على اليمن وبذلك أصبحت للسلاجقة السيادة على شبه الجزيرة العربية كلها.

وخلال عشرين عاماً قضاها «ملك شاه» فى الحكم، خرج على رأس عدة حملات ضد البيزنطيين والخلافة الفاطمية. أما غيرها من الحملات فكان يخرج على رأسها أمراؤه. وان خرج بنفسه على كل الحملات الموجهة إلى القراخانيين.

مثال ذلك أنه فى عام ١٠٧٤م اجتاز بجيش كبير أمودريا ودخل ماوراء النهر وتوجه مباشرة نحو سمرقند عاصمة القراخانيين الغربيين، عاقدا العزم على معاقبة «شمس الملوك»، لكن «شمس الملوك» ترك عاصمته وهرب. وفى النهاية أمكنه عقد اتفاق بين الطرفين بمساعى الوزير القدير «نظام الملك». ومن المحتمل ان فى هذه الاثناء تم زواج «تركان خاتون» ابنة أخو «ابراهيم بوغراتكين» خان القراخانيين الغربيين، من السلطان ملكشاه. وعين «ملكشاه» أحد امرائه المعتبرين ويدعى «صاوتكين» والياً على ترمذ، وعاد راجعاً من ماوراء النهر.

فلما توفى «شمس الملوك» سنة ١٠٨٠م تولى مكانه أخوه «خضر خان». وقد قام «خضر خان» فى فترة حكمه للقراخانيين (١٠٨٠-١٠٨١م) برعايه الآداب، خاصة فن الشعر الذى أولاه اهتماماً خاصاً.

لكن في فترة أخيه أحمد خان الأول (١٠٨١ - ١٠٩٥ م) حدث  
الصدام بين القراخانيين الغربيين والسلاجقة بسبب مسألة بلخ وترمز.  
ودخل السلطان «مَلِكُشَاه» ما وراء النهر في عام ١٠٨٩ م واستولى على  
بُخَارَى وَسَمَرْقَنْد، وجعل أحد أمراء السلاجقة والياً عليها.

وفضلاً عن هذا فقد أسر أثناء فتح سَمَرْقَنْد أحمد الأول خان  
القراخانيين الغربيين، وأرسله إلى اصفهان عاصمة السلاجقة.

ثم غادر السلطان «مَلِكُشَاه» ما وراء النهر في اتجاه الغرب نحو كاشغر  
قاصداً استئناف حملاته. فلما اقترب من «أوزكند» جاء السلطان «هارون  
بوغرا الثاني» خان القراخانيين الشرقيين إلى «أوزكند» وصار على مقربة  
منه، وأعلن اعترافه بتبعيته لمَلِكُشَاه كما ارتضى أن يسك العملة ويقراً  
الخطبه باسمه. واطمأن «مَلِكُشَاه» لما أبداه «السلطان هارون بوغرا»  
نحوه من احترام وطاعة، فانسحب عائداً من «أوزكند» في ١٠٨٩ م. لكن  
خانات القراخانيين الشرقيين والغربيين سيعلمون استقلالهم ثانية عندما  
يتوفى السلطان «مَلِكُشَاه» في ١٠٩٢ م.

وفي عام ١٠٩٠ م أرسل أحمد خان الأول من اصفهان إلى سَمَرْقَنْد  
مرة ثانية، لأن «تركان خاتون» التي جاءت عروساً من القراخانيين  
الغربيين، كانت ذات تأثير كبير على «مَلِكُشَاه» فاستطاعت أن تقنعه أن  
يعيد تنصيب أحمد خان حاكماً على القراخانيين الغربيين مره أخرى.

والسلطان محمود الذي أعقب «مَلِكُشَاه» على العرش هو ابن «تركان  
خاتون» هذه، وما حدث بعد ذلك أنه سيقتل أحمد خان الأول الذي  
رجع إلى سَمَرْقَنْد عام ١٠٩٠ م، بعد خمس سنوات من عودته. وحسب  
ما ورد في الكتابات التاريخية فإن بعض مشايخ الطرق الصوفية، وبعض  
الأمراء ثاروا على أحمد خان وأنزلوا به العقاب جراء خروجه على الشرع.  
في هذه الأثناء توفي السلطان «مَلِكُشَاه» في عام ١٠٩٢ م عن سبعة  
وثلاثين عاماً ودفن في اصفهان.

وقد بلغت الدولة السلجوقية أوج قوتها في زمن السلطان «مَلِكُشَاه»



السلجوقي وضمت فارس وافغانستان وشمال الهندستان وما وراء النهر وداغستان والاناطول والعراق وسوريا وفلسطين وشبه الجزيرة العربية. وبلغت مساحة الاراضى التى تحت سيادتها ١٥ مليون كيلو متر مربع ووصلت حدودها إلى بحر «ايجه» و«بحر مرمرة» والبحر الابيض والبحر الاحمر وخليج البصرة.

وعقب تولى «السلطان مَلِكُشاه» الحكم، أمر بصرف رواتب الجند وكانت تبلغ ٧٠٠ الف دينار ذهباً سنوياً. لكن هذا الرقم كان يغطى رواتب الجند الموظفين فقط. لأن فى زمن «مَلِكُشاه» كان عدد الجند فى الجيش السلجوقى مليون جندي.

وقد وفر السلطان «مَلِكُشاه» امكانيات غير عادية لتطوير العلم، وفى عصره نشأ كثير من الفلاسفة والمؤرخين والمفكرين. وبلغت موازنة الدولة فى زمن مَلِكُشاه ٤٣ مليون دينار، منها ٣٠٠ ألف دينار ذهب للإنفاق على المعتمدين وطلاب العلم. وفى عصره، افتتحت المدارس النظامية التى تعادل الجامعات بالمفهوم المعاصر فى كل من بغداد ومرو وبلخ وآمول وأصفهان والبصرة ونيسابور وهرات والموصل وغيرها من المدن. وقد اشتق اسم هذا المدارس من اسم الوزير المشهور «نظام الملك». وكل مدرسة كانت تضم مكتبة كبيرة، ودار ضيافة ومسجد.

وقد لعب «نظام الملك» دوراً كبيراً فى تطوير العلم والحضارة فى زمن «ملك شاه» وله أثر باللغة الفارسيه اسمه «سياستنامه».

وعصر «آلب أرسلان» و«مَلِكُشاه» الذى تولى فيه «نظام الملك» منصب الصدارة العظمى، هى الفترة التى بلغت فيها الدولة السلجوقية أوج قوتها وثروتها وحضارتها. وكان «نظام الملك» أكبر رجل دولة فى الشرق الاسلامى فى العصور الوسطى. والأسس التى وضعها فى كتابه (سياستنامه) هى التى سارت عليها الدول التركية والاسلامية.

وبعد موت «ملك شاه» دخلت الدولة السلجوقية فترة النزاع على العرش من عام (١٠٩٢ - ١١١٨م).

وكان للسلطان «مَلِكُشَاه» ثمانية أبناء: هم أحمد و بركياروق ومحمد طبار، وِسَنْجَر، ومحمود، وجبار و «طُغْرُل»، حَمَر. وقد نشب بين محمود وبركياروق ومحمد طبار وِسَنْجَر صراع عنيف حول العرش. وبعد موت «مَلِكُشَاه» تم إجلاس محمود ابن الاميرة القراخانية الغربية «تركان خاتون» على العرش، لكنه كان مازال في الخامسة والنصف من عمره، لذا قام «بركياروق» بعد شهرين من جلوس أخيه السلطان الطفل بخلعه من العرش، لكنه خلع بدوره من العرش بيد «مَلِكُشَاه الثاني». الذي خلعه ايضا «محمد طبار» وهذا ايضا خلعه «سَنْجَر». وبالقطع ان هذا التغير المستمر في تولى سدة الحكم لم يكن بالطرق السلمية، إنما كان يتم بمعارك دامية، لكن أمكن تحقيق الأمان للدولة السلجوقية بتولى السلطان «سَنْجَر».

## الفصل الرابع عشر: الكيدانيون والقراخانيون

### نشأة الكيدانيين

بعد أن انقسم القراخانيون إلى قسمين، شنوا الحرب ضد الكيدانيين من جانب وضد خوارزم من جانب آخر.

كان «الكيدانيون» يعيشون في سالف الزمان في إقليم في الصين يُسمى في الوقت الحالي بإقليم «لياونينج». وهم فرع من «التونجوسيين» وينحدرون من «السيانيين». وثمة احتمال كبير أن يكون هناك صلة دم بينهم وبين المغول. في عهد الهون (من القرن الثالث قبل الميلاد حتى القرن الثالث بعد الميلاد) ارتبطوا بالهون والسيانيين. أما في عهد «الأوار» و«الكوكتورك» فقد عاشوا تحت حكم هؤلاء تبعاً. ولكن عندما تولى «الملك كاجان» الحكم في عهد سلطنة الأتراك الشرقيين، أعلن «الكيدانيون» العصيان وتم إخماد هذا العصيان على يد فصيل من الجيش التركي كان يقوده «تونيوقوق».

ومنذ أن قويت سلطنة اورخون الأويغورية إلى أن هاجر الأيغور ناحية الغرب في سنة ٨٤٠م، ارتبط بهم الكيدانيون إلى أن نقلوا مراكزهم السياسية من قارا بالغاسون إلى سفوح جبال «طانري».

وفي عام ٩١٦م أسس «الكيدانيون» دولة أطلق عليها الصينيون اسم «لياو». وفي أقوى عصور الدولة «الكيدانية» (٩١٦ - ١١٢٥م) اتسعت حدودها حتى بلغت الأطراف الشرقية لجبال الطاي في الغرب، واقتربت من بايقال في الشمال، والمحيط الهادي في الشرق.

وقام «الكيدانيون» الذين احتلوا أرض المغول في عام ٩٢٠م باضطهاد القيرغيز الذين عاشوا في تلك الأرض في الفترة من (٨٤٠ - ٩٢٠م) وطردوهم. وكان القيرغيز الذين رفعوا راية العصيان ضد سلطنة أورخون الأويغورية واحتلوا «قرابالغاسون»، قد هاجروا إلى سواحل «ينيساي» في أرض المغول في سالف الزمان، أي في عام ٨٤٠م.

وفي عام ٩٧٠م اخترق «الكيدانيون» حدود الصين بجيش قوامه ٤٠ ألف جندي وفرضوا الجزية على الإمبراطور «سونغ». وفي عام ٩٩٥م أغاروا على العاصمة «كاي فينج» التابعة لأسرة «سونغ» الحاكمة وحاصروها. واضطر «سونغ» إلى عقد معاهدة مع الكيدانيين. وبموجبها تقدم إمبراطورية «سونغ» الكيدانيين سنوياً ٢٠٠ ألف لفة قماش و ١٠٠ ألف رأس فضة ( ٣١٠٠ كيلو جرام).

وصارت الحدود الغربية لدولة الكيدانيين بطولها تجاور القسم الشرقي للقراخانيين. ولكن بحلول (القرن الحادي عشر) بدأ الضعف يدب في الدولة الكيدانية. وفي عام ١١٢٠م رفع «الجورجتيون» راية العصيان، وبعد أربعة أعوام من هذا التاريخ انمحت الدولة الكيدانية من التاريخ. وفر قسم من الكيدانيين الذين انهزموا أمام «الجورجتيين»، وعلى رأسهم الأمير «ياه - لو - تا - شيه» إلى الشمال الغربي وجاءوا إلى سواحل «ينيساي». ولكنهم تعرضوا هناك لمضايقات من جانب «القيرغيز» فاتجهوا ناحية الجنوب الغربي وطلبوا حماية القراخانيين.

## الفصل الرابع عشر: القراخانيون الشرقيون والكيدانيون

### أصل الكيدانيين

كانت الدولة القراخانية الشرقية عبارة عن القسم الشرقي لفرغانة وخوتن وياركند ووادي إيلي ويدي صو. وكانت حدودها الشمالية الشرقية تقع جنوب «كوجار» ويدخل أيضا ضمن حدودها القسم الغربي لفرغانة. في عام ١٠٤٠م انقسم القراخانيون إلى قسمين: القراخانيون الشرقيون والقراخانيون الغربيون، وتولى حكم القراخانيين الشرقيين سليمان أرسلان خان الذي لم يستطع توحيد دولته المنقسمة، وساءت علاقاته بشقيقه محمد بوغراخان. وسعى محمد بوغراخان في عام ١٠٥٦م (كان في ذلك الوقت والياً على طالاس واسفيجاب) إلى خلع شقيقه الأكبر سليمان أرسلان خان من العرش. وتم أسر سليمان أرسلان خان بعد هزيمته في الحرب وقتله. وأحكم محمد بوغراخان قبضته على القراخانيين الشرقيين وعلى العرش. وبعد ١٥ شهراً من جلوس محمد بوغراخان على عرش القراخانيين الغربيين، قرر التنازل عن الحكم لابنه الكبير حسين (والد محمود الكاشغري).

ولكن زوجة محمد بوغراخان الصغيرة كانت تريد أن يتولى ابنها إبراهيم العرش. ولتحقيق هذا الغرض دست السم لمحمد بوغراخان وحسين وبعض أمرائه. ولكن إبراهيم الذي اعتلى عرش القراخانيين الشرقيين في عام ١٠٥٨م قتل على يد «إينال تكين» والي «بارسغان» الذي أعلن العصيان ضده. وبعد هذه الواقعة تولى العرش «طغرل قراخان يوسف» (محمود خان) بن السلطان يوسف قدير (شقيق محمد

بوغراخان).

وأثناء هذه الوقائع الدامية فر محمود الكاشغري من كاشغور. وكان فراره خشية من الموت من ناحية، ومن ناحية أخرى من أجل جمع المادة اللازمة لكتابه «ديوان لغات الترك». فذهب إلى بغداد وأتم كتابه في عام ١٠٧٤م وقدمه إلى الخليفة المعتمد. واستغل إبراهيم بوغرا تكين حاكم السلطنة القراخانية الغربية الاضطرابات الداخلية في القراخانية الشرقية واستولى على فرغانة وتاشكند.

وبعد مقتل إبراهيم حاكم القراخانية الغربية ألف يوسف خاص حاجب كتابه «قوتادغو بيليك» في عهد «طغرل قراخان» ملك القراخانية الشرقية، وقدمه في عام ١٠٦٩م إلى أبي الحسن تابغاج بوغراخان الذي كان بمثابة الساعد الأيمن لـ «طغرل» قراخان. وفيما يلي تفصيل هذا الموضوع.

بعد مقتل إبراهيم حاكم قراخان الغربية في عام ١٠٦٨م استردت قراخان الشرقية فرغانة وتاشكند اللتين استولى عليهما عام ١٠٥٨م. وبموجب المعاهدة المبرمة تركت الأراضي الممتدة من سرداريا حتى خوجند إلى «شمس الملوك»، ودخلت فرغانة كلها في حوزة قراخان الشرقية. وعندما توفي «طغرل قراخان» في عام ١٠٧٤م، تولى بعده «طغرل تكين» ولكن بعد شهرين خلعه «أبو الحسن تابغاج بوغراخان» عن العرش وواعثلاه مكانه.

ظل «أبو الحسن تابغاج بوغراخان» بمثابة الساعد الأيمن لـ «طغرل قراخان» على مدى ١٥ عاماً، وظل يحكم قراخان الشرقية على مدى ٢٧ عاماً. وخلال فترة حكمه لم يعد يُسمى باسمه القديم، بل صار يُلقب بالسلطان هارون بوغرا. وصار أيضاً يُلقب بـ «حاكم الشرق وحامي الدين والعدالة».

في عهد السلطان هارون بوغرا أحرزت قراخان الشرقية تقدماً كبيراً في مجالي العلم والثقافة. وكتب في عهده كتاب «قوتادغو بيليك» وألف

عبد الجبار كتابه المسمى «تاريخ كاشغر»، ولكن للأسف لم يُستكمل حتى يومنا هذا. وقد أدركنا مدى أهمية تاريخ كاشغر من الأسانيد المتضمنة في الأثر المسمى (ملحقات قاموس صراح اللغة) <sup>١٣٩</sup> الذي كتبه المؤرخ الأويغوري جمال القارشي في القرن الرابع عشر.

وفي عام ١١٠٢م انطلق السلطان هارون بوغرا الثاني بجيشه نحو ترمذ، ولكن نظراً لسيطرة السلاجقة عليها تم طرد القراخانيين بعد فترة قصيرة على يد السلطان «سَنَجَر». ومات السلطان هارون بوغرا في عام ١١٠٣م بعد أن ظل في الحكم ٢٧ عاماً. وجاء بعده أحمد أرسلان خان، وفي عام ١١٠٥م أرسل محمود بن عبد الجليل علي الكاشغري إلى بغداد حيث عُين سفيراً لدى الخليفة العباسي المستظهر بالله، ومنح الخليفة المستظهر بالله أحمد أرسلان خان لقب «نور العدل ونور الدولة».

وبعد أحمد أرسلان خان، دخلت قراخان الشرقية تحت سيطرة الكيدانيين، واستقر الكيدانيون الذين فروا من سواحل «ينيساي» عام ١١٢٥م ولجأوا إلى قراخان، في إيميل (التي تُسمى الآن بـ دور بيلجن) بإذن من إيليك خان الشمالية. وكانوا في ذلك الوقت عبارة عن ٤٠ ألف خيمة أي ما يقرب من ٢٠٠ ألف شخص.

في تلك الأيام دب الضعف في القراخانيين، وارتبط القراخانيون الغربيون بالسلطان سَنَجَر السلجوقي. وعاش القراخانيون الشرقيون في اضطراب بسبب عصيان أمراء إيليكخان الشمالية المستمر.

عندما اندلع عصيان قبائل قارلوق وغيرها من القبائل في عام ١١٣٠م استدعى حاكم إيليك خان الشمالية (لأيعرف اسمه) «ياه - لو - تا - شيه» لإخماد هذا العصيان، ووافق هذا القائد على الاضطلاع بهذه المهمة، وبعد أن أخذ العصيان أذن له بالإقامة في جوار «بالاساغون» في تلك الأثناء كان إبراهيم بن أحمد خان، الذي كان يفتقد القدرة والبصيرة، يتزعم القراخانيين الشرقيين.

استغل الأمير الكيداني «ياه - لو - تا - شيه» الذي ضعف القراخانيين الشرقيين، وجمع أفراد قبيلته إلى جوار «بالاساغون» ثم شن هجوماً على المدينة، واستولى عليها في عام ١١٣٤م. وتم أسر الحاكم الإيلخاني الشمالي (ربما كان اسمه في ذلك الوقت أبو الشجاع) وأسرته. وبعد فترة قصيرة احتل أراضي «إيليك خان» الشمالية. في أثناء تلك الأحداث كان إبراهيم ملك القراخانية الشرقية مشغولاً باللهو في كاشغَر. لكن في عام ١١٣٤م هاجم «ياه - لو - تا - شيه» كاشغَر، وخلع إبراهيم عن عرشه. واعتباراً من ذلك التاريخ ارتبط القراخانيون الشرقيون بالكيدانيين. وبرغم عدم تدخل «ياه - لو - تا - شيه» في شؤونهم الداخلية لم يستطيعوا الدفاع عن كيانهم.

وبعد إبراهيم اعتلى محمد خان الثاني عرش القراخانية الشرقية وجاء بعده يوسف خان ثم محمد خان الثالث. وفي النهاية قُتل الأخير على يد الأمراء الذين اعتدوا على القصر في عام ١٢١٢م، وفي نفس العام احتل «كوجلوك سلطان نايمان» كاشغَر، ومنذ ذلك اليوم طويت صفحة القراخانية الشرقية من التاريخ.

### القراخانيون الغربيون والكيدانيون

أوضحنا أن القراخانيين انقسموا في عام ١٠٤٠م إلى قسمين، القراخانيون الشرقيون والقراخانيون الغربيون.

وكانت مناطق القراخانيون الغربيون في البداية عبارة عن الأراضي الواقعة في ما وراء النهر فقط. وبعد ذلك سيطروا على قسم من وادي فرغانة. ولم تكن هناك حدود واضحة بين القراخانية الغربية والقراخانية الشرقية، ويتم تغيير هذه الحدود لأسباب مختلفة.

وقد حمل الملك القراخاني الغربي «إبراهيم بوغراتكين» لقب «تابغاچ قراخان» (وهي تعني في اللغة الأويغورية القديمة «المطيع») لكن عاصمة قراخان لم تكن تابعة لكاشغَر. في تلك الأثناء لم ينجح سليمان أرسلان خان في توحيد دولته التي انقسمت إلى قسمين في الفترة



(١٠٤٠ - ١٠٥٦ م)، وبعد ذلك اندلع التمرد في القراخانية الشرقية وتحول إلى حرب داخلية.

واستغل إبراهيم تابغاچ قراخان هذا الوضع وسعى إلى تولي حكمها كما أسلفنا القول.

فقد استولى القراخانيون الشرقيون على فرغانة وتاشكند في عام ١٠٥٨ م بعد أن دب الضعف في أوصالهما. وسبقت الإشارة إلى الأحداث التي جرت بين القراخانيين والسلاجقة في فترة حكم قراخان «شمس الملوك» وأحمد خان.

في عهد محمود أرسلان خان الثاني كان القراخانيون الغربيون يحيون حياة مستقرة وذلك بسبب قيام أرسلان خان بإخماد أعمال التمرد التي شنها بعض الأمراء فيما بين أعوام ١١٠٣ - ١١١٠ م، وساعده في ذلك السلطان «سنجر»، ومنذ ذلك الحين وفي غضون عشرين عاماً عاش شعب ما وراء النهر حياة هادئة مستقرة، وكان محمد أرسلان شخصية مؤثرة في التاريخ بما شيده من آثار جميلة. ومن هذه الآثار، المساجد الكبيرة التي شيدها في بخارى وسمرقند، كما قام بتعمير «بايكنت» وأعطى لها مظهراً جميلاً. وأمر محمد أرسلان خان في عام ١١٢٧ م بتشييد «منارة كلان»<sup>١٤٠\*</sup> أي المنارة الكبيرة القائمة في بخارى حتى يومنا هذا.

بيد أن في عام ١١٣٠ م ساءت العلاقة فجأة بين محمد أرسلان خان والسلطان «سنجر». تقول بعض الروايات أن محمد أرسلان خان كان يسعى لقتل السلطان سنجر، ولذلك قام السلطان «سنجر» بالسيطرة على سمرقند وطرد أرسلان خان إلى بلخ، ولكن بسبب إصابة أرسلان خان بالشلل سمح السلطان «سنجر» لزوجته «السيدة توركان خاتون» وهي ابنة أرسلان خان أن تذهب مع أبيها لتكون بجانبه. وفي النهاية مات محمد أرسلان خان في عام ١١٣٢ م ودُفن في مسجد القصر الموجود في مرو.

ونفهم من المعلومات المتداولة أن القراخانيين الغربيين كانوا مرتبطين بالسلاجقة في عهد السلطان «سَنَجَر». وبعد موت محمد أرسلان خان بدأت أحوال القراخانيين الغربيين تزداد سوءاً.

وفي عام ١٠٣٤م اتخذ الأمير الكيداني «ياه - لوتا - شيه» من بالاساغون عاصمة له، واتخذ لقب «جورخان». هذه الكلمة هي شكل محرف للكلمة الصينية كاوخان وتعنى (الحاكم العظيم).

وبعد أن قام «جورخان» بفتح كاشغر عاصمة القراخانيين في عام ١١٣٦م بدأ الاستعداد للاستيلاء على باقي آسيا الوسطى. وهكذا نظم الكيدانيون هجماتهم على تاشكند وفرغانة وزرافشان وقاشقادريا.

والحرب التي وقعت بين «جورخان» ومحمود الثاني سلطان القراخانيين الغربيين بالقرب من «خوجند» في عام ١١٣٨م، انتهت بهزيمة محمود الثاني هزيمة ثقيلة. ولكن تم عقد معاهدة بين الطرفين وفرض الكيدانيون الجزية على القراخانيين ثم انسحبوا.

وبعد هزيمة «خوجند» سيطر «خوارزمشاه آتسز» على بخارى في عام ١١٣٩م وتوغل داخل حدود ماوراء النهر. وعقب هذه الواقعة رفع القارلوق الذين ارتبطوا بالقراخانيين الغربيين راية العصيان. ودعمهم في هذا الإتجاه «جورخان» لكن هذا الموقف أثار استياء القراخانيين الغربيين.

وفي عام ١١٤١م نقض «جورخان» معاهدة الصلح المعقودة من قبل، وهجم على سَمَرْقَنْد عاصمة القراخانيين الغربيين. واتحد جيش محمود خان الثاني وجيش السلطان «سَنَجَر» في صحراء «قطوان» بالقرب من سَمَرْقَنْد، ونشب صدام شديد بين القراخانيين الغربيين والكيدانيين في بداية شهر سبتمبر من نفس العام. وبسبب العصيان الذي اندلع قبل الحرب في جيش السلطان «سَنَجَر» الجيش الحليف، انتهى الصدام بهزيمة القراخانيين الغربيين. فقد قدم العصيان الذي وقع في جيش «سَنَجَر» النصر هدية إلى «جورخان». ولكن الحرب أدت إلى إلحاق

خسائر في الأرواح تقدر بـ ٣٠ ألف شخص في كلا الجانبين. ووقعت زوجة السلطان سَنَجَر (وهي الأميرة القراخانية السيدة توركان خاتون) أسيرة وهرب محمود خان الثاني وسَنَجَر إلى ترمذ.

وبعد حرب «قطوان» اضطر القراخانيون الغربيون إلى دفع الجزية إلى الكيدانيين ولكنهم نجحوا في المحافظة على استقلالهم. وإذا كان الكيدانيون قد قاموا بضم الأراضي التي استولوا عليها، فقد تجنبوا الحديث عن كونهم مستقلين. وكانوا يأخذون الجزية بموجب النظام الصيني حيث تقوم كل أسرة بدفع دينار واحد أي خمس روبيات ذهبية. وانتهز «خوارزمشاه أتسز» فرصة هزيمة «قطوان» واستولى على «مرو» في عام ١١٤١م. وبعد عام جاء إلى نيسابور في الخريف. وسعى السلطان سَنَجَر السلجوقي إلى ادخال خوارزمشاه في طاعته، وسعى لاستعادة مجد السلطنة السلجوقية القديمة ولكنه لم يستطع تحقيق هذا الهدف.

وبعد أن استقر الكيدانيون في وادي تاريم ويدي صو قاموا بطرد الأوغوز الذين كانوا يعيشون هناك وتصالحو مع السلطان سَنَجَر، واستقروا في نواحي بلخ. كان عدد هؤلاء الأوغوز يقدر بـ ٤٠ ألف خيمة وكانوا يقدمون للسلطان في كل عام جزية تقدر بـ ٢٥ ألف رأس غنم. بيد أنه في عام ١١٥٥م رفع الأوغوز راية العصيان بسبب المنازعات التي وقعت بسبب مقدار الجزية. وعندما عجز والي بلخ عن تهدئة العصيان هجم السلطان «سَنَجَر» على الأوغوز بجيش قوامه ١٠٠ ألف جندي، ولكنه هُزم ووقع في الأسر. وفي عام ١١٥٧م استطاع الهرب خلال انشغال الجميع بالصيد وجاء إلى مرو. وقام الأوغوز بنهب المدينة تماماً، وأحرقوها ودمروها. ولم يتحمل السلطان سَنَجَر هذا المشهد فسقط صريعاً هناك.

بعد وفاة السلطان سَنَجَر في عام ١١٥٧م انتهت أيضاً دولة السلاجقة الكبار، ولكن استمرت السيطرة السلجوقية حتى عام ١٣٠٨م باسم

سلاجقة العراق وسلاجقة كرمان وسلاجقة سوريا وسلاجقة الأناضول. فقد استمرت الدولة السلجوقية ٢٦٨ عاماً خلال الفترة (١٠٤٠ - ١٣٠٨م).

خلال أيام أسر السلطان «سَنَجَر» لدى الأوغوز فيما بين الأعوام (١١٥٣ - ١١٥٧م) كان يحكم الدولة محمود الثاني بن «مَلِكْشاه خاتون» بنت السلطان سَنَجَر. إذ كان السلطان سَنَجَر قد زوج ابنته مَلِكْشاه من محمد أرسلان خان وهو والد محمود.

وبعد النصر الذي حققه «جورخان» في حرب «قطوان» استولى على خوارزم في عام ١١٤٢م، ولكن ملك خوارزم «إيل أرسلان» رفض اعطاء الجزية إلى «جورخان» في عام ١١٤٦م وطرد أيضا واليه على خوارزم من المدينة.

وبعد موت «جورخان» في عام ١١٤٤م اعتلى عرش «كيدان» أربعة أفراد منهم سيدتان. كانت إحدهما من الكيدانيين وهي «تابويان» زوجة «جورخان» في الفترة (١١٤٤ - ١١٥٠م) والأخرى ابنة «جورخان» وهي السيدة «بوساوان» في الفترة (١١٦٤ - ١١٧٧م). وعندما قتلت «بوساوان» زوجها بسبب خيانة مع عشيقها تمرد المناصرون للزوج المقتول. ولذلك قامت «بوساوان» بقتل عشيقها أمام الشعب وبذلك استطاعت إنقاذ نفسها.

في بداية السلطنة الكيدانية كان يرأسها: جورخان «ياه - لو تا - شيه» (١١٢٤ - ١١٤٣م) و«تابويان» (١١٤٤ - ١١٥٠م) و«ياه - لو - يه - لي» (١١٥١ - ١١٦٣م) و«بوساوان» و«ياه - لوي - جو» (١١٧٨ - ١٢١١م).

وكانت هناك عداوة شديدة ودائمة بين الكيدانيين والأهالي المسلمين في المنطقة. وليست هناك معلومات دقيقة حول ما إذا كان الكيدانيون مانويين أو مسيحيين.

ولكن المعروف أن المسلمين في عهدهم ثاروا ثورة شديدة. وفي عهد «ياه - لوي - جو» شهدت السلطنة الكيدانية أياماً عصيبة جداً. عندما قتل جنكيز خان «طايان سلطان النايان» في الطاي عام

١٢٠٣م جاء ابنه «كوجلوك خان» مع النايمايين الآخرين إلى «ياه - لو يلي - جو» في عام ١٢٠٩م وبعد أن نال دعمه، عاد مرة أخرى إلى الطاي الشرقية ومر على «يدي صو» جامعاً النايمايين. وتقول المصادر التاريخية إن «كوجلوك خان» عقد معاهدة مع سلطان خوارزم استهدفت طرد الكيدانيين من هناك.

فالكيدانيون الذين خسروا الحرب التي خاضوها عام ١٢١٠م ضد الجيش الموحد لسلطان خوارزم محمد ولسطان القراخانية الغربية عثمان بوغراخان بالقرب من نهر «طالاس» (داخل حدود قيرغيزستان الآن) تمت الاطاحة بهم على يد «كوجلوك خان» بعد عام من هذا التاريخ. وبعد أن قضى «كوجلوك خان» على نفوذ الكيدانيين سيطر على كاشغر عاصمة القراخانية الشرقية، وجعلها عاصمة سلطنة النايمايان، وهكذا خرج القراخانيون الشرقيون من التاريخ.

في عام ١٢١٢م قتل محمد خوارزمشاه عثمان بوغراخان صهره الوحيد، وتم القضاء على القراخانيين الغربيين، وهكذا طويت صفحة الدولة القراخانية التي استمر وجودها ٣٦٠ عاماً وصارت مجرد تاريخ. وكان عمر سلطنة النايمايان التي تم تأسيسها على أراضي القراخانيين الشرقيين، قصيراً (١٢١١-١٢١٨م). واحتضن «كوجلوك خان» سلطان «نايمايان» المسيحيين، غير إنه لم يكن يتمتع بالكفاءة السياسية. وفرض قيوداً على المسلمين سواء من الناحية الاقتصادية أو السياسية، وأجبرهم إلى الارتداد عن دينهم. وأقدم على طرد ٣٠٠٠ من مسلمي خوتن الذين كانوا تحت رئاسة الإمام علاء الدين محمد، وأمر بمحو كل ما هو مكتوب وله صلة بالثقافة الإسلامية.

وعندما علم جنكيز خان بالمظالم التي ارتكبتها «كوجلوك خان» لفئة من الشعب بسبب الدين، أرسل جيشاً قوامه ٢٠ ألف جندي بقيادة «جبه نويون». وكان هدف جنكيزخان إنقاذ المسلمين من ظلم «كوجلوك خان» وأيضاً القضاء على سلطنة نايمايان التي شكلت أكبر عائق في

الطريق المؤدي إلى آسيا الوسطى.

وقام «جبه نويون» قبل الهجوم على «كوجلوك خان» بتشجيع الناس على الدفاع عن دينهم حيث أعلن نداء يقول فيه: «كل إنسان في هذه البلدة حر في اعتناق دين أجداده»<sup>١٤١</sup>.

وفقد «كوجلوك خان» سيطرته على الشعب وخسر الحرب التي دخلها ضد «جبه نويون» عند ساحل «بحيرة ايصيق عام ١٢١٨م، وعندما هرب إلى كاشغر لقي مقاومة شديدة من شعبها فانسحب إلى «صاريقكول» وهناك قُتل على يد المغول.

حسناً، ماهو أهم درس تعلمناه من تاريخ القراخانيين؟

يجب أن نسجل أولاً أنه إذا لم تكن الدولة القراخانية القوية الموحدة ذات الثقافة العالية قد انقسمت إلى قسمين وصارت قراخان الشرقية وقراخان الغربية في عام ١٠٤٠م، لتجنب الخضوع للكيدانيين وللسلاجقة. علاوة على ذلك كان من المحتمل أن تحتفظ بوجودها كدولة قوية على مر العصور، وكانت تستطيع أن تسهم بالكثير في تاريخ الشرق والغرب، وبصفة خاصة تاريخ آسيا الوسطى. ويمكنها أيضاً أن تنجب الكثيرين من أمثال يوسف خاص حاجب ومحمود الكاشغري.

بيد أن محمود بن ناصر وإبراهيم بن ناصر إبنى ناصر الإيليك خان الغربي قسماً هذه الدولة إلى قسمين، وبغلطتهما تلك التي اقترفاها لطخا عظمة أجدادنا وبطولتهم، وبعد ذلك غيراً قدر نسلهما. وفي النهاية أخذت الدولة القراخانية في الضعف اعتباراً من عام ١٠٤٠م حيث دخلت تحت سيطرة الكيدانيين الذين جاءوا من الشرق (بعد انقسام القراخانيين إلى قراخان الشرقية وقراخان الغربية) وقضى على استقلالها وفي النهاية طويت صفحاتها من ساحة التاريخ.

وما أصاب الدولة القراخانية يذكرنا بكلمة جميلة لأجدادنا: «عندما يتناطح شاهان تصبح نقانقهما وليمة في العيد».

ثبت بأسماء وتواريخ السلاطين القراخانيين.

## ◀ سلاطين القراخانيون العظام

٨٥٠ - ٨٨٠ م	كول بيلكه قراخان
٩١٠ - ؟	بازرخان
٩٢٠ - ٩٥٦	ساتوق بوغراخان
٩٥٦ - ٩٥٨	موسى بوغراخان
٩٥٨ - ٩٧٠	سليمان أرسلان خان
٩٧٠ - ٩٩٨	السلطان علي أرسلان
٩٩٨ - ١٠١٨	أحمد طوغان خان الأول
١٠١٨ - ١٠٢٤	منصور أرسلان خان
١٠٢٤ - ١٠٢٥	أحمد طوغان خان الثاني
١٠٢٥ - ١٠٣٢	يوسف قديرخان
١٠٣٢ - ١٠٤٠	سليمان أرسلان خان

## ● سلاطين القراخانية الشرقية

١٠٤٠ - ١٠٥٦	سليمان أرسلان خان
١٠٥٦ - ١٠٥٧	محمد بوغراخان
١٠٥٧ - ١٠٥٨	إبراهيم خان
١٠٥٨ - ١٠٧٤	محمد ( «طغرل» قراخان )
١٠٧٤ - ١٠٧٤	عمر خان ( «طغرل» تكين )
١٠٧٤ - ١١٠٣	السلطان هارون بوغرا الثاني
١١٠٣ - ١١٢٩	أحمد خان
١١٢٩ - ١١٥٩	إبراهيم خان الثاني
١١٥٩ - ؟	محمد خان الثاني

يوسف خان

محمد خان الثالث

● سلاطين القراخانية الغربية:

١٠٤٠ - ١٠٥٢

محمد بن نصر

١٠٥٢ - ١٠٦٨

إبراهيم بن نصر

١٠٦٨ - ١٠٨٠

شمس الملوك

١٠٨٠ - ١٠٨١

حيزير خان

١٠٨١ - ١٠٩٥

أحمد خان الأول

١٠٨٩ - ؟

يعقوب خان

١٠٩٥ - ١٠٩٧

مسعود خان الأول

١٠٩٧ - ؟

سليمان خان

١٠٩٧ - ١٠٩٩

محمود خان الأول

١٠٩٩ - ١١٠٢

جبرائيل خان

١١٠٢ - ١١٣٢

محمد خان الثاني (محمد أرسلان خان)

١١٣٢ - ؟

أبراهيم خان الثاني

١١٣٢ - ١١٤١

محمود خان الثاني

١١٤١ - ١١٥٦

إبراهيم خان الثالث

١١٥٦ - ١١٦٠

علي خان

١١٦٠ - ١١٧٨

مسعود خان الثاني

١١٧٨ - ١٢٠٤

إبراهيم خان الرابع

١٢٠٤ - ١٢١٢

عثمان بوغراخان



## ◀ علاقة النسب بين القراخانيين والغزنويين والسلاجقة

### ● السيدات

السيدة خان ملكشاه : ابنة محمد بوغراخان، تزوجت من السلطان مسعود في حفل عرس أقيم في غزنة عام ١٠٣٣م، وبعد موت السلطان مسعود تزوجت من السلطان ألب أرسلان.

السيدة...: ابنة سليمان أرسلان، تقرر زواجها من السلطان مودود. وفي أثناء ذهابها إلى زوجها في عام ١٠٣٢م توفيت في الطريق بين كاشغر وغزنة.

السيدة عائشة: ابنة السلطان ألب أرسلان تزوجت من شمس الملوك في عام ١٠٧٠م.

السيدة توركان : ابنة إبراهيم بوغرا تكين. تزوجت من السلطان ملكشاه في عام ١٠٨٥. وهي أم الأمير محمود ولي العهد. اعتلى الأمير محمود العرش في الخامسة من عمره، وبعد عامين خلع عن العرش. هلالية: ابنة شمس الملوك، تزوجت من السلطان ملكشاه عام (١٠٩٠م).

السيدة...: ابنة ملكشاه. تزوجت من سليمان سلطان القراخانية الغربية في عام ١٠٩٥م.

السيدة...: ابنة السلطان سنجر. تزوجت من محمد أرسلان خان عام ١١٣٠م. حكم محمود الثاني الذي ولدته ابنة سنجر الأمبراطورية السلجوقية في الفترة من (١١٥٣ - ١١٥٧م) وهي الفترة التي وقع فيها سنجر أسيراً في يد الأوغوز.

السيدة... : شقيقة يوسف ب علي إيليك خان الغرب. تزوجت من سابي بن السلطان مسعود الغزنوي في عام ١٠٣٦م.

السيدة...: ابنة ناصر. تزوجت من يوسف بن علي ابن شقيق محمود الغزنوي في عام ١٠٣٦م.

السيدة...: ابنة ناصر إيليك خان الغرب، تزوجت من السلطان محمود في عام ١٠٠٠م.

خان سلطان : ابنة خوارزمشاه علاء الدين. تزوجت من عثمان بوغراخان في عام ١٢١٢م وقتل عثمان في نفس هذا العام على يد السلطان علاء الدين محمد.

## الفصل الخامس عشر: إدارة الدولة عند القراخانيين

### طبقة الحكام

كان الأويغور يديرون الدولة القراخانية بالنظام الملكي، وكان الملوك ينتمون إلى قبيلة «ياغما» المرتبطة بفيدرالية تضم عشر قبائل أويغورية. ولهذا هناك احتمال كبير أن تكون الدولة القراخانية الأويغورية التي استمر حكمها ٤٠٠ عام تقريباً، قد حكمها منذ البداية وحتى النهاية ملوك ينحدرون من نفس العشيرة. وفضلاً عن قبائل الأويغور التي تدين بالطاعة لعشائر «ياغما» فإن أمراء القبائل والعشائر الأخرى مثل (قارلوق وشيجيل وتوخسي وياباقو وباسميل وأوغراق ويمك وأرغو) كانوا داعمين لقبيلة ياغما التي تدير الدولة ومؤيدين لها.

كنا قد تطرقنا من قبل إلى أسماء وألقاب الملوك القراخانيين مثل قراخان وبوغراخان وأرسلان. والآن نتحدث قليلاً عن الألقاب والمناصب العليا الأخرى للأسرة الحاكمة.

بعد أن ارتضى القراخانيون الإسلام ديناً للدولة في عام ٩٦٠م، بدأت العلاقات المتبادلة بين قادة قراخان والخلافة في بغداد. وكان سفراء ملوك قراخان لا ينقطعون عن بغداد عاصمة الخلافة العباسية. وكان الخلفاء العباسيون يمنحون قادة قراخان الألقاب الدينية الشريفة، ويثنون عليهم ويعلنون من قدرهم.

أنعم الخليفة العباسي «المقتدي» على سلطان قراخان الشرقية، أبي الحسن هارون بوغراخان الثاني (١٠٧٥-١١٠٢م) بألقاب: «حامي

الدين والعدالة» و«فخر الدولة» و«حاكم الشرق». وفي عهد أحمد أرسلان (١١٠٢ - ١١٢٨م) ابن هارون بوغراخان، أنعم الخليفة العباسي «المستظهر» بلقب «نور الدولة» على السلطان القراخاني، عن طريق وفد أرسله إلى بغداد برئاسة محمود بن جاروب الكاشغري في عام ١١٠٥م. والواقع أن عدد من نال مثل تلك الألقاب من بين السلاطين القراخانيين لم يكن قليلاً.

في تلك الأثناء كان الخلفاء العباسيون يتلطفون مع السلاطين الغزنويين والسلجوقيين أيضاً بمثل تلك الألقاب الدينية الرفيعة. في عام ٩٩٨م عندما سيطر الجيش القراخاني بقيادة ناصر إيليكخان للمرة الثانية على بخارى، اعتلى محمود الغزنوي العرش واتخذ لنفسه لقب سلطان وهو من أشهر الألقاب، فأصدر خليفة بغداد «القادر بالله» على الفور منشوراً يقضي بمنح محمود الغزنوي لقب «يمين الدولة وأمير المؤمنين».

وفي عهد السلطان «ملكشاه» (١٠٧٢ - ١٠٩٢م) بلغت الإمبراطورية السلجوقية أوج عظمتها وقوتها، وكانت تُكتب هذه العبارة أعلى الأبنية: «السلطان ظل الله في الأرض»<sup>١٤٢</sup>، وتُذكر في خطبة الجمعة الألقاب التي أنعم بها خليفة بغداد على ملوك قراخان. مثلاً كان يُذكر اسم سليمان أرسلان خان، ملك قراخان الشرقية في الخطب التي تُقرأ في كاشغَر وخوتن وبالا ساغون، بينما يُذكر اسم أبي إسحاق بن ناصر (إبراهيم بوغرا تكين) ملك قراخان الغربية، في خطب مساجد سمرقند وأوزكنت وبخارى. وفي عام ١٠٦١م أرسل إبراهيم بوغرا تكين سفيراً إلى بغداد وأقام علاقات صداقة مع الخليفة الكامل بالله، ومنحه الخليفة لقب «ملك المشرق والصين».

وعند تولي ملوك قراخان العرش، كانوا يكتبون اسم الخليفة على عملاتهم الذهب والفضة. ومثال ذلك ما قام به سلطان قراخان الغربية أبو إسحاق بن ناصر الذي أمر بكتابة اسم القائم بالله، خليفة بغداد على العملة التي سكها.

ونصادف أسماء مثل «تابغاچ قراخان» و«تاوغاچ بوغراخان» بين الإليخانيين القراخانيين. وثمة آراء مختلفة حول كلمة «تاوغاچ» هذه. ولذلك علينا أن نقف عند أصل هذه الكلمة ومعناها.

قبل الميلاد بمئات السنين، كان الطوريون (وبينهم الهونيون) هم جيران الصين في الشمال، يُسمون «تاوغاچ». وهذه الكلمة تعني «التابع البائس».

ويمكن القول استناداً على كتابات الكتاب الصينيين الأقدمين، إن الطوريين كانوا يتوسعون منذ القرن الثامن عشر قبل الميلاد (أي قبل ٤٠٠٠ عام تقريباً)، وبعد ذلك، وقبل ٨٠٠ عام تقريباً (أي في عام ٧٧٠م) سيطروا على المناطق المجاورة لإقليم «شان - سي» الصيني. كما قال مؤرخ روما الشرقية الذي عاش في القرن السابع في سيموقاط: «إن تاوغاچ أساساً كانت مستعمرة للطوريين».

بعد أن استولى الهون في عهد أسرة «جو» على جزء من شمال الصين (يجاور شان - سي)، سُمي باسم «تاوغاچ» (بمعنى مستعمرة). الواقع أن دولة الهون والأراضي الواقعة شمال الصين ظلت على مدى التاريخ تابعة للسلطنة الترك. مثلاً أسرة «هان» ظلت طيلة ٧٠ عاماً تقريباً - من ٢٠٠ عام حتى عام ١٣٠ قبل الميلاد - تدفع الجزية السنوية إلى الهون. وفي عهد «الكوك تورك» وخاصة عصر «موقان خان» و«تاوار - خان» (فيما بين ٥٥٤ - ٥٨٧م) كانت أسرة «جي» و«جو» الشمالية يعطون الجزية للأترك.

وفي أحد كتابات الكوك تورك التي تعود إلى القرن الثامن (كتابة بيلكه سلطان) وُجد أن كلمة «تاوغاچ» تعني من الصين. أما مؤرخ بيزنطة الشرقية في «سيموقاط» يوضح أن الطوريين كانوا يعنون الصين باسم «تاوغاچ»، وهذا قبل كتابات الكوك تورك. وطلب الإيلخانيون القراخانيون الذين حكموا ما وراء النهر إضافة كلمة «بوغرا» في نهاية اسمائهم، لكن رفض السلاطين الكبار الذين عاشوا في كاشغر هذا الطلب، فطلبوا منح الملوك على الأقل لقب «تاوغاچ بوغراخان» [بمعنى

تابع القراخان]. واسم «تاوغاچ» هذا يوضح ماهية العلاقة التي بين الإيلخانيين والسلاطين الكبار. وفي عام ١٠٤٠م اضطر محمد بن ناصر الإيليكيخاني الغربي وإبراهيم بوغرا تكين ويوسف الإيليكيخاني الغربي إلى المجيء إلى كاشغر، واستخدامهم لقب «إيليكيخان» يعنى انهم بالفعل مرتبطون به.

ولأنهم مرتبطون بالسلاطين الكبار الذين في كاشغر تلقبوا بلقب «تاوغاچ قراخان» (تابع قراخان). وبعد موت إبراهيم بوغراتكين في عام ١٠٦٨م رفع سلاطين قراخان الغربية كلمة «تاوغاچ» من ألقابهم.

في عام ١٠٥٨م كان الإبن الصغير للسلطان يوسف قاديير، «طغرل قراخان» (واسمه الإسلامي محمود) سلطان القراخانيين الشرقيين، وظل أبو الحسن تاوغاچ بوغراخان وهو ابن سليمان أرسلان خان، طيلة ١٦ عاماً (١٠٥٨ - ١٠٧٤م) يقوم بمهمة النائب الرسمي للسلطان الكبير، وفي خلال هذه الفترة كان يستخدم لقب «تاوغاچ بوغراخان»، وبعد ذلك في عام ١٠٧٤م خلع سلطان قراخان الشرقية «طغرل تكين» (بن طغرل قراخان) من العرش وصار هو السلطان الأعظم، ومنذ ذلك التاريخ وحتى عام ١١٠٣م استخدم لقب هارون بوغراخان الثاني، ولكن بعد أن أصبح هو السلطان الأعظم رفع كلمة «تاوغاچ» التي في أول اللقب.

وكان السلاطين القراخانيون يسمون أبناءهم بإسم «تكين»، ويقول محمود الكاشغري: «إن كلمة (تكين) تعني (عبد)». ومن هنا تأتي كلمات مثل «كوموش تكين» و«آلب تكين» و«قوتلوق تكين». وبعد ذلك أطلقت هذه الكلمة على الصغار في أسرة السلطان. وفيما بعد بدأ استخدام هذه الكلمة مركبة مع كلمة أخرى أو أي اسم آخر مثل: «چغري تكين» و«كوچ تكين».

أما كيف وصلت هذه الكلمة إلى أبناء أفرسياب، فقد كان هؤلاء الأبناء يبدون احتراماً كبيراً لأجدادهم ولذلك كانوا يبدون تواضعاً زائداً عن الحد عندما يريدون أن يقدموا لأبائهم معلومة شفوية عن أي

موضوع، أو عند ارسالهم خطاباً، فاستخدموا إفادات مثل «وهكذا قال عبدكم، وهكذا فعل عبدكم». وهكذا التصقت هذه الكلمة باسمائهم، ولكن من أجل تمييزهم عن العبيد الآخرين بدأوا يضيفون بجانب هذه الكلمة كلمة أخرى.<sup>١٤٣</sup>

كان سلاطين قراخان يمنحون أبناءهم أسماء إسلامية مع أسمائهم الأويغورية القديمة. مثلاً كانت أسماء أبناء السلطان يوسف قاديير بهذا الشكل:

الاسم الأويغوري	الاسم الإسلامي
١ - ياغان تكين	سليمان
٢ - بوغرا تكين	محمد
٣ - طُغُرل قراخان	محمود

وكان أبناء سلاطين قراخان الذين يلقبون «تكين» يمكنهم تولي العرش مكان آبائهم أو يحكمون منطقة معروفة وعندئذ يلقبون بـ «إيلكخان» (بمعنى الوالي). وكانت الأميرات يلقبن بـ «آلتون تاريم». بعد أن قضى القراخانيون على السامانيين في عام ١٠٠٠م أزالوا نظام حكمهم المركزي الصارم، وبدأوا يولون «الإيلكخانيون» (الأمراء الولاية) المنتسبين للسلطان حكم الولايات الكبيرة. وقد كان السلطان الأعظم عند القراخانيين يقيم في كاشغر، وأحياناً ولفترة قصيرة في بالاساغون. أما «الإيلكخانيين» كانوا يقيمون في «بالاساغون» و«أوزكنت». وكنا قد أوضحنا من قبل أن القراخانيين بعد أن قضوا على الدولة السامانية، بدأوا حكمها بتقسيمها إلى منطقتين، إيلكخان (الإمارة) الشمالية في «بالاساغون»، وإيلكخان (الإمارة) الغربية في «أوزكنت».

وعندما سيطر هارون بوغراخان في عام ٩٩٢م على بخارى، عاصمة الدولة السامانية، عين ناصر بن السلطان علي أرسلان، ابنه في إيلكخان الغربية، وعين «تكين آخر» باسم «طوغان خان» في إيلخان الشمالية. وكان ناصر يحكم ما وراء النهر، أما «توغان خان» كان يحكم «يدي صو»

و«وادي إيلي» وماحوله.

كانت الأسرة الحاكمة القراخانية تري أراضي الدولة كلها ملكاً لها. في عام ١٠٤٢م قام سليمان خان تحت وطأة العصيان الداخلي لأسرة «ياباكو»، بتقسيم أراضي قاراخان الشرقية التابعة لحكم السلطان على أفراد أسرته. ووفقاً لهذا منح سليمان أرسلان كاشغر وبالا ساغون، ومنح تالاس وأصفهان إلى بوغراتكين (محمود بوغراخان) الشقيق الأصغر لسليمان، والمناطق الشرقية لقراخانية الشرقية مُنحت أيضاً «طغرل قراخان» (محمود) الأخ الأصغر لسليمان، ومُنح حكم وادي فرغانة لعم أسرة تكين وهو أحمد بن حسن (ابن هارون الأول).

وأحد الموضوعات التي يتعين تسجيلها على وجه الخصوص هو قيام «الإيلكخانات» (الأمراء) بنقش أسمائهم على العملة في المناطق التي يحكمونها وتحمل مسئولية المسائل الدبلوماسية والعسكرية، وكانوا هم أصحاب القرار في المسائل المهمة مثل شن حرب على منطقة مجاورة. علاوة على ذلك كان بعض «الإيلكخانات» (الولاة الأمراء) يتمتعون بحرية التصرف والاستقلال عن السلطان الأعظم الموجود في كاشغر.

كان نظام السلطنة في الدولة القراخانية الأويغورية (وهو استقلال السلطان الأعظم ونائب السلطان من الناحية الاقتصادية ومن ناحية تعيين «الإيلكخان») يفتح الطريق أمام من يريد الاستيلاء على العرش، وكان أيضاً سبباً في تقسيم دولة السلطنة القراخانية في عام ١٠٤٠م إلى دولتين، شرقية وغربية.

وكما أوضحنا فإن نظام الحكم القراخاني والهيكل الاقتصادي والسياسي للدولة سيطر عليه الموظفون الكبار الذين يعملون في المؤسسات المختلفة والمعينون من المركز.

كان يوجد في العاصمة كاشغر «الخاص حاجب» أي الوزراء وكانوا يلقبون بـ «يوجوروش»، (ويجب أن يكون الحاكم من القبيلة). ويتم اختيار الوزراء من بين الأشخاص ذوي الثقافة العالية والخبرة الكبيرة، (كأن



يكون صاحب علم في مجالات الفلك والأدب والطب). وكان يوسف خاص حاجب، مؤلف «قوتادغو بيليك» من بين وزراء القصر القراخاني الشرقي. وبالإضافة لذلك كان يتم تعيين الكثير جداً من الخبراء السياسيين في القصر، ويُسمى الواحد منهم «أوجه».

وهكذا يقول محمود الكاشغري في موضوع «الأوجه»: «يُطلق لقب (أوجه) على الأشخاص المؤهلين، الأذكياء، وهم يُختارون من بين عدة أشخاص. وهؤلاء يأتون في المقام بعد الذين يحملون لقب (تكين).» هناك رواية عن أصل هذه الكلمة. بينما كان الإسكندر المقدوني يتقدم نحو الصين، كان السلطان التركي يرغب أن يرسل جيشاً من الشباب لمحاربته. فقال الوزير للسلطان: «أنتم تريدون أن ترسلوا الشباب لمواجهة الإسكندر، علي الأقل ليكن علي رأسهم واحد ذو خبرة وحصافة.» فسأله السلطان قائلاً: «هل تريدني أن أرسل (أوجه)؟» وهنا استخدمت كلمة أوجه بمعنى «خبير وحصيف». فقال له الوزير (نعم). وهكذا أرسل السلطان علي رأس الجيش شخصاً خبيراً وحصيفاً. في ذلك المساء انتصر هؤلاء المحاربون الذين قاموا بالهجوم على طليعة وحدات جيش الإسكندر المقدوني<sup>١٤٤</sup>. هذه الرواية توضح أن أجدادنا لم ينحازوا إلى المتعلمين المشهورين فقط في حكم الدولة بل أيضاً إلى أصحاب العقل والخبرة من المواطنين.

وطالما تطرقنا لهذا الموضوع ينبغي أن نتحدث عن «بيلكه تونيقوق» المستشار الكبير، وأركان حرب ووزير الوزراء في عهد السلطان «بيلكه سلطان» و«إيلتريش قتلوق قباغان - خان» من سلاطين الأتراك الشرقيين. عندما أرسل «قباغان - خان» الجيش التركي الشرقي إلي وسط آسيا بقيادة «كول تكين» في عام ٧٠٩م وكان عمره ٢٤ عاماً، فأرسل معه «تونيقوق».

وقد ترك لنا المؤرخون معلومات قيمة عن جمال عواصم الحكام القراخانيين وحيويتها. فقد أسس السلطان القراخاني الغربي شمس الملوك في بخارى قلعة «شمس آباد»، وبداخلها الكثير من المتنزهات

عدا الحدائق والقصور. وكان سلاطين قراخان الغربية يأتون إلى «شمس  
آباد» لقضاء فترات من الراحة.

ومن ناحية أخرى كان علم الدولة القراخانية ورايات الحرب لونها  
أحمر. ويُطلق على سلاطين قراخان لقب «السلطان ذو الرايات التسع»،  
ورقم تسعة رقماً مقدساً منذ القدم. وحتى الآن يوجد مثل بين  
الأويغوريين يقول: «إذا كنا تسعة أفراد فلا لزوم لأي شيء.»

غربت الشمس وثار الغبار

وتقترب الأعلام التسعة الحمراء باستمرار<sup>١٤٥</sup>

عند خروج سلاطين قراخان للصيد أو للحرب كانت تقام لهم خيام  
خاصة. لتقي السلطان من الرياح والعاصفة والمطر والحر. وفي ميدان  
القتال، وقبل أن يبدأ السجال، وهم ينصبون الخيمة للسلطان يتم رفع  
العلم. وكانت الأعلام والرايات الحمراء المنصوبة في أطراف خيمة السلطان  
تمتزج في نعمة بارعة اثناء المعركة. وهنا يقول محمود الكاشغري في  
هذا الأمر:

نُصبت خيام السلطان المستديرة

ورُفعت الراية ودُقت الطبول

وحُصد جنود العدو كالعشب

وتم حصارهم فما من مهرب<sup>١٤٦</sup>

وكانت تقام مظلة من الحرير الأحمر لحماية سلطان قراخان والأمراء  
من الشمس. أما مظلة الوزراء الذين يحملون لقب «يوجوروش» فكانت  
تُصنع من الحرير الأسود.

## النظام العربي

منذ العصور القديمة وحتى يومنا هذا تعتمد جميع الدول في حكم المناطق على عنصرين أساسيين: الدستور والقوة العسكرية. مثلاً في الكتاب المسمى «قوتادغو بيليك» يقول يوسف خاص حاجب: إن الدولة تحتاج بصفة خاصة إلى الجيش المسلح بالإضافة إلى احتياجها لأفراد مؤهلين وذوي خبرة في الحكم ينفذون ويطبّقون دستور الدولة:

شئون الدولة تُنظم بالقانون العادل  
وضرب عنق العدو بالسيف

ومنذ القصور الموعلة في القدم وحتى يومنا هذا تعطي الدولة أهمية كبيرة لتشكيل قوات مسلحة لإخماد الاضطرابات في الداخل وخوض المعارك ضد الأعداء في الخارج، وتعزيز سلطات الدولة.

وبقدر ما فهمنا من الكتاب المسمى «قوتادغو بيليك» ليوسف خاص حاجب، فإن بناء القوة العسكرية في الدولة القراخانية كان متطوراً جداً. فقد تشكل الجيش القراخاني من الجيوش التي تحت إدارة السلاطين والوحدات الخاصة والفرق التي تحافظ على الحدود. وكانت الوحدات الخاصة تنقسم إلى اثنين: «تورغاق» و«ياتقاق». كان «تورغاق» لا يؤديون مهامهم نهراً، و«ياتقاق» لا يؤديون مهامهم ليلاً. وهكذا يقال في «قوتادغو بيليك»:

صباحاً ومساءً تجد من يحفر ومن يراقب  
الجميع يعمل بجد

في زمن الحرب كانت الوحدات الخاصة من الجيش والتي تُسمى «يورتوغ» تأخذ على عاتقها المهام التي تتطلب مسؤولية أكبر وأهم. ويقوم جنرالات السلطان بجمع الجيش وقائد الفيلق الخاص الذي سيخرج

إلى الحرب ويحمل معه علم الدولة والطررة ورموز الدولة مصنوعة من الذهب والفضة. ويكون المنظر مهيباً من بداية الحرب وحتى نهايتها. وهذا الفيلق الخاص يتشكل من ١٢ ألف فارس. وكانت الفرقة الخاصة لمحمد أرسلان خان وهو أحد السلاطين القراخانيين تتشكل من ١٢ ألف فرد.<sup>١٤٧</sup>

كان الجيش الخاص يتمركز في وقت الحرب حول خيمة السلطان، ومهمته عدا حماية السلطان، منع الجنود من الفرار، والحيولة دون تراجعهم بدون أن يصدر الأمر بذلك. وفي هذا الموضوع يقول يوسف خاص حاجب:

بينما ينظم القائد الحرس  
يقوم بالسيطرة على الصفوف الأمامية والخلفية  
وكبير ضباط الحرس ينظم الجيش  
والجندي يبقى في الصفوف الخلفية ولا يتقدم للأمام  
لا تختلط الرتب الكبيرة بالرتب الصغيرة  
ولا يقترب الذين في الصفوف الخارجية البعيدة  
أيها العظيم، فإن وضع رتبتك في الديار  
هي نفس وضعها في الحرب

وعدا الجيش الخاص كانت هناك أيضاً الجيوش التي تحت قيادة «الإيلكخانيين» (الأمراء الولاة) وإذا اقتضت الضرورة كانوا ينضمون إلى الحرب تحت قيادة السلاطين بناءً على أوامر السلاطين القراخانيين. وكانت الدولة القراخانية تبدي اهتماماً كبيراً بالجيش. وأشار في «قوتادغو بيليك» إلى أنه في وقت الحرب لا يتحقق النصر كثرة صفوف الجيش، ولكن النصر يتحقق بناءً على مقدرة القادة، ونوعية الأسلحة، وشجاعة الجنود، إذ يقول:

يظل الجيش بلا قائد مهما كثر عدد الجنود  
وجيش بلا قائد كجندي بلا قلب  
إذا نُشر الكثير من الجنود، يرتبك الجيش من الداخل  
وإن لم يكن هناك من يوجههم، يكون الوضع صعباً

من المحتمل أن يوسف خاص حاجب يشير هنا إلى أن إدارة جيش  
كثير العدد يمثل كلفة كبيرة على الشعب. ففي المجتمعات الإقطاعية  
في العصور الوسطى كلما صار الجيش كبير العدد، زاد مقدار البدل  
الذي يدفعه لتنشئة هذا الجيش. وما يود أن يقوله يوسف خاص  
حاجب هو أن الروح المعنوية والجسارة والعزم هي ما يحتاجه الجيش  
أساساً. ومهما يكن الأمر فإن الجيش يذهب إلى الحرب من أجل  
وطنه وحماية شعبه. كما إنه يؤكد في «قوتادغو بيليك» أن الجيش  
يذهب إلى الحرب لإحساسه بالمسئولية ولإظهار البطولة.

العروس تفرح في ليلة زفافها  
والشجاع يفخر في أيام الحرب

يقول يوسف خاص حاجب مشيراً إلى أن نتيجة الحرب كما أبدينا  
لا ترتبط بعدد أفراد الجيش:

جيش قليل العدد ومنظم أفضل من جيش كثير العدد  
فكم من جيوش كثيرة غلبت برغم كثرة عددها

تاريخ الحروب منذ العصور القديمة وحتى يومنا هذا مليء بأمثلة  
تدل على أن الجيوش قليلة العدد ذات الروح المعنوية العالية تهزم  
الجيوش الكبيرة التي تفوقها عدداً ولكن لا تتمتع بروح معنوية عالية.

إن أجدادنا الأبطال، العظماء، العلماء، تركوا لنا أمثلة الانتصارات التي حققوها بجيوشهم الصغيرة ضد جيوش تفوقهم في العدد. لهذا يكفي أن نلقي نظرة على تاريخ الأويغور.

أوضحنا من قبل، أنه في عام ١٠٤١م خلال عصيان شعب «ياباقو» الذي يعيش في المنطقة الواقعة شمال شرق قراخان (في ساحل إيريتش)، استطاع جيش قوامه ٤٠ ألف جندي بقيادة «أرسلان تكين» أن يهزم جيش العدو قوامه ٧٠٠ ألف جندي بقيادة «بودراج». ويقدم لنا محمود الكاشغري المعلومة التالية المتعلقة بتلك الحرب:

«بوكا ثعبان كبير، إنه في شكل أفعى ذات سبعة رؤوس. ومُنح هذا الاسم إلى أعيان شعب «ياباقو» وإلى الذين يتصفون بالشجاعة. ولذلك سُمي «بوكا بودراج» بهذا الاسم. وقد هزم الله تعالى «بوكا بودراج» وجيشه الذي يبلغ ٧٠٠ ألف جندي على يد جيش المسلمين في الحرب التي قادها «أرسلان تكين» بجيش قوامه ٤٠ ألف جندي.»

ويسجل الكاشغري أنه سأل من شاركوا في القتال قائلاً: «أنتم أيها الكفار لماذا انهزمتم وأنتم بهذا العدد الكبير؟» فكان الرد: «نحن أيضاً تحيرنا وسألنا هؤلاء الذين انهزموا، لماذا لم تنتصروا وأنتم بهذه القوة والعدد الكبير؟ فأجابوا: كان صوت الأبواق مستمراً طوال الحرب، وقد رأينا على ربوتنا جبلاً أخضر ذا باب مفتوح وممرات لا تُحصى. وتلقينا من هذا الباب وابلاً من النيران، ف شعرنا بالرعب، ولهذا انهزمنا.»<sup>١٤٨</sup>

وهذا النص يبين سبب هزيمة جيش «بوكا بودراج» المكون من ٧٠٠ ألف جندي.

(بين محمود الكاشغري السبب، وهو القوة المرعبة غير الطبيعية لجيش أرسلان)، وأن الجيش القراخاني الشجاع المختار بعناية والذي قوامه ٤٠ ألف جندي قد خرج من الحرب منتصراً، والنتيجة هي أن أرسلان تكين هزم جيشاً كبيراً يفوق عدد أفراد جيشه بعشرين ضعفاً. ووفقاً لما يقوله يوسف خاص حاجب، أن أسلحة القراخانيين كانت

عبارة عن السهم والقوس والسيف والحربة والخنجر والدرع والترس والدبوس. جزء من هذه الأسلحة كانت للهجوم وجزء للدفاع. وكانت الأسلحة في عهد القراخانيين على درجة عالية من الجودة.

واستناداً إلى بعض المعطيات التاريخية، يقال أن الدبوس كان سلاح الهجوم الأساسي للجيش القراخاني. وكان لدى القراخانيين نوعان من الدبوس. أحدهما مصنوع من الذهب والفضة ويظهر عظمة وشهرة السلطان في مواجهة العدو والصديق. أما الآخر كان دبوساً مصنوعاً من الحديد المصبوب ويستخدم في الحروب. وكان لدى السلطان القراخاني الغربي «حيدر خان» وحدة فرسان قوامها ٧٠٠ جندي تسير في مقدمة جيشه، وكانت مزودة بدبوس مصنوع من الذهب والفضة الخالصة. وأيضاً أرسل السلطان القراخاني شمس الملوك (١٠٧٢ - ١٠٩٢م) مع وفده الدبلوماسي الذي بعثه إلى «مَلِكْشاه» السلطان السلجوقي الكبير، دبوساً يزن ٥٠ باطمان [وحدة وزن تزن ٣ كيلو جرام]، وسيف يزن ١٠ باطمان. وعلاوة على ذلك قال «شمس الملوك» في الخطاب الذي أرسله إلى مَلِكْشاه ما يلي: «نحن لا نحارب بهذا الدبوس، بل نلعب به. فهذا الدبوس يحول الدرع الذي يصيبه إلى فتات. فهكذا هي أسلحة الدبوس التي نحارب بها». عندما قرأ «مَلِكْشاه» خطاب شمس الملوك امتطى جواده بسرعة وبعد أن أدار رأس الدبوس سبع مرات، أطلقه لمسافة ٨٠ قدم وبضربة سيف شق رقبة جمل إلى نصفين. وبعد ذلك ألقى بسهم وقوس أسفل أقدام السفير القراخاني وقال: «نحن في الحرب نضرب فقط بالسوط والسيف».

وعدا التدابير الدبلوماسية التي انتهجها القراخانيون في السياسة الداخلية والخارجية، كانت لديهم تكتيكاتهم العسكرية والاستراتيجية. وكانوا يؤدون التدريبات العسكرية المكثفة. مثلاً في عام ٩٩٢م وقبل الهجوم على السامانيين، وبينما يواصل هارون بوغراخان مباحثاته مع الفارس الساماني أبي علي سيمجوري، قام بجمع الجيش القراخاني الذي في «يدي صو» ودربه تدريباً عسكرياً. فالقراخانيون كانوا قبل الحرب

يؤدون تدريبات عسكرية باستمرار. لأن الدخول في حرب ضد أي دولة يعتمد على مدى قوة وقدرة الأطراف المشتركة في هذه الحرب. وفي هذا الموضوع يقول يوسف خاص حاجب:

إن القيادة أمر عظيم  
فبها توجيه الجند، وأيضاً هزيمة العدو

ولهذا السبب كان القراخانيون، قبل الدخول في أي حرب يتباحثون في هذا الأمر كثيراً ثم يؤدون التدريبات العسكرية. أما بعد اتخاذهم قرار الحرب فإنهم يقدرّون عدد الجنود التي ستشارك في الحرب ويحددون وقت الحرب ومن الذين سيقودون الجيوش ومكان الحرب وغيرها من الأمور.

وكان السلطان القراخاني يُشرك في تدريبات الحرب كل أبناءه وكبار الأمراء وكبار رؤساء القبائل مثل (قارلوق وتشيجيل وأوغراق وتوخسي... الخ). وكان هذا النوع من التدريبات العسكرية يسمى بالديموقراطية العسكرية. لأن الشعب التركي منذ عهد الهون كان يطبق ما يشبه هذه الديمقراطية العسكرية.

وكثيراً ما يتولى السلطان القيادة. وليس الأويغور فقط هم من كانوا يعقدون اجتماع مجلس عسكري قبل الحرب، بل فعل ذلك أيضاً الهون والأترك. مثلاً في عام ١٠٤٠م قبل الحرب التي جرت بين الأوغوز والغزنويين، عقد أمراء الأوغوز اجتماعاً في مرو، وتم في هذا الاجتماع مناقشة الخلافات العسكرية التي بدت بينهم وبين مسعود الغزنوي، وهو موضوع تطرقنا إليه من قبل. وكان القراخانيون أيضاً يتفقون في المجلس الذي يعقدوه قبل الحرب وقبل بداية السجال على تشكيل جيش خاص. وينظمون فعاليات التجسس ومكافحة التجسس، ويحددون مكان الحرب. وكما عرفنا فإنه ليس كافياً أن نعلم ماهية وضع العدو



فقط في كل الحروب، لكن المهم جداً أن نمنع تسرب الأسرار، لأن تسربها يحول دون تحقيق النصر.

كان القراخانيون قبل الحرب يقومون بتشكيل وحدات تجسس من الخيالة تُسمى «توتقاق»<sup>١٤٩</sup> و«يازك»<sup>١٥٠</sup> لجمع معلومات عن العدو بكافة الوسائل الممكنة، والعمل على التأكد من صحة هذه المعلومات التي تم الحصول عليها خلال الحرب. وهذا النوع من الوحدات تقوم بالهجوم على وحدات العدو الأمامية وأسر بعض جنوده وتجمع منهم المعلومات أثناء استجوابهم، وبهذا يعرفون ماالذي يقوم به العدو. وهذه الأبيات ليوستف خاص حاجب في هذا الموضوع:

يتم تشكيل فرق الطليعة المختارة  
ويكون هؤلاء بمثابة عين الجيش في الخارج وأذنه.  
وإذا التقت فرقة الطليعة بطليعة العدو  
لا بد أن تهجم وتضرب ثم تعود  
ولتعمل في البداية على أسر البعض  
للحصول على معلومات عن وضع العدو  
ويقول الكاتب نفسه ما يلي بشأن حفظ الأسرار:  
لنراقب العدو ونحرص على عدم الوقوع في الأسر  
فلا يجب أن يعلم العدو عددنا إن كان قليلاً أم كثيراً

ومن أهم مهام للقائد القراخاني أن يحيط بتفاصيل المنطقة التي سيشن فيها حربه. مثلاً في عام ١٠٠٦م أثناء الصدام الذي وقع بين القراخانيين والغزنويين، جمع القادة القراخانيون الجيش في «مضيق قطر» في جنوب بلخ، حيث رأى القائد أن هذا المكان يعد أنسب مكان ليكون ميداناً محتملاً للقتال. أما في الحرب التي وقعت بين الأوغوز والغزنويين في عام ١٠٤٠م فقد تم اختيار «دندانقان» التي تقع بين

مرو وسرخس.

ويتم اختيار الأماكن القريبة من مصادر المياه والمراعي كميدان للقتال. وهكذا يقول يوسف خاس حاجب في موضوع اختيار القائد لميدان الحرب.

لابد أن يكون ميدان القتال مناسباً  
فيتجمع الجند ولا يتباعدوا

وبعد أن يتم اختيار ميدان القتال تُنصب خيمة القائد في مكان واضح. هذه الخيمة تعد بمثابة مقر القيادة العليا. ويقام برج مراقبة على ربوة مرتفعة بجوار مقر القيادة. هذه الأنواع من أبراج المراقبة كانت تقوم بنقل المعلومات عن تحركات العدو عن طريق إعطاء الإشارة إلى بعضهما البعض بإشعال النيران أثناء الليل. فإذا تم ملاحظة أي تحركات عسكرية في مقر قيادة العدو ليلاً يتم على الفور إشعال النيران من الأبراج والتوجه إلى موقع الحرب بسرعة. كما كان يُطبق نظام كلمة السر في الليل في محيط مقر القيادة. وكانت كلمات السر تتكون بصفة عامة من عدة كلمات، كإسم سلاح أو اسم طائر. فإذا تقابلت مجموعتان في الظلام يتم التعارف على هوية الطرفين من خلال كلمة السر، وبناءً على هذا يتم اتخاذ التدابير اللازمة. وحتى إذا تقابل شخصان في الظلام يسأل أحدهما الآخر عن كلمة السر، والشخص الذي لا يعرف كلمة السر يتم مهاجمته<sup>١٥١</sup>.

كان أجدادنا يقومون بصفة عامة بالهجوم على العدو ليلاً، لأن التخطيط الجيد لهجوم ليلي يؤدي إلى نتائج جيدة جداً. مثلاً في عام ٩١ قبل الميلاد شن «هوليغو تانريقتوت الهون» (٨٥ - ٩٦ قبل الميلاد) حملة ليلية على جيش العدو وقوامه ٧٠ ألف جندي، وانتصر عليه، أما في عام ٧٦٥م فقد شن الجنرال الأويغوري «ألب قولوق ياغلاكار تكين»

حملة ليلية بقوة قوامها ١٠ ألف جندي على جيش التبيت وقوامه ١٠٠ ألف جندي في «نينغشيا» وهزمه.

كان القراخانيون يفضلون الهجوم على العدو ليلاً. ويقول يوسف خاص حاجب في موضوع الهجوم ليلاً:

القتال مضجر، فلتهجم ليلاً  
لا يتبين أحد في الليل إن كان الجند كثير أم قليل

بيد أنه يتضح مدى أهمية إشعال المشاعل في هجوم الليل للتمييز بين الجنود وجنود العدو. فإذا أصدر القائد أمراً بالهجوم صباحاً، يقوم بوضع الغزاة ذوي الخبرة في الصفوف الأمامية لرفع معنويات الجنود، ثم يضع قسم من الجنود للمراقبة. فضلاً عن اشتراك القائد مع الجنود في الحرب.

وكان السلاطين القراخانيون في حالة تعرضهم للهزيمة على يد أعدائهم، يقومون بعقد معاهدة صلح معهم. وإذا كان صلح مؤقت فإنهم يشيرون إلى ذلك في المعاهدة. والقائد الذي يتخذ التدابير الاستراتيجية، إذا أدرك أنه لن ينتصر على العدو برغم كل شيء، يجب أن يترك ميدان القتال حتى لا ينهزم. وفي هذا يقول يوسف خاص حاجب:

إذا كان جند العدو كثير وجندك أقل عدداً  
لاتدخل الحرب واسرع إلى عقد معاهدة معه  
وإذا لم يعد لديك حيلة، وأمامك الهزيمة لامفر  
ارسل سفيرا وسر في اجراءات المعاهدة  
احرص على أن يكون نص المعاهدة قصيراً ومرناً  
ولا تصغ لمن ينادي بشن الحرب

في الجيش القراخاني يوجد قادة يحملون لقب «سوباشي» بمعنى «وكيل السلطان»، وكان السلطان كثيراً ما يتولى القيادة بنفسها و يضع في قيادة الجند «الإليخانيين» (الأمرء الولاة) الذين هم بمثابة نوابه.

في عهد القراخانيين تم تشكيل جيش منظم ليحل محل الجيش القديم الذي كان يضم البدو الرحل. ويُسمى السجل الذي يحتوي على أسماء الجنود ومهامهم التي يضطلعون بها بـ «آي بيتيك»<sup>١٥٢</sup>، وكان في الجيش القراخاني جنود يحملون لقب «چاويش» بمعنى عريف. ومهمة هؤلاء تعزيز النظام في وقت الحرب، وفي وقت السلم يمنعون الجند من الإساءة إلى الشعب ويدعمون النظام في البلاد بصفة عامة.<sup>١٥٣</sup>

أما وظيفة الأمرء في الدولة القراخانية، فهم المسئولون عن تنفيذ جميع الاستراتيجيات والتكتيكات المتعلقة بالحرب، ومسئولون أيضاً عن تدريب الجنود.

## الفصل السادس عشر: الثقافة في زمن القراخانيين

### العلماء وبناء الحضارة

إن زمن القراخانيين الذى استمر ما يقرب من ٤٠٠ عام، هو فترة مهمة للغاية بالنسبة لشعوب آسيا الوسطى والمناطق المحيطة بها. فقد استمرت دولة القراخانيين الأويغورية، ودولة إديقوت الأويغورية، وسلطنة غزنة وإمبراطورية السلاجقة الكبار فى نفس الفترة وجود السامانيين (٨٧٠ - ١٠٠٠م)، ولعبت أدوارا مهمة فى تاريخ القرون الوسطى. ولاشك أن التقدم الثقافى فى تلك الفترة بلغ مكانة مهمة، وأضاف إضافات عظيمة للثقافة العالمية.

لقد نشأ فى عهد القراخانيين شخصيات كبيرة، خاصة رجال العلم والفلاسفة والمؤرخين والشعراء وعلماء اللغة.

فقد ولد الفيلسوف الكبير أبو نصر الفارابى (٨٧٣ - ٩٥٠م) المشهور بإسم أرسطو الشرق؛ فى مدينة فاراب الواقعة على ساحل سرداريا لعائلة من الأويغور القارلوق. واسمه بالكامل هو أبو نصر بن محمد بن طرخان بن اوزلوغ الفارابى. ولاتبع شهرته من مؤلفاته الكثيرة، بل تنبع من تفوقه فى الفكر الفلسفى ولكونه مفكرا عظيما.

لقد قرأ الفارابى أمهات كتب الفلاسفة اليونانيين، وكتب عليها شروحا. فقد كتب شروحا لكتاب «المنطق» و«علم المعادن» و«علم الطبيعة» و«ما وراء الطبيعة» وهى من مؤلفات الفيلسوف اليونانى القديم أرسطو (٣٨٤ - ٣٢٢ ق.م) فضلا عن ذلك فقد شرح الكتب المتعلقة بالعلوم الطبيعية والأخلاق وعلم النفس لفلاسفة يونانيين آخرين.

وبكتابه العلمية الكثيرة لعب دورا مهما في التعريف جيدا بكتب العلماء اليونانيين في أوروبا والشرق. وقد قام كاتبنا بتأليف كتب تتعلق بالفلسفة اليونانية مثل «الجمع بين رأي الحكيمين» و «الجدل بين أرسطو وجالينوس».

لقد كتب الفارابي أرسطو الشرق العديد من الرسائل التي تتناول جوانب مختلف العلوم التي في زمانه. وأكثر مؤلفات الفارابي في الموسيقى. وفي هذا الصدد يعد كتابه المسمى «القانون» كتاب أساس في تطور الموسيقى في الشرق. لقد كان الفارابي موسيقيا بارعا وشاعرا مهما إلى جانب كونه فيلسوفا كبيرا، كان يجيد عدة لغات. وتوفي الفارابي الذي في بغداد عام ٩٥٠م عن ٧٧ عاما. لعبت أفكار الفارابي وأراؤه دورا مهما في نضج ابن سينا الذي جاء بعده.

ولد علي بن سينا مؤلف أهم الكتب في الطب والفلسفة، في قرية «أفشانه» بالقرب من بخارى عام ٩٨٠م. إن ابن سينا الذي لفت الانتباه بذكائه منذ صغره؛ سنحت له فرصة البحث في الكتب العلمية والاستفادة من «مكتبة قصر» نوح بن منصور الحاكم الساماني وذلك عندما كان يعالجه. وبعد أن حاصر القراخانيون بخارى للمرة الثانية في عام ٩٩٠م، وزوال الدول السامانية، ارتحل ابن سينا من بخارى إلى خوارزم. وعندما حاصر محمود الغزنوي خوارزم عام ١٠١٧م هرب إلى خراسان. وبعد أن ظل مشردا لفترة عمل في الوزارة في قصر حاكم همدان. وعند وفاته عام ١٠٣٧م ترك كتاب الطب المشهور «القانون في الطب» و كتاب الشفاء «الذي يعد أهم كتاب في تاريخ فلسفة الشرق. هناك عالم كبير آخر في عهد القراخانيين هو أبو ریحان البيروني وهو معاصر لابن سينا، كما أنه مؤرخ وجغرافي وفيلسوف ( ٩٧٣ — ١٠٤٨م).

إن البيروني الذي ولد في قرية «بيرون» القريبة من قيات عاصمة خوارزم؛ اضطر لمغادرة بلده خوارزم في عام ٩٩٥م، وجاء إلى خراسان وبدأ العمل في قصر «قابوس بن وشمكير».

وألف كتابا عنوانه «الآثار الباقية» وهو فى السابعة والعشرين من عمره. ويتضمن هذا الكتاب معطيات متعلقة بموضوعات الجغرافيا وعلم الفلك وعلم الرياضيات والمعتقدات الدينية والعادات والتقاليد لشعوب دول مثل مصر واليهود وخورزم والصغد وروما والإغريق. ولقد تقلد البيرونى - الذى جاء إلى خوارزم عام ١٠١٠م - وظيفة فى قصر «مؤمن خوارزمشاه»، وتعرف فى تلك الأثناء على ابن سينا. وقد ألف البيرونى الذى تميز فى فروع العلم المختلفة، ما يزيد على ١٥٠ رسالة. وانتقل البيرونى إلى غزنة بعد فتح خوارزم على يد السلطان محمود وكانت وفاته فى غزنة عام ١٠٤٨م.

إن أبا القاسم الفردوسى ذا الأصل الطاجيكي الفارسى (٩٣٤ - ١٠٢٠م) هو بلا شك أحد أعظم الشعراء فى عهد القراخانيين. وقد أتم الفردوسى شاهنامته الشهيرة فى ثلاثين عاما. فقد جمع السلطان محمود الغزنوى فى قصره أشهر الكتاب وعلماء الفلك والفلاسفة والشعراء فى هذه الفترة، وبالطبع كان من بينهم الفردوسى وهو أشهرهم. وطلب السلطان محمود فى عهد والده «سبكتكين» من الفردوسى أن يكتب «الشاهنامه»، ووعدته بأن يمنحه دينارا عن كل بيت يكتبه. وهكذا بدأ الشاعر كتابة ملحمة الشهيرة وهو فى سن الخامسة والخمسين.

استغرقت الشاهنامه ٢٥ عاما وجاءت فى ١٢٠ ألف بيت. لكن لسبب ما لم يف السلطان محمود بوعدته، وقدم له فقط ٢٥ ألف قطعة فضية. تألم الفردوسى بشكل كبير من تصرف السلطان، وكتب شعرا يهجو فيه. وطبقا لرواية أن السلطان محمود عندما قرأ هذا الهجاء إهتز كما لو طار عقله وسقط عن عرشه، وأمر بالقبض على الفردوسى وإحضاره أمامه وإعدامه فى الحال. ولكن الشاعر فى تلك الأثناء كان قد وصل منذ فترة إلى زاوية بعيدة فى فارس ونجح فى الاختفاء. وفى يوم ما قرأ السلطان محمود «الشاهنامه» من البداية للنهاية، وعندما أدرك أنه ظلم الكاتب أرسل عدة جمال تحمل الذهب إلى مدينة طوس بفارس. وخرج بنفسه أيضا خلفها، ولكن عند وصوله إلى طوس قابل جنازة

الفردوسى.

وفى الملحمة تحوز الأجزاء التى تتحدث عن الحروب التى خاضها جدنا الأعظم «آلب أرتونغا» مع «سلالة أقاميد» أهمية خاصة. وكان الشاعر الأويغورى يوسف خاص حاجب يعرف «الشاهنامه» عن ظهر قلب منذ طفولته. كما أنه فى «قوتادغو بيليك» يقول ما يلى عن آلب أرتونغا:

إذا انتبهت، فهؤلاء الأمراء الترك  
هم الأحسن فى الدنيا

إن الشاهنامه لم تكن مهمته فقط بالعادات والتقاليد والدين والتاريخ القديم للطاجيك والفرس؛ بل تقدم كذلك معلومات مهمة تتعلق بالشعوب جيرانهم، كما أنها تحتل منزلة مهمة فيما يتعلق بما لا نعرفه عن تاريخ أجدادنا القديم. وإلى جانب السمات المشهورة للحياة الثقافية فى عهد القراخانيين أمثال الفارابى وابن سينا والبيرونى؛ فهناك إجماع على أن أبناءهم أمثال محمود الكاشغرى ويوسف خاص حاجب خرجوا من صميم الشعب الأويغورى. لأن ديوان لغات الترك وقوتادغو بيليك قد نقلت إلينا المنزلة الرفيعة التى وصلت إليها الثقافة فى عهد القراخانيين.

### النهضة الأدبية

إن ظهور أرباب علم ذوى تعليم متميز وبارعين بين شعوب آسيا الوسطى فى عهد القراخانيين؛ أمثال الفردوسى وابن سينا والبيرونى ومحمود الكاشغرى ويوسف خاص حاجب والفارابى، يشير إلى أن النهضة فى آسيا الوسطى بدأت قبل النهضة الأوربية بعدة قرون.

إن عصر النهضة الذى بدأ فى أوروبا من القرن ١٤م واستمر حتى القرن ١٦ هو حركة تحضر بدأت ضد نظام إقطاعى برجوازى. لقد



بدأت النهضة أولاً في إيطاليا ثم انتقلت بعد ذلك إلى الدول الأخرى. ولقد ازداد الإنتاج الصناعي في هذه الفترة، وتطورت العلاقات الرأسمالية داخل نواة النظام الإقطاعي. إن رغبات ومصالح البرجوازية على الساحة الثقافية؛ دفعت رجال العلم البرجوازيين باتجاه ثقافة روما واليونان. وهكذا خلق رجال العلم هؤلاء ثقافة برجوازية جديدة فتحت الطريق لتطور الرأسمالية المعتمدة على الإرث الكلاسيكي. وأطلق على الحركة الثقافية التي ظهرت في أوروبا ضد النظام الإقطاعي اسم «حركة نهضة الفن والأدب». وسمى مؤسسو هذا التيار أيضاً بـ«رجال الفلسفة الإنسانية». إن الفلاسفة المدافعين عن احترام الإنسان وآراءه ومفاهيمه ومشاكله؛ جعلوا الإنسان في بؤرة الاهتمام، وبمعنى آخر وضعوا تحرير الإنسان من الروابط الدينية واستبدال الكنيسة هدفاً لهم. وهكذا ظهر العديد من الأشخاص المناضلين ضد النظام الإقطاعي في إيطاليا أولاً. وعلى سبيل المثال فإن أحد هؤلاء وهو «دانتي» في كتابه المشهور «الكوميديا الإلهية» والمكون من ثلاثة أجزاء «الجنة، الصراط، الجحيم»، ينقد المسيحية بشكل قوي. وتحتل «الكوميديا الإلهية» مكانة مهمة في الأدب العالمي.

يجب الإشارة إلى أن الكاتب «بوكاتشيوس» والشاعر «بترارك» أيضاً من بين طلائع النهضة الأوروبية وبينما كان «بترارك» يكتب بشكل يعبر عن أفكاره عموماً؛ أبرز «بوكاتشيوس» زيف ونفاق رجال الدين والرهبان المسيحيين وذلك في كتابه «عشرة أيام».

ويمكن أن نعد «ليوناردو دافنشي» و«مايكل انجلو» و«رافاييل» و«كوبرنيك» و«برونو» و«جاليليو» من بين طلائع المؤمنين بالفلسفة الإنسانية لتيار النهضة الأوروبية.

ومرة أخرى إذا سلمنا بأن بداية حركة النهضة في أوروبا كانت في القرن ١٤م؛ فيجب أن نوضح أن حركة النهضة في آسيا الوسطى قد بدأت من قبل في القرن ١١م في عهد القراخانيين. وقد وجد في «قوتادغو بيليك» ليوسف خاص حاجب أجمل انعكاس لأفكار تلك الفترة.

## يوسف خاص حاجب

يُعد محمود الكاشغري مؤلف «ديوان لغات الترك» ويوسف خاص حاجب مؤلف «قوتادغو بيليك» اللذان نقلنا لنا ثقافة آسيا الوسطى في العصور الوسطى؛ من ألمع سمات التطور الثقافي في عهد القراخانيين. لقد اعتنق أو يغور بلاساغون الإسلام في عهد الحاكم القراخاني «بايتاش» (موسى). وبعد هذا الحدث بـ ٥٨ عاماً في عام ٩٦٠م ولد طفل يدعى يوسف في بلاساغون. واستعد والدا الطفل بكل إمكانياتهما لتربيته على أحسن ما يكون. وقد نذر يوسف نفسه لهذا الأمر منذ اللحظة التي استطاع فيها القراءة. فتعلم إلى جانب لغته الأصلية وهي الأويغورية تعلم أيضاً العربية والفارسية وقرأ الشاهنامه من الفارسية، وكتب الفارابي وابن سينا من اللغة العربية. وقام بالبحث في الكتب الأساسية للعقيدة الإسلامية، وكتب النصائح التي تركها الأجداد، والآراء المتعلقة بإدارة الدولة والقصص والأساطير، والأدب الشفهي. فضلاً عن ذلك قرأ الكتب المتعلقة بتفسير الأحلام والطب والفلك والرياضيات والعقيدة البوذية والفلسفة. كما تعلم أيضاً الرماية والقنص والصيد بالطير، وفضلاً عن هذا انشغل أيضاً بالألعاب كالشطرنج ولم يهملها. ولكن أكثر المجالات التي انكب عليها بكل اهتمام هي الأخلاق والفلسفة. لذلك فقد عكف على فهم ابن سينا وأفلاطون والفارابي. ولم يكتف يوسف بتعلم اللغة العربية والفارسية للبحث في ثقافة الشرق، بل اهتم أيضاً بالبحث في كلاسيكيات الثقافة الغربية، وأولى اهتماماً لثقافة العالم التركي.

بدا يوسف كتابة «قوتادغو بيليك» في بلاساغون وأقام في كاشغري العاصمة القراخانية عام ١٠٦٨م، حيث واصل عمله هناك وانتهى من كتابه هذا بعد عام أي في ١٠٦٩م. وقدمه في نفس العام إلى أبي الحسن «تاوغاج بوغراخان» نائب الحاكم القراخاني الشرقي. وبعد أن دقق بوغراخان في الكتاب أثنى على علم يوسف وثقافته الواسعة، ولقبه بلقب «خاص حاجب» واتخذه مستشاراً له. وكان عندئذ قد تجاوز الخمسين

من عمره. ولقد عبر عن شيخوخته شعرا في قوتادغو بيليك.

من تجاوز عمره الأربعين،  
يقف ويفارق الشباب طالبا العافية  
لقد لمس سن الخمسين يدي  
واستحالت خصلة شعري السوداء بيضاء  
الستين من العمر تنادينى، هيا تعال إلى  
فإذا سمح الأجل، سأبلغه أنا أيضا  
فإذا تجاوز عمر الرجل الستين  
لم يعد للعمر مذاق، ويستحيل الصيف شتاء  
جسمى كان كسهم  
وقلبي كان كقوس،  
ينبغي أن يكون القلب كسهم، والجسم مثل القوس.  
منهك القوى بلا قيد، ولا أستطيع أن أخطو  
أظلمت عيناى لا أستطيع أن أنظر بوضوح

لكن ما السبب فى تقديم يوسف خاص حاجب كتابه ل«تاوغاج  
بوغراخان» وليس إلى «طُغُرُل قراخان» (إسمه الإسلامى: محمود خان)  
الحاكم القراخانى الشرقى؟

عند مقتل ابراهيم حاكم القراخانيين الشرقيين عام ١٠٥٨م تولى  
مكانه صديقه سليمان أرسلان خان أو بإسم آخر «طُغُرُل قراخان».  
أما أبو الحسن ابن سليمان فقد عين نائبا ل«طُغُرُل قراخان» وهو  
مايزال فى السادسة عشرة من عمره باسم تاوغاج بوغراخان. وعلى هذا  
فإن السبب الوحيد الذى دفعه إلى تقديم كتابه إلى النائب بدلا من  
الحاكم يمكن أن يكون مرجعه أن بوغراخان أكثر ثقافة وأكثر قربا لأهل  
العلم، كما أنه شخصية تتذوق الفن والأدب. إذ كان «طُغُرُل قراخان» غير  
مقبل على الفن والعلم، وغير مهتم بما يتعلق بالثقافة.

وعند وفاة «طُغْرُل قراخان» عام ١٠٧٤م تولى ابنه «طُغْرُل تكين» مكانه مدة شهرين. أما أبو الحسن الذى تولى مكانه فقد اعتلى هذا المنصب العظيم لمدة ثلاثين عاما (١٠٧٤ — ١١٠٣م). ولم يكن يستخدم «لقب تاوغاج بوغراخان» بل يستخدم اسم السلطان هارون بوغرا الثانى. وفى تلك الأثناء ضعف نظر يوسف خاص حاجب، وفارق الحياة فى كاشغَر عام ١٠٨٠م فى عهد السلطان هارون بوغرا ودفن فى قرية «فايناب» بالقرب من كاشغَر.

تحتل العدالة والسعادة والحكمة والذكاء والصبر والعقل؛ والحكم المتعلقة بالمعرفة مكانا فى قوتادغو بيليك. ويعبر عنها بأشكال رمزية بصفة عامة.

لقد قال يوسف خاص حاجب فى «قوتادغو بيليك» بضرورة أن يكون على رأس الدولة أشخاص ذوو عقل وحكمة وأخلاق واستعداد، وأن يحكموا بالقوانين العادلة، لكن إلى جانب هذا ينبغى أيضا أن تمتك الدولة قوة السيف أى القوة العسكرية ويعبر عن هذا قائلا:

اسحب السيف واقطع عنق العدو  
وأقم حكمك على القانون

بالإضافة إلى ذلك يذكر أن الحاكم يجب أن يقدر أصحاب البراعة، ويرفع منزلتهم ويعرف قدرهم وقيمتهم، ولكن إذا حدث العكس وحكم الدولة أرباب السوء فسيؤدى هذا إلى انهيارها.

قدر كل ما هو حسن بما يكافئه  
وخذ أهل الفساد واخرجهم من بلدك

كما تقدم «قوتادغو بيليك» معلومات قيمة كثيرة فيما يتعلق بتاريخ

الأويغور والقرون الوسطى وأفكارهم فيما يتعلق ببنية الدولة ولغاتهم ومؤسسات الدولة والجيش، وقوانينهم وآرائهم الفلسفية. والتيارات السياسية فى فترة القراخانيين وما وصل إليه الأويغور فى الفلك ومجالات العلم الأخرى، ويعد الكتاب فى حد ذاته تراثا ثقافيا غاية فى الأهمية.

لقد قال بطليموس إن «الأرض مستديرة ولهذا تدور الشمس والنجوم وكل الكواكب السيارة حول الأرض»، أما يوسف خاص حاجب فمع أنه يشاركه فى نفس الرأى، لكن ما قاله أكثر تطورا من وجهة النظر التقليدية:

القمر هو الذى يدور أسفلها  
فإذا صار فى مواجهة الشمس يكون بدرا  
كما أن القمر عند ولادته يكون فى غاية الصغر  
ويكبر من يوم الى آخر ويبيض أعلاه  
والثالث هو المريخ ويولد الغضب  
وأينما يتجه يجف الاخضر  
والرابع الشمس تجلب النور  
ومن ينظر إليها تبهر عينه

وكان افلاطون الفيلسوف اليونانى القديم، يفكر بشكل عملى ولهذا كان ضد التيار الديمقراطى فى أثينا. وقد أثرت آراء أفلاطون الفلسفية فى الفلاسفة الذين جاءوا بعده. وفى مدح دكتاتورية الفلاسفة أفلاطون لما أسماه «صنف النبلاء» فى كتابه «المدينة الفاضلة» فإنه يقسمهم إلى ثلاث مجموعات، الفلاسفة والعسكر والعمال. وعنده أن الفلاسفة خلقوا لحكم الدولة، والعسكر لحماية الفلاسفة، والعمال لخدمة الفلاسفة والعسكر.

فى حين أن يوسف خاص حاجب، فى كتابه «قوتادغوبيليك» لم يكتف فقط بمعارضة آراء أفلاطون، إنما فى الوقت ذاته يطرح آراء ذات منطق وفطرة سليمة تناسب عصره. لأنه يبين فى كتابه أن من يتولون

إدارة الدولة ينبغي أن يكون عاقلا ومثقفا وصادقا على نفسه، وشجاعة، وأن ما يؤدي إلى انهيار الدولة هو أن يديرها رجال لاخلاق لهم، والجهلاء، والجبناء، والظالمون. كما سجل كاتبنا في كتابه هذا بشكل خاص لزوم أن يعمل القائمون على إدارة الدولة بالقانون لتحقيق العدالة وأن الجميع؛ السلطان والعبد أمام القانون سواء، فلهم ذات الحقوق. ولهذا السبب فإن آراء يوسف خاص حاجب في ذلك الوقت لم تكن متخلفة عن الأيديولوجيات المعاصرة، بل على العكس كانت في مستوى أرقى منها.

سواء العقل أو المعرفة  
سواء لين الطبع أو السخاء  
فبالعلم صار الأمراء سادة الناس  
وبالعقل نجاح الإدارة والأعمال  
فليكن الأمير عالما وعاقلا ويقظا  
لا يليق به البغي والعوز  
فإذا فطر الله أحدا سييء الطبع  
فهذه الحياة تجلب عليه الأذى  
فإذا ساء سلوك شعب أي أمير  
تنقلب سعادته غما وتصبح أموره  
لو أردت ان يمتد حكمك طويلا  
فضع القوانين الصحيحة واحفظ شعبك  
الشعب يزيد بالقانون وتنصلح الدنيا  
والظلم يأتي على الشعب بالنقصان وتفسد الدنيا  
ينبغي أن يكون صادق القول وحسن السلوك  
فيسعد في حياته ويثق بشعبه

**محمود الكاشفري**

هناك كتاب آخر مهم تم تأليفه في عهد القراخانيين هو «ديوان

لغات الترك» لمؤلفه الكاشغرى عالم اللغة الكبير.

إن ديوان لغات الترك كتاب خالد يتضمن معلومات متعلقة بمجالات مختلفة مثل الفلك والطب والفن ووصف السلالات البشرية والجغرافيا والتاريخ والأدب وعلم اللغة. وقد رسم محمود الكاشغرى فى كتابه خريطة عامة وقدم معلومات تتعلق بالمناطق التى رآها وتجول فيها شخصيا والتى عاشت فيها القبائل التركية. وتعد هذه الخريطة أهم وأقدم خريطة لآسيا حتى اليوم لأنها تعرض التقسيم الهندسى للأماكن التى استقرت فيها القبائل واللغات، وتعرض كذلك الأنهار والبحيرات والجبال. لقد كانت هناك عدة تصورات منذ القدم؛ فقد كان الهنود يعتقدون أن الأرض محدبة. والبعض منهم كان يكتب فى الكتب الدينية أن الأرض ترتكز على قرون ثور، وتحدث الزلازل عندما تنتقل من قرن ثور إلى آخر.

إن فيثاغورث الرياضى والفيلسوف اليونانى القديم هو أول شخص يطرح فكرة أن الأرض كروية، وبعده وقف أرسطو عند نفس الموضوع بالتفصيل.

مهما يكن فإنه بالرغم من ظهور الرأى القائل بأن الأرض كروية من قبل؛ فإن إيضاح محمود الكاشغرى — فى القرن ١١م بعد اعتناق الإسلام فى آسيا الوسطى — وخريطته بأن الأرض كروية كان من الخطوات الشجاعة للغاية فى هذه الفترة. وكان لعلماء الدين نفوذ قوى على مسئولى الدولة وقت قوة الإسلام فى عهد القراخانيين. لذلك كانت العلاقات بين مسئولى الدولة وعلماء الدين متوترة. مثال ذلك اتهام علماء الدين عام ١٠٩٥م لأحمد حاكم القراخانيين الغربيين بالخروج على الدين وحكموا بموته.

أما فى أوروبا فقد أثبت «كوبرنيك» عالم الفضاء الكبير فى القرن ١٦ (١٤٧٣ - ١٥٤٣م) أن الأرض كروية وأنها تدور حول الشمس وحول محورها.

إن الكاشغرى كان من أبناء الملوك الذين يرجع نسبهم إلى القبائل القراخانية المهمة. ويثبت كتابه «ديوان لغات الترك» ذلك. فقد كان حفيد السلطان «يوسف قدير ابن هارون بوغرا» حفيد «ستوق بوغراخان». ولقد أوضحنا سابقاً أن السلطان يوسف قدير له ثلاثة أبناء أسماؤهم كالتالى «بوغرا تكين» و«ياغان تكين» و«طغرل قراخان». وفى تلك الحالة يمكن أن نقدم نسب محمود الكاشغرى على النحو التالى: محمود الكاشغرى بن حسين بن ياغان تكين بن السلطان يوسف قدير بن السلطان هارون بوغرا بن سليمان أرسلان خان بن ستوق بوغراخان.

ولد محمود الكاشغرى عام ١٠٣٠م فى قرية «أزاق» بمدينة «أوبال» التابعة لكاشغرة العاصمة القراخانية. وتوفى عام ١٠٩٠م عن عمر يجاوز الستين عاماً ودفن فى «أوبال».

ويذكر الكاشغرى فى ديوانه، وهو بصدد الحديث عن مدينة يسمى «مانيكنت» على طريق كاشغرة - أوبال، وهو اسم أطلق على تلك المدينة بعد اعتناق الأويغور المانوية، وذلك إن بقايا تلك المدينة فى «طوقوزاق» حالياً، ومن المحتمل أن يكون اسم قرية (مانجن) حالياً هو تحريف لاسم «مانيكنت».

لقد أكمل محمود الكاشغرى تعليمه فى «المدرسة الساجية» وهى من أشهر مدارس تلك الفترة فى آسيا الوسطى. وكان يدرس فيها أشهر المدرسين الأويغور آنذاك. على سبيل المثال كان من هؤلاء المدرسين الإمام زاهد حسين خلف أوغلو والد عبد الجبار الكاشغرى المؤرخ الأويغورى الذى عاش فى القرن ١١م. ودرس محمود الكاشغرى اللغة العربية والفارسية، إلى جانب دراسة الفلك والجغرافيا والتاريخ والطب والمنطق والصرف والنحو وسائر فروع العلم الأخرى.

إضطر محمود الكاشغرى للهروب من كاشغرة من جراء التأثير المباشر الذى خلفته الأحداث الدموية التى وقعت فى عام ١٠٥٧م؛ ولجأ إلى بغداد حيث أقام هناك. وفى عام ١٠٥٦م قام محمد بوغراخان (الجد الأكبر لمحمود الكاشغرى) بقتل شقيقه الأكبر سليمان أرسلان حاكم



القراخانيين الشرقيين، وفي غضون ذلك وبعد مرور ١٥ شهرا قرر محمد بوغراخان ترك العرش لابنه الصغير حسين (والد الكاشغري) ولكن في النهاية دست زوجة والد حسين آنذاك، السم لكل من محمد بوغراخان وحسين وأبناء الملك الآخرين وتولى ابنها ابراهيم العرش، كما ذكرنا تلك الوقائع من قبل. وهكذا وبسبب هذه الحوادث المفزعة، هرب الكاشغري إلى ما وراء النهر أولا ثم إلى أراضي القراخانيين الغربيين، ومن هناك توجه إلى بغداد.

وحتى الأحداث الدموية التي وقعت عام ١٠٥٧م لم يستطع الكاشغري التوجه إلى القرى والمدن التي عاشت فيها القبائل التركية لكي يكتب كتابه المسمى «ديوان لغات الترك» ولم يستطع كذلك جمع المادة التاريخية الكافية. وكان في تلك الأثناء في الثلاثين من عمره على أقصى تقدير. وإذا وضعنا في الاعتبار أنه ولد عام ١٠٣٠م فينبغي أن يكون عمره عندما شرع في جمع مادته في ١٠٤٥م، خمسة عشر عاما. وبالقطع لا يمكن تصور أن شابا في الخامسة عشر من عمره يجمع المادة اللازمة لكتاب كهذا. في الحقيقة ان الفترة التي أتم فيها دراسته في المدرسة في كاشغر تصادف عام ١٠٥٥م تقريبا ويجب أن يكون في تلك الفترة قد بلغ سن ال ٢٥ — ٢٦. لذلك يجب أن يكون قد جمع الأدوات اللازمة لكتابه بعد هروبه إلى بغداد (تقريبا بين أعوام ١٠٥٨ — ١٠٧١م أي خلال ١٤ عام).

طبقا لبعض المعطيات التاريخية يجب القبول بتزامن توجه محمود الكاشغري إلى بغداد مع «تركان خاتون» العروس المرسلة من كاشغر إلى السلطان السلجوقي «ملكشاه». لأن «تركان خاتون» المرسلة كزوجة لملكشاه ليست أميرة قراخانية شرقية بل هي ابنة ابراهيم بوغرا تكين حاكم القراخانيين الغربيين وأخت شمس الملوك. لذلك فقد توجهت من سمرقند وليس من كاشغر. والخلاصة أن الكاشغري الذي خرج مبتعدا عن الأحداث الدموية التي وقعت عام ١٠٥٧م في كاشغر، توجه أولا إلى آسيا الوسطى، ومن هناك لجأ إلى بغداد.

إن تقديم الكاشغرى كتابه «ديوان لغات الترك» إلى الخليفة المقتدر في بغداد يظهر عدم رواج العلم عند السلاجقة بالإضافة إلى أنه علامة على تذوق العرب للغة التركية. وكما أوضحنا من قبل فقد دخل السلطان السلجوقى «طغرل بك» بغداد عام ١٠٥٧م وجعل الخلافة العباسية تحت حمايته، واعتبارا من هذا التاريخ أصبح الخليفة بمثابة المؤسسة التي تمثل الدين فقط. لذلك اضطر العرب لتعلم اللغة التركية. ولم يكن «ديوان لغات الترك» موجه لتعليم اللغة التركية للعرب وحدهم، لكنه فى نفس الوقت موسوعة الشعب التركى فى موضوعات السلالات البشرية والتاريخ والجغرافيا والمنطق والفلك والفن والطب وفنون الحرب، كما أنه مصدر معلومات فى الأدب التركى وفى المجالات الأخرى.

### ويقول الكاشغرى عن سبب تدوين كتابه

لما رأيت أن الله تعالى قد أطلع شمس الدولة فى برج الأتراك، وأدار بملكهم دوائر الأفلاك، فسماهم الترك، وولاهم الملك، وجعلهم ملوك العصر، ووضع فى يدهم أزمة أهل الدهر، فقيضهم على الخلق، وأيدهم على الحق، وأعز من انتمى إليهم، وسعى بين أيديهم، ونال منهم بُلغَةً فى المراد، وسلم من معرة أوباش العباد، حق لكل ذى لب التنسك بحالهم توقيا عن وقع نبالهم، ولا ذريعة لديهم أحسن من التراطن بلسانهم»<sup>١٥٤</sup>

وتشير هذه الكلمات إلى الدول التركية التى أسستها الشعوب التركية فى القرن الحادى عشر: «دولة قراخان الأويغورية»، و«سلطنة غزنة» التى أسست من جانب «القارلوق - الأوغوز»، و«الإمبراطورية السلجوقية الكبيرة» التى أسسها الأوغوز - السلاجقة. وكما أشير من قبل فقد هزم سلطان السلاجقة العظيم الإمبراطورية البيزنطية فى «ملاذكرد» عام ١٠٧١م، كما انتزع «ملكشاه» الأناضول من يد البيزنطيين عام ١٠٧٥م.

فى عام ١٠٧٥م الذى قدم فيه محمود الكاشغرى كتابه إلى الخليفة

المقتدر، وبتعبير آخر فى القرن الحادى عشر، كان الأتراك أى الأويغور والأوغوز يحكمون فى الهند وأوروبا الشرقية والشرق الأدنى وآسيا الوسطى.

عاد الكاشغرى عام ١٠٨٠م من بغداد إلى كاشغرى، وتوفى هناك فى عام ١٠٩٠م بعد أن تجاوز عمره الستين وتم دفنه فى مدينة «أوبال» القريبة منها. وقد تم إصلاح وتجديد قبره الموجود فى «أوبال» والمسمى «قبر الأستاذ المبارك» فى عام ١٩٨٤م. واعتباراً من هذا التاريخ صار قبره مزاراً لأهل البلد والأغراب، ويقرأون الفاتحة على روحه.

لقد أوضحنا فيما سبق ان حركة النهضة التى ظهرت فى آسيا الوسطى فى عهد القراخانيين، بدأت قبل نهضة الغرب بعدة قرون. إذا والحالة هذه، فلم تخلفت ثقافة آسيا الوسطى عن ثقافة الغرب فيما بعد؟ فى حين كانت الثقافة الغربية فى عهد القراخانيين متأخرة عن ثقافة آسيا. ولقد عاشت دول آسيا الوسطى والهند والصين نظاماً ثقافياً متطوراً إلى حد ما، وهو النظام الذى كان موجوداً فى آسيا الصغرى ومصر فى أفريقيا. أما فيما بعد وبخاصة اعتباراً من القرن ١٦م دخلت الثقافة الغربية فى فترة تطور لافت للانتباه، أما آسيا الوسطى فقد تأخرت عن الغرب فى مجال الفن والثقافة. وكان لذلك عدة أسباب:

(١) - بالرغم من البداية القوية جداً للنهضة فى آسيا الوسطى إلا أنه كان هناك القليل من الأشخاص أمثال يوسف خاص حاجب مقارنة بأوروبا. لذلك لم يكن ممكناً توفير المقومات الضرورية لتنشئة أناس أكفاء، وكذلك لم ينضج أهل الفن والأدب ورجال العلم والموسوعيون الذين سيقضون على الخرافات التى تمثل ألد أعداء روح الإنسان وفكره. وفى الوقت الذى كان فيه رجال العلم فى أوروبا أمثال «برونو وكوبرنيك وليوناردو دافنشى ومايكل انجلو وبوجاتشو ودانتى» يعملون على تخليص الناس من أسر القيود الدينية؛ ظهرت فى آسيا الوسطى اعتباراً من القراخانيين خرافات كثيرة تخالف جوهر الإسلام، وأصبحت هذه الخرافات مرشداً لهم، وبسبب رجال الدين الذين يوجهون الناس إلى هذا الاتجاه

لم يسفر تيار النهضة على شئى وبات عقيما. وتدل على هذا الخلافات التى بين رجال الدين والمسئولين القراخانيين.

(٢) - فى بداية القرن الثانى عشر (فى عام ١١٢٠م) احتل جنكيز خان آسيا الوسطى، ونهب المنطقة كلها. وفرض المغول ضرائب ثقيلة على الأهالى وجففوا شرايين حياة الناس. ودمروا مراكز الثقافة مثل بخارى وسمرقند وأوركنج. وقد أعمل المغول السيف فى الجميع باستثناء الفنانيين فقط. وأغرقت «أوركنج» عاصمة خوارزم. وهكذا تحولت قرى آسيا الوسطى ومدنها المتقدمة إلى خرابات وصحارى. ورزحت آسيا الوسطى تحت وطأة سيطرة المغول. ولهذا لا يمكن الحديث عن التطور الثقافى فى المنطقة آنذاك. وقد تم تجفيف كل المصادر للقضاء بوحشية على كل الطاقات الثقافية.

(٣) - فقد طريق الحرير التاريخى أهميته اعتبارا من القرن الخامس عشر. وهو ممر رئيسى لعب دورا مهما جدا فى تقوية حيوية الاقتصاد فى آسيا الوسطى عبر مئات السنين، كما لعب ذات الدور فى تطور الروابط الثقافية والاقتصادية بين الشرق والغرب -

إن قيام السلطان العثمانى محمد الثانى، بفتح القسطنطينية عاصمة الإمبراطورية الرومانية الشرقية (بيزنطة) وسعيه للقضاء على البيزنطيين إنما كان لدعم قوته. وبحلول القرن الخامس عشر كان الأتراك قد استقروا فى آسيا الوسطى وبين النهرين. وكانت كل الطرق البرية المتجهة من آسيا الوسطى وآسيا الصغرى والعراق وفارس إلى أوروبا؛ تحت سيطرتهم. لذلك أصبح تجار أوروبا محرومين من إمكانية الوصول بالطريق البرى من الغرب للشرق (إلى الصين والهند). ومما كانوا يحصلون عليه أرباحا من جراء تجارتهم مع الشرق. وكان من الطبيعى أن يدفع هذا الوضع تجار أوروبا إلى البحث عن طريق بحرى يؤدى إلى الهند.

كان القبطان «كريسوفر كولومبوس» الإيطالى هو أول مكتشف للطريق البحرى المتجه إلى الهند. ولهذه الغاية توجه «كولومبوس» من ساحل أوروبا عام ١٤٩٢م؛ وصل إلى سواحل «هايتى» و«كوبا» بعد عدة أشهر.

وظن أن تلك الأماكن غير بعيدة عن الهند. واكتشف «كولومبوس» قارة أمريكا بعدما جال في البحر ثلاث مرات. لكنه ظل يظن حتى وفاته أن القارة التي اكتشفها هي الهند. وفيما بعد أطلق الأوربيون على هذه القارة اسم أمريكا إهداء لإسم قبطان يدعى «أمريكو فيسبوتشى». وبعد «كولومبو» نجح البحار «ماجلان» وآخرون في القيام بجولة حول العالم. لكن بعد نجاح هؤلاء لم تعد التجارة بين الشرق والغرب عن طريق آسيا الوسطى بل بطريق البحر، وهكذا تأثرت بشدة العلاقات الاقتصادية والثقافية بين الغرب وآسيا الوسطى ووعانت من مثالب حقيقة.

### أسباب النهضة الثقافية في عهد القراخانيين

كانت مقومات التقدم الثقافى إلى جانب التقدم الاقتصادى متوفرة فى عهد القراخانيين. ويمكن توضيح أسباب ذلك على النحو التالى:

(أ) لقد لعبت الدولة القراخانية من القرن العاشر حتى القرن الثالث عشر دورا مهما فى ارتقاء المستوى الثقافى والاقتصادى سواء فى آسيا الوسطى أو فى أقاليمها (وادي تاريم — ما وراء النهر) وفى «يدى صو». وفى تلك الفترة كانت مدن كبيرة مثل كاشغَر وخوتن وبلاساغون وتاشكند وبُخارى وسَمَرْقَند وأزكنج وترمذ ومرو وخراسان تعد أماكن إقامة جميلة. ولم يكتف القراخانيون بالإقامة فقط فى هذه المدن بل عملوا على توسعتها فى نفس الوقت. وكانت كاشغَر عاصمة القراخانيين فى تلك الفترة تعد فى طليعة التطور الثقافى فى كل آسيا الوسطى. ولقد اكتسب رجال العلم والمهندسون المعماريون فى كاشغَر وكذا قوافلها شهرة فى كل العالم.

وفى عهد القراخانيين كانت هناك شبكة مياه تحت الأرض فى مدينة «أوترار»، وفحص «أطلال اوترار» يثبت ذلك. وبظهور شبكة المياه تحت الأرض فى عهد القراخانيين، نستطيع القول أنها كانت تؤمن بتلك القنوات وصول المياه إلى المنازل وتغطية احتياجاتها منها. فأتسعت مساحة المدن نظرا لتقدم الفن والصناعة وزيادة سكانها.

وكان تعداد سكان سَمَرْقَنْدُ في تلك الفترة يبلغ ٤٠٠ ألف نسمة. واقام القراخانيون العديد من القلاع الداخلية والمباني الكبيرة. إن المناطق التي عاش الفنانون كانت داخل المدن وكانت سَمَرْقَنْدُ من أكبر مدن آسيا الوسطى. لقد تم تجديد أسوار بُخارى في عهد محمد أرسلان خان حاكم القراخانيين الغربيين، وتم توسيع ساحة المدينة وبناء العديد من المباني الكبيرة (قلاع، مدارس). إن (المنارة الكبيرة ١٠٠) التي أقامها محمد أرسلان خان في بُخارى مازالت موجودة إلى الآن. وطبقا لمؤرخي العهد القراخاني، فإن تلك المنارة كانت أكبر بناء في تلك الفترة. كما ارتقى الفن والصناعة في تلك الفترة بشكل كبير.

( ب ) لقد تطورت الصناعات اليدوية في عهد القراخانيين. وظهرت صناعة الزجاج الملون لأول مرة في تلك الفترة. كما تطورت صناعة الأواني المزينة ومصنوعات النحاس والبرونز والخزف، كذلك الفنون مثل رسم صور الحيوانات والزهور على الورق وتزيين الأسقف برسوم الحيوانات. كما شيدت في نفس الفترة القصور والمساجد والقباب والمدارس من الطوب اللبن والقرميد. وانتشرت المنسوجات الحريرية والقطيفة في وادي تاريم (في خوتن وكاشغَر) والمنسوجات الحريرية والقطنية والكتان في سَمَرْقَنْدُ وبُخارى.

(ج) وتقدم بشكل كبير استخراج المعادن في عهد القراخانيين. وبالإنصهار يتحول الحديد المستخرج هناك إلى معدن، وتُصنع منه الأسلحة والأدوات الزراعية والآلات اليدوية. وكان في فَرغانة الكثير من الورش التي تصهر الحديد وتصنع منه الآلات اليدوية. كما كان لدى القراخانيين بخلاف طبقات المعادن مناطق لاستخراج النفط.

إن آبار النفط التي ظهرت في آسيا الوسطى كانت تعرف منذ زمن الخلفاء العباسيين (٧٥٠ - ٨٧٠م). وبدأت الاستفادة من النفط في عهد القراخانيين في فَرغانة. وكان القراخانيون يستفيدون من النفط في الحروب. فقد كانوا يطلقون على المدينة التي يحاصرونها كرات الطين المملوءة بالنفط بواسطة المنجنيق الخاص بذلك. وفيما بعد انتشرت

بين الرُّحْل في آسيا الوسطى تقنية السيطرة على المدن المحاصرة بإلقاء القنابل الحارقة. ومثال ذلك ان القبجاق استفادوا من تلك التقنية عند حصارهم للمدن الروسية في القرن الثاني عشر، حيث يرد ذكر ذلك في «أسطورة إيغور آلاي»<sup>١٥٦</sup>.

لقد ظهرت مناجم الفضة في شمال غرب تاشكند (تعرف في التاريخ باسم إيلاق، وباسم اهنكران الآن). واستخدمت العملات المعدنية المسكوكة من الفضة المستخرجة من مناجم «اهنكران» على نطاق واسع في التجارة مع أوروبا الشرقية. فقد كان هناك احتياج زائد لهذه النقود في أوروبا الشرقية آنذاك، إذ كانوا لا يسكون العملات الفضية. لذلك كان الأوروبيون الشرقيون يأخذون الدراهم الفضية من القراخانيين. ولأن القراخانيين كانوا مغرمين بالمصنوعات الذهبية (الأحزمة الذهبية، التيجان الذهبية، العصي الذهبية) ويحبون سك العملات الذهبية؛ لذا كانوا يقومون بتشغيل معادن الذهب. يدل على ذلك قول الكاشغري «إن برخان عبارة عن تل قريب من كاشغَر في هذا التل توجد عروق الذهب»<sup>١٥٧</sup>.

إن تلك المعلومات التي قدمناها تظهر تطور تشغيل المعادن والمناجم بشكل كبير في عهد القراخانيين.

(د) إن المسار الرئيس لطريق الحرير الدولي كان يمر من أراضي القراخانيين. وفي عهدهم كانت القوافل وهيئات السفارة التي تتوجه من الشرق للغرب ومن الغرب للشرق تسلك طريق خوتن وكاشغَر وبلاساغون وسَمَرْقند وبُخارى وترمذ. وكان طريق القوافل الدولي منذ القدم تحت سيطرة الهون والأترك وأويغور أورخون. وفيما بعد لعب القراخانيون هذا الدور. وكان للقراخانيين علاقات تجارية في الشرق مع الصين ودولة كيدان، ومع الهند وأفغانستان وفارس في الجنوب الغربي (من فوق أراضي الغزنويين والسلاجقة)،

ومع غرب آسيا، وشمال إفريقيا ومع جنوب شرق أوروبا. كان

القراخانيون يحملون أحمالهم على ظهور الجياد والجمال. وكانوا يبيعون للصين اللؤلؤ والماس والعاج والدواء والبضائع الأخرى التي يشترونها من شمال إفريقيا والهند. وكانت القوافل الكبيرة تتكون من خمسمائة فرد في المتوسط. ويمكنهم القيام بهذا النوع من القوافل مرة أو مرتين في العام.

(هـ) إن العلاقات التجارية للقراخانيين مع العديد من الدول لم تهيئ الأرضية لتطور الصناعة لديهم فحسب، بل سهلت العلاقات الثقافية في الوقت نفسه. ولمواجهة احتياجات السوق الدولية تم إنشاء مصانع نسيج الكتان والحرير والقطن في المدن الكبيرة مثل سمرقند وبخارى وكاشغر وخوتن. فضلا عن ذلك كان يتم إنتاج الورق في خوتن وسمرقند، ويتم تصدير الورق الذي يتم إنتاجه في سمرقند إلى الخلافة العربية والإمبراطورية الرومانية الشرقية ودول أوروبا الأخرى. وأقيمت علاقات تجارية كثيفة مع إمارة إديقوت الأويغورية و«الطانغوت» ودولة «كيدان» والصين من دول الشرق. واستمرت العلاقات التجارية بين الصين والقراخانيين من عام ٩٦٠م حتى عام ١٢٧٩م. ويمكن أن تنقسم العلاقات التجارية بين امبراطورية «سونغ» والقراخانيين إلى ثلاث مراحل:

الأولى: وهي ستة عشر عاما في الفترة من ١٠٠٩ — ١٠٢٥م. وكان يحكم القراخانيين في تلك الفترة كل من السلطان أحمد طوغان ومنصور أرسلان خان والسلطان أحمد طوغان الثاني. وكانت أول قافلة تجارية قراخانية في عام ١٠٠٩م إلى «كاي — فنغ» عاصمة «سونغ». من المحتمل أن السلطان يوسف قدير الوالي العام لخوتن قد أرسل تلك القافلة باسم الحاكم العظيم السلطان أحمد طوغان. أما القافلة التجارية الثانية التي أرسلها منصور أرسلان خان لعاصمة «سونغ» فكانت عام ١٠٢٤م.

الفترة الثانية وتمتد خمسة وثلاثين عاما تشمل الأعوام من ١٠٦٣ — ١٠٩٧م وخلال تلك الفترة تردد التجار القراخانيون على عاصمة «سونغ» أربعاً وعشرين مرة ذهاباً وإياباً. وكان حكام القراخانيين في تلك الفترة



هم «طُغْرُل خان» و «طُغْرُل تكين» والسلطان «هارون بوغرا الثانى».

فى عام ١٠٩٧م ساق السلطان هارون بوغرا الجيوش لإخراج «الطانغوت» من «تون — هوانغ» و «تشانغ — يا وتشو — تشو»، إذ كانوا يعرقلون التجارة بين السونغ والقراخانيين.

استمرت الفترة الثالثة بين أعوام ١١٠٧ — ١١٢٤م لمدة سبعة عشر عاما. فى تلك الفترة وصلت القوافل التجارية القراخانية التى أرسلها أحمد أرسلان خان إلى إمبراطورية سونغ أربع مرات. وكانوا يبيعون للصين النشادر والماس والسجاد والأطلس واليشم<sup>١٥٨</sup> والإبل والجياد. وبالرغم من تردد القوافل التجارية القراخانية على إمبراطورية سونغ حوالى ثلاثين مرة؛ إلا أن «أهل سونغ» لم يرسلوا قافلة واحدة إلى القراخانيين بسبب مخاطر الطريق.

( ف ) كان عهد القراخانيين من بدايته إلى نهايته عهد استقرار وطمأنينة. نعم فيه أهل آسيا الوسطى بالرفاهية والسعادة على مدى أربعة قرون هي مدة الدولة القراخانية. ولم تبدُ أبداً أى سلبية فى الحياة الاقتصادية والثقافية فى آسيا الوسطى أثناء انشغال القراخانيين بالقضاء على السامانيين فيما بين أعوام ٩٩٢ — ١٠٠٠م. لقد نظم القراخانيون حملات على خراسان ضد الغزنويين بين أعوام ١٠٠٦ — ١٠٠٨ وفى عام ١٠١٩. فلم تقع حروب كبيرة أخرى فى عهد القراخانيين سوى تمرد «علي تكين» و «ياباقول» بسبب اختلافات محدودة فى الرأى. لذلك يعد العهد القراخانى عهد استقرار وتطور ثقافى.

( ج ) كان معظم الحكام القراخانيين رعاة للتطور الثقافى. إذ دعموا المثقفين والفنانين والموهوبين، وكانوا يستفيدون منهم فى خدمة الدولة. وكان من النادر أن يأخذوا أفراد من العائلات النبيلة فى زمن الإقطاعى لخدمة الدولة أو أن يحموهم. لذلك كان سلاطين الأوغوز — الأويغور عندما يقيمون الناس؛ يولونهم وظائف مهمة فى الدولة دون النظر إن كانوا ينتسبون إلى شعب غريب أم لا، أو من عائلة كريمة أم لا. وإذا كان ينبغى تقديم عدة أمثلة على ذلك نقول:

لقد اكتشف «أبو الحسن تافجاج» نائب حاكم القراخانيين الشرقيين في عام ١٠٦٩ أو ١٠٧٠م موهبة يوسف خاص حاجب وعلمه فبواه منصباً مهماً، وأطلق عليه لقب «خاص حاجب» حيث أن يوسف لم يكن ينتسب لأى من القبائل الحاكمة مع كونه من عائلة أويغورية كريمة.

لم يكن «نظام الملك» رئيس الوزراء في عهد «ملكشاه» و«آلب أرسلان» في الإمبراطورية السلجوقية الكبيرة على مدى ٣٠ عاماً، ذا أصل أوغوزى تركى بل كان ذا أصل فارسى. ومع ذلك فأثناء توليه رئاسة الوزراء أصبحت الدولة قوية حيث كانت تدار وفق الأسس والمبادئ التى تضمنها كتابه «سياستنامه».

فضلا عن ذلك تم بنفوذه وتأثيره افتتاح العديد من المدارس فى مدن مثل مرو، وهراة، والبصرة، وأصفهان، ونيسابور وبغداد.

وكان أبو الفضل البيهقى مؤلف تاريخ المسعودى؛ مسئولاً عن الشئون الخارجية للسلطنة الغزنوية على مدى ٢٠ عاماً. إن الأوغوز (من آلب تكين حتى سبكتكين) والكارلوق الأويغور (من سبكتكين حتى خسرو ملك سلطان غزنة) والسلطان محمود الغزنوى والسلطان مسعود؛ أظهروا الاحترام لوزير الشئون الخارجية ذى الأصل الفارسى هذا، واستفادوا من آرائه. لقد لعب البيهقى دوراً مهماً فى المباحثات التى عقدها السلطان مسعود مع السلطان يوسف قادر بالقرب من سَمَرْقَنْد فى فترة العلاقات الثنائية مع القراخانيين، واشترك كذلك مع السلطان محمود الغزنوى فى حروبه ضد السلاجقة، وأيضاً فى حملاته على الهند. وقد كتب «تاريخ المسعودى» من خلال الوثائق الرسمية التى بحوزته، وكونه كذلك شاهد عيان على الأحداث.

يوضح نظام عروضى السَمَرْقَنْدى أحد مؤرخى القرن الثانى عشر كثيراً فى كتابه؛ احترام «خضر خان» حاكم القراخانيين للشعراء. وطبقاً لما ذكره فإن «خضر خان» أهدى ذات مرة شاعراً أربعة صحاف بها ١٠٠٠ دينار. كما روى العروضى السَمَرْقَنْدى أنه جرى تنظيم مسابقة فى

قصر «خضر خان» في سمرقند في شهر يونيو عام ١٠٨٠م اشترك فيها الشعراء، وأثناء هذا الجمع سأل السلطان خضر بن ابراهيم شاعرا يدعى «أماق» قائلا ما رأيك في أشعار عبد السعيد رشيدى؟ فأجاب «أماق» «إن أشعار رشيدى غاية في الجمال والتوافق، ولكن ملحها قليل». وبعد فترة حضر إلى القصر ذلك الشاعر شخصيا. وبعد أن حيا رشيدى الحاكم وبينما يتخذ مجلسه استدعاه الحاكم إلى جانبه. وسأل شاعرا آخر كيف ترى أشعار رشيدى؟ فقال أيضا «جيدة ولكن بلا ملح». وبناء على ذلك عاد خضر بن ابراهيم إلى رشيدى وقال له «أعتقد أنه يجب عليك أن ترد بإجابة منظومة على إجابة هذا الشاعر» فحيا رشيدى الحاكم وعاد إلى مكانه وألقى شعرا.

تقول ان شعري لا ملح فيه  
وقولك حق، فشعري يشبه السكر والعسل  
فالسكر والعسل ليس فيهما ملح اصلا  
أما شعرك أنت فيشبه العشب والفجل  
ولا بد ان من يشبه شعرك بالملح جاهل اصلا

ولقد راقى إجابة رشيدى هذه لخضر خان، وقدم له ملء أربع صحاف ذهبيا.

في الواقع لم يكن إنعام «خضر خان» على رشيدى بتلك المنحة، لأنه مدحه بل كان ذلك تقديرا لموهبته.

لقد قام السلطان محمود الغزنوي الفاتح العظيم على مدار حياته بالعديد من الحملات على الهند، وسعى كثيرا لكي يعتنق أهل الهند الإسلام ولكن إلى جانب تلك الحروب الدامية لم يهمل جمع الشعراء والفلاسفة ورجال العلم ومؤرخي ذلك العصر في قصره. وسعى كثيرا لتطوير العلم والأدب. وكان من بين المدعوين للقصر كذلك الشاعر

المشهور «العنصرى» و«المولود» فى بلخ، وتم منحه لقب «أمير الشعراء» ولقد اشترك الشاعر «أبو القاسم حسن ابن أحمد العنصرى» فى معظم حملات السلطان محمود وكتب عن فتوحاته.

كان أجدادنا دائما يرعون كل صاحب موهبة من الفلاسفة والمؤرخين والشعراء وعلماء الفلك ويستفيدون من علمهم قدر الإمكان. وكان لهم مساهمات قيمة فى إثراء الثقافة العالمية.

(هـ) لقد ساعد التقارب مع الدول الإسلامية الكبيرة إلى جانب العلاقات الثقافية والاقتصادية بين دول العالم الكبيرة والقراخانيين على تطور الثقافة الأويغورية.

كما ترجمت الكتب اليونانية القديمة إلى اللغة العربية فى عهد الحكم العربى، وهكذا تعرف شعوب آسيا الوسطى عن طريق اللغة العربية على الكيمياء والفيزياء والجغرافيين والرياضيين والفلكيين والفلاسفة اليونانيين القدماء. ولقد تعرف علماء الأويغور فى عهد القراخانيين على الثقافة الكلاسيكية الغربية من خلال معرفتهم اللغة العربية والفارسية، واستفادوا منها فى خلق الثقافة الإسلامية الأويغورية.

ويمكن القول أن هؤلاء قاموا بتأليف الكتب المهمة فى كل مجالات العلم.

(ى) إن الثقافة الأويغورية التى قامت على أسس الثقافة الأورخونية القديمة فى عهد القراخانيين؛ استوعبت عناصر كثيرة وأعطت ثقلا للثقافة الإسلامية. لقد استخدم أجدادنا منذ العصور القديمة (قبل الميلاد بعدة قرون حتى القرن ٩ الميلادى) الأبجدية (على الأرجح أبجدية ينى - ساي) وكتبوا تاريخهم، وقطعوا مسافات كبيرة فى مجال خلق الثقافة المادية والمعنوية. ومثال على ذلك الكتابات الحجرية فى وادى أورخون (القرن ٨ - ٩ الميلادى) والتى كتبت باللغة الأويغورية القديمة بأبجدية «ينى - ساي أورخون». إن هذه الكتابات «صفحات ذهبية بالحروف الفضية» لتاريخ الأويغور.

الخلاصة أن الثقافة الأويغورية في عهد القراخانيين اكتسبت ثراءها من العناصر المعنوية ولا شيء آخر غير الثقافة الأويغورية القديمة.

### ● الأحداث التاريخية المهمة في عهد القراخانيين

٨٥٠ وضع كول بيلكه قراخان — المنتسب إلى قبيلة «أويغور ياغما» أساس الدولة القراخانية.

٨٧٠ ولد الفارابي المشهور بمدينة فاراب في «يدي صو».

٨٧٠ أصبحت بخارى عاصمة الدولة السامانية.

٨٩٣ خسر «أوغولشاق ابن كول بيلكه قراخان» الحرب التي خاضها ضد اسماعيل الساماني وانسحب من بلاساغون إلى كاشغر.

٩٢٠ اعتنق ستوق بوغراخان الإسلام.

٩٤٢ ألحق ستوق بوغراخان بلاساغون بحدود القراخانيين.

٩٥٥ توفي ستوق بوغراخان ودفن في «أتوش» بالقرب من كاشغر.

٩٦٠ اعتناق القارلوق - الأويغور الموجودين في «يدي صو» الإسلام.

وأعلن «سليمان بن ستوق بوغراخان» فيما بين أعوام ٩٦٠ — ٩٧٠م أن الإسلام دين الدولة وعمل على نشره في دولة القراخانيين.

٩٧٠ أصبحت بخارى عاصمة السامانيين.

٩٨٠ ولد الطبيب والفيلسوف العظيم ابن سينا في «أفشان» بالقرب

من بخارى.

٩٩٢ فتح السلطان هارون بوغرا — نائب علي أرسلان الحاكم القراخاني

— بخارى من السامانيين.

٩٩٢ وفاة السلطان هارون بوغرا.

٩٩٦ بموجب الاتفاق المبرم بين «سبكتكين» سلطان غزنة وناصر

القراخاني إن وادي سرداريا للقراخانيين ووادي أمو — داريا للغزنويين.

٩٩٨ وفاة «علي أرسلان» الحاكم القراخاني. وتولى مكانه أحمد

طوغان.

٩٩٩ استولى ناصر حاكم إيليك الغربية على بخارى بهجوم شنه،  
وقضى على وجود الدولة السامانية.

١٠٠١ تزوج السلطان محمود بابنة ناصر حاكم إيليك خان.

١٠٠٠ استولى القراخانيون على إمارة خوتن، وتم تعيين السلطان

يوسف قاديير حاكما عليها.

١٠٠٦ استولى ناصر على بلخ وطوس ونيسابور. وهاجم القراخانيون

خراسان في أعوام ١٠٠٧ — ١٠٠٨م ولكن دون جدوى.

١٠١٨ ولد يوسف خاص حاجب في مدينة بلاساغون وانتصر السلطان

أحمد طوغان على جيش كيدان وقوامه ١٠٠ ألف شخص في شمال

بلاساغون، وتوفي في نفس العام.

١٠١٩ نظم السلطان يوسف قاديير حملة على خراسان.

١٠٢٤ تم خلع منصور أرسلان خان من العرش وتولى مكانه

السلطان أحمد طوغان.

١٠٢٦ تم عقد مفاوضات واتفاقيات مهمة بين كل من السلطان

محمود الغزنوي والسلطان يوسف قاديير بالقرب من سمرقند.

١٠٣١ ارسل السلطان محمود سفيرا إلى كاشغر العاصمة القراخانية.

١٠٣٢ وفاة السلطان يوسف قاديير، وتولى العرش ابنه سليمان أرسلان

خان.

١٠٣٧ وفاة ابن سينا الطبيب والفيلسوف الكبير.

١٠٣٩ دفع ابراهيم بوغراتكين بيوسف حاكم إيليك الغربية إلى كاشغر

واخذ ما وراء النهر تحت حكمه.

١٠٤٠ انفصلت الدولة القراخانية إلى قراخان الغربية والشرقية.

١٠٤٠ هزم السلطان السلجوقي «طغرل بك» السلطان الغزنوي مسعود

فى الحرب التى اندلعت فى دانداقان.

١٠٥٥ دخل السلطان السلجوقى الكبير «طغرل بك» إلى بغداد.

١٠٥٦ وفاة سليمان خان حاكم قراخان الشرقية.

١٠٥٧ قامت زوجة محمد بوغراخان الصغيرة بدس السم لكل من

محمد بوغراخان حاكم قراخان الشرقية وبعض القراخانيين.

١٠٥٨ أصبح «طغرل قراخان» الشقيق الأصغر لسليمان أرسلان خان؛

حاكم قراخان الشرقية.

١٠٦٣ وفاة «طغرل بك» السلطان السلجوقى، وتولى مكانه ألب

أرسلان ابن جغرل بك شقيقه.

١٠٦٨ وفاة ابراهيم بوغراتكين حاكم قراخان الغربية.

١٠٦٩ قدم يوسف خاص حاجب كتابه المشهور «قوتادغو بيليك»

إلى تابغاج بوغراخان نائب حاكم القراخانية الشرقية.

١٠٧١ هزم ألب أرسلان سلطان السلاجقة الجيش البيزنطى — وقوامه

٢٠٠ ألف شخص — فى ملاذكرد وأسر رومانوس ديوجين.

١٠٧٢ وفاة ألب أرسلان، وتولى مكانه ابنه الأكبر ملكشاه.

١٠٧٤ قدم محمود الكاشغرى كتابه القيم «ديوان لغات الترك» إلى

المقتدر خليفة بغداد. وفاة حاكم قراخان الشرقية «طغرل قراخان» وظل

ابنه الذى تولى مكانه توغرول تكين شهرين فى الحكم.

١٠٧٥ أصبح تابغاج بوغراخان نائب حاكم قراخان الشرقية حاكما

عليها باسم السلطان هارون بوغرا الثانى.

١٠٨٠ وفاة يوسف خاص حاجب فى كاشغر، ودفن فى أوبال بالقرب

من كاشغر

١٠٩٢ وفاة السلطان ملكشاه.

١١٠٣ وفاة السلطان هارون بوغرا حاكم قراخان الشرقية، وتولى

مكانه ابنه أحمد أرسلان خان.

١١٠٥ أرسل أحمد أرسلان خان محمود بن عبد الجليل الكاشغري كسفير إلى المستظهر خليفة بغداد.

١١٣٥ أصبح القراخانيون الشرقيون تابعين للكيدانيين الشرقيين.

١١٣٧ انهزم القراخانيون الغربيون من «يه - لو - تا - شي» حاكم كيدان الشرقية.

١٢٠٩ أصبحت سمرقند عاصمة القراخانيين الغربيين تحت حكم الخوارزمشاهيين.

١٢١١ وفاة محمود خان آخر حاكم قراخاني شرقي.

١٢١٢ قتل عثمان بوغراخان آخر حاكم قراخاني غربي.

١٢١٢ طويت الدولة القراخانية من التاريخ نهائيا على يد كيدان (القره خطاي).



## القسم الثالث: سلطنة إديقوت الأويغورية

### الفصل السابع عشر: تأسيس إمارة إديقوت الأويغورية

#### وهجرة الأويغور الشرقيين إلى الغرب

لقد أعدت هجرة الأويغور الشرقيين إلى الغرب الأرضية لتأسيس إمارة «إديقوت» الأويغورية، وبتعبير آخر فإن إمارة إديقوت الأويغورية بمثابة إمتداد لحكم «أويغور أورخون». (كانت كلمة إدى بمعنى الله، أما كلمة إديقوت فكانت تقال للشخص الذى يحصل على السعادة من الله).

لقد أسس معظم أجداد الأويغور والشعوب القريبة على مر التاريخ دولاً كبيرة فى آسيا: دولة تانريقوت الهون الكبيرة (٢٤٠ ق م - ٢١٦ م، «إمبراطورية الآق هون» (٤٢٠ - ٥٦٥ م)، «إمبراطورية الهون الأوربى»، «دولة الأويغور» (٤٨٧ - ٥٤٦ م)، «إمبراطورية الكوك تورك» (٥٥١ - ٧٤٤ م) «دولة الأويغور الأورخونية» (٦٤٦ - ٨٤٥ م) «القراخانيين الأويغورية» (٨٥٠ - ١١١٢ م) «دولة إديقوت الأويغورية» (٨٥٠ - ١٣٣٥ م)، دولة السلاجقة الكبار (١٠٤٠ - ١١٥٧ م)، وسلطنة غزنة (٩٦٣ - ١١٨٧ م). وقد لعبت هذه الدول الكبيرة أدواراً إستثنائية فى العصور القديمة والوسطى، لا سيما الثقافة التى ظهرت فى عهد القراخانيين، فقد أضافت، وأثرت الثروة الثقافية العالمية.

ولقد ساءت أحوال دولة الأويغور الأورخونية التي استمر وجودها مائتي عام بين الدول التي أحصينا أسماءها سابقاً؛ قد ساءت أحوالها كثيراً بسبب الكوارث الطبيعية واحتلال العدو لها، والحروب الداخلي، والنزاع على العرش في عام ٨٤٠م، ولذلك اضطر الأويغور لمغادرة عواصمهم التي تقع على نهر أورخون (منغوليا حالياً) ونقل مركزهم السياسي إلى سفوح جبال طانري.

امتدت حدود دولة الأويغور الأورخونية في فترة من الحواف الشرقية لجبال «هنجان في الشرق» حتى بحيرة «بايقال» في الشمال و«ينساي» (إسمها بالأويغورية أناساي) وفي الغرب من شمال بلقاش حتى «وادي فرغانة»، وفي الجنوب من السفوح الجنوبية لجبل «جوغاي» حتى الهند في الجنوب الغربي. والخلاصة أن مساحة تلك الدولة الكبيرة كانت خمسة أضعاف مساحة فرنسا حالياً. وكان لدى دولة أورخون الأويغورية في الفترة ما بين (٦٤٦ — ٧٤٠م) ٥٠ ألف فارس وبعد عام (٧٥٠م) ٢٢١ ألف فارس محارب، أو بتعبير آخر فقد امتلكت ٧١ فرقة عسكرية تتكون كل واحدة منها من ٢١ ألف محارب. وهكذا كانت في نفس مستوى دولة قوية في تلك الفترة مثل «إمارة التبت» و«إمبراطورية طانغ». ولكن مع الأسف أصاب الضعف تلك الدولة القوية عام ٨٣٠م بشكل لافت للإنتباه بسبب الإضطرابات الداخلية.

وصلت سلطنة أويغور أورخون إلى نهايتها في عام ٨٣٠م، وبدأ النزاع على العرش والإضطرابات الداخلية إعتباراً من «هازار تكين»، ووصلت تلك النزاعات إلى ذروتها في عهد «هوتكين»، وقد نظم مؤيدو «هازار تكين» الذي تم قتله — مؤامرة للإطاحة بـ «هوتكين»، ولكن قرر «هوتكين» الذي علم بتلك المؤامرة — إبادة المتآمريين. بسبب الإجراءات التي إتخذها «هوتكين» تحرك «قره بولوق طرخان» ضد «هوتكين» عام ٨٣٩م بعد أن حصل على مساندة الجيش. وانتحر «هوتكين» الذي خسر الحرب التي دخلها مع «قره بولوق طرخان» وأنهى حياته. وهكذا قام «قره بولوق طرخان» برفع «كيجيك تكين» إلى العرش.

وقد كافح «قوتلوق باغا» القائد العام الذى ينتسب إلى قبيلة آديز - كفاحا مستميتا لخلع «كيجيك تكين» - الذى ينتسب إلى نفس قبيلة «قره بولوق خان» وهى قبيلة «ياغلاقا» من العرش. وأدت الكوارث الطبيعية التى أطلت برأسها فى دولة الأويغور الأورخونية أثناء الحرب الداخلية أدت إلى تدمير الزرع والحرث وفتحت الطريق للمجاعة.

وكان ذلك لم يكن كافياً إذ ظهرت الأوبئة مما أدى إلى مصرع العديد من الناس، كما هلك قسم كبير من قطعان الماشية بسبب الثلج المنهمر بكثافة، وأصبح الناس الذين فقدوا ماشيتهم فى وضع عسير.

وفى نفس الوقت تحرك القييرغيز المتمردون للإطاحة بسلطنة أويغور أورخون. وكان القييرغيز فى الأصل تابعين لسلطنة الأويغور منذ عام ٧٥٦م، وبدأ من يقيمون على شواطئ «ينساي» فى الغليان والثورة بشكل دائم بعد وفاة سلطان الأويغور «آى تنكريد قوت بولميش كوچ بيلكا».

واعتماداً على المعلومات الواردة فى فصل «القييرغيز» فى «حولية أسرة طانغ المبكرة»، وفصل «القييرغيز» فى «حولية أسرة طانغ المتأخرة»، يمكننا القول إن قييرغيز «ينيساي» أقارب للأويغور وكانوا يتحدثون لغة قريبة من اللغة الأويغورية.

وكانوا ذوى شعر أصفر وعيون زرقاء وبشرة بيضاء ويتضح فى بعض المصادر الأخرى أن تعداد قييرغيز «ينيساي» فى القرن الثامن يقترب من المليون، وأنهم يملكون جيش فرسان قوامه ١٠٠ ألف شخص.

كان زعيم القييرغيز «آپا» (وربما يكون هذا لقبه وليس اسمه) على علم بالمصائب التى أصابت سلطنة أويغور أورخون، فبدأ إستعدادات جادة لمهاجمة العاصمة «قارا بالغاسون». وقد شرح قائد جيش الأويغور «قولوق باغا» الذى ينتسب إلى قبيلة آديز، والذى حضر فى تلك الأيام مع مجموعة من الأويغور لطلب المساعدة من القييرغيز، الوضع الصعب

الذى صارت إليه السلطنة، وحرصهم على احتلال «قارا بالغاسون». ولذا فقد قام «آيا» وهو الملم بالوضع الصعب الذى يعانىه الأويغور بالتوجه مباشرة إلى «قارا بالغاسون» عاصمة سلطنة الأويغور بجيش قوامه ١٠٠ ألف فارس (حيث كان بين هؤلاء، بعض الأويغور الذين حضروا مع «قولوق باغ»)، وخرج فى اتجاه بالاساغون عاصمة سلطنة الأويغور.

وقتل القرغيز «كيجيك تكين» و«قره بولوك» كما أحرقوا خيمة السلطان ونهبوا كل خزائن الدولة. بسبب الإضطرابات الداخلية لم تستطع سلطنة الأويغور صاحبة جيش الفرسان وقوامه ٢٢١ ألف شخص منع إحتلال القيرغيز. وفى تلك الأثناء إضطر قسم من أمراء الأويغور لمغادرة «قارا بالغاسون» والهجرة إلى نواحي جبال «طانرى». ولكن الخائن «قولوق باغا» لم يظفر بشيء.

ولهذه الأسباب التى أوضحناها، هاجر قسم كبير من أويغور الشرق إلى الغرب. ويجب أن ن سجل أن هجرة أويغور الشرق إلى الغرب وليس الى ناحية أخرى، كانت لسبب خاص، فلقد كانت آسيا الوسطى وطن الأويغور لمئات السنين. فضلا عن أن العديد من المناطق الداخلية لآسيا الوسطى (السفوح الشمالية والجنوبية لجبال طانرى، ووادى فرغانة، ويدي صو)؛ كانت هى المناطق الباقية داخل حدود سلطنة أويغور أورخون. لهذا السبب لجأ أويغور الشرق إلى أقربائهم الأويغور فى الغرب، وليس إلى «الشيرواليين» (شيه وي) والكيدانيين الموجودين فى الشرق. وكان الشيرواليون والكيدانيون فى عهد سلطنة «أويغور أورخون» يقيمون فى شرق منغوليا الحالية، وكانوا فى الأصل تابعين لدولة الأويغور، ولأنهم من أصل «مغول تونجوز»، فليست لهم صلة قرابة بالأويغور. ولذلك لم يكن أويغور الشرق يثقون فى الشرواليين والكيدانيين.

ولاسيما أن الأحداث التالية أيضا ستثبت أن ابتعاد الأويغور عن هذه الشعوب كان تصرفاً صائباً. فى عام ٨٤٠م لجأ قسم كبير من الأويغور لأقربائهم الغربيين الموجودين فى آسيا الوسطى، أما الباقون توجهوا للجنوب تحت قيادة «أوجه تكين» (لمكان قريب من الحدود الشمالية

للصين). وقد قام هؤلاء الـ ٣٠٠ ألف مهاجر للجنوب بانتخاب «أوجه تكين» الأويغوري سلطاناً لهم، ولكن القدر نصب فخاً لهم حيث أن جيرانهم الذين لجأوا إليهم كأصدقاء تصرفوا معهم بعداء. كما دب النزاع بين الأويغور. أما الشيرواليون والكيدانيون فقد تحالفوا مع أعدائهم ضدهم. وبمقتل «أوجه» تكين أثناء الإضطرابات الداخلية تولى شقيقه «إنان تكين» مكانه. وعندما شعر برغبة الشيرواليين في تسليمه للأعداء إصطحب زوجته «قارلو-بيكا» وإبنة «دوص تكين» وهرب سراً إلى الغرب مع عدد من رجاله المقربين.

### پانتكين

جمع «پانتكين» الذى ينتسب إلى قبيلة آديز مواطنى قبيلته الملتفين حوله، وعشائر الأويغور الآخرين المقيمين بالقرب من قارا بالغاسون عاصمة دولة الأويغور وهاجر إلى الغرب عام ٨٤٠م. وقد استمر «پانتكين» فى تقدمه وفى معيته ١٠٠ ألف شخص، متجاوزاً الممرات الجبلية. وكان معه ما يقرب من مليون رأس من الماشية، وفى خريف عام ٨٤١م، وصلوا إلى المنطقة الممتدة حتى «باركول» و«قومول» فى الشرق فى مكان «جيمسار» الحالية واضطروا للإقامة هناك. ولكن مشكلتهم الأصلية كانت توفير علف للماشية التى بحوزتهم تكفى طعامها حتى الربيع. فضلاً عن ذلك كان يحيق بهم خطر القيرغيز الذين نهبوا قارا بالغاسون ويتعقبون «پانتكين». والواقع شن القيرغيز فى عام ٨٤٢م هجوما على الأويغور المهاجرين مع «پانتكين» إلى الغرب عند نواحي «باركول» و«جيميسار». ولكن اقترح بعض المستشارين فى إمبراطورية «طانغ» تقديم المساعدة لـ «پانتكين» ضد المحتلين القيرغيز، لكن «ليوتى - وو» عارض هذا الإقتراح. وهكذا إستفاد القيرغيز من هذه الفرصة واندفعوا صوب السفوح الشمالية لجبال طانرى عام ٨٤٢م واحتلوا مدن «أورومچى» و«جانباليق» و«مناص».

وفيما بعد توجهوا نحو الشرق واستولوا على باشباليق. وتملك

«پانتكين» القلق من تطور الأحداث بهذا الشكل؛ فتقدم في الإتجاه الجنوبي الغربي مرورا من مدينة (قومول) واستقر في «كوچا» و قارا شهر» وكان لهاتين المدينتين أهمية إستراتيجية دائماً لأنهما محاطتان بجبال «طانري». ولذلك لم يستطع القرغيز شن هجوم واحد عليهما. فضلا عن ذلك فإن «قارا شَهْرُ» و«كوچا» كان بهما مئات الآلاف من البشر، وتملكان القدرة على إطعام ملايين الماشية. وبدأ «پانتكين» يستجمع شتات نفسه بعد إستقراره في «كوچا» و«قارا شَهْرُ» بفترة وجيزة.

وانتشر الأويغور القادمون من أنحاء «أورخون» في مناطق «وادي إرسين» (ننغشيا حالياً) و «جانغب» و«وو—وى» بقانصو. لأن الأويغور كانوا يسكنون قانصو منذ القدم. وكان معظمهم ينتسبون إلى قبيلة «ياغلاقار» فاتحدوا مع مواطنيهم الموجودين في قانصو؛ وأسسوا إمارة أويغور قانصو عام ٧٨٠ م.

بعد أن ظل «پانتكين» فترة في «كوچار» و«قارا شَهْرُ»، اتخذ لنفسه لقب «يابغو» وكان هذا تصرفاً طبيعياً. لأن قسما من أويغور الشرق الذين فروا إلى الجنوب مع «أوجه تكين» عام ٨٤٠م طلبوا المساندة العسكرية من أسرة «طانغ» الحاكمة ليحولوا دون القضاء على السلطنة وإزالتها تماماً، ولذلك فقد رأى الأويغور أن لقب سلطان يليق به. على أية حال فقد سمع «پانتكين» بإعلان «أوجه تكين» سلطاناً، فإتخذ لنفسه لقب «يابغو» لأن «أوجه تكين» كان من قبيلة آديز.

واستناداً للمعلومات الواردة في «قاموس نامه» وفي «فصل الأويغور» في حولية «طانغ — شو» فإن الأويغور الذين انتقلوا للجنوب عام ٨٤٠م (شمال إقليم هوبى بالصين)؛ كانوا قد أعلنوا «أوجه تكين» سلطاناً بعد عام واحد. وظن «أوجه تكين» الذي أصابه الضعف وتحطمت معنوياته وسئم الحياة، ظن أن «وو — تسونغ» إمبراطور «طانغ» سوف يمد يد العون للأويغور الذين كانوا في موقف صعب، لكن الأحداث لم تتطور أبداً كما كان يعتقد، واضطر السفير الذي أرسله ويدعى «إيل أوجاسى» للعودة من قصر إمبراطور «طانغ» صفر اليدين، باختصار قد

رفض الإمبراطور «وو — تسونغ» طلب «أوجه تكين» للمساعدة. وهكذا، نظراً لإستمرار هجمات العدو، ظل الأويغور الذين يعانون من وضع صعب أكثر من المتوقع فى نقطة بين الوجود والعدم.

وكان ذلك لم يكن كافياً إذ بدأ الخلاف يدب بين أمراء الأويغور. وقبل قسم من الأويغور التبعية لإمبراطورية «طانغ» تحت قيادة «هرمز تكين».

فى عام ٨٤٦ م قتل «أوجه تكين» على يد كبير مستشاريه ويدعى «مويانجور؛ فاعتلى العرش اخوه «إنان تكين». وبعد فترة أرسل الشيرواليون الذين خططوا للغدر ب«إنان تكين» وإلقاء القبض عليه وتسليمه لمسئولى «طانغ» أرسلوا أحد رجالهم إلى بكين. وكان «إنان تكين» الذى عرف بالأمر فى حينه — قد هرب إلى الغرب كما أوضحنا آنفاً. وفى عام ٨٤٦ م أعلن «پانتكين» نفسه سلطاناً بعد أن أصبح جلياً أمامه المصير المجهول للسلطان إنان».

لقد اتخذ «پانتكين» مؤسس إمارة إيديقوت الأويغورية — لقب حاكم (سلطان) عام ٨٤٨ م، وأول شىء قام به بعد الجلوس على العرش هو طرد التبتيين وإخراجهم من طرفان. ومن بعده قام الأويغور بقيادة «بوغو تكين» بإقتلاع القييرغيز وإبعادهم عن السفوح الشمالية لجبال طانرى (ماناس، أورومچى، بشباليق). وفى عام ٨٦٦ م قام «بوغو تكين» الذى أعمل السيف فى التبتيين بجوار «تسين هاى» بقطع رأس «شان قون — شو» قائد جيش التبت.

وبعد هذا الإنتصار طرد «بوغو تكين» التبتيين المقيمين فى قانصو ( ٧٧٠ — ٨٦٦ م ) قرابة المائة عام، اعتمادا على دعم الحكومة الصينية. وهكذا فإن الأويغور المقيمين فى منطقة «هو — سى» (حيث أنهم هاجروا إليها عام ٨٤٠ م) ؛ نجحوا فى تأسيس دولة «قانصو» الأويغورية عام ٨٧٠ م، وإعتباراً من هذا التاريخ ارتبط السفوح «پانتكين» معهم بعلاقات وثيقة. وفيما بعد إتخذ پانتكين «بشباليق» عاصمة لإمارة إيديقوت الأويغورية عام ٨٦٦ م، وكان مسئولو إمارة «إيديقوت» يمشون

شهور الصيف في «بشباليق» وشهور الشتاء في «إديقوت». وهكذا صارت «بشباليق» العاصمة الصيفية، و«إديقوت» العاصمة الشتوية.

كانت سلطنة إديقوت الأويغورية التي اتخذت العاصمة «بشباليق» - من ناحية ما - استمراراً لسلطنة أويغور أورخون. وكانت حدودها تمتد حتى جنوب الطاي في الشمال، وصحراء تكلما كان في الجنوب وبوغور في الغرب، وفي الشرق «تشيو- تشونج» الحالية. وكان الخانات الذين تولوا السلطنة من قبيلة أديز التي تنتسب إلى الفرع الشرقي للأويغور. وكانوا يحملون لقب «إديقوت»<sup>١٠٩</sup>، والذين يصبحون حكاماً؛ كانوا يضيفون كلمة «إديقوت» في بداية أسمائهم مثل «إديقوت بارجوق آرت تكين»، و«إديقوت قوچقار تكين». وفي الأويغورية القديمة كانت كلمة «إديقوت» تعني «السعادة، أو السعيد». وهناك أثر تاريخي يتعلق بإمارة إديقوت الأويغورية ظهر في طرفان ومكتوب بالأبجدية الصينية، «دونت عليه عبارة دولة عظيمة، ومباركة، دولة الأويغور العظيمة».

وفي عام ٨٦٦ قُتِلَ «پانتكين» البطل القومي لشعب الأويغور، ومؤسس إمارة إديقوت الأويغورية على يد «بوغو تكين».



## الفصل الثامن عشر: القراخانيون وسلطنة إديقوت الأويغورية

لاتتوفر لنا الوثائق التاريخية الكافية المتعلقة بالعلاقات بين سلطنة «إديقوت» الأويغورية و«القراخانيين». كما لا نجد في المصادر الإسلامية معلومة جوهرية بخصوص سلطنة «إديقوت» الأويغورية. وعند الإطلاع على المصادر الصينية لا نجد كذلك أى معلومة تتعلق بالعلاقات بين سلطنة «إديقوت» الأويغورية والقراخانيين، لأن خانيتي «طانغوت» و«كيدان» كانتا تعوقان قيام علاقة بين سلطنة «إديقوت» و«القراخانيين» مع إمبراطورية «سونج».

سنحاول هنا إلقاء الضوء على العلاقات بين إمارة «إديقوت» الأويغورية والقراخانيين استناداً إلى الأساطير والروايات التي تتفق بشكل واضح مع الحقائق التاريخية التي فى مقبرة «الفتاح Alpatta» القريبة من طرفان ومع المعطيات المتاحة فى مؤلفات بعض الكتاب والمؤرخين المسلمين. فى أقوى فترات القراخانيين، وفى الآونة التى أعلن فيها الإسلام ديناً رسمياً للدولة؛ لم يكن هناك أى نزاع بينهم وبين سلطنة «إديقوت» الأويغورية التى تدين بالبوذية. ولكن بعد أن إعتنق ستوق بوغراخان الإسلام عام ٩٢٠م بدأ النزاع يدب بين الأويغور البوذيين والمسلمين. وإعتباراً من ستوق بوغراخان وعلى مدى سنوات سلطنة السلطان يوسف قادير؛ دخل حكام القراخانيين فى سلسلة من المنازعات لتحويل الأويغور الشامانيين والبوذيين إلى الإسلام. فقد قاومت سلطنة «إديقوت» الأويغورية والبوذيون الذين فى كوچار وخوتن القراخانيين، وبمرور الوقت

وصل الأمر إلى الصدام المسلح.

ولهذا لجأ ستوق بوغراخان أيضاً إلى السلاح إلى جانب الدعوة، ولكن أويفغور كوچار وخوتن تمسكوا بدينهم القديم.

وفي عام ٩٤٠م تقريباً أرسل ستوق بوغراخان جيشاً يتشكل من جناحين لإخضاع سلطنة إديقوت الأويغورية، واستطاع جيش القراخانيين الذي قام أحد جناحيه بالهجوم على الأويغور من قارا شَهْرَ في الجنوب والجناح الآخر من إيلي في الشمال؛ استطاع أن يهزمهم وفي النهاية اضطر الأويغور البوذيون للخضوع للقراخانيين.

بعد مقتل «پانتكين» عام ٨٦٦م تولى «بوغو تكين» أمر السلطنة وظل «بوغو تكين» في الحكم لمدة أربع سنوات كاملة، ولكننا لا نملك أي معلومة تتعلق بمن أصبح حاكماً من بعده ولمدة ٧٠ عاماً (٨٧١ — ٩٤٠م). ولقد أوضحنا أن المصادر الإسلامية لم تقدم أي معلومة مؤكدة تتعلق بالأويغور البوذيين. علاوة على ذلك لم نصادف في مؤلفات المؤرخين الصينيين أي معلومة خاصة بسلطنة إديقوت الأويغورية بسبب إنهيار وسقوط إمبراطورية «طانغ» عام ٩٠٧م وأعقبته الحروب الداخلية التي أطلت برأسها في الصين. وبعد سقوط أسرة «طانغ» الحاكمة بدأت في الصين فترة «الأسرات الخمس» و «الإمارات العشر»، وأصبحت الحياة غير مستقرة تماماً. وإستمرت هذه الفترة من عام ٩٠٧م حتى تأسيس إمبراطورية «سونغ» في عام ٩٦٠م. لذلك انقطعت العلاقات بين الدول الموجودة في القسم الغربي مع الصين في الفترة المذكورة. وعلى ضوء هذا الوضع لم يكن من المنتظر أن يسجل المؤرخون الصينيون أي معلومة بخصوص سلطنة إديقوت الأويغور.

إن المعلومات التي بحوزتنا هي معلومات تتعلق فقط بحياة بعض سلاطين القراخانيين تتضمن معلومات متعلقة بالحرب الدائرة بين سلطنة إديقوت الأويغورية والقراخانيين في عام ٩٤٠م. كان «إردمين إيل طوتمش آل أرسلان قُتِلَ كُول بيلكه سلطان» حاكماً لسلطنة الأويغور، أثناء النزاعات التي وقعت بين القراخانيين وخانية إديقوت في

سنة ٩٤٠م. لأنه كان الحاكم على سلطنة اديقوت فى الفترة ٩٤٠ - ٩٤٨م.

ولعب عبد الفتاح بن أبو نصر السامانى (فى بعض المصادر «ألب آتا») الدور الأهم فى الحروب التى اندلعت مع الأويغور البوذيين كما أوضحنا قبل ذلك، ولذلك فقد لقبه ستوق بوغراخان بلقب «ألب تكين». ويتضح أن الذى دفع القراخانيين إلى شن حملة للمرة الثانية ضد سلطنة اديقوت الأويغورية فى عام ٨٧٠م أنها أعلنت العصيان واستطاعت أن تنال استقلالها. وعندما توفى ستوق بوغراخان عام ٩٥٦م تولى ابنه «بايطاش» (٩٥٦ - ٩٥٨) و«تونغا إيليك» (٩٥٨ - ٩٧٠م)

قام «تونغا إيليك» (سليمان بوغراخان) بإرسال «ألب تكين» عام ٩٧٠م لإخضاع سلطنة اديقوت الأويغورية كلها لسيطرته. وكان «أرسلان خان» حاكماً على سلطنة الأويغور فى تلك الفترة. وبعد أن استولى «ألب تكين» على قارا شَهْرُ قادمًا من كوچار وأقصو؛ نظم هجومًا على اديقوت العاصمة الشتوية للإمارة. فلما خسر «أرسلان خان» القتال انسحب إلى «بشباليق» التى تقع على السفح الشمالى لجبال طانري - وبعد أن أتم «ألب تكين» فتح طرفان وما حولها توجه إلى «بشباليق».

قابل «أرسلان خان» ألب تكين بجيش جرار فى الممر الممتد من «بشباليق» إلى «إديقوت» (فى منطقة «داوانجين» الحالية طبقاً لبعض المصادر). وإنتهت الحرب بهزيمة «ألب تكين» ومصرعه. وعاد «أرسلان خان» إلى قارا شَهْرُ وطرفان مرة أخرى بعد النصر الذى أحرزه. وقام أويغور طرفان - الذين اعتنقوا الإسلام فى القرن ١٤م - ببناء مقبرة لألب تكين فى آستانة (طرفان) حالياً، وأطلقوا عليها اسم مقبرة الفتاح (من المحتمل ألب آتا أو عبد الفتاح). وقد دمرت تلك المقبرة فى عام ١٩٦٧م أثناء «الثورة الثقافية الصينية».

وبعد أن انتهت الحرب التى اندلعت عام ٩٧٠م بهزيمة القراخانيين؛ حافظت سلطنة «إديقوت» الأويغورية على استقلالها مدة طويلة. وقد

أوضحنا فيما سبق أن سلطنة «إديقوت» الأويغورية أرسلت سفيراً إلى محمود الغزنوي في فبراير من عام ١٠٢٧ م واقترحت التحالف ضد القراخانيين، ولكن محمود عدل عن هذا التحالف. وطبقاً لبعض المصادر فإن سلطنة كيدان الشرقية (٩٠٧ — ١١٢٤م) أرسلت سفيراً إلى غزنة مع سفير سلطنة «إديقوت». وإستناداً لهذه المعلومة يمكن القول بأن سلطنة «إديقوت» الأويغورية قد اتفقت مع «الكيدانيين» وعملوا على ضم الغزنويين إلى صفوفهم ضد القراخانيين.

هناك مصادر تؤكد على شن الكيدانيين الشرقيين هجوماً ضد القراخانيين عام ١٠١٨م. وعندما وصل الكيدانيون قريباً من بالاساغون، كانت صفوف الجيش أثناء هذا الهجوم تضم جنوداً تابعين لسلطنة «إديقوت» الأويغورية.

## الفصل التاسع عشر : سلطنة إديقوت الأويغورية وإمبراطورية سونغ

عندما تأسست سلطنة «إديقوت» الأويغورية عام ٨٥٠م، كانت أسرة «طانغ» الحاكمة قد ضعفت وأشرفت على السقوط. ومهما بدا في الظاهر من صداقة بين سلطنة «إديقوت الأويغورية» وأسرة «طانغ» الحاكمة؛ إلا أنه لم تكن بينهما علاقات فعالة جادة على أرض الواقع. إن فترة «الأسرات الخمس» التي بدأت بعد سقوط أسرة طانغ الحاكمة في عام ٩٠٧ م كانت في تاريخ الصين أسوأ من العهد المعروف بفترة «الحكومات الثلاث». وفضلا عن أسرة «ليانغ» (٩٠٧ - ٩٢٣م) ومؤخر «طانغ» (٩٢٣ - ٩٣٦م) ومؤخر تشين (٩٣٦ - ٩٤٦م) ومؤخر خان (٩٤٧ - ٩٥٠م) ومؤخر «جو» (٩٥١ - ٩٦٠م)، تم في فترة «الأسرات الخمس» تأسيس عشر إمارات صغيرة في الأقسام الجنوبية للدولة. وتحاربت الإمارات العشر» و«الأسرات الخمس الحاكمة» مع بعضهما وسال الدم في الدولة أنهاراً.

وانقطعت فعلياً العلاقات بين الصين وسلطنة إديقوت الأويغورية، حتى تأسيس إمبراطورية «سونغ» التي حققت وحدة الصين في عام ٩٦٠م. لكن سلطنة أويغور «قانصو» كانت قد طورت علاقاتها مع هذه الدولة الى حد كبير. وكانت أكثر العلاقات بين أويغور قانصو والصينيين في فترة «الأسرات الخمس» الحاكمة في المجالات التجارية. لكن إمبراطورية «سونغ» كانت تسعى لتطويع العلاقات القوية مع سلطنة «إديقوت» الأويغورية. وبعد توحيد الصين توترت علاقات أسرة «سونغ» الحاكمة مع الكيدانيين الشرقيين. لأن الكيدانيين الشرقيين استفادوا من الاضطرابات الداخلية التي دبت في فترة «الإمارات العشر» و«الأسرات

الخمسة» فحكموا منطقة كبيرة مترامية ووسعوا حـ هم حتى بحر اليابان فى الشرق، و«قوبودو» فى الغرب ( فى منغوليا حالياً) وحتى نهر «سلانغا» (أو سالنجه) و«أورخون» و«كارولن» فى الشمال، وأقاليم «ننغشيا» و«هو — بى» و«شان — سى» فى الصين.

لقد وحد «أيبوجى» مؤسس إمارة «كيدان» الشرقية (٩٠٧ — ٩٢٦م) القبائل الكيدانية فى بداية القرن العاشر، ثم سيطر على قبائل شروال (شى — وى) و«نو — تشين» (چورچيت أجداد المانشور).

لقد قوى «الكيدانيون» الشرقيون إلى حد ما فى عهد «يلوديفان». واستولى «يلوديفان» على ست عشرة مدينة فى شمال أقاليم «شان — سى» و«هو — بى» حالياً، وفى عام ٩٤٦ م توجه إلى الجنوب ودمر إمارة «تشين» واستولى على أراضيها.

وبالرغم من الحملة التى نظمها «تاي — تسونغ» إمبراطور «سونغ» فى عام ٩٧٨م بهدف إسترداد المدن الست عشرة التى استولى عليها «الكيدانيون» إلا أنه إنهزم من «الكيدانيين» فى الحرب التى دارت رحاها بالقرب من بكين الحالية. وإستطاع «سونغ» إنقاذ نفسه بصعوبة ولكنه نظم حملة جديدة عام ٩٨٢م وكان شيئاً لم يكن، إلا أنه منى بهزيمة ثقيلة مرة أخرى. وبالضربتين اللتين أنزلهما الكيدانيون بإمبراطورية «سونغ» إستطاعوا إخضاعها لهم.

وفى تلك الأثناء ظهر عدو خطير جديد فى شمال غرب إمبراطورية «سونغ» هم «الطانغوت». وقد أشار محمود الكاشغرى فى «ديوان لغات الترك» إلى قبائل «الطانغوت» بين عشرين قبيلة تركية فقال «إن الطانغوت قبيلة من الأتراك كانوا يعيشون فى مكان بالقرب من الصين، ومع ذلك لم تتضح حقيقة كونهم ينتسبون لأهل التبت أم للأتراك.

كان الطانغوت يحيون حياة الترحال فى منطقة «أوردوس» بمنغوليا الداخلية حالياً وجنوب «ننغشيا» وشمال «شان — سى» وشرق إقليم «قانسو»، ولم تكن العلاقات بينهم وبين الصين ودية أبداً حتى قيام

دولتهم عام ١٠٣٢م. وإن يكن فإن إمبراطورية «سونغ» منذ قيام دولتهم لم يكن لديها النية للصبر على توسيع «الطانغوت» لأراضيهم مثل الكيدانيين، ولكنها لم تكن قوية بالقدر الكافي لاعتراضهم.

ولذلك فقد اتضحت دبلوماسية «إبادة الأعداء البربر بيد البربر» وتطبيق نظام الدبلوماسية الصينية التقليدى. وبهذا الهدف بدأ الإعداد للحرب ضد «الطانغوت» و«الكيدانيين»، وعقد اتفاق مع سلطنة «إديقوت» الأويغورية التى ليس لها حدود مباشرة والبعيدة جداً.

وطبقاً للوثائق التاريخية يمكن القول بأن حكام إمبراطورية «سونغ» لم يجتهدوا ويتعاونوا كما يجب مع إمارة «أويغور قانصو» والمسئولين التبتيين فى كل من «كوكنور» و«قانصو» لأنه لم تتح لهم فرصة لهذا. ولقد عرضت سلطنة أويغور «قانصو» والمسئولون التبتيون على أسرة «سونغ» الحاكمة التعاون ضد «الطانغوت» مرات عديدة، ولكن فى كل مرة كانوا يتلقون جواباً بالرفض. على أى حال كان حكام «سونغ» منحازين لتطبيق مبدأ الصين الكلاسيكى «هاجم القريبين، وكن صديقاً للجيران البعيدين». ربما كانوا يفكرون فى الإستفادة من قوة الفرسان لدى سلطنة «إديقوت» الأويغورية، لكن وحدات الفرسان لديهم كانت أقل عدداً وأقل استعداداً للحرب مقارنة بقوات فرسان سلطنة أويغور الأورخونية.

من جهة أخرى ليس صحيحاً ما سجله «وانغ — ين — تا» فى كتابه الذى يحمل عنوان «مذكرات السفير المرسل إلى إديقوت» مستنداً إلى أن حدودها فى الجنوب الغربى حتى الهند، وفى الغرب فارس والعرب، وفى الجنوب خوتن. ولو وضع نصب عينيه الوضع التاريخى لفارس وآسيا الوسطى فى عام ٩٨٠م كان سيفهم بشكل قاطع أن معلومات «ين — تا» فيما يتعلق بحدود إمارة إديقوت الأويغورية غير صحيحة.

فى عام ٩٨٠م كان القراخانيون يسيطرون على المنطقة الممتدة حتى «يدى صو» فى الغرب، و«بوغور» فى الشرق؛ أما «السامانيون»

فقد كانوا يحكمون المنطقة المعروفة بخراسان في فارس، وقسم من ما وراء النهر في آسيا الوسطى. فضلاً عن ذلك كانت الخلافة العباسية تحكم القسم الغربي من فارس وسوريا والعراق. وفي ظل هذا الوضع ظلت الأراضي الواقعة شمال جبال طانري (من قومول حتى ماناس) وكذلك القسم الجنوبي لجبال طانري، أي وادي طرفان والجزء الممتد حتى «داشطا - خسي» بقانصو جنوب شرق، والأقسام الجنوبية من لوبنور في الجنوب الغربي من سلطنة إديقوت الأويغورية. كما أنه لم يكن ممكناً في الواقع أن تساهم سلطنة إديقوت الأويغورية في التحركات العسكرية لإمبراطورية سونغ.

نظم الكيدانيون هجوماً على إمبراطورية «سونغ» عام ١٠٠٤م واقتربوا من العاصمة «كاي - فنغ». وبناءً على ذلك أوصى مستشارو الإمبراطور بنقل العاصمة إلى مدينة «نان - جن» أو إقليم «سي - تشوان». والنتيجة أن حاكم كيدان «يه - لو لونغ - شو» (الذي كان قائداً للجيش في نفس الوقت) أجبر أسرة «سونغ» الحاكمة على توقيع معاهدة «شان - جو»\*.

وبموجبها تقدم إمبراطورية «سونغ» للكيدانيين كل عام ١٠٠ ألف مثقال فضة و ٢٠٠ ألف لفة حرير، ولكن الكيدانيين لم يقبلوا العرض وأعادوا شن الهجمات مرة أخرى. وهكذا قبلت حكومة سونغ تقديم ٣٠٠ ألف لفة حرير و ٢٠٠ ألف مثقال فضة. مما جعل إمبراطورية «سونغ» في موقف صعب. وعلى مر ١٢٠ عاماً دفعت أسرة «سونغ» الشمالية (٩٦٠ - ١١٢٦م) ما يقرب من ٢٤ مليون مثقال فضة و ٦ مليون لفة حرير. فضلاً عن ذلك اضطرت أسرة «سونغ» الشمالية لدفع ٧٢ ألف مثقال فضة و ١٥٣ ألف لفة حرير و ١٥ ألف كيلوغرام من الشاي للطانغوت إعتباراً من عام ١٠٤٤. لأن حاكم الطانغوت «ليانغ - هاو» (١٠٣٢ - ١٠٤٨م) شن ثلاث هجمات على أراضي «سونغ» عام ١٠٤٠م، وإضطرهم لدفع الضريبة.

ولو قدمت إمارة «إديقوت» الأويغورية المساعدة بدءاً من عام ٩٨٣ م



لما ظلت إمبراطورية سونغ خاضعة للطانغوت وكيدان على وجه القطع واليقين.

إذن فقد كانت العلاقات بين إمبراطورية «سونغ» وإمارة «إديقوت» الأويغورية مهمة للغاية. وفي عام ٩٨١م أرسل «تاي - تسونغ» إمبراطور «سونغ» هيئة سفارة بقيادة المؤرخ «وانغ - سين - تا» إلى قصر إمارة إديقوت الأويغورية، وكانت الهيئة تتكون من مساعد السفير «باي شونغ دو» وبضع مئات من الأشخاص.

وقد خرج «وانغ ين - دي» في مايو من عام ٩٨١م ووصل قصر حاكم «إديقوت» الأويغورية في شهر أبريل من العام التالي.

وبعد أن أتمت هيئة السفارة اتصالاتها هنا؛ شقت طريقها عائدة إلى «كاي - فنغ» في خريف عام ٩٨٣م. وبعد أن وصل «وانغ ين - تا» إلى العاصمة قدم تقريراً مفصلاً إلى إمبراطور سونغ بخصوص إمارة إديقوت الأويغورية. وفيما بعد أعد السفير مذكراته المتعلقة برحلته هذه في شكل كتاب وقدمه إلى «تاي - تسونغ».

وفي الكتاب معلومات مفصلة عن أسلوب حياة الأويغور وعاداتهم وتقاليدهم؛ وحكومة الدولة وآرائهم الدنيوية، والبيئة الطبيعية لطرفان وكيفية استقبال أرسلان خان على هيئة السفارة والإقتصاد الأويغوري. وإذا كان الكتاب غير متوفر حتى يومنا هذا؛ إلا أن بعض التفاصيل المأخوذة منه انعكست على مؤلفات مؤرخي فترة إمبراطورية المغول وأسرة «سونغ» الحاكمة. مثال ذلك الأجزاء التي تحمل عناوين «تاريخ أسرة سونغ» و«المصادر الأدبية» و«أخبار تتعلق بوانغ ين - تا» و«معلومات خاصة بالإديقوت» وكلها مستقاة من «مذكرات السفير المرسل للإديقوت».

لقد خرج «وانغ ين - دي» عام ٩٨١م من منطقة «چين - شن» في إقليم «شان - سي» الحالي؛ ومرّ من الأراضي الواقعة في منغوليا الداخلية ومنغوليا «التتار الطوقوز» المتداولة في كتابات أورخون في القرن الثامن متقدماً في اتجاه الشمال الغربي، وامتد طريقه عدة آلاف

من الأميال لكي يتجنب هجمات الكيدانيين. إن «وانغ ين - دي» الذي مر أولاً بـ«خاتون باليق» عاصمة الأويغور القديمة الواقعة في وادي الذي يرويه نهر (قره دريا) إرسين الموجود في إقليم «ننغيشيا» حالياً؛ وصل فيما بعد إلى «قومول» متقدماً في الاتجاه الجنوبي الغربي، وقد أرسل رئيس وزراء الإديقوت - الذي علم بوصوله إلى هنا - «أبا أوجه» (سيد الرجال) لاستقبال السفير، وهكذا إستقبل «أبا أوجه» هيئة سفارة «سونغ» بعد طريق إستمر عدة أيام.

عندما وصل «وانغ ين - دي» إلى مدينة «إديقوت»؛ كان «أرسلان خان» حاكم إديقوت الأويغورية في العاصمة بشباليق. وكان «أرسلان خان» - الذي يمضى شهور الصيف في «بشباليق» يترك شئون الدولة لعمه المقيم في إديقوت ولقبه «أبا أوجه». وقام أرسلان خان فيما بعد بدعوة سفير «سونغ» إلى بشباليق. وبعد وصول لجنة السفارة إلى «بشباليق» استقبلهم أرسلان خان في اليوم السابع. وقد استقبل أرسلان خان السفير بوجه ضاحك وعزة وفخار. وكتب «وانغ ين - تا» عن هذا الإستقبال الرسمي «كان أرسلان خان والخاتون والموكب يرددون الدعاء وهم متجهون بوجوههم ناحية الشرق» ( وهذا كان عقيدتهم حسب الديانة الشامانية). ثم قبل (حاكم الإديقوت وموكبه) الهدايا القيمة التي أحضرتها لجنة السفارة. وبينما كان الموسيقيون يعزفون لحن المراسم؛ التفت أرسلان خان للموسيقيين وأوماً برأسه لإظهار تقديره لهم. ثم قدم أبناء أرسلان خان والمقربون الهدايا لسفير «سونغ». ثم أقيم حفل عشاء بعد مراسم الاستقبال. وإنتهى الحفل بحفلة موسيقية. وفي اليوم التالي نظمت جولة بالسفينة في البحيرة، وزيارة المعبد البوذي.

لقد اصطحب «أرسلان خان» بنفسه سفير «سونغ» أثناء مراسم الإستقبال في نزهة بالسفينة وجولة بالمعبد البوذي. وبعد الإنتهاء من المحادثات مع السفير حول العلاقات بين الدولتين عادت هيئة السفارة من «بشباليق» إلى «إديقوت».

يقول «وانغ ين - دي» في مذكراته ما يلي: «إن الناس في إمارة

إديقوت الأويغورية صنفان: السادة (الحكام) وسواد الشعب (مواطنون عاديون). إن الشعب يعشق الموسيقى، ويعزف آلات موسيقية مثل ال berbab و ال topuz ذات ال ٢٥ فتحة، ويبيع للدول الأجنبية اللباد الأبيض وأدوات الزينة، ويحب الرجال التجول فوق الجياد باستمرار. وعندما يتوجهون للحرب يصطحبون معهم أدواتهم الموسيقية. ولا يوجد فقراء في البلد. والناس بصفة عامة يتمتعون بأعمار طويلة فلا يموتون في سن الشباب. والطب متقدم لأقصى درجة. وعندما كنا في مدينة إديقوت كان الحاكم في المرعى في بشباليق. وقطعان الجياد في هذا المكان كثيرة جداً. وهناك قطعان خاصة بالحاكم وزوجته وأبنائه. والقطعان ترعى في مجموعات منفصلة طبقاً لألوانها، ولا يمكن إحصاء عددها. وهناك العديد من الموسيقيين في قصر الحاكم يعزفون الموسيقى أثناء مراسم الإستقبال والمآدب وأثناء المناقشات. كما يوجد العديد من البساتين والمباني الكبيرة والمتنزهات. والناس مرفهون والكل في بستانه وحديقته منشغل بعمله وقوته. إنهم أناس مجتهدون وماهرون في العمل وخبراء في الخيول. ويبيعون الخيول الجيدة مقابل كميات كبيرة من الحرير، والسيئ منها يصل إلى ثلاث لفات من الحرير. وأغنياؤهم يأكلون اللحم، وفقراؤهم أيضاً متوفرة لديهم. وتدار الدولة من قبل الخانات. وعندما كنا هناك كان «أرسلان خان» حاكماً لسلطنة إديقوت. والجميع ينجحون في أداء وظائفهم كما يجب. ويقرر الحاكم أمور الدولة بمفرده. أما الأمور الصغيرة الأخرى فيبت فيها الأمراء والسادة. ويجتمع أمراء إديقوت كل صباح في خيمة المشورة.

وما كتبه «وانغ ين - دي» يؤيد أن أجدادنا ربوا قطعاناً كبيرة من الجياد الأصيلة بجوار «بشباليق». كما كانت جيوش الفرسان لدى أجدادنا — الذين ربوا أول قطعان في التاريخ — تستخدم جيادا ذات ألوان متنوعة. وكانت جياد جيش الفرسان لديهم بأربعة ألوان مختلفة (الأبيض، الرمادي، الأسود، أزرق والكستنائي). وكانت كل وحدة فرسان بلون مختلف. بتعبير آخر كان يتم تمييز فرق الفرسان بألوان الجياد.

ومن المصادر الأخرى الخاصة بهذه الفترة بالإضافة إلى ملاحظات رحلة «وانغ ين - دي» مقالة «هو - تشي تشينغ» الذي أورد فيها ما يلي: «لا يوجد هنا ثلج كثير (يقصد طرفان) والمناخ حار بشكل عام. وفي أيام يوليو الحارة يظل الناس في مباني تحت الأرض. كما أن الطيور تتجمع في هذه الأيام على السواحل ولا تجرؤ على الطيران. وإذا ما حاولت الطيران تسقط لوهن أجنحتها. وهنا يطلون الواجهات الخارجية لمنازلهم بالجص. والمناخ حار لأقصى درجة والأمطار شحيحة. ويسود مناخ جاف نموذجي. وتغطي المياه المنحدرة من «آلتون داغ» (يقصد جبال طانري) إحتياجات المدينة، والأغلبية تعزف على آلة موسيقية، والأكثرية أيضاً يعزفون الجونجا (عبارة عن جرس قرصي الشكل) والرباب. والناس ذوو قلوب نقية ومضيافون كرماء وهادئون وفنانون. فهم يقومون بأعمال متنوعة ويقومون بصهر الحديد والنحاس والذهب والفضة. ويستطيعون كذلك عمل الحلبي للزينة من اليشم (الأحجار النفيسة)، وينسجون القماش المزركشة. ويحب الجميع ركوب الخيل ورمى السهم، وشعر السيدات والفتيات طويل».

وهذه الشهادة تلقي الضوء بقدر كاف على مناخ وادي طرفان واقتصاد سلطنة إديقوت الأويغورية، ورؤية الناس للعالم وتقاليدهم ووجهات نظرهم. وقد أرسل الأويغور سفيراً إلى إمبراطورية «سونغ» مرتين ( فيما بين عام ٩٦٢ — ٩٨١م). وذلك قبل حضور «وانغ يان — تا» في عام ٩٨١م بوقت طويل؛ وعندما انهزم إمبراطور «سونغ» عام ١٠٤٠م في مواجهته مع الكيدانيين الشرقيين واضطر لدفع جزية كبيرة؛ أرسلت إمارة إديقوت الأويغورية هيئة سفارة ثالثة لقصر الإمبراطورية.

## الفصل العشرون : دخول إمارة إديقوت الأويغورية تحت حكم الكيدانيين الغريين

ضعفت إمبراطورية سونغ بهزيمتها على يد الكيدانيين الشرقيين مرتين فى عامى ٩٧٩ و ٩٨٢م بجوار بكين الحالية. بينما قوي الكيدانيون الشرقيون، حيث تم توقيع معاهدة فى مدينة «شان — يوان» بإقليم «خونان» عام م ١٠٠٤ تحمل نفس الإسم، وافقت إمبراطورية «سونغ» بمقتضاها على دفع جزية سنوية كبيرة للكيدانيين.

وفى عام ٩٥٨ أخضع «الكيدانيون» الشرقيون لحكمهم قبائل «نو — جين» التى تعيش على ضفاف نهري «صونغارى» و «أمو(خلوجانغ)» وكانت هذه القبائل تعمل بالزراعة والصيد منذ القدم.

بعد توحيد قبيلة «وان — يان» إحدى قبائل «نو - جين» فى أواسط القرن الحادى عشر مع قبائل اخرى؛ زادت قوة «نو- جين» بشكل واضح. وكان حكام نو - جين من قبيلة «وان - يان». وفى عام ١١١٤م رفع السيد «أغودا» والذى ينتسب إلى قبيلة «وان - يان» هذه — راية العصيان ضد الكيدانيين، وأنزل بهم ضربة ثقيلة فى منطقة «فو — يو» بإقليم «جيلين» حالياً. وأعلن نفسه حاكماً عاماً ١١١٥م. ظهر شعب على ساحة التاريخ اسمه شعب چورجان. ثم أرسل «أغودا» حاكم «چورجان» سفيراً إلى إمبراطورية «سونغ» وتحالف معه ضد الكيدانيين. وفى النهاية طويت صفحة الكيدانيين الشرقيين من ساحة التاريخ عام ١١٢٤م وذلك من جراء الحروب الداخلية وصراعات العرش والحروب المندلعة مع «سونغ» الشماليين و«الچورجان»

عقب انتهاء الكيدانيين بعد أن استمر وجودهم السياسي ٢١٠ عاماً، هرب الأمير «طوس تايفو- يلو دا - شي» (١٠٨٧ - ١١٤٣ م) صوب الغرب وجاء إلى مدينة خاتون باليق الكائنة في منغوليا حالياً (وهي إحدى المدن الإستراتيجية المهمة لإمارة أورخون الأويغورية)، وأعلن نفسه هناك حاكماً للكيدانيين. ثم توجه إلى قيرغيز «ينى ساي»، لكنهم تعرضوا لهجوم القرغيز ونهبهم، فاضطروا للجوء إلى نواحي مدينة بشباليق. وكان الكيدانيون الذين جاءوا إلى نواحي بشباليق مع «طوس تايفو» عبارة عن ٤٠ ألف خيمة، أي حوالي ٢٠٠ ألف شخص. وكوّن «طوس تايفو» من هذه الخيام الأربعين ألفاً، جيشاً قوامه ٤٠ ألف شخص. وبالرغم من وجوده فوق أراضي إمارة إديقوت الأويغورية فقد أنشأ شبكة مخابرات قوية تجمع معلومات مفصلة عن آسيا الوسطى.

وفيما بعد أرسل «طوس تايفو» سفيراً إلى إمارة إديقوت الأويغورية ليعلمهم برغبته في تنظيم حملة على النواحي الغربية، ورغبته في السماح له المرور عبر أراضي إمارتهم. ونهض «بيلكه تكين» بعد استلام الخطاب وتوجه إلى خيمة «طوس تايفو» بنفسه. وبعد الإستضافة ثلاثة أيام شق «طوس تايفو» طريقه مباشرة صوب الغرب. وقام «بيلكه تكين» بإهدائه ٦٠٠ جواد و ١٠٠ جمل و ٣ آلاف شاه، فضلاً عن ذلك أرسل معه بعضاً من أبنائه وأحفاده ورافقه حتى حدود دولته فأظهر بذلك صداقته لـ«طوس تايفو»<sup>١٦٠</sup>.

واستناداً إلى المصادر الأخرى يمكن القول بأن «طوس تايفو» عبر من أراضي إمارة إديقوت الأويغورية، وطلب السماح له بالبقاء في أراضي «إيليك خان» والإقامة لفترة في مكان يسمى إميلدا الواقع تحت سيطرة «إيليك خان» الشمالية داخل حدود القراخانيين الشرقيين.

بدأ «يلو دا - شي» جمع القوات في «ميلدا» وأخذ يتحين الفرصة المناسبة لمهاجمة القراخانيين الشرقيين وكان إبراهيم حاكم القراخانيين الشرقيين في تلك الفترة قد طلب مساندة «يلو دا - شي» لقمع تمرد القارلوق. وانتهز «يلو دا - شي» تلك الفرصة وقام باحتلال كاشغر

وبلاساغون بزعم قمع تمرد القارلوق. وهكذا دخل القراخانيون الشرقيون تحت حكم الكيدانيين.

وفي أغسطس من عام ١١٣٧م هزم «طوس تاغغو» جيش القراخانيين الغربيين. أما في عام ١١٤١م فإن القارلوق - الذين تمردوا على القراخانيين الغربيين - طلبوا المساعدة من الكيدانيين. وبناءً على ذلك فقد طلب القراخانيون العون من السلاجقة. ولكن انتهت الحرب التي اندلعت في صحراء «قطوان» الواقعة بين بخارى وسمرقند - في شهر سبتمبر - بهزيمة السلاجقة والقراخانيين؛ مما اضطر القراخانيين الغربيين أيضاً للخضوع لحكم الكيدانيين.

وهكذا فإن «طوس تاغغو» أسس دولته التي يرد ذكرها في التاريخ باسم «إمارة كيدان الغربية» وشملت حدودها جزءاً مهماً من آسيا الوسطى.

مع أن إمارة كيدان الغربية ربطت نفسها بإمارة إديقوت الأويغورية؛ إلا أنها لم تتدخل في شئونها الداخلية. كان الشيء الوحيد المهم في الواقع هو أداء الضريبة المطلوبة. ومع ذلك كان هناك ممثل لهم في عاصمة إمارة إديقوت الأويغورية لجمع الضرائب بانتظام. وقد إعتلى عرش إمارة إديقوت الأويغورية بعد «بيلكه تكين» شخص يدعى «إيسان تمور» ولكن لا تتوفر أي معلومات حول السنوات التي قضاها في الحكم.

## الفصل الحادى والعشرين : المغول وإمارة إديقوت الأويغورية

### چنكيزخان و«بارچوق آرت تكين»

فى نهاية القرن الثانى عشر وبداية القرن الثالث عشر كانت قبائل مغولية مختلفة تعيش على شواطئ نهرى «أونون» و«كارولن» فى منغوليا حالياً. كما كان التتار يعيشون بجوار بحيرة بايقال، والمركيت والنايمان والكرائيت وألطاى الشرقيين (فهي قبائل تركية) يعيشون على شاطئ نهر «تولا». وقد كانت هذه القبائل منذ القدم فى حالة حرب مستمرة مع بعضهم البعض من أجل مصادر المياه والقطعان والمرعى. كان المغول الذين يعيشون على ساحل النهر يشتغلون بالزراعة، أما الذين يعيشون فى الغابات فكانوا يعملون بالصيد، ومع ذلك كان يطلق عليهم التتار بسبب كثرة عددهم. وكانوا بوجه عام أصحاب بنية إقطاعية تحافظ على بناء القبيلة. إن الحروب المستمرة بين القبائل جعلت سادة المغول فى وضع صعب دائماً. ولقد أرادوا تأسيس دولة واحدة تتحد فيها القبائل المغولية المقسمة كي تنتهى الحروب الداخلية ويتحسن الاقتصاد وتعود الحياة طبيعية. ولكن كانت إمارة «جورجت» تعمل باستمرار على إثارة الحرب بين القبائل المغولية التابعة لها. فقد كان هدف «جورجت» الوحيد هو أن يعيش المغول فى حالة من التشتت والفرقة، وضم الشباب المغولى للجيش وموتهم بأعداد كبيرة. ولذلك كانت الصراعات الداخلية بين قبائل المغول بفعل الجورجت، إذ كان هدفهم الأساسى هو إبادة المغول بصورة تدريجية.

ولكن حقق چنكيز خان حلم المغول فى تأسيس دولة قوية



ففى عام ١١٥٣م ولد صبى فى عائلة «ياسوكاى» المنحدرة من «بورتكين» التى تنتسب لقبائل «قيات» الموجودة على شاطئ نهر «أونون». وأطلقوا عليه إسم طومورچى (بالمغولية تموجين) وصار شابا رشيق الحركة ونشيطا وقويا؛ فى تلك الأثناء دس حاكم التتار «طغرل خان» السم لـ«ياسوكاى باتور». وظل تموجين اليتيم يعمل فى معدن الحديد كالعبد لعدة سنوات. وبعد إطلاق سراحه عاد لقبيلته. وعقب صراعات دامية نجح فى توحيد قبائل المغول، ثم أنزل بالتتار هزيمة ثقيلة فى حرب عام ١٢٠٢م، ثم أباد كبار رجال التتار ونساؤهم كلهم ثارا لوالده. وفى عام ١٢٠٤م هجم على «النايمان» وقتل «تايان - خان». وهرب قسم من «النايمان» بقيادة «كوجلوك - خان» إلى نواحي «يدى صو». وعندما أخضع تموجين «النايمان» لطاعته؛ وقع فى يده أحد مستشارى «تايان - خان» يدعى «تاتا تونغغا» وهو من أصل أوغورى، وكان بالغ القدرة والذكاء والعقل. وسيلعب «تاتا تونغغا» هذا دورا مهما عند تأسيس إمبراطورية المغول الكبيرة فى المستقبل.

عندما تولى چنكيز خان حكم دولة المغول الفتية فى عام ١٢٠٦م وضع نصب عينيه أمرين مهمين. الأول جمّع كل الأكفاء ومن يعرفون القراءة والكتابة من شعوب الغرب خصوصا من الأوغور، واستخدمهم فى تنظيم الشئون الداخلية وتكوين جيش للدولة الناشئة. والآخر هو تأسيس جيش كبير وقوي ومدرب.

لقد نقل الجوينى - المؤرخ الفارسى الذى عاش فى القرن الثالث عشر - معلومات قيمة عن بنية جيش المغول. وطبقا لما قاله فإن قسما كبيرا من عائلات المغول كانوا يعملون فى تربية الحيوان فى أوقات السلم، لكن عندما تعلن الحرب كانوا يشكلون عشرات ومئات وآلاف الوحدات بموجب قوانين الترحال. وطبقا لقانون چنكيز خان كان كل محارب مغولى مضطرا لأن يحمل معه أسلحته الضرورية (السهم، القوس، السيف، ومثل الجمل والحصان والحمار للركوب وحمل المعدات)

وكذلك لوازمه من الإبرة، والحبل، ووعاء، وفأس، وما شابه ذلك). ويرتب القادة على درجات مثل قائد عشرة، وقائد مائة، وقائد ألف وقائد لواء. وكان يتم اختيار هؤلاء من أمراء قبائل المغول مثل قبيلة «باطور» و«مرغان» و«ججان» و«نويون»، وكان أغلب القادة من الأمراء. ولم يتميز جيش المغول بنظامه الفريد فقط، ولكن بقدرته على الحرب وخفة حركته وشجاعته.

وبعد أن حقق چنكيزخان الهدفين المهمين نظم عدة حملات عسكرية. وفي عام ١٢٠٧م أرسل ابنه الأكبر «جوجى خان» إلى سيبيريا لإخضاع القبائل المحلية. فتمكن من إخضاع قيرغيز «ينى ساي» و«بوريات بايقال» وأويغور الطاي و«أويرات» ينى ساي (أويغورات) و«القونغورات». ومن أجل القضاء على الجورجت أعداءه إتجه چنكيزخان أولاً لمحو إمارة الطانغوت - التى تقع فى الجزء الشمالى الغربى للصين - من الخريطة. وكانت إمارة الطانغوت (١٠٣٢—١٢٢٧م) والجورجت حلفاء. وإتجه چنكيزخان صوب الطانغوت عام ١٢٠٩م وأنهى أمرهم، واتخذ إحدى بنات «ليان — تشونغ» حاكم «الطانغوت» زوج له. أما «الطانغوت» فقد أقروا حكم المغول وقبلوا دفع الضرائب. وسرعان ما ذاعت شهرة لچنكيز خان بسبب الانتصارات المتوالية. فبلغت أخبار انتصاراته إمارة إديقوت الأويغورية الموجودة فى منطقة قريبة جداً للمغول فى شرق آسيا. وكانت إمارة إديقوت الأويغور آنذاك تحت حكم الكيدانيين الغربيين لمدة ٨٤ عام تقريباً، وإتخذ «باورچوق آرت تكين» حاكم الأويغور قراراً بالإستقلال عن الكيدانيين الغربيين فى عام ١٢٠٩م متقصياً الوقائع والأحداث حول قوة المغول وضعف قوة الكيدانيين). وطلب «باورچوق» رأى «تارخان بيلكه بوقا» كبير مستشاره، فنصحه بقتل سفير «كيدان» والدخول تحت حكم المغول. ولكن هذا الرأى لم يعجب «باورچوق آرت تكين»، ولكنه عاد وقبله من حيث المبدأ. وفى النهاية أخذ «تارخان بيلكه بوقا» على عاتقه أمر قتل سفير «كيدان» فى مدينة إديقوت حيث حصل على مساندة «باورچوق خان». وطبقاً

لما سجله المؤرخ الفارسي الجويني فقد تم قتل «شاوقيم» سفير «چوروق» حاكم كيدان والموجود في مدينة إديقوت.

وبعد مقتل سفير كيدان أرسل «باورچوق آرت تكين» سفارة من ثلاثة أفراد إلى خيمة چنكيز خان على ساحل «كارولن». وحمل السفراء هدايا قيمة فضلاً عن رسالة «باورچوق». وقد أوضح «باورچوق» في رسالته قتله سفير «كيدان» ورغبته في التبعية للمغول. وبعد أن استقبل چنكيز خان سفير الأويغور بإحترام كبير وبعد أن أخذ رأس سفير كيدان طلب حضور «باورچوق آرت تكين» شخصياً إلى خيمته. في عام ١٢١١م إصطحب «باورچوق آرت تكين» الأمراء مثل «آل قايا» وتوجه مباشرة لـ «نهر كرولن»، وبعد فترة وصل إلى خيمة چنكيز خان. وفرح چنكيز خان للغاية لحضور «باورچوق» شخصياً، وخاطبه قائلاً «إبنى الخامس». وفضلاً عن ذلك أعلن چنكيز خان نيته في تقديم إبنته «آل آتون» (آتون بيكا) زوجة لـ «باورچوق»، ولكن للأسف توفيت «آتون بيكا» قبل زواجها من «باورچوق».

وفيما بعد اشترك «باورچوق خان» بجيشه في حملات عديدة لچنكيز خان؛ بصفته تابع للمغول. واشترك في الحملات التي نظمها چنكيز خان من أعوام ١٢١٩ — ١٢٢٥م، وضد إمارة الطانغوت بعد ذلك.

### حملات المغول على الشرق والغرب

بعد أن أصبحت إمارة إديقوت الأويغورية تابعة لچنكيز خان بالطرق السلمية بدأ الاستعدادات لحملة جادة للغاية. فسار في عام ١٢١١م إلى «الجورجت» الجيران الشرقيين. وكانت هذه الحملة منظمة وكاملة لأقصى درجة. وقبل الخروج للحملة توجه للسماء داعياً وطلب معونتها ومنحه القدرة على الثأر لعميه «أمباغاي» و«آقین باراق» من أعدائه «الجورجت»<sup>١٦١</sup>. وقبل أن ينظم حملة الشرق استولى على مصادر ثروات «الجورجت» وخطط للإستفادة منها، وأعد جيشاً قوامه ٢٠٠ ألف مقاتل وقاده بنفسه، وكان في معيته أبناؤه «چوچی» و«چغتاي» و«أوكتاي»

و«طولخان» فضلا عن خير قاداته «سوبوداي باتور» و«جابه نويون».

وعندما اقترب جيش المغول من سد الصين قوبل بمقاومة شديدة من «الجورجت». لكن جيش المغول بقيادة چنكيزخان شتت جيش الأعداء المكون من ٣٠٠ ألف شخص تحت قيادة «غوشاغور» و«غوشيلا» من الجورجت وشتته في منطقة «وانغ — شونغ» بإقليم «خوبى» الحالي. وقد هلك كل القادة الجورجت في هذه الحرب. وهكذا نجح چنكيزخان في الاستيلاء على جزء مهم من «ساندونغ» و«سانشى» مع الأجزاء الشمالية لأقاليم «خونان» و«خوبى». وكان حاكم الجورجت «وانغ — يان يونجى» قد قتل كذلك أثناء القتال. وقام «وانيان شونتو» الذى تولى مكانه بإرسال أميرة الجورجت إلى چنكيزخان مع واحد سفيره. فضلا عن ذلك كان «سوان - تسونغ» قد أرسل أيضاً مقدارا وفيرا من الذهب والفضة وغيرها و٣٠٠٠ جواد، حيث أظهر هؤلاء الجورجت قبول حكم چنكيزخان. وقد حصل چنكيزخان على غنائم كثيرة وعاد إلى منغوليا عام ١٢١٤م.

لقد استولى چنكيز خان على جزء مهم من شمال الصين أثناء الحملة الأولى ضد «الجورجت». ولكن لم يهاجم على عاصمتهم «جوندوا» (بكين حاليا). وعند العودة إلى منغوليا عام ١٢١٤م ترك «وانيان شونتو» إمبراطور الجورجت «جوندوا» ونقل عاصمته إلى «كاي - فنغ».

وعندما علم چنكيز خان بذلك أعد الحملة الثانية ضد «الجورجت» بعد عام واحد واحتل مدينة «جوندوا» فى شهر مايو من عام ١٢١٥م. وغنم كل ما فى المدينة، ودون أن يضيع المغول أى وقت دخلوا خونان وهاجموا «كاي — فنغ». وفى «خونان» دار قتال شرس وقوبل المغول هذه المرة بمقاومة عنيفة غير متوقعة من «الجورجت». وأدرك چنكيزخان أنه لن يستطيع إخضاع الجورجت فى فترة بسرعة، وقام بتعيين واليا يدعى «موغالى» على المنطقة التى فتحها واستولى عليها منهم؛ ولكنه عزم على القضاء نهائياً على «الجورجت». وعاد مرة أخرى لوطنه وإستراح فى خيمته الواقعة على شاطئ «كارولن».

فى الحملة الثانية التى نظمها چنكيزخان ضد «الجورجت» استولى على استولى على غنائم أكثر قيمة من العبيد والأقمشة مختلفة الأنواع والذهب والفضة وأشياء أخرى. أهم نتائجه فى هذا الحرب تعرف على الطريقة العسكرية الرفيعة للصينيين فى محاصرة المدينة. وأخذ معه إلى منغوليا أسلحة مختلفة كثيرة، وكذلك صناع الأسلحة والمتدربين عليها، وسرعان ما عمل على اكتساب هذه التقنية لجيشه<sup>١٦٢</sup>.

نجح چنكيزخان فى حملته عام ١٢١٥م فى ضم أمير كيدان «يلوجو ساي» إلى جانبه. ثم اعتمد على «يلو» الكيدانى ومستشاره الأويغورى «تاتانونغيا» فى إدارة شئون الدولة. وقد قام «يلوجو ساي» بخدمة چنكيزخان وأوكتاي على مدار ٣٠ عام كاملة.

بعد أن أتم چنكيز خان حملة الصين عام ١٢١٥م بدأ الإستعدادات لحمالات الغرب. فقد نظم المغول ثلاث حملات على الغرب، استمرت أولها سبع سنوات من عام ١٢١٩ حتى ١٢٢٦م وأدارها چنكيز خان بنفسه. ونُظمت الثانية فى عهد الحاكم العظيم «أوكتاي» (١٢٢٩ — ١٢٤١م). وأدار هذه الحملة التى استمرت خمس سنوات باتورخان حفيد چنكيزخان. أما الحملة الثالثة فكانت فى عهد الحاكم «مونكا» واستمرت ٤ سنوات فيما بين عام ١٢٥٤ — ١٢٥٨م وأدارها «هولاكو» حفيد چنكيزخان.

والآن سنمعن النظر باختصار فى حملات المغول الغربية.

بعد أن أخضع چنكيزخان إمارة إديقوت الأويغورية لطاعته عام ١٢٠٩م توجه للحملات على الغرب. لقد عزم چنكيزخان على القضاء أولاً على «كوچلوك خان» الذى يمثل عقبة أمام حملته التى سينظمها ضد الخوارزمشاهيين فى آسيا الوسطى، فقام بإرسال جيش قوامه ٢٠ ألف شخص بقيادة «جابا نويون» ضد «كوچلوك خان» عام ١٢١٨م. وكان «كوچلوك خان» أمير نايمانى قد توجه من الطاي إلى يدي صو ولجأ إلى «جوروق» حاكم كيدان الغربية. وبعد أن حاز على ثقة «چوروق» قام بنقل النايمان من شرق «الطاي» إلى «يدي صو». وتزوج من ابنة

«چوروق» وبعد أن توفر أسباب القوة انتهز الفرصة المناسبة واستطاع في القضاء على إمارة كيدان الغربية التي استمر وجودها ٨٠ عاماً وذلك إذ انهزم «چوروق» أمام عثمان بوغراخان حاكم القراخانيين الغربيين وخوارزمشاه محمد في «طالاس» عام ١٢١١م، وأسس «كوجلوك خان» مكانها إمارة نايمان الغربية (١٢١١ — ١٢١٨م)، وأصبحت خوتن وياركند وكاشغر ویدی صو وادی فرغانة داخل حدود إمارة نايمان.

وبعد أن أسس كوجلوك خان إمارة نايمان الغربية واتخذ كاشغر عاصمة لها؛ مارس كل أنواع الضغط على أبناء البلد الأويغور المسلمين. وكان هو نفسه معتقاً للمسيحية النسطورية، ولكنه كان ارتد عن دينه القديم واعتنق البوذية عندما جاء وانتقل إلى «یدی صو» عام ١٢٠٤م وكانت تحت حكم الكيدانيين. وبالرغم من أنه قوى وشجاع إلا كان قاسياً وظالماً ومنافقاً وأحمقاً في شئون الدولة. فإذا أراد معاقبة الأويغور في كاشغر وياركند وخوتن؛ كان يبذل ما في وسعه لإجبارهم على التخلي عن الإسلام واعتناق البوذية. وبمجرد أن وصل إلى خوتن جمع عدة آلاف من المسلمين الذين يؤمهم الإمام علاء الدين محمد وأوصاهم بتخلي الإسلام واعتناق البوذية، وهددهم بأنه في حالة رفضهم لاقتراحه سيقطع رؤوسهم. ولكن الإمام علاء الدين ناظر مع كوجلوك خان وأفحمه وبصق على وجهه، وبناء على ذلك قام بقطع رأس أكثر من ٣ آلاف من العلماء ورجال الدين<sup>١٦٣</sup>. فلما علم المغول بالخلاف القائم بين «كوجلوك خان» والأويغور المسلمين — قاموا ببعض التحركات بزعم حماية الدين. وهذا التدبير جعل هلاك «كوجلوك خان» أمراً مقرراً.

لقد تلقى «كوجلوك خان» - الذي أصيب بلعنة الأويغور المسلمين - هزيمة ثقيلة أمام «چابه نويون» بالقرب من «إيصيق كول» وهرب إلى كاشغر. وقام الأويغور بقتل محاربي «كوجلوك خان». وهرب «كوجلوك خان» الذي أصبح في موقف صعب للغاية إلى «صريق قول» جنوب غرب كاشغر، ولكن المغول تعقبوه وألقوا القبض عليه وقتلوه. وبعد أن انتهى چنكيز خان من أمر «كوجلوك خان» أنعم في عام ١٢١٨م

على «بايداغان دوغلات» من قبائل دوغلات بـ«ناحية الشرق» وحكم كوچار وأقصو وكاشغر وياركند وخوتن. فى هذه المنطقة تقع «باغراش» و«كورلا» فى الشرق وفى الشمال «موزتاغ» وفى الغرب «جبال الطاي» و«كاتتا داوان» وفى الجنوب «لإليكات» وبدخشان و«جبال قرانغو». وقد حكم أحفاد «بايداغان» هذه المنطقة فترة طويلة جداً. وكلمة «دوغلات» فى المغولية تعنى «أعرج».

أحضر بابداغان أقاربه ورفقاءه من منغوليا إلى وادى تاريمفى «مانغلاى صوياه» ووطنهم فيها. وأصبح أبناؤه بعد وفاة جنكيزخان أويغوراً وحكموا هذه الأراضى طوال ثلاثمائة عام (١٢١٨ - ١٥١٥م) من زمن «جغتاي خان» حتى تأسيس امارة «ياركند السعيدية».

قام جنكيزخان باستعدادات جادة وإتخذ التدابير اللازمة قبل الهجوم على الخوارزميين. وبعد القضاء على «كوچلوك خان» قام بجمع المعلومات الضرورية عن جيش الخوارزميين وكل ما يهمله عن طريق التجار الأويغور وغيرهم. ولم تكن حملة جنكيز خان الغربية غير منظمة كما يدعى بعض المؤرخين.

لقد استبدت جنكيز خان الرغبة فى أن يحكم المغول العالم بأسره. وأعلن الكاهن الأكبر «كوچى سوتو» فى مجلس الشورى المقام على شاطىء نهر «اونون» فى عام ١٢٠٦م عند إطلاق لقب جنكيز خان على تيموچين «أن إله السماء العظيم قد وهب جنكيز خان حكم العالم بأسره». وطبقاً لهذا فإن القوى الإلهية قدرت لجنكيز خان أن يحكم العالم بأسره. والعارفون بتاريخ العالم يعرفون بأنكثير من الفاتحين قد طوى التاريخ صفحتهم، ومع ذلك فإن بعض المؤرخين الغربيين المعاصرين يسلمون بأن جنكيزخان حاكم المغول و«آتيلا» حاكم الهون أكبر فاتحين للعالم. وآراء المؤرخين هذه تستحق الوقوف عندها جدياً. إن الحملة التى نظمها جنكيز خان تجاه الغرب بدأت بكارثة «أوترار» المشنومة التى وقعت عام ١٢١٨م.

أرسل چنكيز خانإلى عاصمة خوارزم شاه فى ام ١٢١٨م قافلة كبيرة تضم سفراء و ٤٥٠ تاجرا. «والبضائع محمولة على ٥٠٠ جمل، كما كانت القافلة تحمل بضائع قيمة للغاية». ولكن «إينالچيق قاهرخان» قريب خوارزمشاه وفى نفس الوقت حاكم «أوترار» نهب القافلة المتجهة إلى «أوركنچ» عاصمة خوارزم فى مدينة «أوترار» الواقعة على الطريق. وقتلوا المسافرين ومن بينهم سفراء چنكيز خان. وليست هناك معلومة مؤكدة حول ما إذا كان «إينالچيق خان قايرخان» قد قام بهذا العمل بأمر من خوارزمشاه أم من تلقاء نفسه. واستشاط چنكيز خان غضبا على رأس جيش قوامه ٢١٠ ألف شخص وتوجه للغرب، وشق طريقه صوب دولة خوارزمشاه واصطحب أبناءه جوچى وچغتای وأوكتاي وطولوى فضلا عن قواده المقربين «جابه نويون» و«سوبوداي باتور». وكذلك «يلوتشو تساي» مستشار أمير كيدان ومستشار الأويغور «تاتا تونغغا» و«تورا قايا» و«بولادقايا».

وبأمر من چنكيز خان حاصر أبناءه «چغتای» و«أوجه داي» مدينة أوترار فى شهر سبتمبر من عام ١٢١٠م. ودافع «إينالچيق قاهرخان» عن المدينة بشجاعة. واستولى المغولعلى المدينة بصعوبة بعد حصار لها شهرا، لقي «إينالچيق قاهرخان» مصرعه.

بعد استيلاء المغول على «أوترار» هاجموا دولة الخوارزميين من عدة إتجاهات. واقترب چنكيز خان وتولوى عام ١٢٢٠م من بخارى، واستولى على المدينة فى شهر فبراير من العام نفسه. ويقال أن چنكيز خان استولى على كل المدن المهمة بدولة الخوارزميين بنهاية عام ١٢٢٠م. أما أشد المعارك فقد خاضوها عند الإستيلاء على أوركنچ بسبب مقاومة المدافعين عن المدينة على مدى ستة أشهر، لكنهم استولوا على المدينة فى شهر أبريل من عام ١٢٢١م.

عند استيلاء جيوش چنكيز خان على سَمَرْقَنْد فى شهر مارس من عام ١٢٢٠م (حيث كان تعداد المدينة ٦٠٠ ألف نسمة) كان من بين الأسرى أفراد كثير من عائلة محمد خوارزمشاه، ومن بينهم «تركان



خاتون» والدة محمد، وابنته «خان سلطان» و«تركين سلطان» وبعض الأبناء.

عند عودة چنكيز خان من آسيا الوسطى إلى دولته، نقل معه «تركان خان» إلى قره قورم عاصمة إمبراطورية المغول. وتوفيت «تركان خاتون» هناك عام ١٢٣١م. وأرسلت خان سلطان زوجة عثمان بوغراخان إلى جوچی، أما «تركين سلطان» فقد تزوجها أحد مستشاري چنكيز خان، وقتل الأمراء الذين وقعوا في الأسر بأمر چنكيزخان.

بعد أن استولى المغول على كبريات مدن وسط آسيا؛ قتلوا كل أهلها بوحشية كما هي عادتهم باستثناء أصحاب الحرف. أما أصحاب الحرف في المدن التي أبدت مقاومة ضدهم (مثل سمرقند وأوركنج) فقد أعمل فيهم السيف.

لقد ظهرت شخصيات مهمة ورائعة بين الذين قاوموا المغول في آسيا الوسطى. ويمكن أن يعد خوارزمشاه جلال الدين و«تيمور مالك» قائد الوحدات الخاصة بجيش خوارزم و«إينالچيق قاهرخان» والي أوترار من بين هذه الشخصيات الشجاعة. ومن هؤلاء «إينالچيق قاهرخان» الذي قاوم لمدة شهر كامل ضد الأعداء بقوة أقل عشر مرات من جيش المغول، حتى أن «چغتاي» و«أوكتاي» إبني چنكيز خان فقدوا الأمل أمام شجاعته. أما «تيمور مالك» والي خوجند فقد جعل المغول يعيشون لحظات صعبة للغاية، وصمد هو ومحاربوه على جزيرة في نهر سرداريا على بعد كيلومتر واحد، ومن هناك أنزل ضربات مميتة بالمغول. ولكن في النهاية تركوا الجزيرة وتقدموا بالسفن عبر النهر. وضاعت سدى محاولات المغول دخولها بأعداد غفيرة للإستيلاء عليها، وفيما بعد أنزل هذان الإثنان ضربات موجعة بالمغول.

على الرغم من هروب خوارزمشاه محمد من ما وراء النهر إلى خراسان أثناء اجتياح المغول بعدما عانى ما عاناه من الأعداء إلا أنه لم يستطع البقاء هناك طويلاً ولجأ إلى إحدى جزر بحيرة آرال، يقال أنها كانت مأوى مرضى الجدازم، وتوفى هناك، وبعد وفاة خوارزمشاه

محمد تولى إبنه جلال الدين عرش الخوارزميين. وبعد العديد من المعارك التى وقعت بين جلال الدين والمغول فى محيط عاصمة خوارزم ومناطق أخرى انسحب إلى غزنة. وجاء چنكيزخان إلى غزنة مع أبنائه بهدف القضاء عليه وأسرته.

وفى المعارك التى وقعت على شاطئ نهر السند حاصر چنكيزخان، «جلال الدين»، وبعد أن أدرك جلال الدين ذو الأصل الأوغوزى أنه لا أمل له فى النجاة، ألقى بوالدته وزوجته وإبنه البالغ من العمر ثمانى سنوات فى النهر؛ وقاد جواده إلى نهر السند ونجح فى الوصول إلى الشاطئ المقابل والعبور إلى ناحية الهند. وطبقاً لبعض الروايات فإن جواد جلال الدين اجتاز النهر إلى الضفة الأخرى بمفرده، ولكن جواد المغول ذات القامة القصيرة لم تستطع الوصول إليه، وكذلك لم تستطع الانتقال إلى الضفة الأخرى. وبعد أن وصل جلال الدين للشاطئ المقابل شهر سيفه لتهديد چنكيز خان وأبناءه ثم اختفى، واندesh چنكيزخان من شجاعته، ولم يستطع ان يمنع نفسه من القول «هكذا يكون الأبناء».

ثم تقاتل جلال الدين مع المغول على مدى عشرة أعوام، وبالرغم من انتصاره فى كل المعارك التى وقعت بينهم إلا أنه لم ينجح فى إعادة بناء دولة الخوارزميين. وفى النهاية قتل بطل آسيا الوسطى القومى هذا على يد أكراد العراق عام ١٢٣١م.

أثناء هروب محمد خوارزمشاه إلى خراسان أرسل چنكيز خان إلى تلك المنطقة جيشاً قوامه ٢٠ ألف شخص بقيادة «چابه نويون» و«سوبوداي باتور». وكان هدفه الأساسى القبض على محمد خوارزم شاه حياً. وبالرغم من فشل «سوبوداي» و«چابه نويون» القبض على خوارزم شاه، فإنهم دخلوا القوقاز الواقعة فى محيط جنوب الخزر، وفتحوا أرمينيا وچورچيا، وأخضع المغول أهل القوقاز لطاعتهم ونهبوهم، ثم توجهوا إلى جنوب روسيا. ولم تكن فى روسيا فى تلك الأثناء دولة قوية وموحدة، فقد كان الروس منقسمين ويحارب بعضهم بعضاً.

وقد اقترح «قوتان خان» حاكم «القبچاق» - الذين يعيشون على

شواطئ نهر «الدينبير» على الروس التعاون لقتل المغول عند مجيئهم إلى جنوب روسيا، وعقد الروس اجتماعاً في كييف. انتخبوا في نهايته «جاليجيالي مستسيلاؤ» قائداً لجيش الروس، وكان «مستسيلاؤ» قائداً ومحارباً بارعاً حقق العديد من الإنتصارات. وتحرك مباشرة صوب «الدينبير» بجيش قوامه ٨٠ ألف شخص تجمعوا من «جاليجيا» و«كييف» و«تشر نيجوف» و«ؤلين» و«سلومنسك» و«سوزدال». وتظاهر المغول بالانسحاب وتبعتهم وحدات «القبجاق» و«الروس» إلى مناطق السهوب الداخلية. هزم جنكزخان جيش القبجاق أولاً ثم الروس عند شاطئ نهر قالقا الذي يصب في بحر «آزو» في يوم ٣١ مايو لعام ١٢٢٢م.

وفي هذه الحرب أسر المغول العديد من القبجاق والروس. ونجا «مستسيلاؤ» وعاد «سوبوداي - باتور» إلى وسط آسيا حيث خيمة چنكيز خان على شاطئ نهر «طالاس» ومعه غنائم كثيرة وكذلك رؤوس أمراء الروس.

تُرى لماذا انهزمت دولة «خوارزمشاه» الغنية والقوية في مواجهة المغول الأضعف مقارنة بهم؟

عندما تحرك چنكيزخان صوب حدود وسط آسيا، جمع محمد خوارزم شاه من الناس ضرائب ثلاث سنوات مقدماً استعداداً للحرب. ونتيجة لهذا تدهورت أحوالهم وساءت أوضاعهم، وخضعوا للسلطان، حيث كان لديه جيش قوى ومجهز قوامه ٤٠٠ ألف شخص. ولكن قبل أن تبدأ الحرب قسم جيشه إلى مجموعات وأوكل لكل مجموعة منهم الدفاع عن مدينة بعينها. ولكن خطأه هذا أعطى الفرصة لچنكيزخان للإستيلاء على مدن الخوارزميين المهمة مدينة تلو الأخرى. ومن جهة أخرى لم تكن العلاقات بين محمد خوارزم شاه والخليفة العباسي أحمد بن الحسن الناصر لدين الله (١١٨٠ - ١٢٢٥م) على ما يرام. لأن محمد خوارزم شاه كان قد حاول أن يسلب لنفسه حق الخليفة في الزعامة الروحية، كما امتنع الخليفة الناصر عن تقديم العون له ضد المغول. ومن ناحية أخرى فان السلطان محمد - الذي رأى نفسه مثل

السلطان «سَنَجَر» والإسكندر الثانى المقدونى - كان يفتقر الى الشجاعة والمهارة فى القيادة، وعجز ان يكون مثل «آلب أرسلان» أو «طُنْغُرُل» من سلاطين السلاجقة، لأنه اعتاد على الترف والتملق. كان يقضى كل وقته فى الحریم، وبين جواریه اللائى يبلغن ٣٠٠ جارية.

وكانت هى الأسباب الرئيسية للقضاء على دولة الخوارزميين على يد المغول. وبعد أن انتهى چنكيز خان من أمر الخوارزميين، قضى سيفه على شواطئ نهر «طالاس» وانتقل بعد عامين إلى شاطئ نهر «إرتش».

لقد أسس چنكيز خان فى الأراضى التى استولى عليها من الخوارزميين (وبخاصة فيما وراء النهر)، إدارة محلية وجعل على رأسها «محمود يالوج» أحد تجار سَمَرْقَنْد. فى عام ١١٢٥م وقبل العودة إلى منغوليا قسماً للأراضى المفتوحة بين أبنائه الأربعة من «بورتة». منح إبنه الأكبر جوچى الأراضى الغنية الممتدة على طول نهر «إرتش» بادئاً من «دشت قبچاق» بشرق أوروبا، ومنح إبنه الثانى چغتاي كلا من أفغانستان وما وراء النهر وتركستان الشرقية، وإبنه الثالث أوكتاي جزءاً من «چونغاريا» حالياً، أما منغوليا والصين الشمالية فكانت لإبنه الأصغر طولبخان.

وعند اختيار چنكيز خان عام ١٢٠٦م سلطاناً أعظم أصدر «ياساق» - تشريعاً يتضمن قوانين مدنية وعسكرية. وبعد العودة من آسيا الوسطى أوصى أبنائه بالالتزام بإتباع هذا «الياساق». وفيما بعد عيّن إبنه الثالث «أوكتاي» وريثاً للعرش. وأوصى بقية أبنائه بطاعة أوامر «أوكتاي» والتعاون على إدارة الدولة قائلاً: «إذا دخلت رأس تنين فى حفرة؛ فلتدخل ذيله كلها فى نفس الحفرة، أما إذا كانت له ١٠ رؤوس وذيل واحد وستدخل الرؤوس فى الحفرة ويظل الذيل فى الخارج، وحينها فإن الذيل الذى ظل فى الخارج سيتجمد من برودة الجو وعندئذ يموت التنين».

وطبقاً لرواية أخرى فإن چنكيز خان قال لأبنائه فى الوصية التى

أوصاهم بها: «إنكم تشبهون أربعة سهام، فعندما تكون السهام الأربعة معاً لا يستطيع شخص كسرهما. فإذا أخرجتم أحدها فبمقدور كل إنسان أن يكسر الثلاثة المتبقية. فعليكم أنتم الأربعة من بعدى أن تكونوا يداً واحدة ولا تتفرقوا».

ومرة أخرى فإن تعيين «أوكتاي» ولياً للعهد لم يرض «چوچی» لأنه كان يظن أن يكون ولياً للعهد بعد چنكيزخان، ولكنه أضمر ضجره هذا.

وتبعاً لبعض الكتابات التاريخية، كانت هناك بعض الأسباب الخاصة وراء عدم تعيين «چوچی» ولياً للعهد. فقد تزوج چنكيزخان من «بورتته» عام ١١٧٦م، لكن «المركيت» هاجموا آنذاك واختطفوا «بورتته» وأخفوها، وبعد مرور ١٠ شهور أطلق أحد سادة المركيت سراحها. وحضرت إلى چنكيزخان ثم وضعت مولوداً في ذات الليلة، وأطلق عليه المغول إسم چوچی (الضيف). وبدأت الشائعات تنتشر قائلة أن الطفل من المركيت. وقضى چنكيزخان على مطلقى تلك الشائعات، ولكن ظل الشك يساوره. وكبر چوچی وبعد أن أصبح محارباً قوياً وذكياً، اشترك في العديد من الحملات. ولكن أثناء الحملات الغربية إتخذ چنكيزخان قراراً بتعيين أوكتاي ولياً للعهد وليس چوچی. لأن تعيين چوچی ولياً للعهد لن تقطع الشائعات بين الناس، كما خشي من أن يفتح ذلك الطريق لإثارة الماضى وكشف الحقيقة. وفكر أن هذا النوع من الشائعات إذا ظهر مرة أخرى بعد وفاته فلن يصدق الناس چوچی. وتثور الشكوك بين أبنائه مما سيفتح الطريق لحرب داخلية.

نقل چنكيزخان عند عودته من آسيا الوسطى إلى منغوليا مقداراً كبيراً من الغنائم وكذلك عشرات الآلاف من أسرى الحرب (خاصة أصحاب الحرف والمهنة). وفي شهور شتاء عام ١٢٢٦م إنتقل على شاطئ نهر «أورخون» ثم نظم حملة ضد «الطانغوت» بعد عام واحد. وكان چنكيزخان قد أخضع «الطانغوت» لطاعته عام ١٢١١م. وأثناء الإعداد لحملة على الغرب عام ١٢١٩م كان من الضروري أن يتوجه

معه «أشاجامبو» حاكم «الطانغوت»، لكنه تجنب الإشتراك في الحملة متعللاً بعدم كفاية جيشه. وفي عام ١٢٢٦م تحرك چنكيزخان مع أبنائه للقضاء على دولة «الطانغوت»، وحاصروا عاصمتهم في ربيع عام ١٢٢٧م. ولكنه مرض هناك وظل في منطقة «فن — ليانغ» بإقليم قانصو حالياً. وفي اليوم الثامن عشر من شهر أغسطس لنفس العام توفي في الثانية والسبعين من عمره، ولم يكونوا قد استولوا على عاصمة «الطانغوت» بعد. وقد أتم أبناء چنكيزخان مهمة والدهم، وأخفوا خبر وفاته حتى فتحوا المدينة. وهكذا زالت سلطنة «الطانغوت» من الخريطة بعد ١٩٦ عام من قيامها.

وقد أحضروا جثمان چنكيزخان إلى منطقة «بورخان خلدون» في الوادي الواقع في «كارولن» وما حولها من أنهار، ثم واروه الثرى. وتولى «أوكتاي» مكان والده عام ١٢٢٩م وتمسك بقانون والده، وأطعم الطعام على روحه. وطبقاً لما سجله «رشيد الدين» فقد أقام «أوكتاي» الطعام على مدي ثلاثة أيام. واختاروا ٤٠ من أجمل فتيات «نويون» و«بنات» القادة وألبسو كل واحدة منهن أغلى الثياب وأقيم الحلى وقتلوهن جميعاً ليضمن بخدمة چنكيزخان في العالم الآخر.

عقب وفاة چنكيزخان جمع «طولبخان» مجلس النواب وأشرف على عرش إمبراطورية المغول كمرحلة إنتقالية حتى جلوس «أوكتاي» على العرش (١٢٢٧ — ١٢٢٩م).

بعد أن قام أمراء المغول بعمل الترتيبات على مدي عامين، إجتمع مجلس النواب على شاطئ نهر «كارولن» في شهر أغسطس ١٢٢٩م وأجلسوا «أوكتاي» على عرش إمبراطورية المغول طبقاً لوصية چنكيزخان.

في عهد الحاكم الأعظم «أوكتاي» (١٢٢٩ — ١٢٤١م) نظم المغول حملة ثانية على الغرب. ولكن قبل إستعدادات هذه الحملة فتح «أوكتاي» كوريا وقضى على دولة «جورجت».

وكان چنكيز خان قد توجه بجيش من قبل عام ١٢١٨م واستولى على كوريا وفرض عليهم الضرائب، ولكن فيما بعد إنقطعت العلاقات بين الدولتين. وفتح أوكتاي «كوريا» مرة ثانية وسيطر على إدارة الدولة بأن عين من يدعى «داراغوچى» واليا عاما على «خانچين».

لقد توقفت المعارك بين المغول و«الجورجت» بسبب وفاة «موغالى» عام ١٢٢٣م، ولكن «أوكتاي» هاجم مجدداً الجورجت عام ١٢٣٠م، واستولى بجيشه على هونان واقترب من العاصمة «كاي - فانغ». أما «طولبخان» شقيق «أوكتاي» فإن جيشه الذى يبلغ قوامه ٣٠ ألف شخص، شتت جيش «جورجت» البالغ ١٥٠ ألف شخص، فى منطقة يونان التى تقع فى إقليم خونان حالياً. وهكذا عاد «أوكتاي» إلى منغوليا بعد أن أنزل هزيمة ثقيلة بالجورجت عام ١٢٣٢م. ولكن «طولبخان» توفى فى العام نفسه وأوكلت مهمة القضاء على «الجورجت» إلى «سوبوداي - باتور» واستولى «سوبوداي» على «كاي - فانغ» عاصمة «الجورجت» عام ١٢٣٤م، وهرب «وانغ - يان شو شو» إلى منطقة «رونان» بإقليم «خونان». وبناءً على ذلك انتحر «شوشو» عند دخول المغول وجيش «سونغ» إلى «رونان». وهكذا انتهت سلطنة «جورجت» التى استمر وجودها ١١٩ عام (١١١٥ - ١٢٣٤م)، وتم ضم أراضيها لإمبراطورية المغول.

بعد أن أنهى «أوكتاي خان» حسابه مع «الجورجت» جمع المجلس على شاطيء نهر «كارولن» عام ١٢٣٥م ونجح فى إستصدار قرار بتجهيز حملة إلى الغرب باتجاه أوروبا. إن هذه الحملة التى سنعرض تفاصيلها فيما يلى، هى الحملة الثانية المنظمة باتجاه الغرب.

لقد أعد «أوكتاي» لحملة الغرب جيشاً قوامه ١٥٠ ألف شخص، وولى قيادة الجيش باطوخان حفيد چنكيز خان. واختار «سوبوداي باتور» - البالغ من العمر ٦٠ عاماً - مستشاراً للأمور العسكرية، حيث كان «باطوخان» يبلغ من العمر ٢٦ عاماً. كما أرسل «أوكتاي» مع «باطوخان» أمراء مثل «أوردا» و«بركى» و«شيبان» (وهم أشقاء باطوخان) و«كويوك» و«قادانخان» (هذان الإثنان أبناء «أوكتاي») و«قايدوخان»

(حفيد أوكتاي) و«مونكخان» (ابن طليخان) و«بايدار» (ابن چغتاي).  
طبقاً للخطة التي أعدها «سوبوداي - باتور» كان جيش المغول  
المتجه صوب الغرب أي صوب أوروبا في عام ١٢٣٦م من عدة اتجاهات  
— سيستولى على شرق أوروبا بالجيوش التي يقودها الأمراء السابق  
ذكرهم.

لقد هاجم جيش المغول بقيادة «باطوخان» و«سوبوداي» أولاً سلطنة  
«إيديل - بلغار» في عام ١٢٣٦م. واستولوا على مدينة بلغار عاصمة  
السلطنة. لكن باطوخان لم يفكر في القضاء على سلطنة البلغار بل  
على العكس تحرك مباشرة للأمام بعد أن فرض عليها الضرائب.

بعد استيلاء «باطوخان» على موسكو عام ١٢٣٧م دمر المدينة  
تماماً ونهبها. وفيما بعد أراد التوجه للشمال والإستيلاء على «نوڤاجراد»،  
لكن علم أن المدينة تقع في مكان لا يتم الوصول إليه بسبب الغابات  
والمستنقعات؛ غير وجهته إلى ناحية نهر «إيديل» وتقدم مباشرة صوب  
سهوب «الڤولچا» (إيديل). ولم يكن الروس الضعفاء بسبب الحروب  
الداخلية بينهم في وضع يسمح لهم بدفع المغول. واستولى المغول على  
المدن الكبيرة، ومن بينهم مدينة «فلاديمير» عاصمة سلطنة «سوزدال»  
وأباد المغول كل من قاومهم في تلك المدن.

وفي عام ١٢٤٠م حاول «باطوخان» الإستيلاء على «كييف» التي تعد  
أم المدن الروسية. وعرض على أهل كيف أولاً التسليم حقناً للدماء،  
ولكن تم رفض الإقتراح. وبناءً على ذلك هدم «باطوخان» الأسوار بآلات  
الحصار، واستولى على «كييف» عام ١٢٤٠م. وبينما كانت المدينة يجري  
نهبها، هرب «كناز دانييل» إلى المجر.

بعد فتح «كييف» اتجه جيش المغول بشكل يتناسب مع الخطة  
الموضوعة إلى شرق أوروبا في شكل جناحين أساسيين. واتجه جيش  
المغول بقيادة «باطوخان» و«سوبوداي» إلى «وادي الطونة» متجولاً في  
جنوب غرب «كييف». أما الجيش الذي يقوده «بايدار» و«قايدو» فقد



تقدم صوب «بولونيا». وتجاوز هذا الجيش «ويستول» واستولى على مدينة «كواكوو» في نوفمبر عام ١٢٤١م. وهرب ملك بولونيا ولاديسلاف إلى موراويا في شهر مارس. وعبر جيش المغول — الذي دخل سيلازيا (في ألمانيا) - نهر «أودر». ثم قضى «بايدار» على الجيش المكون من «البولونيين» و«الألمان» - وقوامه ٣٠ ألف شخص - تحت قيادة «هنريك» في «سيلازيا» في التاسع من ابريل عام ١٢٤١م، واجتاح «بولونيا» بأكملها ووصل حتى «ألمانيا» و«تشيكوسلوفاكيا».

وكانت المجر هي هدف جيش المغول المتجه إلى «وادي الطونه» بقيادة «باطوخان» و«سوبوداي» هذه المرة. وجمع «بلا الرابع» (١٢٣٥ - ١٢٧٠) ملك المجر جيشا كبيرا في «بودابست» الحالية. ولكنه تلقى هزيمة ثقيلة من سوبوداي في ١١ أبريل عام ١٢٤١م، واستولى المغول على «بودابست». وهرب «بلا ملك» المجر بعد هذه الكارثة إلى الصرب (يوغوسلافيا حالياً). وبناءً على أمر من «باطوخان» تعقب جيش المغول بقيادة «قادانخان» في أعقاب «بلا الرابع»، وذهبوا حتى البحر «الأدرياتيكى» وقد تقدم «بلا» أكثر وهو لا يعرف أن «قادان» يتعقبه، وهرب إلى «دالماتيا». وفقد «قادانخان» أثر بلا، وعاد إلى المجر في شهر مارس عام ١٢٤٢م.

بعد النصر الكبير الذى أحرزه المغول فى المجر فى أبريل من عام ١٢٤١م احتلوا القسم الأكبر من «وادي الطونة».

عندما كان المغول يحاربون فى شرق أوروبا؛ جاء خبر مفاجئ من منغوليا بوفاة الحاكم العظيم «أوكتاي». وكانت وفاته — وهو يبلغ من العمر ٥٥ عاماً - عام ١٢٤١م سبباً فى توقف حملات المغول وعودتهم. والآن أصبحت أكبر مشكلة تواجه أمراء المغول هي مسألة من يتولى العرش.

لقد أنقذت عودة المغول أوروبا من قدر مفرع، وكان الأوروبيون قد صدموا بخطر «أتيلا إمبراطور الهون» من قبل فى القرن الخامس الميلادى، وبعد مرور ٨ قرون صدموا بغضب «باطوخان» هذه المرة.

وتضرعوا لعيسى لإيقاف اعتداء المغول. وخلال هذه الغارات التي استمرت على مدى ٦ سنوات من عام ١٢٣٦م حتى عام ١٢٤٢م وطأت أقدام جياد المغول الأراضي الممتدة حتى قبائل الطونه الغربية وإلى «الدينستر» من شاطيء «إرتش» في الشرق. ولقد بددت الرياح آثارهم مع الوقت وأزالها ماء المطر وطمستها الرمال، ولكن الآثار الدموية التي تركها المغول في أوروبا وآسيا لا يمكن أن تنسى أبداً.

عقد «باطوخان» العزم على العودة من بلغاريا في ابريل عام ١٢٤٢م واستطاع الوصول إلى مقر قيادته على شاطيء «إديل». وكان باطوخان ابن الأكبر لـ «جوجي خان» بعد وفاة والده عام ١٢٢٦م وبعدهما عاد من شرق أوروبا إلى «دشت قبچاق» وأسس «سلطنة آلتين أوردا». أصبح حاكماً في منطقة «دشت قبچاق» حتى شاطيء «نهر إرتيش».

بعد وفاة «أوكتاي» ظهرت بعض الاضطرابات بين المغول، وكان من الضروري أن يجتمع المجلس لحل مشكلة من سيتولى الحكم، وكان يجب مرور خمس سنوات من أجل اجتماع المجلس هذا. وفي خلال هذه المدة أدارت «تراجنا» أرملة «أوكتاي» إمبراطورية المغول (١٢٤١ - ١٢٤٦م). وفي النهاية قام أبناء ملوك المغول بعقد المجلس في صيف ١٢٤٦م على شاطيء نهر «أورخون» واشترك في المجلس كل أبناء ملوك المغول ماعدا «باطوخان» وكذلك ممثلو الدول التابعة وحتى لجنة السفارة التي أرسلها الخليفة العباسي المستعصم بالله. ونزولاً على رغبة «تراجنا خاتون» انتخب المشتركون في المجلس في ٢٤ أغسطس عام ١٢٤٦م «كويوك ابن أوكتاي» ليكون الحاكم الأعظم. ولكن لم يعترف به بعض أبناء الملوك وعلى رأسهم «باطوخان»، مما وضع الإمبراطورية أمام خطر حقيقي. فأعلن «كويوك» بسبب حرج موقفه أنه متوجه إلى «إيميل» عام ١٢٤٨م وغادر منغوليا ووصل إلى شمال شرق «بشباليق». وعبر منافسه «باطوخان» أيضاً إلى «يدي صو» من شواطيء نهر إديل. وجمع حفيداً چنكيز خان جيوشاً جرارة لمحاربة بعضهم البعض، لكن «كويوك» توفي فجأة في ٢٤ أبريل عام ١٢٤٨م عن عمر يناهز ٤٣

وحتى يجتمع المجلس مجدداً لينتخب حاكماً جديداً للمغول، أدارت «أوغول قايمش» أرملة «كويوك» ذات الأصل المراكيتي أو الأويراتي الإمبراطورية، وكان هدف «أوغول قايمش» أن يتولى الحكم «شيريمون» من أقرباء كويوك أو إبنها الصغير «قوجار». وفي تلك الأثناء قرر «باطو خان» أكبر أحفاد چنكيز خان وأكثرهم إحتراماً أن ينهى حسابه مع أحفاد «أوكتاي» بشكل نهائي، واتحدت قواته مع «سويورغاق طاني» أرملة طولبخان<sup>١٦٤</sup>.

دعا «باطوخان» إلى مجلس المغول في منطقة «الماليق» عام ١٢٥٠م واقترح تولى «مونكي» الإبن الأكبر لـ «طولبخان» عرش الإمبراطورية. ولم يشارك أحفاد وأبناء «چغتاي» و«أوكتاي» في هذا المجلس، وطبقاً لزعمهم فإن المجلس قد اجتمع في مكان بعيد من أماكن الچنكيزيين المقدسة.

وبناءً على ذلك قرر «باطوخان» عقد المجلس على شاطئ نهر «كارولن». وكان «باطوخان» يرغب في حضور أفراد عائلة «چغتاي» و«أوكتاي» المجلس. وفي النهاية بذل «باطو — خان» كل جهده حتى اعتلى «مونكي خان» عرش الإمبراطورية، وهكذا انتقلت السلطة من عائلة «أوكتاي» إلى عائلة «طولبخان». وقرر ورثة «أوكتاي» الذين لم يقبلوا هذا الوضع — حل المسألة بقوة السلاح. لكن «مونكي خان» أظهر موقفاً ثابتاً وقوياً، وتخلص من أقارب «أوكتاي» بلا شفقة.

في عهد مونكي خان (١٢٥١ — ١٢٥٩م) استأنف المغول الفتوحات العسكرية مرة أخرى، وبدءوا في اجتياح العالم كالزلازل. وكان «مونكي خان» هو أكثر حكام المغول إجتهداً وفطنة ونشاطاً بعد چنكيز خان. عمل أولاً على تقوية وتنظيم مؤسسات عاصمة الدولة، وجمع في خيمته المثقفين وممن يعرفون اللغة اللاتينية والروسية والفرنسية والأوردية والفارسية والهندية والتبتية والأويغورية والصينية والتونغوسية الذين يستطيعون كتابة رسائل بهذه اللغات. وطبقاً لما رواه الراهب

الفرنسي «روبروك» الذي زار «مونكي خان» عام ١٢٥٤ م، فإنه كان في خيمة الحاكم ممثلو ديانات مختلفة وبخاصة الشامانية والإسلام والبوذية والمسحية النسطورية وداو.

ولكي يُضعف «مونكي خان» قوة ورثة «چغتاي» و«أوكتاي» وأن يفقدوا تأثيرهم، فقد أعطى شعب وأرض «أوكتاي» لورثة «طولبخان»، أما ما وراء النهر التي ظلت في مجال تأثير «چغتاي» فقد أعطاه لـ «باطوخان». لهذا السبب كان يحكم تلك المناطق حتى عام ١٢٦٠م الحكام المرسلون من «آلتين أوردان»، لكن في عام ١٢٦٠م قام «آلخو — خان» حفيد «چغتاي» بطرد الحكام التابعين لـ «آلتين أوردان» من هذه المنطقة.

بعد عمل الاستعدادات الجادة استقر «مونكي خان» في «قره قورم» الواقعة على شاطئ نهر «أورخون» عام ١٢٥٣م، واتخذها عاصمة لامبراطورية المغول الكبرى. ومجدداً جمع مجلساً على شاطئ نهر «أورخون» في نفس العام وأصدر قراراً بفتح فارس وبغداد مقر الخلافة العباسية. وأرسل شقيقه الصغير «هولاكو» إلى الغرب بجيش قوامه ١٢٠ ألف شخص. وكانت تلك هي الحملة الثالثة التي يشنها المغول تجاه الغرب.

اتجه «هولاكو» صوب الغرب مباشرة من «قره قورم» فوصل آسيا الوسطى في عام ١٢٥٤م، وبعد أن استراح فترة في سمرقند عبر «أموداريا» وهاجم فارس التي تقع تحت الحكم الشيعي في ١٩ نوفمبر عام ١٢٥٥م، وكان نور الدين خورشاه حاكم الدولة الشيعية في «كوهستان» الواقعة جنوب بحر الخزر؛ يدفع الضرائب لـ «نويون» المغول في تبريز. وأسر هولاكو نور الدين خورشاه وأرسله إلى قره قورم إلا أنه قتل في الطريق.

وبعد أن انتهى هولاكو من أمر الدولة الشيعية في فارس، توجه إلى بغداد عاصمة الخلافة العباسية في عام ١٢٥٧م، وسقطت بغداد في ٢٠ فبراير عام ١٢٥٨م بعد حصار استمر ٣٠ يوماً. وتم نهب المدينة تماماً،

وجعلها المغول خراباً بعد أن ظلت عاصمة للعباسيين لمدة ٥٠٨ عام، ووقعت أسرة المستعصم بالله في الأسر، وبأمر «هولاكو» تم صهر الذهب والفضة وصبها في فم المعتصم وولديه فقتلوا، كما قتل جميع أعضاء الأسرة العباسية.

أرسل هولاكو في عام ١٢٥٩ م «كيت بوقانويان» لفتح سوريا، واستولى المغول على حلب في ٣٠ نوفمبر ١٢٦٠ م وعلى حماة في شهر أبريل.

لقد استقبل العالم المسيحي القضاء على الخلافة العباسية بالفرح والسعادة. لكن سلطنة المماليك في مصر - والتي لم يسعدها إبادة المغول لمسلمي الشرق الأوسط - تحركت لطرد المغول من سوريا. وانتهت الحرب التي دارت رحاها في «عين جالوت» في الثالث من شهر يوليو عام ١٢٦٠ م بانتصار السلطان المملوكي المظفر قطز قائد جيوش المسلمين والأتراك. وهكذا طرد من سوريا جيش المغول الذي يقوده «كيت بوقانويان» المكون من الجورجيين والأرمن.

استمر هولاكو بعد احتلال بغداد (وحتى وفاته عام ١٢٦٨ م) في تحركاته للاستيلاء آسيا الصغرى وفارس والعراق. وصار قائداً لدولة جديدة عام ١٢٥٨ م أطلق عليها إسم «الإيلخانية» وعاصمتها تبريز. سعى «الإيلخانيون» كثيراً لفتح مصر وسوريا إلا أنهم لم يستطيعوا تحقيق أي نجاح في مواجهة قوات المماليك المصرية.

في عهد «مونكي خان» حاول المغول القضاء على دولة فيتنام «طالي» (٩٣٧ - ١٢٥٣ م) بهدف إضعاف أسرة «سونغ» الجنوبية. واستولى «قوبلاي خان» (١٢١٥ - ١٢٩٤ م) شقيق «مونكي خان» مع «أورانغاتاي» ابن «سوبوداي باتور» على دولة «طالي» فقد دخلوا من «سي شوان» إلى «يونان»، واستولى أورانغاتاي على «خانوي» في عام ١٢٥٧ م وأتم فتح فيتنام.

قرر المجلس المجتمع عام ١٢٥٨ م شن هجوم مفاجيء على أسرة

«سونغ» الجنوبي، وقام «أورانغاتاي» - العائد للقسس الشمالي لفيتنام - بالهجوم على مدينة «ووجو» (ووجانغ الواقعة في إقليم خوبي) بأمر من «مونكى خان». وقام «قوبلاى خان» بأمر من «مونكى خان» أيضاً بتقديم الدعم والمساندة لهذا الهجوم. وهكذا دخل جيش المغول بأمر «مونكى خان» من «شانشى» إلى «سى - تشوان». واستولى المغول على مدن عديدة تابعة لدولة «سونغ» الجنوبية وحاصر مدينة «خاجو» لمدة نصف سنة. ولكنه جرح جرحاً شديداً عند الهجوم للمدينة، وتوفى فى الحادى عشر من أغسطس عام ١٢٥٩م. ولهذا توقفت فتوحات المغول.

### دووا - خان وقوجيفار تكين

توفى «مونكى خان» عن ٥١ عاماً. وفتحت وفاته الطريق لانقسام إمبراطورية المغول. لقد ترك «طولبخان» المتوفى عام ١٢٣٢م - أربعة أبناء هم: مونكى وهولاكو وقوبلاى وأريغ بوقا. وبعد وفاة «مونكى خان» بدأ النزاع على العرش بين ابنيه «قوبلاى» و«أريغ بوقا». فى عام ١٢٦٠م عقد «أريغ بوقا» مجلساً فى «قره قورم» وأعلن نفسه الحاكم الأعظم. وعندما علم «قوبلاى» بهذا الأمر أعلن نفسه فى مدينة «كاي - فنغ» حاكم الإمبراطورية المغولية العظيم، ثم توجه صوب منغوليا والشمال بجيش كبير مكون من المانشور والصينيين والمغول.

وحارب أخاه «أريغ بوقا» لعدة سنوات وأجبره على الخضوع له فى عام ١٢٦٤م. أما «قايدوخان» حفيد «أوكتاي» ضم إليه أبناء «جغتاي» وقاوم «قوبلاى» على مدى خمسة وثلاثين عاماً.

دعا «قايدوخان» أمراء المغول المعارضون لـ «قوبلاى» بتنظيم مجلسٍ على شاطئ نهر «طالاس» عام ١٢٦٤م وبعد أن اجتمعوا عقدوا اتفاقاً قوياً. ونجح «قايدوخان» فى إخضاع قوم «چغتاي» لنفسه وأعلن نفسه سلطاناً هناك.

إن «قوبلاى» الذى أعلن نفسه حاكم المغول العظيم عام ١٢٦٠م، كان معترفاً عند سلطنة إديقوت الأويغورية. كنا قد تحدثنا فيما قبل عن

«باورچوق» الذى عاصر چنكيز خان. بعد وفاة «باورچوق» فى عام ١٢٣٥م توالى على حكم سلطنة إديقوت كل من «قوسماين» (١٢٣٥ - ١٢٤٥م) و«صالون تكين» (١٢٤٥ - ١٢٥٥م) و«أغرونج تكين» (١٢٥٥ - ١٢٦٥م) و«ماموراق تكين» (١٢٦٥ - ١٢٦٦م).

توجه «قوچغار تكين» سلطان إديقوت الأويغورية (١٢٦٦ - ١٢٧٥م) إلى «قره قورم» عام ١٢٦٦م وزار خيمة «قوبلاى خان» ومنحه «قوبلاى خان» آنذاك الأميرة «باباغار» ابنة «كويوك» زوجة له. وزاد ارتباط «قوچغار تكين» أكثر ب«قوبلاى خان» وتحدى «قايدوخان». وبناءً عليه شن «قايدوخان» و«دوواخان» عدة هجمات على سلطنة إديقوت واحتلوا قسما من بشاليق.

فى عام ١٢٧٥م تسبب «قايدوخان» فى متاعب كبيرة لسلطنة إديقوت الأويغورية. وفى عام ١٢٧٥م قام «داواخان» حاكم قوم «چغتاي» ورفيق «قايدوخان» مدينة «إديقوت» بجيش قوامه ١٢٠ ألف شخص. واستمر الحصار ٦ شهور. ولم يسمح الأويغور الذين دافعوا بشجاعة مع «قوچغار تكين» بدخول المغول. ولكن جيش المغول وقوامه ١٢٠ ألف شخص نهب القرى الواقعة بجوار «طرفان». وانهار اقتصاد سلطنة الأويغور وساء حال الشعب. و«دوواخان» الذى لم يتمكن من الدخول للمدينة صرخ خاطبا «قوچغار تكين» الواقف على أسوار المدينة قائلا: «إنك لن تستطيع مقاومتى أكثر من ذلك، ستتدمر مدينتك تماما، هل تظن أنك ستستطيع الدفاع عن مدينة منعزلة؟». أما «قوچغار تكين» فقد أجاب قائلا: «إننى أوفى بالوعد لسلطان واحد، وليس لسلطانين. لقد ولدت فى هذه المدينة، وإذا مت فسأمت فيها. لن أنحنى لك مرة أخرى».

ثم كتب «دوواخان» رسالة وأطلقها بسهم إلى «قوچغار تكين» يقول فيها: «أنا من أحفاد چنكيز خان. فلماذا لا تدين لى بالطاعة؟ وفضلاً عن ذلك فإنك متزوج بأميرة من قبيلتنا (يقصد باباغار) وإذا زوجت إبنتك لى فسأخذ جيشى وأعود. وإذا رفضت فسأصدر الأمر لاحتلال المدينة». وقد تم عرض رسالة «دوواخان» على الأمراء وحكماء المدينة لمعرفة

رأيهم. فقال الأمراء: «إن المؤن في المدينة على وشك النفاد، وإذا استمر دوواخان في الحصار سنموت جميعاً». فأجاب «قوجيغار تكين» الوطني النبيل الذي يفكر في شعبه قبل كل شئ: «أنا مستعد للتضحية بإبنتي لإنقاذ شعبي. وهكذا سلم «قوجيغار» إبنته «إيل إيتمش» أميرة إديقوت للمغول، فرفع «دوواخان» الحصار وانسحب.

لقد ساءت أحوال الأويغور في طرفان وما حولها بسبب حصار «دوواخان» لمدينة «إديقوت» والذي استمر لمدة ٦ شهور ونهبه لها، بجيش قوامه ١٢٠ ألف شخص. ولم تعد لديهم طاقة لدفع الكارثة التي حلت بهم. لذلك اضطر قسم من الأويغور للرحيل إلى منطقة «ووي» في إقليم قانسو الحالي. لم يتمكن «قوجيغار تكين» من إعادة طرفان إلى سابق عهدها وإعمارها، إذ توفي في سنة ١٢٧٦ أثناء نزاعه مع «قايدو».

وكان بين الأويغور الذين هاجروا إلى «ووي»، أمراء ينتسبون لأسرة إديقوت الحاكمة، كما أوضحنا من قبل.

في نقش موجود في مكان يقع على بعد ٣٠ كم شمال «ووي»، تم تصوير الأحداث التاريخية التي وقعت خلال ٧٠ عام (١٢٦٦ — ١٣٣٥م) بلغة شعرية غاية في الجمال، عبر فيها «دوواخان» عن رغبته في أن يكون صهرا لـ «قوجيغار تكين»: «كانت لديك فتاة جميلة وذات عقل وعفاف ممشوقة القوام أردت من زمن أن أخذها بدون أن تفقدها وأكون ابنا لك فنصبح ذوى قرى وتربطنا صداقة أبدية»

كتب هذه الكلمات الجميلة على ورقة ولفها حول سهم وأطلقها صوب الشخص المرسل إليه. فتح أهل المدينة الرسالة وعند قراءتها تملكتهم السعادة. واجتمع الأمراء لفترة وتوجهوا إلى خيمة «قوجيغار تكين». وبعد أن أدوا له التحية قالوا ما يلي: «إننا ندافع عن المدينة منذ ستة أشهر، وقاومنا الكثير من الصعوبات، الطعام على وشك النفاد. فلو قبلت رجاءنا هذا لإنقاذ الناس من المحنة... فإنه يأمر بإنزال ابنته الأميرة «إيل إيتمش بيكا» من الحصن، وهي إنسانة نقية كالقديسة



وتحققت رغبة «دوواخان» فجمع جيشه وانسحب.<sup>١٦٥</sup>

إن هذه المعلومة تشبه مع المذكرات التي نقلها «سونغ ليان» والذي عاش في عهد أسرة مينغ ومؤلف كتاب بإسم «تاريخ المغول وقصة تتعلق بـ«باورچوق آرت تكين».

بعد أن توفي «قوچينغار تكين» في المعارك التي خاضها ضد «قايدو خان» عام ١٢٧٦م تولى إبنه الأكبر «نولين تكين» عرش سلطنة «إديقوت». وأيد «نولين تكين» كوالده جانب «قوبلاي» ولذلك أحبه «قوبلاي» وخلفاؤه. كما تزوج من الأميرات المغوليات «بورقان» و«باباجا» و«أوراچين».

لم يعترف «قايدو خان» بحق «قوبلاي - خان» في اعتلاء عرش إمبراطورية المغول الكبيرة، فظل يحاربه لمدة ٣٤ عاماً كاملة بغير انقطاع. لكنه خسر هذه الحروب في النهاية ثم توفي بعد فترة. ولكن ابنه «چابار» عرض الطاعة والإمتثال لـ تيمور ابن قوبلاي عام ١٢٠٦ م. وهكذا تخلى أحفاد «أوكتاي» عن كونهم أصحاب كلمة في السلطة، وانضمت الشعوب التي كانت تابعة لأجدادهم إلى شعب «چغتاي».

بعد أن أعلن «قوبلاي خان» نفسه السلطان الأكبر عام ١٢٦٠م انقسمت الإمبراطورية التي أسسها چنكيز خان إلى عدة أجزاء. على أن الإمبراطورية كانت موحدة في عهد «أوكتاي» و«كويوك» و«مونكي خان» خلفاء چنكيز خان. أما بعد تولى «قوبلاي خان» العرش لم تعد «دولة الإيلخانيين» و«سلطنة چغتاي» و«آلتين أوردان» تابعة للإمبراطورية، واستقلت كل واحدة منها. و«قوبلاي خان» الذي بقي تحت نيران الحروب الداخلية لم يتمكن من توحيد الإمبراطورية المنغولية بقوة السلاح.

في عام ١٢٧٩ م قضى «قوبلاي خان» على أسرة «سونغ» الجنوبية وأصبح حاكماً على الصين كلها، وإتخذ «بكين» عاصمة له وأسس دولة مغولية في الصين يسمى «أسرة يوان» الحاكمة وحاول على إخماد روح

الوطنية لدى الصينيين، لكن لم يكن ذلك ليسحق شعور الصينيين الوطنى، لذلك انتهى حكم المغول للصين فى عام ١٣٦٨م. وأسس الصينيون دولتهم الوطنية باسم «أسرة منغ».

نجح «جويوان - جانغ» أول حاكم لأسرة «منغ» (١٣٦٨ — ١٣٩٨م) فى طرد «تيمور» آخر حاكم مغولى من دولته، وكذلك كل المغول الذين عاشوا على أراضيهم لمدة ٨٨ عاماً.

### نهاية سلطنة إديقوت

لقد ذكرنا من قبل أن «نولين تكين» تزوج من ثلاث أميرات مغوليات هن «بورقان» و«باباجا» و«أوراچين». وقد توفى «نولين تكين» عام ١٣١٨م تاركاً وراءه إبنين من «باباجا» إسمهما «سانكى تكين» و«تمور بوقا». وتزوج «تمور بوقا» من «تورچيسمان» إبنة «قودان ابن أوكتاي» عام ١٣٠٧م، وحكم الدولة لمدة تسع سنوات (١٣١٨ — ١٣٢٧م) وطبقاً لما ورد فى بعض المصادر فإنه قد تم سجن «تمور بوقا» بأمر «صون تيمور» حاكم المغول فى عام ١٣٢٧م، وتم إعدامه فى خانباليق (فى بكين). ويذكر فى نفس المصادر أن «سانكى تكين» شقيق تمور تم قتله معه أيضاً. كما تذكر بعض الروايات أنه بعد مقتل «تمور بوقا» تولى «سانكى تكين» حكم إديقوت الأويغورية. استناداً لبعض الوثائق التاريخية يمكن القول إن «طايبان» الأخ غير الشقيق تولى بعد «سانكى تكين». ولكن على أية حال تم القضاء على سلطنة إديقوت الأويغورية فى عهد «طارما شيرين» حاكم شعب چغتاي والذى اعتنق الإسلام، وألحق أراضيها بأراضى شعب «چغتاي».

لقد حافظت سلطنة إديقوت الأويغورية التى استمر وجودها ما يقرب من خمسة قرون (٤٨٥عام) على إستقلالها على مدى ٢٧٥ عام (٨٥٠ - ١١٢٥)، أما الـ ٢١٠ أعوام المتبقية استمرت نصفهم كسلطنة مستقلة وانقضت ثمانون عاماً وهى تابعة للكيدانيين الغربيين وحوالى ١٣٠ عام تابعة للمغول.

## الفصل الثانى والعشرون : دور الأويغور فى إمبراطورية المغول

فى عهد جنكيز خان وخلفائه «أوكتاي» و«كويوك» و«مونكى خان» تأسست دولة عظيمة فى التاريخ تمتد حدودها حتى المحيط الهادى فى الشرق ومدخل الطونة فى الغرب وسيبيريا فى الشمال وآسيا الصغرى فى الجنوب، إسمها إمبراطورية المغول الكبرى.

بالرغم من تأسيس المغول مثل هذه الدولة الكبيرة إلا أنهم لم يكونوا فى مستوى يستطيعون من خلاله الإرتقاء بالحالة الإجتماعية. لأنهم عاشوا — فى فترة مبكرة من التاريخ — فى الصحارى والغابات والسهوب. فمن عاشوا فى السهوب اشتغلوا بالرعي، ومن عاشوا فى الغابات اشتغلوا بالصيد. ولهذا السبب كانت السهوب والغابات مقرهم واستمر هذا الوضع حتى عهد «مونكى خان».

حقيقة أن المغول كانوا متخلفين وأميين إلا أنهم كانوا محاربين بارعين ويطيعون النظم العسكرية بغير اعتراض. إن الحياة فى الظروف الطبيعية القاسية للصحراء والسهوب ومكافحة الجفاف الشديد والأمطار الثلجية الكثيفة ونفوق الحيوانات جعلت المغول أصحاب جلد أمام الصعاب ومطيعون للنظام العسكري. والعلاقات القبيلة عندهم كانت قوية جدا. وظهر من بينهم رجل مثل جنكيزخان رغم انه أمي لكنه كان بفطرتة ذكيا وجريئا وقويا وتولى قيادة المغول. بعد أن قرر هذا الرجل توحيد المغول وتأسيس دولة قوية عزم على جمع المتعلمين والأذكيا والمشاهير حوله.

فى تلك الفترة، كان الأويغور من أكثر الشعوب ثقافة فى آسيا

الوسطى والشرق. لذا دعا چنكيز خان المئات من الأويغور الموجودين في «خوتن» و«كاشغر» و«قارا شَهْر» و«طرفان» و«بشباليق» و«آلطي» لكي يتقلدوا وظائف مرموقة تتعلق بالشئون الخارجية والداخلية لدولة المغول. ذات مرة قال له «يلوجو - ساي» كبير مستشاري چنكيز خان وفي نفس الوقت أمير كيدان: «كما أن هناك احتياج لخبير في صناعة القوس والسهم، كذلك ينبغي أن يكون هناك خبير في غزو العالم وإدارته».<sup>١٦٦</sup>

لقد كان الأويغور الذين تولوا المناصب العليا في إمبراطورية المغول، منهم السياسي الخبير والدبلوماسي البارع والإستراتيجي المجرب الذي يعرف كل دقائق الفنون العسكرية والرحالة الماهر ورجل العلم المثقف والمترجم والشاعر وخبير الخط والرسام والموسيقي.

بعد أن وُحِدَ چنكيز خان قبائل المغول؛ هدف أولاً إلى توحيد قبائل الترك الموجودة في الغرب (آلطي الشرق)، والموجودة في الشمال (سيبيريا الشرقية). ولهذا الهدف شن چنكيز خان الهجوم أولاً على النايمان الموجودين في آلطي. وقتل بنفسه «تايان خان» ابن «إينانچ بيلكه» حاكم «نايمان»، ووقع مستشاره وحامل خاتمه «تاتا تونغغا» الأويغوري في أسر المغول. ولقد أشرنا إلى هذا الموضوع فيما سبق.

وافق چنكيز خان على اقتراح «تاتا تونغغا» بأن تكون الأبجدية الأويغورية أبجدية رسمية لإمبراطورية المغول، وحتى هذا الوقت لم يكن لدى المغول أبجدية يستخدمونها. وكان أبناء ملوك المغول وسائر أمرائهم مضطرين لتعلم الأبجدية الأويغورية. وتم تعيين «تاتا تونغغا» معلماً لأبناء چنكيز خان. كانت قوانين إمبراطورية المغول باللغة المغولية ولكن تكتب بالحروف الأويغورية. بالرغم من استخدام كل من الأبجدية الفارسية والأويغورية رسمياً عند الإيلخانيين إلا أن اللغة الرسمية لدولة «آلتون أوردا» وشعب «چغتاي» هي «اللغة الأويغورية» والأبجدية الرسمية هي «الأبجدية الأويغورية». والنتيجة أن شعب «چغتاي» والمغول الموجودين لدى «آلتون أوردا» تم صهرهم وتطريكهم على يد الأويغور والتتار

والقبحاق، وفي نفس الوقت إعتنقوا الإسلام. وكانت «اللغة الأويغورية» هي لغة البروتوكول ومراسلات أمراء وحكام المغول.

بعد استضافة «باورچوق آرت تكين» في خيمة چنكيزخان عام ١٢١٠م في عاصمة المغول التي تقع على شاطئ نهر «كارولن» بوصفه سلطان إديقوت الأويغورية، تم استدعاء العديد من الأويغور من «بشباليق» لكي يتولوا مناصب مرموقة في إمبراطورية المغول. وبعد أن بدأ «چنكيزخان» حركة الفتوحات في عام ١٢٠٦م اشترك العديد من القادة الأويغور كمستشارين للحملة التي نظمت ضد الخوارزميين بين أعوام ١٢١٩ - ١٢٢٥م وضد الجورجت في ١٢١٥م.

بعد وفاة چنكيزخان وفي عهد أبنائه وأحفاده استمر تقلد الموظفون الأويغور الوظائف المهمة في الدولة. وكان من أشهر الأويغور الذين إشتراكوا في الحملات التي نظمت ضد الغرب في عهد چنكيزخان «توراقايا» و«بولادقايا» ويستحق هؤلاء التوقف عند نشاطهم بشيء من التفصيل.

لقد كان «توراقايا» وهو من بشباليق في الأساس — إستراتيجيا ماهرا وخبيرا في الخطط العسكرية. وكان أحد المستشارين المقربين لچنكيزخان أثناء الحملة التي نظمها ضد الخوارزميين. كما اشترك أيضا «بولادقايا» في الحملات الغربية، وأصبح فيما بعد نائبا لـ «طولبخان» ابن چنكيزخان، وكان هو أيضا من مدينة بشباليق. وعندما قضى چنكيزخان على دولة «الجورجت» عام ١٢١٥م أرسل «بولادقايا» إلى «جونغ — دو» عاصمة «الجورجت» واليا عاما وسفيرا خاصا. وكان الوالي العام على «جونغ — دو» فيما سبق (١٢١٥ — ١٢٢٣م) اللواء المغولي «موغالي»، وبعد وفاته تم تعيين «بولادقايا» مكانه. وخلال مدة وجود «بولادقايا» في الوظيفة حكم كل شمال الصين بإسم المغول. وفي تلك الأثناء كانت الصين الجنوبية تحت حكم أسرة «سونغ» الجنوبية. وعندما قضى المغول على أسرة «سونغ» الحاكمة عام ١٢٧٩م أسس «قوبلاي» ابن طولبخان «أسرة «يوان» الحاكمة التي إستمر وجودها ٨٩ عاما،

وشغل الأويغور أهم الوظائف في هذه الدولة أيضاً  
في عهد «قوبلاي» وخلفائه تقلد كل من «لُن - شِشَن» (١٢٣١ -  
١٢٨٠م)، و«صانغا» (? - ١٢٩١م)، وأحمد (توفي عام ١٢٨٢م) و«أل يغمش»  
(توفي عام ١٣٢٠م) و«مانغو تكين» (نهاية القرن الـ ١٢م) وشيبان (١١٩٧ -  
١٢٧٦م) و«مونغ سوز» (نهاية القرن الـ ١٢م) وأخطر الدين (نهاية  
القرن الـ ١٢م) وظائف مرموقة في خانبايق، ومن المفيد الكتابة باختصار  
عن هؤلاء الأشخاص الوطنيين البارعين المهذبين الموقرين.

كان «لُن - شِشَن» (المولود في بشبايق عاصمة سلطنة إديقوت  
الأويغورية عام ١٢٣١م - كبير مستشاري «قوبلاي خان». عند وفاة  
«مونكي خان» عام ١٢٥٩م إنتهز «أريغ بوقا» (شقيق قوبلاي) الفرصة  
وعقد مجلساً بهدف الاستيلاء على قره قورم عاصمة إمبراطورية المغول.  
وعلى عرش الإمبراطورية، ووضع بعض خطوات ثابتة في هذا الموضوع.  
أما «قوبلاي» فلم يعترف بنظام انتخاب الحاكم وأعلن نفسه في عام  
١٢٦٠م الحاكم الأكبر في «كاي فنغ» عملاً بنصيحة «لُن - شِشَن». هذا  
الموقف فتح الطريق للحرب بين «أريغ بوقا» و«قوبلاي» واستولى  
«قوبلاي» على «قره قورم» بعد أن هزم «أريغ بوقا» وخضع «أريغ بوقا»  
في عام ١٢٦٤م «لقوبلاي» ودخل في طاعته.

لقد كان «مونغ سوز» أيضاً من أقرب مستشاري «قوبلاي» وكان  
ذكياً ومثقفاً ومتعلماً تعليماً جيداً للغاية.

وكان «مانغو تكين» من معلمى «قوبلاي»، وبتأثيره ومساعدته تعلم  
«قوبلاي» اللغة المنغولية والأويغورية والصينية والتبتية، واهتم بفروع  
العلم المختلفة.

أما «شيبان» فكان دبلوماسياً عظيماً، وقد لعب دوراً مؤثراً في  
المباحثات المتعلقة بمعاهدات السلام التي أبرمت بين «قوبلاي» وأعداءه.  
ولا سيما أنه كان قد نظم العلاقات بين «قوبلاي» و«أوكتاي»، وتوفي  
عام ١٢٧٦م عن عمر يناهز التاسعة والسبعين من عمره.

كان أحمد أيضاً — وهو من الأويغور الخوتانيين — من مستشاري «قوبلاي»، وكان شخصاً بارعاً وذا سلطة.

أما «أل يغمش» ذو الأصل الأويغوري، وهو الدبلوماسي والرحالة وقائد الأسطول المشهور في عهد «إيسان خان» و«تمورخان» و«قوبلاي» من أكبر حكام أسرة «يوان» قام بزيارة سريلانكا الحالية وجنوب شرق الهند وأندونيسيا والهند - الصينية عدة مرات، وعند عودته أحضر معه سفراء من هذه البلاد ونماذج من البضائع التي يتم إنتاجها في هذه الأماكن حديثاً. لقد كان هدف «قوبلاي» عندما أرسل «أل يغمش» في هذه الرحلة هو جمع ما يمكن من معلومات عن هذه الدول وشعوبها. ولكن هدفه الأصلي كان الإستعداد للإستيلاء على جنوب شرق آسيا. لهذا فإنه بعد القضاء على إمبراطورية «سونغ» الجنوبية عام ١٢٧٩م أقدم على احتلال أندونيسيا وجنوب شرق آسيا واليابان.

وقد أرسل إلى اليابان في عام ١٢٨٠م أسطولاً يضم ١٦٥ ألف شخص منهم ١٢٠ ألف كوري وصيني. ولكن بسبب عاصفة غرق في البحر قسم كبير من الجيش وانتهت تجربة الإحتلال بالفشل. وبالرغم من فشل تجربة احتلال اليابان إلا أن «قوبلاي» سعى للاستيلاء على كمبوديا وبورما وماليزيا وويتنام في عام ١٢٨٣م. لقد اشترك «أل يغمش» بنفسه في الحملات التي نظمها المغول صوب جزر الهند الصينية، كما إشتراك في حملة اندونيسيا عام ١٢٩٣م. بعد فشل حملة «قوبلاي» على اندونيسيا (لأن معظم جند المغول قد أصابهم المرض بسبب ظروف الطقس) عاد «أل يغمش» إلى خانباليق (بكين) وعمل حتى آخر عمره (١٣٢٠م) كمساعد كبير المستشارين.

كذلك كان «أختر الدين» ذو الأصل الأويغوري - واحداً من مهندسي عهد «قوبلاي». فقد كان رئيس المهندسين العاملين في الإمبراطورية المغولية، ورسم مخططات العديد من المعابد والقصور، كما خطط بكين حالياً وأشرف على البناء. وكان أختر الدين هو معد مشروع تأسيس مدينة جديدة بأمر «قوبلاي» والمخطط لها، أطلق عليها اسم «خانباليق»

(مدينة خان). لقد وضع «أخطر الدين» نصب عينيه شكل الأرض وقام أولاً بحل مسألة شبكة القنوات. وقد حصل على شبكة مياه بعد أن جهز الأرض بالأنابيب الخرسانية، ثم أنشأ قصر الحاكم والمباني الكبيرة. فضلاً عن ذلك أقام بحيرات «بي - خاي» و«جونغ نان خاي» وأسس على جانبيها قصور الحاكم ومنتزه «جونغ - شان» حالياً. وأيضاً أنشأ أخطر الدين ثلاثة أنواع من الطرق تسمى كبيرة وصغيرة ومتوسطة طبقاً للتخطيط الذي وضعه. وكانت الفكرة أن يبلغ عرض الشوارع الكبيرة ٢٤ قدماً، أما الصغيرة فتبلغ ١٢ قدماً. فضلاً عن ذلك لم يهمل إتخاذ التدابير اللازمة لتوفير ما يحتاجه كل نوع في هذه الشوارع.

إن أجدادنا بدءاً من عهد الهون حتى يومنا هذا اسهموا اسهامات قيمة في حضارات الصين. ويجب ألا ينسى جهد أخطر الدين في تشكيل العمارة الحالية لبكين.



## الفصل الثالث والعشرون: الإقتصاد فى سلطنة إديقوت

حققت الثقافة والإقتصاد تقدماً كبيراً فى عهد سلطنة إديقوت. وأسهم المستوى الحضارى الذى بلغته سلطنة أورخون الأويغورية من قبل أسهاماً كبيراً فى التطور الثقافى والاقتصادى فى هذه الفترة. وفى الحقيقة فقد لعب قيام سلطنة «إديقوت» على طريق الحرير الكبير الممتد من الشرق إلى الغرب دوراً فى هذا التقدم، لكونهم أكثر تطورا من الناحية الثقافية والإقتصادية مقارنة بمن هاجروا من أويغور الغرب الذين عاشوا هناك. إن هجرة أويغور الشرق إلى «بشباليق» و«طرفان» و«قارا شَهْر» و«كوچار» عام ٨٤٠م وإتحادهم مع القبائل الموجودة فى هذه الأماكن، ثم تأسيسهم سلطنة «إديقوت» عقب ذلك مباشرة، أدخل تاريخ الثقافة الأويغورية عهداً جديداً.

### الزراعة

لقد اشتغل الأويغور المقيمون فى مناطق «كوچار» و«بشباليق» و«قارا شَهْر» و«طرفان» بالزراعة قبل الميلاد بعدة قرون فبينما كانت الزراعة هى العمل الرئيسى فى «طرفان»، كان الاشتغال أكثر فى «بشباليق» بتربية الحيوان إلى جانب الاشتغال بالزراعة. أما فى «قارا شَهْر» و«كوچار» فكانوا يعملون بالزراعة وتربية الحيوان على السواء.

لقد كان أويغور الشرق المهاجرون للغرب فى عهد السلطنة الأورخونية فى عام ٨٤٠م يعملون بتربية الحيوان بصفة عامة بينما الزراعة تأتى فى المرتبة الثانية. وبمرور الوقت تحول أويغور الشرق المهاجرين إلى الغرب من العمل بتربية الحيوان إلى الاشتغال بالزراعة، ومع أنهم لم

يتخلوا تماما عن تربية الحيوان ألا أنهم تحولوا لنظام الاستقرار التام.  
يقول «أويانغ شيو» المؤرخ المشهور في عهد «سونغ»: «لقد كان  
المقيمون في هذه الأراضي (يقصد سكان سلطنة إديقوت) يعيشون على  
زراعة محاصيل مثل القمح والشعير والقرع والقنب والبصل ويحرثون  
الأرض بالجمال و يكسبون رزقهم».

أما المؤرخ «توق - تو» ( ١٣١٤ - ١٣٥٥م) فيقول: إن مياه سلطنة  
إديقوت الأويغورية تأتي من «آلتون داغ» (يقصد جبال طانري) وتجري  
حول مدينة إديقوت وتروى حقول القمح الواسعة والمراعى التى تقع  
فى المنطقة. إنهم يزرعون كل شىء هنا، ويزرعون أيضا القمح والأرز  
والبطيخ والفاكهة».

وكان مناخ منطقة طرفان مناسبة للزراعة ورعاية البساتين، لذا تم  
زراعة أنواع مختلفة مثل العنب والبطيخ والشمام والخضروات المتنوعة  
والقطن والقنب والحمص والحبوب. كما كان للصيد وتربية الحيوان مكانة  
مهمة.

### الصيد وتربية الحيوان

يقول «توق - تو»: «فى مدينة «بشباليق» يربون الجياد بأعداد لا  
تحصى، وهناك مراعى خاصة بالأمرء والسلاطين، ذات ماء وعشب وفير.  
ومعروف فى آسيا منذ القدم أن قوة الجيش تقاس بقوة الفرسان.  
وبصفة عامة كانت الدول التى تمتلك قوة فرسان أكثر هى المنتصرة.  
فعندما توجه الهون مباشرة من آسيا صوب عواصم أوروبا، لعبت جياد  
الهون الدور الأكبر لتفوقهم على جياد الأعداء فى السرعة والقوة.  
وحققت وحدات الفرسان دائما إنتصارات لإمبراطورية «الكوك تورك» بغير  
منافس. وقد إنتصر فرسان الأويغور فى عهد سلطنة أويغور الأورخونية  
أكثر من مرة على أعدائهم المتفوقين عنهم. إن جيوش چنكيزخان فى  
القرن الثالث عشر شتت معظم جيوش المشاة فى أوروبا وآسيا، ولعبت

وحدات الفرسان الدور الأكبر عند تأسيس إمبراطورية المغول الكبيرة. وكانت وحدات الفرسان تظهر فى الحروب فى الأزمنة القديمة. ولم يكن الجواد فى حياة أجدادنا وسيلة مساعدة فقط؛ بل كان سلاحا مهما للغاية فى القتال كما كان الجواد يعد من بين أعلى البضائع فى الأنشطة التجارية. ولذلك كان «الهون» و«الكوك تورك» و«الأويغور» يولون أهمية خاصة للجياذ بين القطعان التى يقومون بتربيتها، فكانوا يربون عدة ملايين من الجياذ للحصول على عدة مئات آلاف من جياذ الحرب الجيدة. وكانوا فى سلطنة إديقوت الأويغورية يربون الجمال والأغنام والماشية إلى جانب قطعان الجياذ.

لم يكن الصيد مجرد وسيلة لتأمين الطعام للأويغور، بل كان مهارة قتالية خاصة بأوقات السلم. وكان الأويغور رماة سهام مهرة. وكتب سفير الصين «وانغ يان - دى» الذى جاء إلى سلطنة اديقوت عام ٩٨١م «إن الأويغور بارعين فى رمى السهام من فوق صهوة الجواد». وكانت الحيوانات المتوحشة والطيور المفترسة كثيرة فى مراعى وغابات وجبال سلطنة إديقوت. وحيث تتوفر فيها كل الشروط اللازمة للصيد. ويقول «أويانغ - شيو»: كانت أراضيهم غنية بأنواع البقر والحمير الوحشية والجمال ذات السنم الواحد والغزلان والأحجار القيمة والماس والجلود المدبوغة واللباد والملح».

إلى جانب الصيد بالسهام من فوق الجياذ، كان الأويغور يستخدمون أيضا الطيور المفترسة. وتكثر فى أراضيهم الصقور والشاهين والنسور».

### التجارة والفنون

كانت سلطنة إديقوت الأويغورية تسعى للعيش فى إطار من علاقات حسن الجوار والسلام مع جيرانهم. ومع ذلك لم يكونوا متفقيين مع القراخانيين فيما يتعلق بالموضوعات الدينية. لأن القراخانيين كانوا قد أسلموا، بينما كان «الإديقوت» بوذيين ولذلك دب النزاع بينهما مرات عديدة. وعاشت «إديقوت» الأويغورية فى سلام أثناء الحرب الداخلية

التي استمرت لمدة ٤٠ عاماً بين «قايدوخان» و«قوبلاي» من حكام المغول. وهذا الوضع ضمن للسلطنة المناخ اللازم للازدهار الإقتصادي. إن تطور الزراعة وتربية الحيوان والحرف اليدوية مهَّد لتقدم الصناعة. ولقد تقدمت كثيراً فروع الصناعة مثل صناعة الحلى كالفضة والذهب، وصناعة السلاح وتصنيع المعادن كالحديد والنحاس، وأيضاً نسيج الحرير والقطن، وكذلك صناعة الدواء وصناعة أطقم السروج والحلوى. وعن ذلك يقول «توق - تو»: «إن الأويغور أذكاء وأقوياء وحرفيون، وكانوا يصهرون الحديد والنحاس والذهب والفضة، ويصنِّعون الحلى الجميلة وأشياء كثيرة»<sup>١٦٧</sup>.

يقول المؤرخ الصينى «خونغ خاو» الذى عاش فى القرن الثالث عشر: «كانت نساء الأويغور يضعن فوق رؤوسهن ريشاً من الذهب يلمع ويتلألأ. فالأويغور صاغة مهرة، فهم يصنعون الأقراط والحلى الذهبية. كما يحيكون المنسوجات الحريرية والمخمل، ويخيطون عباءات غاية فى الجمال مستخدمين فيها خيطاً بخمسة ألوان. فضلاً عن ذلك هم مهرة فى المشغولات الذهبية وكانوا يرسمون نقوشاً كالزهور والأشجار على التنورات»<sup>١٦٨</sup>.

إن الجهود الموجهة لتلبية الاحتياجات الداخلية والخارجية مهدت الطريق لتقدم الصناعة. ولأن طريق الحرير - الذى يربط الغرب بالشرق - يمر من أراضى سلطنة إديقوت، فقد حقق إضافة مهمة لتقدم الصناعة. ومهَّد هذا الوضع لتطور العلاقات الثقافية والاقتصادية بين سلطنة إديقوت ودول الغرب والصين.

لقد أطلق الجيران ساكنو الجبال على الأويغور منذ القدم إسم «سارت» ومعنى «سارت» هو قائد القافلة، ذلك لأنهم كانوا مهرة فى البيع والشراء، وصادقون ولا يعرفون الخديعة فى التجارة.

مارس الأويغور البيع والشراء والتبادل التجارى مع دول مثل سلطنة «الطانغوت» و «كيدان الشرقية» و«سونغ الشمالية» فى الشرق، وفى

الغرب وصلوا من الدولة القراخانية حتى الهند والخلافة العربية وفارس وبيزنطة. وكان الأويغور يصدرون لهذه الدول الجياد والجمال وأطقم الجياد (وبخاصة إلى إمبراطورية «سونغ» الشمالية) وكذلك الجلود والماس وقرون الغزال والنشادر والأدوية والحلى الذهبية والقماش والخيوط الملونة. فى الواقع كان هناك مشترون فى كل أسواق العالم للحلى الجميلة التى يصنعها الأويغور من الذهب والفضة والنحاس والحديد والأحجار الكريمة. كان القماش (المنسوجات القطنية) والجياد والأدوية تحتل مركز الثقل فى التجارة بين دول «جورجت» و«كيدان الشرقية» و«سونغ الشمالية» وبين سلطنة إديقوت الأويغورية، ويتم سداد ثمن هذه الأشياء بالعملات النحاسية والحريير الصينى. وكان هناك احتياج للجياد بأعداد كبيرة بسبب الحروب المندلعة بين إمبراطورية «سونغ الشمالية» و«الكيدانيين الشرقيين». وقد واجهت إمبراطورية «سونغ» احتياجاتها من جياد الحرب بجلبها من كل من سلطنة إديقوت والقراخانيين (من خوتن). وكان مقدار ما دفعته إمبراطورية «سونغ» للجياد التى اشترتها من القراخانيين الشرقيين عام ١٠٨٥م مليون و ٢٠٠ ألف عملة فضية. (تقريباً ٢٧/٥ مليون فضة).

### مستوى الرفاهية الاجتماعية

كان مستوى رفاهية الأويغور مرتفعاً بسبب الإقتصاديات المتقدمة. وكانوا ينتجون العنب والفواكه والخضروات واللحم والحبوب كمواد غذائية. لم يكن هناك فقراء فى المجتمع الأويغورى كما أوضحنا من قبل. ولم تكن هناك حوادث وفاة غير مألوفة. وأعمار الناس طويلة بسبب تقدم الطب وارتفاع مستوى المعيشة، كما كانوا يتمتعون بصحة جيدة. ولم يكن عندهم مشكلة طعام أو البحث عن الطعام أو مشاكل فى الملابس. يذكر فى كتاب «معلومات عامة عن قوجو الغربية» ما يلى: «ملابسهم ذات ياقات وأكمام. ومعطف الرجال يفتح إلى اليسار، أما النساء من الأمام. ويرتدون رداء يصل إلى الركبة ويرتدون القمصان الداخلية. أما

النساء فيرتدين صيفاً وشتاءً غطاء رأس اسمه «طوماق» مثبت على طرفه الأمامي ريش الطيور. والرجال يرتدون في الشتاء فقط «الطوماق»، أما في الصيف فيرتدون طاقية قطيفة وأحياناً يرتدون قبعة من اللباد. وقمة القبعات مرتفعة بشكل لافت للإنتباه ومثبت على حافتها ريشة طائر برى.

أما ريشة الطائر المثبتة على قبعات النساء فتميل للخلف، كما أنها مزينة بزخارف من الزهور مصنوعة من الذهب والفضة وتعرض بصورة غاية في الجمال. إن عمائم رجال الدين مستديرة وتصنع من قماش أبيض. ويرتدون أحذية مصنوعة من جلود الأبقار والأغنام.

كان حكام إديقوت الأويغورية والسيدات وأبناء الملوك والأمراء يرتدون ملابس تبهر العين بجمالها مصنوعة من الحرير الرقيق والمخمل، كما كانوا يرتدون تيجان ذهبية.

## الفصل الرابع والعشرين : الثقافة فى عهد سلطنة إديقوت

### العمران

لقد أقيمت فى سلطنة إديقوت الأويغورية مدن معتنى بها وقلاع وحصون ومعابد وبيوت من طابقيين.

يقول «وانغ يان - دى» الذى أرسلته إمبراطورية «سونغ» الشمالية سفيرا لسلطنة إديقوت الأويغورية: «هناك فى مدنهم حدائق وبساتين ومبان مرتفعة ومتنزهات». أما محمود الكاشغرى فيقول: «يوجد فى هذه البلد خمس مدن، والناس فى غاية الكفر ولكنهم صيادون مهرة». وهذه المدن هى: «صولمى» التى أمر إسكندر المقدونى بتأسيسها و«قوجو» و«چانباليق» و«بشباليق» و«ينغباليق»<sup>١٦٩</sup>.

يقول الكاشغرى فى كتابه الذى كتبه فى القرن الحادى عشر - مؤكدا على كون الأويغور بوذيون - «إنهم فى منتهى الكفر». ومن المحتمل أن يكون كلامه المتعلق بأن مدينة «صولمى» أسسها إسكندر المقدونى مجرد رواية، لأن الإسكندر جاء إلى آسيا الوسطى عام ٣٣٠ ق.م، ولكنه لم يصل إلى طرفان ونواحيها.

لا نملك معلومة مؤكدة تتعلق بزمن تأسيس «بشباليق» عاصمة سلطنة إديقوت الأويغورية ولا متى أطلق عليها اسم «بشباليق» ومتى أصبحت مدينة كبيرة.

ولكن يمكننا القول - إستناداً للمصادر المكتوبة وعلم الآثار - أنها تأسست قبل الميلاد (فى عهد «الهون») وأصبحت مدينة كبيرة للغاية

في عهد دولة «أورخون» الأويغورية و«الكوك تورك» في الفترة التي كانت فيها «بشباليق» عاصمة دولة أورخون الأويغورية؛ كانت تتكون من مدينة داخلية ومدينة خارجية، ووصل عرض أسوارها إلى ثمانية أمتار وارتفاعها إلى عشرة أمتار. ولقد ورد ذكر «بشباليق» في على النصب التذكري الذي أقيم لـ«كول — تيكين» عام ٧٣٢م. وربما كانت «بشباليق» مكونة من خمس مدن. وكانت المنازل التي يقيم فيها الأمراء وأبناء الملوك موجودة في المدينة الداخلية، وكان القصر الذي يقيم فيه الحاكم في هذا المكان أيضاً. نظراً إلى الخراب والآثار الباقية يمكن القول، كان هناك أسوار القلعة يحيط بها خندق كالحوض الصغير بعمق ٣ أمتار وعرض ١٨ متر.

إن «بشباليق» التي تقع في إقليم جيميسار حالياً، قد ورد ذكرها وربما ذكرت بإسم آخر في الكتابات التي تعود لفترة ما قبل الميلاد. ولقد تم استخدام اللبن والقرميد الملون ولوازم البناء الأخرى عند بناء المدينة، وتم تحصين أسوارها بالحصون.

كانت «بشباليق» ذات موقع استراتيجي للغاية وتقع على ملتقى طرق دولية عريقة تمتد من الغرب للشرق ومن الشمال للجنوب. ولأن المدينة تمثل أهم مركز استراتيجي، فقد ساق العديد من الحكام الجيوش للإستيلاء عليها وخاطروا بخوض الحروب. مثال ذلك، الحروب التي اندلعت في العهود القديمة بين إمبراطورية سلالة «هان الصينية» و«الهون»، وبين «سلالة طانغ» و«الكوكتورك» وبين «التبتيين» و«الأويغور» فقد كانت كلها من أجل «بشباليق».

لقد خسرت الصين الحرب التي دخلتها مع العرب عام ٧٥١م في سهل «طالاس» الواقعة داخل حدود قيرغيزستان اليوم. وكان ذلك لم يكن كافياً فقد اهتزت بغليان داخلي شديد ظهر عام ٧٥٨م (تمرد أنلو - شان). وهكذا، فبينما حكم الصين في آسيا الوسطى يوشك على الزوال، ظلت المنطقة تحت تأثير دولة أويغور «الأورخونية». ولقد استفادت إمارة التبت من ضعف إمبراطورية «طانغ» واحتلت «قانسو»



عام ٧٦٠م، وبسبب هذا الإحتلال انقطعت الروابط التي تربطها بالإمارات والشعوب الموجودة في الطرف الغربي للصين. لذلك إستطاعت الصين أن تحقق الاتصال مع هذه المنطقة من خلال الممر الدولي المسمى «طريق الأويغور». وفي تلك الأثناء عقد اتفاق بين دولة «الأويغور الأورخونية» و«أسرة طانغ» الحاكمة ضد إمارة التبت.

إن التجار والدبلوماسيين الصينيين الذين اتجهوا من «جانغ آن» صوب الشمال إستطاعوا الوصول إلى «قره بلاساغون» عاصمة سلطنة الأويغور الأورخونية متجاوزين سد الصين، ثم فيما بعد إتجهوا للغرب من جبال «ألطاي» ووصلوا إلى «بشباليق». إن هؤلاء الناس الذين تقدموا باتجاه الجنوب بعد «بشباليق» استطاعوا الوصول من «وادي تاريم» و«جبال طانري» إلى المدن الغربية، حيث أطلق على هذا الطريق في تلك الفترة «طريق الأويغور» وكان الطريق الرئيسي الذي يمر ب«طريق الأويغور» (وادي فرغانة وتاريم وچونغاريا ومنغوليا) يقع داخل حدود سلطنة «أورخون الأويغورية».

وكانت سيطرة الأويغور على طريق القوافل الرئيسي الممتد من الشرق إلى الغرب ومن ثم إقامة علاقات ثقافية واقتصادية وسياسية مع شعوب الطرف الغربي، كان من الطبيعي أن تمهد الأرضية لظهور المنافسة بين إمارة الأويغور والصين.

لقد حارب الأويغور التبتيين مرات عديدة في عهد إمارة «أويغور الأورخونية» من أجل السيطرة على مدينة «بشباليق» الإستراتيجية التي تقع على طريق الحرير التاريخي، ولكن في النهاية ظلت «بشباليق» في حوزة الأويغور المتفوقين وتم طرد التبتيين منها.

أما في سلطنة إديقوت الأويغورية فقد أصبحت «بشباليق» عاصمة لها. واتسعت المدينة وتحولت إلى مدينة كبيرة. لقد أوضحنا في القسم المعنون بـ «دور الأويغور في إمبراطورية المغول» الأدوار المهمة التي لعبها الأويغور الذين خرج معظمهم من «بشباليق» على الساحة السياسية

والعسكرية فى عهد جنكيز خان وأحفاده فى القرن الثالث عشر. ويظهر أيضاً أن «بشباليق» هى المهد الذهبى لسلطنة إديقوت الأويغورية. إن معظم القادة والسياسيين الذين عاشوا بين القرنين الثانى عشر والرابع عشر خرجوا من «بشباليق» وتربوا هناك.

كان الجزء الأكبر من الناس فى عهد سلطنة إديقوت الأويغورية يعيشون فى نظام مستقر واقتصاد مزدهر. أما العمارة فقد وصلت إلى مرحلة متقدمة. وكان الحكام والأمراء يعيشون فى قصور فاخرة، لكن الناس كانوا يقيمون فى منازل مزينة من الخشب ذات طابقين. والمنازل بصفة عامة وسط حدائق مزينة بالأشجار والورود.

كانت هناك قصور شتوية فى مدينة «قره قوچو» تعد مقر الإقامة الشتوى للسلطنة، أما مناخ المدينة فكان معتدلاً. وكانت هذه المدينة فى الوقت نفسه مركزاً دينياً.

## الأدب

أصبحت طرفان فى عهد سلطنة «إديقوت الأويغورية» واحدة من المراكز الثقافية الكبيرة فى آسيا الوسطى. ولوجود طرفان وبعض المدن على طريق القوافل بين الدول، فقد تعرفوا بثقافات التبت والصين والهند واليونان القديمة. لذلك ظهرت ثقافة أويغورية ثرية لكن خاصة بها. وبسبب وجود عناصر من المسيحية والبوذية والشامانية فى أساس ثقافة إديقوت الأويغورية، فقد كانت ثقافة عالمية الإنتشار. ومع ذلك لعبت البوذية الدور الأكبر فى تكوين هذه الثقافة.

إذا اعتبرنا الأدب الأويغورى المكتوب قد نشأ مع اختراع الأبجدية، فيمكننا ارجاع نشأته إلى ما قبل الميلاد بعدة قرون، لأن الأويغور كانوا يستخدمون الأبجدية قبل الميلاد بعدة قرون. ومع الأسف فنحن لا نملك وثيقة حاسمة تعرض ما يتعلق بكون الأدب الأويغورى مؤرخاً بتاريخ أقدم من ذلك. لأن الآثار الأويغورية المكتوبة الموجودة لدينا حالياً ترجع للقرن الخامس فقط.

عند الحديث عن موضوع أدب إديقوت الأويغورية، يمكننا احصاء كتب مؤلفة ومترجمة مثل «القبر المقدس»، «إريق - بتوك (فال نامه)»، «چستانى إيليكبك»، «أشعار مانى»، «أوغوز نامه»، «آلتون ياروغ»، «إيكى تكين حكاية سى».

وإذا كان أويغور الغرب قد اعتنقوا البوذية قبل الميلاد، وبدءوا فى اعتناق المانوية فى القرن الرابع والخامس. فلم يكن من قبيل المصادفة ترجمة «بوطورميش طارخان» لـ «للقبر المقدس» المكونة من ١٨٠ سطرا إلى الأويغورية القديمة فى القرن الخامس. أما البوذية فقد تأصلت فى القرن الخامس بين أويغور الغرب وأصبحت عقيدتهم الأساسية. ولقد كانت البوذية آنذاك هى العقيدة الرسمية فى «قوجو» و«كاشغر» و«خوتن»، ولكن ذاعت من جديد فى نفس القرن فى المناطق المشهورة فى «طرفان». وكان هناك «مانويون» أيضا فى بعض مناطق «طرفان» و«قوجو» و«كاشغر». كما اعتنق الأويغور الشرقيون «المانوية» فى ذات الأثناء. وتحول «بوغو - خان» حاكم الأويغور الشرقيين من الشامانية إلى المانوية فى عام ٧٦٢م.

إن قصة «چاستانى إيليك بك» وهى من الروايات الشفهية المكتوبة فى مدينة طرفان فى القرن الخامس باللغة الأويغورية وبالأبجدية الأويغورية.

فقد حارب چاستانى إيليكبك — بطل الرواية — الجن الذين جلبوا الأوبئة، لكى ينقذ للناس مما ألم بهم من محن وكوارث، وانتصر عليهم. إن هذه القصة التى تعد أول نموذج للأساطير الأويغورية، قصة ثرية بالتشبيهات والمبالغات والتعبيرات الأدبية الثرية.

بالنسبة لـ «إرق - بتوك» المكتوبة بأبجدية أورخون؛ فقد عثر عليها المستشرق «أوريل ستاين» فى أحد معابد الألف مغارة. وهو عبارة عن كتاب فآل يتضمن تفسير أكثر من مائة حلم وفآل ومكون من ١٠٤ سطر. و«إرق - بتوك» الذى عثر عليه فى الأطلال الموجودة بالقرب من طرفان، هو كتاب عبارة عن تفسير الفآل والرؤى من زاوية العالم المعنوى للأويغور. وقد أقر بأن هناك فى «إرق - بتوك» بعض التفسيرات

جيدة وأخرى سيئة. فمثلاً إذا رأى شخص ما فى الحلم أنه يطير كالتائر أو يرمى بالسهم أو إذا رأى شروق الشمس، فيفسر ذلك بأنه خير، أما إذا رأى حريقاً أو أنه يسقط فى شرك الطيور فيفسر ذلك بأنه شر. إن تفاسير الرؤى الموضحة فى «إرق - بتوك» تلقى اعتباراً بين الأويغور اليوم. وتجرى اليوم دراسات عن هذا الكتاب يقوم بها باحثون معاصرون.<sup>١٧٠</sup>

لقد ظهر مترجمون وشعراء كثر فى عهد سلطنة إديقوت الأويغورية، وفيما يلى بعض منهم:

«أبرينجور تكين» (القرن التاسع)، «كول تارقان»، «سينقو سالى توتونغ»، «كلمة قايشى»، «فرا تياشرى»، «كى - كى»، «أسيخ توتونغ»، «چيصويا توتونغ». ولقد انشغل هؤلاء بإيجاد الأدب الأويغورى<sup>١٧١</sup>. وتم العثور فى طرفان على قطعتين من الشعر ترجع إلى «أبرينجور تكين المانوى»، حيث أن إحداهما عبارة عن «مديح» مكون من ثلاث قطع شعرية مهداه للإله «مانى». والقطعة الأخرى واردة هنا بلغتها الأصلية وباللغة الأويغورية الحديثة.

وهناك أيضاً أشعار تتعلق بالحب والعشق عبارة عن ٦ أبيات شعرية بلغتها الأصلية وبالأويغورية الحديثة.

وكل الشعراء السابق ذكرهم كانوا بوذيين ماعدا «أبرينجور». وهناك شعر لـ «براتياشرى» أحد هؤلاء الشعراء، عبارة عن ٢٩٣ بيت شعرى بعنوان «فضيلة الحكمة»، أما «كيكى» فقد كتب شعراً مكوناً من ٩ قطع و ٢٦٠ بيت شعرى.

إن بساطة لغة الأدب الأويغورى القديم التى تتضح من آثار الشعراء الذين عاشوا فى عهد سلطنة إديقوت الأويغورية، تبرهن لنا عن تفوق قدرة الفكر لدى أجدادنا.

كما عثر أيضاً على «أوغوز نامه» كتبت بالأبجدية الأويغورية القديمة فى طرفان فى القرن الثامن الميلادى. ومع أن «أوغوز نامه» تم تداولها

شفهياً من منطقة لأخرى منذ العهود القديمة إلا أنها قد كتبت بالأبجدية الأويغورية في «سَمَرْقَنْد» و«كاشغَر»، وهما من كبريات مدن القراخانيين في القرن الحادى عشر. وربما أن «أوغوز نامه» المكتوبة بالخط الأويغورى القديم فى القرن الثامن، كتبت منها تلك النسخة بالأبجدية الحديثة فى عهد القراخانيين فى القرن الحادى عشر. ولتأيد وجهة نظرنا هذه يجب التحقق من وجود أو عدم وجود «أوغوز نامه» بين الكتب المؤلفة فى عهد القراخانيين.

فى الواقع لقد حقق الأدب والعلم قفزة كبيرة فى عهد القراخانيين، فقد ظهرت كتب تاريخية كبيرة مثل «زين الأخبار» للكرديزى، و«تاريخ البيهقى» المكونة من ٣٠ جزء للبيهقى، «تاريخ ملك تركستان» ( تاريخ تركستان) لمجد الدين عدمانى. وكذلك تم تأليف كتب تعليمية مثل «تاريخ بخارى» لمحمد نار شاهى. و«سياست نامه» لنظام الملك وتم ترجمته، و«قوتادغو بيليك» ليوסף خاص حاجب، إلى جانب كتب تتعلق بعلم اللغة لمحمود الكاشغرى والزمخشرى، و«أوغوزنامه» وغيرها<sup>١٧٢</sup>. ولما كانت هذه الكتب قد كتبت فى القرنين الحادى والثانى عشر الميلادى فيجب ضم «أوغوزنامه» الى قائمة آثار الأدب الأويغورى الذى ظهر فى عهد القراخانيين وعلى أرضهم.

إن قسما من الأدب الأويغورى الذى أنجز فى عهد إمارة إديقوت الأورخونية كانت موضوعاته تتعلق بالبوذية، والقسم الآخر كتب نقلت إلى الأويغورية عن طريق الترجمة، حيث يأتى على رأسها «آلتون ياروغ». حيث أن هذا الكتاب نقل من الصينية إلى الأويغورية فى «بشباليق» على يد شاعر اسمه «سينقوسالى توتونغ».

وقد عثر العالم الروسى «س.مالوف» فى عام ١٩٠٩م على النسخة الأويغورية الكاملة لـ «آلتون ياروغ» فى إقليم «قانسو» حيث توجد المعابد البوذية وفى المكان الذى عاش فيه «أويغور الصفر». ولقد حظى الكتاب بشهرة عالمية بعد أن نشره كل من «مالوف» و«رادولف» فى

أعوام ١٩١٥ - ١٩١٧م. وبخلاف النسخ الأويغورية لكتاب «ألتون ياروغ» الموجودة في «طرفان» و«داشاتا» تحفظ في برلين وسان بطرسبورج الآن نسخ منه باللغات المنغولية والصينية والتبتية.

وشرح قصص وحكايات «بوذا» الموجودة في «ألتون ياروغ» المكون من ٧٣٠ صفحة، فمساهمة مهمة جداً لتطور الأدب الأويغوري المكتوب. إن الترجمة التي قام بها المترجم البوذي الماهر «سنقوسالي توتونغ» الذي عاش في القرن السابع الميلادي لـ «سيرة شونجانغ» الراهب البوذي من الصينية، ترجمه بلغة فصحة جداً.

### الفنون

لم يرق الأدب فقط في عهد سلطنة «إديقوت» الأويغورية بل ارتقت أيضاً فنون أخرى مثل فن النحت والنقش والرسم على النمط البوذي، وتأثرت أيضاً بالفن الصيني واليوناني القديم (عن طريق البوذية الهندية) والفارسي (عن طريق المانوية).

إن بروزات المعابد البوذية ورسوم الحائط وفن المعمار المسمى «ألف مغارة» الذي يحتل موقعاً على أراضي سلطنة «إديقوت» الأويغورية، أظهر تأثر فن أويغور إديقوت كثيراً بالفن الصيني والهندي واليوناني والفارسي.

كانت العقيدة البوذية هي الأكثر إنتشاراً في سلطنة «إديقوت» الأويغورية، ولكن «النسطورية» و«المانوية» لم تكن قوية. إن أويغور الشرق الذين هربوا للغرب في عام ٨٤٠م اعتنقوا البوذية المعتمدة لدى الإديقوت في وقت قصير بالرغم من أنهم كانوا مانويين.

وقد شيدت هؤلاء أويغور الشرق المهاجرين معابد «مانى» الموجودة في «طرفان». وفي القرن الثاني عشر الميلادي اعتنق جزء صغير جداً منهم المسيحية النسطورية.

## ● حکام اديقوت الاويغورية

۸۵۰ - ۹۶۶ م	۱ - پان تكين
۸۶۶ - ۸۷۱	۲ - بوكو تكين
۹۴۰ - ۹۴۸	۳ - ايردمين
۹۴۸ - ۹۸۵	۴ - ارسلان خان
۱۱۲۶ - ؟	۵ - بيلكا تكين
؟؟	۶ - ايسن تومور (والد آرت تكين)
۱۲۰۸ - ۱۲۳۵	۷ - باور تشوق آرت تكين
۱۲۳۵ - ۱۲۴۵	۸ - كوسماين
۱۲۴۶ - ۱۲۵۵	۹ - سالون تكين
۱۲۵۵ - ۱۲۶۵	۱۰ - اوغروننتش تكين
۱۲۶۵ - ۱۲۶۶	۱۱ - ماموراق تكين
۱۲۶۶ - ۱۲۷۵	۱۲ - قوجيغار تكين
۱۲۷۵ - ۱۳۱۸	۱۳ - نولين تكين
۱۳۱۸ - ۱۳۲۷	۱۴ - تومور بوكا
۱۳۲۷ - ۱۳۳۱	۱۵ - سنجي تكين
۱۳۳۱ - ۱۳۳۵	۱۶ - تايبان

## ● اميرات المغول اللاتي جنن كعرانس لحكام اديقوت

بتاريخ	زوجها	ابوها	اسمها
۱۲۱۰	باور تشوق آرتتكين	جنكيز خان	آالتون ۱۷۳
۱۲۷۰	قوجيغار تكين	كويوك	باباكار
۱۲۷۵	نوليننتكين	حفيدة اوكتاي	بورقان

باباتشا	حفيدة أوكتاي	نولينتكين	١٣١٠
أوراتشين	آنادار	نولينتكين	١٣١٠
تورجسمان	أمير مغولي	توموربوقا	١٣٠٧

بابتاشا حفيدة أوكتاي نولينتكين ١٣١٠  
 أوراتشين آنادار نولينتكين ١٣١٠  
 تورجسمان أمير مغولي توموربوقا ١٣٠٧

من الكتب...  
 ٢ - زيباتا (ت، آنا) زيباتا زيباتا - ٢  
 ٧ - زيباتا (ت، آنا) زيباتا زيباتا - ٧  
 ٨ - زيباتا زيباتا - ٨  
 ٩ - زيباتا زيباتا - ٩  
 ١٠ - زيباتا زيباتا - ١٠  
 ١١ - زيباتا زيباتا - ١١  
 ١٢ - زيباتا زيباتا - ١٢  
 ١٣ - زيباتا زيباتا - ١٣  
 ١٤ - زيباتا زيباتا - ١٤  
 ١٥ - زيباتا زيباتا - ١٥  
 ١٦ - زيباتا زيباتا - ١٦  
 ١٧ - زيباتا زيباتا - ١٧  
 ١٨ - زيباتا زيباتا - ١٨  
 ١٩ - زيباتا زيباتا - ١٩  
 ٢٠ - زيباتا زيباتا - ٢٠

١٧٧١	١٧٧١	١٧٧١	١٧٧١
١٧٧١	١٧٧١	١٧٧١	١٧٧١
١٧٧١	١٧٧١	١٧٧١	١٧٧١
١٧٧١	١٧٧١	١٧٧١	١٧٧١



## الفصل الخامس والعشرون : إمارة أويغور قانصو

### قيام إمارة أويغور قانصو

فى القرن الثانى عشر كانت إمارة التبت فى شرق آسيا قد وصلت إلى قمة قوتها. وفى عام ٦٣٠م ولد بطل قومى بين التبتيين إسمه «سونغ زن - كان - بو». ونجح فى توحيد القبائل الجبلية ضمن القبائل التى تقيم بجوار «كوكنور» وأتم إقامة دولة التبت وتكوين الجيش الذى يضمن قوتها بشكل واضح. وأرسل «سونغ زن - كان - بو» الرجال إلى أويغور «خوتن» وطلب منهم مساعدة فى وضع الأبجدية التى استخدموها (محتمل أن تكون اللغة السنكريتية). استشعرت إمبراطورية «طانغ» القلق من قوة جاريتها التبت، فأرسلت أميرة تدعى «ونجنغ» لتكون زوجة لـ «سونغ زن - كان - بو» فى عام ٦٤١م، وأرسلت أميرة أخرى إسمها «جنجغ» فى عام ٧١٠م لتكون زوجة لحاكم التبت.

فى القرن الثامن بدأت معارك دموية طويلة بين إمبراطورية «طانغ» ودولة التبت. وبالرغم من عقد إمبراطورية «طانغ» إتفاقاً مع إمارة أويغور الأورخونية ضد التبت إلا أن «التبتيين» لم ينهزموا فى أى معارك، ولم تكن «طانغ» بنفس قوتها بسبب حرب «طالاس» وثورات «أونلوق». فانتهز التبتيون الفرصة واستولوا على جزء مهم من إقليم «سيجون» وعلى كل «قانصو».

بعد معاهدة السلام المبرمة مع إمبراطورية «طانغ» فى عام ٧٨٣م تحركت دولة التبت صوب إمارة أويغور الأورخونية بهدف احتلال «وادي تاريم». وانهزم الأويغور فى البداية حتى أن التبتيين استولوا

على «بشباليق» أيضاً، لكن نجح الأويغور في استردادها عام ٨٠٠م. أما في عام ٨٠٨م فطرد الأويغور التبتين من منطقة «ليانغ - جو» التي تقع في قانسو. وبالرغم من محاولة جيش التبت مجدداً فتح «كوچار» و«بشباليق» غير أبيهين بالهزيمة التي لحقت به، إلا أن «آي طانري خان» حاكم الأويغور أنزل به ضربة ثقيلة في المنطقتين عام ٨١٢م. وفي أعقاب هذه الهزيمة عمل التبتيون على استمرار حكمهم في إقليم «قانسو» طوعاً أو كرهاً.

وكما هو معروف فإن جزءاً من أويغور الشرق هاجروا إلى «قانسو» عام ٨٤٠م ويقول المؤرخون وهم بصدد الحديث عن الأويغور المهاجرين إلى ممر «خشى»: «إن قسماً من الأويغور ذهب إلى التبت» واضعين نصب أعينهم سيطرة جيش التبت على قانسو في تلك الأثناء.

في عام ٨٦٥م هزم جيش إمارة إديقوت الأويغورية بقيادة «بوكو - تكين» جيش التبت بجوار بحيرة «كوكنور» في مكان يسمى «ليدو» بجنوب مدينة «شى - نينغ». وقطعت رأس «شانغ كونرى» الجنرال التبتى الأسير، واعتباراً من هذا التاريخ انتهت سيطرة جيش التبت على قانسو. فضلاً عن ذلك كانت دولة التبت في ذلك الوقت تعيش فترة انهيار ونزاعات داخلية.

إن الهزيمة الثقيلة التي أنزلتها إمارة إديقوت الأويغورية بالتبتين عام ٨٦٥م مهدت من ناحية لإنهيار التبت، ومن ناحية أخرى هيأت لحصول الأويغور المقيمين في ممر «خشى» بقانسو على حريتهم.

في عام ٨٧٠م أسس الأويغور المقيمون في ممر «خشى» دولة عاصمتها «جان - يى» (قانسو)، حيث تذكر هذه الدولة في كتابات المؤرخين الصينيين بإسم «دولة قانسو الأويغورية». أما نحن فنطلق على هذه الدولة إسم «دولة أويغور قانسو» (٨٧٠ - ١٠٥٥م). وكانت حدود هذه الإمارة تشمل «دونخوانغ التي تقع بجوار مدن إقليم «قانسو» اليوم، و«جانغ - يى»، و«أنشى»، و«جيوجيون»، و«ضواحي «لنجو»، و«وادي

إرسين» في مدينة «نغشيا» الحالية.

وقبل إقامة هذه الدولة هاجر جزء من قبيلة «يغلاقار» من أويغور

الشرق إلى «ممر خيشي» عام ٨٤١م.

## الفصل السادس والعشرون : قوة سلطنة أويغور قانصو

في عام ٩٠٧م تم القضاء على إمبراطورية «طانغ» (٦١٨ - ٩٠٧م) التي استمر وجودها ٣٠٠ عام تقريباً. وبعد ذلك بدأت المرحلة التي تسمى في التاريخ بإسم «الأسرات الحاكمة الخمس، والإمارات العشر». وفي تلك الفترة تأسست «الأسرات الخمس» في الصين الشمالية: «مؤخر ليانغ» (٩٠٧ - ٩٢٣م)، «مؤخر طانغ» (٩٢٣ - ٩٣٦م) «مؤخر جن» (٩٣٦ - ٩٤٦م) «مؤخر هان» (٩٤٧ - ٩٥٠م) و«مؤخر جو» (٩٥١ - ٩٦٠م).

وفي نفس الفترة قد تأسست الإمارات العشر التالية في الصين الجنوبية متضمنة إقليم «سان - سي»: إمارة «وو» (٩٠٢ - ٩٣٧م)، وإمارة «طانغ الجنوبية» (٩٣٧ - ٩٧٥م)، وإمارة «ويو» (٩٠٧ - ٩٧٨م)، وإمارة «جو» (٩٠٧ - ٩٥١م)، وإمارة «مين» (٩٤٥ - ٩٧٠م)، وإمارة «هان الجنوبية» (٩١٧ - ٩٧١م)، وإمارة «شو السابقة» (٩٠٣ - ٩٢٥م)، وإمارة «مؤخر شو» (٩٢٣ - ٩٦٥م)، وإمارة «نانغ - فينغ» (٩٢٤ - ٩٦٣م) وإمارة «هان الشمالية» (٩٥١ - ٩٧٩م).

في فترة «الأسرات الحاكمة الخمس، والإمارات العشر» لم تكن هنالك دولة مركزية قوية في الصين، مما هيا المناخ المناسب لتقوية «إمارة أويغور قانصو». وقد استمرت العلاقات بين إمارة أويغور «قانصو» والصين على مبدأ المساواة. والسبب في ذلك ضعف «الأسرات الحاكمة الخمس» مقارنة بالدول الأخرى، وكانوا لا ينقطعون عن محاربة بعضهم البعض بهدف إخضاعهم لحكمهم، ولذلك لم تكن حدودهم مستقرة.

في عام ٩٦٠م نجحت أسرة «سونغ» في توحيد الصين، لكن علاقات

الجوار مع سلطنة أويغور «قانسو» كانت تتسم بالصداقة. وخاضت سلطنة أويغور «قانسو» من يوم قيامها صراعاً مسلحاً لإخضاع قبائل المنطقة لطاعتها.

وعندما أدرك «جانغ جنفين» وريث «جانغ فياو» الوالى السابق لمنطقة «داشاتا» الواقعة تحت حكم أسرة «طانغ» حتى عام ٨٧٢م؛ أن أسرة طانغ لن يمكنها الإستمرار فى بسط حكمها عليه أكثر من ذلك، حاول فى عام ٩٠٥م تأسيس سلطنة مستقلة تحت اسم «سلطنة الهان التون داغ الغربية» ولكن عمر السلطنة كان قصيراً، لأن الأويغور أعلنوا الحرب ضده عام ٩٠٦م وانتهت المعارك بانتصار سلطنة أويغور قانسو عام ٩١١م. حتى أن إتحاد «جانغ جنفين» مع التبتيين للتغلب على الأويغور لم يغير النتيجة. وهكذا ضاع عرش «جانغ جنفين»، وعين الأويغور «صاوجين» واليا مكانه.

كانت العلاقات القائمة بين سلطنة أويغور «قانسو» والملكيات الصينية فى عهد «الأسرات الخمس، والامارات العشر» تسير فى مسارها العادى. ولكن الانتصار الذى حققه الأويغور على «جانغ جنفين» عام ٩١١م لم يرض «إمارة مؤخر ليانغ» الموجودة فى «كاي - فنغ»، وتراجعت العلاقات بين الطرفين حتى أن «مؤخر ليانغ» أراد مساعدة «جانغ جنفين» ولكن لم تكفى قدرته لإنقاذه.

فى ظل حكم الحكام المنتسبين لقبيلة ياغلاقار أصبحت عاصمة سلطنة أويغور «قانسو» قوية بشكل لافت للإنتباه لقد امتدت حدودها إلى «ليانغ - جو» فى الشرق وحواف «جبال طانري (حتى قمول)» فى الغرب وسلاسل «جبال جيلنشن» فى الجنوب وحتى «رمال طانري» فى منطقة نينغشيا فى الشمال. كانت الأراضى التى تقع تحت حكم الإمارة صالحة للزراعة وتربية الحيوان. فضلاً عن ذلك لعبت دوراً مهماً فى التجارة بين الصين والغرب لوقوعها فى ملتقى طريق القوافل الدولى، كما كانت لها علاقاتها التجارية مع بعض الدول.

يجب هنا أن نذكر بما قاله المؤرخون الصينيون فى العصور الوسطى

حيث أنهم أطلقوا بالخطأ على القوافل التجارية تلالاً «سئات السفارة» وعلى البضائع التي تصدرها الأويغور أنها «جزية». لأن في تلك الفترة لم تكن سلطنة أويغور «قانسو» مرتبطة بالصين بأي شكل من الأشكال. حتى أنه في الأيام التي وحدث فيها أسيرة «طانغ» الصين، احتفظت سلطنة أويغور «قانسو» باستقلالها. في الحقيقة لم يكن حكام «سونغ» الشمالية في وضع يمكنهم من استعمال الضغط السياسي أو العسكري على سلطنة الأويغور. لأنهم تعرضوا لهجمات سلطنة «كيدان الشرقية» أولاً ومن بعدهم «الطانغوت». ومع ذلك لا يمكن أبداً تصور أن سلطنة أويغور «قانسو» تدفع الضرائب لأسرة «سونغ».

وفي فترة «الأسرات الخمس»، والإمارات العشر» كانت بعض الإمارات الصينية — بغض النظر عن ضعف أحوالهم — تعتبر أن مهمتها عند تغيير الحكام في سلطنة أويغور قانسو، أن تمنح الحاكم الجديد لقباً يدل على الاحترام. وذلك يشبه منح الخلفاء العباسيين للحكام القراخانيين وسلاطين الغزنويين والسلاجقة ألقاب مثل «المدافع عن الدين»، و«حاكم الشرق والغرب». لأن حصولهم على مثل هذه الألقاب من الخلفاء العباسيين لا يعنى أنهم تابعين لهم.

### الحروب بين سلطنة أويغور قانسو والطانغوت

في القرنين العاشر والحادي عشر الميلادي تأسست في المناطق المجاورة لحدود إمبراطورية «سونغ»، سلطنة «كيدان الشرقية» أولاً ثم «الطانغوت» وبعدهم دولة «الجورجت». وقام «الجورجت» و«الكيدانيون الشرقيون» - بغية توسيع أراضيهم - بالهجوم على أسيرة «سونغ» و«إمارات الصين» التي أصابها الضعف، أما «الطانغوت» فقد سعوا أولاً للقضاء على «سلطنة أويغور قانسو» بالقيام بهجمات مستمرة.

كان «الطانغوت» الذين يرون أنفسهم من أصل تبتى يعيشون منذ القدم على الحواف الغربية لجبل «جوغاي» وكانوا تابعين للأويغور في عهد سلطنة «أويغور الأورخونية».

ساعدت الأحداث التي وقعت في شرق آسيا في القرن العاشر الميلادي على نمو قوة «الطانغوت»، لأن الأويغور الشرقيون هاجروا إلى الغرب في عام ٨٤٠م، ودولة التبت القوية ضعفت في عام ٨٦٠م، وقضى على «أسرة طانغ» عام ٩٠٧م، وتأسست في الصين عشر دول ضعيفة، ووقعت الحروب بين أسرة «سونغ» و«الجورجت» و«الكيدانيين الشرقيين»، وقد مهد ذلك كل الأرضية لتقوية قبائل «الطانغوت» وإقامة دولة قوية. لقد أقدم زعيم الطانغوت «لينخاو» على إقامة دولة الطانغوت عام ١٠٣٠م، وأعلن نفسه حاكماً عليها. وعاصمتها مدينة «ينجوان» الواقعة في نينغشيا حالياً. إن منطقة «نينغشيا» والقسم الشمالي لمقاطعة «جنخه - ي»، ومناطق شمال غرب «قانصو»، وجزءاً من منغوليا الداخلية؛ كانت كلها داخل حدود الدولة. وكان الشعب يتكون من الطانغوت والأويغور والصينيين والتبتيين.

كان الطانغوت في حالة حرب مستمرة مع جيرانهم (الأويغور، الكيدانيون الشرقيون، أسرة سونغ، والجورجت) ولم تكن علاقاتهم مع سلطنة أويغور قانصو — خاصة — ودية في أي وقت من الأوقات. ويمكن تقسيم الحروب بين الأويغور و«الطانغوت» إلى فترتين. الفترة الأولى حوالي ستين عاماً خلال أعوام ٩٢٠-٩٨٢م. أما الفترة الثانية فقد استمرت خمسين عاماً من ٩٨٢ حتى ١٠٣٢م. وسنورد فيما يلي الأحداث المهمة التي وقعت في هاتين الفترتين.

كان «الطانغوت» في القرون الأولى من الميلاد يعيشون حياة بدوية في المنطقة القريبة للجزء الشرقي من إقليم «قانصو» وفي أراضي «نينغشيا». وفي تلك الأثناء كان «الطانغوت» يشكلون اتحاداً قبلياً، ويشنون الهجمات باستمرار على السفارات التي ترسلها سلطنة أويغور قانصو إلى الدولة القائمة في واحة الصين الكبيرة عام ٩٠٢م وعلى قوافل التجارة، ولكن الأويغور كانوا بالاشتراك مع دولة «مؤخرة طانغ» يواجهون تلك الهجمات بمقاومة شديدة «إذ تم تقوية وحدات حماية القوافل وخصصت الجيوش لمرافقتهم ونظمت الحملات ضد الطانغوت»<sup>١٧٤</sup>.

لقد تزايدت قوة الطانغوت في أواخر القرن العاشر الميلادي بقدر لافيت للإنتباه ثم أقدموا على بناء دولتهم. وعلى مدى خمسين عاماً من ٩٨٢م حتى ١٠٣٢م نظموا هجمات متواصلة على «سلطنة أويفور قانصو»، وفي النهاية قضاوا عليها. والمرحلة الثانية للحروب بين «الطانغوت» والأويفور إنتهت بكارثة لسلطنة «أويفور قانصو».

ولقد أرسل «لى ديمين» حاكم الطانغوت (١٠٠٤ - ١٠٣٢م) سفيراً إلى «سونغ جنزونغ» إمبراطور «سونغ» عام ١٠٠٦م، وعقد معه معاهدة سلام ثم قام بالهجوم على سلطنة أويفور قانصو عام ١٠٠٨م، ولكنه تلقى هزيمة ثقيلة من الأويفور. وهرب قائد جيش الطانغوت «وانغ - زى» إلى إمبراطورية «سونغ» خوفاً من عقاب الحاكم.

وبعد عام هجم الطانغوت على الأويفور مرة أخرى بجيش قوامه ٢٠ ألف، وبمساعدة «الكيدانيين الشرقيين» حاصروا «سانديبل» عاصمة «سلطنة أويفور قانصو»، واستمر الحصار لمدة عشر أيام. ولكن «يغلاكار» حاكم الأويفور «نظم غارة ليلية على العدو، وأنزل بهم ضربة ثقيلة، وإضطر الطانغوت للهرب في النهاية»<sup>١٧٥</sup>. ولم ينجح الطانغوت أيضاً في الهجوم الذى شنه على سلطنة أويفور قانصو عام ١٠١٠م.

ونستطيع القول - إستناداً على المعطيات التاريخية - أن كل الهجمات التى نظمها «الطانغوت» ضد الأويفور بين أعوام ١٠٠٨ - ١٠١٠م قد باءت بالفشل.

إستمرت المعارك بلا انقطاع بين «الطانغوت» و«سلطنة أويفور قانصو» فيما بين أعوام ١٠١٠ - ١٠٢٦م. وكانت معظمها معارك صغيرة، ولكنها كانت دموية إلى حد ما. وفي المعارك التى وقعت حتى عام ١٠٢٦م قدم الأويفور المساعدة لإمارة التبت الواقعة فى منطقة «لأنجو» وتشنت الطانغوت. وفى تلك الأيام حاصر «الكيدانيون الشرقيون» مدينة «سانديبل» عاصمة الأويفور، لكنهم خسروا النزاع وانسحبوا.

ومع ذلك فإن الهجمة التى نظمها «الطانغوت» ضد الأويفور عام



١٠٢٦م كانت أكثر تنظيماً. ونجح «الطانغوت» فى الإستيلاء على «سانديبل» عاصمة الأويغور عام ١٠٢٨م، وانتحر «يغلاقار» حاكم الأويغور، لكن أبناءه وأقاربه وقعوا فى الأسر. ونجح «الطانغوت» عام ١٠٣٦م فى الاستيلاء على مدن هامة «سوجو»، و«كاجو»، و«شاجو»، و«جيجون»، و«يومن»، و«دونغ - خوانغ».

وهكذا فقدت «سلطنة الأويغور قانصو» آخر نقاط الدعم والمساندة، وهرب جزء من الأويغور باتجاه الغرب، والجزء الآخر إتجه للجنوب نحو المناطق التى يعيش فيها التبتيون<sup>١٧٦</sup>.

ويمكن القول؛ إن جزءاً من الأويغور أنقذوا حياتهم بالهرب إلى المنطقة التى يقطنها التبتيون (بجوار كوكنور) والجزء الآخر هرب إلى هضبة «إديقوت» فى الغرب (بجوار قومول)، إلا أن الصارى أويغور [أى الأويغور الصُفْر] وهم أحفاد الأويغور ظلوا فى أراضيهم لم يهربوا إلى الجنوب أو الغرب بعد الهزيمة التى تلقوها أمام «الطانغوت».

هناك الكثير جداً من الوثائق والمعلومات الواردة فى كتب مؤرخى الصين فى العصور الوسطى تتعلق بالحرب بين «الطانغوت» و«سلطنة أويغور كانصو». وحتى إن لم توجد كلها، فيوجد أجزاء من بعض المعلومات فى «ديوان لغات الترك» لمحمود الكاشغرى. مثال ذلك:

زحفوا على جيش طانغوت فى زمهرير البرد

وأهانوا نساءهم وبناتهم

وأسروا رجالهم وغنموا جيادهم

ووقع طانغوت ذليلاً فى الأسر.<sup>١٧٧</sup>

وخدع حاكم «الطانغوت» سلطان الأويغور «قاطون سني»

وضربهم حتى الموت

ولامه أصحابه

فلقى الموت وساء وجهه<sup>١٧٨</sup>

والرباعية الأولى تشير إلى انتصار الأويغور على «الطانغوت»، بينما تشير الرباعية الثانية انهم انهزموا. ولإلقاء مزيد من الضوء على هذا الموضوع، ينبغي لنا أن نوضح ما يعني بـ«قاطون سيني» الذي ورد في قوله «وخذع «الطانغوت» سلطانهم».

لقد كان «وادي إرسين» الذي يقع في منطقة «ننغشيا» داخل حدود سلطنة أويغور «قانسو». وكانت توجد مدينة في «وادي إرسين» هذا اسمها «قاطون باليق» في عهد سلطنة أويغور «قانسو». وعندما كتب محمود الكاشغري عن «حاكم قاتون سيني» كان يشير إلى رئيس أويغور «قاطون باليق» التابعة لسلطنة أويغور «قانسو». و«قاطون سيني» مدينة صغيرة تقع بين الصين والطانغوت، وعندما كتب أن «هزم الطانغوت شعب «قاطون سيني»<sup>١٧٩</sup> يفهم منه أن «قاطون سيني» قسبة صغيرة. ويزعم بعض المؤرخين الغربيين حالياً أن «سانديبل» عاصمة سلطنة أويغور قانسو ليست «قانسو» التي نقول عنها، بل ربما تكون «قاطون سيني» (قاطون باليق). وأعتقد أن البحث مازال مستمرا في هذا الموضوع.

وهكذا يثار تساؤل في ذهننا فيما يتعلق بالقضاء على سلطنة أويغور «قانسو» على يد «الطانغوت»: ترى لماذا هاجم «الطانغوت» سلطنة أويغور «قانسو» وقضوا عليها؟

إن السبب الأساس في هذا هو ضعف الأويغور في تلك الأثناء، ووجود قبائل تمت بصلة قرابة للطانغوت يعيشون في الأراضي الواقعة تحت حكمهم. ولكن بالنسبة لنا فإن السبب الآخر الأكثر أهمية هو السيطرة على طريق القوافل الوحيد الذي يربط الشرق بالغرب والاحتلال على أراض خصبة في «ممر خيشي».

أما موضوع لماذا لم يقدم أويغور «إديقوت» و«القراخانيين» وهم من الدول القريبة الدعم والمساعدة لسلطنة أويغور «قانسو» في فترة إنهيارها؛ فهو بالقطع موقف غير مفهوم. بالإضافة إلى ذلك لم ترغب

إمبراطورية «سونغ» أيضاً فى تقديم أى نوع من المساعدة العسكرية لأويغور «قانسو». ولذلك أرسل الأويغور سفيراً إلى «كاي - فنغ» عاصمة «سونغ» عام ٩٩٦م وإقترحوا التعاون ضد «الطانغوت»، ولكن لم تسفر المباحثات عن نتيجة، حتى أنه كرر طلب المساعدة نفسها مرة أخرى فى عام ١٠٠٨م من «أسرة سونغ»، ولكن لم يقدم سونغ جنزونغ «رداً إيجابياً». وعندئذ بلغت الحرب الدائرة بين «الكيدانيين الشرقيين» و«أسرة سونغ» نهايتها، ووافقت الأطراف المتحاربة على الجلوس على طاولة المباحثات. وبالرغم من أن أسرة «سونغ» كانت تملك كل الإمكانيات إلا أنها لم تقدم المساعدة العسكرية لسلطنة أويغور «قانسو» سوى إرسال عدة هدايا وإصدار وعود جوفاء. والخلاصة أن أسرة «سونغ» طبقت على مدى سنوات طويلة مبدأ «إقضى على البربر بيد البربر».

### علاقات التجارة الخارجية لسلطنة أويغور قانسو

لقد احتلت أراضى سلطنة أويغور «قانسو» مكانة لكونها نقطة إلتقاء طرق مهمة بين الشرق والغرب، ولعب هذا الموقع دوراً مهماً جداً فى علاقات التجارة الخارجية للسلطنة.

كانت سلطنة أويغور قانسو فى فترة «الأسرات الخمس» تملأ فراغاً غاية فى الأهمية فى تلبية إحتياج دول الواحة الوسطى من جياد الحرب وأطقم الجياد، خاصة «جنن اللاحقة» و«طانغ اللاحقة» فكانوا باستمرار عند الحرب مع الكيدانيين الشرقيين — يشترىون الجياد من الأويغور. كما كانت «سونغ الشمالية» تلبى إحتياجها للجياد من الأويغور.

فى عام ٩٦٥م كانت هناك قافلة مرسلة من سلطنة أويغور قانسو إلى إمبراطورية «سونغ» تنقل ١٠٠٠ جواد و ٥٠٠ جمل وأكثر من ٥٠٠ حجر ملون لامع و ٥٠٠ تشين (التشين الواحد = ٥٠٠ جرام) و ٤٠ نشادر وألف قطعة من الجلود المدبوغة والأحزمة المرصعة والسروج ولوازمها.

وإستناداً إلى تلك المعلومات يمكن القول بأن الجياد كانت أهم البضائع المرسلة إلى إمبراطورية «سونغ». إن العلاقات التجارية بين

إمبراطورية «سونغ» وسلطنة أويغور «قانسو» توضح إرتباط الأويغور بعلاقات تجارية قوية ومثمرة مع جيرانهم. ومثال على ذلك فقد أرسل «سونغ جنزونغ» إمبراطور «سونغ» إلى «يغلاقار» حاكم أويغور قانسو عام ١٠١١م ٥٠٠ طقم من الملابس، و٥٠٠ إناء فضى، وسراويل قطيفة، وحزام ذهبي، فضلا عن ذلك ٤٠٠ طقم ملابس و٣٠٠ إناء من الفضة المختلفة المصنوعة من ٣٠٠ مثقال لزوجة الحاكم، كما أهدى للسفير الأويغوري أيضاً كأس فضى ومشغولات ذهبية لغطاء الرأس.

لقد أورد «مالياوكين» قائمة البضائع المتجهة من سلطنة أويغور «قانسو» إلى الصين على النحو التالي: مرجان، ألماس، عطور، جمال، جمال بسنم واحد، لؤلؤ، عسل، زجاج زئبق الصقور البيضاء، السرطان البحري، الدواء، المواد الخام للأدوية، الجياد، جلود الجياد المدبوغة، لوازم الجياد، محاصيل محلية، السيوف الفولاذية، النشادر، الأحجار الملونة، الحلوى المرصعة بالأحجار الكريمة، الملابس الجلدية، الأحذية، السرج، قرون الغزال، أطقم الحيوانات، جلود السمور، والخز الأبيض والخز الأسود، الملح، الجلود، الأقمشة الملونة، أقمشة فارس، الأقمشة الجلدية، النسيج القطنى، حلى العروس المزينة بالأحجار الكريمة، الآنية الزجاجية، الحلوى، القطن، شحم الثور التبتى... إلخ.

قسم من هذه البضائع كان يتم إنتاجه فى سلطنة أويغور قانسو، أما الباقي فكانت بضائع مستوردة من دول الغرب ومن سلطنة إديقوت والقراخانيين.

## ● المصادر والمراجع

- ١ - المصادر الأساس لتاريخنا القومي، ص ١.
  - ٢ - اوزبكستان، تاريخ اتحاد الجمهوريات السوفيتية الروسية، تاشكند ١٣/١.
  - 3 - Ma Ch'ang - shou, Turkler ve Turk Kaganligi, Cince, s.5.
  - 4 - Pan Ku, Han -shu, Hunlar Bolumu.
  - 5 - Cen Zhongmain, Turk Tarihi, Cince, s.663.
  - ٦ - لي، مقياس طول قديم كان مستخدما في الصين ويعادل ٥٥٩ مترا.
  - 7 - Yu - Huan, Wei Hanedaninin Kisa Tarihi, Bati Runglar bolumu.
  - ٨ - مقالات عن الثغر الغربي، دار نشر شعب سينكيانج، باللغة الصينية، ج ١، ص ٥ - ٦.
  - ٩ - نفس المرجع السابق، ص ٦.
  - ١٠ - حولية جى الجنوبية، المجلد ٥٩، الجزء الخاص بالآوار
  - ١١ - حولية سلالة سوي، قسم التورالر
  - 12 Hsün Tsang Büyük Tang Zamanında Batı Ülkelerine Seyahat Notları Çince  
12 cilt s 294.296
  - 13 G.Grijimaylo, Zapadniye Mongoliya i Uranxayski kray, Leningrad 1926, 1/11.
- \*\*:
- ١٤ - محمود الكاشغرى، ديوان لغات الترك، ١/٤٤٥ ( باللغة الأويغورية).
  - ١٥ - نفس المرجع السابق، ٨٠/١.
  - ١٦ - محمود الكاشغرى، ديوان لغات الترك، ج ١، المدخل، ص ٤ ( باللغة الأويغورية).
  - ١٧ - نفس المرجع السابق، ٥٩/١.
  - ١٨ - نفس المرجع السابق، ٢٥٤/١ - ٢٥٥.
  - ١٩ - اوزبكستان، تاريخ اتحاد الجمهوريات السوفيتية الروسية، ٤٨/١.
  - 20 - Si - ma Ch'ien, Tarih Notlari, 221. cilt.
  - ٢١ - محمود الكاشغرى، ١/١٥١.
  - 22 - Milli Tarihimizin Ana Kaynaklari, s.21.
  - 23 - Wei Sulalesi Yilligi, " Yuksek Tekerlekli Arabalilar" bolumu.
  - 24 - Chou Sulalesi Yilligi, "Turkler« bolumu.
  - ٢٥ - نفس الموضوع.
  - 26 - Wei - shu, Wei Sulalesi Yilligi, "Yuksek Tekerlekli Arabalilar« bolumu.
  - 27 - Lian - shu, Kuzey Sulaleleri Tarihi, "Bati elleri" bolumu.
  - 28 - Lui Sung, Erken Tang Sulalesi Yilligi, "Uygurlar« bolumu.
  - 29 - Ou Yang - Hsiu, Muahhar Tang Sulalesi Yilligi " Uygurlar« bolumu.
  - 30 - Wei - Jing, Sui Sulalesi Yilligi, " Turalar« bolumu.
  - 31 - Bilge Kagan Kitabesi, dogu yuzu, 29 - 30. Satirlar.
  - 32 - Pan Ku, Han - shu, " Jing Min - fi« bolumunden.
  - \* - سنكيانغ وتعنى المستعمرة الجديدة، وهو الإسم الذى أطلق الصينيون على تركستان الشرقية.
  - 33 - Ou Yang - Hsiu, Muahhar T'ang Sulalesi Yilligi, "kirgizlar" bolumu.
  - ٣٤ - نوع أبيض اللون من حجر اليشم موجود فى الأنهار التى فى ولاية خوتن بتركستان الشرقية.
  - 35 - Xinjiang Sanati, 1985, 4. sayi, s.103 - 104.

36 - □ هذا الرقم هو رقم صحيح وفقاً للأعوام التي كُتبت فيها هذا الكتاب، أما عدد الأتراك في جميع أنحاء العالم الآن يبلغ حوالي ٢٢٠ مليون نسمة (المترجم التركي)

37 - موجز تاريخ الشعوب التي عاشت في شمال الصين في الزمن القديم، باللغة الصينية، ص ٣.

٣٨ - لماذا الاهتمام بعمل التصنيف هنا بدءاً من «اليسار» وليس «اليمين»، ذلك نظراً لأهمية اتجاه اليسار بالنسبة للهون، أما الكوكتورك فإن اتجاه اليمين هو الذي يحظى بالأهمية. فقد كان يابيو الهون يجلسون الشخصيات الهامة في المجلس على «اليسار»، أما سلاطين الكوكتورك فكانوا يجلسون كبار الشخصيات على «اليمين». واعتباراً من الكوكتورك صار موضع «اليمين»، من الناحية البروتوكولية، أهم موضع، واستمر هذا العرف حتى مجيء العثمانيين، ولم يتغير (داخل العثمانيين). (المترجم التركي)

٣٩ - على سبيل المثال عرف اللقب لدى هان شو چنج لى - قوت على أنه چان يو وتطلق أقوام هيونج نو على السماء چنج لى كما كانوا يستخدمون كلمة «قو تو» مقابل كلمة ابن ونظراً لأن الأتراك كانوا يطلقون على السماء طانرى منذ القدم فيبدو أن المؤرخين الصينيين عبروا بكلمة چنج لى بكلمة تنگری في كتابتهم الهيروغليفية وحل المؤلف لكلمة منه بـ طانرى قوت محق على أبعد الحدود.

لماذا يبدأ هنا باليسار وليس اليمين هذا مصدر قلق، لأن أكثر الوجوه احتراماً لدى الهون اليسار أما عند الكوك الترك فاليمين، وكذلك وزراء الهدف العظام كانوا يجلسون أعظم الشخصيات إلى اليسار أما الكوكالترك فإلى اليمين، واعتباراً من الكوك تورك استمرت عادة قبول الناحية اليمنى حتى العثمانيين. (طورغون الماس)

٤٠ - مصادر تاريخ المغول، باللغة الصينية، تموز ١٩٨١، ج ١٩، ص ١٤.

٤١ - \*\*\*\*\*

42 - Hun Tarihiyle ilgili Materyallar Mecmuasi, Cince, s.20.

43 - انطلاقة من نقطة أنه لم تتبق هناك وثيقة مكتوبة من قبائل الهون على وجه الخصوص فإنه من المستخلص تلك النظرات المفرضة للمؤرخين الغربيين على وجه الخصوص ذلك أن الذين لا يعرفون القراءة والكتابة لديهم هم شعب جاهل لا أبجدية له حيث يقول المؤرخ الروسي ل. ن جوسيليف في كتابه المسمى «أقوام الهون»، ذى الحجم الكبير المترجم والمنشور من قبلنا: «يذكر على سبيل المثال في «تاريخ ثلاث حكومات» أنه كان يقينى سفراء في كلا الجانبين بين الصين وفونان وهى الحكومة الكمبودية القديمة لقد زل غير الصين فى كمبوديا بين عامى 245 - 250م. ولقد أمدنا كنج طاي الذى كان يرافقه بمعلومات عن فونان بعد عودته إلى وطنه حيث قال: «توجد لديه كتب ما ويخبئ مذكراته فى الأرشيفات وأشكال كتابته تشبه كتابات الهون. (طورغون الماس)

٤٤ لدينا بعض الأدلة التى توضح أن الهون استخدموا الكتابة الأورخونية بينيسى اعتباراً مما قبل الميلاد بعدة قرون، وقبل فترة وجيزة اكتشف الأثريون الروس مقبرة أمير تركى يحوز منطقة ايصيق گول، وكان يوجد طبق فضى بين مكتشفات مستخرجة من المقبرة وقد كتب على الطبق كتابات بأبجدية أورخون ينيسى المبكرة. وقد أثبت أن هذه المقبرة تعود إلى القرن الخامس قبل الميلاد، وخلاف ذلك فقد أرسل سلطان الهون وسائل عدة مرات إلى حاكم أسرة هان وأنا مقتنع بأن هذه الخطابات قد كتبت بأبجدية أورخون ينيسى. (طورغون الماس)

45 - Pan Ku, Han - shu, "Hunlar«bolumunden.

٤٦ - نفس المرجع السابق، نفس الصفحة.

٤٧ - لين قان، تاريخ العون (باللغة الصينية، ص ٥٣.

٤٨ - نفس الموضوع.

\*\*\*

49 - Pan ku, han - shu,» hunlar«bolumu.

٥٠ - يو - هانج، أميرات الأسرة الحاكمة اللاتى ذهبن عرائس إلى أسرة فو سون (باللغة الصينية) ص ٧١.

٥١ - تلك هى الكلمات التى نقلها ل. ن جو مليوف معتمداً على بيجورين: ليس هناك من يتفوق علينا فى ركوب الخيل فى الحرب. ولهذا السبب فكل الشعوب تخشانا. إننا لم نسحق فى ميادين القتال والآن يتصارع أخوان من نفس القبيلة مع بعضهما من أجل العرش. فإما أن يأتى كبيرهما ويجلس، أو صغيرهما - والعيش أو الموت يجلبهما يكون مشرفاً. إن أحفادنا دائماً يصبحون حكاماً على الشعوب الأخرى وإذا لم تكن الصين قوية فإنها لن تأخذ فى يدها حكم الهون، لماذا نفسد ما صنعه أجدادنا؟، نصبح VASSAL لأسرة هان الحاكمة

معناه أن نحضر حكامنا الماضيين ومعناه السقوط في بنر النسيان.

- 52 - Rene Grousset, Bozkır İmparatorluğu, s. 62
- 53 - Feng Wen - Lien, Çin'in Umumi Tarihi, باللغة الصينية s. 192
- 54 - Hou - Han - shu." Siyenpiler«bölümü
- 55 - Ma Ch'ang - shou, Wu - huanlar ve Siyenpiler, باللغة الصينية s. 173
- 56 - المرجع السابق ص ۱۸۳
- 57 - Lin Kan, Hun Tarihi, s. 181 باللغة الصينية
- 58 - Wei Sülalesi Yıllığı. Yüksek Tekerekli Arabalılar.
- 59 - Rasonyi, Tuna Köprüleri
- 60 - Yang Wei - Yan. Kuzey Sülaleler Dönemindeki Hu'ların Soyadları Hakkında Görüşler. s. 182 باللغة الصينية
- 61 - Mutasar Xinjiang Tarihi, s.85. باللغة الصينية
- 62 - المرجع السابق ص ۸۸
- 63 - Liang Sülalesi Yıllığı, Eftalitler bölümü
- 64 - Özbekistan SSSR Tarihi, 1/135, باللغة الأوزبكية
- 65 - Age., s. 88
- 66 - Xinjiang Enstitüsü Jurnalı, 1982, n. 1, s.33
- 67 - Kamusname, 10. cilt
- 68 - المرجع السابق
- 69 - Kuzey Chou Sülalesi yıllığı, Türkler Bölümü
- 70 - Sui Sülalesi yıllığı, 84. cilt
- 71 - Sui Sülalesi yıllığı, Ch'ang Sung - sheng biyografisi
- \*\*\*
- 72 - المرجع السابق
- 73 - Yang Zhi - chou, Sui, T'ang ve Beş Hanedan Tarihi Uzerine Tezler, باللغة الصينية, s. 16
- 74 - Sih - ma Kuang, Tzu - chih t'ung - chien, s.195
- 75 - Feng Wen - lien, Umumi Cin Tarihi, 3/1, Cince, s.125 - 126.
- 76 - لقب يُطلق علي الحاكم الذي يُدير المنطقة الغربية للدولة التركية القديمة. بمعنى الوالي [المترجم]
- 77 - المرجع السابق ص ۲۷۵.
- 78 - محمود الكاشغري، ديوان لغات الترك، ص ۴۰۴ - ۴۰۵.
- 79 - T'ang Sülalesi Yıllığı, Uygurlar bölümü
- 80 - Feng Wen - lien, Umumi Çin Tarihi, 3/1, s. 154
- 81 - Aynı yerde
- 82 - \*في وسط آسيا تُسمى السيدة التي تقوم بتجهيز العروسة قبل الزفاف وتعليمها بعض الأصول والقواعد، وتقدم لها النصح بـ «ينغه» (المترجم التركي)
- 83 - - T'ang Sülalesi Yıllığı, Uygurlar bölümü
- 84 - Age. , s. 195
- 85 - Muahhar T'ang Sülalesi Yıllığı. Koşunlar (ordula) blm.
- 86 - T'ang Dönemi Yadigarları Külliyyatı. 72. blm
- 87 - Sih - ma Kuang, Tzu - chih t'ung - chien, blm.227

- 88 - Xinjiang Tarihiyle İlgili Araştırmalar. 1985, no. 1, s. 28 (باللغة الصينية)
- 89 - T'ang Dönemi Yarlıkları Külliyyatı, blm. 72
- 90 - Muahhar T'ang Sülalesi Yıllığı, Tibetliler blm., bab 196
- 91 - يُقصد بكلمة «خو» هنا الأويغور
- 92 - Xinjiang Tarihiyle İlgili Araştırmalar, 1985, n. 1, s.32 (باللغة الصينية)
- 93 - مباليق تعني "مدينة" في اللغة التركية القديمة
- 94 - Sih - ma Kuang, Tzu - shih t'ung - chien, blm. 226
- 95 - Wei Sülalesi Yıllığı, Yüksek Arabalılar blm.
- 96 - المرجع السابق
- 97 - المرجع السابق
- 98 - Xinjiang Gazetesi, 24 Şubat 1981 (باللغة الأويغورية)
- 99 - Özbekistan SSS Tarihi, 1/47b
- 100 - نفس المصدر
- 101 - Gafurov B.G. İstoriya Tadjikov Srednem Azii, çast 2, glava 3, s. 36 ترجمة عن (الصينية)
- 102 - Özbekistan SSSR Tarihi, 85/1
- 103 - المرجع السابق
- 104 - Pan Ku, Han Sülalesi Yıllığı, Hunlar blm
- 105 - Özbekistan SSSR Tarihi, 105/1
- 106 - المصدر السابق، ص 109
- 107 - المصدر السابق ص 114
- 108 - المصدر السابق ص 116
- 109 - المصدر السابق ص 118
- 110 - المصدر السابق ص 121
- 111 - نفس المصدر
- 112 - نفس المصدر
- 113 - Lian Sülalesi Yıllığı. Eftalitler blm
- 114 - Özbekistan SSSR Tarihi, 1/120
- 115 - اوزبكستان، تاريخ جمهوريات الاتحاد السوفيتي □ ج 1، ص 293.
- 116 - A.Dilcar, 'Kutatgu Bilik Arastirmalari', s...15
- 117 - وتعنى اله القمر (المترجم العربي)
- 118 - وتعنى اله الشمس (المترجم العربي)
- 119 - أوزبكستان، تاريخ اتحاد الجمهوريات السوفيتية الروسية، 1/266
- 120 - يوشى لياوتى، البوذية والغرب، ص 283.
- 121 - مدخل لتاريخ الترك العام، ص 73.
- 122 - نفس المرجع ص 52
- 123 - Zeki Velidi Togan, Türk - Tatar Tarihi, s. 17
- 124 - Mahmut Kaşgari, Divanu Lügat - it - Türk (الأويغورية باللغة، 324/111)
- 125 - المصدر السابق ص 565/1
- 126 - المرجع السابق، 1/448.



- 127 - Yu - ši Liao - ti, Garbda Buddizm, s. 219 - 218  
 128 - Özbekistan SSSR Tarihi, 271/1  
 129 - Bartold, Ocerki istorii Semirecyas. (بالأويغورية) 25  
 130 - Özbekistan SSSR Tarihi, 277 - 276/1

١٣١ - المرجع السابق ص ٢٧٣-٢٧٤.

- 132 - Kaşgarlı, Duvanü Lügat - it - Türk, 1/196  
 133 - Age., 111/489  
 134 - Age., 426/1  
 135 - Age., 254/111  
 136 - Yılmaz Oztuna, Büyük Türkiye Tarihi, 382/1.  
 137 - Sykes, Afganistan Tarihi, s. 396.  
 138 - Sykes, afganistan tarihi, s. 342

١٣٩ - الأثر الذي يتحدث عنه الكاتب هو الكتاب المسمى بـ «ملحقات الصحاح»، وهو عبارة عن إضافات التي أضافها جمال القارشى إلى الترجمة الفارسية لقاموس أبي نصر اسماعيل الجوهري المسمى «الصحاح». وهذا الكتاب يتضمن معلومات مفصلة عن شيوخ المغول وعلمائهم وملوكهم، وأيضاً عن الأسر التركية الحاكمة القديمة التي كانت في تركستان، ومعلومات عن آسيا الوسطى وثقافتها. والنسخة الوحيدة لهذا الكتاب موجودة في المكتبة الوطنية في لندجراد. (المترجم التركي).

١٤٠ - قيلان تعني باللغة الفارسية كبير\*

- 141 - Bartold, Yedisu Tarihi üzerine Tedkikler , s. (باللغة الأيغورية) 39  
 142 - Gafurov B., Tacikler, s. «الصينية باللغة» 236  
 143 - Cen Zhonmian, Türk Tarihi, s. «الصينية باللغة» 1048  
 144 - Divanu Lüğat - it - Türk s. 122  
 145 - Yusuf Has Hacip, Kutadgu Bilik, s. 1009  
 146 - Mahmut Kaşgari, Divanu Luğat - it - Türk, 195/1  
 147 - Reşat Genç, Karahanlı Devleti Teşkilatı, s. 291

١٤٨ - ديوان لغات الترك ٣١٤/١١١ - ٣١٥

١٤٩ - كلمة «توتكاك» تعني بالأويغورية القديمة مكافحة التجسس

١٥٠ - كلمة «يازاك» تعني بالأويغورية القديمة جاسوس

١٥١ - ديوان لغات الترك ٥٤/١

١٥٢ - المرجع السابق ٥٦/١

١٥٣ - المرجع السابق ٤٧٧/١

١٥٤ - المرجع السابق ٢/١.

١٥٥ - هذه المنارة واسمها (خوجا كالان) تقع في مدينة بخارى. (المترجم العربي)

١٥٦ - أوزبكستان، تاريخ الاتحاد السوفيتي الروسي، ج ١، ص ٥٦٧.

١٥٧ - الكاشغري، ديوان لغات الترك، ١/٢.

١٥٨ - اليشم: هو نوع من الأحجار النفيسة المعروفة في تركستان. (المترجم العربي)

١٥٩ - كانت كلمة إدى بمعنى الإله، أما كلمة إديقوت فتعني الشخص الذي باركه الإله. (المترجم التركي)

- 160 - Karayev U, Istoriya Gosudarsiva Karahaidov, s. 167.

- 161 - Rene Grousst, Bozkir Imperatorlugu, s. 224

١٦٢ - أوزبكستان، تاريخ اتحاد الجمهوريات السوفيتية الروسية، ٣٠٨/١.

- ١٦٣ - المولى ميرصالح الكاشغرى، جنكيزنامه، ص. ٢٤ - ٢٥ باللغة الأويغورية.
- ١٦٤ - المرجع السابق، ص ٢٥٩.
- ١٦٥ - تاريخ المغول قصة متعلقة ببورتجوق ارت تكين.
- ١٦٦ - بحوث شينجيانج (تركستان الشرقية) للعلوم الاجتماعية، ١٩٨٥، ص ١٠٩ - ١١١.
- ١٦٧ - المرجع السابق.
- ١٦٨ - معلومات عامة عن الثغر الغربى، ٩/١
- ١٦٩ - الكاشغرى، ديوان لغات الترك ١٥٢/١
- ١٧٠ - موجز تاريخ الأدب الأويغورى، قازاقستان، ص ١١.
- ١٧١ - المرجع نفسه ص. ٩.
- ١٧٢ - اوزبكستان، تاريخ اتحاد الجمهوريات السوفيتية، ٢٩٣/١.
- ١٧٤ -
- ١٧٥ - نفس المرجع السابق، ص ٧٣.
- ١٧٦ - نفس المرجع السابق، ص ٧٤.
- ١٧٧ - محود الكاشغرى، ديوان لغات الترك، الطبعة التركية ٣٠٧/١.
- ١٧٨ - نفس المرجع، ٣٢٧/٣.
- ١٧٩ - نفس المرجع السابق ٣٢٧/٣.

